الندوة العالمية للشباب الإسلامي

الإسلام والحضارة

ودور

الشباب المسلم

أبحاث ووقائع اللقاء الرابع
للندوة العالمية للشباب الإسلامي

المنعقد في الرياض من ٢٠ - ٢٧ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ الموافق من ١٨ - ٢٥ مارس ١٩٧٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الله يأمر بالعدل والإحسان

وإيتاء ذي القربى وينهى

عن الفحشاء والمنكر والبغي

يعظكم لعلكم تذكرون

صدق الله العظيم

الإسلام والحضارة

ودور

الشباب المسلم

الباب الثالث

تحديات الحضارة الغربية المعاصرة

ثورة الجنس في عالمنا المعاصر « نظرات طبيب مسلم »
للدكتور : حسـان حتحوت
مشكلات الأقليات الإسلامية التي تعيش بين أغلبيات مسيحية
للدكتور : عبـده كاسـوزي

دراسة مقارنة للحضارة الإسلامية والحضارة الغربية المادية ودور الشباب المسلم

للدكتور محمد منظور عالم

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الحضارة لا يمكن تشبيهها بالبدن الذي تنمو أعضاؤه في آن واحد، وكذلك لا يمكن تشبيهها بلعبة رياضية تقذف فيه الكرة من هنا إلى هناك، وإنما هي عملية تلاحم منظم تندمج فيها الآراء والمظاهر الثقافية المختلفة. كما أن الحضارة ليست ظاهرة طبيعية ساكنة أو جامدة ولكنها ظاهرة تموج بالحركة والنشاط، وتعتمد القوى المحركة لهذه الظاهرة أساساً على العقيدة الفكرية التي تشكل قاعدة هذه الحضارة.

وسنتناول في هذا البحث ما يلي :

- العقائد الفكرية للحضارة الإسلامية.
- تأثير هذه الأيديولوجيات ـ تحليل مقارن.
- دور الشباب المسلم.

إن الحضارة التي نعيش فيها ونتنفس هواءها أصبحت تعرف بين الناس باسم « الحضارة الغربية »، وهي أيديولوجية موضوعة « من صنع الإنسان »، تستمد أصولها من الفلسفات الإغريقية والرومانية والمسيحية، أي أن الحضارة الغربية ـ بعبارة أخرى ـ هي حصيلة وجماع ما وصلت إليه المعارف البشرية والثورة على اضطهاد الوثنيين المسيحيين. غير أن لهذه الحضارة الغربية نجاحها العظيم الذي يتمثل في النمو الاقتصادي الضخم

والتقدم العلمي والتكنولوجي وتوحيد المسافات في الكرة الأرضية وما يكتنف الحياة من دعة وطمأنينة اقتصادية. ولكن « يجب أن ننظر إلى كل ظاهرة اجتماعية في إطار روابطها وتطورها التاريخي، كما أن كل شكل من أشكال التنظيم البشري يظهر إلى حيز الوجود وهو يحمل في طياته بذور فنائه »[1].

والمقومات الأساسية للحضارة الغربية هي الآتي :

- العلمانيـــة
- الليبراليـــة (النزعة التحررية)
- الديمقراطيـــة
- القـــوميـــة
- المـــاديـــة

وقد غرست بذور العلمانية على يد فلاسفة الإغريق منذ الفيـن وخمسمائة عـام خلت عندما أعلنوا أن الجنس البشري في مقدوره أن يبلغ الكمال دون أدنى مساعدة من قوى ما وراء الطبيعة، وباستخدام ملكاته العقلية المجردة لأن قيمة الإنسان تعتمد على عمله لا عقيدته. وقد نبتت بذور النزعة اللادينية وترعرعت تحت سمع المسيحية وبصرها من خلال الحركة الرهبانية[2] بالإضافة إلى محاكم التفتيش التي لم تعرف الرحمة إليها طريقاً والتي أقامها المنشقون عن الكنيسة[3] والتي أحدثت رد فعل عنيف ضد فلسفة الكنيسة الميتافيزيقية. وهكذا نجد أن بذور الزندقة، التي خرج شطؤها في عصر النهضة[4]، قد استوت على سوقها واستغلظت في الفترة التي سبقت نشوب الثورة الفرنسية، وهي الفترة المعروفة بعصر الرشد أو التنوير[5].

وفي ضوء تلك الحقائق التاريخية المفزعة لم يكن هناك مناص من نشوء كراهية شديدة للكنيسة والتمرد عليها. فراح كبار المفكرين يندددون برجال الدين المسيحي وبكافة الأديان من قبيل التناظر والتشابه على اعتبار أنها خرافات وتعصب، وساووا بين العلمانية و « التنوير ». وهكذا بعـد

(١) انظر الحاشية ص ٢.

التنديد بكافة القيم الدينية التي تتجاوز خبرة البشر، وبالفلسفة الميتافيزيقية للكنيسة، ظهر هنالك مبدأ جديد ومختلف أشد الاختلاف يستند إلى حواس الإنسان : السمع، والبصر، والشم، واللمس، أو الإدراك عن طريق عضو حسيّ وهو حقيقي تماماً وله قيمته. « وفيما وراء هذه الحقيقة الحسية إما أنه لا يوجد شيء، أو إذا كان هناك شيء لا نستطيع أن نحسه فإنه يعادل شيئاً غير حقيقي وغير موجود ومن ثم يمكن تجاهله وإغفاله إغفالاً تاماً... ذلك باختصار هو الأساس الذي قام عليه بنيان الحضارة الغربية »[٦].

وقد ظهرت فكرة التحررية جنباً إلى جنب مع العلمانية « لإعفاء الإنسان العادي من قيود الشعائر والطقوس الدينية »، وإن كانت قد تبدل حالها تقريباً. ومع ظهور المذاهب المختلفة التي أسهمت هي الأخرى في تموين هذه الآراء. « فالاكتشافات الجغرافية، وعلم الكونيات الجديد، والاختراعات التكنولوجية، وظهور ميتافيزيقيا علمانية مجددة، وأهم من ذلك ظهور أشكال جديدة للحياة الاقتصادية، هذه التطورات جميعها أسهمت بمقدار في تكوين الآراء الباعثة للحضارة »[٧]. ولقد كانت في الواقع ظاهرة صحية لأنها أيقظت الجماهير من غفوتها، كما كانت أشبه بعملية تشريحية وجراحية للكنيسة ونظامها اللاهوتي وأخلاقها الاجتماعية. كما فتحت الطريق أمام التحليل الدقيق لطبقة النبلاء، والأساس الاجتماعي الاقتصادي السياسي للمجتمع باستخدام مقص الجدل والمحاجاة وتشكيل مصيرهم على النحو الذي يريدون. ولكن هذا المقص وقع في أيدي « الرجعيين ». فقد استخدم العلماء أسلوب النقد المنطقي لكي يعلنوا أن الحرية عنصره، وأن القيود بطبيعتها عنصر الشر، وسعوا للتخلص من كل ما يقيد حرية الفرد في سعيه للتعامل مع الحياة[٨]. ولا جدال أن هذا المذهب كان له تأثيره العميق على كافة نواحي الحياة ومؤسساتها.

أما العنصر الثاني الذي تتألف منه الحضارة الغربية فهو مبدأ الديمقراطية، وهو المبدأ الذي أقصى الرب والإله والخالق والرازق من ساحة

انظر الحاشية

السلطان والفنون. وقد آلت السيادة إلى أيدي الشعوب بدلاً من نوابها وممثليها لأنه من المعتقد أن الجماهير هي المصدر الحقيقي للسلطة السياسية وصاحبة الحق في استعمال السيادة مما قضى على ذلك التقسيم الثنائي بين الملك والرعية، فقد أصبح الشعب هو الحاكم والمحكوم، ومن المعتقد أنه يمكن التوفيق بين السيادة والحرية من خلال هذه المطابقة (بين الحكومة والمحكومين)[٩]. ومن هنا تعتبر إرادة الشعب أو الإرادة العامة معصومة مثلما كانت العصمة مكفولة لإرادة الملك في العصور الوسطى. فليس لأحد أي حق في أن يتدخل أو أن يفرض قيوداً من أي نوع على إرادة الشعب. وهكذا دفن مبدأ الحق الإلهي للملوك في أعماق الأرض، وفوق قبره ارتفع مبدأ جديد يعرف بحق المنفعة.

أما أخطر العناصر المكونة للحضارة الحديثة وأشدها فتكاً فهو مبدأ القومية، وله وجهان : أحدهما خارجي، والآخر داخلي. فمنذ مطلع القرن التاسع عشر تحول عنصر الأمة والمجتمع والشعب والحكومة من المنفعة والروابط السياسية والقوى التاريخية والعاطفية إلى مبدأ الشعب والسيادة القومية نتيجة للديمقراطية، وطبقاً لهذا المذهب أصبح لكل أمة الحق في إقامة حكومتها الخاصة المستقلة بإرادة شعبها، غير أن هذا المذهب يخدع الناس بتأكيده على أن حقوق الأمة التي يفترض أنها تمثل رغباتها تعلو فوق كافة الحقوق الأخرى. فالقومية الحديثة تعني أن المكانة الرفيعة والعظمة لا تتعلق بتحسين أحوال شعب ما فحسب وإنما يرتبط بها أيضاً إبادة جميع الشعوب الأخرى من ناحية، كما يرتبط بها من ناحية أخرى « الأسلحة شديدة التفجير والقنابل الذرية وأشعة الموت والوطنية الجامحة العمياء والتي تسعى بحق القوة القادرة على انتزاع الاحترام والاهتمام ». هذا ما لدينا عن الوجه الخارجي للقومية.

أما في الداخل فإن مبدأ سيادة الأمة يهدف إلى تبني مصالح الأفراد وتحسين قيم البشرية كما يهدف إلى إنجاز حق الأفراد، ولكن « الأمة تصبح هي القوة الشمولية العليا[١١]. أما الفرد فلا يعدو أن يكون مجرد خلية في الكائن الحي أو أداة ثانوية لا حيلة لها في الآلة الكبرى. فالفرد يعيش من

أجل الأمة. وتبدو الأمة كنظام خاص ولا يسمح لأي شيء بأن يتدخل في سياستها(١٢).

والأمة لا تهتم بالأخلاق والفضائل وإنما تهتم فقط بما يحقق سلطة السيادة ويحافظ عليها، وقد وفق « الهرفريك » وزير الداخلية الألماني الراحل في رأيه الذي أعلنه في روح القومية عندما قال : « إن خدمة هتلر تعني خدمة ألمانيا، وخدمة ألمانيا تعني خدمة الله ». « إن ما يقرره هتلر هو الصواب وسيظل صواباً إلى الأبد »(١٣). ومن هنا وفي مثل هذه الظروف تبدو مثل السلام والتآلف وحكم القانون وحقوق الأفراد مجرد كلمات جوفاء، فقد تحولت الوطنية إلى استعمارية عدوانية(١٤).

وإلى جانب هذه المقومات هناك عنصر آخر يمثل أحد أهم المقومات التي تتكون منها الحضارة الحديثة ألا وهو « المادية ». إن النمو المادي الهائل والضخم قد أعمى أو غشى أبصار الجماهير بل والمفكرين أما أنه قد جعل الإنسان يعتقد أن المادة هي البديل لله وأنه فيما وراء المادة لا يوجد هنالك شيء. لقد هبط الإنسان من مرتبة الكائن البشري إلى مرتبة الكائن الحيواني. ومن المظنون أيضاً أن الإنسان لا يعدو أن يكون مركباً من الالكترون والبروتون ومجموعة من الاستجابات لبعض المثيرات والدوافع خليط من الطاقات الانفعالية السيكلوجية وفقاً للتحليل النفسي. وهكذا أصبحت شرعة الزندقة وإنكار الدين حيوية للغاية وتطرفت إلى حد أن الله قد نفي إلى أرض نائية وحلت مكانه شهوة لا حدود لها للانغماس في الشئون الدنيوية. إن الرجل الأوروبي العادي ـ سواء أكان ديمقراطياً أو فاشستياً، وسواء أكان رأسمالياً أو بولشفياً عاملاً يدوياً أو مفكراً لا يعرف سوى ديناً إيجابياً واحداً فحسب وهو عبادة التقدم المادي. وقد أدى هذا الاتجاه إلى نشوء نوع من الأخلاق البشرية لا تتعدى نطاق المنفعة العملية وتنحصر معاييرها العليا لقياس الخير والشر في النجاح المادي. وبذلك أصبح العالم الآن أشبه بالعمل التجاري ـ مشروع عملي ونشاط اقتصادي : « فالأمة هي مؤسسة تجارية، والحكومة هي متجر البيع، ودبلوماسيوها باعتها المتجولون الذين يسعون لإبعاد منافسيها وانتزاع الأسواق الجديدة منهم، أما رجال إعلامها ومفكروها فهم المحاسبون الخبراء في تلك المؤسسة(١٥) ».

لقد تناولنا فيما سلف الجوانب الأيديولوجية في الحضارة الغربية المادية، ومن الناحية الأيديولوجية نرى أن أبرز مظاهر الحضارة الغربية المعاصرة أو قاعدتها الصلبة التي تقوم عليها هو « الاتجاه العلماني » لهذه الحضارة. ولقد بلغت نزعة الزندقة هذه حداً من التطرف جعل الجماعات الدينية المنظمة نفسها تتحول إلى طريق العلمانية شيئاً فشيئاً. فبدلاً من أن يقدم رجال الدين ترياقاً لإبطال مفعول السم نجدهم يتغاضون عن تحويل الكنائس والمعابد إلى صالات للحفلات الصاخبة وقاعات لمآدب الزفاف وملاعب رياضية للشباب[١٦] ».

التأثير والانجازات :

مما لا شك فيه أن عصر النهضة يعتبر نجاحاً باهراً إذا نظرنا إليه كحركة فكرية وتقدم علمي وتطور تكنولوجي ونمو اقتصادي، فليس هناك فرع من فروع المعرفة (المظاهر المادية للحياة) لم تظفر بإسهام ضخم من جانب هذه الحضارة. وموجز القول أنها قد حققت تقدماً مادياً لم يسبق له مثيل، فقد تمت لها السيطرة على قوى الطبيعة واستغلالها، وأوجدت مجتمعاً صناعياً وتكنولوجياً لا نظير له في عظمته وروعته وكفاءته، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً في التحكم في المشاعر الدنيا داخل نفسها وبناء علاقات إنسانية على أسس من الأخلاق والقيم الروحية والحب والتضحية والثقة والتقوى والمعروف. ومن هنا أصبح لديها « خادم ممتاز » « وسيد شرير ».

وهنا يثور سؤال بطبيعة الحال : هل هذا التقدم المادي كان من صنع « عصر التنوير » أو « حركة النهضة » ؟ والجواب أن هذا التقدم المادي هو الحصيلة الطبيعية لطبقات الفكر التي أرستها الحضارات العديدة التي أفرزت رصيداً من الأفكار التي تم الانتفاع بها واستثمارها في سبيل تحقيق هذا التقدم العظيم.

« إن هذا العالم القديم كان جاهلياً كما رأينا، فعلم الفلك والرياضيات كانت علوماً أجنبية مجلوبة لبلاد الإغريق ولم يتهيأ لها أن تتأقلم

تماماً مع الثقافة الإغريقية. لقد برع الإغريق في الترتيب والتصميم ووضع النظريات، أما أساليب البحث الدؤوب وتجميع المعارف الإيجابية والأسلوب العلمي الدقيق والملاحظة التفصيلية المستأنية والاستقصاء التجريبي فكلها أساليب غريبة على المزاج الإغريقي. وكانت الاسكندرية في عهدها الإغريقي هي وحدها التي سارت على المنهج العلمي في العالم القديم. وقد نشأ ما نسميه بالعلم في أوروبا نتيجة لظهور روح جديدة تسعى للبحث والتحقيق وأساليب جديدة للدراسة والاستقصاء وأساليب التجربة والملاحظة والقياس وتطور العلوم الرياضية بشكل لم يعرفه الإغريق. تلك الروح وهذه الأساليب دخلت العالم الأوروبي على أيدي العرب ».[١٧] إن ضخامة التطور المادي والتقدم العلمي والتكنولوجي كان من صنع الحضارة الغربية وهو النتيجة الطبيعية لاستغلال خبرة العقول والمواهب سعياً وراء بلوغ هدف واحد وهو تحقيق الحد الأقصى من القوة والسرعة والكفاية واللذة والراحة والرفاهية في أقصر وقت ممكن : فلا شأن لها بالقيم الأخلاقية والروحية وإنما تحركها وتوجهها المادية المجردة والعلمانية[١٨].

إن هذا التطور المذهل لعلوم الفيزياء والاحياء يكفي لكي يعهد للفكر بدور توجيه نشاط الإنسان ووضع قواعد الأخلاق ؟ كلا ! « إننا نملك كذا من المشاهدات والملاحظات التي جمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والأسرار الدينية العظيمة لكافة العصور. لقد اكتشفنا جوانب محددة فقط من أنفسنا ولكننا لا نفهم الإنسان ككل. إننا نعرف الإنسان على أنه يتألف من أجزاء متميزةولكن حتى هذه الأجزاء نفسها إنما هي من تأليف أساليبنا ومن ثم فإن جهلنا بأنفسنا مطبق ومعرفتنا بأنفسنا بدائية للغاية »[١٩]. وهكذا نجد أن الفكر وحده بلا عون من الوحي الإلهي، والعلم بلا توجيه من الإيمان بالمبادئ الأخلاقية، « قد جلبا للعالم فوضى عارمة ». إن الإنسان الحديث، وقد طغت عليه تماماً نتائج نشاطه العقلي، لم يعد يحيا حياة مفعمة بالعواطف أي من داخله، ولكنه في عالم الفكر يعيش في صراع سافر مع نفسه وفي مجال الحياة الاقتصادية والسياسية يعيش في صراع سافر مع الآخرين. لقد استحوذ عليه الواقع بمعنى المصدر الحالي المنظور للحس والشعور بحيث انفصل تماماً عن أعماق ذاته وكيانه والتي لم تسبر أغوارها

بعد :[٢٠] وعلى ذلك فإن الحضارة الحديثة قد تضفي على الإنسان القوة ولكنها لن تضفي عليه البصيرة والإلهام. وتلك هي الغلطة الكبرى والفادحة التي وقعت فيها هذه الحضارة.

هل هذا التطور التكنولوجي والميكنة دواء عام لكل هذا التقدم المادي بلا حدود ؟ إن الميكنة المكثفة والتطور التكنولوجي قد حول أمريكا من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي فأصبحت شبكة من الطرق السريعة، ونظم النقل الجمالي وأقيمت مهابط لطائرات الهيلوكبتر فوق أسطح المباني الشاهقة، وتم التغلب على قيود النقل وازدادت الأبنية علواً وارتفاعاً وزاد عدد السكان. لقد توقفت معظم المدن الأمريكية الكبرى عن النمو الآن. ومن بين المدن العشرة الكبرى في أمريكا نجد خمساً منها ـ هي نيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وديترويت وباليتمور ـ قد قل عدد سكانها في الفترة من ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ في حين لم يطرأ تغير على سكان واشنطون... وأصبحت مراكز هذه المدن تتميز بالضوضاء والتلوث والجريمة وإدمان المخدرات والفقر وإضرابات العمال وانهيار الخدمات الاجتماعية. لقد تدهور نمط الحياة في قلب المدينة وتوقف النمو جزئياً من جراء مشكلات لا توجد حلول تقنية لها[٢١] ».

إن كافة مقومات الحضارة الحديثة مهيأة لإضعاف كيان الأسرة بقدر الإمكان بما يترتب على ذلك من آثار مهلكة على الصحة العقلية والعاطفية والروحية للإنسان، لقد بدأ نظام الحياة الأسرية في التفكك بل في التداعي والانهيار كما صرح بذلك رأي « بونفنبرز » خبير تنمية الطفل في جامعة كورفيل حيث قال « هناك عديد من الشواهد والأدلة التي تؤكد ذلك. فنحن نرى أن الأسرة القديمة التي يمتد تاريخها على مدى عدة أجيال قد اختفت بالفعل بكل أفرادها في أمريكا منذ الحرب العالمية الثانية وحتى نواة الأسرة الصغيرة التي تتألف من الأم والأب والأطفال بدأت تضمحل هي الأخرى. ونجد الآن أن أكثر من سدس مجموع الأطفال في بلادنا يعيشون في عائلات تضم أحد الأبوين فقط وهي في العادة الأم التي أصبحت على رأس أسرة مستقلة وهي غالباً ما ترتبط بعمل يتطلب دواماً كاملاً. وإلى جانب

ذلك يرتفع عدد الأمهات غير المتزوجات ارتفاعاً صاروخياً على الرغم من تحديد النسل وهذه التطورات كلها قد تركت كثيراً من الأطفال دون رعاية على الإطلاق ». كما يشير إلى أن « ما يربو على ٥٠٪ من النساء اللاتي لديهن أطفال يتعلمون بالمدارس يعملن الآن. وكذلك الحال بالنسبة لأكثر من ثلث النساء اللاتي لديهن أطفال تقل أعمارهم عن الثالثة. لقد أصبحنا الآن في وضع نجد فيه الأب يعمل والأم تعمل أيضاً والسؤال هو من ذا الذي يرعى أطفال أمريكا ؟ إن الجواب على هذا السؤال يدعو للانزعاج فإن عدد الآباء والأمهات الذين يقومون بواجب رعاية لأطفال يتضاءل يوماً بعد يوم ».

إن الإحصاءات التي تتناول التغييرات الأساسية التي طرأت على الأسرة الأمريكية تدل على وجود اتجاهات حيوية بغض النظر عن التفسيرات التي تستخلص من هذه التغييرات :

- فقد تضاعف معدل الطلاق خلال العشرين سنة الماضية.
- من المقدر أن اثنين من كل خمسة أطفال ولدوا في هذه الحقبة سيعيشون في بيت يرعاه أحد الأبوين لمدة لا بأس بها من فترة شبابهم.
- زاد عدد الأسر التي ترأسها النساء إلى أكثر من الضعف خلال جيل واحـد.
- وهناك العدد المتزايد من الأولاد غير الشرعيين حيث بلغت نسبتهم ١٥٪ من مجموع المواليد.

ولقد كان لتدهور الحياة الأسرية آثاراً خطيرة عديدة على الشباب فأصبح الانتحار يمثل السبب الثاني في ارتفاع عدد الوفيات بين الشباب وشاع استعمال المخدرات كما انتشرت جرائم الأحداث.

ويقول الدكتور هارولدف. راث كبير الأطباء النفسيين في مؤسسة فينجز إنه لا غرابة في أن تقدر اللجنة الرئاسية للصحة العقلية أن ثمانية ملايين طفل أمريكي في حاجـة إلـى مساعـدة عاجلـة لعلاجهـم من الاضطرابات النفسية ونظراً لتدهور الأسرة فليس هناك ما يدعو للدهشة عندما نعلم أنه في خلال عام واحد وقع ٧٠٠٠٠ اعتداء على المدرسين و ١٠٠ جريمة قتل في المدارس وإتلاف لممتلكات مدرسية تبلغ قيمتها بليون

دولار ». ولقد ازداد الآن التساهل في تربية الأطفال كما ازداد انهيار الأسرة وأخذ جنوح الشباب يتزايد بسرعة.

إن نبذ كافة القوانين العلوية والقيم الأخلاقية قد عرض البشرية للخطر وانحدر بالإنسان إلى مرتبة الحيوان. فقد تفشى النشاط الجنسي بشكل عنيف وفي سان فرانسسكو احتشدت جماعة من النسوة واللوطيين (جبهة تحرير المرأة وجبهة تحرير أنصار المتعة الاجتماعية). وراحوا يهتفون « فيتنام فاحشة، الجنس ليس بفاحشة ».

إن جمعيات الجنس التي تنادي سواء بإباحة اللواط والشذوذ الجنسي بين الرجال والنساء تصدر العديد من المجلات وتحظى مطالبهم ومظاهراتهم باهتمام التلفزيون الذي يحرص على تغطية أخبارهم كما تنتج الأفلام السينمائية دفاعاً عنهم. ويزداد الاهتمام والتأييد دوماً لقانون يدعو لإباحة الإجهاض ولقانون آخر يبيح الطلاق بموافقة الطرفين أو حتى على أساس قرار من جانب واحد ولقانون ثالث يسمح بالشذوذ الجنسي.

إن « مادية » الغرب « وزندقته » قد جعلت العالم بأسره مرتعاً لاستغلاله واستعماره، وإنه لمما يدعو للسخرية أن عصر الديمقراطية التحررية كان هو نفسه عصر الاستعمار، فعندما كانت باريس تدوي جنباتها بالشعارات الثورية التي تنادي بالحرية والإخاء والمساواة كانت القوات الفرنسية تسحق الدول المستقلة في أفريقيا وجنوب شرق آسيا وتخضعها لنير استعمارها، وفي الوقت الذي كانت الديمقراطية لها اليد العليا في انجلترا وأمريكا كان يجري إخضاع الصين والهند، ولقد استعبدت هاتين الدولتين بلا هوادة ودمرت ثقافاتها بطريقة لا تمت للإنسانية بحال من الأحوال. فقد خنقت الصناعات الهندية لإفساح الطريق أمام صناعة النسيج في لانكشير وتم إفقار الصين لكي يتحقق الثراء لبريطانيا وأحرقت مكتبة شنغهاي العظيمة لغير ما سبب سوى إشباع التعطش الاستعماري للسيطرة. وتعرضت روسيا لغزو الجيوش الغربية في الأعوام ١٦١٠، ١٧٠٩، ١٨١٢، ١٩١٥، ١٩٤١ وتعرضت شعوب أفريقيا وآسيا لموجات متعاقبة من الاعتداءات الاستعمارية في شكل المبشرين والتجار والمغامرين الوافدين من الغرب منذ القرن

الخامس عشر. وفي تلك الفترة نفسها استعمر الغرب أمريكا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا وغربها وأباد السكان الأصليين أو أخضعهم لسيطرته. وتم استرقاق ملايين الإفريقيين الذين نقلوا عبر المحيط الأطلنطي للعمل في خدمة المستعمرين الأوربيين في الامريكتين كآلات حية تعمل على إشباع نهم سادتهم الغربيين إلى الثراء. وبذلت كل المحاولات للقضاء على الثقافات المحلية في كافة أرجاء آسيا وافريقيا وزرعت في عقول الجيل الجديد بدقة متناهية بذور التمرد على حضارتهم الأصلية وتم اغتيال عقولهم وفكرهم عن طريق التعليم وأجهزة الإعلام. فلا يسمح أحد بظهور ثقافاتهم وحضاراتهم في الوقت الذي فرضت عليهم فيه نظم الغرب.

من هنا يتبين لنا بالتحليل الدقيق للحضارة الحديثة أن نسيجها متعدد الألوان قد نسج من هذه النزعة الدنيوية والعلمانية ومبدأ المنفعة. وترتب على ذلك أن نظام الأسرة بدأ يتفكك وأخذت الهوة التي تفصل بين الأجيال تزداد وتتسع وانحدرت العلاقات الاجتماعية إلى الدرك الأسفل وتفشى الاستغلال الاقتصادي وأصبح التوسع السياسي هو الاتجاه الغالب واتسع نطاق المنافسات الدولية وتمزقت أوصال المجتمع الإنساني بفعل التوترات الثقافية بينما أخذ الظلم الاجتماعي يمزق الإنسان.

لقد تناولنا فيما سبق الأساس الأيديولوجي للحضارة الغربية وانجازاتها وتأثيرها على المجتمع، وسنلقي الآن نظرة على عقيدة الإسلام التي تقوم على أساسها حضارته.

ينبغي لنا في البداية أن نفهم معنى كلمة « الإسلام »، فهي كلمة عربية تعني الخضوع والاستسلام والطاعة والسلام. إن الإسلام كدين يدعو للخضوع التام والطاعة لله ولهذا سمي بالإسلام.

إن الإسلام توجيه إلهي وهو ليس رسالة جديدة أتى بها محمد ﷺ وإنما هو رسالة جميع رسل الله إلى البشرية ـ وهي الخضوع التام من جانب الإنسان لله ـ وهو الدين الوحيد الذي أنزله الله للبشر منذ أن خلق آدم مروراً بنوح وابراهيم وموسى وعيسى حتى محمد ﷺ (القرآن الكريم سورة ٢ آية ٣٦، سورة ٣ الآيات ١٩، ٦٧، ٨٣ ـ ٨٥، سورة ١٠ الآيات

٧٢، ٨٥، سورة ١٢ الآية ١٠١، سورة ٥ الآيات ٤٤، ١١١، سورة ٢٧ الآية ٤٤). غير أن الرسالة الأصلية تعرضت للتحريف والتغيير والتشويه والنسيان كما أدخلت على نصوصها تحريفات وزيادات وقد أراد الله إزالة هذه التحريفات والإضافات وأنزل الإسلام بصورته الأصلية النقية للبشرية عن طريق محمد ﷺ ولما كان محمداً ﷺ خاتم النبيين فإن الكتاب الذي نزل عليه قد حفظ كلمة كلمة (القرآن الكريم سورة ٦٢ آية ١٣، سورة ١٥ آية ٩، سورة ٨٥ الآيات ٢١ ـ ٢٢، سورة ٣ الآية ٨٤) لكي يكون مصدراً للتوجيه الإلهي.

إن القرآن الكريم يدعو الناس جميعاً وآل ابراهيم إلى كلمة سواء من أجل تحقيق الهدف المشترك الذي يمكن البشرية من أن تعيش في سلام مع ربها بالخضوع لمشيئته (القرآن الكريم سورة ٣ آية ٦٤). كما يدعو الإنسان لأن يسلم نفسه لخالقه فحسب وأن يوفق بين إرادته وبين مشيئة الله وأن يكون خليفة في الأرض بهذا الاستسلام النبيل (القرآن الكريم سورة ٦ الآيات ١٦٢ ـ ١٦٣).

ومن الناحية العقائدية فإن التوصية والرسالة والإيمان بالآخرة هي الأسس التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية. وسنلقي الضوء على هذه الصيغة التي تتألف من ثلاث نقاط : كيف توجه وكيف تصوغ حضارة كاملة.

إن التوحيد مفهوم وهو حجر الزاوية في الفلسفة الإسلامية وفي ثقافة الإسلام وحضارته. وهذا المفهوم لا يعني مجرد الاعتقاد بأن الله موجود وأنه واحد أحد وإنما يمتد أيضاً إلى الاعتقاد بأنه هو الخالق والمولى والحاكم والرازق والمسيطر ورب كل ما هو موجود (القرآن الكريم سورة ٦ آية ٧٣، سورة ٢٣ آية ١٦، سورة ٢٠ آية ٨، سورة ٧ آية ٥٤، سورة ٣٢ آية ٥، سورة ٢ آية ١٠٧، سورة ٢٥ آية ٢، سورة ٤٩ آية ٣٨).

إن الكون موجود ويؤدي وظيفته لأن الله يريد له أن يوجد وأن يؤدي وظيفته (القرآن الكريم سورة ٣٥ آية ٣، سورة ٥١ آية ٥٨، سورة ٦ آية ١٦٤). والسيادة المطلقة لله وحده لا يشاركه فيها أحد بأي قدر مهما كان (القرآن الكريم سورة ٦ الآيات ١٧ ـ ١٨، سورة ١٨ الآيات ٢٦ ـ ٢٧، سورة ٥٧ آية ٥،سورة ٥٩ آية ٢٣، سورة ٦٧ الآية الأولى، سورة ٣٦ آية

٨٣، سورة ١٠ آية ١٠٧، سورة ٧٢ آية ٢٢ وغيرها من الآيات) والألوهية المطلقة له فله وحده الأسماء الحسنى التي لا يدعي بها أحد سوى الله (القرآن الكريم : سورة ١٩ الآيات ٨١ ـ ٨٢، سورة ٣٦ الآيات ٧٤ ـ ٧٥، سورة ١١ آية ١٠١، سورة ١٦ الآيات ١٧ ـ ٢٢ ـ ٥٥، سورة ٤٦ الآيات ٢٧ ـ ٢٨، سورة ١٠ الآية ١٨ وغيرها من الآيات) ولديه العلم المباشر والكامل والمطلق بما يجري في الكون فهو العليم القدير (القرآن الكريم : سورة ٤٧ الآيات ١٣، ١٤ ـ ١٩، سورة ١٧ آية ٢٦، سورة ٥٠ آية ١٦، سورة ٥٧ آية ٤، سورة ٢٧ آية ٦٥، سورة ٣٤ آيات ٢ ـ ٣، سورة ٦ آية ٥٩) وهو وحده الباقي والدائم (القرآن الكريم : سورة ٥٧ آية ٣، سورة ٢٧ آية ٨٨، سورة ٥٥ آية ٢٧، سورة ٢ آية ٢٢٥، سورة ٤٠ آية ٦٥). وكل ما خلا الله زائل وفان. وهو لم يلد ولم يولد وليست له بنت ولا ولد وليست له والدة ولا والد (القرآن الكريم : سورة ١١٢ آية ٣، سورة ٢ آية ١١٧، سورة ٦ آية ١٠٢، سورة ٢٣ آية ٩١، سورة ١٨ الآيات ٤ ـ ٥، سورة ١٩ الآيات ٣٥ ـ ٨٨ ـ ٩٣). وهو الإله الأوحد للإنسان وكل العبادة تنصرف إليه ولا يشرك في عبادته أحد وهو وحده الذي يعطي ويمنع وأي التجاء لأحد غيره يعادل الشرك به (القرآن الكريم : سورة ٣٩ آيات ٣ ـ ٦٤، سورة ٢٨ آية ٨٨، سورة ٧ الآيات ٥٥ ـ ٥٦، سورة ١٠ آية ١٨، سورة ٣١ آية ١٣، سورة ٣٨ آية ٦٥). وهو الشارع الوحيد وله الحاكمية المطلقة في كل مجال ولا ينازعه فيها أحد (القرآن الكريم : سورة ٣٥ آية ٤٣، سورة ٩ آية ٣١، سورة ٤٢ الآيات ١٠ ـ ٢١، سورة ٢٢ الآيات ١١٦ ـ ١١٧، سورة ... الآيات ١ ـ ٣، سورة ١٢ آية ٤٠، سورة ٧ آية ٣ وغيرها من الآيات).

وننتقل الآن إلى ثاني المقومات الهامة للعقيدة وهو الرسالة. إن الله قد بعث رسالته للإنسان عن طريق الأنبياء الذي ظهروا في أزمان وأماكن مختلفة، ولكن محمداً ﷺ كان آخر الأنبياء وخاتمهم وقد أكد رسول الله ﷺ ذلك بقوله : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وصغت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين.

إن الإيمان بالرسل وبمحمد باعتباره آخر الرسل شرط أساسي للإسلام فلا يدخلن في دين الإسلام ما لم يؤمن بالرسول مثلما يؤمن بالله (القرآن الكريم : سورة ٢٤ آية ٦٢، سورة ٤٩ آية ١٥). وبذلك يتحدد وضع الرسول تحديداً بيناً فهو ليس أكثر من عبد الله وهو يدعو الناس لأن يعبدوا الله لا لكي يعبدونه هو (القرآن الكريم : سورة ٣ آية ٧٩) وهو بشر وليس له أي نصيب، مهما كان، من الألوهية (القرآن الكريم : سورة ١٨ آية ١١٠).

ومفهوم الرسالة يتلاءم مع المخطط العام لصرح الإسلام فمهمة الرسول على وجه التحديد هي إبلاغ رسالة الله. إن المبادىء والتوجيهات مبينة في القرآن الكريم ولكن لا يمكن فهمها على الوجه الصحيح دون النظر في سيرة النبي ﷺ والتي كانت الترجمة الصحيحة لتلك المبادىء ووضعها موضع التطبيق. ومن هنا فإن طريق النبي ﷺ هو طريق التوجيه الإلهي (القرآن الكريم : سورة ٢٤ آية ٥٤) ومن يطع الرسول فقد أطاع الله في الواقع (القرآن الكريم : سورة ٣ آية ٥٠، سورة ٤ الآيات ٦٤ ـ ٨٠ وغيرها من الآيات).. وكل ما يأمر به الرسول ﷺ يجب أن يطاع وكل ما ينهى عنه يجب تجنبه (القرآن الكريم سورة ٥٩ آية ٧). وموجز القول أن « سنة محمد هي بيان تفسيري لمقاصد القرآن الكريم وهذا البيان التوضيحي نفسه موصى به إلى محمد من الله الذي نزل القرآن ». فتفسير القرآن الذي صدر عن النبي ﷺ يحظى بتأييد من الله (القرآن الكريم : سورة ١٦ آية ٤٤، سورة ٧٥ الآيات ١٧ ـ ١٩) وليس لأحد أن يعترض عليه ». إن الله قد أنزل للبشر عن طريق النبي شريعة عليا كما أنزل منهجاً دائماً للقيم وهذه القيم مطلقة فما هو صالح في نظر القرآن والسنة يصلح لجميع الأزمان وما هو شر سيظل شراً إلى الأبد. وكل ما أمر به القرآن والسنة على أنه واجب سيظل واجباً على الدوام وما أعلن أنه مباح سيظل مباحاً إلى الأبد وما هو محرم في القرآن والسنة سيظل حراماً في جميع الأزمان فلا يمكن إدخال تعديل على هذه الشريعة أو حذف شيء منها أو إضافة شيء إليها أو إلغاء جزء منها ما لم يقرر شخص ما أو جماعة ما الارتداد عن الإسلام ».

وثالثة العقائد التي ترتكز عليها الحضارة الإسلامية هي الإيمان بالآخرة فهذا الإيمان بالآخرة جزء لا يتجزأ من الإسلام ولا يدخلن أحد في الإسلام إذا لم يؤمن بالآخرة مثلما يؤمن بالله والرسول. وبالتالي فإن إنكار الآخرة هو في حد ذاته إنكار للإسلام (القرآن الكريم : (سورة ٦ الآيات ٣٠ ـ ٣١، سورة ١٠ آية ٤٥، سورة ١٣ آية ٥ وغيرها من الآيات)، وفيما يلي بيان للمقومات الأساسية لهذه العقيدة.

إن الإنسان ليس مخلوقاً جامحاً تحركه الرغبة في الأكل والشرب والجنس كما أنه ليس متوحشاً وغير مسئول عن أعماله تحركه الغريزة وإنما الإنسان هو أفضل المخلوقات (القرآن الكريم : سورة ٥١ آية ٥٦) ومسئول عن أعماله وسلوكه بالطاعة أو المعصية لله (القرآن الكريم : سورة ٥٨ آية ٧، سورة ٥٧ آية ٢، سورة ٧٥ آية ٣٦، سورة ٧٦ آية ٢ وغيرها) في يوم الحساب الذي يحدده وسيقدم جميع أفراد الجنس البشري حساباً وافياً عن أعمالهم يوم يبعثون وسيوضع سجل أعمالهم دون أدنى تغيير أمام محكمة الله العلنية (القرآن الكريم : سورة ١٨ الآيات ٤٨ ـ ٤٩، سورة ٢٤ آية ٢٤، سورة ٣٦ الآيات ١٢ ـ ١٦ وغيرها من الآيات والحكم سوف يعلنه الله وحده ! القرآن الكريم : سورة ٢ الآيات ١٦٦ ـ ٦٧، سورة ١٠ الآية ٢٨، سورة ١٤ الآيات ٢١ ـ ٣١، سورة ١٦ الآية ٨٦ وغيرها) وسيجري الدافع إلى العمل والسلوك على أساس هذه القاعدة : « هل أقدم الإنسان على هذا العمل طاعة لله والتزاماً بالحق المنزل على الرسل وإيماناً منه بأنه سيحاسب على هذا العمل في يوم الحساب ؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب فإن الثواب هو الجنة أما إذا كان سلباً فإن العقاب هو النار (القرآن الكريم : سورة ١٨ الآيات ١٠٥ ـ ١٠٦، سورة ٢٨ آية ٦٥، سورة ٣٤ آية ٧١ وغيرها).

ولقد أحسن السيد محمد النقيب العطاس في بيان العقيدة الإسلامية عندما قال : « إن الإسلام هو الدين الشخصي الذاتي للفرد كما أنه هو نفسه الدين الموضوعي العام للجماعة ـ فهو يحدث مفعوله في الفرد ككيان مستقل مثلما يحدث مفعوله في المجتمع الذي يتألف من مجموع

هذه الكيانات المستقلة. ومن المفهوم ضمناً في عرضنا هذا أن الإسلام اعتقاد وإيمان وهو الانسجام في العبادة وهو تصديق بالقلب والعقل وإقرار باللسان والعمل وهو يمثل علاقة الانسجام بين الروح والبدن إنه طاعة لله ولرسوله ﷺ إنه التسليم التام بكلمة الشهادة بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. إن الإسلام هو جماع هذه العقائد كلها بكل ما يترتب عليها في الاعتقاد والعمل في شخص المسلم كما في الجماعة ككل. فلا يمكن أن يكون هناك انفصال أو تقسيم بين أجزاء هذه الوحدة من العقائد المترابطة بانسجام.

إنَّ مفهوم (الوحدة) ذو مدلولات وآثار بعيدة المدى فإذا كانت الأشياء جميعها تحتويها وحدة الله ــ كلا من الطبيعة في تعددها والإنسان في جوانبه ــ فليس هناك شيء، سواء على المستوى الفردي أو على مستوى المجتمع، لا تشمله هذه الوحدة فلا يمكن أن يكون هناك مجال روحي منفصل عن المجال الدنيوي. ولا يمكن أن يكون هناك فصل بين الدنيا والدين أو بين المقدس والمدنس أو بين الكاهن والعلماني أو بين الخاص والعام أو بين الوطني والدولي وكل هذه التقسيمات التي يرفض الإسلام بإصرار أن يقرها.

إن هذه الصيغة ذات النقاط الثلاث هي القاعدة الأساسية وهي قاعدة كافية لبناء الحضارة الإسلامية وقد وهب الله لنا مبادىء توجيهية في كل مجال من مجالات الحياة لتكون بمثابة هداية دائمة لنا ولا يتسع المقام لنا للدخول في التفاصيل ولكننا سنتناول بإيجاز نواحي التطبيق لهذه الصيغة والهداية الدائمة كما وردت في القرآن الكريم والسنة.

إن الإنسان، باعتناقه العقيدة والإيمان بوحدانية الله، يتحرر من كافة أشكال العبودية والخضوع لأي قوة أخرى ابتداء من إحناء الرأس أمام الأصنام والأشياء الجامدة الميتة ومختلف أشكال الوثنية ومن غرور وغطرسة استعباد غيره من بني الإنسان والشعوب وذلك فضلاً عن استئصال كل أنواع الخوف من مخلوقات الله. فالإنسان يعترف بخالقه على أنه القوة العليا. وخلاصة القول أنه بقبوله دور العبد لله الواحد الأحد يصبح سيداً لكل

مخلوق آخر كائناً كان أم جماداً. وبذلك يشعر الإنسان بالمكان الرفيع الذي أفرده له الله بين الأشياء.

إن المفهوم القرآني للتوحيد له وجهان لا ينفصلان، أولهما وحدانية الله، والثاني وحدة البشر، وقد تعرضنا للوجه الأول، أما الثاني فيقدم لنا مفهوم المساواة والأخوة بين كافة البشر (القرآن الكريم : سورة ٣ الآيات ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ سورة ١ الآية الأولى). فالإسلام يستنكر تقسيم البشر على أساس الطبقات الاجتماعية والعقائد أو القبائل أو الشعوب أو أي نوع من الانتساب لفئة رفيعة المنزلة (القرآن الكريم : سورة ٥ آية ١٨). وهكذا نجد أن الإسلام يندد بالمذهب الطبيعي كما يندد بمذهب التمييز العنصري ويعلن الرسالة الثورية التي تبشر بالمساواة بين البشر. وهاتان العقيدتان : وحدانية الله ووحدة البشر، هما الأساسان الطبيعيان لإقامة أي صرح للسلام والتقدم والصداقة والتعاون بين مختلف الشعوب والأمم. وهما معاً يوجدان رابطة من الأخوة بين بني الإنسان، فإلههم إله واحد وأبوهم جميعاً أب واحد. إن وحدانية الله هي المبدأ الروحي للمساواة بين البشر وصلة النسب المشترك بين الرفيع والوضيع والأبيض والملون تضع كافة البشر على نفس المكانة الإنسانية (القرآن الكريم : سورة ٤٩ آية ١٣). بل إن الإسلام قد زاد من رفعة شأن الإنسان لأن الله جعله خليفة في الأرض (القرآن الكريم : سورة ٢ آية ٣٠). وأخبر الله أن الإنسان هو أفضل المخلوقات وأنه هو المسيطر على العالم بأسره وكل ما فيه (القرآن الكريم : سورة ١٧ آية ٧٠).

إن الإسلام لا يضع أية حدود فاصلة بين الحياة الروحية والحياة الدنيوية، فالتوجيه الإلهي يؤدي إلى طريق التوازن أو الصراط المستقيم ـ فالإسلام يحرم كلا من المادية المفرطة والروحانية الزاهدة، ولقد علم الله الإنسان أن يدعوه قائلاً :

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة[1] ».

ويتضمن الإسلام نظاماً كاملاً للحياة بكل جوانبها ومجالاتها.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠١.

ويجلب الطمأنينة للنفس وللأسرة والمجتمع والحاكم والمحكوم والأمم لأن السلام يسود بين الروح والمادة وبين الابن وأبويه وبين المرء وزوجه ويحل الوئام والانسجام بين الأغنياء والفقراء وبين الحكومة والشعب وبين المعلمين والطلاب وبين المعوزين وعامة الناس. وهذا النظام يستأصل الجور والمظالم ويقضي على الفوضى والاضطراب والخوف والجزع فهو يدعو الناس للتأمل في الكون وطلب العلم والتفكير في حركة العالم والكشف عن البحار المترامية والتنقيب في سطح الأرض وأعالي الجبال. ومن هنا عرف تاريخ البشرية التجربة العظيمة التي عاشتها الثقافة والحضارة الإسلاميتين بطريقة رائدة على أساس القيم والخصائص المنوه عنها آنفاً. ونتيجة لذلك فقد سيطر المسلمون على ممالك العالم بنفس السرعة التي سيطروا بها على ممالك الدول المجاورة لهم. وكانت الروح الدافعة وراء تلك الإنجازات العلمية التي حققها المسلمون تتلخص في أنهم كانت لديهم رغبة عارمة لتفهم العالم الذي خلقه الله وتقبلهم للعالم المادي على أنه ليس أدنى من العالم الروحي بل هو صنوٌ له في شرعيته والواقعية الشديدة التي تعكس بصدق الطبيعة غير العاطفية للعقل العربي وأخيراً فضولهم الذي لا يشبع. وفي ظل الإسلام لم يسلك كلا من الدين والعلم طريقاً منفصلاً بل إن الدين في الواقع كان من أهم الحوافز التي شجعت العلم.

وهنا يبرز سؤال وثيق الصلة بموضوعنا : إذا كانت العقيدة الإسلامية سماوية وأثبتت تفوقها وصلاحيتها فكيف تسنى للحضارة الغربية أن تسود العالم أجمع بما فيه العالم الإسلامي ؟ والجواب على هذا السؤال ليس بعيد المنال فالقاعدة الأساسية التي قام عليها البناء الرائع قد اهتزت بفعل السكان. إن ضعف العقيدة وتراخي الإيمان بالمبادئ الإسلامية قد أحدث تأثيره في انحطاط الحضارة الإسلامية. لقد خمد الحافز للتعمق في فهم الكون وتجمعت الرغبة في معرفة العالم المادي والروحي وتراخت القوى الدافعة لاكتشاف المعالم وتلاشت عناصر التحفيز والتشجيع على الاختراع والابتكار واضمحلت اللهفة على دراسة الكون المادي دراسة منظمة. وفي نفس تلك الفترة التي أسلم فيها المسلمون للرقاد استيقظ الغرب وراح يسعى وراء التقدم المادي. وبالتالي فقد حدث تطور هائل في العالم المادي، ومع

هذا الشعور الهائل ظهرت تكنولوجيا متفوقة وتنظيم أفضل وطاقة مادية كبرى ودعاية رهيبة وأجهزة إعلام جماهيرية بهرت عيون العالم وحتى العالم الإسلامي نفسه وخلقت عقدة نقص لدى الدولة النامية بعامة والدول الإسلامية بصورة خاصة.

إن ما نحتاجه بالفعل ليس بأقل من الاندماج الكامل لكافة الطبقات في نظرتنا لتنمية العالم والتي تقسم العالم إلى مراتب وطبقات أي النظر في آن واحد لكافة الجوانب المتعلقة بتطوير البشرية.

وهكذا نرى أن الحركة التي بدأت بقيام عصر النهضة قد فشلت فشلاً ذريعاً في حل مشكلات الجنس البشري.

وها نحن نرى الآن حالة البلاد الإسلامية، ففي الوقت الحالي توجد دول إسلامية بسكانها ولكنها اتخذت لنفسها أيديولوجية غريبة تماماً على شريعة الله. ودول أخرى اتخذت حكوماتها لنفسها أسماء الاشتراكية والبعثية والديمقراطية الشعبية وهلم جرا. وفئة أخرى من هذه الحكومات تؤثر صفة « العلمانية » على الرغم من أن السواد الأعظم من سكانها مسلمون. وهناك حكومات استبدلت بمكة المكرمة موسكو أو واشنطن كمركز روحي تولي وجهها شطره واتخذت من ماركس وغيره من فلاسفة الغرب مثلاً أعلى لهم بدلاً من محمد ﷺ وأصبح (رأس المال) وغيره من الفلسفات الغربية كتابهم المقدس بدلاً من القرآن الكريم. وأكثر من ذلك أن بعض هذه الدول تعلن أنها تسير على نهج الماركسية ـ اللينينية أو الماركسية الإسلامية لأنها تتفق مع المصالح العليا لشعبنا. ودول أخرى تسير في طريق التغريب دون ما قيد على ما يسمى بالتنظيمات أو التنمية.

ولننظر الآن في سؤالنا الأخير : كيف يعامل الإسلام الشباب وما هو الدور الذي ينبغي أن يضطلع به الشباب ؟

يصف مصطفى الرافعي فترة الشباب فيقول « إن الشباب هو القوة، لأن الشمس لا تشرق بعد الظهر بقدر ما تسطع في الصباح. وفي الشباب ضرب من الحياة يبدو الموت معها وكأنه سبات من النوم، والشجرة تثمر في شبابها وبعد فوات الشباب لا تعطي الأشجار سوى الخشب ».

وقد قدر الرسول ﷺ الشباب حق قدره وأبرز قيمته وأعلى شأنه، ويقول القرآن الكريم : « الله الذي خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة[1] ».

وتوضح هذه الآية الكريمة ثلاث مراحل في حياة الإنسان : الطفولة والشباب والشيخوخة. والمرحلتان الأولى والأخيرة من حياة الإنسان تتميزان بالضعف والعجز والاعتماد على الغير، ومن المعروف عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه كان يستعيذ بالله من الهرم ومن أرذل العمر، فالشباب رمز للقوة والبأس والحيوية والنشاط. ومن حقائق الحياة الثابتة أن فترة الشباب تعتبر عند الجميع الفترة التي تبلغ فيها ملكات وطاقات الإنسان الجسدية والعقلية والفكرية والمعنوية أقصى مستوى لها من النمو والاستعمال. فهي الفترة التي يفرز فيها العقل إمكاناته الإبداعية في أحسن صورها. وقد أوجز القرآن الكريم هذا الأمر في الآية الكريمة :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس[2] ».

وفي هذه الآية يعتبر الحديد رمزاً للقوة والبأس وهي أنسب ما تكون في الإطار المنطقي للأمور.

كما روي عن الرسول ﷺ أنه دعا المسلم كي يغنم من شبابه قبل شيخوخته وأنه ذكر من بين سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله شاباً نشأ في طاعة الله.

ونرى أيضاً أن القرآن الكريم والرسول ﷺ يذكران أنه خلال تاريخ رسالات الله للبشر منذ عهد آدم حتى عهد محمد ﷺ كان الشباب هو الذي اضطلع بالدور الأكبر والحاسم في إعلاء كلمة الله وشريعته.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه إن الله لم يبعث رسولاً إلا وكان شاباً وما من عالم حصل علمه إلا في شبابه. ومن هنا نجد القرآن الكريم

---

(١) سورة الروم آية ٥٤.

(٢) سورة الحديد آية ٢٥.

يصف هذه الفترة التي تبلغ فيها قدرات الإنسان أقصاها بأنها « بلوغ الأشد »، وهي الفترة التي تقع فيما بين الثلاثين والأربعين من عمر الإنسان (القرآن الكريم سورة ٤٦ آية ١٥، سورة ١٩ آية ١٢، سورة ٦ آية ١٥٢، سورة ١٢ آية ٢٢). وهو العمر الذي يبلغ فيه المرء أوج نضجه ويصبح فيه مؤهلاً لتولي أقصى المسئوليات وتلقي أشد الواجبات. وكثير من الأنبياء نزلت عليهم الرسالة عندما بلغوا أشدهم (القرآن الكريم سورة ٢٨ آية ١٤)، ومن بينهم النبي محمد ﷺ.

وبعد أن أوضحنا أهمية الشباب في تعاليم الإسلام وعقيدته ننتقل الآن للحديث عن الدور الذي يجب على الشباب المسلم أن يقوم به في سبيل إحياء الحضارة الإسلامية. وهنا نقلب مرة أخرى صفحات التاريخ لنعرف أسباب تدهور الحضارة. لقد لخص القرآن الكريم تاريخ البشرية كلها تلخيصاً علوياً دقيقاً في قول الله تبارك وتعالى بأن حب الشهوات هو السبب الأساسي في انحطاط الحضارات الغابرة وهو ما ينبغي للإنسان أن يعتبره تحذيراً بالنسبة للحضارة الراهنة يقول الحق تبارك وتعالى :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل، كان أكثرهم مشركين[1] ».

لقد كان حب الشهوات متفشياً قبل ظهور الإسلام وقد تداعت الحضارات الإغريقية والرومانية أيضاً بتأثير هذا الداء الوبيل. كان الإجهاض أمراً شائعاً، وكان وأد الأطفال يكاد يكون مباحاً في كل مكان، وشاعت حفلات المصارعة التي كان المجالدون يلقون حتفهم فيها، وكانت الإباحية أمراً مقبولاً في مجتمع الإغريق والرومان مما تسبب في تدمير حضاراتهم تدميراً تاماً. ولقد تفشت هذه العلل الآن في العالم أجمع وفي الغرب بصفة خاصة.

وها هي دعوة الإسلام للشباب أن الهدف من الحياة هو العمل لا المتعة. فاللذة والسعادة في الإسلام هما النتيجة الطبيعية لارتياح المرء وهو

---

(١) سورة الروم آية ٤٢.

يؤدي واجبه وفقاً لما يمليه عليه ضميره ابتغاء مرضاة الله لكي ينجو من العذاب في الآخرة. وواجب الشباب الأول والأهم هو أن يحذروا الجماعات والأمم بطريقة مخلصة صادقة مقنعة ويبينوا لهم أوجه الشبه بين أسلوب معيشتهم وبين الأساليب التي أدت إلى سقوط الجماعات الأخرى، وأن يشرحوا لهم بشيء من التفصيل كيف يؤدي الانحراف عن طريق الله إلى البؤس والشقاء وكيف يؤدي في نهاية الأمر إلى تردي الجماعة وسقوطها إن لم يقض عليها قضاء مبرماً.

وهذه العملية لن تظهر فجأة كالمعجزة، ولكن من الضروري لنشأتها أن تتكون في البداية حركة تقوم على أساس يتفق مع المبادىء الأساسية للإسلام فيما يتعلق بنظرتها إلى الحياة والمثل الأعلى للوجود ومستوى الأخلاق والفضائل والشخصية والروح التي يدعو إليها الإسلام. ويجب أن يكون قادة هذه الحركة وأنصارها رجالاً مؤهلين نفسياً وروحياً لتقبل مثل هذه الشخصية وبعد ذلك يتعين عليهم أن يسعوا بهمة لا تفتر لخلق نفس هذا الاتجاه الفكري والروح الأخلاقية بين الناس. وعلى أساس هذه الاتجاهات العقلية والفكرية يبنون نظاماً تعليمياً لتثقيف وتشكيل الجماهير وفق نمط الحياة الإسلامية. وسوف يفرز هذا النظام علماء مسلمين وفلاسفة مسلمين ومؤرخين مسلمين واقتصاديين مسلمين وخبراء ماليين مسلمين وقانونيين وسياسيين مسلمين. وموجز القول أنه يجب أن يضم كل فرع من فروع المعرفة رجالاً تشربوا بالعقيدة الإسلامية وتشبعوا بروحها، رجالاً لديهم القدرة على بناء نظام كامل من الفكر والحياة العملية على أساس من المبادىء الإسلامية، رجالاً لديهم القوة الكافية للوقوف في وجه الزعامات الفكرية للعلماء والمفكرين الملحدين المعاصرين.

لقد ذكرنا آنفاً الواجب الأول والأسمى للشباب المسلم، ولكن التعليم والمعرفة شرط مسبق لتولي هذه المسئوليات.

ونسوق فيما يلي طريقة لإحياء الحضارة الإسلامية وهي جديرة بالنظر فيها :

إن الإسلام دين عالمي. وقد أصبح العالم الآن وحدة واحدة ينقل كل

تطور يقع في أي من أرجائه إلى كافة الأرجاء الأخرى بسرعة الضوء، ولذلك فإن توحيد الكرة الأرضية يتطلب عملًا وحركة دولية لنشر رسالة الله. ونحن نطلق عل هذه الجهود والمساعي اسم « الحركة الفكرية الدولية » وهذه الحركة هي مطلب الساعة ويمكن تنفيذها باتباع الطريقتين الآتيتين :

الأولى : إقامة أمانة عامة للقيام بأغراض متعددة ويمكن أن نسميها « منظمة الأمانة الإسلامية للتعليم والثقافة والتنمية الفكرية » وهي على غرار منظمة اليونسكو ويمكن لهذه المنظمة أن تتخذ الوسائل الآتية لتحقيق هدفها :

- تجميع المواد بكافة اللغات الهامة وجمع المعلومات مع تحليلها.
- تشكيل لجان من الخبراء في جميع المجالات وهذه اللجان يمكنها دراسة المشكلات وإعداد الحلول التفصيلية لها وكذلك تلبية الاحتياجات التي تنشأ مع الزمن.
- دراسة المشكلات القائمة في الدول المختلفة وإعداد توصيات بشأنها.
- إقامة أجهزة إعلام جماهيرية (سمعية ـ بصرية وصحافة وإعلام... الخ) للدعوة للإسلام والتبشير بحل مشكلات البشرية.

والطريقة الثانية : أن كل دولة تنشئ منظمة قوية تواصل الحركة الفكرية عن طريق ناد ثقافي وتعليمي وينشر هذا النادي نشاطه في كافة أنحاء البلاد (من العواصم والولايات والمناطق إلى القرى) ويقوم هذا النادي بدور التوجيه في مجالات التعليم والثقافة والنشاط الروحي والترفيه وغير ذلك من المجالات على أن ترتبط جميع المنظمات التي ستقام في كافة الدول بالمنظمة المنوه عنها في الخطوة الأولى.

بشرى :

مما يشجع المرء ويقوي عزمه (وان لم يجعله يشعر بالرضا عن نفسه) أن شعور اليقظة أخذ يتغلغل في نفوس الشباب المسلم في كافة أنحاء العالم. وأروع مثل على ذلك تلك التطورات التي وقعت مؤخراً في بعض الدول. إن القلق في نفوس الشباب قد بلغ ذروته، ومستقبل الصحوة

الإسلامية مشرق إن شاء الله. والفترة الحالية هي أنسب الأوقات لبذل الجهود الدائبة، ولكن ينبغي أن نتنبه للأخطار الكامنة في الموقف، فإن أعداء الإسلام يبذلون أقصى جهدهم لضرب الصحوة الإسلامية، وتوجيه المساعي والجهود الإسلامية وجهة خاطئة عن طريق الدعاية وأجهزة الإعلام وخلق جو من سوء الفهم لهذه الحركة.

التحدّي الحضاري وكيف نواجهه

للدكتور محمود محمد سفر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد :

إن أمانة الباحث في ما يواجهه المسلمون من تحديات حضارية تستدعي منه أن يغوص في أعماق التحديات ليصل إلى جوهرها حتى يتسنى له إيجاد العلاج الناجع لمواجهتها.

وقد يستهوي الباحث غير المدقق جمع البيانات وزخرفة المنحنيات وتنميق العبارات، وربما تتكدس مئات الأبحاث دون أن يخرج القارىء منها بنتيجة محددة قابلة للتطبيق لأنها لم تمس جوهر المشكلة ذاتها.

إن هذا البحث هو محاولة للوقوف وقفة موضوعية مع أنفسنا، كمسلمين، لنحدد سوياً أين نكون، وما هو موقعنا من العصر والحضارة المعاصرة، وما هي العقبات والقيود التي تمنع حركتنا وانطلاقنا، مع تقييم صريح لواقعنا ومواجهة واضحة لأنفسنا.

ولا ننكر أن بعض الأفكار التي سنثير في هذا البحث قد تحتاج إلى دراسة متخصصة ومتأنية وأكثر تعمقاً ليس المجال هنا متاحاً للإسهاب فيها، ولكننا نود بطرحها أن تكون إطاراً للبحث قد نتفرغ أو يتفرغ غيرنا في وقت ما لبحثها والخروج منها بنتائج أكثر تحديداً وأعمق مردوداً.

جوهر التحدي وديناميكيته :

لا نظن أن أحداً منا ينكر أننا كمسلمين لا نملك اليوم حضارة تحمل سماتنا، ولكننا نعيش في ظلال حضارة أقامها الأجداد، تمثلت في التراث الحضاري العريض والعريق الذي ورثناه والذي لم نبذل الجهد الكافي ولم نبد الجدية المطلوبة حتى الآن لإحيائه وتقديمه للشباب بأسلوب يتمشى مع العصر الذي نعيشه.

وعندما توقفت مسيرة تراثنا الحضاري حقبة من الزمن وصاحب ذلك التوقف ولازمه وارتبط به ظهور عصور الانحطاط الإسلامي ضاعت منا معالم الطريق، فلم نعد ندري ماذا نفعل ومن أين نبدأ، واكتفينا بأن ركن البعض منا إلى التفاخر بهذا التراث وكأنه حقنة مخدرة جذبتنا إلى نوم عميق.

وبقدر اعتزازنا وفخرنا بهذا التراث العريق والعريض والذي اعترف به العالم أجمع والذي قالت فيه عالمة ألمانية مستشرقة وهي زيجريد هونكه (ان الدّيْن الذي في عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للمسلمين كبير جداً) والذي قال فيه مستشرق آخر (إن العلم هبة خطيرة وهبتها الحضارة الإسلامية إلى العالم الحاضر)، نقول بقدر تقديرنا واعتزازنا بذلك إلا أننا يجب ألا نعيش على أطلال تلك الحضارة ولا يجب أن تكون هذه الأطلال متكأً لنا نجلس عليه في مواقع المتفرجين مستسلمين لأحلام الماضي واليأس المريح.

لقد وجد الغرب في الفترة التي توقفت خلاها مسيرتنا الحضارية فرصة ملائمة فأخذ من العلوم والفنون الإسلامية ونهل من المعرفة والثقافة العربية ما شاء وأقام عليها بنياناً حضارياً ضخماً نقف اليوم مشدوهين أمام عظمته منبهرين بمنجزاته.

أما ارتفاع هذا البنيان الضخم واتساع الفجوة الحضارية التي تفصلنا عن العالم المتقدم نجد أنفسنا وقد فرض علينا تحد يجب أن تكون لدينا الشجاعة على مواجهته.

إن التحدي الذي يواجهنا كمسلمين في مرحلة إقلاعنا الحضاري يكمن أساساً في ثباتنا على مبادئنا والتزامنا بقيمنا وتمسكنا بأصالتنا واعتزازنا

بشخصيتنا، ولن يكون الأمر سهلاً ولا ميسوراً والعالم من حولنا يعيش في دوامات فكرية وبريق حضاري زائف، ولنعلم تمام العلم أننا ونحن نواجه هذا التحدي الحضاري لن نترك وشأننا لأن هناك من يتمنى فشلنا ويترصد أخطاءنا ويحلم بانتكاسنا فلنحذره ولنفوت عليه الفرص بثباتنا على مبادئنا والتزامنا بقيمنا وتمسكنا بأصالتنا واعتزازنا بشخصيتنا... ذلك هو جوهر التحدي الحضاري.

ولنا أن نسأل، هل يستطيع مسلم اليوم، بما يملك من عقيدة وإيمان، أن يعبر تلك الفجوة وأن يأخذ من أساليب العصر وأن يستوعبها ليكون قادراً من خلال تطويرها وتطويعها على وضع حضارة تحمل هويته وتعبر عن شخصيته وتفرض نفسها على الحضارات الأخرى.

في اعتقادي أننا لا نستطيع مواجهة هذا التحدي إلا إذا ملكنا روح المسلم الأول الذي كان يتمتع بقوة العقيدة وعمق الايمان اللذان مكناه من أن يغرس قيمه في كل حضارات عصره لتتوحد عقيدتها ومن ثم تتوحد وجهتها وتنصهر في بوتقة واحدة لتعطي حضارة إسلامية ازدهرت على مدى عدة قرون وامتدت من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

وبجانب روح المسلم الأول وفي مرحلة إقلاعنا الحضاري لا بد أن تكون لدينا البصيرة والقدرة على حماية أنفسنا من الوقوع في شراك التقليد والمحاكاة للحضارات الغربية دون تفريق بين مزاياها ومساوئها وأن نكون قادرين على حماية مجتمعنا الإسلامي في طور نموه من الأمراض التي أصابت مجتمعات الغرب وما زالت تستشري فيها.

عناصر التحدي الحضاري :

إننا نعتقد أن عناصر التحدي الحضاري الذي نواجهه تكمن في :

* القدرة على شحذ الفعالية الروحية للأمة.
* القدرة على استيعاب حضارة العصر استيعاباً كاملاً.
* القدرة على تبني أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل.
* القدرة على حماية المنجزات الحضارية للأمة.

وسوف نتعرض بالتحليل والإيضاح لكل من هذه القدرات فيما يلي :

القدرة على شحذ الفعالية الروحية للأمة :

إن الإنسان ـ ولا شك ـ هو محور العملية الحضارية بل هو المؤسسة الحضارية الأولى التي يجب تكوينها وبناؤها البناء السليم. إننا إذا نمينا قدراته وصقلنا مواهبه ونفضنا الغبار عن عزيمته وفجرنا طاقاته تدفق عطاءً حضارياً متجدداً. لذا يجب بادئ ذي بدء شحذ الفعالية الروحية، ونستخدم هنا لفظ الفعالية لأننا لا نريد الروحية المخدرة التي كانت وما زالت سبباً في عزل الإنسان المسلم في إطار ذاته بعيداً عن مجتمعه وعصره، ولكنا نريد الروحية الفعالة التي تجند إمكاناته وطاقاته ليكون مستعداً للأخذ والعطاء وللتلقي والإبداع.

ورغم الأهمية القصوى لشحذ الفعالية الروحية في مرحلة الإقلاع الحضاري فإن الحاجة لهذه المهمة تظل قائمة لاستمرارية الحضارة، حيث تمدها الحضارة بوسائل جديدة تواكب بها مقتضيات العصر.... وعندما تنسى الأمة هذه المهمة تبدأ مشاكلها مع محاولة البقاء.

وعملية بث الأشواق الروحية في الإنسان المسلم، موضوع الحضارة، هي ولا شك عملية هامة وتحتاج إلى علم بها وصبر عليها ورعاية لها.... ولا يهم هنا كيف بثت الأشواق.. وإنما المهم أن يحدث تفريغ للطاقة الروحية المبثوثة في اتجاه واحد هو اتجاه البعث الحضاري للأمة.... وأن ذلك ليذكرنا بالأسس العلمية لجهاز الليزر.

ويبـرز سـؤال :

من الذي يقوم بمهمة شحذ الفعالية الروحية للأمة ؟

بالتأكيد ليست هي مهمة السياسي.. فهذا رجل مشغول بصيانة منجزات الحضارة..

وليست كذلك هي مهمة حفظة التراث.. فهؤلاء مشغولون بتنظيم الكتب في رفوف رؤوسهم.

وليست هي كذلك مهمة هؤلاء المهنيين المنشغلين بدقائق مهنتهم المنصرفين إليها بكلياتهم.

إنها مهمة النفر القدوة المؤمنة إيماناً عقلانياً.. حيث تترجم رسالة الإيمان إلى تصور ذهني وسلوك عقيدي يضيء بالقدوة أكثر مما يضيء بالفلسفة ويجمع حوله القلوب والأفئدة فتنساب في سلوك جماعي موحد تلمسه في تصرف البسطاء من الناس كما تراه في علمائهم.

وهي أيضاً مهمة الجامعات، وخاصة العقائدية منها، التي لا بد أن تفرغ لإثارة الوعي الحضاري المتمثل في التصور الذهني والسلوك العقيدي المنبثقين عن الرسالة التي آمنت بها، فوظيفة الجامعات الأساسية ومهمتها الأولى هي تكوين المؤسسة الأولى للحضارة ألا وهي الإنسان المسلم السوي القدوة المستعد للتلقي والإبداع الحضاريين.

إن الحضارة في طور نموها الكامل سوف ترث كل تصورات وأخلاقيات هؤلاء النفر القدوة الذين وضعوا بذورها.. وأن طبيعة الرسالة سوف تحدد معالم الحضارة وتطبعها بطابعها.

القدرة على استيعاب حضارة العصر استيعاباً كاملاً :

إن حضارة العصر التي تبدو لنا في غاية التعقيد قامت على أساس العلم، ومدخلنا إليها لن يكون إلا عن طريق شحذ الفعالية العلمية للأمة. وسبيلنا إلى شحذ الفعالية العلمية هو جهازنا التعليمي المتطور.

لقد أمضى الغرب زهاء خمسة قرون ليبني قلاعه العلمية والتكنولوجية، وكان لكل فرع من فروع العلم والتكنولوجيا مسيرة معينة تتميز بفترات التكدس والاستيعاب ثم فجائيات الإبداع. ولندلل على ذلك ونزيده إيضاحاً نضرب مثلاً بفرع من فروع المعرفة وهو علم « الميكانيكا ». في عصر ما قبل العالم « كبلر » كان علم « الميكانيكا » هو عبارة عن مجموعة معلومات مكدسة عن حركة النجوم والكواكب لا يستبين الإنسان قوانينها الحاكمة، ثم جاء « كبلر » واستخرج منها قوانينه الثلاثة المشهورة، فاستغنت الإنسانية على يده عن هذا الركام الضخم من المعلومات واستبدلته

بثلاثة قوانين لا تشغل أكثر من نصف صفحة، تهتم بمسار جسم تحت تأثيره قوة جذب مركزية. وفي الفترة ما بين « كبلر » و « نيوتن » كان علم « الميكانيكا » يزداد بطريقة تكدسية.. معلومات متفرقة عن أشياء متفرقة.. لا يبدو واضحاً ما يحكمها من قوانين. حتى كان « اسحاق نيوتن »، فأحدث باكتشافه لقوانين الحركة الثلاث، فجائية إبداعية كانت من بين الأسس العظيمة التي بنى الإنسان عليها حضارته العلمية والتكنولوجية. إن قوانين « نيوتن » الثلاثة لا تصف حركة الكواكب والأقمار في مساراتها فحسب وإنما تصف ديناميكية التحرك لكل الأجسام تحت تأثير أي نوع من القوى.

واستمر علم « الميكانيكا » بعد ذلك في حالة تزايد تكديسي دونما طفرة حتى جاء « أينشتاين » فعمم قوانين « نيوتن » في طفرة إبداعية أخرى بحيث أصبحت قوانين « أينشتاين » قادرة على وصف حركة الأجسام جميعاً، بينما كانت قوانين « نيوتن » تقف قاصرة عن وصف حركة الأجسام الدقيقة ذات السرعات العالية التي تقترب من سرعة الضوء.

ومنذ أن نشر « أينشتاين » بحثه عن النظرية النسبية الخاصة في عام ١٩٠٥م وحتى الآن يتزايد علم الميكانيكا تزايداً تكديسياً.

وما أوتي الإنسان من العلم إلا قليلاً.. فما زلنا ننتظر فجائيات إبداعية تحدث نقلة أساسية في مستوى العلوم والتكنولوجيا.

والسؤال الآن : كيف تستطيع أمتنا، وهي تقف عند أبواب القلاع العلمية والتكنولوجية لحضارة الغرب، أن تستوعب علوم الغرب وتكنولوجياته ؟ هل هناك جدولة زمنية مثلى لتتابع إدخال علوم وتكنولوجيات.. إذا استوعبنا مرحلة بدئنا بمرحلة ثانية.. وهكذا ؟.

في اعتقادنا أن في محاولة تدريب مجتمعاتنا الناشئة، علمياً وتكنولوجياً، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار المسار التاريخي لتطور العلوم والتكنولوجيا. إن الأمة الجّادة يمكنها أن تختصر ٤٠٠ عام من تاريخ التطور العلمي والتكنولوجي للعالم الغربي إلى ٤٠ عاماً أو أقل ولكنها لا يمكنها أن تستسيغ الحضارة دفعة واحدة مهما أوتيت من مال.

إن التكنولوجيا الحديثة نشأت من تزاوج العلم والحرفة ومن إصرار المجتمع على هذا التزاوج في صورة مراكز تطوير الصناعات المختلفة.

ولذلك فنقطة البدء هو تعليم الحرف وانتشارها بين الأغلبية الساحقة من أبناء المجتمع.. بينما يتوجه جزء للتعليم الفني ليكون قادراً على تطوير الحرفة ونموها.. ينفر جزء من ذوي العقول النادرة لتتبع ما يطرأ على العلوم من تطور ونظريات والنظر في إمكانية تسخيرها لخدمة التكنولوجيا المستحدثة.

قد نستطيع القول أن أمة تحاول أن تبني لنفسها قلعة علمية وتكنولوجية يجب أن توجه ٨٠٪ من أبنائها لأعمال حرفية و ١٠٪ لأعمال فنية و ٥٪ للعلوم والبحوث و ٥٪ لشحذ الفعالية الروحية للأمة.

إن أرباب التكنولوجيا الحديثة لن يسمحوا بتعليم دقائقها لآخرين... هذا هو الواقع في عالمنا المعاصر.. إن علينا أن نعي جيداً أنه لن يمكننا الحصول على دقائق التكنولوجيا المعاصرة حتى لو دفعنا من أجلها المال الوفير.

طريقنا إلى التكنولوجيا الحديثة لا بد أن يمر بمراحل علمية تشبه التطور الزمني في بلاد الغرب.

ولكي نستزيد هذا الأمر إيضاحاً نضرب مثلاً بصناعة السيارات فنقول : إننا لا يمكن أن نصنع سيارة من غير أن نتعلم كيف نصنع ترساً من تروس نقل الحركة. إن الكتب العلمية لتمتلىء بالمعلومات النظرية والنظريات العلمية عن كيفية صناعة ترس ولكن لا بد أن يجيء المهندس ليحول هذه المعلومات إلى روتين يقوم الفني بتبسيطه للعامل وقد ينشأ عن ذلك مشاكل في التصنيع فيرفعها المهندس لمجموعة التطوير من المهندسين والعلماء لتبدأ محاولات وتجارب تتوصل بها مجموعة التطوير إلى حلول علمية لمادة الترس ومعالجتها الحرارية وطريقة تصنيعها. ويترجم المهندس ذلك كله إلى خطوات واضحة للفني يتولاها بعد ذلك مع العمال.

إننا نصنع تروساً في بعض البلاد العربية ولكن الشكوى منها دائماً أن المعاملة الحرارية لسطوحها رديئة جداً إذا قورنت بالتروس الأوربية.. أي أن

هناك دقائق في الصناعة الأوربية لا يمكن أن نحصل عليها إلا إذا وفقنا إليها عن طريق العلم والتجربة.

لقد أخذت الحضارة الغربية ٤٠٠ عام لتصل بتروسها إلى حالتها الحالية وحققت ذلك من خلال الاصرار على تزاوج العلم والتكنولوجيا. ونحن يمكننا أن نختصر هذه المدة إلى عشرها أو أقل شريطة أن نلتزم بتزاوج العلم والتكنولوجيا، زواج تأبيد، وأن نتبصر بالتتابع الزمني في عملية تدريب الأمة على الحرف والتكنولوجيات المختلفة.

إننا نستطيع أن نسقط عمر الحضارة الغربية المعاصرة على عمر الإنسان في أمتنا، فنبدأ معه منذ الطفولة، نعلمه مثلاً كيف تنتقل الحركة بالتروس والسيور وكيف نصل الأشياء بعضها ببعض.. أي نعلمه نظرية الآلات مبسطة حسب إدراكه وسنه.. متطورين معه كما تطورت الحضارة في طريقها الطويل.. ولكن هذا يستدعي تطوير أجهزتنا العلمية وأنظمتنا التربوية وبرامجنا التعليمية. كما أن الأمر يحتاج إلى جهد مضاعف لبناء أجهزة متمكنة تعني بهذا النوع من التعليم الحرفي لعامة الناس ومن رغب من خاصتهم.

إن العلم هو الذي يصنع من أبجديات الحرف ـ بكسر الحاء وفتح الراء ـ كلاماً مفهوماً نسميه تكنولوجيا، وينتج فيما بعد أدباء يصنعون أدباً يختلط فيه العلم والذوق والفن فيما نسميه حضارة.

إن هناك ضروريات لا بد من مراعاتها في عملية الاستيعاب الكامل للحضارة المعاصرة في مجتمعاتنا النامية نوجزها فيما يلي :

* نعني بالاستيعاب الكامل للحضارة المعاصرة استيعاب الأصول والطرائق أما الدقائق فهذه لا يمكن لأصحاب الحضارة منحها وإنما تدرك بالممارسة الواعية والتفاعل البناء.

* لا بد أن لا يسبق العلم الحالة التكنولوجية بكثير فيؤدي ذلك إلى انفصاله عنها.

لا يمنع ذلك وجود قلة من المتخصصين في الجامعات ومراكز

البحوث تنفرد للعمل عند مشارف العلوم وتكون مهمتها التطور المستمر للعلوم لتصبح أكثر ملاءمة لتحقيق الهدف التكنولوجي.

* إن الذي أسلفنا ذكره سيضع شروطاً جديدة على أنظمتنا التعليمية كلها.. فالواضح أن الأنظمة الحالية لا تحقق الأهداف التي ذكرناها، وإذا لم تتطور فإنها قد تخلق في بعض الأحيان تناقضات من شأنها أن تعوق عمليات الاستيعاب المطلوبة. إن بعض أنظمتنا التعليمية تسرف مثلاً في التركيز على التعليم الجامعي كبديل وحيد للتعليم العالي ومازالت أعداد ضخمة من طلاب هذا النوع من التعليم تتجه إلى العلوم الإنسانية.

القدرة على تبني أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل :

مع التطور المستمر والنمو المضطرد لمؤسسات الحضارة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المعاصرة تطورت ونمت النظم المهيمنة على هذه المؤسسات منطلقة من المبادئ والأخلاقيات التي شحذت الفعالية الروحية لأصحاب هذه الحضارة في مرحلة الانطلاق الحضاري ومعدلة نفسها مع تغير المفاهيم والاخلاقيات في مجتمعات ترى أن جوهر الأخلاق متغير غير ثابت.

ومشكلتنا كمسلمين، ونحن نقف على أعتاب الحضارة الغربية، أننا نريد أن نبني مؤسسات حضارية شبيهة بأختها في ديار الغرب وتقوم على نظم تنطلق من مبادئ وأخلاقيات غير متطابقة مع المبادئ والأخلاقيات التي انطلقت منها حضارة الغرب.

ومحنتنا أننا لا نعرف أننا لا نملك النظم الحاكمة للمؤسسات الحضارية المطلوبة، وكل ما نملكه مجموعة من المبادئ والقيم التي يمكن أن تنبثق عنها النظم المرجوة.

ومحنتنا أيضاً أننا لا ندرك أن النظم الحاكمة لا تولد فتية متكاملة، ولكنها تبدأ طفلة وتنمو مع التجربة والمحاولة والخطأ والصواب.. لا يحكمها إلا محاولتنا الدائمة أن نجعلها لا تميل ولا تحيد عن مبادئنا وقيمنا وأخلاقياتنا.. فإن حادت أو مالت لا بد أن نعيدها عن طريق نظام دائم للتغذية الخلفية كما نقول في علم نظم التحكم الآلي.

فإن استبان لنا أننا لا نملك النظم الحاكمة للمؤسسات الحضارية المرجوة أصبح أمامنا واضحاً خياران :

الخيار الأول ؛ أن نتبنى المؤسسات الحضارية الغربية بوضعها الحالي، آخذين في الاعتبار أن نظمها الحاكمة تحتاج إلى تعديل وتبديل يأتي عن طريق الممارسة والتجربة، والإصرار على تحقيق المبادئ والقيم والأخلاقيات في النظم المعدلة.

والخيار الثاني ؛ أن نبدع البدائل.. وهذا أمر لا يفتي فيه غير متخصص في أعمال مثل هذه المؤسسات. إن خيار إبداع البدائل للنظم لا بد أن يوضح دور فقهائنا وعلماء الدين فينا. إنه دور العين السحرية الثقافية المتبصرة في نهاية خط الإنتاج، أي دور التحكم في النوعية.... النوعية التي تحكمها المبادئ والقيم والأخلاقيات الإسلامية... فما وافقها من النظم مضى... وما خالفها يعاد لأهل الاختصاص للتغيير والتبديل.

فمهمة إبداع البدائل لا بد أن يضطلع بها متخصص في دراسات النظم التي تحكم مؤسسات شبيهة بالمؤسسات المرجوة كما أسلفنا... آخذين في الاعتبار أن البديل المقترح هو من قبيل المحاولة الإسلامية وليس هو الإسلام.. لأننا من خلال التجربة والاحتكاك قد نكتشف تقصير النظم المقترحة في تحقيق كل جوانب مبادئنا وقيمنا وأخلاقياتنا، فنلجأ إلى تغيير هذه النظم أو إصلاحها حتى تكون أكثر تحقيقاً لما ندين له ونؤمن به.. إن الصراط المستقيم في مثل هذه الأمور ليس واضحاً من غير هداية الله.. وهداية الله لا تأتي إلا بالمجاهدة المستمرة.. فنحن ندعو في كل صلاة : « إهدنا الصراط المستقيم ».. وربنا يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا ».. ويبدو أن غياب هذا الفهم جزء من محنتنا.. فكثير منا يتصور أن الكتاب والسنة قد اشتملا على كل النظم الحضارية المطلوبة.. قلب في الصفحات تجدها.

والحق الذي نؤمن به أن الكتاب والسنة قد اشتملا على كل المبادئ والقيم والأخلاقيات الكافية واللازمة لانبثاق نظم حضارية.... ولكن النظم الحضارية نفسها هي محاولات بشرية تنطلق متحررة من كل القيود إلا القيود

الأخلاقية والمبادئ الأساسية التي يحددها الكتاب والسنة والتي نؤمن أنهما خير أساس لقيام حضارة إنسانية ليس كمثلها حضارة.

باختصار شديد، أمامنا طريقان : طريق **التبني لنظم غربية**، مع العزم على تغييرها مع الزمن والتجربة لتوافق مبادئنا وأخلاقياتنا، أو **إبداع بدائل** لهذه النظم، آخذين في الاعتبار أن هذه البدائل ليست الصراط المستقيم وإنما هي محاولة للقرب منه، وأنه عندما يثبت من الممارسة أن هذه البدائل أوقعتنا في تناقض مع مبادئنا وأخلاقياتنا نصبح أحراراً حينئذ في تبديلها وتغييرها غير متحجرين ولا متبلدين.. لا يحكمنا في الأمر كله غير قرآن ربنا وسنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه.

القدرة على حماية المنجزات الحضارية للأمة :

للحماية هنا شقان : شق ذاتي، وشق خارجي. فالشق الذاتي مطلوب لحماية المنجزات الحضارية من الأمراض الحضارية التي تصيب الحضارات عندما يصاب المجتمع بالغفلة والوهن، ويركن للترف والدعة، وينسى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحيط به ملذاته وأهواؤه، وتصدأ نفسه، فيفقد المعنى الحق لجهاده وسبب وجوده.

إن المجتمع المسلم لا بد أن يعدّل دوماً في نظمه في إطار مبادئه وقيمه، وفي إطار الوقاية من الأمراض الحضارية.. فلا يسمح نظامه الاقتصادي مثلاً أن يصبح هناك إنسان مترف وبجواره فقير معدم.. أو يسمح نظامه السياسي أن يصبح الفرد آلة صماء لا رأي له ولا مشورة.. أو يكون نظامه الاجتماعي بحيث تنتفي روح الأخوة وروح الأسرة.... أو يعمل نظامه الثقافي على تبلد الفكر وركود المعرفة.

أي يجب أن تكون نظم الحضارة نظماً فعالة.. تعمل على الوقاية الدائمة لنفسها ضد الأمراض التي قد تصيبها من داخلها.

وفي إطار الشق الذاتي تأتي أيضاً القدرة على النمو الذاتي من غير الاعتماد على الإمداد الخارجي، ويستلزم ذلك سعة سكانية واقتصادية من شأنها أن تتيح الاكتفاء في فترات الصراع العالمي ومحاصرة الحضارة.

أما الشق الخارجي فيتعلق بالقدرة على بناء أجهزة دفاع قوية تذود عن حمى كل المنجزات الحضارية أمام أي أمة طامعة، سواء كان هذا عسكرياً أو اجتماعياً أو نفسياً.

قيود التحدي الحضاري :

أما وقد حددنا جوهر التحدي وعناصره بقي علينا أن نتعرض إلى القيود التي تغل حركتنا وتحد من تحركنا رغم وضوح الهدف وإضاءة الطريق. إن تعرضنا لهذه القيود هو محاولة أخرى لرفع العقبات وإزالة العوائق حتى نضمن عدم تعثر المسيرة الحضارية لأمتنا الإسلامية.

إن قيود التحدي الحضاري في اعتقادنا صنفان : قيود ذاتية، وقيود خارجية. وتمشياً مع منهج هذا البحث في التركيز على الإنسان كوسيلة وهدف، فالقيود التي سنهتم بها هي القيود الذاتية التي تنبع من ذات الإنسان أو ذات المجتمع الذي يكونه الإنسان، ونترك القيود الخارجية لحديث آخر، لأننا لو عرفنا ذواتنا وحللنا ما يقيدها من قيود نكون قد قطعنا شوطاً طويلاً في التصدي للتحدي الحضاري ومواجهته.

والقيود الذاتية على أنواع :

قيود فكرية.
وقيود تنظيمية.
وقيود اجتماعية.

القيود الفكرية :

إن الحالة الفكرية لأي أمة في لحظة ما من تاريخها هي خليط من فكر نافع، وفكر لا ينفع، وفكر مدمر.

وإذا كانت هذه اللحظة من تاريخها تمثل نقطة البدء في دورة جديدة من حضارتها يصبح القيد الفكري هاماً لأنه ربما كان مثبطاً لكل جهد يبذل من أجل إقامة الحضارة.

وحالة الأمة الفكرية تتكون من تراث منقول عبر الأجيال، وفكر يتسرب من الحضارات المحيطة، وفكر هو نتاج جيلها المعاصر.

وتطور الفكر من مجموعة من العقائد يتعرض في مساره التاريخي لمراحل صعود، ومراحل ثبوت، ومراحل انحطاط.

وعندما تبدأ أمة محاولة إقامة حضارة في أعقاب دورة حضارية، تجد نفسها أمام تراث فكري قد تخلف لديها من أيام الصعود والثبوت والانحطاط مضافاً إلى هذا الفكر المتسرب من الحضارات المعاصرة المحيطة بها.

وهنا تبدأ في الأمة معارك وصراعات بين ألوان الفكر المختلفة.. الفكر المتسرب من الحضارات المعاصرة قد تمثل في أنظمة متقدمة عصرية حية، بينما فكر التراث قد تمثل في أنظمة للماضي أصبحت تاريخاً وآثاراً.. وكلاهما بالنسبة للأمة لا يمثل الذاتية.. الأول يمثل تغايراً في المكان، والثاني يمثّل تغايراً في الزمان.

إن الحيرة الفكرية هي أعضل مرض يصيب الأمة في فترات الإعداد الحضاري، وخاصة عندما لا يكون لهذه الحيرة عمق علمي، بل يكون الأمر كله حيرة بين شعارات مختلفة تبدو متناقضة متنافرة. عندها تجد الأمة نفسها تبحث عن الإنتاج الفكري لجيلها المعاصر... تبحث عن فكرها الذاتي.

> والفكر الذاتي هو هذا البناء العقلي الذي ينمو من مجموعة القيم والمبادىء التي تمثل عقيدة الأمة، والتي استقر في وجدانها عن طريق الرسالة السماوية أو عن طريق رجال أوتوا الحكمة فطرة وإلهاماً، والحكمة ضالة المؤمن.

ولفهم القيود الفكرية أساسيات يجدر بنا أن نوجزها فيما يلي :

* إن صلاحية النظم التي تمثل الأفكار في بلد ما في وقت ما لا يعني بالضرورة صلاحية هذه الأفكار لإيجاد نظم شبيهة في بلد آخر.. أو في نفس البلد في وقت آخر.. إن التغاير الزماني والتغاير المكاني لا يمثلان شيئاً في ذاتهما بقدر ما يمثلان تغايراً في الساحة النفسية والاجتماعية للأمة.

* إن الأفكار التي تنبثق من عقيدة التوحيد يجب عدم الخلط بينها

وبين العقيدة التي انبثقت عنها.. كما أن الدفاع عن الأفكار يجب أن تحده احتمالات الاجتهاد فيها من صواب وخطأ.

* إن صلاحية عملية الانبثاق الفكري من عقيدة التوحيد تختبر من خلال صلاحية الأفكار المنبثقة ذاتها.. وإن صلاحية الأفكار المنبثقة تعتبر من خلال النظم الصادرة عنها.. أي أننا في النهاية نحتكم إلى التجربة والخبرة في الحكم على مدى صلاحية أفكارنا وفعالية نظمنا ومن ورائهما طريقتنا في الانبثاق عن العقيدة المهيمنة على قلوبنا.

قيـود تنظيميـة :

في المجتمعات الراكدة الساكنة والتي تنقصها العقيدة الموحية للتفاعل لإبداع حضارة تنمو وفق مسارها التاريخي.. في مثل هذه المجتمعات لا يرث الناس الأفكار فحسب وإنما يرثون النظم. يقول الله تعالى :

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ــ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ». **صدق الله العظيم** البقرة ــ ١٧٠

إن الأفكار يجب أن لا تورث مع الأرض وإنما هي مهمة كل جيل أن يبصر لنفسه.. وكذلك الأمر في عالم النظم التي هي وليدة عالم الأفكار.... فديناميكية الأفكار تستدعي ديناميكية النظم.. وديناميكية النظم تستدعي ديناميكية الأفكار.

وعندما تفقد الأفكار ديناميكيتها تبدأ النظم في فقدان ديناميكيتها، ويؤثر ذلك على الأفكار مرة أخرى فتفقد المزيد من الديناميكية وهكذا دواليك لتصل الأمة إلى ما نسميه فترات الانحطاط حيث تتجمد الأفكار والنظم معاً..

وعندما تكبّر الأمة معلنة نيتها لبعث حضاري تصطدم بما ورثته عن الآباء من نظم جامدة، فماذا تفعل ؟.

لا ريب أن أول الطريق هو بعث الديناميكية في عالم الأفكار...

يقول الله تعالى :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».

صدق الله العظيم سورة الرعد ١١

وبعث الديناميكية في عالم الأفكار هو مرآة طبيعية لشحذ الفعالية الروحية للأمة.. فالأفكار ـ هي البنية العقلية التي تنمو من مجموعة القيم والمبادئ التي تمثل عقيدة الأمة مقيدة بمجموعة من الضوابط الأخلاقية المصاحبة لهذه القيم والمبادئ.

إن الأصل في ديناميكية الأفكار هو أن كل نظم البشر، قديمها وحديثها، ينقصها الكمال وليس فيها شيء مقدس، ومن هنا يتحرك الفكر ليكمل النقص، ثم يتحرك الزمن وتتغير الأحوال فيبدو في النظم نقصاً ما كان ليراه الأولون، فهو لغير زمانهم، فيتحرك الفكر مرة أخرى لسد النقصان وإقامة العمران.

أما إذا جمد الفكر عند نظم موروثة فقَدَّسَها فإن هذه النظم سوف تصبح قيداً حضارياً يعوق مسيرة الحضارة وتفاعل الإنسان مع البيئة والزمن.

ومن الممكن بالطبع تبني النظم الموروثة عند نقطة البدء ـ إن كانت ما زالت كنقطة بدء ـ ولكن لا بد من الأخذ في الاعتبار أنها سوف تتعرض لعمليات تحوير وتبديل وتغيير لنصل بها إلى الكمال المنشود أو بعض منه.

وإذا كانت بعض هذه النظم الموروثة لا تصلح حتى كنقطة بدء، وكانت عجلة الزمان الدائرة تستدعي وجود نظم تحكم علاقتنا وشئوننا، ورأى مفكرونا نظماً أجنبية تصلح كنقطة بدء.. فلا بأس في هذه الأحوال من التبني المبدئي لها، واضعين في الاعتبار أيضاً أن هذه النظم سوف تتعرض للتغيير والتبديل والتحوير لنصل بها إلى توافق كامل مع حركة أفكارنا المنبثقة من عقيدتنا.

قيــود اجتماعيــة :

إن هذه مجموعة من القيود التي تقيد بها المجتمعات نفسها من غير

أن تمليها عليها عقائد تؤمن بها أو فلسفة تهيمن عليها. وهي مجموعة من القيود توارثتها المجتمعات جيلاً عن جيل، وربما كانت منابعها عميقة عمق التاريخ غير المكتوب لهذه المجتمعات.

ولا يعنينا في هذا البحث العادات الاجتماعية التي لا تؤثر على قيام الحضارات سلباً أو إيجاباً، وإنما يهمنا فيه العادات الاجتماعية التي تمثل قيداً على عملية البعث الحضاري نفسه.

ونضرب مثلاً بنوع من العلاقات الاجتماعية بين الأبناء والآباء السائدة في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية والتي تقوم على مفهوم التقليد والمحاكاة للآباء وهو تحريف شديد لمفهوم البر بالآباء في الإسلام. إن مثل هذا النوع من العلاقات يؤثر تأثيراً بالغاً على القدرة الإبداعية لدى الأبناء ويلقي ظلالاً كثيفة على كل سلوكهم في مجتمعهم الكبير، وربما يكون هذا هو المنبع للتواكل والاستسلامية التي تصبغ كثيراً من مجتمعاتنا.

وفي مجتمعاتنا العربية تتخذ بعض علاقاتنا الاجتماعية أشكالاً تعوق الضمير الفردي من الانطلاق وتحده في إطار الضمير الاجتماعي ولو كان خاطئاً.

إن ضمير الجماعة غير ملزم لضمير الفرد، فالقرآن ينكر على الإنسان أن ينجرف مع التيار الاجتماعي، فمسئولية الإنسان مسئولية فردية.. وحسبنا أن نقرأ هذه الآيات في محكم التنزيل لنتبين حث القرآن للإنسان المسلم أن يعيش بضمير يراقب الله وحده ويخشى الله وحده : يقول الله تعالى :

« وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ».

سبأ ـ ٣١

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين ».

سبأ ـ ٣٢

« وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ». **صدق الله العظيم**

سبأ ـ ٣٣

إن التواكل والمجاملة على حساب المصلحة العامة، والإسراف في الاستهلاك في المناسبات والأعياد، والركون إلى الكسل وعدم إتقان العمل، كلها عادات ليست من الإسلام في شيء، وتشكل عوائق أساسية للإقلاع الحضاري.

ان البعث الحضاري للأمة يقتضي منا تغيير كثير من عاداتنا الاجتماعية التي تمنع حركتنا من الانطلاق، ولن يتم هذا التغيير إلا بالقدوة الحسنة والإرشاد الهادف.. إن المسئولية كبيرة ولا بد أن يشترك فيها أبناء المجتمع كله، فهي مسئولية الجميع وإن كانت تقع في جزئها الأكبر على القدوة.

خاتمة :

إن مفهوم التحدي الحضاري الذي يواجهه المسلمون في القرن العشرين لن يكون شاملاً ودقيقاً في غياب المعرفة التامة بما يحيط بهم من قيود تحكم حياتهم اليوم، ولعل ما حاولنا إثارته في الصفحات السابقة يؤكد أن جوهر التحدي الحضاري يكمن في أن يلتزم المسلمون بعقيدتهم، ويثبتوا على مبادئهم، ويلتزموا بقيمهم، ويتمسكوا بأصالتهم، ويعتزوا بشخصيتهم وهم

يتأهبون للإقلاع الحضاري ليعيدوا الفترات المشرقة من التاريخ الحضاري لأمتهم، وليستعيدوا أمجادها الغابرة بعزم وإصرار. ولن يكون الأمر سهلاً وميسوراً وهم يعيشون ومن حولهم دوامات فكرية طاغية، ويتعايشون مع بريق حضاري زائف.

إن التيه الحضاري الذي يعيشه الغرب، والأمية الحضارية التي يعيشها العالم الإسلامي يفرضان أبعاد التحدي، وما لم نستنفر جميع قدراتنا الروحية والمادية، ونتحلل من القيود الفكرية والتنظيمية والاجتماعية التي لا ترتكز على عقيدتنا، فإن مواجهتنا للتحدي الحضاري ستظل محدودة الفعالية، بل وعديمة الجدوى.

إن الصحوة الإسلامية التي نشهد انبثاقها اليوم في أرجاء وطننا الإسلامي الكبير جاءت كنتيجة حتمية لنداء التضامن والتآخي والعودة إلى تحكيم كتاب الله... ذلك النداء الذي انطلق من هذه الأرض الطاهرة المقدسة،ودوى به صوت ذلك المؤمن القوي، فيصل بن عبد العزيز رحمه الله.

إن هذه الصحوة تبدو وكأنها بشرى ميلاد دورة حضارية جديدة في حياة الأمة الإسلامية، ولنا أن نستبشر بذلك ونتفاءل.

التحديات الثقافية المعاصرة التي تواجه الأمة الإسلامية

للاستاذ أحمد فون دنفر

بسم الله الرحمن الرحيم

مفهــوم الثقافــة :

الثقافة، شأنها شأن كثير من المفاهيم التي يستعملها علماء الاجتماع، اصطلاح ومفهوم شاع استعماله دون الاتفاق على تعريف عام له، أو بعبارة أخرى، فإن الحديث عن الثقافة يعني أولاً تحديد ماهية الثقافة ومكانها في تفكير الفرد. وسأقوم بهذه المحاولة بعد مناقشة مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية عند الغربيين.

وإذا كان علماء القرن التاسع عشر يميلون إلى ربط مفهومهم للثقافة بالمسلمات الفلسفية التي راجت في ذلك العصر، وكانوا غالباً ما يتحدثون عن الثقافة كشيء منفصل عن « الأشكال الخارجية التي تنظم هذا المفهوم »، فإن علم الاجتماع الحديث يرى أن الثقافة ينبغي النظر إليها كجزء لا ينفصل عن الواقع الاجتماعي. وقد استعمل هذا المفهوم، ومازال يستعمل حتى الآن بصدد العلاقات الخاصة بالسلوك الإنساني التي تعلن عن نفسها في صور شتى. ويمكن أن نضرب مثلاً بعادات الطعام لتوضيح الاختلافات البينة العديدة التي نصادفها في ضرب واحد من ضروب النشاط الإنساني المتعددة، فبعض القبائل الرعوية مثل قبائل الصومال أو الماساس

في كينيا يعيشون في أغلب الأحيان على اللبن ومنتجاته فحسب، بينما تعيش قبائل الصيد في بلاد الاسكيمو على اللحوم والأسماك. وهناك سكان آخرون يتألف طعامهم من الخضروات وحدها. وشبيه بذلك عادات الأزياء والملابس، وطرق الانتاج والحرف الاقتصادية، وكذلك تتعدد العلاقات التي تنشأ فيما بين الجماعات والمعتقدات والأيديولوجيات.

وفي منتصف القرن التاسع عشر ظهرت المدرسة التي تؤمن بمذهب النشوء فضلاً عن النظريات التي شاعت حينذاك عن التطور البيولوجي، بزعامة مورجان الأمريكي وتايلور البريطاني، وقد روجت هذه المدرسة للفكرة القائلة بأن الجماعات البشرية والمجتمعات التي تعتبر « متحضرة » هي أكثر تطوراً وارتقاء من العناصر البشرية التي تعتبر « بدائية ». وكان لديهم افتراض بأن الإنسان « البدائي »، إذا ما توفرت له الحماية والرعاية والدوافع الضرورية، فإنه سوف يصل في نهاية الأمر إلى مرحلة مساوية للمرحلة التي بلغها من سبقوه في الصعود على سلم الارتقاء. وما تزال آثار هذا المفهوم بادية في كل مناقشة تدور حول الدول المتقدمة والمتخلفة، وعن العالم الأول والعالم الثالث، وعن العالم الغربي والعالم غير الغربي. ومن الحقائق المعروفة والتي لا تحتاج إلى مزيد من الإيضاح في هذه المقام أن هذه النظريات التي تتحدث عن النشوء والتطور البيولوجي والاجتماعي هي التي دعمت العنصرية بصورها المختلفة، وساندت الامبريالية والسيطرة الاستعمارية وهيأت لها الشرعية التي تستند إليها. إلا أنه ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن أول تعريف حديث له وزنه للثقافة قد ظهر في إطار تلك البيئة الثقافية. كان من رأي تايلور أن جانباً كبيراً من السلوك البشري لا يمكن تفسيره استناداً إلى الاعتبارات البيولوجية وحدها، ومن ثم فقد عرف الثقافة بأنها ذلك الكيان المركب الذي يتضمن المعرفة والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والعادات وأي قدرات أو عادات أخرى يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع. كما أجرى كروبر وكلاكهون دراسة مقارنة لعدة مئات من التعريفات والتوصيفات للثقافة والتي وضعها علماء الأجناس البشرية وغيرهم، وتبين لهما أن معظم علماء السلوك يصوغون الآن مفهوم الثقافة على نحو قريب من الآتي :

« تتألف الثقافة من أنماط صريحة وضمنية للسلوك المكتسب، ويتم نقلها باستخدام رموز تمثل الإنجازات الغريزية للجماعات البشرية بما في ذلك ما صنعته أيديهم من أشكال تجسيدية. والجوهر الأساسي للثقافة يتكون من الأفكار التقليدية (بمعنى الأفكار الناشئة والمنتقاة من مصادر تاريخية) وخاصة ما يرتبط بها من قيم. ويمكن اعتبار النظم الثقافية على أنها من إنتاج العمل من جهة، كما يمكن اعتبارها من جهة أخرى على أنها مؤثرات تتحكم في العمل الجديد » ولا تختلف هذه الصيغة كثيراً عن تعريف تايلور على الرغم من اختلاف المفردات اللغوية المستعملة فيه، وان يكن تعريف تايلور قد شدد بعض الشيء على ما يعرف « بالثقافة المادية »، وعلى أية حال، فإننا إذا نظرنا إلى « لب » الثقافة سنجد « الآراء » و « القيم » تمثل ما أسماه تايلور « بالمعرفة والمعتقدات والقانون والأخلاق والعادات ».

وهنا نصل إلى استنتاج بأن المفهوم الحديث للثقافة في العلوم الاجتماعية لا يختلف كثيراً عن المفهوم السابق مع وجود مؤثرات واضحة لمذهب النشوء والارتقاء تبدو ظاهرة للعيان.

ويرى علماء الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) أيضاً أن الثقافة لها مجالات ثلاثة متميزة وهي المجال التكنولوجي والمجال الاجتماعي والمجال العقائدي. ومع أنه تجري مناقشة كل من هذه المجالات على حدة بغرض التحليل والدراسة، إلا أنها ـ فيما يقال ـ مجالات وثيقة الصلة والترابط ويؤثر كل منها على الآخر، لأن حدوث تغييرات في المجال التكنولوجي أو الاجتماعي سيؤدي إلى حدوث تغيير في المعتقدات مما يؤثر بدوره من جديد على التنظيم الاجتماعي. وقد أجرى « جيرتز » دراسة مقارنة لمدينتين في أندونيسيا أوضحتا مثل هذه العلاقة المتداخلة بين التغيير الاجتماعي والتحديث الاقتصادي، مما يشير إلى أن التأثير العقائدي ـ وليس التغيير التكنولوجي أو الاقتصادي فحسب ـ يمكن أن يكون عاملاً مشجعاً على التنمية والتطور. فقد كتب يقول :

« في ضوء نظريات (ماكس ويبر) عن الدور الذي لعبته البروتستانتية في تشجيع قيام مجتمع الأعمال والتجارة في الغرب، قد لا يبدو أن القادة الذين اضطلعوا باقامة مثل هذا المجتمع في مدينة (موجو كوتو)، كانت أكثريتهم من دعاة الإصلاح المسلمين، وذلك لأن الدور الفكري لحركة الإصلاح الديني في الإسلام يقرب ـ من بعض النواحي على الأقل ـ من الدور الذي لعبته الكنيسة البروتستانتية في المسيحية. ومن هنا فإن حركة الإصلاح الديني التي اجتاحت الطبقات التجارية في مدن جزيرة جاوة في الفترة من ١٩١٢ ـ ١٩٢٠، قد مهدت الطريق لنشوء آداب أصيلة لأرباب التجارة من خلال تشديدها على أن السعي المنظم الدؤوب لتحقيق أغراض دنيوية يمكن أن يكون فضيلة لها أهميتها الكبرى ومغزاها الديني. كما أن استبدال هذه الحركة لمبدأ حرية الإرادة الذي يستهدف تحقيق التقدم بمبدأ الجبرية التقليدي في الإسلام، كان له أثره في حقن البيئة التجارية بقوة ديناميكية فعالة كانت تفتقر إليها في الماضي... ومن هنا نجد أن التنمية الاقتصادية في (موجو كوتو) تميل إلى الشكل التقليدي الذي عرفناه في الغرب رغم ما بين المجتمعين من اختلافات ثقافية ملحوظة. فلقد برزت من صفوف الطبقة التجارية التقليدية هنا جماعة من صغار التجار والصناع الذين كانوا موضع زراية بصفة عامة، وراحت تسعى، تحركها دوافع دينية إلى حد ما على الأقل، للوصول إلى وضع أفضل في مجتمع هبت عليه رياح التغيير، عن طريق طلب الثروة بطريقة رشيدة منظمة »[1].

وليس في نيتي أن أتعرض لكافة القضايا التي يمكن أن تثار في هذا الصدد، والأحرى بنا أن نكتفي بهذه الملاحظة، وهي أن الكاتب عندما يتعرض لوصف حركة ما في بيئة ثقافية حتى ولو كانت بيئة غير غربية بشكل واضح المعالم، فإن التفسير الوحيد الذي يفكر في طرحه هو التفسير الذي يعد شائعاً في المحيط الغربي. وإذا كان « ماركس » هو أبرز المصادر التي يرجع إليها لتأييد الرأي القائل بأن حدوث تغيير في وسيلة الانتاج وبالتالي في الأساس الاقتصادي، يؤدي إلى حدوث تغيير في العقيدة الأيديولوجية، فقد

---

(١) حاشية ـ صفحة ٥.

جرت العادة على الاستشهاد بأقوال « ويبر » لتأييد أية ملاحظات تدل على أن التغيير الأيديولوجي يؤثر على البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع.

غير أنه من الواضح أن عقد مقارنة بين الإصلاح الديني في الإسلام ـ ويقصد به تأثير الأفغاني ومحمد عبده[١] ـ وبين الحركة البروتستانتية في المسيحية على الرغم من وجود بعض أوجه للتشابه الواضح بينها ـ في أسلوب التعبير أكثر وليس في المفهوم ـ هذه المقارنة تتطلب أكثر من مجرد الكلام العام، ولا يمكن أن توضح ما يرمي « جيرتز » إلى شرحه وتبيانه. لأن ما يعنينا في هذا المقام هو الثقافة، وإذا كان ويبر يدعي في كتابه « الأخلاق البروتستانتية » أساساً أن ازدياد النشاط الاقتصادي نجم عن الفكرة المستقاة إلى حد كبير من مذهب « كالفن » والقائلة بأن الله قد اختار لكل إنسان مصيره وأن السعادة والغنى في هذا العالم دليل على أن ذلك أمر أراده الله[٢] »، فإن مثل هذا المفهوم لا وجود له في الإسلام. وفضلاً عن ذلك فإن جيرتز نفسه، بادعائه أنه وجد أن « مذهب الجبر التقليدي في الإسلام قد حل محله مبدأ حرية الإرادة التي تستهدف التقدم[٣] »، يتزعم هذا الادعاء والقول المنافي للعقل. فالواقع أن فكرة الجبرية والقدرية في حركة البروتستانتية المسيحية هي التي أدت ـ طبقاً لما يقوله ويبر ـ إلى حدوث التغير الاقتصادي وظهور « روح الرأسمالية ».

وأخيراً وليس آخراً أود أن أوجه الانتباه إلى الفكرة القائمة على أساس مذهب النشوء أساساً، والتي تلازم هذا التحليل الذي يتجاوز نطاق الثقافة، وكذلك الفكرة الخاصة باستقرار الثقافة والتي تتردد حاليا في العلوم الاجتماعية الغربية : « أن النظم الثقافية تظل باقية في بيئات معينة لأنها قابلة للتكيف مع هذه البيئات، والمعنى الأساسي لذلك هو أن المنتسبين لهذا النظام الثقافي يمكنهم البقاء والاستمرار والانتاج عن طريق ترجمة المعتقدات

---

(١) حاشية ـ صفحة ٦.

(٢) حاشية (١) ص ٧.

(٣) حاشية (٢) ص ٧.

والسياسات المختلفة التي يتضمنها التراث الثقافي إلى عمل.... وبعبارة أخرى فإن استمرار نظام ثقافي ما يعتمد على ما يمكن أن نسميه ولاء المنتسبين إليه، كما يعتمد على قدرة هذا النظام على تقديم الحلول لمشكلات التكيف[1] ».

ومن الواضح أن الفكر التطوري الكلاسيكي، مع ارتباطه بنظرية النشوء والارتقاء، قد ترك طابعه على هذه الآراء أيضاً، وهو ما يلمحه حتى القارئ العابر من قراءته لبعض الألفاظ الأساسية في تلك النظرية مثل : البقاء والبيئة والتكيف. ولكن الأهم من التحليل اللغوي هو الفلسفة الجبرية التي تشكل الأساس لكل من نظريتي النشوء البيولوجي أو الارتقاء الاجتماعي. فهذه الفلسفة تبدو هنا وفي مواضع أخرى واضحة في معادلة البقاء مع التكيف مع البيئة، وتلك على وجه التحديد هي النقطة التي يثير المسلم عندها الاعتراضات. وإنه لمما يدعو للسخرية أن المسلم، عندما يتهمه المتحدثون باسم الفكر العلمي الحديث بأنه يعتنق مبدأ الجبر ويصفونه بأنه يؤمن بالقضاء والقدر، فإنه يدعي مناقضاً أن الثقافة، أو ثقافته الإسلامية على الأقل، لا سبيل لها للبقاء عن طريق التكيف، ولكنها تأتي إلى الحياة ويتسنى لها البقاء والاستمرار فقط عن طريق إحداث تغيير في البيئة، وعنده أن البيئة هي التي ينبغي لها أن تتكيف مع ثقافته وليس العكس.

وقبل الإضافة في شرح هذه النقطة يثور سؤال عما ينبغي أن تكون عليه ثقافة المسلم، ومن أجل هذا الغرض يجدر بنا أن نقدم تعريفاً أوسع نطاقاً للثقافة طالما أن نظرة المسلم إلى العالم نظرة كونية بطبيعتها. ويمكن القول بأن الثقافة يكمن وراءها بعض الأنماط للسلوك البشري، ومع أنه قد تكون هناك قليل أو كثير من مجالات النشاط البشري التي تتحكم فيها، هذه الأنماط السلوكية بشكل ظاهر، فإن هذه المجالات جميعها ترتبط بتلك الأنماط بمقدار قبولها أو نبذها طوعاً أو كرهاً، والثقافة هي حصيلة هذه المبادئ أو الأنماط عندما توضع موضع التطبيق بدرجات متفاوتة من

---

(١) حاشية (١) ص ٨.

الكمال والأصالة والتكيف الإرادي. أو بعبارة أخرى فإن الثقافة تصبح هي العقيدة الأيديولوجية نابضة بالحياة.

* * *

الثقافة الإسلامية :

لا ريب في أن القرآن الكريم والسنة هما مصدر القوانين والمبادىء التي تحكم حياة المسلم. وفي حين نجد القرآن الكريم، وهو الكتاب المنزل من الله للبشر، كثيراً ما يحدد قواعد السلوك والأحكام التفصيلية لبعض الحالات مثل الزواج والميراث، نجد في حالات أخرى أن سنة الرسول ﷺ هي التي ترشدنا إلى الطريقة التي يمكن بها تنفيذ مبدأ معين ورد في القرآن الكريم، ويجب النظر إلى ما تتسم به السنة من طبيعة عملية تنحو منحى التطبيق في إطار نظرة المسلم بأن السنة أمر من الله، شأنها شأن القرآن الكريم، وأنها ملزمة للإنسان. وقد شرح الإمام الشافعي هذه النظرة بشيء من التفصيل في « كتاب الرسالة » في الباب الخاص بالسنة حيث يقول : « إن كل ما أمر به الرسول ولا يستند إلى أمر من الله في كتابه، إنما فعله بأمر من الله، لأن الله دلنا على ذلك في قوله تعالى « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله[1] ». لأن الرسول حدد السنة لما ورد فيه نص في كتاب الله، ولما لم يرد فيه نص. ومهما كان ما جاءت به السنة، فإن الله أمرنا بأن نطيعه، وهو يعتبر طاعتنا له طاعة لله، وعدم طاعتنا له عصيان لله لا يغتفر، وكذلك ليس ثمة عذر يبرر الامتناع عن طاعة سنة رسول الله »[2].

وهذا الاتجاه توضحه أيضاً نصوص القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخرِ، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً »[3].

---

(١) سورة الشورى آية ٥٢.
(٢) حاشية رقم (٢) ص ١٠.
(٣) سورة النساء آية ٥٩.

وبعبارة أخرى يصبح من المحتم على من يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يستمدوا مقاييس السلوك والعمل من الله ورسوله مما يعني أن يستمدوها من القرآن والسنة.

وكتب الحديث المفيدة، التي نقلت إلينا سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، هي في الواقع دوائر معارف حقيقية تتناول كافة مجالات السلوك الإنساني. فالإسلام كما حدده القرآن الكريم وطبقه الرسول، هو طريقة حياة شمولية، والمسلم الذي يجتهد منذ أن يصبح إلى أن يمسي، وحتى في ساعات نومه اللاإرادي، في التكيف مع هذا الأسلوب المعيشي، إنما يجد ضالته المنشودة في الرسول نفسه:

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[1].

وروي عن الرسول ﷺ أنه قال:

« ما تركت شيئاً مما أمرني الله به لم أبلغكم به، وما تركت شيئاً مما نهاكم عنه لم أنهكم عنه ». وهذا البرنامج الشامل لسلوك الإنسان في كافة مجالات حياته وأوجه نشاطه المتعددة، يعتبر مطلقاً من ناحيتين:

أولاً: أنه يطلب الخضوع التام من الفرد.

ثانياً: أنه موجه لكافة البشر. فقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يتوجه برسالته، ليس لعشيرته الأقربين أو لبني قومه، وإنما للناس جميعاً.

« قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً.... »[2].

وإذا نحينا جانباً ما قد يثور من تساؤل حول ما إذا كان هذا البرنامج العملي الشامل الذي أقامه القرآن الكريم والسنة ينطبق تمام الانطباق على ما يعنيه علماء الاجتماع بالأيديولوجية، فإنه يبدو جلياً من العرض الموجز الذي قدمناه أن الهداية كلها ـ عند من اختاروا الإسلام ديناً ـ تأتي من عند الله عن طريق وحيه المنزل كما ورد في القرآن الكريم، وكما طبقه الرسول ﷺ

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢١.

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٨.

بنفسه ونقل إلينا في السنة المروية عنه. وهكذا تحددت أمام المسلم معايير السلوك في الحياة تحديداً واضحاً، وهذه المعايير في متناول كل من يرغب في العمل بها. ولقد سجلت هذه المعايير كتابة وتدويناً، وحفظت في الذاكرة ليسهل الرجوع إليها ولحمايتها من أي تحريف مقصود أو غير مقصود. وفضلاً عن ذلك فقد كلف المسلمون بواجب تبليغ رسالة الإسلام، وبالتالي تصبح المعايير التي تحكم طريقة الحياة الإسلامية في متناول العالم أجمع. وإذا ما وقع شيء من الخطأ أو التحريف أو سوء الفهم خلال عملية نشر الإسلام، فإنه من السهولة بمكان الرجوع إلى القرآن والسنة اللذين يحتويان على كل ما يدعو إليه المسلم وكل ما ينبغي أن يدعو إليه المسلم.

أما عن الابتداع في الدين والذي ندد به الرسول عليه الصلاة والسلام في أقوى عبارة[1]، فإنه من السهولة كشف أمره، ثم فضحه وطرحه طالما أن المعايير الصحيحة محفوظة بنصوصها الأصلية وموجودة في متناول الكافة.

ومن هنا نجد أنه لم يترك شيء للصدفة فيما يتعلق بالإرشادات التي وضعت لكي يسير المسلم على هديها وبرنامج العمل الذي يحدد سلوكه، لأن الله ورسوله قد حددا بوضوح أنماط السلوك التي يجب الاقتداء بها والتي جاءت على نحو يفهمه كل من أراد السير عليها.

وأخيراً يجدر الإشارة إلى أن اعتناق المسلم لأسلوب الحياة الإسلامية في ظل هذه الظروف، ليس عملاً لا إرادياً، بل هو قرار واع يحتاج إلى تجديده باستمرار على ضوء الاختيارات التي يتعين على المسلم أن يأخذ بها في حياته اليومية، والتي يعرض له فيها دوماً أن يختار بين اتباع هدى الله أو الاقتداء بمعايير أخرى، ومن هنا نجد أنه على الرغم من أن المعايير الخاصة بأسلوب المعيشة الإسلامي ثابتة ومحددة، فإن الطريقة والمدى الذي يذهب إليه المسلم في وضعها موضع التطبيق، متروكان لتقدير المسلم. وهنا تقع مسئولية الإنسان عن عمله. وعلى أية حال فإن هذه النقطة تخرج عن نطاق هذا البحث، وسوف نصف الآن بإيجاز كيف استطاع المسلمون الحفاظ

---

(١) « ... كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار » ـ الأربعين للنووي ـ رقم ٢٨.

على المعايير التي أسندت أمانتها إليهم في مواجهة التحريفات التي حدثت خلال تاريخهم.

إحيـاء الدين والثقافة الإسلامية :

إن نظرة عابرة على سجلات تاريخ الشعوب الإسلامية منذ وفاة الرسول ﷺ تكشف النقاب عن أن تعاليم الإسلام تتعرض لهجوم مستمر من جهات عديدة، وما أكثر قصص الانحرافات ومحاولات البدع والضغوط بشتى الصور والأشكال، ولو تعقبناها لملأت الصفحات الطوال، فكيف تسنى إذن لتعاليم الإسلام وأنماط السلوك التي ذكرنا أنها الأساس الذي تقوم عليه ثقافة المسلم أن تبقى خالصة نقية دون تشويه ؟ إن التفسير الوحيد الذي يمكن أن يسوقه المسلم لهذه الظاهرة هو أنها إرادة الله الخالق والرزاق الذي أنزل الإسلام شريعة كاملة وخاتمة للإنسان في الحياة[1]. والذي أوحى لنبية ﷺ أن يبين بوضوح في الحديث التالي كيف ستتم المحافظة على تعاليم الإسلام. فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها »[2]. ويمكن أن نضيف إلى ذلك ما قاله أبو الأعلى المودودي من أن هذا الحديث لا يعني بالضرورة أفراداً مستقلين يتحملون عبء حماية الإسلام من النساء، ولكن هذه المهمة في الواقع قد يضطلع بها عدد من الأشخاص أو الجماعات في نفس القرن »[3].

ونعود إلى بحثنا الأصلي حول ثقافة المسلم التاريخية والتي نعتبرها ـ حسب تعريفنا السابق ـ بمثابة الأيديولوجية الحية وأنماط السلوك الإنساني الموضوعة موضع التطبيق بدرجات متفاوتة من الأصالة، وهنا لا بد لنا أن نكون واضحين إزاء هذه الحقيقة وهي أن الثقافة الإسلامية، وإن ارتبطت ارتباطاً أساسياً بالمعايير الإسلامية للسلوك البشري، لا يمكن معادلتها

(١) انظر القرآن الكريم ٥ : ٤.
(٢) حاشية رقم (٢) صفحة ١٥.
(٣) حاشية رقم (٢) صفحة ١٥.

بالأنماط المنزلة من عند الله. ومع ذلك فإن الثقافة الإسلامية محددة بقضاء الله وقدره وأنه هو سبحانه الذي فرضها على الأنام. ثم تكونت المسافة التي تفصل بين الثقافة الإسلامية الواقعية وبين الأنماط التي تشكل الأساس لهذه الثقافة، ويرجع ذلك جزئياً بطبيعة الحال إلى عزوف الكثيرين عن تطبيق المعايير المطلوبة في حياتهم. ومن ناحية أخرى كان هناك دائماً وماتزال توجد حتى اليوم محاولات مضادة مقصودة للوقوف في وجه أية مساعي يبذلها الفرد المسلم أو شعب مسلم بأسره لكي يعيش طبقاً للقواعد المقررة في القرآن والسنة، وسوف نناقش هذه المسألة بمزيد من التفصيل عندما نتعرض لتجربة التبشير المسيحية في الأقطار الإسلامية، وقد تختلف الدوافع التي تحرك مثل هذه الحملة المضادة، ولكنها تسعى وراء هدف واحد ألا وهو الحيلولة دون وضع الإسلام موضع التطبيق، وما ذاك إلا لأن تطبيق الإسلام، والذي يعني تشكيل الواقع طبقاً للمعايير المقررة من عند الله، لن يجعل النصر حليفاً لغير المسلمين، بل إن على غير المسلمين أنفسهم أن يمتثلوا للمعايير الإسلامية في هذه الناحية أو تلك، مما سيحول بينهم وبين تحقيق الغايات والأهداف التي وضعوها نصب أعينهم سواء أكانت فرض ضغوط غير مشروعة أو تحقيق مكاسب مادية أو حتى فرض سيطرتهم على الشعوب والدول.

الصـــراع من أجل الثقافة الإسلامية :

إن الصراع بين الإسلام والجاهلية مازال مستمراً حتى يومنا هذا، وإذا كان عالمنا الحديث قد طرأت عليه تغييرات كثيرة خلال الحقب الأخيرة، فلقد وقفت حقيقة واحدة في مواجهة كثير من الأباطيل. وإذا كان يبدو لنا أن الشخصيات الإسلامية الفذة التي ظهرت في الآونة الأخيرة قد ساندت تعاليم الإسلام الصحيحة ضد كل أشكال الفساد، فلعل قربنا من الأحداث الأخيرة هو الذي يجعلنا ننظر إلى الحركات الإسلامية التي التفت حول تلك الشخصيات الفذة على أنها القوى الحقيقية وراء الصراع المستمر، ولكننا لو

درسنا تاريخ هذا الصراع بمزيد من العمق، لأدركنا على الفور أن هذا الأمر ينسحب على الماضي أيضاً[1].

وها نحن نرى المسلمين اليوم في كافة أرجاء العالم تحت زعامة قائد فذ في بعض الأحيان، أو في جماعات صغيرة أحياناً أخرى أو في منظمات كبرى، نراهم يجاهدون لتحقيق هدف واحد في بقاع كثيرة من العالم، وهو تطبيق الإسلام. ومما يدعو للأسف أن هذا الكفاح يوصف في بعض الأحيان وصفاً سطحياً بعبارة « تطبيق الشريعة الإسلامية ». ومع أنه ليس هناك أدنى شك في أن التطبيق الكامل للشريعة هو الطريق الأمثل لإقامة الثقافة الإسلامية ودعمها، فإننا يجب أن نتذكر أن الإسلام ليس مجرد الشريعة، وأنه في حاجة إلى مسلمين بمعنى الكلمة لكي يجعلوا من تطبيق الشريعة عملاً له مغزاه وأداة نافعة لتحويل المجتمع إلى مجتمع إسلامي. فالإسلام لا يوضع موضع التطبيق بمجرد إصدار قرار بتطبيق الشريعة أو ربما بتطبيق أجزاء منها فحسب على نحو ما نراه اليوم في كثير من أقطارنا التي استبدلت القوانين الأجنبية فيها بكل أوامر الإسلام تقريباً.

وإذا أريد توثيق الصلة بين الثقافة الإسلامية وبين الأنماط التي تشكل أساس هذه الثقافة بالقدر الذي يستطيعه البشر، فلا بد من خوض كفاح عظيم وجهاد مستمر، وهو الكفاح الذي خاضه أجدادنا. وكان الدرس البسيط الذي يكمن وراء جهادهم الذي استمر طوال حياتهم هو أن يكونوا في حياتهم الخاصة وحتى في أدق شئونهم وأحوالهم الشخصية على صلة وثيقة بالقرآن والسنة، وأن يعرضوا عن كل البدع التي يقصد بها أن يضاف إلى الإسلام ما لم يأمر به الله ورسوله.

---

(١) ان ظهور ما يسمى بمدارس الفقه أو المذاهب لدليل على أن أولئك الأئمة العظام مثل أحمد بن حنبل والشافعي لم يقاوموا الأخطار التي تهددت التعاليم الإسلامية بمعزل عن الأمة، بل ان هؤلاء الأئمة رأوا أن من واجبهم ومن حقهم أن يقفوا مع الأمة ويتحدثوا باسمها، كما يتضح من موقف النووي ــ كمثل واحد من مواقف عديدة ــ الذي طرده السلطان بيبر من دمشق لأنه رفض أن يصدر فتوى تبيح اتخاذ اجراءات غير شرعية ضد ممتلكات أهالي سوريا.

كانوا يؤمنون، ونحن نؤمن معهم، بأن حياتنا الشخصية وحياتنا الجماعية، وشئوننا اليومية ونظام عملنا ونشاطنا الخاص في أي دور نضطلع به، رجلاً أم امرأة، زوجاً أو زوجة، والداً أم ولداً، معلماً أم تلميذاً، تاجراً أو مشترياً، جندياً أم صانعاً...... الخ، هذه الشئون كلها يمكن أن تصاغ وفقاً للأنماط التي حددت لنا في القرآن والسنة. ومن هنا نجد أن كفاحهم، والكفاح الذي ينتظرنا أيضاً، هو تغيير الواقع الاجتماعي الذي يحيط بنا بحيث يتمشى مع المعايير التي يقبلها الله باعتبارها المعايير الأنسب والأكمل والأكثر تآلفاً واتساعاً.

ومعنى هذا في التطبيق العملي أن ننظر نظرة فاحصة للواقع الاجتماعي ولجميع القوى والمؤثرات التي تشكل هذا الواقع وتحدد إطاره، فما كان منها موافقاً للقرآن والسنة قبلناه ونفذناه، وما لا يتفق منها مع معاييرنا أو يناقضها فيجب تعيين هويته على أنه مخالف لهذه المعايير، والربط بينه وبين ما يحدثه من آثار، والعمل على إلغائه بأنسب الطرق. وهذا التحليل، وهذا الإجراء يجب أن يشمل الواقع الاجتماعي كله، من قمته إلى قاعدته الدنيا، بحيث يتناول كل المجالات التي يتألف منها هذا الواقع ابتداء من التعليم حتى الزعامة والرئاسة، ومن القانون حتى توزيع الثروة ومن العادات القروية إلى العلاقات الدولية. ويجب خوض الكفاح في كل مجال من هذه المجالات بصور مختلفة تبعاً لما تتطلبه مقتضيات الموقف ابتداء من المعارضة الصامتة إلى عدم المشاركة وانتهاء بالصراع المسلح والتضحية بالنفس والمال[1]. وبذلك نسعى كمسلمين لتشكيل ثقافتنا وصوغها بطريقة إيجابية وجعلها موافقة للنمط الذي قبلناه على أنه مقرر لنا من عند الله خالقنا وناصرنا، بدلاً من أن نشكل نحن أنفسنا وتصاغ حياتنا طبقاً لثقافة مأخوذة في معظم عناصرها من قيم ومبادئ مخالفة ومناقضة لمبادئنا وقيمنا، والتي جلبها إلينا أعداؤنا عامدين، أو التي نشأت وتكونت نتيجة للتفاعل بين جهودهم وجهودنا.

---

(١) انظر الأحاديث الأربعين للنووي ـ رقم ٣٤.

بقي لنا أن نقول أن النبي ـ ﷺ ـ والمؤمنين حقاً خاضوا الصراع في الوسط المباشر الذي كانوا يعيشون فيه، غير مبالين بمساكنهم أو أعمارهم أو مكانتهم الاجتماعية أو ثرواتهم، ولم يتساهلوا حتى مع ذوي قرباهم أو حتى مع آبائهم أو أبنائهم. فقد أعلن النبي نفسه أنه لو سرقت ابنته فاطمة لقطع يدها. وبذلك نرى أن توثيق الصلة بين السلوك الفردي والجماعي وبين الأنماط التي قررها القرآن والسنة، تقع مسئوليته أولاً على عاتق كل فرد منا وصراعه في محيط واقعنا الاجتماعي وبيئتنا وأسرتنا وقريتنا ومدينتنا وبلدنا.

الغـــرب :

ينبغي لنا أن نوضح منذ البداية أننا نعني بكلمة « الغرب » تلك الثقافة التي تشمل كلا من المعسكرين الرأسمالي والشيوعي، لأن كليهما من نتاج هذه الثقافة، ومن المسلّم به الآن أن الاستعمار والامبريالية اللذين حددا مسار تاريخ العالم خلال القرون الماضية، يعتمدان في أساسهما على أسباب اقتصادية، وهذا القول صحيح إلى حد بعيد حتى بالنسبة للحروب الصليبية التي تمثل صورة من صور العدوان المبكر على المسلمين وثقافتهم وعقيدتهم[1].

أما بالنسبة لتاريخ الغرب الحديث في اضطهاد واستغلال أجزاء كبيرة من العالم ـ الإسلامي وغير الإسلامي على السواء ـ فإن دعاة التوسع الاستعماري لم يحاولوا مطلقاً إخفاء دوافعهم الحقيقية. فالاستغلال الاستعماري لم يكن من صنع الرحالة والمكتشفين وإنما كان من تدبير مؤسسات وشركات كبرى أسست خصيصاً لهذا الغرض. وموجز القول أن العلاقة الاقتصادية بين الغرب وبقية العالم تقوم على أساس توزيع الأدوار على

---

(١) ظل المستشرقون حتى عهد قريب يرددون دون اعتراض من أحد، أن فكرة نشر العقيدة بالسيف، وهي الأساس الذي قامت عليه الحملات الصليبية، ليس لها أساس في المسيحية، ولا بد أنها مأخوذة من الإسلام. كما ورد في كتاب لا يزال مقرراً حتى اليوم في الجامعات الألمانية كمدخل لتاريخ العرب.

(٢) منذ أن تأسست شركة الهند الشرقية الهولندية في عام ١٦٠٣م وهي توجه حكامها في جاوة « لاقامة التجارة في جزر الهند بما يعود بالنفع على اسم المسيح العظيم، ويحقق الخلاص للوثنيين ».

النحو التالي : يتخصص العالم غير الغربي في إنتاج المواد الأولية بأسعار رخيصة، وتستخدم الدول الغربية هذه المواد في إنتاج بضائعها التي تبيعها بأسعار باهظة للدول غير الغربية. ويؤدي الدوران في هذه الحلقة إلى زيادة الاستغلال وتزايد اعتماد الشعوب غير الغربية على الغرب.

ويجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على تاريخ الامبراطورية العثمانية على سبيل الإيضاح، فلقد ساعدت الدول الغربية وعلى رأسها فرنسا الحكام العثمانيين في إصلاح الجيش والذي كان يعتبره السلطان سليم ضرورياً نظراً لتدهور الدولة العثمانية بعد القرن السابع عشر. وفي عام ١٧٩٣م، أصدر السلطان سليم عدداً من القوانين تعرف باسم « النظام الجديد » تهدف أساساً لإقامة جهاز عسكري جديد يتولى تدريبه الضباط الفرنسيون[١]. وأدى ذلك بالتالي إلى نشوء الحاجة إلى إقامة نظام تعليمي جديد، كما ساعد على نشر اللغة الفرنسية كلغة للتعليم، ومهد الطريق لترجمة المؤلفات الفرنسية إلى اللغة التركية، وبعد ذلك أصبحت مبادئ الثورة الفرنسية أثيرة لدى الصفوة التي تلقت تعليمها وتدريبها على أيدي الفرنسيين. وهكذا وصل، مع استيراد التكنولوجيا العسكرية إلى الامبراطورية العثمانية، ثقافة كاملة قدمت للمسلمين على أنها قمة الحضارة والتطور »[٢].

وغني عن القول أنه جنباً إلى جنب مع استعمال التكنولوجيا الفرنسية، بدأ استيراد المنتجات الفرنسية بمختلف أنواعها إلى الامبراطورية العثمانية وبالتالي ازداد الاعتماد على القوى الأوروبية باطراد مع ازدياد الواردات الأجنبية، وكان إفلاس الدولة العثمانية بعد ذلك هو الذي أتاح الفرصة للدول الغربية بأن تفرض ما يسمى بالامتيازات الأجنبية وأن تحدد، ليس مصير الأتراك وحدهم، بل ومصير جزء كبير من العالم الإسلامي الذي كان في ذلك الحين جزءاً من الامبراطورية العثمانية.

---

(١) ليس من الغريب اذن أن نرى تركيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى تسير على منوال فرنسا في اقامة دولة علمانية، والتي ليست سوى النتيجة الطبيعية للتغلغل الثقافي والسيطرة التي دامت قرنين أو ثلاثة، وليست عملا خلاقاً ابتدعه رجل واحد هو كمال أتاتورك كما يقال في كثير من الأحيان.

(٢) انظر كتاب : حاشية رقم (٢) صفحة ٢٢.

إن ما عرضناه آنفاً بايجاز ينطبق مع الأسف الشديد بنفس طريقته على كافة الشعوب الإسلامية تقريباً في عصرنا الحالي. وإذا نحينا جانباً فصول التاريخ الحزينة التي تصف في كل صفحاتها كيف وقع المسلم فريسة للدول الغربية، فإنه يكفي القول هنا بأنه ما من دولة إسلامية واحدة لم يتدفق عليها أولاً السلاح والخبراء العسكريون، ثم تعقبهم ثانياً كافة أنواع المستوردات الأخرى من الخارج. وليكن مفهوماً أننا كما قلنا في البداية، نعني بذلك كلا من الدول الرأسمالية والشيوعية، وكما أشرنا من قبل فإن الثقافة هي الأيديولوجية عندما توضع موضع التطبيق. وفيما يختص بالإسلام فإننا نعرف ونسلم بأنه قد حدد إطاراً متوازن الأبعاد توضع فيه السلع المادية، ولكنه يأبى أن يصبح السعي وراء الأهداف الاقتصادية الغرض الأسمى في حياة الفرد أو الجماعة[1]. أما في الثقافة الغربية فإن هذا الهدف هو الغالب والمهيمن ولهذا السبب أصبحنا نسميها بالثقافة المادية.

الفكر العلماني :

أشرنا فيما سبق إلى أن الدولة العلمانية هي الشكل الجديد للمجتمع الذي يقوم على أساس الثقافة الغربية والتي تنتقل جنباً إلى جنب مع السلع الغربية والتعليم الغربي إلى الشعوب الإسلامية.

والعلمانية مفهوم نشأ من خلال الصراع الذي نشب بين المسيحية والمفكرين الأحرار الملحدين، ذلك الصراع ساد المناخ الفكري في أوروبا منذ نهاية العصور الوسطى وبلغ ذروته في الفصل بين الكنيسة والدولة وما آل إليه الأمر من عبادة « آلهة العقل » أثناء الثورة الفرنسية[2]. فمن الجلي الواضح أن الصراع بين العقل والعقيدة، والذي يؤدي إلى الفصل الدائم بينهما على نحو ما يدعو إليه مفهوم العلمانية لا يمكن أن ينشأ إلا حيث توجد

---

(١) انظر المناقشة السابقة للمقارنة التي عقدها جيرتز بين البروتستانتية في أوروبا وحركة الاصلاح الديني في الإسلام.

(٢) لا داعي للافاضة والشرح لأثبات أن التراث الفكري الاغريقي الذي أدى إلى نهضة أوروبا وقيام عصر العقل، نقل إلى الأوروبيين على أيدي المسلمين الذين أسهموا هم أنفسهم اسهاماً هائلاً في إثراء ما أصبح فيما بعد الرصيد الفكري المشترك للمعارف الغربية.

تناقضات خطيرة بين العقيدة والعقل. غير أن مفهوم العلمانية نفسه بالطريقة التي نما بها تاريخياً، لا يمكن أن يتخلى تماماً عن الكنيسة والدين، حيث أنه يبرز موقفه بمعارضته لهما. وعلى أية حال فإن الدين في المجتمع العلماني يمكن أن يهبط إلى مستوى يفقد أهميته عنده ويصبح عديم الأثر في حياة الجماعة، وقليل التأثير في حياة الفرد. وإذا ما اعتنق الإنسان ما يمكن أن نسميه نظرة عالمية « مجزأة » بمعنى أنه يتصور الواقع على أنه ذو طبيعة عالمية شاملة تتضمن مجالاً دينياً ينحصر في النطاق الشخصي فقط ـ إن وجد أصلاً هذا المجال ـ فإن الإنسان يرفض قبول الهداية وأنماط السلوك التي أنزلها خالق الإنسان ورازقه، لأن هذه المعايير التي تتعلق بالمسائل الشخصية للفرد، ليس لها تأثير على المجتمع.

إن الثقافة الغربية تستند إلى مثل هذه النظرة العالمية العلمانية، ولذلك لا يحاول الإنسان الغربي أن يستمد قيمه ومعاييره من الكنيسة أو الدين. بل إن الكنيسة وقد اشتركت هي نفسها في الصراع على النفوذ الدنيوي منذ عدة قرون، قد عجزت عن تقديم بديلات مقنعة بل إنها ساعدت في الواقع على قيام مثل هذا الوضع الخطير. ولما كان الإنسان الغربي يعتنق قيماً ومعايير ذات طبيعة نفعية بحتة، ولما كانت الأهداف الاقتصادية تمثل الدوافع الوحيدة لنشاطه وسعيه، فإنه قد أقام ثقافة بعيدة عن قانون الخالق، هذا إن لم ينكر وجود الخالق نفسه. وتلك هي الثقافة التي تحمل إلى الشعوب المسلمة جنباً إلى جنب مع المنتجات والسلع التي يستوردونها من الغرب.

النزعـة العلمانية والتبشير المسيحي :

إذا كنا قد عرفنا العلمانية بأنها أيديولوجية تهدف إلى استبعاد أهمية الحقائق الروحية وإعلاء شأن القيم التي صنعها الإنسان فقط، فإن النزعة العلمانية يمكن تعريفها بإيجاز بأنها عملية تؤدي إلى تقليل أثر الدين على المجتمع والثقافة[١]. وعند العلماني أن الدين بوضعه هذا لا ضرورة لانكاره، وإنما تسند إليه اختصاصات محدودة فقط مثل تقديم العون العاطفي لمن

---

(١) حاشية رقم (١) صفحة ٢٦.

يفقد الثقة في نفسه في هذا العالم الحديث، أي الدين أصبح إحدى الوسائل التي تعين على البقاء.

والعلمانية، التي تعني في النطاق الإسلامي إضعاف تأثير القيم الإسلامية، هي المدخل الوحيد للمبشرين الأجانب سواء أكانوا مسيحيين أو شيوعيين أو أياً ما كانوا. ويجدر بنا أن نلاحظ أيضاً أن الاتجاه العلماني سوف ينتهي به الأمر بالطبع إلى إقامة الدولة العلمانية التي تعني أساساً انصراف الجماعة، إن لم يكن انصراف الفرد، عن الله. ويجب أن تكون في غاية الوضوح بالنسبة لما نقوله : إن النزعة العلمانية تعني في النطاق الإسلامي إضعاف القيم الإسلامية، وسيؤدي هذا ـ كما أسلفنا ـ إلى التمادي في نزع الطابع الإسلامي عن ثقافة المسلمين، تلك الثقافة التي تقوم على أساس أنماط السلوك الإسلامية ووضعها موضع التطبيق بدرجات متفاوتة من الأصالة. ويصف المبشّر « كين » بإيجاز ما حدث في شبه القارة الهندية فيقول : أن بنجلاديش تحولت إلى دولة علمانية بمجرد انفصالها عن باكستان، ويستطرد قائلاً في حديثه عن النزعة العلمانية في العالم الإسلامي :

« إن النزعة العلمانية تمضي قدماً في كافة أنحاء العالم، ويوماً بعد يوم يقل عدد الحكومات التي لديها استعداد لتأييد الدين بصفة عامة، ناهيك عن مساندة دين بعينه. وإذا سلمنا بأن هذا الاتجاه العلماني حديث العهد في العالم الإسلامي، فإنه سوف يقوى وينتشر في السنوات القادمة »[1]. ويلمح المؤلف نفسه إلى أنه في دول الشرق الأوسط الإسلامية يجب أن يكون التعليم بديلاً عن الأشكال المباشرة للتبشير بالمسيحية[2]. وبطبيعة الحال تتردد بعض الأصوات من داخل الكنائس تدعو إلى إنهاء عمليات التبشير في صورتها الراهنة على الأقل[3]. ولكن يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أي فهم خاطئ لما يعنيه هذا القول، فطالما أن جميع الكنائس ترى أن

---

(١) حاشية رقم (١) صفحة ٢٧.
(٢) نفس المرجع السابق ـ ٣١٧.
(٣) هذا الرأي تردد في المؤتمر الثالث المنعقد في لوزاكا في ١٩٧٤م.

التبشير بالدين المسيحي من واجباتها الأولى[1] ، فإن هذا النقاش يدور فيما يبدو حول المنهج لا غير. وفضلاً عن ذلك فإنه على الرغم مما يتردد حول وقف النشاط التبشيري، فإن أياً من الكنائس الافريقية أو الآسيوية لم تطلب من الجهات التي تدعمها في الغرب أن توقف إرسال الأموال أو المبشرين أو المساعدات المادية إليها، مما يدل على أن مثل هذه الآراء والمناقشات لا علاقة لها بما يحدث فعلاً في هذا المضمار. ويضاف إلى ذلك أن ما يسمى بالجماعات الإنجيلية، وخاصة في أمريكا الشمالية، لم تتخل مطلقاً عن الرأي القائل بأن التبشير بالإنجيل في كافة أنحاء العالم « واجب على جميع المسيحيين من كل أرض وكل لغة وكل ثقافة »[2]، وهي تعني بالطبع الثقافة الغربية في المحل الأول. « ولما كان في العالم بليونان من الناس، وهم في طريقهم إلى أن يصبحوا ثلاثة بلايين عما قريب، لا يعرفون المسيح، فإن عملية التبشير بالإنجيل يجب أن تستمر »[3]. وليس من الغريب إذن أن نعلم أنه عقد في أكتوبر من عام ١٩٧٨م مؤتمر سري في الولايات المتحدة حضره حوالي ١٥٠ مبشراً وأطلق عليه اسم « مؤتمر تنصير المسلمين ». وما تزال أنباء مداولات هذا المؤتمر ونتائجه شحيحة، ولكن ليس هناك شك في أن الثقافة لعبت دوراً بارزاً في ذلك المؤتمر. وقد نُمِيَ إلى علمنا من الأبحاث التي لم تنشر على الجمهور، أن أحد النتائج المباشرة للمؤتمر، إنشاء معهد التدريب والبحوث الإسلامي الإنجيلي، والذي سيقام في باسادينا بولاية كاليفورنيا، وهدفه الأسمى « استمالة المسلمين الذين لم تتم استمالتهم نحو المسيح »[4].

وتم الاتفاق أثناء مناقشات ذلك المؤتمر على استراتيجية « استخدام الأساليب الحساسة من الناحية الثقافية بالنسبة للمسلمين من واقع ثقافتهم »[5]، والفكرة من ذلك هي « أن الوقت قد حان لكي نكون أمناء

---

(١) حاشية رقم (١) صفحة ٢٨.
(٢) حاشية رقم (٢) صفحة ٢٨.
(٣) حاشية رقم (٣) صفحة ٢٨.
(٤) حاشية رقم (١) صفحة ٢٩.
(٥) حاشية رقم (٢) صفحة ٢٩.

فيما يتعلق بثقافاتنا والثقافات الإسلامية، فإن أياً من هذه الثقافات لم يصدر عن وحي حقيقي ولم يحظ بتأييد إلهي »[1].

وقبل أن ننفض أيدينا من هذه الأقوال هناك أمران يجب أن ندركهما بوضوح : أولهما أن أولئك المبشرين الذين يخططون لزيادة نشاطهم وبخاصة بين المسلمين يتلمسون الطرق والمداخل الحساسة من الناحية الثقافية، ومعنى هذا ببساطة أنه لا بد من إقامة وسائل أفضل للاتصال، والاتصال له الأولوية المطلقة في استراتيجية التبشير. « وقبل أن يصبح في الإمكان نشر الإنجيل لا بد من إقامة خطوط المواصلات »[2]. وتلك هي النقطة التي يجب أن تجري عندها دراسة واعية لما يسمى بالحوار بين الأديان، لأن هذا الحوار قد لا يعني أكثر من إقامة خطوط المواصلات التي يتحدثون عنها.

والأمر الثاني هو أن ما ذهبوا إليه من « أنه لا توجد ثقافة صادرة عن وحي حقيقي أو تحظى بتأييد إلهي » إنما هو تبرير لمحاولة منع المسلمين من توثيق الصلة بين ثقافتهم وبين أنماط السلوك المقررة من عند الله، والتي هي أساس تلك الثقافة، وقبولهم وترحيبهم بالاتجاه العلماني كوسيلة للتمهيد للتبشير بالإنجيل. إن القول بأن وحي الله ومباركته لا وجود لهما على الإطلاق في الثقافة حكم لا ينطبق على المسلمين، لأن واجبنا كمسلمين ـ على نحو ما أوضحناه في مستهل هذا البحث ـ هو أن نشكل الواقع ونصوغه طبقاً للمعايير المنزلة من عند الله والتي أقرها الله بل وفرضها. ومن ثم فكلما اقتربنا بثقافتنا من تلك المعايير، كلما احتجنا إلى المزيد من التأييد. ولكن عندما يحدث إغفال وإنكار لأهمية هذه المعايير بالنسبة للمجتمع والثقافة، يبرز الاتجاه العلماني، وهو الاتجاه الذي يوافق مصلحة التبشير المسيحي الذي يأمل رّجاله أن يؤدي إلى القضاء على آثار المعايير الإسلامية وإلى إحداث فراغ يمكن أن تصب فيه تعاليمهم. ومن ثم يبدو واضحاً أن الأمر كله ينتهي عند ذلك السؤال الوحيد عن صحة المعايير التي تشكل

---

(١) حاشية رقم (٣) صفحة ٢٩.

(٢) حاشية رقم (٤) صفحة ٢٩.

قاعدة الثقافة الإسلامية. فالمسيحيون بإنكارهم لنبوة محمد، يرفضون هذه المعايير، وإنطلاقاً من تجاهلهم لأوامر الله، يزعمون أنه ليست هناك أية ثقافة ـ بما في ذلك الثقافة الإسلامية ـ موحى بها من الله أو تحظى بتأييد من الله. وهذا الرأي في حد ذاته ليس سوى مظهر آخر من مظاهر التفكير العلماني المحض. ومن هنا نرى أن أخطر تحد تواجهه الأمة الإسلامية هو ذلك التساؤل عن علاقة الله بالفرد والمجتمع على النحو الذي يثيره العلمانيون.

وفي الختام نوجز ما تعرضنا له في هذا البحث :

ـ في البداية أوضحنا أنه بينما المفاهيم الغربية للثقافة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية النشوء والتطور، فإن الثقافة الإسلامية تخرج إلى حيز الوجود من خلال محاولة تشكيل الواقع طبقاً لأنماط السلوك الإنساني المنزلة من عند الله وليس عن طريق التكيف مع البيئة، وهو الرأي الشائع في الغرب على أنه يمثل طريقة البقاء والاستمرار بالنسبة لأية ثقافة.

ـ وبعد ذلك تناولنا باختصار المصادر التي تستمد منها القوانين والمبادىء التي تشكل قاعدة الثقافة الإسلامية وتتمثل هذه المصادر بطبيعة الحال في القرآن الكريم والسنة، كما تعرضنا للتساؤل عن كيف أمكن حماية تعاليم الإسلام من الفساد والتحريف. ولكي يتسنى تقريب الثقافة الإسلامية بقدر الإمكان من معاييرها المقررة، يتطلب الأمر كفاحاً مستمراً من جانب الفرد على كافة مستويات الوجود الإنساني.

ـ ثم انتقلنا لعرض موجز لطبيعة التوسع الغربي الاقتصادية أساساً والمادية بالتالي، وأوضحنا كيف أدى استيراد المنتجات الغربية ـ كما هو الحال بالنسبة للامبراطورية العثمانية ـ إلى جلب الثقافة الغربية والتي تتميز بالفكر العلماني، وفي هذا الفكر لا ينظر إلى القيم والمعايير على أنها من عند الله.

ـ وأخيراً أوضحنا أن الاتجاه العلماني الذي يسمح باعتبار المعايير المنزلة من عند الله غير ذات موضوع ـ هذا الاتجاه يفتح الطريق أمام المبشرين المسيحيين الذين يبذلون الآن جهوداً متزايدة للتبشير بالانجيل بين

المسلمين، ومن أجل هذه الغاية يؤيدون الاتجاه العلمانـي في الـدول الإسلامية، وهو الاتجاه الذي يؤدي في حد ذاته إلى الإعراض عن الله المولى والنصير.

كتاب إنسانية الإنسان

تأليف : رينيه دوبو

تحليل وعرض وتلخيص : الدكتور نبيل صبحي الطويل

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة قصيرة عن المؤلف :

رينيه دوبو — René Dubois — استاذ اميركي من أصل فرنسي، هاجر إلى الولايات المتحدة في سن الرابعة والعشرين بعد أن أنهى دراسته الجامعية في باريس متخصص في علم الحياة ـ البيولوجيا ـ ويعمل في جامعة « روكفيلر » بنيويورك وهو أحد أبرز علماء البيولوجيا المعاصرين، كان أول من أظهر إمكانية صنع عقاقير مضادة للجراثيم.. من الجراثيم نفسها. نال (دوبو) لإسهامه العلمي الهام عدة جوائز آخرها جائزة نوبل بالاشتراك مع عالم آخر في أدبيات العلوم لعام ١٩٧٦م كذلك نال الجائزة العلمية لمركز العلوم للمحيط الهادي ونال أيضا جائزة (بولتزر Pulitzer) لعام ١٩٦٩م.

والبروفسور (دوبو) مؤلف ومحاضر مشهور بالإضافة لكونه باحثاً علمياً.

نبذة قصيرة عن الكتاب :

صدر الكتاب بالانجليزية لأول مرة في لندن عام ١٩٧٠م عن شركة

(Rupert Hart — Davis — Ltd.) وأعادت شركة (abacus) طبعه عام ١٩٧٣م وهو في مائة وخمس وسبعين صفحة من الحجم الصغير مقسم على فصول ستة بعد المقدمة والتمهيد، مع مائة وستة وثمانين مرجعاً. وعنوان الكتاب بالانجليزية (So Human an Animal) والتعريب الحرفي لهذا العنوان هو « يا لإنسانية هذا الحيوان ».

والكتاب على حد تعبير جريدة الأوبزرفر اللندنية « هجوم مدمر على المجتمعات الصناعية الاستهلاكية الحديثة واعتقادها المحزن بأن السبيل الوحيدة للسعادة والغنى الحقيقي مرصوفة بسلسلة من التركيبات الاقتصادية والتكنولوجية ».

لماذا عربت الكتاب ؟؟

الانبهار الذي تحدثه مظاهر حضارة الغرب المادية لدى العديد من مواطني العالم الثالث ـ حيث تعيش غالبيته المسلمين ـ أمر لا يستطيع أحد إنكاره. ولكن إذا جاز لغير المسلمين أن يؤخذوا بالقوة المادية الغاشمة والسطوة الاقتصادية المسيطرة المستغلة وناطحات السحاب والصناعات الثقيلة والحربية منها بخاصة والصواريخ العابرة للقارات والأقمار الصناعية والتطور التكنولوجي الهائل... فلا يجوز أبداً للمسلم الواعي أن يخدع بهذه المظاهر المادية دون دراسة متأنية وتحليل دقيق لمنطلقات هذه الحضارة والثقافة المصاحبة لها والأفكار الناشئة عنها حسب تقويم إسلامي واضح. فمع إعجابنا كعلماء ومفكرين إسلاميين بالتقدم العلمي والتكنولوجي الذي واكب هذه الحضارة المادية، إلا أننا نعلم أن هذه كلها أدوات ووسائل ليس لها أخلاق، ويمكن استعمالها لخير البشرية، أو لدمارها على حد قول (دوبو) وتتوقف استعمالاتها على أخلاق وأمزجة الذين اخترعوها وانتجوها. ومن البديهي أن المنطق الخاطىء لا يؤدي إلى نتائج سليمة وصحيحة، وهذا ما حدث فعلاً للمجتمعات الغربية التي أسهمت في تشييد هذه الحضارة التي أصبحت بدورها وبالاً على أهلها وعلى العالم.

إنها حضارة خاوية بلا مضمون عقيدي أصيل... جامدة بلا روح خيرة معطاءة، مظلمة بلا نور رباني يهدي للتي هي أقوم... ظالمة لأنها لا

تستنـــد إلى عدل إلهـــي صحيح الموازين ، عشوائية الحركة لأنها بلا هدف واضح نبيل، وأخيراً فهي انتحارية المسار في تسارع عجيب كما ينبئنا بذلك أصحابها.

ولعل أحسن من يستمع إليهم في نقدها أبناؤها ونتاجها من العلماء والمفكرين والباحثين، ونحن في دار الإسلام على تخلفنا المادي الحاضر بحاجة لسبر غور هذه الحضارة، حتى لا يتبناها البعض دون دراية كافية بحسناتها وسيئاتها، فإذا افترضنا ـ جدلاً ـ أن في ظاهرها رحمة فباطنها العذاب كله. وبين ظهرانينا في العالم العربي من المتغربين السطحيين ومن مدعي العلم وأنصاف المثقفين عدد كبير من المبهورين بهذه الحضارة المادية ـ بجناحيها الرأسمالي والماركسي ـ وإيصال بعض محتوياتها إليهم هو أحد أهداف تعريبي لهذا الكتاب، ففيه يشهد شاهد من الأهل في عملية نقد ذاتي، ان الغرب يعاني من حضارته وهو ضائع تائه زائغ البصر فاقد البصيرة، وإذا أوصلت التكنولوجيا أقمارهم الصناعية إلى الكواكب الأخرى فمجتمعاتهم غارقة في الأوحال كما قال رئيس بلدية مدينة (كليفلند) الامريكية متهكماً : « إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر... بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات ».

والهدف الثاني من تعريبي لهذا الكتاب هو رجائي أن تصل آراء (دوبو) إلى مسامع وقلوب أولي الأمر في الدول العربية ليستوعبوا تماماً موضوع النمو والتنمية... فليس كل نمو... تقدماً... وليس كل حركة... بركة. والخرافة التي تقول : النمو هو التقدم ما هي إلا « توراة الدمار » كما سماها السيد (أودال) ناظر الداخلية الامريكية الأسبق، والذي أعرب عن أمله في أن يتصاعد الغضب ويتعاظم الاستنكار في المجتمعات الغربية نفسها « لتوراة الدمار » هذه. فالشوارع العريضة والبنايات الشاهقة والاسمنت المسلح وزحمة السيارات وتكاثف دخان التصنيع التكنولوجي وتلوث البيئة... كل ذلك لا يشكل مدنية حقة إذا فقد الإنسان معها روحه وتاه عن الهدف في وجوده. والتطلع إلى موقف إنساني غير خاضع للتكنولوجيا ليس رجعية ولا

انهزامية... بل هو « موقف تقدمي وجهد » « بطولي » على حد تعبير (دوبو).

والمؤلف ليس مواطناً عادياً في المجتمع الغربي، فهو يجلس على قمة الهرم العلمي مع كبار المفكرين والباحثين، وهو أولاً وأخيراً من محبي هذه الحضارة والمشفقين عليها، لذلك عندما يهاجمها بعنف لا يدفعه لذلك تحامل أو غرض أو حقد ولا يبالغ في اتهاماته الصحيحة ونقده الموضوعي اللاذع.

ومن الطريف ملاحظة أن العالم الباحث المؤلف نفسه مثل أيضاً للحيرة والضياع اللذين يطبعان مجتمعه وحضارته. (فدوبو) يتأرجح في كتابه بين يقين وشك وإلحاد، فبين قيمه الثقافية المؤسسة أصلاً على معتقدات (يهودية مسيحية) محرفة فقدت روحها كما يقول، وبين فرضية داروين المادية التي يتبناها ـ بيولوجيا واجتماعيا ـ تناقض واضح فالمسيحية على حد تعبيره أصبحت طقوساً جامدة ومواقف مبهمة لا تستطيع إلهامه وإعطاءه مع مواطنيه معنى « للحياة التي يعيشونها فهو دائب التفتيش عن فلسفة أو دين جديد يرضي فضوله العلمي ويملأ فراغه العقيدي ويطمئن نفسه القلقة ويعيد له ولمجتمعه التوازن والاستقرار والصلات الإنسانية الحميمة والتفاعل الطبيعي المتبادل بينه وبين بيئة نظيفة في كون متناغم.

وتتهاوى الداروينية المادية كلها بين يدي (دوبو) عندما يقف عاجزاً عن تفسيره النقلة الكبرى من الحيوان إلى الإنسان على أساس التطور البيولوجي العضوي، فهو يعترف أن الإرادة في الإنسان تميزه عن الحيوان الذي قد يشبه ظاهراً في بعض بنيته العضوية، أما كيف جاءت الإرادة للإنسان من « جده » الحيوان ـ على حد زعمهم ـ والأخير يتسير بالغريزة بأسلوب شبه آلي، وكيف تطورت المادة العضوية في الحيوان لتصبح قيماً معنوية روحية في الإنسان، فلا يجد أستاذ البيولوجيا العالمي مخرجاً داروينيا لها. لنسمعه يقول :

« يقوم الإنسان بأعمال ويبدي طموحات ليس لها ضرورات بيولوجية بل قد تتعارض معها. ومن أبرز النواحي المميزة للإنسان ميله للسمو على

الدوافع البيولوجية البسيطة. والحقيقة أن ميل الإنسان لتخيل الأشياء التي لم توجد بعد او التي لا تقع بدون إرادة وعمل حر يقوم به هي الناحية البارزة التي تميزه بوضوح تام عن الحيوان وهي التي تسهم كثيراً في تعقيد بنيته النفسية التي أعيت الأطباء ».

وهذا الموقف الصعب (لدوبو) ينسحب أيضاً على كل المجتمعات الغربية كما يقول هو نفسه : « فالقبول الواسع لمواقف لا دينية في المجتمعات الغربية المعاصرة وضع إنسانها الملحد في موقف صعب لأنه ملاحق دائماً بنفس الحقائق التي يحاول إنكارها ».

ولا بد من الإشارة هنا بأسف إلى العيب الظاهر في كتاب المؤلف (دوبو)، فهو، رغم علمه الغزير واطلاعه الواسع، لا يلتزم الموضوعية فيما يتعلق بالإسلام، وهذا عيب يشاركه فيه أغلب أبناء دينه وحضارته، فهو يجهل أو يتجاهل الإسلام كلية في كتابه وكأنه لم يكن أبداً ولا هو واقع قائم في عالم يضم ألف مليون نسمة. فإذا كان الأمر جهلاً بالإسلام فهو نقص فاضح في ثقافة المؤلف واطلاعه بخاصة وهو ينقطع للبحث في الإنسان على مستوى العالم فرداً ومجتمعاً، تاريخاً وحضارة، عقيدة وثقافة. وإذا كان الأمر تجاهلاً مقصوداً فالأمر أدهى وأمر، إنه تعصب أعمى وحقد دفين بل هروب جبان من الحقائق لا يليق بعالم في مستواه، سيما وأن بعض المفكرين الغربيين قد تحرروا ـ نسبياً ـ من هذا الحقد الموروث والمكتسب ـ على الإسلام وكتبوا فيه موضوعياً ما يشرفهم في ميدان العلم والبحث عن الحقيقة.

منذ أشهر قليلة نشر العالم والكاتب الأمريكي (مايكل هارت) كتاباً عن أعظم مائة من أعلام البشر مرتبة حسب تأثيرهم في تاريخ الإنسانية، ووضع نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه أول القائمة مع تبرير منطقي ودعم تاريخي وحضاري لهذا الاختيار.

أما (دوبو) فقد جهل الإسلام أو تجاهله.. لم يذكره في بحثه للتاريخ ولا ذكره في سياق دراسته للحضارات، ولا ألمح له في عرضه للفلسفات والأيديولوجيات الاجتماعية، بل ولم يورد خبره حتى في مناقشته للأفكار

الدينية مع أنه أتى على ذكر « الهندوسية » و « بوذا » والمسيحية واليهودية ورحم الله الشاعر القائل :

إذا كنت لا تدري... فتلك مصيبة وإن كنت تدري... فالمصيبة أعظم

فلو أنصف (دوبو) مع نفسه ودرس الإسلام بذهن متفتح وموضوعية حقة، لوجد فيه الحل للمعضلات الحضارية والمشاكل الإنسانية ـ الاجتماعية والنفسية والبيئية ـ التي يشكو منها مجتمعه ولا يجد لها حلاً مرضياً.

وهكذا نرى أن (دوبو) لم يهدف من تأليفه الكتاب الوصول إلى ما يستخلصه منه القارئ الإسلامي الواعي من تأكيد وتثبيت لاعتقاده الراسخ : « إن الدين عند الله الإسلام »[1]، وإن ما دونه من فلسفات وأيديولوجيات وضعية وحضارات مادية كلها قاصرة سطحية زائلة، لا تجلب للإنسان إلا التعاسة والعقدوالأمراض والضياع لأنها ضلت سبيل ربها السوي. ولكن شاء الله أن تكون اعترافات هذا العالم الغربي بالحقائق المخيفة عن مجتمعه المادي تأييداً قوياً مباشراً لحقائق الإسلام وتدميراً كاملاً لأباطيل خصومه وترهاتهم. يقول المفكر السوداني الدكتور عون الشريف قاسم :

« وإنه لجدير بنا، والإنسانية تستشرف عهداً جديداً من الانعتاق والتحرر، أن نعيد النظر في كثير من المعطيات الفكرية التي مكن لها الغرب بنفوذه الثقافي في عقول كثير من مثقفي العالم، وعلى رأس ذلك مكانة الدين من مسيرة التطور البشري عامة، ومن حياة المجتمع خاصة، ولعل ذلك هو المنطلق لتفجير الثورة الحضارية التي تنتظرها الإنسانية، وهي تقف على حافة الهاوية التي دفعت بها إليها حضارة الاستهلاك الراهنة التي تغذي الجسد وتميت الروح وتجعل من المتعة الحسية العابرة سبيلاً إلى إلغاء إنسانية الإنسان، فلا يصبح أمامه من مخرج سوى الانتحار الذري أو الفناء الحضاري. ومن الواضح أن التجربة الأوروبية رغم خيرها العميم على الإنسانية في كثير من المجالات وتطويرها للحضارة الإنسانية على المستوى الفكري

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩.

والعلمي وما نجم عن ذلك من ازدهار مادي... فإن الخواء الروحي الذي أشاعته في حياة البشر من أكبر معاول الهدم لمنجزات الإنسان »[١].

وإنا على يقين من أن القارئ المسلم الواعي سيزداد شعوراً بالعزة عند قراءته لهذا الكتاب « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[٢]، أما المتغربون من القراء فلعل بصائرهم تتفتح... وضمائرهم تستيقظ... فيهتدون ومن يهده الله فلا مضل له.

تمهيـــد :

يقول (دوبو في التمهيد لكتابه) :

« نشأ هيكل هذا الكتاب عن اهتمامي الشخصي بردود فعل الإنسان على محيطه المادي والاجتماعي، ومن معلوماتي المهنية عن القوى التي يمكن ملاحظتها مخبرياً والتي تؤثر على كل مظاهر الحياة، وفي السنوات الأربعين الأخيرة أتاحت لي نشاطاتي كإخصائي في علم الجراثيم ملاحظة أن خصائص كل مخلوق حي تتأثر بعمق بأحوال معيشته.

ولقد استعملت معلوماتي من المصدرين المذكورين لأعرض أن كل مخلوق بشري فريد في الطريقة التي ترد بها موهبته (التكوينية ـ الارثية Genetic) على تحديات عوامل محيطة. ومحور البحث في هذا الكتاب هو أن كل التجارب التي يمر بها الإنسان تترك طابعاً على خواصه العضوية والفكرية، ولقد أوليت تأكيداً خاصاً للتأثيرات المبكرة، لأن نتائجها هي من العمق والديمومة بحيث تكون عواقبها كثيرة على الحياة الإنسانية : فمن جنوح الأحداث... إلى النزاع العنصري، ومن الحساسيات الفنية إلى النبوغ، قليل من هذه الخصائص الفردية والمجتمعية لم تتأثر بعمق ودوام بالعوامل المبكرة.

وبما أن شخصية الإنسان هي محصلة لمجموع بيئته وتكوينه الإرثي،

---

(١) الدكتور عون الشريف قاسم من مقالة « نحو ثورة روحية » مجلة العربي رقم ٢٣٧ سنة ١٩٧٨م.

(٢) سورة المنافقون آية ٨.

فمن الممكن ـ نظرياً ـ تحسين وضع الإنسان بتغيير عوامل البيئة. وفي عالم العصر الحاضر يشكل (التحضير Urbanization) والتكنولوجيا بالتأكيد أهم عوامل البيئة المحيطة، لذلك من المؤسف ألا نرى دراسات كافية عن عواقبها على الحياة الإنسانية.

نحن ندعي أننا نعيش في عصر العلم، إلا أن الحقيقة هي أن الميدان العلمي كما يدار الآن ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر في إدارة أمور الإنسان.

والحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الآن تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية، ونمو الإمكانات الإنسانية، وكل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومادية سخيفة باطلة عابثة نخلقها نحن لهم بدون أي تفكير، وأكثر ما يزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للإنسان تخططها اليوم البيئات الملوثة والشوارع المتراصة والأبنية الشاهقة والخليط الحضري المتمدد والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء وتهمل البشر. ولدى الشباب أسباب وجيهة لرفض القيم التي تحكم مجتمعات التكنولوجيا.

إلا أن الاحتجاج على الأساليب السائدة في السلوك أو الاعتزال والانسحاب من النظام الحالي لا يكفيان لتغيير الاتجاه الانتحاري الذي نسير فيه، والحل الإيجابي ليس سياسياً أو اجتماعياً فقط... بل يتطلب أن نردف معلوماتنا عن الأشياء وفيزيولوجية الجسم بعلم عن حياة الإنسان.

لقد ألفت كتابي هذا إيمانا مني بأنه من الممكن أن نبحث علمياً في التجربة الحياتية للإنسان، والمعلومات العلمية عن تأثيرات البيئة والأحداث الجارية وطرق المعيشة في النمو الإنساني تتيح أفقاً أوسع لحرية الإنسان باعطائه أساساً منطقياً للاختيار والعمل، فيصنع الإنسان شخصيته عن طريق اختيارات مستنيرة تسمو بإنسانيته ».

ويبدأ (دوبو) الفصل الأول وعنوانه « ثوار يبحثون عن هدف » بما يلي :

« وددت لو أن كتابي هذا قد ألف في جو عاصف غاضب، لكنت عبرت بأقوى لغة ممكنة عن ضيقي برؤية كثير من القيم الإنسانية والطبيعية

تخرب وتدمر في المجتمعات الغنية، وعن سخطي لفشل الأوساط العلمية في تنظيم جهد منسق ضد تدنيس الحياة والطبيعة، فمن الممكن التسامح في عملية تقبيح البيئة واغتصاب الطبيعة إذا جاء الأمر نتيجة الفقر، أما أن تقوم العملية في المجتمعات الغنية... بل تكون نتيجة للغنى نفسه، فلا مجال للتسامح في ذلك، ومن الممكن تبرير إهمال الأوساط العلمية للمشاكل الإنسانية إذا كان هناك نقص في المال وفقر في طرق المعالجة، ولكن لا يمكن التسامح في ذلك في مجتمعات تستطيع إيجاد المال اللازم لممارسة أمور تتعلق فقط بالمصالح والأنانيات الخاصة.

والكتابة بالأسلوب الغاضب تحتاج لموهبة أفتقدها لسوء الحظ، وهذا هو عذري إذن في عرض هذا الكتاب بصيغة مناقشة هادئة لذنبنا الجماعي.

نحن ندعي أن العلاقات الإنسانية وعشرة الطبيعة هي المصادر الأخيرة للسعادة والجمال، ومع ذلك فنحن لا نتردد في تخريب بيئتنا وصلاتنا الإنسانية من أجل القدرة على امتلاك السلطة والمال، إن شعورنا الجماعي بالذنب ناتج عن وعينا بأن مدحنا للقيم الإنسانية والطبيعة ما هو إلا نفاق طالما أننا نمارس اللامبالاة الاجتماعية، ونحول أرضنا إلى مطرح ضخم للنفايات وشعارات « عالم واحد » و « أخوة إنسانية » ترد بصورة مستمرة في الأحاديث والمباحثات الرسمية في نفس الوقت الذي تقوم فيه حروب سياسية، وتنتشر الفتن العنصرية في كل أنحاء العالم.

السلوك العدواني للحصول على المال أو المكانة، تدمير الجمال الطبيعي والمعالم التاريخية، تبديد المصادر الطبيعية، الأخطار على الصحة من التكنولوجيا بدون تفكير... كل هذه الخواص لمجتمعنا الحاضر تسهم في تجريد الحياة من صفاتها الإنسانية، فاكتساب المزيدمن الغنى والقدرة لن يصلح المجتمع بل عوضاً عن ذلك يجب أن نجعل الاعتبارات الاقتصادية والتكنولوجيا خاضعة للحاجة والقيم. والعلامة الموحية باكبر قدر من الأمل في المستقبل، هي محاولة تمرد الشباب الذي يرفض قيمنا الاجتماعية، فاحتجاج الشباب يشير إلى أن البشرية مضطربة بسبب التجريد المتعاظم للحياة من معالمها الإنسانية ومن الممكن فعل شيء لعكس هذا الاتجاه،

ورغم التراجعات المتعددة للقيم الفكرية والأخلاقية وعلى الرغم من الإثباتات الكثيرة أن القيم الإنسانية تخرب وترخص ورغم التخريب الهائل للجمال والمصادر الطبيعية.. رغم كل ذلك هنالك بريق أمل معقول بإمكانية إنقاذ مجتمعاتنا ما دام في وسطنا ثائرون.

والتمرد يتغلغل في كل نواحي الحياة الإنسانية وهو نابع من رغبة لاشعورية في البشر بعدم الاستسلام للقوى الهدامة، إلا أن التمرد ـ في ذاته ـ لا يعني وجود هدف معين لتحسين « الكيف » في حياة الإنسان، ولا يعني صياغة برامج عمل بناء، ومتمردو هذا العصر هم مثل كثير منا ثائرون بدون برنامج هادف.

ولمجتمعنا اليوم الخبرة الكافية للسيطرة على العالم الخارجي، وحتى على العقل الإنساني، إلا أن علاقاتنا مع الأناس الآخرين ومع المخلوقات الأخرى جميعها تضعف تدريجياً ويقلل من شأنها، ولدى هذا المجتمع من الرفاه والأمان والقوة أكثر مما كان لأي مجتمع سابق ـ إلا أن « نوعية » الحياة فيه تفقد من قيمها وترتخص بسبب ركام من النفايات العضوية والعاطفية التي خلقناها بأيدينا. نحن نعلم أن الأحوال الاجتماعية السائدة تعطل الحياة، ومع ذلك فنحن لا نزال نسهم في نظام يخرب الأرض... والعلاقات الإنسانية، وأكثر الثوار المعاصرين مثل الباقين منا غير راغبين في التخلي عن امتيازاتهم الشخصية التي جاءتنا نتيجة أوضاع نعلم جميعاً أنها غير مقبولة. إلا أن الثائر لا يزال يلعب دوراً اجتماعياً معيناً، فهو ينقل على الأقل اهتمامنا الجماعي، ويجعلنا نعي ذنبنا المشترك... ولكن الاعتراف بالذنب... لا يكفي.

والتذمر من الوضع الحالي يبقى غير متبلور ولا مؤثر، وذلك راجع أكثره إلى أن الميول والعادات والسياسات القائمة لا يمكن تغييرها بالأعمال السلبية فقط بل يلزمنا معتقدات إيجابية، والبدائل لا تأتي عن طريق تعديلات جزئية، وقيام البديل يتطلب ثورة فكرية وشعورية. ولن نستطيع تغيير العالم ما لم نبعد عن ذهننا الجماعي الفكرة القائلة : إن أهداف الإنسان هي قهر

الطبيعة وإخضاع العقل الإنساني. والوصول إلى هذا الموقف البديل ليس أمراً سهلاً، ففكرة العمل للسيطرة على الطبيعة وقيام تنمية غير محدودة تشيع جواً مثيراً يكاد يكون مسكراً، بينما الإيحاء بالاقتراب من حالة الاستقرار يخلق حالة من الخمول، لذلك لن نستطيع تغيير أساليبنا ما لم نتبين أخلاقاً اجتماعية جديدة، بل ديناً اجتماعياً جديداً، ومهما كان شكل هذا الدين الجديد يجب أن يكون أساسه تناسق وتوافق وانسجام بين الإنسان والطبيعة بدل الميل المتهور للاخضاع والسيطرة. لقد قبلنا مبدئياً فكرة الأخوة الإنسانية ولكن... قليلاً ما طبقناها.

في الاجتماع السنوي لجمعية تقدم العلوم بأمريكا عام ١٩٦٦م دعا المؤرخ (لن هوايت الابن) إلى نظرة جديدة نحو طبيعة الإنسان وقدره، ورأى أن الأمل الوحيد لإنقاذ العالم هو الاتجاه الديني العميق الذي قال به الفرنسسكان في القرن الثالث عشر، وهو الترابط الروحي والعضوي بين جميع أجزاء الكون، وحث (هوايت) علماء الايكولوجيا على اعتبار القديس (فرنسيس) رائداً لهم.

اسم القديس (فرنسيس) وكلمة ايكولوجيا يقرنان بموقف معين نحو العلم والتكنولوجيا والحياة يختلف تماماً عن موقف الذين ينظرون لمستقبل الإنسان على أنه متوقف على مهارة الإنسان في السيطرة على الكون. وخلق بيئة تجعل تكنولوجيا العلم بالإنسان مستقلاً عن قوى الطبيعة... تجعلنا نتصور المستقبل المرعب حيث يستخدم الإنسان (الهياكل الآلية Robots) فيصبح هو نفسه مثلها. إن الخاصة الإنسانية في الحياة تتوقف قبل كل شيء على نوعية العلاقة بين الإنسان وسائر المخلوقات... الرياح والنجوم الأزهار والحيوانات والبشرية الباسمة الضاحكة والحزينة الباكية.

قبل قليل من وفاة الكاتب والفيلسوف البريطاني (الدوس هكسلي) عام ١٩٦٣م تأسف هذا الأخير في مناسبات عدة لأن الآداب والفنون لم تستلهم عبراً مهمة من العلم والتكنولوجيا المعاصرة، وظن أن السبب في هذا الإخفاق راجع لكون الفنانين والكتّاب لم يطلعوا على النمو العملي والتكنولوجي، قد يكون هذا التفسير صحيحاً، إلا أنه لا يمثل إلا جزءاً يسيراً من المسألة، فالكتّاب والفنانون مثل سائر الآدميين يهتمون بالأحاسيس

والمشاعر والعواطف والقيم، وهذه كلها أمور تتجاهلها الأوساط العلمية عمداً في محيطاتها. وعلى العلماء ألا يكتفوا بدراسة الهياكل البيولوجية التي يستطيعون التأثير على أجسامها وأدمغتها بالعقاقير والآلات فمن الأساسي والحيوي بالنسبة لاهتماماتهم أن يركزوا على طبيعة الإنسان وأهدافه في الحياة.

التشـاؤم الجديـد :

يعتقد المتنبؤون المتشائمون أن البشرية في طريقها إلى تدمير نفسها بنفسها، فإذا لم يحدث ذلك ـ وهذا احتمال ضعيف ـ فستسير البشرية قدماً نحو التخلي عن قيم ورفاه المدنية الغربية، فالأسلحة النووية وتلوث البيئة وانقطاع التيار الكهربائي وانعدام الطاقة والفساد المتنامي في الآداب المدنية... كل هذه أمور تشكل تهديدات واضحة مباشرة للوجود الإنساني، أضف إلى أن الشدة في تقنين الحياة الاجتماعية وانعدام حرمة المنزل قد تصل إلى حد تزول معه إمكانية العيش التقليدي في حياة متحضرة، وتتعرض النظم السائدة لتهديدات قوى المجتمع التكنولوجي التي تتزايد سيطرتها على العالم.

وأكثر المطلعين على الواقع الحالي يؤيدون ما كتبه الصحفي الأمريكي (جيمس رستن) في أكثر الصحف اليومية نفوذاً وفي أكثر مدن العالم ازدهاراً، « إن الوهم المتفائل القديم أن باستطاعتنا عمل أي شيء نريده... بدأ يتلاشى في بحر من الشكوك ليحل محله تشاؤم « جديد »، ويبدو أن عناوين الصحف اليومية تعكس وتؤكد الفكرة القائلة : إن مشاكل الحواضر الكبرى والعنصريات والشعوب أمور لا طاقة لنا بحلها أو مكافحتها والسيطرة عليها، والخوف منتشر في كل مكان ويظهر بوضوح تام بالنسبة للأسلحة النووية الأخطار التي تتهدد الصحة وارتفاع نسبة الآلات الذاتية الحركة، والإدارة في عالم الصناعة والآثار الضارة غير المحددة لتكنولوجيا العلم.

وبصورة خاصة يتهم العلم الآن بتهديم القيم الدينية والفلسفية، دون أن يجد بدائل لها توجه السلوك، أو تقدم تصوراً معقولاً ذا قيمة بالنسبة للكون والتأثير الساحق لضياع الإيمان، عبر عنه بأسلوب لاذع في الجيل

السابق الفيلسوف الأمريكي (جون ديوي) في إنذاره : « إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها، ولا تثق بقوة العلم في خلق قيم جديدة، تدمر نفسها بنفسها ».

ولقد وصل القلق للأوساط العلمية نفسها، ففي الوقت الذي لا يزال كل العلماء على اعتقادهم بأن الفرص المتاحة للمعرفة العلمية لا حدود لها، كثير منهم يشك في حكمة وأمان الامتداد التطبيقي لهذه المعرفة، بالإضافة لذلك هناك ادعاءات بدأت تظهر بوجود محدودية في بنية العالم المادي ربما هي التي ستبطئ ثم توقف تماماً نمو التكنولوجيا العلمية التي أدت إلى إنجازات باهرة في هذا العصر. فالطائرات لن تستطيع ـ عملياً ـ الطيران بسرعة أكبر مما هي عليه الآن ـ وهي تفوق سرعة الصوت ـ والأدمغة الالكترونية اقتربت من حدودها النظرية في السرعة والمقدرة، ولن تستطيع آلات الإسراع الاستمرار في الزيادة غير المحدودة في الحجم والقدرة، حتى رحلات الفضاء ستصل إلى حدود الإمكانات الإنسانية بعد عدة عقود من الزمن.

والتشاؤم الجديد نابع في الغالب من عدم ارتياح الرأي العام لدى إدراكه أن العلم لا يستطيع حل كل مشاكل الإنسانية.

عصـــر القلـــق :

وتعابير « العصر الكلاسيكي » و « عصر الإيمان » و « عصر الرشد » و « عصر الرومانسية » قد لا تتوافق تماماً مع الحقائق التاريخية إلا أنها مع ذلك توحي أن البشرية تواقة لبعض هذه الخصال في الحياة وأكثر الناس يقرنونها ـ صواباً أو خطأ ـ بالماضي، وبالمقابل نحن نميز جيلنا بتسميته « عصر الذرة » و « عصر الفضاء » و « عصر الهياكل الآلية » و « عصر المضادات الحيوية » أي بتعبير آخر عصر هذه التكنولوجيا... أو تلك. هذه تعابير نستعملها برضى أهل التكنولوجيا. أما الإنسانيون فيحتقرونها... والتعبير الوحيد الذي لقى قبولاً إجماعياً فهو : « عصر القلق ».

نشرت المنجزات التكنولوجية والاجتماعية الرفاه الاقتصادي، وزادت

رخاء، كذلك زادت سرعة وسائط النقل وكافحت بعض أنواع من الأمراض لكن الكفاية المادية التي نتجت لم تزد كثيراً في... السعادة وفي معنى حياة، حتى ان العلوم الطبية لم تف بوعودها فمع أنه أنجز الكثير في ميدان لوقاية والعلاج لبعض الأمراض المعينة إلا أنهم فشلوا في إطالة حقيقية لعمر لإنسان وفي تطوير الصحة بصورة إيجابية. ومن التناقض أن يكون عصر رفاه والعجائب التكنولوجية والمعجزات الطبية هو أيضاً عصر الأمراض لمزمنة، والقلق واليأس، وظهرت أعراض « الغثيان الوجودي » أي القرف من لحياة في عقر دار مجتمعات الرفاه المادي وفي أكثر أجزاء العالم تقدماً كنولوجياً. وتتكاثر في هذه المجتمعات مشاكل فكرية شديدة، كالنزاع لعنصري، والفقر المادي، والعزلة العاطفية، والقباحة المدنية، في الحواضر لكبرى، والمظالم بكل أشكالها وأنواعها والجنون العام الذي يسبب تهديداً دائماً بالحرب النووية. والجذور العميقة للقلق المعاصر موجودة في البنية لنفسية للفرد ــ كل فرد ــ من أفراد هذه المجتمعات. وأكبر مشكلة حادة في الحياة المعاصرة هي في الغالب شعور الإنسان أن الحياة قد فقدت معناها، فالمشاعر الدينية والتقاليد الاجتماعية القديمة تنخرها المعلومات العلمية وسخافة الأحداث العالمية الباطلة ونتيجة لذلك انتشر تعبير « مات الإله » بصورة واسعة في الأوساط اللاهوتية والعلمانية على السواء. وبما أن فكرة الإله كانت ترمز لوحدة الكون بمجموعة : الخلق والمخلوقات، لذا يبقى الإنسان الآن بدونها كسفينة بلا مرساة لا قرار له، والذين يؤكدون مقولة « مات الإله » يعنون بها موت الإنسان التقليدي الذي كان يستمد معنى حياته من صلاته ببقية المخلوقات في الكون والبحث عن معنى وصياغة مفاهيم جديدة لكلمتي « الله » والإنسان ربما يكون أفضل ما يجب أن ينشغل به عصر القلق والغربة النفسية.

والغربة كلمة مبهمة، إلا أنها تعبير عن حالة منتشرة بصورة هائلة الآن في مجتمعات الرفاه المادي، والإحساس بالغربة تجربة قديمة اتخذت أشكالاً مختلفة عبر التاريخ، وكثير من الذين عانوها في الماضي ظهر لهم آنذاك أن أوضاع الإنسان والكون منفصلة لا ترابط بينها ولا معنى لها، ولقد عزا (جان جاك روسو) ذلك في القرن الثامن عشر إلى التباعد بين الإنسان

والطبيعة، وسبب ذلك على رأي (روسو) الحياة المصطنعة التي يحياها الإنسان في المدن.

وتتعايش الآن في مجتمعاتنا أشكال متنوعة من الغربة، فالضيق الاجتماعي والثقافي لا يؤثر أيضاً على الذين يشعرون بانسحاق فرديتهم، فالأوضاع السائدة تفرض عليهم مقاييس جماعية لا تسمح لهم بإبراز وتوكيد ذاتيتهم وهويتهم. ومن الأسباب الأخرى للغربة النفسية الفشل التام ـ حتى في أكثر المجتمعات تقدماً ورفاهاً مادياً في إقامة علاقات متناسقة متناغمة بين حياة الإنسان ومجموع بيئته، والاعتقاد بأن العالم سخيف باطل ليس مقتصراً على الفلاسفة والأدباء المبرزين، فهو منتشر بين كل الفئات الاجتماعية والاقتصادية، ويؤثر على كل مظاهر ونشاطات الحياة. ويميل علماء النفس والاجتماع والأخلاق إلى عزو القلق واليأس لانقطاع الصلات الاجتماعية الحميمة، والانفراد والوحشة التي تعم المدن المعاصرة، والانقطاع هذا ليس فقط بين البشر أنفسهم بل أيضاً بينهم وبين قوى الطبيعة. والإنسان العصري قلق حتى ولو كان في زمن السلم وفي جو البحبوحة الاقتصادية لأن عالم التكنولوجيا الذي يشكل محيطه المباشر، والذي فصله عن عالم الطبيعة فشل في توفير حاجات الإنسان الأساسية التي لم تتغير ولم تتبدل ويشبه إنسان العصر من نواح كثيرة الحيوان البري الذي يقضي حياته في حديقة الحيوانات، فالإنسان كهذا الحيوان يتوفر له الغذاء الكافي والحماية الكافية من القسوة، ولكنه يحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه الجسمية والفكرية، فإنسان اليوم ليس فقط غريباً عن أخيه الإنسان وعن الطبيعة بل الأهم بكثير أنه غريب معزول عن أعماق ذاته.

وأهم مظاهر التشاؤم الجديد، الاعتقاد الغالب بأن الحد من حرية الفرد سيأتي نتيجة لازدياد هائل في الكثافة السكانية، وعلى الإنسان تبعاً لذلك القبول ببيئة حضرية تكنولوجية تافهة، ويمكننا إيراد مجموعة مكثفة من الأشعار التي كتبها الأدباء والعلماء في هذا الموضوع ينعون فيها التضحية بالذات وبالحرية على مذبح النظم التكنولوجية. وكلما ارتقت المجتمعات في تنظيماتها تذوب شخصية الفرد تدريجياً في كتلة بشرية مغفلة. وفي كتاب الناقد الامريكي (لويس ماوفورد) « أسطورة الإله » يتنبأ الكاتب بمستقبل

يصبح فيه الإنسان سلبياً لا هدف له، حيواناً تكيفه الآلة، تخطط له وتسيطر عليه لمصلحة منظمات جماعية مجردة من أي طابع ذاتي.

وطبيعي أن يوجد بعض المتفائلين بين المتنبئين المعاصرين إلا أن العالم الجديد الذي يتخيلونه ليس إلا صورة مكبرة قبيحة مخيفة للواقع الحاضر ؛ زيادة هائلة في الدخل القومي للولايات المتحدة، ارتفاع متوسط دخل كل عائلة بحيث يكون في كل بيت آلات وكميات غير محدودة من الأدوات الالكترونية، عمليات جراحية معقدة ونقل أعضاء جدد لجسم الإنسان بحيث يتحول المواطن العادي إلى مجموعة من رجال في رجل واحد، تقصير ساعات العمل وارتفاع متوسط العمر لدرجة تتوفر فيها فترات غير محدودة للتمتع واللهو... وأخيراً... ربما يخصص الوقت الباقي ـ إذا بقي ـ للبحث في سبب للوجود، ويظهر أن أنبياء العصر المتفائلين يكتفون بوصف عالم تزيد فيه سرعة كل شيء ويتضخم كل شيء ويصبح ميكانيكياً معقماً لا جراثيم فيه آمناً صحياً ـ فلن تمس أي يد الطعام في المطابخ الآلية الذاتية الإدارة، أما العناية بالأطفال ومراقبة سلوكهم فتكون الكترونياً، ولن يكون هناك حاجة لدعوة صديق للزيارة، لأنه سيكون بالإمكان استدعاء صوته وصورته وحركاته وشكله وملامحه على شاشة الرأي التليفزيونية في غرفة الجلوس، وسيكون العيش سهلاً بدون أي جهد وبدون ضغوط في بيوت مكيفة الهواء مضاءة بصورة رومانتيكية مثيرة وظلال مختلفة الألوان حسب ذوق ومزاج الشخص.

وإنصافاً « لأنبياء العصر » يجب القول أن لهم رؤى تتعدى توفير حياة دعة وخمول ولهو... إلا أن ما يحلمون به غير ذلك سخيف أيضاً وعابث كطائرات تفوق سرعتها سرعة الصوت بكثير لدرجة أن المسافرين يذهبون ويعودون للنقطة التي بدأوا منها قبل أن ينهوا القدح الأول من « الكوكتيل ». أما تنبؤاتهم عن رحلات الفضاء أو العيس في أعماق المحيطات فهدفها الرئيسي على ما يظهر هو توفير صور عن بيئات جديدة حيث الفتيان يلتقون بالفتيات وحيث « البطل » كالأفلام السينمائية يتغلب على « الشرير » أي بتعبير آخر بيئات يتصرف فيها الناس كما يتصرفون تماماً الآن على هذه الأرض. والظاهر أن الشوارع الخاصة بالعشاق

المراهقين والمستهترين الأوباش بقبعاتهم الكبيرة ومسدساتهم.. أمر حيـوي لعالم المستقبل غير المعقول مثلما هو حيوي للقصص التقليدية البسيطة التي تباع بعشرة قروش ولافلام رعاة البقر (الكاوبوي) وكتاب روايات (الأساطير العلمية) الذين يحرضهم على ذلك عدد غير قليل من العلماء البارزين ركبوا موجة إغداق الوعود التي ستؤدي حتماً إلى خيبة عندما يظهر جلياً أن هذه الوعود غير قابلة للتحقيق. ويوجد الآن في العالم المعاصر اتجاه « مريض للتطلع إلى مستقبل الإنسان في جبل « الأولمب » لتحويل الأعين عن « وديان » العوز والفاقه والحزن والدموع، ومن الغريب أن توفر العلوم الطبيعية اليوم أسهل وأرخص الوسائل للهروب من الواقع.

والرجل المطلق Opti-man الذي يتخيله « أنبياء » التفاؤل المخيف الكريه، ليس فقط إنساناً أجوف، بل هو أيضاً شبه إنسان ولن يكون مجرداً من كل صفاته الإنسانية التي تعطيه قيمته الفريدة في عالم الإنسان بل لن يكون قادراً على الاستمرار في العيش، لأنه سيكون مجرداً من المنبهات اللازمة لسلامته الجسمية والعقلية.

ونوع الحياة التي ينبئون بها في القرن الحادي والعشرين غير معقولة لأنها تتناقض مع الحاجات الأساسية لطبيعة الإنسان، وهذه الحاجات لم تتغير إلى حد كبير منذ العصر الحجري، ولن تتغير في المستقبل، وهذه الحاجات تحدد المدى الذي سيكون كل تنبؤ بعده محالاً، ومهما اخترعت تكنولوجيات العلم من أشياء، فالإنسان العادي ذو حواس وسيستمر على العيش بهذه الحواس وعن طريقها يدرك العالم من حوله، ونتيجة لذلك سيرفض الإنسان آخر الأمر التجريدية المغرقة « وآلية الحياة ». وهناك ناحية من نواحي المستقبل قلما يناقشها ويتطرق إليها الذين يحاولون تصور عالم المستقبل، وهي أن البشر سيملون المطابخ الآلية والسفر السريع ومراقبة العلاقات الإنسانية بالأدوات الالكترونية، والتنبؤات التي تنشر اليـوم في محاضر اجتماعات الأكاديميات العلمية قد يحيلها البشر عام ٢٠٠٠م إلى مهزلة عندما يقررون أن يستعيدوا صلاتهم بقوى الكون، وفي رأيي أن عام ٢٠٠٠م سوف لا يعكس إسقاطات التكنولوجيين وعلماء الاجتماع والاقتصاد بقدر ما سيعكس حاجات الإنسان ككائن بيولوجي حي.

في آخر مواضيع التربية التي كتبها المؤرخ الامريكي (هنري آدمز) عام ١٩٠٥م تنبأ متشائماً أن عبادة « الدينامو » ـ المحركات الآلية ـ ستكون البديل العصري لعبادة « العذراء » ويظهر أن الواقع الحالي يؤكد هذه النبوءة، إلا أن المستقبل قد يثبت خطأ (آدمز) فلقد بدأنا نلحظ عدم الرضى بين عباد « الدينامو ».

إلى أيـــــن ؟؟

« التوسع الفوضوي غير المتماسك الذي تقـوم به المجتمعـات التكنولوجية في العقود الأخيرة سيأتي حتماً على نهاية الحياة الإنسانية إذا استمر لمدة أطول، فالزيادة في الإنتاج بزيادة تسارعه لا تسهم في سعادة الإنسان ولا في إدراك معنى الوجود. وفي الماضي أضر الازدهار الكبير في أغلب الأحيان بالقيم الإنسانية وولد سأماً وضجراً. وأزمة البيئة في العالم المعاصر تشير كذلك إلى أن الازدهار، إذا ما أسيء استعماله، قد يؤدي إلى تدمير شامل لحياة الإنسان. ولقد أشار (رالف ولدو امرسن) في القرن التاسع عشر إلى أن البحبوحة الاقتصادية تقود بصورة عامة إلى سخافة كثير من الناس يعتقدون أن الحياة العصرية في المدن الكبيرة تقترب بصورة خطيرة من حالة الجنون. ولقد وفرت أمريكا الشمالية الجو المناسب لنشوة الفرح التي سادت القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، على أساس الاعتقاد بأن المدنية الصناعية ستؤدي بالتأكيد إلى السعادة، بزيادة الرفاه واختراع سلع أفضل وأرخص. فاتساع القارة وخلوها سهل للمتوطنين قبول أسطورة الحدود المتوسعة أبداً، والمزاج التفاؤلي في الاناس الرحل، والذي كان له أثر كبير في تحديد المؤسسات والمواقف الامريكية، نتج بكل تأكيد عن اعتقادهم في القرن التاسع عشر بأن المتوطن قادر على الانتقال دائماً إلى مروج ومراع أكثر خصباً واخضراراً. وفي القصيدة الحماسية التي لم تكتمل « نجمة الغرب » والتي نشرت عام ١٩٤٣م، يحاول الشاعر الامريكي (ستيـف فنسانت بينيه) أن ينقل الدافع الذي لا يمكن مقاومته للحركة الدائمة قدماً دون اهتمام كثير بالغاية ومكان الوصول. فإنه يعتبر مجرد السير قدماً هو خاصية العبقرية الامريكية.

« لا ندري إلى أين نحن سائرون... ولكننا نسير.

أيها الامريكان الذين تصفرون خلال سيركم، أنتم في الواقع لا تعرفون إلى أين تسيرون ولا تهتمون حقاً بذلك ».

ولهذه القصيدة أهمية تاريخية لسببين : أولهما أنها تعبر بوضوح عن النشوة الدافعة للتوسع التي اختص بها القرنان التاسع عشر والعشرون، وثانيهما أن تاريخ نشر القصيدة يكاد ينطبق تماماً على نهاية فترة كانت تقدر التوسع للتوسع نفسه... ومنذ عام ١٩٥٠م أخذ اهتمام الرأي العام بالنتائج غير المرغوبة للنمو الاقتصادي يغطي تدريجياً على دافع النمو.

ربما لا زال أمريكان القرن العشرين يصفرون أثناء سيرهم، ولكن القلق يعمر قلوبهم، فهم في تساؤل دائم إلى أين ؟ وأحياناً كثيرة تأخذهم الحيرة، فهم مترددون أيستمرون أم يتراجعون. هنالك أسباب عدة للريبة في فوائد النمو التكنولوجي غير المحدود بل حتى في إمكانية قيامه. أحد هذه الأسباب هو الوعي الذي ذكرته سابقاً بأن الرفاه ووفرة السلع يصبح عديم المعنى بعد حد معين، زد على ذلك أنه أصبح من الواضح جداً أن لبعض الاندفاعات الحاضرة حدوداً لن تتعداها لان ما بعدها يقود إلى سخافات وتفاهات... إذا استمرت ستولد اندفاعات معاكسة تماماً.

ويحاول « دوبو » التمييز بين نظرته هذه ونظرة « شبينغلر » في كتابه (انحطاط الغرب ١٩١٨م فيقول : « يجب أن لا يخلط بين نظرتي التي تقول ان على مدنية الغرب أن تتخلى عن أسطورة النمو وبين مقولة الفيلسوف الألماني « شبينغلر » بأنه لا مفر للعالم الغربي من السقوط، فنظرتي تشكل تعبيراً عن اعتقادي بأن ثقافة الغرب وبخاصة علوم الغرب يمكن إعادة تكريسها بقيم أكثر بقاء ومعنى من قرنها بالتكنولوجيا والنمو الاقتصادي ».

ويختم « دوبو » الفصل بقوله : « نحن نشكو تجريد الإنسان من إنسانيته. ويخبرنا علم الأجناس ـ الانتروبولوجيا ـ أن الإنسان يكتسب مشاعره الإنسانية خلال صلاته الحميمة بالأحياء الآخرين من حوله، وأن كل أطوار نموه متكيفة دائماً بالاثارات الاجتماعية التي يتلقاها خلال فترة حياته،

فعلينا أن ننشئ الآن علماً للرجل المعاصر لا يعتبر الإنسان مادة. فبالإضافة لتعلم المادة والأشياء الجامدة يجب علينا أن ننمي علم الإنسانية. ورأس الحكمة يقتضي أن تكون مواقف الحكماء والعلماء موحدة على مستوى للإنسان أسمى وأرقى من وجوده وقدره التكنولوجي. فالعقلانية الخالصة تنحط بالحكمة إلى مستوى تجريدي جامد لا حياة فيه، والتفكير التكنولوجي يحول الإنسان إلى مجرد آلة.

ويبحث « دوبو » في الفصل الثاني بعض تاريخ الإنسان والإنسانية فيقول :

« تشير الآثار المكتشفة إلى أن إنسان العصر الحجري قد اتقن مهارات عدة وكانت له تنظيمات عائلية ومجتمعية مركبة. ويتميز البشر عن الحيوان في قدرتهم على تجميع التجارب الاجتماعية خلال نشاطات جماعية على مر آلاف الأجيال، وبتعبير آخر يتميز الإنسان بتاريخه الاجتماعي وهو وحده ـ حسب ما هو معروف ـ الذي استطاع استعمال النار والسيطرة عليها، وربما حدث ذلك قبل مليون من السنين، وهذا يوحي بأن الإنسان عرف باكراً جداً أهمية السيطرة على النار للانتقال من حياة متوحشة إلى حياة أفضل منها. ولمئة ألف عام تقريباً لم تقرن حياة الإنسان باستعمال النار فقط بل بوجود مأوى له وملبس وعدة عمل وأسلحة وبنية اجتماعية مركبة وممارسة لنوع من السحر أو لنوع من العبادة. وحقيقة أن الإنسان كان خلال العصر الحجري يدفن موتاه توحي بوجود نوع من الاهتمام بنهاية الحياة منذ ذلك الوقت.

وكان الانتقال من أساليب القنص والصيد إلى الزراعة في العالم القديم في منطقتين متباعدتين لا صلة بينهما في الظاهر : جنوب غربي آسيا أولاً ثم جنوب شرقيها بعد ذلك. ومن مناطقه الأصلية قبل حوالي عشرة آلاف سنة انتشر أسلوب حياة العصر الحجري الأخير في أوروبا وأفريقيا وباقي مناطق آسيا متخذاً أشكالاً مختلفة بتأثير الأحوال والمصادر المحلية وظهرت وفرة متزايدة في مؤنة المواد الغذائية مع استقرار المستوطنات البشرية في جنوب غربي وجنوبي شرقي آسيا، وهذه بدورها فتحت الطريق أمام الحضارات العظيمة التي تقرن تقريباً بالعصر الحجري الأخير وتعلم أبناء الشرق الأدنى

مزج النحاس والقصدير حوالي العام ٥٠٠٠ ق.م وانشأوا مدناً كبيرة وأسسوا بنية سياسية مركزية قوية ونموا هندسة معمارية خاصة وبنوا المعابد والأهرامات وكثيراً من الفنون المساندة الأخرى. وكان أوائل السامريين ـ على ما يظهر ـ أول من اخترع اللغة المكتوبة في بلاد ما بين النهرين وسجلوا أحداث حياتهم قبل ستة آلاف من السنين بأسلوب يمكن قراءته اليوم. ومع هذا التطور الهام انتقل علمنا عن البشرة من فترة ما قبل التاريخ إلى التاريخ الكلاسيكي المدون.

وكل أثر من آثار إنسان ما قبل التاريخ يوفر شواهد أخرى للفكرة القائلة بأن الخواص الأساسية للجنس البشري لم تتغير منذ العصر الحجري.

تعريف الثقافة والحضارة بمفهوم (دوبو) :

« الثقافة : كل شيء مكتسب بالتجربة وينتقل من جيل لجيل، إنها تعبير عن ردود فعل الإنسان على البيئة المادية والبشرية وتكون على شكل نماذج سلوكية وعلاقات عاطفية وتنمية حاجات نافعة، ومن الواضح أن باستطاعة الثقافة أن تبلغ مستويات عالية بدون حاجة لتكنولوجية معقدة. والتفاعل المتبادل بين طبيعة الإنسان والقوى المحيطة ظاهرة بصورة مدهشة في التاريخ المقارن لقدماء بلاد ما بين النهرين ومصر. فالمنطقتان متجاورتان في الشرق الأدنى ولهما تبعاً لذلك أشياء كثيرة مشتركة بينهما، ومن أهم الأمور الخاصة اللازمة لنموهما الأولى ـ اقتصادياً واجتماعياً ـ حقيقة أن كلا منهما تتركز حول نهر كبير تتمتع ضفتاه بمساحات واسعة من الأرض الخصبة وكان على سكان المنطقتين أن ينشئوا الأرض الزراعية من القفر بالكد والتعب والبراعة. ولقد نجحت مصر وبلاد ما بين النهرين في تنمية تكنولوجية صالحة للري ونظام اقتصادي في وقت مبكر ولهذا استطاعتا تأسيس حضارتين عظيمتين هما أقدم الحضارات في سجل التاريخ المدون وكانت الحضارتان على احتكاك واتصال منذ البداية، وتقدمتا بسرعة متوازية ومع ذلك فرغماً عن تشابه أصولهما وتعدد صلاتهما اختلفتا اختلافاً عميقاً في الروح والمحتوى الأساسي، فالتوجيه العام في بلاد ما بين النهرين كان عالمياً أما في مصر فكان إقليمياً، كان الاعتقاد الديني لسكان ما بين

النهرين يولي مكاناً بارزاً للقبة الزرقاء والشمس والقمر والنجوم أما في مصر فكان هناك ميل لعبادة الحيوان في النيل وعلى ضفافه أكثر من التطلع للأجرام السماوية. ودارسو الشرق الأوسط يعتقدون أن هذه الاختلافات الثقافية راجعة جزئياً إلى اعتبارات جغرافية وبخاصة حقيقة أن ضفتي النيل ضيقتان ومحدودتان بجرف عال أما في ميزو بوتاميا ـ بلاد ما بين النهرين ـ فهي واسعة مفتوحة على السهول المحيطة تسهل تبعاً لذلك فرصاً للاتصال بالعالم الخارجي.

وفي فترات ما قبل التاريخ المدون والتاريخ القديم شواهد على تعدد الثقافات الإنسانية وتنوعها، والذي يمكن استخلاصه من الطقوس الدينية لثقافات العصر الحجري ومن مناقشة السلوك السياسي (لأفلاطون وأرسطو) هو أن الخصائص الهامة في المجتمعات البشرية بقيت كما هي عليه مدة عدة آلاف من السنين، لقد اختلفت مظاهرها إلا أن الحاجات والمطامح الأساسية بقيت على حالها. وتؤثر الثقافات بوضوح على مصير الإنسان إلا أنها معدومة التأثير تقريباً على طبيعته البيولوجية، والذي يختلف هو البيئة الاجتماعية، فالعادات والمهارات تتجمع في المجتمع على شكل مستودع يستعين به إنسان الأجيال المقبلة ولكن كما يقول (آرنولد توينبي) المؤرخ الإنجليزي المعروف : « إذا رفعنا القشرة الرقيقة ومحونا بذلك ما استفدناه من التربية المستمرة سنكتشف شيئاً مماثلاً للإنسانية البدائية في أعماق طبيعتنا ». وهذا صحيح ليس فقط في السلوك الاجتماعي بل في احتياجاتنا البيولوجية والعاطفية، ولو تربي إنسان ما قبل ثلاثين ألف سنة بيننا الآن لاستطاع أن يعمل على الآلات الالكترونية وربما أصبح مدير الشركة (I.B.M) وباستطاعة إنسان العصر العودة بسهولة إلى الحياة البدائية. والواقع أنه يفعل ذلك إلى حد ما كلما احتاج ذلك.

ويلحظ القارىء أنني استعملت كلمة « الحضارة » بالمفرد و « الثقافات » بصيغة الجمع في محاولة للتمييز بين الكلمتين، استعملت لفظة (حضارة Civilization) لأعني القيم التي يمكن أن تكون مشتركة، وهذا حاصل باطراد عند أكثر الناس بغض النظر عن أصلهم وعرقهم وديانتهم واستعملت لفظة (ثقافة Culture)لا عبر عن مجموع قيم وأفكار ومعتقدات

تخص مجموعة معينة من الناس. فالعلم والتكنولوجيا النابعة منه والأخلاق هي أمور لها معنى وأهمية لدى غالبية البشر ويمكن أن تصلح كأساس لقيام حضارة أو مدنية عالمية واحدة، أما القيم الثقافية التي تختلف بين مجموعة وأخرى فهي متغيرة مع الزمن وتعكس التنوع الفطري في البشرية والعاملين والتنوع ـ كما سأؤكد مراراً وتكراراً ـ وجهتان متكاملتان في طبيعة الإنسان.

تخص مجموعة معينة من الناس. فالعلم والتكنولوجيا النابعة منه والأخلاق هي أمور لها معنى وأهمية لدى غالبية البشر ويمكن أن تصلح كأساس لقيام حضارة أو مدنية عالمية واحدة، أما القيم الثقافية التي تختلف بين مجموعة وأخرى فهي متغيرة مع الزمن وتعكس التنوع الفطري في البشرية والعاملين والتنوع ـ كما سأؤكد مراراً وتكراراً ـ وجهتان متكاملتان في طبيعة الإنسان.

لقد أثبتت التجربة باستمرار أن أي فرد ولد في بيئة لا تعرف تكنولوجيا العصر يستطيع أن يتعود على الحياة العصرية ويكتسب مهارات تكنولوجية معقدة. وفي القرون الماضية نقلت موجات الهجرة المتتالية مجموعات متنوعة من أنماط البشر إلى القارة الامريكية، ونتج عن تزاوجهم اختلاط عنصري ناجح وهذا التوافق الفيزيولوجي ـ الوظيفي ـ و (التكويني الإرثي Genetic) بين الأجناس والعناصر التي كانت منفصلة متباعدة خلال آلاف السنين يؤكد الشواهد الثقافية على أن البشر جاءوا من أصل واحد واحتفظوا بطبيعة أساسية واحدة وهم يتناسبون ويتوافقون بيولوجياً ـ عضوياً ـ وفكرياً ولهم ـ على ما يظهر ـ نفس الإمكانات الكامنة. وفي الوقت الذي تظهر في طبيعة الإنسان هذه الوحدة والديمومة البارزتين تتنوع المؤسسات الاجتماعية وأساليب المعيشة وتتغير بصورة كبيرة جداً فالثقافات تختلف باختلاف الأزمان والأمكنة لأن الإنسان يتمتع بإمكانات واسعة تسمح له بمرونة كبيرة لدى ردود فعله على شروط البيئة المحيطية.

وصدق الله العظيم : « إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »[1]. ويختم « دوبو » الموضوع بقوله : « والمعتقدات الدينية والفلسفية، والتقاليد الاجتماعية، والمؤسسات

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

السياسية، هي من العوامل الكثيرة ـ غير عوامل البيئة المادية والاقتصادية ـ التي تحدد مصير الإنسان، فهي تؤثر بطريقة غير مباشرة، ولكنها فعّالة وقوية، إنها تسيطر على أسلوب الحياة وعلى المظهر المادي فيها وتنعكس على أنماط السلوك وعبر هذه التأثيرات وغيرها يفرض الطابع الخاص لكل ثقافة »

وتحت عنوان « الأسلاف والمعاصرون » يقول « دوبو » في آخر الفصل الثاني :

يشبه الناس أجدادهم، لأنهم لا يأخذون عنهم خصائص تكوينية إرثية فقط بل كثيراً من خصالهم التي اكتسبوها في طفولتهم بالتعلم والتجربة، كذلك يشبه الناس معاصريهم أيضاً. فضمن اطار بلد معين وجماعة اجتماعية معينة يتأثر أكثر أفراد جيل ما، بنفس الوقت وبصورة متشابهة، بالعوامل المحيطة السائدة خلال فترات نموهم. وعندما يكون تأثير الوراثة مسيطراً، كما هو الحال في المجتمعات المستقرة المحافظة، يكون الناس أكثر شبهاً بأسلافهم، أما حين تكون الحياة متغيرة بسرعة، تطغى تأثيرات القوى المحيطة على تأثير الوراثة، وتطبيقها يبقى مستودع العوامل التكوينية الإرثية كما هو ـ أساساً ـ عندما ينتقل من جيل للجيل الذي يليه، وكل تغيير في خصال الإنسان يجب تتبعه إذن في أسلوب تربية الأولاد والمؤثرات البيئية الصادرة عن مجموع المحيط.

والكثافة السكانية وتقنين المعيشة وتلوث البيئة واضطراب الإيقاع البيولوجي الأساسي، كل هذه بعض أوجه الحياة التي تعيشها المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً وحضرياً، غنية كانت أم فقيرة، وهذه التأثيرات تثير في الإنسان ردود فعل تنتج عنها اضطرابات عضوية وعقلية واجتماعية، والتي تعرف الآن بأمراض الحضارة. وردود الفعل هذه تترك طابعها الخاص على الحياة العصرية، وهي المسئولة عما لاحظه (إمرسون) من أننا نشبه بعضنا البعض أكثر مما نشبه أجدادنا.

وإذا استثنينا الظروف الخاصة، فالإنسان يميل لقبول تقاليد جماعية على أنها هي الحقيقة، وحتى عندما يثور عليها يحاول دائماً أن يمزج في تقاليده الجديدة كثيراً من تقاليده القديمة، وهكذا يبقى معتمداً على ماضيه

الاجتماعي والثقافي. ولكل الثورات طابع قومي بخاصة تلك التي ترفع شعار العالمية، كذلك الأمر في كل بلد، فالشبيبة التي تمردت في الماضي وشبيبة الجيل الجديد لها نماذج سلوك تعكس بعض نواحي أصولها الثقافية، وهذا ما يفسر غالباً فشل هذه الثورات إذ يجد المتمردون أنه من السهل عليهم العودة إلى أحضان مجتمعهم.

ومعرفة الماضي أمر أساسي لفهم الحياة الحاضرة والمستقبلة. لا لأن التاريخ يعيد نفسه فإن ذلك لا يحصل تماماً كما يقال، بل لأن الماضي جزء من كل معالم الحاضر، لذلك فهو يؤثر في المستقبل. والحياة الإنسانية في كل مرحلة حاضرة هي تجسيد للماضي وعبر عن ذلك الفيلسوف الأسباني جوزيه اورتيفا أي غاست ـ ١٨٨٣ ـ ١٩٥٥) في كلمته المأثورة : « ليس عند الإنسان طبيعة.. فما عنده هو التاريخ ». وكانت قناعته أن الماضي يصوغ سلوك الإنسان.

الإنسان هو فعلاً نتاج ماضيه إلاّ أن التاريخ أكثر تعقيداً مما توحي به كلمة (أورتيفا) ويستمر نمو الإنسانية عن طريق تجسيد الماضي.

وفي الفصل الثالث يبحث « دوبو » في طبيعة الإنسان ودور التربية في تكوين شخصيته فيقول : « تعبير طبيعة الإنسان في الاستعمال العام يعني، بصورة رئيسية إن لم يكن بصورة مطلقة، صفات الإنسان النفسية والأخلاقية. وعندما يستعمل علماء البيولوجيا تعبير طبيعة الإنسان فانهم يعنون بالإضافة لذلك البنية التشريحية والخصائص الوظيفية لجسم الإنسان الموروثة فيها، المكتسبة أو المعدلة بالتجارب. وسواء كان التعبير محدوداً بمعناه الأول أو الثاني ـ الأكثر شيوعاً ـ فلقد كان محور نقاشات فلسفية وعلمية طابعها القائم حول « الطبع » أو « التربية ».

« أبو قراط » يقول : إن الإنسان هو نتاج بيئته. و « جون لوكس ١٦٣٢ ـ ١٧٠٤ » و « جان جاك روسو ـ ١٧١٢ ـ ١٧٧٨ »، وغيرهما من أتباع نظرية « التربية في نمو الإنسان »، اعتقدوا أن الوليد مثل الصفحة البيضاء التي يدون عليها كل شيء في سياق الحياة بالعلم والتجربة، كذلك (شاركل فورييه) و (كلود هلفيتيوس)، وذكر (توماس هاكسلي ـ ١٨٢٥ ـ

١٨٩٥) أن الوليد لا يحمل عند ولادته يافطة تشير إلى أن هذا « زبال »، وذاك « صاحب دكان »، وذلك « قسيس »، وآخر « أمير »، فالوليد يشبه كتلة غير متميزة في العجينة الحمراء وبتربيته فقط نستطيع اكتشاف مواهبه وإمكاناته (وصدق رسول الله : « ما من مولود يولد إلّا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »...).. وتمسك (توماس هوبز ـ ١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) و (هوبرت سبنسر ١٨٠٢ ـ ١٩٠٣) الداروينيون الاجتماعيون بفكرة أن الطبع ـ الوراثة ـ تحدد إلى حد كبير خصائص الأشخاص اليافعين منهم والبالغين، وعلى أساس إحصاء مغلوط استنتج (فرنسس غالتن ١٨٢٢ ـ ١٩١١) أن هذه الفكرة تقلل بأسلوب مقنع طبقية المجتمع الإنجليزي، فالقضاة ينجبون قضاة، أما العمال والحرفيون وحتى أصحاب الأعمال فلن ينجبوا في الغالب أولاداً لهم القدرة العقلية اللازمة لأداء أعمال ناجحة في عالم الفكر.. ومن (جوزيف ارثر غوبينو ١٨١٦ ـ ١٨٨٢) إلى (ادولف هتلر ١٨٨٩ ـ ١٩٤٥) وحتى الوقت الحاضر أدى هذا التفسير الضيق لفكرة لمحددات التكوينية الإرثية Genetic إلى مواقف جنونية وإجرامية فيما يتعلق بوجود (أجناس راقية سيدة)، و (أجناس سافلة منحطة) على حد زعمهم.

ويمكن صياغة فرضية عامة الآن لتفسير الحقيقة القائمة، وهي أن البيئة تعدل الطريقة التي تتحول بها الموهبة الموروثة إلى صفات وظيفية تشكل شخصية الفرد كما هو عليه بسلوكه وتصرفاته، وكل إنسان مخلوق فريد ليس له نظير سابق ولن يكون له نظير لاحق.

ومن المؤكد أن التأثيرات الباكرة هي التي تلعب الدور الأهم في تحويل الإمكانات الموروثة إلى صفات شخصية.

ويحار المؤلف، مثل غيره من الداروينيين، في وصف وتحديد القيم الروحية التي تضبط الرغبات والدوافع البيولوجية ـ الغريزية السفلى في الإنسان، وبما أنهم لا يعترفون بالروح التي وهبها الله لخلقه، والتي تسمو على التركيب العضوي لجسم الإنسان، نراهم يتخبطون في تسميات مادية. ولنستمع إلى (دوبو) في هذه الحيرة وهو يقول : « في أكثر الحالات يضم سلوك الإنسان بعض العمليات غير المنطقية التي تصدر

عن جزء من الدماغ يسمى (ديانسفالون Diencephalon) نما خلال تطور قديم قبل زمن طويل من تطور الطبقة السطحية (قشرة الدماغ)، فالفزع والغضب والأشكال المتعددة للرغبة الحيوانية... وفي الواقع كل ما يسمى بالدوافع السفلى هي عمليات غريزية لها مظاهر فيزيولوجية شديدة في الكائن البشري، وهي تتطلب مراقبة (قشرة الدماغ) التي تضبطها وتصلها بثقافة كل مجتمع بعينه، وتعبير (كبرياء قشرة الدماغ) استعمل لوصف حقيقة أن الإنسان كثيراً ما يتجاهل الدوافع السفلى في طبيعته، ويترك لسلوكه أن يسير كلية بأوامر مستلهمة من ثقافته وصادرة عن قشرة دماغه.

وفي كل أنحاء العالم نمت ممارسات اجتماعية بأسلوب تجريبي لتسمح للدوافع غير العقلية ـ أي السفلى ـ للإنطلاق في ظل شروط ضابطة في احتفالات وطقوس كانت تجري في اليونان ويشترك فيها (سقراط) نفسه، ولا تزال هذه الطقوس ـ وهي كصمامات الأمان ـ تمارس في أكثر بلاد العالم الغربي تقدماً في احتفالات رأس السنة الميلادية ورقصة (الميبول) والتهتك والعربدة في (عيد المرافع ـ عيد انتهاء الصيام المسيحي Mardi Gras) وفي الإثارات الجنسية الإيقاعية في رقصات (الروك أندرول).

ويعود (دوبو) ليعترف مرة أخرى بالفروق التي تميز الإنسان عن الحيوان والتي تنقض الداروينية فيقول : « وأكثر السلوك في الحيوانات العليا غريزي لا صلة له بالعقل، ومن النادر إن لم يكن من المستحيل، أن تجد سلوكاً حيوانياً متوجهاً نحو المستقبل البعيد الذي يحاول الحيوان التكهن به والسعي لإيجاده، وبالمقابل فإن ردود فعل الإنسان لأكثر الإثارات المحيطة تتأثر بعمق بتكهناته عن المستقبل، سواء كانت هذه التكهنات مبنية على الخوف أو الحقائق المعلومة أو الرغبة في الإنجاز أو على الآمال الحالمة. والحقيقة أن ميل الإنسان لتخيل الأشياء التي لم توجد بعد والتي لن تقع بدون إرادة وعمل حر يقوم به هي الناحية البارزة التي تميز الإنسان بوضوح تام عن الحيوان وهي التي تسهم كثيراً في تعقيد بنية الإنسان النفسية التي أعيت الأطباء. ومن أبرز النواحي المميزة للإنسان هي ميله للسمو على الدوافع البيولوجية البسيطة، فعنده الاستعداد لتحويل العمليات العادية في وجوده إلى أعمال وأعراض ومطامح ليس لها ضرورات بيولوجية ـ

غريزية ـ وربما تتعارض مع استمرار حياته، بل اكثر من ذلك ان الإنسان يميل ليرمز لكل شيء يحدث له، ثم يتفاعل مع هذه الرموز كما لو أنها إثارات محيطة حقيقية ».

ومع تأكيد (دوبو) على المادة العضوية في دراسته لطبيعة الإنسان فإنه يسلم أخيراً بأن كل ذلك غير كاف لتفسير طبيعة الإنسان إذ يقول : تتفاعل عوامل التجربة وعوامل الوراثة لتهندس المظاهر البيولوجية والسلوكية لحياة الإنسان ولكنها ـ مجتمعة ـ غير كافية لتفسير طبيعة الإنسان. ويتمتع الإنسان بقدر كبير من الحرية في الاختيار والتقرير، فهو المتميز في كونه قادراً على الاختيار والتمحيص والتنظيم... ومن هنا يأتي الإبداع، ولن تفهم طبيعة الإنسان تماماً حتى يصبح بالإمكان إيجاد الصلة التي تجمع ناحيتين متكاملتين فيها : المحدودية.. الجبرية... والإرادة الحرة ». ـ أي الوجود المادي البيولوجي والوجود المعنوي الروحي ـ.

ويقول (دوبو) في الفصل الرابع : « إن من أقدم الاهتمامات المستمرة للإنسانية الجهود الصابرة المتأنية الدقيقة لفهم علاقات الإنسان بغيره من البشر والكائنات والكون، وهناك أجوبة لهذه الأحجية بقدر ما هنالك من أديان وفلسفات ». **ويذكر أن ملحدي العالم الغربي يعانون موقفاً دفاعياً صعباً، فالحقائق التي يحاولون إنكارها تلاحقهم أبداً، ويؤكد أن الإنسان ذو طبيعة دينية مستقرة في أعماق كيانه منذ وجد، ثم ينتقد العلوم الطبيعية لأنها تتجاهل أهم ظاهرة في حياة الإنسان وهي الحرية. والبحث في حرية الإنسان هو أبرز ما يحتوي الفصل الرابع. يقول « دوبو »** : « من المعروف أن كل مظاهر الحياة مشروطة بالوراثة وتجارب الماضي وعوامل البيئة، إلّا أنه من المعروف أيضاً أن الإرادة الحرة تمكن البشر من السمو على ضوابط التحديد البيولوجي، فالقدرة على الاختيار بين الأفكار وأساليب الأفعال المختلفة يمكن أن تكون أهم صفات الإنسان، ولقد كانت في الغالب ـ ولا تزال ـ مدداً هاماً في تطور الإنسان، وفهم الوعي والإرادة الحرة وغيرها من المظاهر الإنسانية الحقة في الحياة يحتاج لنظريات جديدة تختلف ولكنها تتكامل مع النظريات البيولوجية الحاضرة. ولقد لاحظ الباحثون المعنيون بالنشاطات العقلية المؤدية للاختيار واتخاذ

القرارات، إنه لا يكون باستطاعة دماغ الإنسان أساسياً ومنطقياً الوصول لفهم كامل لذاته ولما يجري فيه، مثلما هو الأمر في الآلات الحاسبة ـ الأدمغة الالكترونية ـ فهي غير قادرة على التنبؤ بمستقبل العالم والتي هي جزء منه.

وتولد الإرادة الحرة ظواهر الحرية، وبالقدر الذي تسمح به الشروط الحاضرة والماضية، وتمكن من تطبيق الأفكار والآمال المتوقعة. والمثل على ذلك أن الأولاد في الأحياء الفقيرة للحواضر الكبرى يكتسبون في مقتبل حياتهم ثقافة من الصعب عليهم التخلص منها بعد ذلك، فبيئتهم تحطم كثيراً من إمكانات الحرية الكامن فيهم. ولقد عبر عالم الوراثة الإنجليزي (ج. ب. س هالدين ١٨٩٢ ـ ١٩٦٤) بدقة عن مدى تأثير البيئة في ممارسة الحرية فقال: « يتمتع المجتمع بقسط كبير من الحرية، وفيه تستطيع غالبية البشر تنمية مهاراتها الخاصة، ومن المعروف بصورة عامة أن الحرية تتطلب مساواة في الفرص، إلا أنه ليس من المعروف بنفس القدر من الحرية تتطلب أيضاً تنوعاً في الفرص، والإرادة الحرة لا تستطيع العمل إلا حيث يوجد نوع من الإيمان والاعتقاد، والمعلومات العلمية وحدها لا تقدر على فرض وتحديد قيم سلوكية ولكنها توفر حقائق يمكن على أساسها الاختيار، صحيح أن الاختيار يكون أكثر منطقية إذا بني على معلومات حقيقية وعلى تقدير للنتائج إلا أنه ـ أي الاختيار ـ يحتفظ دائماً بعنصر شخصي لأنه في النهاية يضم محاكمة تقويمية ».

« والحرية لا تهتم فقط بما يجب أن يعمل بل ربما تهتم أكثر بما يجب أن لا يعمل فالملائكة ليسوا أحراراً كما يذكرنا بذلك القديس (أوغستينس) لأنهم غير قادرين على ارتكاب الخطيئة أما الإنسان فهو حر لأنه قادر على عدم ارتكابها وله الخيار في ذلك ».

وصدق الله العظيم : « ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها »[1]. ويتابع (دوبو) قائلاً : « وحتى في أجواء الماديين التقليديين قليل منهم من لا يوافق الفيلسوف

---

(١) سورة الشمس الآيات ٧ ـ ١٠.

المتدين (م. تلليستي، ١٨٨٦ ـ ١٩٦٥) على رأيه « أن الإنسان يصبح إنساناً حقاً فقط في ساعات التقرير والحسم عندما يمارس إرادته الحرة ».

« وحرية الإنسان تعني ـ من ضمن ما تعنيه ـ قدرته على التعبير عن إمكاناته الكامنة، وقدرته على الاختيار، واستعداده لقبول المسئوليات ».

وصدق الله العظيم : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان »[1] ... **ويختم دوبو الفصل الرابع** بتأكيده أن : « حرية الإنسان لا تعني الفوضى والانفلات الكامل، فمثل هذه المواقف تؤدي حتماً إلى تفسخ حياة الأفراد والجماعات والنظام الاجتماعي، ورفض النظام أمر غير بيولوجي أيضاً لأنه يتعارض مع الصحة الجسمية والعقلية والاجتماعية وبقاء الجنس البشري، فالحياة تتميز بالنظام والتخطيط، لا بالفوضى والتخبط، في حياة الإنسان يعني القبول بل والاختيار الحر لبعض الضوابط والتخطيط مع ذلك هو تعبير عن إرادة حرة لأنه يضم محاكمات تقويمية وتكهنات للمستقبل ».

ويبدأ (دوبو) فصله الخامس بالبحث عن معنى للحياة :

« منذ قرنين تقريباً والإنسان الغربي يعتقد أن خلاصه سيأتي عن طريق الاكتشافات التكنولوجية، ولا جدال في أن المكتشفات التكنولوجية زادت من غناه المادي وحسنت صحته العضوية، إلا أنها لم تجلب له بالضرورة الغنى والصحة اللذين يولدان السعادة والهناء. ومن الصعب تحديد الأسباب الدقيقة لأمراض المدنية الحديثة، ولكن لا شك أن كثيراً من هذه الأسباب ناشئ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن التأثيرات المحيطة المؤذية، وكثير من أصول المشاكل الصحية للإنسان المعاصر ـ حاضراً ومستقبلاً ـ تكمن في الآثار الضارة للبيئة التكنولوجية، وطرق المعيشة الجديدة، وتنمو هذه الآثار الضارة ببطء وتدرج، فمن المعلوم منذ مدة طويلة أن أضرار الإشعاعات قد لا تظهر قبل عقد أو عقدين من الزمن، وعواقب التدخين وتلوث البيئة تنمو كذلك ببطء شديد، وبعض المشاكل الطبية والنفسانية في حياة البالغين لها

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢.

أصولها في سوء التغذية وبعض أنواع الحرمان الأخرى التي عانوها في طفولتهم.

كان الناس في الماضي يعيشون غالباً في مجموعات صغيرة، كل فرد منهم يعرف الآخر معرفة شخصية، وقد يحتاج الإنسان لتجمعات أكبر من آن لآخر، ولكن من المؤكد أنه لا يحتاجها بصورة دائمة، وعندما يختلط الإنسان اجتماعياً أكثر من اللازم تكون ردود فعله على الأرجح خيبة وظلماً وعدواناً تتطور كلها لتصبح أمراضاً عصبية ونفسانية. وقد يأتي يوم لا يكون العنف فيه ـ حتى ولا القنابل ـ تهديداً خطراً بل انفراجاً وارتياحاً.

فالمستويات العالية للرفاه تستطيع إذن خلق الكثير من الأوضاع غير المرغوبة، فتتراكم على مدى الحياة، ويكاد جميع الناس يتفقون على مخاطر التخمة والتدخين الشديد وعدم القيام بتمارين رياضية، والاستهلاك الكثير للكحول والأدوية والمخدرات والتعرض لتلوث البيئة... ولكن القليل من هؤلاء الناس يريد بذل الجهد اللازم للوقاية من هذه المخاطرة، أضف إلى ذلك أن تأثيرات مخاطر البيئة هي غالباً غير مباشرة ومتأخرة لدرجة أن الرأي العام لا يعيها تماماً، وكثيراً من التأثيرات الضارة تتوطن في الجسم والفكر دون أن يعي الإنسان المصاب إنه تغيير بصورة دائمة، لا يمكن ردها بتأثيرات محيطية لم يشعر بها وعيه وإحساسه.

كذلك عندما يحدث التغيير التدريجي في الحياة الاجتماعية، يمكن أن تتفسخ نوعية الصلات الإنسانية دون أن يعي الأفراد أنفسهم الخسارة الحاصلة. وعندما يتسع الأفق الاجتماعي للفرد يزيد عدد معارفه وينقص عادة عمق صلاته بهم. وقد يكون لساكني المدن الكبرى عدد لا بأس به من الأصدقاء، إلا أن هذه الصداقة سطحية بصورة عامة. ومن أسوأ نتائج الحياة العصرية برأي مخطط التحضير الأمريكي (كريستوفر الكسندر) عارض الاعتزال والاستقلال الذاتي يقول (الكسندر) : إن أكثر الناس يستعملون بيوتهم للهروب من ضغوط العالم الخارجي، ويمارسون العزلة الاجتماعية كشكل من أشكال وقاية الذات، وفي النهاية يصبح الانسحاب والاعتزال عادة، ويصل الناس لنقطة لا يستطيعون معها بل ولا يريدون السماح للآخرين

بولوج عالمهم الذاتي الخاص بهم. فالفردية المفرطة والاستقلال الذاتي ينموان بصورة عامة وغير واعية نتيجة الانسحاب الوقائي من الضغوط. ويبقى الناس الذين أنجزوا هذا الاستقلال الذاتي معتمدين على الفئات الاجتماعية الذين هم جزء منها، إلا أن هذا الاعتماد بظهر فقط في مجال المال، والمال بدوره يميل لخلق عالم يعزز الفردية والانسحاب من المجتمع. وقليل من الناس لسوء الحظ يعون فقر الحياة الناتج عن عارض الاعتزال والاستقلال الذاتي، ويظهر أن عدداً أقل من هؤلاء يدرك أن الجِّد في سبيل معنى للحياة مكتوب له الفشل، ما لم يتعلم الإنسان مرة أخرى أن يتحاور مع الناس الآخرين. وسيتابع الإنسان البحث عن معنى للحياة بمحاولته الانتماء إلى غيره من الناس، وإلى المجموعة التي تمثل بالنسبة له « الله ».

وتحت عنوان : أبنيتنا تحدد أشكالنا يبدأ (دوبو) بالمقطع التالي :

« تعب الكثير من الناس من هذا السباق المجنون للتغيير الدائم، وأنهك هذا الصراع البالغين، أما المراهقون فلقد أصبحوا لا يجدون فيه أية قيمة تذكر. وعندما يشاهد هؤلاء جميعاً لتحل مشاكل خلقتها التكنولوجيا نفسها يعلو صراخهم : « قفوا هذا العالم فنحن لا نريد أن نخرج منه، إنهم يريدون العودة إلى (أركاديا)، رواق النعيم الأسطوري آملين استعادة بساطة ونقاء الحياة الأصلية، إلا أن (أركاديا) لم توجد أبداً إلا في الأحلام، أضف إلى ذلك أننا لا نستطيع العودة (لأركاديا) حتى ولو كان الأمر حقيقياً بعد ما أثقلنا بالآثار البيولوجية والاجتماعية للحياة المدنية ».

ولقد ظهرت أسطورة تقول إن للإنسان قدرة غير متناهية على التأقلم لبيئات دائمة التغيير فمن الممكن تحويل حياته بصورة مستمرة وحتى تحويله هو شخصياً بواسطة التكنولوجيا. والواقع أن هناك حدوداً بيولوجية (عضوية ونفسية) لمدى قدرة الإنسان على التأقلم والملاءمة، وهذه الحدود هي التي يجب أن تفرض أبعاد التغيير التكنولوجي.

والصلات المتبادلة بين البشر هي من أهم العوامل التي يجب أخذها بعين الاعتبار، وكثير من علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع ينظرون بحزن وتشاؤم إلى آثار الشروط المحيطة العصرية على العلاقات الإنسانية ولا

يجدون كبير أمل في قدرة الوضع الحاضر على توفير الحاجات الأساسية لقيام صلات ودية حميمة بين أفراد قلائل، وفي المجتمع القديم كان الإنسان مرتبطاً بالإنسان، أما في التجمعات الحديثة ـ ولا يمكن تسمية هذه التجمعات مجتمعاً ـ فيعيش الإنسان وحيداً، وكل شواهد الطب النفسي تشير إلى أن عضوية الإنسان في جماعة أو مجتمع تقويه وتمكنه من الإبقاء على توازنه أمام الصدمات العادية في الحياة، وتساعده على تربية أولاد يكونون بدورهم سعداء مرنين. وفقدان الانتماء للجماعة في جيل ما قد يجعل الناس في الجيل التالي أقل قدرة على الاندماج في عضوية الجماعة والمدنية، وهي أساساً محطمة لحياة الجماعات الصغيرة تترك الرجال والنساء تعساء يشعرون بالوحدة. ولابقاء مستوى « الكيف » في حياة الإنسان من المهم أن يكون هناك بيئة يستطيع أن يرضى الإنسان فيها ميله للهدوء وللاحتفاظ بحرمه الشخصي واستقلاله ومبادئه الفردية والانفراج الفسيح من حوله هذه ليست حواشي ولا كماليات بل هي ضرورات بيولوجية حقيقية.

ولكل أفراد البشر ـ نظرياً ـ حاجات أساسية واحدة، ولكن من الناحية الواقعية تتأثر الحاجات بالمجتمع، فهي تختلف اختلافاً عميقاً من مجموعة بشرية لأخرى، وقد تصبح الحاجات التي تبدو حيوية اليوم غير ذات أهمية في جيل آخر وليس مرد ذلك لتغيير في طبيعة الإنسان بل لاختلاف البيئة الاجتماعية وتعبير لحاجاته الأساسية إذ لا معنى له لأن الواقع يثبت أن الناس يحتاجون ما يرغبون والحاجات لا تحددها المتطلبات البيولوجية للإنسان بقدر ما تحددها البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها بخاصة البيئة التي نما فيها وترعرع « والحياة الجيدة » هي الكفاية في هذه الحاجات، سواء تطابقت تماماً أم لم تتطابق مع الحاجات البيولوجية، ولا تصبح الرغبات حاجات بالنسبة للأفراد فقط بل بالنسبة لمجتمعات بأكملها ففي أيامنا هذه يهتم « المجتمع العظيم » على ما يظهر بخلق طبقة متوسطة، ومدنية مادية مكسوة بالمظاهر التافهة، والبيئة التي يخلقها الناس من خلال رغباتهم تصبح مرآة تعكس مدنيتهم، بل الأهم من ذلك أنها تشكل أيضاً كتاباً تنظر فيه صيغة حياتهم، وينقل للآخرين وللأجيال المتعاقبة بعده. وأهمية خصائص المحيط ليست في كونها تؤثر فقط على الراحة

« والكيف » في الحياة المعاصرة بل في كونها تؤثر على نمو وتربية الجيل الناشئ ومن ثم على مجتمعات الغد.

وفكرة أن الإنسان يهندس مستقبله عبر قرارات تتعلق ببيئته عبر عنها (ونستون تشرشل) بأسلوب صوري عام ١٩٤٣م عندما كان يناقش شكل الهندسة المعمارية لبناية مجلس العموم البريطاني. لقد كان البناء القديم غير مريح وغير عملي، ونتيجة للغارات الجوية تهدم إبان الحرب العالمية الثانية، وهكذا سنحت الفرصة لتبديله ببناء أكثر ملاءمة، ومع ذلك فقد ألح تشرشل على إعادة بنائه على نمط البناء القديم تماماً. وفي كلمة ذات مغزى قال (تشرشل) : إنّ أسلوب المناقشات البرلمانية في انجلترا تأثر شرطياً بالخصائص المادية للبناء القديم، وأي تغيير في الهندسة المعمارية سيؤثر حتماً على طريقة المناقشات والمساجلات وبالتالي على بنية الديمقراطية الإنجليزية. ولخص فكرة التأثير المتبادل بين الإنسان ومجمل بيئته بجملة درامية لها قيمتها إذ قال : « نحن نهندس عماراتنا، وعماراتنا تهندسنا بدورها بعد ذلك ».

وكثير من الأجهزة التربوية تحاول دفع الصغار إلى أنماط تقليدية بالتلاعب بعوامل بيئتهم وكثيراً ما تنجح في ذلك رغم بعض المظاهر المعاكسة وعلى كل مسئول عن تلفزيون أو أي مدير لبرنامج دعائي موجه للصغار أو الناشئة أن يشعر بتبكيت ضميره ـ إذا كان له أي ضمير اجتماعي ـ عندما يعلم أنه يؤثر ويشرط أذواق وآراء وأنماط ردود الفعل عند هؤلاء المشاهدين والمستمعين لمدة طويلة وربما لن تستطيع الناشئة التخلص أبداً من هذا التأثير لأجهزة الإعلام. ولقد استعمل الزعماء السياسيون هذه المعلومات للتلاعب بالرأي العام وبخاصة لقولبة عقول الناشئين.

ولكل الأشكال الهندسية المعمارية العظيمة موقف ما من الحياة وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للبيت والحديقة والمعبد والقرية والحواضر الكبرى. ولكي تنجح العمارة ـ جمالياً وعملياً ـ يجب أن تعكس روح المؤسسات والمجتمع الذي أنشئت فيه وما أن تصوغ المجتمعات أفكاراً أو مواقف ذات قيمة حتى يعمد القانون إلى إعطاء هذه الأفكار والمواقف حيوية وشكلاً مادياً مناسباً. وكانت الأشكال المعمارية دائماً وفي أحسن أحوالها ـ

تعبيراً عن مثاليات مادية على الفلسفة الاجتماعية للمؤسسات الإنسانية، فهي تشكل تعبيـراً بنيوياً للحاجات الاجتماعية ولسوء الحظ أكثر عمارات الشقق السكنية والمكاتب الآن لا توحي بشيء أكثر من الفاعلية والغنى الظاهر ومن هنا تأتي تفاهة هندستها المعمارية.

لقد ورثنا آثاراً عظيمة من الماضي أما ما سنورثه للأجيال القادمة فليس هناك على ما يظهر إلا السيارة. فالسيارة هي رمز أيامنا هذه وهي تمثل تهربنا من مسئولية إبداع شراكة بيننا وبين بيئتنا من أجل المستقبل. إن فشلنا المخيف في إقامة مدن مرغوبة وعمارات ومكاتب جذابة لم ينتج عن فقر في خبراتنا الهندسية، ولا سوء في مهاراتنا العملية، بل نتج عن حقيقة أن المهارات التكنولوجية لا تستطيع إبداء شيء ذي قيمة ما لم تكن في خدمة هدف ذي قيم نبيلة. ومؤسساتنا لم تهندس للمساعدة في قيام حياة أفضل، بل لجعل البشر أكثر إنتاجاً والآلات أكثر فعالية في ميداني الصناعة والتجارة، مع أن الواضح أن الإنتاج والفعالية ليست لها ــ مجردة هكذا ــ أية قيمة فهي واسطة لغاية والحقيقة أن الإغراق في الاهتمام بالإنتاج والفعالية يتعارض ويعرقل البحث عن معنى في الحياة. وتقود التكنولوجيا العلمية المدنية المعاصرة إلى الانتحار إذا لم تعكس مسيرتها في الوقت المناسب. وفي كثير من أحداث الماضي فقدت المدنيات الإرادة أو القدرة على التغيير بعد ما سارت في اتجاه معين مثل هذه المدنيات تصرف سريعاً ما فيها من مضامين روحية، وقابليات إبداع طبعت مرحلتها الأولى وسرعان ما تتفسخ إلى سخافات قبل الغرق تماماً في بحر التفاهة.

والحقيقة على ما يظهر أن بيئتنا وطرق معيشتنا تؤثر بعمق على مواقفنا ومواقف الأجيال المقبلة، وليس هناك شيء أكثر كرباً وغماً بالنسبة لمستقبلنا القريب والبعيد من انحطاط وبشاعة مراكزنا الحضرية الكبيرة، واضطراب وسائل النقل العامة، والتركيز الزائد على الراحة المادية الأنانية، وفقدان السلوك الفردي والاجتماعي والتضحية « بالكيف » في مجالي الإنتـاج والتربية، والنقص في ردود الفعل المبدعة تجاه الأخطار بخاصة يثبط الهمم ويبعث على اليأس لأن كل الناس المفكرين يعون الحالة الحاضرة وهم متلهفون لعمل شيء ما لإصلاحها، ولكن لا يمكن القيام بعمل جماعي لأن

هذا النوع من العمل يحتاج إلى إيمان موحد وهو غير موجود، ولسبب حاجتنا لهذا الإيمان يصبح البحث عن معنى لحياتنا أهم واجباتنا في هذه الأيام.

وينتقد (دوبو) المسيحية فيقول :

إذا راجعنا التاريخ ربما يظهر موضوع البحث عن معنى عملاً لا فائدة منه. ففي كل مرة تتعرض البشرية لمثالية تعطيها معنى لحياتها، تتبخر هذه المثالية وتختفي، ولقد ظهر في الماضي كثير من العقائد الدينية والفلسفية والاجتماعية أنارت للبشر طريقهم لمدة ما، وضاعت من بعد ذلك في مستنقع من شكوك فلسفية وجدل ضيق عقيم. بدت المسيحية في القرون الوسطى كقوة موحدة عندما أعطت شعوب أوروبا بعض الآمال والمطامح المشتركة والسلوك الاجتماعي المستوحى من محبة الله وخوفه ولقد حركت أفكار المسيحية القدرات البشرية في أعمال جماعية مدهشة كبناء الأديرة والكاتدرائيات ذات الفن الغوطي والروماني، ولكن بعد ذلك انشغل المسيحيون باطراد في محاولات لاهوتية مكررة، وتحولت المسيحية من عقيدة روحانية من المحبة إلى اعتقاد جامد محافظ خال من أي إلهام وكثيراً ما نراها الآن تتفتت لتصبح فئات متعددة تتبنى أخلاقاً اجتماعية مبهمة، واللاهوتيون مشغولون بمناقشات فلسفية زائفة لمحاولة التوفيق بين المسيحية وبين الرأي الذي لا معنى له عن « موت الإله ».

ثم ينتقد (دوبو) العلم لأنه قاصر وحده عن إعطاء وجهته ومعنى للحياة بالإضافة لمحدوديته بقدرة الفهم المحدودة في الإنسان ؟ يقول (دوبو) :

ومع التنور الذي حدث في القرن الثامن عشر برزت تدريجياً مكانة التعليل العلمي ليصبح هو الإيمان الجامع للناس، إلا أنه أيضاً بدأ مرحلة ضعيفة منذ بضعة عقود، لأن محدوديته الفكرية والتطبيقية ظهرت بجلاء، قليل من الناس يشك في أن العلم هو أعظم القوى في العالم المعاصر، ولكن لم يبق إلا عدد قليل جداً من الناس بخاصة المتعمقين منهم على اعتقاده أن العلم قادر على تفسير معضلات الكون، أو أنه قادر لوحده أن يعطي للحياة

الإنسانية وجهة ومعنى ومدى العلم الحديث تحدده بالتأكيد مقدرة الفهم المحدودة في الإنسان والموجودة أصلاً في طبيعته. وتواجهنا العلوم المادية بتناقضات لا حلول لها عندما نحاول فهم حدود الفضاء أو بدايات الزمن، أضف إلى ذلك أن الانجازات العلمية تثير بصورة عامة مسائل أخلاقية يعتبرها كثير من العلماء خارج نطاق كفاءاتهم ويشيرون إلى أن العلم والتكنولوجيا أدوات ووسائل ليس لها أخلاق ويمكن استعمالها لخير البشرية وهذا ما يكذبه الوعي المتزايد بأن تكنولوجيا العلم تثير مشاكل جديدة في محاولاتها لحل المشكلات القديمة ».

ويتخبط (دوبو) في تيهه ويقترب من بؤرة الإيمان الصحيح تارة ويبتعد عنها تارة أخرى :

« فإذا كان الزمن يسبب تآكل وتفتيت كل المعتقدات الدينية والفلسفية والاجتماعية فهل من المنطق البحث عن معنى للحياة والأمل في حلول كاملة للمشاكل العملية ؟ إن فلاسفة العالم التقليدي وبناة الكاتدرائيات ومؤسسي التفسير العلمي بل وزعماء أية حركة اجتماعية أو دينية في مجرى التاريخ لم يهتموا بصياغة فلسفة محدودة، أو حل للمشاكل العملية الآنية. والقاسم المشترك للمعتقدات التي أدت إلى وحدة جماعات من الناس هو غالباً مجموعة من القيم التي مكنت الإنسان من تناسي الفردية، ليجد معنى في إطار أوسع. وسواء كان الاعتقاد دينياً أو فلسفياً أو اجتماعياً فإن الشعور بالمعنى ينبع من وعي الإنسان ـ مهما كان مبهماً ـ إن وجوده كله متصل بالكون بالماضي والمستقبل وبباقي البشرية، فمثل هذا الشعور بالصلة ربما يكون مماثلاً للتجربة الدينية، ولقد أخذ الإيمان أشكالاً عدة عبر التاريخ، وسواء كان الاعتقاد بإله أو بفلسفة غير مادية فإنه يحوي دائماً نظرة إلى الإنسان وامتداده لما وراء الزمن الحاضر، وكلما اتسعت الصلة كلما كبر المعنى، ولهذا اختلط الدين والفلسفة رغم نقصهما الظاهر في القيم العملية بجاذبيتهما للبشرية. صحيح أن الأديان والفلسفات لم تسهم كثيراً في المساعدة على فهم وتطوير الإنسان كآلية حية إلا أنها مع ذلك ساعدته مساعدة غير محدودة بتوفير نظريات وإجابات محتملة، للأسئلة التي تلاحقه : من أين أتيت... وإلى أين أذهب ؟ وبخاصة : من

أنا ؟ ومآسي المراهقين الجانحين تعطي هذه الأسئلة حدة خاصة.

وينتقل (دوبو) ليتهم المجتمع الأمريكي كله بالجنوح :

« عادة لا يسلك الولد الجانح مسلكاً غير اجتماعي بسبب ميل إجرامي متعمد، فهو يتصرف لإرضاء دافع أو شهوة أو رغبة آنية، إنه يعيش للحاضر فقط، وبسبب عامل إرثي أو في الغالب لأسباب اجتماعية ثقافية يكون غير قادر على إيجاد الصلة بينه وبين الآخرين، بينه وبين الماضي، وبينه وبين المستقبل، وأسوأ ناحية في قدره هذا أنه لا يجد أي معنى لحياته، لذلك فهو لا يرى سبباً لتنمية شعوره بالمسئولية، وليس من العدل ولا من المعقول التأكيد على أن الناس العاديين يتصرفون الآن كالأولاد الجانحين، ومع ذلك فيجب اعتبار الناس في بلاد المدنية الغربية ـ وبخاصة أمريكا اليوم ـ من الجانحين لأنهم يتصرفون وكأنما المقياس الوحيد لسلوكهم هو إرضاء رغباتهم ودوافعهم الغريزية الآنية دون النظر لعواقب ذلك على باقي الطبيعة وعلى الذرية، وتستنكر الكتب المدرسية الملاحظة غير المسئولة التي أطلقها لويس الخامس عشر : « من بعدي فليكن الطوفان »، ومع ذلك فنحن نستعمل الأرض كأننا آخر جيل يسكنها، ونتصرف اجتماعياً كأنما نريد أن نعذر أعمالنا السيئة بقولنا : « وماذا صنعت ذريتي من أجلي ».

كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدنية ناجحة، دعمتها أجهزة منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية ـ ليس فقط بالنسبة لرفاه الفرد بل ولبقاء الجماعات ـ تضطرب بسرعة وعمق الآن بسبب الحياة العصرية التي نحياها، والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسه.

وقبل أن أعرض القوى المدمرة التي أطلقها العالم العصري لا بد من أن أؤكد أن الذنب في الوضع البيئي والاجتماعي المخيف، لا يمكن التأوه على بعض ذوي المصالح الأنانية المتعمدين الشر للبشرية، فالحقيقة أنه لا يمكن لوم فرد بعينه. فمثلاً المعلومات عن الإشعاعات الذرية والقدرة النووية نمت على أيدي رجال ذوي مثاليات عظيمة لدرجة أنهم كانوا يعتبرون في نظر الناس من قديسي العصر ومع ذلك نشأت عن نشاطاتهم العلمية أضرار

لا تحد، والمولدات ذات الاحتراق الداخلي كانت أول الأمر نعمة للبشرية ومع ذلك أدت زيادة استعمالها إلى تلوث الهواء وبتعبير آخر لم تأت الأخطار الناجمة عن الاكتشافات التكنولوجية والابتكارات الاجتماعية نتيجة سوء نية واعية في الإنسان، بل سببتها أساليبنا السياسية والاجتماعية التي عفا عليها الزمن، إذ أنها لا تصلح للعالم العصري، فهي غير قادرة على التنبؤ ولا التحكم بالنتائج الفظيعة لاستغلال النمو التكنولوجي في أهداف اقتصادية. فتظهر اختراعات كثيرة وتطبق تقريباً في آن واحد معاً وتتوزع في جميع أنحاء العالم وتؤثر في الواقع على جميع أوجه الحياة قبل أن يعرف أي شيء عن نتائجها المحتملة في الإنسان والبيئة الاجتماعية وشروط البيئة المادية.

ولقد طورت العلوم الطبية أساليب ذات فاعلية هائلة يمكن أن تؤثر في وقت واحد ـ بطرق لا يمكن التنبؤ بها ـ على مصير أعداد ضخمة من الناس هم وذرياتهم وغالباً ما تثير هذه الأساليب حالات مرضية جديدة في الوقت الذي تكافح فيه الأمراض القديمة ولا وجود لسابقة تاريخية لمثل هذا التأثير الطبي الواسع كما أنه لا توجد معلومات نظرية في علم التكوين الإرثي ولا في علم الفيزيولوجيا للتنبؤ بطبيعة ومدة التأثير الذي ستحدثه هذه التغييرات « الثورية » على البنية والمناعة العامة لإنسان المستقبل.

قد تبدو التكنولوجيا العلمية اليوم للنظرة الأولى وكأنها امتداد ـ ولو أنه مدهش ـ لما بدأ في أوائل القرن التاسع عشر ولكن الواقع أنها تختلف في طبيعتها، فحتى قبل عقود قليلة كان اهتمام العلماء منصباً على مسائل محدودة واضحة تتعلق برفاه الإنسان ؛ رأى هؤلاء البؤس والمرض بسبب نقص شديد في الغذاء وبعض الحاجات الضرورية البسيطة وشاهدوا كيف أن الجهل يولد الإرهاب والاعتقاد بالخرافات ويؤدي في كثير من الأحيان إلى القسوة والعنف، وكان هناك ضرورة سريعة للخلاص من تهديد العوز لمساعدة الإنسان على مواجهة العالم الطبيعي بدون خوف، وجعلت تكنولوجيا العلم الأمر ممكنا للوصول لهذه الغايات وكانت خادمة حقيقية للبشرية، ولكن لسوء الحظ طور إنسان العصر قوى تكنولوجية جديدة قبل أن يعرف كيف يستخدمها بحكمة. وكثيراً ما نرى الآن العلم يستخدم في تطبيقات تكنولوجية لا علاقة لها بحاجات الإنسان، ولا تهدف إلا لابتداع

رغبات مصطنعة جديدة حتى إن أكثر التكنوقراط حماسة يعترف أن كثيراً من الرغبات الجديدة التي اصطنعت حديثاً تضر بالصحة وتشوه مطامح الجنس البشري، بل أكثر من ذلك هنالك دلائل على أن نواح تكنولوجية بكاملها بدأت تخرج من مجال سيطرة الإنسان عليها. وباختصار فاستعمال التكنولوجيا الحديثة دون النظر لكل النتائج الممكنة هو أمر يوازي تحضير قنبلة زمنية ستنفجر في وجه المجتمع سواء بعد شهر أو بعد جيل ».

ويركز (دوبو) في آخر الفصل الخامس هجومه على أسطورة النمو والتنمية فيقول :

« كل المجتمعات المتأثرة بمدنية الغرب تتبع (توراة التنمية) كعقيدة، وتدور في دائرة تشبه (حلقات ذكر الدراويش)، وتقول هذه التوراة « انتجوا.... أكثر لكي تستهلكوا أكثر.... ثم لكي تنتجوا أكثر »، ولا يحتاج الإنسان لأن يكون عالم اجتماع حتى يدرك أن هذه فلسفة مريضة مجنونة فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلاً فضلاً عن الاستمرار الدائم إلى ما لا نهاية. وفي حديث بعنوان : « هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو » كان سكرتير وزارة الداخلية الأسبق (ستيوارت ل. أودال) شجاعاً عندما قال إنه من السهل اعتبار أمريكا التي صنعها الإنسان... كارثة على مستوى القارة « إننا نملك أكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات الخردة بالمقارنة مع أية دولة أخرى في العالم، ونحن أكثر سكان العالم تنقلاً، ونتحمل أكبر قدر من الازدحام ونولد أكبر كمية من الطاقة. وفي أجوائنا أكثر الهواء تلوثاً في العالم. ولقد نقل عن رئيس بلدية (كليفلند) قوله متهكماً : « إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنساناً إلى القمر... بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات ». وعبر (أودال) في آخر حديثة الرائع، عن أمله في تصاعد الغضب والاستنكار « لتوراة الدمار » التي تقول : ويجب الاعتراف أن موقف المعارضة لا يضم إلا نسبة صغيرة من الرأي العام، ولكن الجيل الجديد هو أقل انبهاراً بالتكنولوجيا من آبائه المسنين، وربما سيكون الجيل القادم أقل انبهاراً أيضاً من سابقه، وأملنا أن يستطيع « عدم اكتراث » الأجيال القادمة مساعدة أمريكا على التغلب على « خرافة النمو ».

وفي الفصل السادس والأخير يكشف (دوبو) تضارب مشاعره، ويركز مرة أخرى هجومه في تلخيص نقده للحضارة المادية والمجتمعات الغربية المعاصرة في أساليب معيشتها وتخريبها للبيئة، وينتقد العلماء لتهربهم من مواجهة الحقائق المرة، ويثير مرة أخرى التناقض الواضح بين المفهوم المادي للداروينية والقيم الروحية للإنسان.

يقول (دوبو) مبتدئاً الفصل : « أنا أعيش في وسط « مانهاتن » بنيويورك، وأعاني مثل الكثيرين من أبناء جيلي علاقة حب وكراهية بيني وبين مدنية التكنولوجيا، بإمكاني أن أرى العالم كله... ولكن المناظر المتاحة لي من نوافذ شقتي في الطابق السادس والعشرين تكشف فقط عن خليط من الأسمنت والفولاذ يستحم في ضوء وسخ غيوم الدخان الكثيف؛ وهو تعبير ملطف للأوحال التي تنشر الروائح الكريمة في الجو وتلطخ زرقة السماء، وضجيج المدنية ليلاً ونهاراً يوفر خلفية غير متماسكة لزعيق نشرات الأخبار العالمية المذاعة باستمرار منقولة بالراديو. كل شيء آكله أو أشربه أو أستعمله مستورد من أماكن بعيدة أو من مكان مجهول فهو محفوظ بالكيماويات ومراقب الكترونياً ومنقول على عدد لا يحصى من الآلات المغفلة قبل أن يصل إليّ. ولا تستطيع (نيويورك) الاستمرار في العيش حتى ولا لأسبوع واحد إذا طرأ حادث أو جرى تخريب في شبكة مياهها إبان الصيف أو في تيارها الكهربائي في أواسط الشتاء. حياتي تعتمد على تكنولوجيا أنا عاجز عن فهمها حقاً ومع وعيي الكامل بالمخاطر المترتبة على اعتمادي هذا فأنا أقبل هذه التكنولوجيا كأمر لا بد منه. أقضي أيامي في وسط الضوضاء والأوساخ والقباحة والسخافة.. لكي أكون على مقربة من مختبرات حسنة التجهيز، ومكتبات ومتاحف... وبعض الزملاء المثقفين الذين يحبون حياة مادية سخيفة كحياتي.

وأنا أشك في أن باستطاعة البشرية تحمل أسلوب حياتنا السخيف لمدة أطول دون أن تفقد أفضل ما في الإنسانية، وعلى الرجل الغربي أن يختار مجمعاً جديداً وإلا فإن المجتمع الحديث سيفنيه ؟ قال (هارفي كوكس) خلال نقاش جريء في مؤسسة (ماشوستس) للتكنولوجيا : هناك عناصر في الموقف الحاضر يمكن إيجاد أجوبة لها في التكنولوجيا، ولكن

هنا عناصر أخرى لا يمكن للتكنولوجيا أن تجيب عليها. وهي تتعلق إلى حد ما بموضوع نظرتنا الفلسفية الأساسية بالنسبة للإنسان وما يعني تطبيقها. إن تعديل نظرتنا الفلسفية لتناسب التكنولوجيا الحديثة أمر خطر ـ في أحسن حالاته. وقليل من الناس ـ على افتراض وجودهم ـ يحبون هذه الشروط البيئية التكنولوجية ـ ونحن نتبع حتى الآن التكنولوجيين حيثما تقودهم أساليبهم نحو « أوتوسترادات قاتلة » أو نحو القمر في ظل تهديد القنابل النووية أو ازدياد السرعة التي تفوق سرعة الصوت ولكن هذا لا يعني أن علينا الاستمرار إلى ما لا نهاية على هذا الطريق الانتحاري المجنون... وكثيراً ما نرغب أن تكون لدينا الشجاعة للتوقف عن السير في هذا الطريق، لنعود إلى أنفسنا الطبيعية. والرغبة في الانسحاب من أسلوب حياة نعرف أنه غير إنساني. هذه الرغبة منتشرة انتشاراً واسعاً في الغالب وربما تصبح قوة اجتماعية مسيطرة في المستقبل. والتطلع إلى موقف إنساني غير خاضع لأوامر التكنولوجيا ليس رجعية ولا انهزامية، بل هو موقف تقدمي وجهد بطولي، وإنجاز مثل هذا الموقف يحتاج لشجاعة لتحرير أنفسنا من المعوقات الثي تمنع أكثرنا من اكتشاف طبيعة الحقيقة والتعبير عنها.

جواب لماذا ؟ قبل جواب كيف ؟ في موضوع البيئة، يقول (دوبو) :

وبما أن العوامل البيئية تؤثر بعمق على أكثر نواحي حياتنا اليومية وبخاصة النمو البيولوجي والنفسي للأطفال والأولاد، فمن أكثر الضرورات تطبيقاً في تخطيط المدن التفهم الأفضل لمتطلبات الإنسان البيولوجية وما يرغبه ثقافياً وما يأمل أن يكون. وفي هذه الناحية كما في النواحي الهامة الأخرى للحياة معرفة جواب « لماذا » ؟ أمر ضروري قبل معرفة جواب « كيف » ؟ ولسوء الحظ نحن نعطي دائماً في الواقع الأسبقية للاعتبارات التكنولوجية على العوامل الإنسانية ويجد إنسان العصر سهولة في تأدية عمل لإنتاج سيارات أو إنشاء أوتوسترادات وناطحات سحاب وصواريخ موجهة وغذاء بلا حريرات... ولكنه حتى الآن لم يتعلم كيف يعمل كإنسان عندما يجب أن يتصرف بحكمة عند استخدامه للحاجات التي صنعها بإسراف

يثير الغثيان، وستعاني مجتمعاتنا لا محالة من كوارث بيولوجية ونفسية ما لم تنمي بيئات تكنولوجية وحضرية تتناسب حقاً وحاجات الإنسان، فأمراض المدنية وتمرد الشباب هي إنذارات بأن العافية البدنية والصحة العقلية والرضى العاطفي والشعوري كلها تحتاج لأكثر من الغنى المادي وإنتاج الأشياء ومعرفة أسرار الذرة.

وينتقد (دوبو) العلماء فيقول :

عندما احتفلت الأكاديمية الوطنية للعلوم بيوبيلها المئوي عام ١٩٦٣م قدم حوالي عشرين عالماً أمريكياً مشهوراً الأوجه المختلفة للجهود العلمية في سلسلة رسائل ممتازة عن مواضيع تتراوح بين علم الفلك وسلوك الحيوان... ولكن لم يبحث أي منها في المشاكل التي تعترض الإنسان ذا اللحم والدم في عالم القرن العشرين. لم يكن عدم بحث هذه المشاكل نتيجة سهو ؛ لقد عكس حقيقة هي أن الطرق التي تبحث فيها مشاكل الحياة الإنسانية في عالم الواقع لا توفر معلومات على مستوى فكري رفيع تصلح لعرضها على المستوى المهيب في الأكاديمية الوطنية للعلوم.

أصل المنظومة الشمسية أو استعمال المجهر الالكتروني في دراسة أنسجة الحيوان الميت... نعم، اختناق الإنسان وشعوره بالغربة في مدننا... لا ؛

يتهرب العلماء من المشاكل التي تعترض الحياة الإنسانية، لأنها غير قابلة للدراسة بالأساليب التقليدية للعلوم الطبيعية، ولهذا السبب لن تؤدي الدراسة إلى نتائج دقيقة واضحة حاسمة، ومن ثم لتقدم العلماء المهني فالطريق إلى النجاح العلمي إذن هو باستبدال المواضيع الهامة التي تظهر معقدة صعبة بمواضيع أقلَّ أهميـة يمكن حلها في ظرف قصير نسبياً، وهذا الحال ليس وقفاً على المجتمعات الرأسمالية فقط فلقد نقل عن الفيزيائي السوفييتي (ل. أ. تسيموفتش) قوله « البحث العلمي هو طريقة لإرضاء الفضول العلمي الخاص على حساب المال العام ». وهذه الجملة ليست مزاحاً كما يوحي مظهرها فهي تدل على مشكلة جدية تتعلق بالعلم وصلاته بالمجتمع. ورغم نجاحات العلم في الميادين العملية لم تترسخ بعد المعرفة

العلمية نفسها كقيمة أصيلة لها معنى في ذهن العامة. فكما صرح المؤرخ الإنجليزي للعلوم (ستيفي تولمين) عن العلم : « يمكن أن يقال اليوم عن مجتمع الغرب أنه ينظر للعلم كآلهة غريبة قوية غامضة، وأي تبديل أو تغيير في حياتنا هو من صنع يديه إلا أن الغربيين بعيدون عن فهم طبيعة هذه القوة الغريبة كبعد فلاح القرون الوسطى عن فهم لاهوتيات (توماس الأكويني) ». وإهمال العلماء لهذه المشاكل الإنسانية التي تستحوذ على الاهتمام العميق للإنسان قد يقلب الثورة ضد المجتمع وضد المفكرين في العهد الحاضر إلى صليبية ضد العلم نفسه ».

ويعرج (دوبو) مرة أخرى على موضوع التناقض بين فرضية (داروين) والواقع الإنساني فيقول : « يحاول العلماء المعاصرون تفهم كيف ولدت المواهب البيولوجية للإنسان تدريجياً (!) القيم الروحية التي أعطت للتاريخ الإنساني عدة خصائص غير موجودة في حياة الحيوان، ورغم أن الجنس البشري بقي بيولوجياً كما كان في العصر الحجري استمرت الحياة الإنسانية في تطورها عبر طرق اجتماعية ثقافية، ونحن نعي باطراد هذا التغيير ونحاول بمحض إرادتنا مرتبكين أن نحكم حياتنا بأسلوب أكثر معقولية. وبينما اعتقد (أرسطو) كشيء مسلَّم به أننا خلقنا لهدف ما... إلا أننا نفضل أن نقرر نحن أهداف حياتنا بأنفسنا.

ويستمر (دوبو) في التخبط الحائر ومحاولة إيجاد تفسير للنقلة البعيدة من « مادة » في الحيوان إلى « الروح » في الإنسان فيقول : « المستبعد أن يكون الحواري (القديس بولص) قد فكر في أي شيء يشبه نظرية التطور العصرية عندما كتب عن طبيعة الإنسان « لقد بذرت كجسم طبيعي وتربيت كجسم روحي، الإنسان الأول من التراب. أما الإنسان الثاني فهو الإله في السماوات ». ـ تعالى الله عما يشركون ـ « ومع ذلك فإن رأي الحواري (بولص) يعبر رمزياً عن الاعتقاد بأن الإنسان تفلت مما يربطه بماضيه ـ الحيواني ـ وهو يبدع طرقاً في حياته يعدل فيها باطراد الغرائز والدوافع الحيوانية فيه ويرد منها بانشغالات وقيم روحية ». وتنهار النظرة المادية تماماً عند الاعتراف بالحقيقة الثابتة التالية : « ويدرك البشر العالم بحواسهم ومن التناقض أن أكثر ما يقدرونه في العالم من حولهم لا يعتمد على هذا

الإدراك الحسي، والواقع أن كثيراً من بني الإنسان ضحوا بوجودهم المادي على مذبح قيم غير مادية تدركها الروح ولا يحسها جسم اللحم والدم. وقد يبدو مبهماً تنبيه (التوراة) الذي يقول « من أراد إنقاذ حياته عليه أن يكون مستعداً لفقدها » إلا أن كثيراً من الناس وعوا معناه العميق حين اتخذوا هذا القول التوراتي كدليل أخلاقي. والأنبياء والزعماء الدينيون بشروا بهذه التوصية التوراتية كحقيقة منزلة واعترف الفلاسفة بمعناها الإنساني وحاولوا اكتشاف معناها الدقيق تاريخياً ونفسياً وأدبياً ».

التأثر بالفكر الإسلامي ... دون الإشارة إليه :

ويتابع (دوبو) قوله : « كل مدنية أدت قسطاً من الإسهام في التعريف التحليلي الواعي لحكمة الفطرة ولثقة الإنسان بقدرته على أن يكون سيد نفسه، وكتابات الإيطالي (كونتي جيوفاني بيكو ديلاميراندولا) في القرن الخامس عشر تشكل نقطة فاصلة ذات أهمية خاصة لمدنيتنا، لأنها تعبر عن روح النهضة الإيطالية في فجر العهد العلمي، ففي خطابه عن كرامة الإنسان يرفض (بيكو ديلاميراندولا) الفكرة التقليدية التي كانت سائدة آنذاك، ويؤكد أنه ليس للإنسان خواص أخلاقية ثابتة، ولكن الله وهبه القدرة والمسئولية ليختار نوع وقيم حياته يقول (ميراندولا) : « الخالق المبدع الكبير خلق الإنسان بدون أن يحدد له طبيعته وقال له : « أنت ستحدد بنفسك طبيعتك حسب إرادتك الحرة، وطبيعتك ليست سماوية ولا ترابية، وبإمكانك تكوين نفسك بالشكل الذي تختاره، بإمكانك أن تنحط إلى أدنى مستويات الكائنات الحية وهي البهائم المتوحشة، ولكن سيكون بإمكانك أيضاً إذا اختارت روحك ذلك أن تولد من جديد في أرقى شكل وهو الشكل الإلهي ». واقتبس علماء عصر النهضة من رأي (ويلامير أندولا) عن حرية الإنسان وقدرته على تنمية طبيعته الداخلية عقيدة مبدعة شاملة في العلوم الإنسانية.

ويختم (دوبو) كتابه بالعودة لذكر طغيان التكنولوجيا على إنسان الغرب فيقول، نقلاً عن (جاك أتول) من كتابه (مجتمع التكنولوجيا) :

« إن اجتياح التكنولوجيا لحياتنا بدأ ووصل إلى حد قد لا يمكن

الرجوع عنه، ولقد أصبحت التكنولوجيا غاية بحد ذاتها ». ويتابع (دوبو) : « والمشاكل التي يثيرها الضبط الاجتماعي للتكنولوجيا هي واحدة في المجتمع الرأسمالي والاشتراكي والشيوعي، وبغض النظر عن الفلسفة السياسية يجب اكتشاف صيغ جديدة للتخطيط الاجتماعي بحيث تكون التكنولوجيا في خدمة حاجات الإنسان القيمة، بدل السماح لها بالنمو لذاتها أو كأداة للتوسع الاقتصادي والقومي ».

هذه هي حضارة الغرب... انفصام تام بين المادة والروح، سواء كان المجتمع علمانياً أو ملحداً. ولعل أفضل ما أختم به عرض هذا الكتاب مقطع من مقالة المفكر السوداني المؤمن الدكتور عون الشريف قاسم « نحو ثورة روحية »، قال : « ولم يبلغ الانفصام درجة من الخطورة على تطور البشر مثلما بلغه في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الإنسانية، بسبب الانحراف الكبير في مسار التطور الديني الذي أحدثته التجربة الغربية، فحادت به عن وجهتها الصحيحة، ودفعت بها إلى هذا الوضع الحضاري الخطير الذي تجابه به عصر الصناعة المتطورة، بنفوس ممزقة وشخصيات مزدوجة، هذا في حين أن مسار الفكر الديني من لدن آدم عليه السلام كان وما يزال يحدو الإنسانية حتى يبلغ بها الغاية في ذلك بمزج قيم الدين بمواصفات الدنيا، كما تمثلت في رسالة الله الخاتمة التي بعث بها محمد ﷺ لمواجهة تحديات هذه المرحلة الخاتمة من تطور البشر التي نعيش فيها. وإذا كانت التجربة الغربية انحرافاً عن هذا المسار، والتواءً به عن غايته، فإنه لزام علينا، نحن حملة هذه الرسالة الخاتمة الذين كرمنا الله سبحانه وتعالى بأن جعلنا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، أن نعود بالإنسانية إلى حيث انتهى بها المطاف قبل أن تدهمها هذه الهجمة الغربية الرعناء التي انتكست بالمسيرة، ووقفت في سبيل بلوغ الغاية التي اختطها الله جلت قدرته للإنسان بأن يكون خليفته في الأرض ».

توضيح لبعض التعابير المستعملة في التعريب

تكويني ارثي ـ أو وراثي ـ	Genetic
بيئة أو محيط	Environment
علم التأثير المتبادل بين الكائن الحي وبيئته ـ ايكولوجيا ـ	Ecology

ثقـــافــــة	Culture
حضـــارة أو مدنيـــة	Civilization
تكنولوجيا ـ أو تقنية ـ	Technology

* * *

الإسلام ومواقفنا من حضارة العصر

للدكتور التهامي نقرة
أستاذ الدراسات القرآنية بكلية الشريعة وأصول الدين - تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

مفهوم الحضارة :

في اللُّغات كلمات تعيش وتنمو وتتطوّر بتطوّر الحياة، وتتنقّل في مدلولها عَبر الزمن تنقّلاً مرحليّاً، وكأنّها كائن حيّ !

فكلمة (حضارة) : كانت في الأصل تدلّ على إقامة مجموعة من الناس في الحضَر ومواطن العمران، وتُقابلها كلمة (بداوة)، وتعني : حياة أهل البدو المتنقّلة التي تسكن الخيام، وتعيش على رعي الأغنام، وهي حياة يتّسم أهلها بخشونة العيش، وجفوة الطبع، لِبُعدهم عن منازع الحضارة، وطباع التمدّن، وملكات العلوم والصنائع، كما قال ابن خلدون : (إنّما تكثر العلوم حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة. والسبب في ذلك أنّ تعليم العلم من جملة الصنائع التي تكثر في الأمصار. وعلى نسبة عمرانها في الحضارة والتّرف تكون نسبة الصّنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش.... واعتبر ما قرّرناهُ بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لمّا كثر عمرانها في صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين، وفاقوا المتأخّرين)[1].

---

(١) ابن خلدون : المقدمة : ٧٧٧ (ط. بيروت ١٩٦١).

وقد حلّل ابن خلدون مفهوم الحضارة، فذكر أنها نمط من الحياة المستقرّة، التي تزدهر في ظلّها فنون من العيش والعلوم والصناعات، وإدارة شئون الحكم والحياة، وتوطيد أسباب الرفاهية والدّعة. وهي تعبّر عن التقدّم الإنساني. لكنّ الترف يقوّض أركانها ويُرديها.

ومن الاستعمالات الأولى للحضارة في معنى مقابل للبداوة قول القطّامي التغلبي:

فمن تكُنِ الحضارةُ أعجبته   فأيّ رجال باديةٍ ترانا؟

وقد أبرزتْ ميسونة(*) بعض المظاهر البسيطة في مقارنتها الطريفة بين التحضّر والتبدّي في قولها:

لَبيت تخفق الأرواح فيه   أحَبُّ إليَّ من قصر منيف
وكلب ينبح الطراق عني   أحَبُّ إليَّ من قط ألوف
ولُبسُ عَباءة وتقرَّ عيني   أحَبّ إليَّ من لبس الشُّفُوف
وأكلُ كُسَيْرةٍ في قعر بيتي   أحَبُّ إليَّ من أكل الرغيفِ
وأصواتُ الرياح بكلّ فَج   أحبُّ إليَّ من نَقْر الدُّفوف
فما أبغي سوى وطني بديلا   وحسبِيْ ذاك من وطن شريف

ولكنّ الحياة في سيرها وتطورها أعطت تفسيراً جديداً للحضارة، فاتّسع مدلولها باتساع آفاقها، ونمت عناصرها وتداخلت، وتنوَّعت مُقوماتها من عصر إلى عصر، ومن أمة إلى أخرى، بتنوع صُور التقدم ومظاهر الرقي عند الإنسان، ماديةً كانت أم روحية، رغم ما نبتَ فيها من طُفيليات، واختلط بها من سلْبيات، ونشأ عنها من آفات، عبّر عن بعضها المتنبّي في قوله:

حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتَطريةٍ   وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوبِ

وربّما كان الزيف والخداع والعبث من لوازم كلّ حضارة ماديّة تتنكر

(*) ميسونة *: هي أم يزيد بن معاوية. كانت بدوية، فتزوجها معاوية ونقلها إلى حياة القصور، ولكنها ضاقت بحياة الحضارة المترفة، وتاقت إلى حياتها الأولى حيث الأجواء الطلقة، والحياة البسيطة. فطلبت من معاوية أن يطلقها لتعود إلى أهلها، ففعل.

للقيم، ولا تقوم على أساس من خُلق أو عقيدة ! ولكلّ حضارة مظاهرها وعناصرها ومقوّماتها، وهي جديرة بالدرس والتحليل.

ومن هنا كانت الأسس التي قامت عليها، والأهداف التي وَجّهت خطَّ سيرها، والسّماتُ التي أبرزت معالمها، محاورَ لبحوث مستفيضة من الباحثين القدماء والمحدّثين : من أرسطو، إلى الفارابي وابن خلدون، إلى توينبي وديورانت وابن نبيّ وسبنجلر، وكولون ولسن، وغيرهم ممن كانت آراؤهم في تعريف الحضارة وتحديد مقاييسها متقاربة أو مختلفة باختلاف النظرة بين مؤرخ وفيلسوف، ومؤمن وملحد، وشرقي وغربي.

ولعلّ أشمل تعريف للحضارة، أنها : مجموع العلوم والفنون والتشاريع والنّظُم والتقاليد، ومظاهر العمران والتقدّم التكنولوجي، وما لذلك كلّه من انعكاس على الحياة الفكريّة والاجتماعية والثقافية والسياسية، وعلى الأخلاق العامة في مرحلة معيّنة من مراحل التاريخ، وفي بقعة من بقاع الأرض.

مقاييس الحضارة :

ولكل حضارة سماتها الخاصّة، وطابعها المميِّز، والسمّة البارزة في حضارة عصرنا تغلغلُها في دنيا العلم على اختلاف أنواعه وفروعه، وقد وصفوها بأنّها حضارة علمية تقنيّة منفعيّة. وما كان يميّز حضارات الشعوب عن بعضها في جانب العقيدة والفنّ وتقاليد الحياة، لم يعُد في عصرنا يمثّل إلّا جانباً من الحضارة، فإنْ لم تصحبه حركةٌ علميّة ذات إنتاج حيّ في كل فروع المعرفة ومجالات الحياة، قَصُر عن أن يكون وحده عنواناً على التقدم الحضاري، واختلافُ مقاييس الحضارة في عصرنا يرجع أوّلاً إلى اختلاف المفاهيم والزوايا التي ينظر منا المعيِّرون والمقوِّمون، وتعدّد جوانبها وأولويّاتها في درجات السُّلّم الحضاري، لمعرفة مَدَى تقدّم الشعوب أو تخلّفها. ولا بدّ هنا من تحديد مفهوم التقدّم والتخلّف ؛ إذ الدّقة في تحديد المعاني تُزيل الخلافات وسوء التفاهم، وبخاصّة في هذا العصر الذي تعدّدت فيه مقاييس الحضارة وتنوَّعت.

فهنالك المجالُ الاقتصادي الاجتماعي الذي يقيس الحضارة بمتوسّط الدّخل، وبالنظام الاجتماعي.

وهنالك المجال الثقافي الذي يقيس بدرجة انتشار الثقافة وازدهار الفنون.

وهنالك المجال العلمي التقني الذي يقيس بدرجة التصنيع والأجهزة والآلات الميكانيكية.

وهنالك المجال السياسي الذي يقيس الفوارق في حياة الناس بين مجتمع وآخر من حيث الوعي والنضج ودقّة التخطيط، ووفرة الانتاج وجودتُه، والشعورُ بالمسؤولية، وممارسة الحريّات الأساسية، والاستقرار السياسي، واستتباب الأمْن. فلأيٍّ مقياسٍ تكون الأوْلَويّة في البناء الحضاري، أم لا بد من تضافر كلِّ المقاييس، باعتبار أن الحضارة متعددة النواحي وشأنُها في ذلك شأن الأمم، وأنّ وسائل التقدّم ليست واحدة ؟ قال ألبارْت شفايتزر، معرّفاً الحضارة : « إنها بذلُ الجهد من أجْل التقدّم » وهذا التعريف لا يخلو من غُموض ؛ لأنّ اختلاف الرأي في مفهوم التقدّم بعيد المَدى، فقد يكون ما هو تقدّم عند قوم، انحطاطاً عند آخرين ؛ فلا بدّ إذَنْ من معيار صحيح يُعتمد عليه، ويكون محلّ اتفاق عند الجميع أو عند معظم الباحثين كقاسم مشترك.

يذهب الدكتور زكي نجيب محمود إلى أنّ هذا القاسم المشترك (هو العقل). (فإليه يكون الاحتكام في قبول ما يقبله النّاس، وفي رفض ما يرفضونه ؛ وهو الفاصل بين الحقّ والباطل، ومدارُ القياس لدرجات الحضارة عنده).

(النظرة العقلانية، وهي، أن تنظر إلى الواقع كما هو، لتحوّره إذَا أردت تحويره، وأن تردّ الظواهر إلى أسبابها الطبيعية. فلا يفسّر المرض مثلاً إلَّا بالجراثيم التي أحدثته، ولَا يُعلّل سقوط المطر إلّا بظروف المناخ وهكذا.... ويترتب علي هذا الربط السببي الصحيح أن نلتمس للأشياء أسبابها الطبيعية. والعقلاني ذُو نَهَم في معرفة الحقائق والطبائع والعلل، لا يَصُدُّهُ عن ذلك شيء من التحريم الذي يفرضه البدائيّون على أنفسهم، بل يوجّه فعل العقل نحو العلوم الطبيعية وأجهزتها. فإن عجر عن الإسهام في هذا الميدان، كان لزاماً أن يجعل منهاج تلك العلوم منهجاً له في أيِّ ميدان يُتاح له النظرُ فيه.

فقد تعدّدت ميادين النظر : فهنالك ميدان العلوم الاجتماعية : علم النفس، وعلم الاقتصاد، وعلم الاجتماع.

وهنالك مجالات الارتفاع بمستوى العيش : من حيث التغذية، والسكن، والتعليم، والعلاج الطبي، ووسائل الراحة، وتأمين الأفراد ضدّ كوارث الزمن.

هنالك كل هذه الميادين التي تتفاوت فيها الأمم في عصرنا ارتفاعاً وانخفاضاً، مما قد يوحي بأن أيّاً منها يصلح أن يكون أداة لقياس التقدم والتخلّف، إلّا أنها جميعاً تلتقي في نقطة واحدة، هي النظرة العقليّة بمنهاج العلم إلى كلّ أوجه الحياة)[1]. ولا شكّ أنّ من يرى بُعْد المسافات التي تفصل في مستوى الحياة بين شعوب عجزتْ أن تؤمِّن ضرورات عيشها، فأخذت تتسلّى عن عجزها بأمجادها، وشعوبٍ جعلتها مهارتُها في العلوم الحديثة، تتطلّع إلى المزيد من الرقيّ، وتوفير وسائل الرفاهة والتقدّم، فتجِدُّ في حاضرها لتبني مستقبلها، إنّ من يَرى بُعْد المسافات بين البلاد المصنّعة، والبلاد المتخلّفة، يَذهله البون الشاسع عن حقيقة، وهي : أنّ الإنسان لا يعيش بالمادّة وحدها، وأنّه مهما ارتفع المستوى في حياته الماديّة، فلن يُطفئ ذلك ظمأه الرّوحي : والنمط الغربي من التفكير نراه اليوم أسقط من حسابه أو كاد هذا الجانبَ الإنساني الأصيل، فاعتبَرَ البحث عمّا وراء الطبيعة جرياً وراء السّراب، وعائقاً عن التقدُّم.

نظرتنا الثانيـة :

ولعلّ كاتبنا المعاصر ممّن تأثّر بهذه الوجهة حين قال : (التقدّم الحضاري يقتضي حتماً ألّا نجعل الماضي مقياساً للحاضر، وكيف نجعله المقياس، إذا كان هذا الحاضر أفضل منه بحكم فكرة التقدّم نفسها ؟. النظر إلى الماضي هو نظرٌ إلى الوراء، على حين أنّ التقدّم يقتضي أنْ نُوجّه النّظر إلى أمام ! والانحصارُ في الماضي هو انحصار في نمط واحد من

(١) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر : ٣٠٢ ـ ٢٠٣ (ط. دار الشروق ١٩٧٦.

أنماط الحضارة ؛ مع أنّ التقدّم يحتّم علينا الخروج من نمط أضيق نطاقاً إلى نمط أوسعَ أفقاً، وأرحبَ إطاراً)[1].

إنّ هذه الدّعوة المتحمّسة من الكاتب إلى التحضّر بحضارة العصر في أخصّ مميّزاتها، وهي العلوم التجريبيّة، وتحويل النظرة في الحياة إلى علميّة موضوعيّة، لا نعارضها، بل نحثّ عليها وندعو إليها، لولا ما انطوت عليه من آراء لا نؤيّدها، لأنّها لا تخدم الحقيقة. ومن ذلك إلغاءُ الماضي في مقياس التقدّم، واعتبارُ الحاضر بكل ما فيه من غثّ وثمين أفضلَ منه على الإطلاق، وهو تعميم تنبو عنه الدّقة ؛ لأنّ هذا المعيار الذي يقيسُ به التقدّمَ والتخلّف لم يكن نابعاً من ذواتنا، ولم تَتّخِذ فيه الأشياءُ نِسَبَها الصَّحيحة.

فالسبيل الذي يوصلنا إلى أن نأخذ مكانَنا في هذا العالم المعاصر ـ حسب رأيه ـ أن نجعل العقل إمامنا، والعلمَ الحديث هدفَنا، وأن نشحذ عزيمتنا، حتى نحطِّم أسوار السجن الذي حبسْنا فيه أنفُسَنا : سجنَ ماضينا، ونظرتنا الماورائيّة، ونظرتنا الثنائيّة في تفسير العلاقة بين الأشياء. إنّه يوضّح هذه الرؤية في كتابه : (تجديد الفكر العربي) فيقول : (.... وإنّي لانظر، فأرى سلسلة الخصائص التي يُرَاد لها أن تُقتَلَع جذورُها من تربتنا الثقافية، قبْل أن يتاح لنا استنبات زرع جديد ؛ إنّما تترابط حلقاتُها.... وأُولى هذه الحلقات وأعمقها جذوراً، وأكثرها فروعاً، هي نظرة العربيّ إلى العلاقة بين الأرض والسّماء، بين المخلوق والخالق، بين الواقع والمثال، بين الدُّنيا والآخرة، بين المعقول والمنقول....

هذه كلها ظلال من موقف واحد، وحقيقة واحدة. ونظرةُ العربي في صميمها : هي أن السّماء قد أَمَرتْ، وعلى الأرض أن تُطيع، وأنْ الخالق قد خطّط، وعلى المخلوق أن يَقنع بالقسمة والنصيب، وأنّ المثال سرمدي ثابت، وعلى الواقع أن يقسر نفسَه على بلوغه، وأنّه إذَا ما تعارضت الآخرة والدنيا، كانت الآخرة أحق بالاختيار، وأنّ المنقول إذا تناقض مع المعقول، ضحّينا بالمعقول، ليسلَمَ المنقول.

(١) المصدر السابق : ٢٠١.

تلك هي وقفة العربي في صميمها. لك أن تقول : إنها وقفة أفلاطونية أكثر منها أرسطية، إذْ هي وقفة من يجعل الثباتَ للسماء، والفناءَ للأرض ! ففي السماء الأصول، وعلى الأرض الأشباحُ والظّلال. إنها ثُنائيّة حادّة بين الغيب والشهادة، بين الروح والجسد، بين الإنسان والله. والعلاقة بين الطرفين ليست هي التبادل بالأخذ والعطاء، بل هي علاقة الحاكم بالمحكوم. والحاكِمُ هنا مُطلَق السُّلطان، والمحكوم معدومُ الحَوْل والحيلة ؛ ولا يغيِّر من الصورة أن يكون الحاكم المطلَق عادلاً، وأن يكون المحكوم ملاقياً جزاءَه وِفاقاً، إذا ما يزال طريقُ السير في اتّجاه واحد، يهبط الأمرُ من أعلى، فيصدع به الأسفل مهما تكن ظروف الواقع وتفصيلاته التي تحيط بهذا الأسفل، إذ هو يؤدّي الفعلَ على الأرض بكل خشونةِ سطحِها وحزونته سهلاً ووعراً. تلك هي الحلقة الأولى من السّلسلة تلزم عنها حلقة ثانية، وهي : أن قوانين الأشياء والظواهر في الطبيعة قد تطرد أوْ لا تطرد بحسب ما يشاء لها الحكم السماوي المطلَق. فليقل العلم ما أراد أن يقوله في أشياءِ الطبيعة وظواهرها ـ بما في ذلك الإنسان ـ وسيظلّ الحكم الحاسم للمشيئة الإلهيّة آخر الأمر... إنّه في ظلّ ثقافة كهذه تُبتَر الروابط بين الأسباب ومسبباتها، بين الوسائل وغاياتها، فتكون العلاقة مبتورة بين الغرس والثّمر)[1].

هذا ما يؤاخذنا عليه كاتبنا المعاصر ؛ وهو بَيْن الإعجاب والثورة. الإعجابُ بما حققته حضارة العصر، والثورةُ على أوضاعنا المزريّة ونظرتِنا الشّاردة.

والحقّ أنّ ما أنتجته العلوم الحديثة وتقنياتُها من مبتكَرات ومخترعات كشفت النّقاب، ورفعت الحجاب عن عبقريّة الفكر الذي صنع حضارة نابضة بالحياة والحركة، يُشرق في جنباتها ضياءُ العلم، وتُدفئها حرارةُ العمل، ويزيّنها بريق الرّخاء المادّي، ووسائل الترفيه والتسلية.

ومن ذا الذي لا يبهره هذا التقدّم التقني الذي جسّد القوانين العلميّة النظريّة في أجهزة يُديرها الإنسان أو تدير نفسَها، فحقّقتْ أحلامَ الإنسان

---

(١) زكي نجيب محمود : تجديد الفكر العربي : ٢٩٤ ـ ٢٩٦ (ط. دار الشروق ١٩٧٣).

وأمانيه، وما لم يكن يحلم به أو يتصوره في هذا العصر الذي أُطلِق عليه : « عصر اختراق الفضاء » ؟.

وكأنّي بكاتبنا القدير، وهو يدعونا إلى أن نتشرّب روح عصرنا، حتّى تجري عُصارتُه في شراييننا، غير واثق من بلوغنا لهذا الهدف، ما دامت تجُولُ في أعماقنا رواسب قرون خلتْ، ونَصِفُ ماضينا بالعصمة والكمال، متمنّين لو كرَّت الأيام راجعة لتعيد إلى الناس ما كان للأسلاف من سلوك ورؤية ! فالتفاتُنا إلى هذا الماضي يعوقنا ـ حسب رأيه ـ عن كلّ تقدّم، ويُبعدنا عن عصرنا بُعْدَ ما بيْنَ السطح والأعماق، ويَحُول بيننا وبين الغوْص فيه، والتكيُّف به، ومسايرة ركبه.

وإذا أردنا الاعتراف بالحقيقة، فإنّنا نعيش اليوم في غربة عن ماضينا وحاضرنا معاً ؛ إذ أنّنا نُعاني عقدة الضعيف الذي يحسّ أنّ النّاس لا يعيرونه اهتماماً، ولا يُولُونه ما يستحقّ من تقدير واحترام.

ومن شأن المغلوب أن يأخذ ثقافته من مبادرات الآخرين، فينظرَ بمنظارهم، وينقُد نفسه وغيره بنقدهم ؛ وهي وضعيّة استلاب كلّي، تزيد في غرور خصومناالذين ما فتئوا يضاعفون فينا الشعور بالنقص، ويُنكرون فضل حضارتنا على الإنسانية، ليحجبوا عنّا ذاتيتنا وأصالتنا، لنعيش منبتّين، أو يشغلونا بالدفاع عن أنفسنا، وردّ الاتّهامات وتصحيح المفاهيم.

شخصيتنـا الحضاريـة :

ومن دسائسهم فيما كتبوه عن الإسلام وحضارته : أنّ حضارة الإسلام ليست إلّا امتداداً لحضارات الشعوب التي انْطَوَتْ تحتَ سُلطة المسلمين بقوّة السيف، ولم ينشئها الإسلام، ولم تتميز بشيء عن الحضارات السّابقة، حتى التشريع الإسلامي لم يكن في نظرهم إلّا نسخة طبق الأُصل من الفقه الروماني الذي كان منتشراً بالشام. ويقولون عن العالم المسيحي الغربي : (إنه ثَمرة المسيحية. ولو نجحت الحروب الصليبيّة، لبَسَط ظلّه في أراضي آسيا ذات الأهميّة البالغة !). وقد ظهر حديثاً للكاتب المجري آرثر كوستلر كتاب (السائرون المتكلّمون وهم نائمون)، ويعني عباقرة العلماء وكبار

المخترعين ؛ دَرس فيه حياةَ هؤلاء في التاريخ الغربي، وحاول التعرّف على الميزات العقلية لهذه الشخصيات الفذّة، ولا نجد في كتابه ما يشير إلى حياة المخترعين العرب الذين لمعت أسماؤهم في سماء العلم، ومهّدوا السبيل لغيرهم، وكان لهم فضل السبق والتأسيس مثل الخوارزمي واضع علم الجبر، ومؤلف كتاب (الجبر والمقابلة) الذي تُرجم إلى اللّغات الأوروبيّة، واعتَمد عليه الأوروبيون لعدة قرون ؛ ومثل الرّازي مكتشف الحُميّات وأمراض الأطفال، وابن سينا مكتشف الطفيليات، وواضع كتاب « القانون » الجامع لشئون الطب والصيْدلة ؛ وابن الهيثم واضع المؤلفات التي تبحث في الرؤية المستقيمة، والمنعكسة، والمنعطفة، وفي الضوء والمرايا، والعدسيات والبصريات، والمبتكِر لطريقة إيجاد البُعد البُؤْري، وغيرهم ممن حملوا مشاعل النور ومصابيح الحضارة في عصر تسوده الهمجية والوحشية، ويطبّق عليه ظلام الجهل. ولكن الكثيرين من مفكّري الغرب يدينون للحضارة الإسرائيلية واليونانية والرومانية في حضارتهم الحديثة، ولا يعترفون بفضل للحضارة العربية تعصُّباً وحقداً، ولكنّ المنصفين من مفكِّري الغرب لا يجدون غضاضة في الاعتراف بفضل الحضارة الإسلامية، يقول بريفليف في كتابه (البحث العلمي) : (إنّ محاولة إسناد الطريقة التجريبية لغير العرب ليست إلّا تصحيفاً في فهم المصدر الحقيقي للحضارة الأوروبية). ويقول لوبون في كتابه (حضارة العرب) : (إنّ أوروبا مدينة للعرب بحضارتها، وقد ظلّت كتب العرب المترجمة إلى اللّغات الأوروبية، ولا سيما الكتب العلميّة مصدراً وحيداً للتدريس في جامعات أوروبا خمسة قرون).

ويقول هوناربارخ(*) في مبحث تحت عنوان : (تأثير الفكر الإسلامي في أوروبا) : خلال زيارتي للمكسيك سنة ١٩٦٥ تأملتُ الفنّ المعماري المعرّب المدجّن والمعروف بـ (Merdéjon) والذي انتقل من إسبانيا إلى أمريكا اللّاتينيّة، ووجدتُ الأثر العربيّ المتمثّل في الفندق والقيصريّة، فخيِّل إليَّ وأنا أسير بين تلك العمارات ذات الطابع الإسلاميّ، بأنّني في شمال إفريقيا العربية المسلمة).

(*) هو رئيس معهد الدراسات الإسلامية ومعهد اللغات الشرقية بجامعة بون.

ويقول : أمّا العلوم التجريبيّة التي انتشرت في أوروبا فقد كان البدء فيها للعرب، وتلك حقيقة لا تقبل الإنكار[1].

وما الذي يخيف الكاتب من استلهام ماضينا، وفيه ملامح شخصيتنا العقائديّة والحضاريّة والنضاليّة ؟ فشخصيتُنا العقائديّة تعصمنا من الانحرافات والبدع والتيّارات الفلسفيّة الهدّامة، وشخصيتُنا الحضاريّة تقينا شرّ الهمجيّة والتخلّف والرجعيّة. وشخصيتُنا النّضاليّة تحفظنا من الخذلان والوهن، وتقوّي عزمنا على مقاومة الأباطيل والمحن.

إنّ الأمّة الإسلاميّة في مسيرتها اليوم لا بدّ أن يكون لها محور ترتكز عليه، وترجع إليه محورٌ نابع من شخصيّتها التاريخيّة، وذاتيّتها العقائديّة، حتّى تأمن الزيغ والعثار في تطوّرها.

فهلّا قال كاتبنا المفكّر مثلاً : يجب أن نعيد كتابة تاريخنا وقراءته، ونعيد النظر في تراثنا، لنقدّمه من جديد في أثواب قشيبة، وبشكل يكون أكثر ملاءمة للغة العصر، وذهنيّة المسلم المعاصر، واحتياجاته المتطوّرة، دون أن نمسّ بجوهر الأحكام الإسلامية الثابتة، ومبادئه التي لا تقبل التغيير ! والإسلام يدعو إلى التسليم لخالق الكون، العالم بطبيعة التكوين الإنساني، والاحتياجات المتجدّدة لهذا التكوين، وإلى الابتعاد عن الأهواء، والتمسّك بالحقّ، ويحذّر من وضع الأشياء في غير مواضعها، كإطلاق اسم الرجعيّة ونحوها على الالتزام بالحقيقة. ثمّ ما هدف الكاتب من ثورته على التمسّك بثنائيّة الغيب والشّهادة، والروح والجسد، والخالق والإنسان، والآخرة والدنيا والمعقول والمنقول، وغير ذلك من الثنائيّات التي بيّن شدّة تأثيرها في نفس العربيّ، متحدّياً بذلك كلّ شعور ديني بجلال الله وقدسيّته ؟

إنّ هذه الثنائيّة التي كان يدين بها علماء الإسلام التجريبيّون لم تمنع أن يكونوا هم المؤسّسون للمنهج التجريبي، والمنطق الاستقرائي الذي سارت عليه الحضارة الأوروبيّة واعتمدته في بحوثها وكشوفها.

وهل سبقهم أحد في نظريّات علم الضوء، وقياس محيط الكرة

---

(١) الملتقى السادس للفكر الإسلامي ١٩٧٢ : ٣٦ ـ ٣٧ (ط. الجزائر).

الأرضيّة، وضبط نقط المواقع بواسطة خطوط الطول والعرض، وإقامة الصناعات، واختراع الآلات، وغير ذلك بشهادة الباحثين النزهاء من الغربيين الذين يقرّون بأنّ العرب هم الذي أسّسوا البحث العلمي القائم على الملاحظة والتجربة.

فالبيروني يقرّر أنّ للطبيعة قوانين ثابتة لا تخطىء، حتّى أنّه لا يفسّر ظهور المخلوقات الشّاذة بأنّه غلط الطبيعة كما يزعم البعض، بل إنّه ناشىء عن خروج المادّة عن حدّ الاعتدال في المقدار، ولا يُصدِّق ما يعلّل بأسباب غير منطقيّة، أو بأسباب غير واضحة، وكان مع ذلك سنيّاً مستنيراً. وهو لعلوّ كعبه في العلم، وسعة فكره، وتنوّع معارفه، وتفطنه للحدود التي لا يصحّ أن تتجاوزها أحكام التجربة الإنسانية، المعتمَدة على المشاهدة، ويتمسّك بحقائق الدّين، فلا يعجبه التأويل الهازل للقرآن، ولا الإنكار المتحذلق من غير برهان لما يُروَى من غريب الأفكار[1].

وجُلّ العلماء المسلمين الذين نبغوا في الرياضيّات أو الفلك أو الفيزياء أو العلوم الطبيعيّة والصناعيّة كان الجانب الروحي فيهم قويّاً منيعاً، وكانوا يتعمّقون في فهم حكمة الخالق وأفعال الطبيعة. فلم تعقهم بحوثهم التجريبيّة عن بحوثهم الدّينيّة رغم اختلاف المنهج، ولم يكونوا مادّيين أو حسيّين أو ملاحدة، لأنّ الصّورة التي قدّمها القرآن الكريم للإنسان ـ وآمنوا بها ـ يرتبط فيها كيانه الرّوحي بجذوره الترابيّة في مثل قوله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمَركم فيها » (هود : ٦٠)، وهي صورة يلتحم فيها المادّي بالروحي التحاماً تامّاً.

وانه لأمر عظيم حقــاً أن يُحيي القـرآن في الإنسان شعوراً عميقـاً متجدّداً بما بينه وبين الكون من وشائج، وأن يوقظ فيه تلك الرّوح التجريبيّة في عصرٍ كان يرفض عالَم المرئيّات بوصفه قليل الجدوى في بحث الإنسان وراءَ الخالق[2].

فالثنائيّة الحادّة التي يتبرّم بها الكاتب ليست علّة إخفاقنا وتأخّرنا !

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام (ت) أبو ريدة : ٢٠٤ (ط. القاهرة ١٩٤٨).

(٢) محمد اقبال : التحديد الديني في التفكير الإسلامي (ت) عباس محمود : ٦١ (ط. مصر ١٩٥٥).

وهل نحن في حرب مع التخلّف أو مع السّماء ؟ وهل إنّ تقدّمنا رهين بتمرّدنا عليها ؟! وهل يجوز أن نلقي أسباب عجزنا وتبِعةَ تخلّفنا على الله ؟

إن ما أشار إليه من عقليّة القسمة والنصيب، وما ينجرّ عنها من تواكل وتقاعس، قد ولّى عهدها بفضل الحركات الإسلامية الإصلاحيّة التي كان من أبرز روادها محمّد بن عبد الوهاب وجمال الدّين الأفغاني ومحمّد عبده، والتي تلتها يقظة العالم الإسلامي ؛ فلم يبق لبِدَع الاعتقادات وباطل العادات وساذخ الخرافات من أثَر، إلّا في بيئات لا يصحّ أن تكون قاعدة للتعميم والحكم المطلق على العالم الإسلامي قاطبة. وأخطرُ من ذلك كلّه في هذا العصر المذهبُ الحضاري المادّي الذي يغزو عقول الشباب باسم التّحرّر، ويمحق القيم الدّينيّة باسم التطوّر، ويعتبر الدّين عرقلةً لكلّ تقدّم، لأنّ الإنسان ـ في رأيهم ـ خاضع دائماً للضرورات الماديّة، وليس وراء المادّة من حاجة أو مطلب. والدّينُ والأخلاقُ والمُثُل ليس لها تصوّر عُلويّ، ولكنّها وسيلة لحفظ المجتمع.

فإذا كنّا في عزلة أو قطيعة عن المصدر الأعظم للوجود، وتَعلّقْنا بالأسباب الطبيعيّة وحدَها، وآمنّا بتأثيرها دون سواها، فقد جعلّنا منها إلَهاً آخر، وأنكرنا وجود قوّة عُليَا قادرة على تعطيل خصائص الأشياء. والإنسان كما قال الفيلسوف الألماني(كانت) : حلقة اتّصال بين عالَمين. ورغم شعوره بقدرته، فهو جزء من الكون، فاعلٌ ومنفعل، ومرتبط بما تحتَه بحُكْم طبيعته الماديّة، وبما فوقَه بحُكْم ما في كيانه من نفخَة علويّة. وإذا حصل عِداءٌ شديد خلال القرون الوسطى في أوروبا بين الحضارة والدّين، فمرجعه إلى ما كان يسود أوروبا من نظام إقطاعي جائر، ومن سلطة رجال الدّين الغاشمة.

وفي القرن الخامس عشر تململ المجتمع الأوروبي من سلطان هذين العاملين، وتفكّكت أواصر الوحدة الكاثوليكية، واتّسعت دائرة المعارف، وتعدّدت الاكتشافات، وأضحى الإنسان محور النماذج والموضوعات.

أمّا الإسلام الذي نشأت في ظلّه حضارة راسخة البناء، فلا مبرّر لاتّهامه، وهو الذي يدعو إلى تعمير الدّنيا، ورفع مُستوى الحياة، وخدمة

الإنسانيّة، والانتفاع بما سخّر الله لها في الكون، على أن يكون سبحانه من وراء القصد.

ولقد أبان الواقع عن أخطاء أتاتورك وتصوّراته التائهة حين استقرّ في ذهنه باطلاً : أنّ الإسلام هو الذي أقعد تركيا عن بلوغ نهضة أوروبا وتطوّرها، فأسفرت ثورته عن آثار ونتائج ظهرت أعراضها في علمانيّة دولة تركيا، وانفصام أمّة عن شخصيّتها الثقافيّة التاريخيّة، واستبدال الحروف العربيّة بحروف لاتينيّة، جعل الشّباب يشعر بغربة عن تراثه العلمي والحضاري، رغم ما كان لتركيا من نضال في سبيل الإسلام، وما كان لها من فضل في صدّ الحملات الصليبيّة على كثير من البلاد الإسلاميّة.

وإذا كان من الضّروري لتركيا أن تكون صِلاتُها مع العالَم الغربيّ أمتن وأعمق من صلات العالم الإسلامي به، لموقعها وبيئتها ومصالحها، فليس من المثاليّة في شيء أن تتغرّب، ولها في الحضارة الشرقيّة قَدَم راسخة، وقد كشفت الأحداث أنّ الدّول الغربيّة لم تُؤازرها في الملمّات، ولم تفتح في وجهها أبواب التقدّم التقني والازدهار الاقتصادي والصناعي، كما فَتحتْها لأَصغر الدّول الأُوروبيّة المسيحيّة.

وكم من متحاملين على الإسلام لسوء حال المسلمين قد اختلط عليهم الأمر، ولم يميّزوا بين جوهره النقيّ وبين ما اندسّ فيه من بدع ومنكرات، ومَنشأ هذا الخلط سوءُ الفهم كما يقول الشاعر :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفَتُهُ من الفهم السّقيم

وكما يقول الآخر :

ومن يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ ... يجِدْ مُرّاً بِهِ المَاءَ الزُّلاَلا.

ومن الآراء الهدّامة الشّائعة في هذا العصر : أنّ رقيّنا الحضاري في أن نعيش عصرنا، ونلغي كلّ علاقة بين الدّين والحياة العمليّة، فرديّة كانت أم اجتماعيّة.

قال الله تعالى : « وابتَغِ فيما آتاك اللهُ الدّارَ الآخرةَ، ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِن الدّنيا، وأَحْسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليْكَ، ولا تَبْغِ الفسادَ في الأرض. إنّ الله

لا يُحِبُّ المُفْسِدِين » (القصص : ٧٧) وهل نجح الإسلام في ثورته الموفّقة إلّا بدعوته إلى رفض الأوضاع القائمة، وإحلال نظرة جديدة إلى الإنسان والكون مَحلَّ النظرة القديمة، فجَمَع بين ديناميّة الفعل وديناميّة الأخلاق، واهتمّ بحركة الواقع وحركة التاريخ، وكانت حضارتُه شاملة تغطّي وجه الحياة بكلّ نواحيها، ولكنّ المسلمين الذين لم يتخلّصوا من ربقة العبوديّة الفكريّة، واستولَتْ عليهم حضارة الغرب وامتلكت نفوسهم، حتّى أصبحوا لا يُبصرون إلّا بأعينٍ غربيّة، ولا يسلكون إلّا الطرق التي مهّدها لهم الغرب، هم الذين استقرّ في سويداء قلوبهم أنّ الحقّ ما يعدّه الغرب حقّاً، والباطل ما يعدّه باطلاً من تصوّرات وأفكار ومدنيّة وأخلاق، وأنّ مقياس الغرب في كلّ شيء هو المقياس الصحيح عندهم.

كان الرومان يقسّمون العالَم إلى روم أحرار وبرابرة همّج. وشبيهٌ بهذا التقسيم العنصري العرقي تصنيفُ المجتمعات المعاصرة تصنيفاً منبثقاً عن الاثنوغرافيّة التي جعلت كلّ المجتمعات الأوروبيّة تحت عنوان الحركيّة والمدنية، وجلّ المجتمعات الإفريقية والآسيويّة بما فيها المجتمعات الإسلاميّة تحت عنوان التخلف والرجعيّة ؛ وهي أسطورة تتناسى أن البشر مؤهّلون إلى كلّ أنواع الحضارات، وأنّ التحرّك أو عدم التحرّك، والتقدّميّة أو الرجعيّة نظرة نسبيّة ترجع في الحقيقة إلى انفجارات القرن العشرين، لا إلى وجود ذهنيّة الثنائيّات عند قوم والتخلّص منها عند آخرين، كما يرى الكاتب، موهماً بأنّها متناقضة ولا تناقض في الحقيقة.

من الواقع والمثال :

ولنذكر مثلاً ثُنائيّة الواقع والمثال، فكثيراً ما يلتبس على الباحثين الواقع إزاء مثاليّة الإسلام، فيجعلون الجمع بينهما مستحيلاً في التطبيق، كالجمع بين متناقضين. وهذا يكون صحيحاً لو كان موضوعهما واحداً، أمّا وهو مختلف في الفكر الإسلامي فلا منافاة.

فالمثاليّة محلّها القلب، وتتعلّق بالعقيدة وبالمقاصد والغايات. فهي في مجال التصوّر : إخلاصُ العمل لله ابتغاء رضاه، ونشدانُ الكمال في الأعمال، حتّى المباحات التي يأتيها المسلم قد ترتفع إلى مرتبة الطّاعات

والعبادات إذا صحبها حسنُ القصد، وأدناه أن يلاحِظ أنّ الله أباحها له، ولو أنه حرّمها عليه لتجنّبها.

وأما الواقعيّة فتتعلّق بالأعمال الخيّرة التي يقوم بها المسلم بنيّة مثاليّة، وإنْ هو قصّر في التطبيق أثناء القيام بها، لعواملَ مختلفة، فإنّ الإسلام دين اليسر والفطرة، أخذ بعين الاعتبار واقع حال الضعف البشري، وواقعَ النّفس التي زُيِّن لها حبُّ الشهوات والمخالفات، والنزوع إلى المغامرات، وذلك بفتح باب الغفران، كي يتخلّص المذنب بالتوبة من وخزات الآثام، ويلقي عن كاهله أثقال الأوزار، ويستأنف السير في طريق الهدى، ويجدّد العهد مع الله كما قال وهو أصدق القائلين :

« وإنّي لغفّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثُمَّ اهتدى » (طه : ٨٠).

ومن هنا جاء التكليف في حدود الطاقة البشريّة، ورُفعت المسؤوليّة في الأحوال التي لا يملك الإنسان دفعَها : كالخطأ والنسيان والإكراه، كما رُوعي في أساليب الإرشاد والتربية، وفي أصول المحاسبة والجزاء واقعُ أحوال المجتمعات الانسانيّة، وتفاوتُ أفرادها في مداركهم، واستعدادهم وخصائصهم[١].

روي عن أنس رضي الله عنه قال : دخل النّبي ﷺ المسجد، فاذا حبلٌ ممدود بين ساريتين ـ فقال ما هذا الحبل ؟ قالوا : هذا حبل لزينب، فإذا فَترتْ تعلّقتْ به. فقال ﷺ : حُلّوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد. (رواه الشيخان).

الانفعاليّة والموضوعية :

ولعل الكاتب ـ وهو يُحكِّم وجهة نظره ـ كان تحت تأثير حالة نفسيّة من الأسى، لِمَا آل إليه أمرنا في عصر يزخر بالعلم والصناعة، ونحن مازلنا نتلمّس الطّريق بحثاً عن أساليب جديدة للحياة، فلم ينفذ إلى صميم المشكلة، ولم يهتد إلى موطن الدّاء، وشعر كأنّه لم يتجاوز حدود نفسه،

---

(١) عبد الرحمن حسن الميداني : أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها : ١٩٠ ـ ١٩١، الدار العربية للطباعة والنشر.

فقال محترزاً : « قد أكون على غير هدى فيما أقول. ولكنّني ـ على الأقل ـ أصدق القول مع نفسي حين أقرّر ما أراه أمامي واضحاً، وهو : إمّا أن نعيش عصرنا بكلّ ما يقتضيه من أخلاق، وإمّا أن نكون قادرين على تحويره، بحيث نُعيد صياغته على مثالنا. أمّا أنْ نتمرّد عليه، ثمّ نعجز عن تحوير أيّ شيء فيه، فذلك حكمٌ على أنفسنا بموتٍ حضاري لا يعلم إلّا علّام الغيوب متى تكون قيامته ؟»[1].

وأبسطُ ما يقال في مناقشة هذا الرأي : هل الحضارة الغربية المعاصرة مثاليّة رائدة مكتملة العناصر في كلّ شيء، وليس لنا من النماذج سواها، حتّى نعيشها بمحاسنها ومساويها ؟ أو هو التشبُّه بالأمم الغالبة في عاداتها ومظاهر عيشها وإنْ كان يصطدم بأصول الدّين والأخلاق والتقاليد عندنا، فنسلك مسالكهم حتّى في أوقات لهوهم وفراغهم ؟

والزعامةُ في ميدان العلم والعمل مكفولة اليوم لمن يتقدّم بالدّنيا إلى الأمام، لا لمن يجذبها إلى الوراء، والغرب هو الذي غمر الجوّ العالمي بسيطرته الفكريّة، وغلَبته المادّيّة، وتمكّنه العلمي، واستيلائه السياسي، فلْنصغ إلى ما يهتف به بعض مفكّريهم على الأقل، من تحذيرهم أبناءهم من الأخطار التي تكمُن وراء هذه الحضارة المادّية الصّاخبة. فيقول أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) : (إنّ المشاكل التي أحدقت بالحضارات الأخرى وقضت عليها، قد وصلت إلى ذروتها في العالَم الذي نعيش فيه، وصار مجتمعنا الغربي متورّطاً في كثير من الأخطاء والكوارث التي قضت على حضارات كثيرة يُعَدّ تاريخها من بدايته إلى نهايته بِمَثابة كتاب مفتوح)[2].

فنحن إذ نقبل من العصر تقنيّاته، وندعو أبناء الجيل للإقبال على العلوم التقنيّة بكلّ ما أوتوا من مواهب وطاقات، فإنّ ذلك لا يَعني دائماً الدّعوة إلى تعويض قيَم قديمة بقيم جديدة، إذ لا يصحّ أن يكون المقياس الحضاري في هذا العصر أنْ نقبل على كلّ جديد، لأنّه جديد، وأن نُلغي

---

(١) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر : ٢٠٣.

(٢) أرنولد توينبي : الحضارة في الميزان : (ت) محمود أمين الشريف : ٣٧ (ط. الحلبي ـ القاهرة).

كلّ قديم لأنّه قديم، وإنّما المقياس الصحيح في صحّة التمييز لكلّ ممتاز، والاختيار لكلّ ما يستحقّ أنْ يُختار. فإذا تعلّمنا عن الغرب مرغَمِين متّبِعين، فلنتعلّم الآن مختارين مبتدعين ؛ وقد غابت عن كاتبنا بعض الحقائق، لأنّ الرؤية قد لا تتّضح في الضباب والغبار كما قال العقاد : (إنّ عصر الجمود في بلاد العالم الإسلامي قد خلّف وراءه كثيراً من الأنقاض المعطّلة، والأركان المتداعية. ولا بدّ من هدم قبل كلّ بناء، ولا بدّ من غبار وسقوط حول كلّ مهدوم، ولا بدّ من تعثُّر قبل كلّ استقامة. فإذا انكشف الغبار واتّضحت القواعد الباقية التي يرتفع البناء الجديد على أساسها، زال التشاؤم وبطل التطيّر، وتراءى للبصائر والأبصار معالم الثقة والاطمئنان[1].

ونرجو أن تكون القواعد التي سيُبنى عليها صرحُ مستقبلنا قد انقشع عنها غبارُ الهدم وأنقاضُه أمام المفكّر المسلم، فتقشّعت غيومُ التشاؤم، واتضحتْ له الرؤية، وعدّل من آرائه ومواقفه إزاء حضارة العصر، فلم تعدْ تستبدّ به فكرة التقدّميّة وحدها دون سواها لمواكبة موجات الحضارة والتطوّر كما رأينا ذلك من كاتبنا الكبير في البحث الذي قدّمه سنة ١٣٩٤ هـ بالجزائر للملتقى الثامن للفكر الإسلامي، والذي جاء فيه : (في ديننا الحنيف قيم أخلاقيّة محدّدة المعالم والأهداف، أملتها علينا الرسالة الإسلامية، ولم تكن من وضعنا واختيارنا. فليس من حقّنا أن ننسخ بعضها، أو أن نضيف إليها ما يُناقضها تحت ضغوط حبّ التطوّر.

وهذه القيم لا يجوز أن يحملها مسلم دون آخر، أو أن تعمل بها شعوب إسلاميّة دون أخرى. ومعنى ذلك أنّ المبادىء الأخلاقيّة الإسلاميّة ليست كغيرها من القوانين وليدة الحياة الواقعيّة..... فلا يكون المعوَّل في السلوك الإنساني الصحيح على التجارب وحدها، إذ ليست حدود الصّواب والخطأ من صنع الإنسان، ولكنّها حدود شاءها الله للإنسان[2].

ويؤيّد هذا الرّأي، أنّ الإسلام دين للآخرة وللدّنيا معاً ؛ اختلف عن غيره من الأديان التي تغلغلت في ماديّات الحياة، ثمّ أضْفتْ عليها مسحة

---

(١) عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية : ١٦٠، (ط. مصر ١٩٤٦).

(٢) الملتقى الثامن للفكر الإسلامي بالجزائر سنة ١٣٩٤ هـ ١١٦٢/٣ (ط. الجزائر).

من العبادة أو الفلسفة السّطحيّة، أو التي تغلغلت في الروحانيّات التجريديّة فانفصلت عن الحياة الواقعيّة، فكان ديناً حيّاً أكثر التصاقاً بالحياة في مفهومها الحقيقي وصورتها الواقعة، وأكثر التصاقاً بالروحانيّات في تزكية النفس، وإحياء الضمائر، والتّسامي بالمشاعر، والسير بالإنسانيّة قدماً في طريق الخير والتقدّم والسلام. وتلك هي الدّعامة الأساسيّة لحضارة الإسلام.

عوامل الحضارة الإسلاميّة ومميّزاتها :

فالإسلام دينُ قِيَم وضوابطَ سلوكيّة ومعنويّة، بعضها يتّصل بحياة الأفراد، وبعضها الآخر بحياة الجماعات، فهو لِمَا اتّصف به من جَمْع بين المادّة والرّوح، ولِمَا أعطاه بِقِيَمه وضوابطه من نمط مميّز في أسلوب الحياة، والتّفكير ؛ كان ديناً حضاريّاً، وليس دين لاهوت وطقوس كما تعرِّف الموسوعات الأجنبية كلمةَ (دين)، لأنّه أنشأ لوناً من الحضارة عُرف باسمه وهو (الحضارة الإسلاميّة). ومميّزاتها أنّها متكاملة شاملة تنبع من وحي رسالة سماويّة خُتمت بها رسالات السّماء. فهي لا تقتصر على تراثنا الروحي والتاريخي والفلسفي واللّغوي والأدبي والفنّي، ولا على مجرّد النُّظم والنّظريّات العلميّة والمخترعات، وإن كانت من المظاهر الهامّة للحضارة، ولكنّها تتألّف من كلّ ذلك مجتمعاً، لتشمَلَ كلّ الجوانب المادّية والرّوحيّة التي شملتْها رسالةُ الإسلام، حتّى أصبح هناك قدْر حضاري مشترَك بين جميع المسلمين في مختلف أقطارهم، لم يتحقّق مثلُه لأيّ ديانة أخرى ذات انتشار.

وقيامُ هذا الطابع الإسلامي العامّ المميِّز للحضارة من بلاد المسلمين على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم يرجع إلى عواملَ كثيرة. أهمُّها :

١) ـ أنّ الإسلام بوصفه طاقة روحيّة، وثورة حقيقيّة في الفكر وفي الحياة العمليّة وفي النُّظم الاجتماعية، كان له إصلاح جذري مَسَّ كلّ الأوضاع في حياة النّاس على أساسٍ عقيدةٍ إيجابيّة دافعة، تجلّت آثارها فيما ترتكز عليه من إيمان وعمل صالح، وانتشرت على نطاق واسع لم يتحقق لغيرها من حيث اتّساعُ الرقعة الجغرافية، وتَنَوّعُ السّلالات. فإنّه لم يكد يمضي على الإسلام قرن ونصف حتّى صار العالم الإسلامي ممتدّاً من

الأندلس في غرب أوروبا إلى الهند والتركستان والصين في شرق آسيا، ثمّ تغلغلت الدعوة الإسلاميّة إلى أقاليم أوروبا الجنوبيّة، وإلى مختلف أقطار القارّة الإفريقية.

ولمّا استقرّ المسلمون في الأندلس أنشأوا مدارس وجامعات يؤمّها طلّاب العلم من أوروبا، وينقلون ما تعلّموه إلى اللّغة اللّاتينيّة.

فالعقيدة الإسلاميّة تُمثّل في ذاتها تَصَدِّياً إيجابياً لتصحيح الديانات السماويّة التي شوَّهَهَا الزّمن فردَّتْ إليها أصالةَ الفكر التوحيديّ. وكان هذا التحدّي مصدر قوّة ودفع للفكر الإسلامي، وما اتّصل به من حضارة مادّيّة وروحيّة، استطاعت أن تحقّق وحدة لا نظير لها في الحضارات الأخرى. ورغم تباين المجتمعات الإسلاميّة، واختلاف بيئاتها الطبيعيّة، فقد استطاع الإسلام أن يسبغ طابعه المميّز على ألوان الحضارة في البلاد التي انتقل إليها، وأن يكيّف ما أخذ منها في إطاره العام، بفضل عقيدته الدّاعية إلى النظر والمعرفة، ونظامه الهادف إلى التكافؤ والوحدة.

وللعبادات في الإسلام أثرٌ في بناء حضارته، فلمعرفة أوقات الصلاة أنشأ المسلمون علمَ الميقات، واخترعوا المِزْوَلَة، ثمّ المرْمَلَة ثمّ الساعة التي انتقلت من صوْمعة الجامع إلى صومعة الكنيسة، وتولّد عن الصلاة فنُّ بناء الجوامع ومعمارها وهندستها.

ومن أجل الحجّ استنبطوا للأسطول البُوصَلة أو بيت الإبرة، والاسْتِرْلاَبْ الذي تُضبط به نُقط المواقع بواسطة خطوط الطُّول والعرض، وخطّطوا الخرائط، ووضعوا علم المِلاحة وألّفوا فيه، كمّا ألّفوا كتب المسالك والممالك لمعرفة الطرق ومحطّاتها، وكتبَ الرحلات التي بلغت منتهى الجودة في دقّة الوصف والملاحظة، وبنوا القناطر والجسور والخانات[١].

٢) ـ إنّ العوامل الجغرافيّة كالعوامل الاقتصاديّة، وإنْ لم تَخلق الحضارة، لكنّها تُهيىء أسبابها وسبيل ازدهارها، ومن هذه العوامل وقوعُ الأمّة على الطريق الرّئيسية، فتتكوّن لها في عواصمها بحكم الاتّصال، وتبادل

---

(١) عثمان الكعاك : ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر سنة ١٣٩٢ هـ (٣٠٧/١ ط. الجزائر).

البضائع والمنافع حضارات في فترات معيّنة من التاريخ، مثل أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، وبغداد في القرن التاسع المسيحي، وفلورنسة في القرن الخامس عشر وباريس في القرن الثامن عشر.

ولم تنعزل جماعاتُ المسلمين في حياتها وثقافتها وتاريخها عن الوطن الأمّ للإسلام، سواء في التجارة أم في الحجّ، أم في الهِجْرات والزيارات، حتّى الذين كانوا في جهات نائيّة من جنوب شرق آسيا مثلاً.

ولعلّ الحكمة من نزول الإسلام في الأرض الوسَط من حيث موقعُها الجغرافي، لا يعادلُه إلّا حِكمةُ الأمانة التي حمّلها الله تعالى هذه الأمّة الوسَط، من حيث الاعتدال فيما يتّصل بالمادّة والرّوح، وقربُها إلى الفطرة البشريّة، والنفوس الأبيّة التي لم يذلّها حكمُ الطّغاة، ولا تَهِن أمام الشدائد وقسوة الحياة، وليس ذلك إلّا في العرب وأرضهم، والله أعلمُ حيث يَجْعلُ رِسالتَه : « وكذلك جعلْناكم أمّةً وسَطاً لتكونوا شهداءَ على النّاس، ويكونَ الرسول عليكم شهيداً » (البقرة : ١٤٣).

ومن العوامل الذّاتية التي أدّتْ إلى نشر الرّسالة الإسلاميّة في مختلف أنحاء العالم بَساطةُ العقيدة الدّينيّة وخلوُّها من الغموض والتعقيد، وهي في جلائها ووضوحها تستهوي الرجلَ العادي، والعالِمَ المستنير.

ومرونةُ التشريع الإسلامي وصلاحيّته للسير مع تطوّرات الحياة، ووضعُ القواعد العامّة التي تكفل حقوق الأفراد والجماعات.

وقد كانت الجزيرةُ العربية موطنُ الإسلام الأصيل منطقةَ وصل بين أطراف العالم برّاً وبحراً عن طريق الصحراء والمعابر البريّة، وعن طريق البرازخ والخلجان، ومِنْ قَبْلِ الإسلام كانت طريقاً عظيماً بين الشّام والمحيط الهندي. وكان لقريش رحلتان كما هو معروف. يرحلون في الشّتاء إلى اليمن، وفي الصّيف إلى الشّام، فيمتارون ويتّجرون. وكانوا آمنين في حلّهم وتَرحالهم، لأنّهم أهلُ حَرَم الله، كما جاء في القرآن الكريم : « وقالوا إنْ نَتّبِع الهُدى

(١) سليمان حزين : مقومات الحضارة الإسلامية (التوجيه الاجتماعي في الإسلام) (١/٢٥ ـ مجمع البحوث الإسلامية).

معك نَتَخَطَّفْ مِنْ أرضِنَا. أوَ لمْ نُمَكِّنْ لَهم حَرَماً آمِناً تُجْبَى إلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا، ولَكِنَّ أكثَرهُمْ لا يَعْلَمُونَ » (القصص : ٥٧).

كما استوطن الملّاحون العرب على كثير من الطرق التجاريّة بينَ شبه الجزيرة العربيّة والصّين. ولمّا انتشر الإسلام أعطتْ له هذه الحَركةُ التّجاريّة النشيطة قوّةً تضاعفتْ بعدَ أن دخل الهنود في دين الله، وعملوا لنشره.

والتاريخ يروي أن تُجّاراً وبحّارة من العرب كانوا من القوّة ما جرّأهم على مدينة (كانتون) في جنوبي الصين سنة ١٤١ هـ.

ودعوةُ الإسلام المُلحّةُ إلى الأخذِ بمكارم الأخلاق والبُعْد عن سيّئها، وعن مَواطِن الظُّلم والفَساد، وذلك ما يَنشُده كلّ من يدعو إلى الإصلاح الخُلقي الحقّ. فكانت حضارةُ الإسلام نابعة من مبادئه وتعاليمه وعقيدته، مختلفةً عن كلّ حضارة قديمة لا تمثّل رشْدَ العقل ونضجَه، وعن كلّ حضارة روحيّة مجرّدة، تدعو إلى الزّهد والفقر واعتزال الحياة.

فنظامُها في العقيدة يقوم على توحيد الله، وعبادته وحده، ومراقبتِه في السرّ والعلانيّة، والإيمانِ برسالات السّماء، وبمَنْ جاءوا بها من الأنبياء، وبالكتب المنزّلة وبالقَدَر خيره وشرّه، وباليومِ الآخر، وبأداء عباداتٍ تصلُ الإنسان بربّه، وتطهّر روحَه وتزكيها.

ونظامُها في الأخلاق يرتكز على صفاء السّريرة واستقامة السيرة، وخلوصِ النيةِ، والتمسّكِ بالحقّ، وفعلِ الخير، والتزامِ الآداب الفرديّة والاجتماعِيّة التي تَسير بالإنسانيّة نحو الكمال.

ونظامُها في التشريع يقوم على رعاية الحقوق، وجلْبِ المصالح ودَرْءِ المفاسد، وحسنِ المعاملة، والعدلِ والمساواة، وإفساحِ مجال الاستنباط والاجتهاد للمتفقّهين في الدّين، في حدود المؤهّلات العلميّة المشروطة ليشرّعوا الأحكام ويسنّوا القوانين في كلّ ما يحدث ويجِدّ من قضايا.

ونظامُها الاجتماعي والاقتصادي يقوم على تماسك الأسْرة وتعاونها، وتكافُلِ المجتمع وتضامنِه، وصونِ كيانهما من كلّ آفات التّصدّع والانحلال، واعتبارِ المال وسيلةً لا غاية، وحُسنِ استثماره وتداولِه، والحث

على بذله في وجوه الخير والبرّ، ولزومِ القصد في المعيشة من غير تبذير ولا تقتير، ومنعِ الاحتكار والاستغلال والتعامل الرّبَوي، وكلّ ما يضرّ بالمجتمع في المعاملات.

ونظامُها الثقافي يحمل بين جوانحه رسالةً تجمع بين العقيدة والحرَكة، إلى الجوانب المادّية مُمَثّلةً في العلم والاختراع والكشْف، ويعتمد على طلب المعرفة من كلّ وجه ممكن عملاً بقول الرسول ﷺ : « الحكمة ضالّةُ المؤمن، فحيثُ وجدَها فهو أحقُّ بها » (رواه الترمذي)، ويدعو إلى استخدام العقل في كسب المعارف، وتسخير الطّبيعة لخدمة البشريّة وإسعادها، واعتبارِ الثقافة أيّاً كان مصدرُها ومَهدُها تُراثاً عامّاً للإنسانيّة. وقد عُنِيَت الثقافة الإسلاميّة بدراسة الكتاب والسنّة، وما تفرّع عنهما من علوم وفنون. كما عُنِيت بتراث الأمم القديمة عن طريق الترجمة، وأضفتْ عليه مسحَة الإسلام وطَبَعتْه بطابعه، فكانت الحضارة الإسلامية وليدةَ هذا التُراث الثقافي، والتّطبيق المادّي له، والمرآة التي تعكس مقوّماته وخصائصه، وكانت المُنجزاتُ الحضاريّة في ظلّ الإسلام ترجمةً حيّة لنظامه.[1]

وعالَميّة الإسلام في دينه وحضارته وثقافته تنبع من نظرته إلى الإنسانيّة، على أنّها وحدةٌ لا يفرّقها الجنسُ أو اللّون أو اللّغة أو الإقليم « كلُّكُمْ من آدمَ، وآدمُ من تُراب »، ولا يَعُدّ الأمّة بالجيل أو القطر، بل يعُدّ الأجيالَ كلّها أمّةً واحدة، تتّحِد في نفوس المهتدين كما تتّحد في نفوس المنحرفين، على أساس وحدة النفس الإنسانيّة في أصل تكوينها وغرائزها ومنازعها، وفطرتها، وفيها تكمن أسبابُ الاستقامة والانحراف. ولكنّ الأهواءَ وأنماطَ التربية وتأثيرَ البيئات الاجتماعيّة، هي التي تَوَلّد عنها الاختلافُ في المجتمعات. فقال جلّ شأنه : « يا أيُّها الرُّسل كُلُوا من الطيّبات، واعملوا صالحاً، إنّي بما تعملون عليم. وأنّ هذا أُمّتكم أُمّةً واحدةً، وأنا ربُّكُمْ فاتّقون » (المؤمنون : ٥٣).

---

(١) محمد خلف الله أحمد : أثر الحضارة الإسلامية في رقي البشرية (التوجيه الاجتماعي في الإسلام) : ٤٢/١ (مجموع البحوث الإسلامية).

ومن مؤهّلات الرّسالة الإسلاميّة للتّعميم والخلود ونشرها بين الناس كافّة، أنّها جاءت بالحقّ : « ياأيُّها النّاسُ قد جاءكم الرسولُ بالحقِّ من ربِّكم » (النساء : ١٦٩).

والحقُّ ثابتٌ دائم لا تختلف فيه العقول، والأمْرُ باتّباعه لا يكون إلّا عامّاً. وكلّ الأنبياء قبل محمّد عليه السّلام جاءوا بالحقّ، ولكن بَعدَ بعثه ﷺ جاءت رسالتُه الخاتمة الظّاهرةُ على الدِّيانات كلّها، هيَ الحقُّ الثابت الباقي الذي لا حقَّ بَعدَه على مدى العصور كما قال ﷺ :

« لوْ كان موسى حيّاً ما وسعه إلّا أنّ يتّبعني » ؛ (رواه البخاري).

فمُراعاةُ التّسوية بين النّاس في أصل الإنسانيّة، ومراعاةُ العدل بينَهم، واعتبارُ الفطرة البشريّة في أُسسُ الشّريعة الإسلاميّة، وإرادة الخير والسّعادة للنّاس جميعاً، كُلُّ ذلك وضّحتْه رسالةُ محمّد ﷺ الذي بُعِث رحمة للعالمين.

المسيحيّة والإســلام :

وقد يكون من أكبر أسباب العداء الذي تكنّه المسيحيّة للإسلام ـ والذي كان من أسوأ آثاره في التاريخ وفي نفوس المسلمين، تلك الحروبُ الصليبيّة الشّرِسة، ثمّ الاستعمار الغاشم ـ اعتقادُ المسيحيّين بأنّ الإسلام يحارب ديانتهم التي جاءت ـ حسب زعمهم ـ للبشريّة كلّها، لتُخَلِّصَها من أغلال الخطيئة الكبرى، وبهذا الاعتقاد السّائد انتشرت الحركاتُ التبشيرية في إفريقيا وآسيا. وكان البرتغاليّون أوَّلَ من عمل في التبشير عملاً رسميّاً بغانا والكونغو، وذلك في القرن الخامس عشر. ورغم أنّ المسيحيّة والاستعمار ضدّان لا يلتقيان من حيث المبدأ، فإنّ انتشار المسيحيّة في إفريقيا السّمراء قد رافق بدْء الاستعمار، ومَشَى معه إلى نهاية الشّوط.

نشرت مجلّة فرنسا الكاثوليكيّة « La France catholique » في عدد كانون الأوّل ١٩٥٩ مقالاً بقلم أسقف دكّار الفرنسي جاء فيه : إنّ أولئك الذين لا يعرفون الإسلام معرفة جيّدة، يُفاجَأون بأنّ البلدان ذات الأغلبيّة الإسلامية هي التي تنتهج سياسة عدم الانحياز، والابتعاد عن الغرب كغينيا ومالي، بينما تبقى البلدان المتأثّرة بالمسيحيّة في فلْك الغرب، وهي الدُّول

الإفريقية الناطقة بالفرنسيّة. أمّا السّنغال، فإنّه يريد التحالف مع فرنسا، إلّا أنّ ثِقَل الميول الإسلامية والتأثير السّوداني ضِمْنَ (اتّحاد مالي) يدفعُه إلى الاستقلال.

ويقول الأسقف : (إنّ الافريقيين متديّنون، وهم لا يهتمّون بالمساعدات الماليّة لأنّهم قد وطّنوا أنفسهم على شَظَف العيش. فالبلدانُ الأوروبيّة المسيحيّة تخطئ، إذَا هي تغافلتْ عن المظهر الدّيني، وهو أحسنُ سفير لها يصون مصالحها. إنّها مَدعُوَّة لدَعم الحركات التبشيريّة.

وكان قيامُ اتحاد مالي من السودان والسنغال ناقُوسَ الخطر بالنسبة للاستعمار الفرنسي والتبشير. وقد تولّتْ أجهزةُ التخريب الاستعماريّة تنظيمَ حملة لإقصاء الفولتا العليا، والدّاهومي عن هذا الاتحاد[1].

وربّما اخترعوا القصص الخرافيّة لتغذيّة عقول الناشئة من المسلمين والمسيحيين على السّواء، بأفكارٍ سيّئة عن الإسلام وعن الرسول الكريم، كما فعلوا في نيجيريا.

يقول العالِم الدّاعية عبد الله الألوري مصوّراً الوضع أحسن تصوير :

« لقد تحرّرت نيجيريا، ولكنّ المستعمرين قد عوّدونا على أساليب أخرى. فإن أُغلقَ عليهم الباب دخلوا من النافذة. لقد ارتحلوا وخلّفوا وراءهم عملاءهم المبشرين الذين كانوا رواد الاستعمار. وقد أثار كثير من المبشّرين الشكوك حول موقف التبشير من الأماني الوطنيّة. فانقلبت الشّكوك إلى حقائق عندما عمدوا إلى تغذية الطائفيّة ضدّ الإسلام الذي تبنّى الأماني الوطنيّة، وعمل على تحقيقها بسرعة مذهلة »[2].

والإسلام في نَظر هؤلاء المغرضين وأتباعِهم دَعِيٌّ مُنافِسٌ، وخَصمْ عنيد. وبعضُهم لا يتورّع في الندوات والمؤتمرات عن إعلان القول بأنّ عيسى عليه السّلام خاتم الرسل، ورسالته خاتمة الرّسالات. والشُّبهة الحاصلة لهم في ذلك قديمة : فعيسى رسولٌ إلى بني إسرائيل، ولكنَّ تَفَرُّقَهم في أرجاء

---

(١) : ١٩٦١

(٢) ملة حضارة الإسلام : العدد الثالث لسنة ١٩٦٢.

الأرض جعل الحواريين وتلاميذهم يرتحلون إلى الأقطار التي هُمْ فيها للتبليغ، ثمّ اتّخذ التبشيرُ بالمسيحيّة منطلَقاً جديداً ومفهوماً آخر.

والله تعالى يحدّد رسالة عيسى في قوله عزّ وجلّ : « ويُعَلِّمُه الكتابَ والحكمة والتوراةَ والإنجيلَ ورسولاً إلى بَني إسرائيل » (آل عمران : ٤٨).

ومَنْ غيرُ محمّد ﷺ من الأنبياء الذين سبقوه قال مثلَ قوله : « إنّي لَرسولُ الله إليكم خاصّة، وإلى النّاس كافّة »، أو أَرسلَ كما أَرسَل هو إلى ملوك يدعوهم إلى الدّين الذي بُعث به، ويطلب إليهم أن يُخْلُوا سبيل الدّعوة إليه في البلاد التي يحكمونها !

وممّا يدلّ على عموم الرسالة المحمّديّة انتشارها في فترة قصيرة بالنسبة للأديان وبين مختلَف الأمم، وسريان تعاليمه في الشعوب سريان الماء في العود، فاتّسعتْ مملكته وامتدّت آفاقُها، وتباعدتْ أطرافُها شرقاً وغرباً في فترةٍ ما قبْلَ سنة ٣٢٤ هـ.

وقد عرّف بحدودها ابنُ حوقل فقال : (حدودُ المملكة الإسلاميّة هي : شرقيّها : أرض الهند، وغربيّها : مملكة السّودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي، وشماليُّها : بلاد الرّوم، وما يتّصل بها من الأرض والخزر والبُلغار والصقالبة والترك والصين، وجنوبيّها : بحر فارس[1]. وكان المسلم يستطيع أن يرتحل داخل حدود هذه المملكة في ظلّ دينه وتحت رايته، وفيها يجد النّاس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلّون كما يصلّي، وكذلك يجد شريعة واحدة وعُرفاً واحداً وعادات واحدة، وكان في هذه المملكة المتّسعة الأطراف قانونٌ عَملي يضمن للمسلم حقَّ المواطن، بحيث يكون آمناً على حرّيته الشخصيّة، فلا يستطيع أحد أن يَستَرِقّه على أيّ صورة من الصّور....

ولمّا انقسمت هذه المملكة بعد سنة ٣٢٤ هـ. إلى دُول صغيرة وملوك طوائف لم يؤدّ هذا الانقسام إلى ضيقٍ في معنى الإسلام، أو في الوطن الإسلامي، بل صارت هذه الأقاليم تؤلّف مملكةً إسلاميّة واحدة،

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك : ١ ـ ١١ (ط. ليدن ١٨٧٢).

وبقيت الوحدة الإسلامية في أكبر خطوطها قائمة الذّات، دون أن تتأثّر بالحدود السياسيّة الجديدة[1].

لأنّ مبادئ الإسلام الحنيف من مساواة في الحقوق والواجبات، وأخوّة في الله، وتعاون وولاء، لم تُضعف قوّتها إقليميّةٌ ضيّقة، أو نُظُمٌ اجتماعيّة متباينة، أو اتجاهاتٌ فكريّة لا ترتبط بالإسلام إلّا من حيث الشّكل والانتماء، مثلَما نرى اليوم هذا الاختلافَ الشديد بين أبناء بعض الأقطار الإسلاميّة في البلد الواحد من مذاهب فكريّة، وإيديولوجيّات ثقافيّة واجتماعيّة، ونزعات سياسيّة، تفرِّق ولا توحِّد، وتُثير الشرّ والفتنة، وتقطع ما أمرَ الله به أن يُوصَل، وتحمل على الثورات وارتكاب الحماقات، لأنّ الأمّة الواحدة إن لم يجمعها الحقّ فرّقها عمّا وراء ذلك من أخطار جسيمة تهدّد الأمن والاستقرار، وهما ركنان أساسيّان في بناء الحضارة، ومن خيوط خفيّة يُمسك بأطرافها خصوم الإسلام وأعداؤه من وراء ستار.

نحو مستقبل مُشرق :

ولينظر المسلمون حيثما كانوا، أيْن هُمُ اليوم من مركز القوّة في سُلّم الحضارة المعاصرة ؟ ولماذا تنشب في بلادهم وبين أبنائهم نِيرَانُ العداوة والبغضاء، والاصطدامات الدّاميّة من حين لآخر، في عصر توافرت فيه المواصلات، وتقاربت المسافات، وتعدّدت وسائل النشر والإعلام، حتّى أصبح العالَم أشبه بمدينة واحدة، وحتّى أصبحت الشعوب أشبه بأمّة واحدة !؟ ولكنّ العالم الإسلامي كان ولا يزال في صراع مستمرّ مع عوامل الهدم والشرّ والإفساد في الأرض، يواجه قُوى خفيّة شتّى لمنعه من أن يسير في المنهج الإسلامي القويم، ودفْعِه إلى كلّ ما يعوق تقدّمه، ويعرقل سبيله، وانّ الصدماتِ التي يواجهها بعنف تكفي لأن توقظَ أهلَ الكهف. فكيف وقد أفاقت شعوبه من سُبات الجهل، واستضاءتْ بنور العلم، وتحرّرت من أغلال التبعيّة الاستعماريّة ؟

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري (ت) أبو ريدة. ٢١/١ ، ٢٢ (ط. القاهرة ١٩٤٩).

إنّ مجتمعاتنا الإسلاميّة ماتزال مصابة بداء الاستيراد، استيراد مشاكل الحضارة الغربيّة، في حين أنّ أسبابها الحقيقيّة ليست نابعة من واقعنا نحن، فنكون كمن دفع الغُرم وليس له الغُنم، أو كمن يستورد الهموم بأثمان باهظة.

وليس معنى ذلك أن يبقى المسلمون رهين واقعهم، ولا يتجاوزوا حدود أنفسهم، بل أن يوصدوا النوافذ التي تعصف منها ريح السّموم، وأن يخطّطوا لثورة بيضاء ضدّ الانهزاميّة والانحلال، والركود واليأس. ولئن أضحت العودة إلى أساليب الحياة القديمة غير ذات جدوى، فالواجبُ يفرض عليهم أن يبحثوا عن أساليب جديدة للحياة في اطار الفكر الإسلامي المتفتّح والمتحرّر من الخرافات ورواسب عهود الانحطاط، ومن المفاهيم الظرفيّة المسيطرة على عشّاق الحضارة الغربيّة، فإنَّ ما نُوليه من اهتمامٍ بتُراثنا العلمي والحضاري، لا يعوقنا عن مسيرتنا نحو مستقبل أفضل بل سيعرّف أجيالَنا بما أسهم به أجدادُنا في بناء الحضارة الإنسانية عموماً، والعلوم الحديثة على وجه الخصوص، لإحياء شخصيّة المسلم الأصلية، وانبعاث الفكر الإسلامي العريق، ولتفادي الوقوع في أيّ تَبعيّة. إذ على شبابنا قبل أن يتمثّل مكاسب العرب وثقافته أن ينطلق من نواة أصيلة، تضرب بجذورها في الحركة العلميّة الإسلاميّة في تُراثنا الأصيل، وأن يتغذّى أوّلا من مبادئه قبل أن يغترف من المصادر الأجنبيّة، ويتفتّح على الأفكار والعلوم والتقنيات الحديثة، ضماناً للنموّ والتطوّر والأصالة، فإنّ الشجرة لا ترفع هامَتها إلّا إذا ضَربت بجذورها عميقاً في الأرض، وكذلك الاستنساخ الصِّرف لثقافة أجنبيّة، يؤدّي إلى مظهر مزيّف سرعان ما يذبل.

ولْيعلمْ كذلك أنّ الحياة المعاصرة ليست سوى حصيلةِ جهودٍ حضاريّة متعدّدة على مدى عصور طويلة متلاحقة، ومن جملة هذه الجهود الدّور الذي لعبه المسلمون، في هذه الحضارة، والذي أعان على دفع عجلة التطوّر العلمي مساعدة كبيرة وجادّة، ولكنّ أحفادَهم الذين خَلَقوهم مِنْ بَعْدِهم لم يتابعوا ما وصل إليه سَلفهم من البحوث العلميّة التجريبيّة، ولم يعْتَنُوا بها عنايتَهم بالعلوم الإنسانيّة ؛ كاللغة والأدب والتاريخ والفلسفة والكلام

كما هو معروف ؛ جاء في مقدّمة كتاب (دراسات في تاريخ العلوم عند العــرب) :

(تُعَدُّ دراسةُ التراث العلمي العربي من الدّراسات التي تُلقي الضّوء على التّطوّر التاريخي للعلوم العربيّة، وما أنجزته العقليّة العربيّة في الحقبة التاريخيّة التي ابتدأت بعصر صدر الإسلام، وانتهت بنهاية العصر العبّاسي. ولم تنَلْ هذه الأمور ما تستحقّه من عناية كبيرة من قِبَلِ الباحثين في التاريخ الحضاري العربي والإسلامي في قرونه المتعاقبة الطّويلة(*)).

ازدهار الحضارة الإسلاميـة :

والباحثون النزهاء في تاريخ العلوم من غير المسلمين يُقرّون بما كان للعرب من فضل في تأسيس الكيمياء الحديثة، واكتشاف الحـامض الكبريتي، وماء الفضّة، والبوتـاس، وملح البارود، وكذلك تعيين الكثافة النوعيّة لكثير من الأحجار الكريمة، وإجراء تجارب عديدة لإيجاد العلاقة بين وزن الهواء والكثافة، والقيام بأبحـاث حول الغرفـة المظلمـة (آلـة التصويـر) واستخدامها.

كما اهتمّوا بعلم الحياة وبالطبّ والنباتات الطّبيعيّة ووضعوا علم التشريح، واستخدموا التخدير في العمليّات الجراحيّـة، وأوقفـوا النزيـف الدّمويّ، وأجروا عمليّات لاستئصال السرطان.

وفي الرّياضيات والهندسة كان العرب أوّل من أوجـدوا الإحصاء العشري، وعرفوا الصفر ووضعوا حلولاً جبريّة وهندسيّة لمعادلات ابتدعوها مختلفة التركيب، واستعملوا لها الرموز، ومهّدوا لاكتشاف اللّوغاريتمات، ووضعوا مؤلفات في الأحجام والمساحات، وتحليل المسائل الهندسيّة، واستخراج المسائل الحسابيّة بالتحليل الهندسي، والتقدير العددي، كما بحثوا في الزوايا وتقسيمها، وفي محيط الدّائرة، وفي المضلّعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبريّة، وقسّموا الهندسة إلى عقليّة وحسيّة.

(*) لحكمت نجيب عبد الرحمن م (ط. العراق : ١٩٧٧).

وفي الفلَك عرف العرب قبل العصر العبّاسي رصد الكواكب والنجوم، والكسوف والخسوف، ووضعوا جداول لحركة الكواكب، وقالوا بدوران الأرض وبكرويتها، واخترعوا آلة الرّصد (التّلسكوبْ).

وفي الجغرافيا أخذوا عن اليونان ما توصّلوا إليه، ثمّ درسوه ودقّقوا فيه وصحّحوه وزادوا عليه، ونقلوه إلى أوروبا، وألّفوا فيه الكتب مثل : « مسالك الممالك » للاصطخري الذي رسم فيه خرائط ملوّنة لكلّ بلد، و « أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسي الذي ألّفه بعد رحلة استغرقت نحو العشرين عاماً، و « نزهة المشتاق » للادريسي، وقد حلّاهُ بالخرائط المتنوّعة. ويُعتبر « معجم البلدان » للحموي موسوعة جغرافيّة ضخمة نادرة المثال.

أمّا فنّ العمارة والزخرف والنقش والتصوير، فقد بلغوا فيه مرتبة رفيعة، واقتبس منه الغرب. وعندما أنشأ الفرنسيّون كنيسة (نوتردام) الباريسية استخدموا فيها معماريين من العرب.

وما تزال المعالم الإسلاميّة في الميدان العمراني بالهند وفارس واسطنبول ودمشق والعراق والقاهرة والقيروان وقرطبة، وفي كلّ مدينة إسلاميّة تشهد بدورهم الرّفيع وفنّهم البديع، وبراعتهم الفائقة.

ولمّا زار الشاعر الفيلسوف محمّد إقبال جزيرة صقليّة سكب دموعه على أطلالها العربيّة.

ومن قرأ ما كتبه الغربيّون عن (تاج محلّ) الأثر الإسلامي العظيم في الهند، راعه وصفهم له. وقد وصفه باحث أوروبي بأنّه من عجائب الدّنيا، وهو من المباني الإسلاميّة التي صُبَّ فيها كل ما يمكن أن يجود به الفنّ من الكمال والروعة، وعظمةُ الآثار الإسلاميّة في دهلي معروفة، حتى لكأنّ سحرة ألف ليلة وليلة لا تستطيع أن تبدع ما هو أروع منها.

ولقد قصّ رجال الفنّ والفكر الذين زاروا قصر الحمراء ومسجد قرطبة بالأندلس من مسلمين وغير مسلمين مثل إقبال ولوبون وهيقو وقباني ما شاهدوه من بدائع الفنّ في الجدران المزينة بالنقوش العربيّة الأنيقة، وفي القباب الساحرة المتدلّية ذات الزخارف المطليّة باللّازورد والإبريز والأرجوان.

وكان العرب إذا فتحوا مدينة صرفوا جهودهم الأولى إلى إنشاء مسجد فيها.

والتّاريخ يحدّثنا عن الدّور الأساسي الذي قامت به مساجد إسلاميّة شهيرة لنشر العلم والمعرفة.

فقد كانت تقوم بما تقوم به الجامعة اليوم من دراسة علميّة منتظمة، تُعقد في رحابها حلقاتُ العلم، ويَؤمّها طلّاب المعرفة من كلّ مكان. والمسلمون اليوم في أشدّ الحاجة إلى إحياء رسالة المسجد وتجديدها في أشكال أخرى ملائمة للعصر.

ومن ينكر ما اشتهر به المسلمون من ابداع في هندسة المنشآت العمرانيّة، وفي الرسوم الجميلة، والخطوط المتنوّعة التي لم تزل قائمة في المحاريب والمنابر والأبواب والقباب التي نشاهدها في المعالم الأثرية الإسلامية، وفي المصاحف والكتب التي تُعرض في المتاحف ؟.

وقد كتب لونقبرييه (Longperier) سنة ١٨٤٦ بحثاً في استخدام الحروف العربيّة في الزخرفة لدى الشعوب المسيحيّة في الغرب[١].

وفي الميدان الصناعي كان لهم تفوّق على الأمم التي عاصرتهم.

فقد أنشأ الأغالبة بمرسي سوسة داراً لصناعة السفن، فأتيح لهم من المعدّات الضخمة والانجازات الجبّارة، ما جعل لهم أقوى أسطول حربي في البحر الأبيض المتوسّط، قهروا به الأساطيل البيزنطية ذات الشهرة الذّائعة آنذاك. وبواسطة هذا الأسطول العتيد تسنّى للأغالبة أن يفرضوا سلطانهم على عدد من جزائر البحر، مثل صقليّة ومالطة وقوصرة وجانب كبير من جنوبي إيطاليا[٢].

يقول هارتمان : (ومن المَدَنيّات القديمة التي استفاد منها العرب مَدَنيّة الإغريق. فأخذَ العرب عنهم الطبّ والفلسفة والجغرافيا والفلَك.

---

(١) لبيب عبد الستار : الحضارات : صفحة ٢٨١ وما بعدها (ط. ٢ بيروت).

(٢) جرترود هارتمان : العالم الذي نعيش فيه : (ت) محمود حامد شوكت ١١٨ (ط. القاهرة ١٩٤٩). =

وقد ترجم العرب هذه العلوم إلى لغتهم، ثمّ أضافوا إليها أبحاثاً جديدة لم يكن الأقدمون قد وصلوا إليها.

ومن ذلك أنّهم أنشأوا علم الجبر وطبّقوه على الهندسة، واستخدموا الكسور العشريّة لأوّل مرّة، وابتدعوا في الطبيعة نظريّات جديدة لانكسار الضّوء، واكتشفوا في الكيمياء خواص الأحماض، وابتكروا مركّبات جديدة، كحامض الكبريت، وحضّروا الزّئبق، وأنشأوا علم الجراحة، وابتدعوا آلاته وعمليّاته، وابتكروا جبر العظام، وكتبوا في أنواع الحمّى، ووصفوا المواد ذات الخصائص الطبيّة، وكانوا أسبق الشعوب إلى إنشاء المستشفيات والصيدليّات، وسبقوا أهل أوروبا في إقامة المدارس والمكاتب والجامعات.

وفنُّهم الإسلامي الخالد لا تزال تشهد به آثارهم في قصر الحمراء بغرناطة وجامع قرطبة، ومساجدهم بالقاهرة والقيروان ودمشق والهند. وهو فنّ لا يُحاكي صورةَ الإنسان، بل يستمدّ روحه من الحياة النباتيّة، والأشكال الهندسيّة والمناظر الطبيعيّة(١) :

وكما ازدهرت العلوم التجريبية في ظلّ الحضارة الإسلاميّة، ازدهرت كذلك علوم الوسائل والمقاصد كالنحو والبيان والبديع والتفسير والحديث والفقه، والعلوم الإنسانيّة كالتاريخ وعلم الاجتماع. وقد درس ابن خلدون في مقدّمته عوامل تطوّر الجماعات، وما يعتريها من ضعف أو قوّة، وبقاء أو انحلال.

وتَعَمّقَ في البحث عن أحوال الأمم، والظواهر الاجتماعيّة المختلفة

= وانظر : كتاب دراسات في تاريخ العلوم عند العرب : حكمت نجيب عبد الرحمن، وكتاب ورقات من الحضارة العربية بافريقية : حسن حسني عبد الوهاب.

وكتاب : العلوم في الإسلام : حسين نصر.

وكتاب : الفنون الإسلامية : أحمد محمد عيسى.

فان في هذه الكتب من التفاصيل المبينة للحركة العلمية وتاريخ العلوم عند المسلمين ما يكشف عن مدى النهضة التي بلغوها في شتى فروع العلم وعن مدى فضلهم في تقدم بعض العلوم الحديثة، بما وضعوا لها من أسس ومهدوا لها من سبل.

(٢٢)

التي اقترنت بأطوار حياتها، فكان بحقّ واضعَ علم الاجتماع والمؤسِّس الأوَّل لأصوله.

والحق أنّ ما أنجزه الفكر الإسلامي خلال هذا العصر الذّهبي للحضارة الإسلامية، وما تركه من تراث مجيد، كان ملء السمع والبصر، وخاصّة في العلوم التجريبيّة، لم نُولِه ما يستحقّ من دراسة ونشر وإحياء، وذلك من حقّ أسلافنا علينا، ومن واجبنا نحوهم ونحو ناشئتنا. ذلك أن العودة نحو الذّات تتطلّب دراسة استطلاعية للماضي الذي بقي مشلولاً مدّة طويلة بكلّ عظمته وأمجاده. فكلُّ طريق نحو التحرّر وبناءِ الذّات يبدأ بالتعرُّف على الماضي الخاصّ.

عَـوْدَةُ الـوَعـي :

والتعرّفُ على مقوّمات شخصيتنا وأوصول ذاتيّتنا، إنّما يعني عودة الوعي وشعور الكرامة إلى أمّة عزيزة امتُهِنت، وعانتْ من وَيْلات المؤامرات والاضطهادات ما عانَتْ، وعليها اليومَ أن ترفع هامتَها وتفرضَ وجودها لتضطلع بالأمانة، وتؤدّي رسالتها نحو الإنسانيّة، كما أمرها القرآن. ذلك هو العبء الثقيل الذي وضعه الاستعمار الأُجنبي بكل أشكاله وألوانه على عاتق العالَم الإسلامي في هذا العصر. هذا الاستعمار الذي خلّف وراءه الجمود والفقر والانحطاط، وأدّى إلى انهيار الحضارة الإسلاميّة، وإضاعة شخصيّة المسلم، بفرض ثقافته، وقِيَمِه الأخلاقيّة، ومصالحه الشخصيّة.

فلا بدّ للأمّة الإسلاميّة أن تعرف أسباب مجدها الحضاري، وأسباب انحدار هذه الحضارة، لتستخلص من أحداث التّاريخ ما يفيدها في حياتها.

فالعوامل التي ازدهرت بها الحضارة الإسلاميّة صنفان : الصنف الأوّل منها نابع من روح الإسلام ذاته، باعتباره نظاماً متكاملاً للحياة الإنسانية، أرسى قواعدها على أسس سليمة، ودفع بتعاليمه إلى ما يسمو بالإنسان روحيّاً، ويُمكِنُ له في الأرض ماديّاً، حتّى يعيش المسلم الحياة بقطاعيها الباطني والخارجي بتركيز أشدّ... في الباطن يحرّك الإسلامُ كلَّ

قوى الإنسان وإمكاناته العقليّة والعاطفيّة والروحيّة. وفي الخارج يدفعه إلى أن ينمّي علاقاته واستجاباته لكلّ ما يحيط به من قوى مدخورة، وقيم جماليّة.

والصنف الثاني يرجع إلى الأقطار الإسلاميّة التي نمت الحضارة الحقّ في ربوعها، بقدر ما نمت الفضيلة وحبّ الخير في نفوس أبنائها، فاصطحبوا العلم في رحلة الحياة، وذلك بفتح الطريق أمام العقل ليكتشف ويرتاد، وبتكريم العلماء، وخلق مناخ علمي يزدهر فيه العلم والثقافة، وهم في الآن نفسه يحرسون ضمائرهم، ويراقبون ربّهم، ويخلصون له إخلاصَ من يلتزم معه.

وما كُفْرُ الكافرِ ولا جَحْدُ الجاحِدِ إلّا عن جهل بالله، وبأسرار هذا الكون الذي خلقَه، وبالسُّنن التي دبّر بها نظامَ سيره.

والمؤمن إنّما يزداد إيمانه بالله بِتَزايدِ علمِه به، وبما خَلَق ودَبّر.

وقد كانت رابعةُ العدويّة تناجي ربّها بقولها : (إلهي ! ما عبدتُك طمعاً في جنّتك، ولا خوفاً من نارك، ولكن عرفتُك أهلاً للعبادة فعبدتك).

فلَيْتَك تحلُو والحياةُ مريرةٌ | وليتَكَ تَرْضَى والأنامُ غِضَابُ
وليتَ الذي بيني وبينَك عامِرٌ | وبيني وبين العَالَمين خَرابُ
إذَا كان منك الوِدُّ فالكُلُّ هَيِّن | وكُلُّ الذي فوقَ التُرابِ تُرابُ

عوامل الانحدار :

والعوامل التي أدّت إلى انحدار هذه الحضارة وتَقَلُّصِ ظلّها كثيرة. منها ما هو داخلي، ومنها ما هو خارجي.

فمن العوامل الدّاخلية : تفرُّق الكلمة، والتنافس على الدّنيا، وحَبْكُ الدّسائس والمؤامرات للحصول على السلطة، والانغماسُ في اللّهو والتّرف، وتَوقُّف الحركة العلميّة عن نشاطها ونُمُوّها، ولا سيما العلوم التجريبيّة التي لم

(١) آرناست باركر : تراث الإسلام (ت) علي أحمد عيسى. ج : ٨٣/١ ـ ٨٤ (ط. لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٦).

(٢) محمد عبد المنعم خفاجي : الإسلام والحضارة الإنسانية : ٢١٥ ـ ٢١٦ (ط، بيروت ١٩٧٣).

تكد تؤتي ثمارها حتّى انصرف البحث عنها إلى بحوث نظريّة مجرّدة في الفلسفة والكلام والتصوّف وما إليها، حتّى كاد إنتاجنا وتفكيرنا يصبح نظريّاً بحتاً، أو لاَهُوتياً محضاً. وبعْدَ أن تعدّدت الفرق الإسلاميّة وانتشرت مذاهبها، وتكاثَر أتباعُها، غدتْ كلّ فرقة لا همَّ لها إلّا التفكير فيما يدعم مذهبها، ويُضعفُ المذاهب الأخرى، بمهاجمتها أو تكفيرها، أو الردّ على دعاويها ومطاعنها، والخَلَف يتبع سلَفَه في ذلك، فيُعيد أقوالَه وعباراته ؛ والتّآليفُ على كثرتها صارت في فترة من تاريخنا الإسلامي عالةً على ما سبقها، يُكرِّرُ بعضُها البعض، خاليةً من كلّ جديد، وكأنّما أصيبت القرائح بجذب أو عُقم، فجَفّت ينابيعُها، وغاض مَعينها، على حين انكبّ علماءُ الغرب على التُّراث الإسلامي في العلوم التجريبيّة يترجمونه ويتدارسونه، وينشئون المخابر والمصانع، وكانت الحروب الصّليبيّة إحدى العوامل الرئيسية التي أخرجت أوروبّا الجديدة في عصر النهضة وعصر الاستكشاف، وكانَ لهذه الحروب أثر في تطوّر فنّ الحرب في الغرب كما ذكر ذلك آرناست باركر في كتابه (تراث الإسلام) وأمّا العوامل الخارجية فكثيرة ومتنوّعة، وأهمّها :

ـ الحروب الصليبيّة التي امتدّت نحو قرنين من سنة ٤٨٩ هـ إلى سنة ٦٦٨ هـ (١٠٩٧م ـ ١٢٧٠م) وهي من أكبر ضروب التصادم بين المسيحيّة الغربيّة وحضارتها، وبين العقيدة الإسلاميّة وحضارتها من جهة أخرى.

يقول باركر الانجليزي : للحروب الصليبيّة وجهان : فهي من حيث الباعث الأصليّ عليها حركة روحيّة، وحرب مقدّسة باركها رجال الدّين وربطت الأمم المسيحيّة جميعاً برابطة العداوة لعدوٍّ عقيدتِها اللّدود.

وهي من حيث النتائج، الثّمنُ الذي دفعته المسيحيّة أملاً في تخليص أورشليم من ربقة المسلمين، وهي أقدس الأماكن وأبعدُ المزارات الدّينية عن أوروبا، لذلك كان حجّ الأوربيين إليها غفراناً مضاعفاً(*).

(*) انظر كتاب : الحركة الصليبية. لسعيد عبد الفتاح عاشور، في جزءين.

ـ تخطيط التتار لغزو العالم الإسلامي، وتدمير الحضارة الإسلاميّة في بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، وذلك بتحريض من العالم المسيحيّ.

ـ سقوط الأندلس سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) في أيدي الإسبان وما تَبع ذلك من اضطهاد وحملات تدميريّة منه في المغرب العربيّ عموماً وتونس على الخصوص.

ـ الحملة الفرنسيّة على الشرق العربي سنة ١٢١٣ هـ ـ (١٧٩٨م).

ـ قيامُ الاستعمار وتدميرُه للعالَم الإسلامي، واحتلالُ الغرب لأراضيه، ونهبُه لكنوزه وثرواته وحضارته، ليُفقِده شخصيّته الإسلامية، ويجعلَه تابعاً له في كلّ شيء.

ـ ظهور المسألة الشرقيّة، وتخطيط الغرب لنهاية الخلافة العثمانية، والامبراطوريّة الإسلاميّة التركية.

ـ قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨م بتدبير من الغرب والاتحاد السوفياتي منذ صدور وعد بلفور في الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧م.

إنّ هذه السلسلة من الأحداث والمؤامرات التي صنعها الغرب المسيحي وأحلافه على امتداد التاريخ بمحاولاتٍ مستمرّة، من أجل الوقوف في وجه التيّار الإسلاميّ والقضاء على شعوبه.

ولا يُفزع أعداءَ الإسلام مِثْلُ امتداد نفوذه وسلطانه، وترقُّبُهم ما وراءَ يَقظةِ المسلمين، فلا يُخرجونها لحظة من حسابهم، حتّى يكونوا على استعداد للمقاومة.

وطرُق مقاومتِهم في هذا العصر لم تعُدّ صداماً مسلّحاً، أو مواجهة في معركة أو حرب، كما كانت في العصور الماضية، ولكنّها تتزيا بأزياء متنوّعة، وتختفي خَلْفَ أقنعة مختلفة للتضليل وإمعان التأثير.

وأفْتكُ سلاح ما يُؤثّر في العقيدة والأخلاق، ويُحدِث انقلاباً خطيراً في عالَم الرّوح والوجدان، عن طريق ظواهر المعيشة، والمذاهب الهدامة التي تُشيع الإباحيّة، والاستخفافَ بالقيم الأخلاقية، وتَخْلع على الفساد مَسْحة من الفنّ والطرافة، تستهوي النظر، وتستجيب لأهواء الشباب بما يرضيهم،

دُونَ ما ينفعهم، كالمذاهب الجنسيّة المتحلّلة، والوجوديّة العابثة، والماديّة الملحدة، وغيرها من المذاهب الفكريّة والعقائديّة التي تلامس الروح.

وإذا كان على الشباب المسلم أن يدرس الحضارة الإسلامية، ويعرف مقوماتها وعناصرها ومنجزاتها، ومَا لَها من أبعادٍ روحيّة ماديّة، ثمّ ما انتابها من عوامل الهدم الدّاخلية والخارجية، فإنّ عليه أن يدرس كذلك في شمول وعمق ودقّة، حضارةَ العصر الذي يعيش فيه، والأرْضية التي نبتَتْ فيها، وانطلقت منها، والجوانبَ الإيجابية فيها والسلبية، وما حقّقتْه بالعلم والتصنيع، وما يَكْمُن فيها من آفات وأخطار، حتّى يكونَ على بصيرة، فلا ينخدع ! ومن عرف الشيء على حقيقته سَبَر أغوارَه، وأدرك أسراره.

حضـــارة العصـــر :

إن التقدم العلمي التقني هو السِّمَة البارزة في حضارة هذا العصر، عصرِ التكنولوجيا كما يسمُونه. وحياةُ الناس تُوشك أن تتغير يوماً بعد آخر، تبعاً لسرعة التغيّر الذي يُحدثه العِلْم الحديث في الكمّ والكيف، وَوِفقاً لانعكاسات الثورات الصناعيّة التي تجاوزت مرحلة حلول الآلة محلَّ الأبدان، وتَخَلُّصِ الإنسانِ من الأعمال المضنية التي كان يكابد مشاقّها، واستمتاعِه بفراغ ثمين، واتّساع وقته للأهمّ، إلى الأجهزة الالكترونية التي شَمِلَت فاعليّات العقول وحلت محلّها، بل ربّما كانت بحُكْم تجرّدها من العاطفة والمشاغل والمشاكل، تَفُوقُها ضبطاً ودقة.

وما أكثر أن تتردّد عبارة (التطور) في كل شيء ! في الأفكار وفي العيش وفي أسلوب الحياة، وفي الأدوات والآلات والأجهزة التي تحيط بنا، وتعجّ بها البيوت والشوارع والمصانع، كلُّ ذلك يجعلُنا نعيش في خِضَمّ هائل من ظواهر هذا العصر. فنرى آلات الطباعة تُخرج كتباً ومجلات وصحفاً لا تُحْصى، تامّةَ الطبع، وأجهزةَ المصانع تُنتج أثاثـاً تامّ الصنع والطِّلاء، ونرى من رُكام المصنوعات المختلفة التي نستعملها في حياتنا اليوميّة، وفي شتى مرافق الحياة، ومن الاكتشافات التي مكّنت الغرب من التحكُّم في قوى الطبيعة، واستخدام الكهرباء كمصدرٍ للقوة، والسّيطرة على الجو، ونحو ذلك مما كان يطمح إليه الإنسان، فتندهشُ العقول لما تَرى

من رقيّ عجيب بلغتْه أُمم الغرب في الصناعة والحِرَف والعلوم والفنون والتجارة والمواصلات.

فالمخترعاتُ الحديثة ربطت بين العالَم. فحينما كانت أمم العالَم لم تفصلها عن بعضها مساحات شاسعة من اليابس والماء، كان أهلها غير متعارفين. أمّا الآن فقد طوّق الإنسان العالَم بالسّكة الحديدية والبواخر والأسلاك والراديو والتلفاز.

وهكذا تُوِّج عملُ الإنسان خلالَ العصور بأنّه صار في الإمكان ولأوّل مرة في التاريخ أنْ توجد حضارةٌ عالمية، أليس هذا أَمَلاً تهفو إليه النفوس ؟[1].

لقد رأينا بالأمس شعوباً كانت تعيش على تقاليدها القديمة، أسرعت إلى الأخذ بمظاهر الحضارة الأوروبية حتى في بعض الأمور التافهة، كما أخذتْ بالنظم الغربية في التربية والتعليم، وفي السياسة والاقتصاد والإدارة. بل رأينا شعوباً نبذت تُراثها وراءَ ظهرها واستبدلتْ به تُراث أوروبا.

وكثيراً ما يُنوِّه المسؤولون الأوروبيون بتفتّح قادة البلاد الأخرى الذين أخذوا بأسباب حضارتهم وطبّقوها في حياتهم القانونية والعملية، فيتعمّقُ إحساسهم بأنّ نفوذ حضارتهم قد يصبح هو القوة المسيطرة في العالَم، لِتمكُّنهم العلمي، وغَلَبتهم المادية، ونفوذهم الإقتصادي، واستيلائهم السياسي.

ونزعةُ العُجْب والغرور التي تزداد في نفوس الغربيين حدّةً مع الأيام تصدُمنا بالقول وبالعمل في كل آن، كقول أحد كتاب الغرب : (يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ ما قدمته الحضارة الغربية للإنسانية من عظيم الخدمَات، قد عملتْ في الآن نفسه على توحيد العالَم في إطار غربي) يقول أرنولد تونبي :

(تُرى، ما هي الحوادث التي غَيّرت مجرى التاريخ القومي في الولايات

---

(١) هارتمان : العالم الذي نعيش فيه : ٢٦٩.

المتحدة وبريطانيا العظمى ؟ إنّني إذا وَلّيْتُ وجهي شطر الماضي قلت : هي الحربان العالَميتان، والثورة الصناعية، ورَحلات الكشْف الغربية، والنهضة الأوروبية، واعتناق المسيحيّة. وإنّي أتحدّى أيّ إنسان أن يحدّثني عن تاريخ الولايات المتحدة أو بريطانيا دون أن يجعل هذه الحوادث هي الحوادث الأساسية، كما أتحدّاه أن يُفسّر هذه الحوادث على أنها شئون أمريكية محلية، أو شئون إنجليزية محلية.

وإذا أردنا تفسير هذه الأحداث الكبرى من تاريخ أيّ بلد من بلدان الغرب، فإنّ أصغر وحدة يمكن أن نُدخلها في حسابنا هي العالَم المسيحي الغربي، أعني العالم الكاثوليكي الروماني والبروتستنتي)[1]. والحقيقة أنّ المسيحية لا يصحّ اعتبارها من العناصر المُكوِّنة لحضارة الغرب الحالية، ولكن الكاتب شاء اعتبارها هنا كركن أساسي في بناء هذه الحضارة، في حين أن كثيراً من المفكّرين الغربيين الذين نشأوا في احضانها وخاضوا غمارها يُعبّرون عن قلقهم من وضع الإنسان الغربي الذي كان يسكر بنشوة القوة والمقدرة التي زوّدهُ بها العلم، ولكنه لم يتقدم في سبيل الاخلاق، تقدُّمَه في المدنيّة والعلوم، حتّى لا يستخدم هذه القوى لهلاك الإنسان، بل لخيره وسعادته، فهذا اللّورد لوتين[*] يقول عن الحضارة الغربية في محاضرة ألقاها بالباكستان : (إنها تركت الإنسان شديد الافتقار إلى الحقّ والصدق في باب الروحانية والدّين، ولم تمهّد له طريقاً للوصول إلى ذلك الحق. فحالُ الأكثرية من أهل الغرب الآن أنّهم كالصّغار، مُغْرَمون بسرعة النّقل، وإتيان الأعاجيب، والمتُعة باللذات الحسيّة، ولم تَبق بينهم وبين الحقيقة الأزلية الأبدية التي يعرضها الدّين من صِلة. ولم يؤمنوا من بين وجوه العلم المختلفة إلّا بذلك الوجه الذي يستهدف الرقيَّ المادي وحده، والذي يجعل الحياة معقّدة مستثقلة، حتى صار من الصعب عليهم أن يُوجدوا بين الحياة والروح من التلاؤم ما يُنقذهم من آفات هذا العصر، ومن القوميّة الضيقة).

---

(١) أرنولد توينبي : الحضارة في الميزان : ١٨٥.

(*) هو رئيس تحرير مجلة : روند تيبل « Round Tables »

ولعلّ من عوامل إخفاق المسيحية في الغرب المعاصر من حيث الجوهر لا المظهر، أنّها تدعو الإنسان أن يُعرض عن الدنيا، ويولّي وجهه شطرَ الملكوت السّماوي لينجو. إنها ليست بمذهب اجتماعي كالإسلام، وإنما تُعنَى بنجاة الفرد، لذلك قامت تُعارِض الأمم الأوروبية لما سارت في سبيل الرقيّ بدلَ أنْ تحفُزها على السّير، فاضطرت إلى تحطيم قيودها، شأنُها في ذلك شأن الديانة الهندية، ليس لها قانون خُلُقي يستند إلى العقل، ولا نظامٌ اجتماعي قابلٌ للتوسّع والشّمول.

فأكثر شُعَب الحياة الأوروبية يسيطر عليها اليوم نظام غير مسيحي من حيث العقيدة والفكر، كالعلمانية أو الماركسية وانصبّ الاهتمام على الإنتاج الصناعي ومظاهر الماديّة، ولم تعبأ بالمتطلّبات الروحية للإنسان ولا بالقيم الإنسانية العليا، ممّا أدّى إلى الإحساس العميق بالفراغ والعزلة بحيث يمكن القول بأنّ الغَرب يعيش في غربة، وإن اختلفتْ عنْ غربتنا نحن المسلمين.

وإذا كان من أبناء الحضارة الغربية من ينوّهون بمبتكرَاتهم في مجال كل علم، ومنْ يَشيدون بأرْضيّتهم الثقافيّة التي نبتت فيها بذور الثورة الصناعية، فهزّت أركان العالم، وغيّرت مجرى التاريخ، ومَنْ لا يزالون يأخذون بتلك الفكرة الغربيّة الخادعة، وهي أنهم عباقرة موهوبون، وليسوا كغيرهم من الناس والأجناس، فإنّ من أبناء هذه الحضارة نفسها من تُساوره المخاوف من مصير هذه الحضارة الماديّة الطاغية، فيقول: (لقد وصلنا إلى آخر المطاف، وحان الوقت لأن نَطوي الشِّراع، لأننا لا نستطيع أن نتبيّن أكثر ممّا أمامنا بوضوح، إذا سِرنا إلى أبعد من ذلك. ولكن في وسعنا أنْ نثق من أمر واحد، وهو أنّ الدين سيكون الأساس الذي تقوم عليه الحركة المضادّة، ذاتُ القوة المركزية الجذّابة)[1].

ومنهم من يرى أنّ العالم اليوم على فَوْهة بُركان، وأنْ أيةَ حماقة يرتكبها سياسيّ أحمق، تكونُ نذيراً بحرْب مدمِّرة تدكّ أُسُسَ الحضارة ولا تُبقي ولا

(١) المصدر السابق: ٧٦ ـ ٧٨.

تَذَر، ولا يكون حظُّ الغالب فيها بأوْفَر من حظّ المغلوب. وأسلِحةُ التجارب السرّيّة تتكون حالياً من ثلاثة أنواع، كما بيّن ذلك الخبَراء :

١) أسلحة كيميائية، تتكوّن من غازات مختلفة، ومنها غاز مؤثّر على الدمّ والأعصاب. وكلُّ من يتعرّض له يصاب بالنزيف أو الشلل، وقد تُوجد أنواع أخرى أفظع، ولكنها ما تزال مُحوطةً بالسريّة والكتمان.

٢) أسْلحة بيولوجية، وتؤثّر على التكوين العضوي، فتصيبه بالعجز أو بالتشويه ومن بين هذه الأنواع من الأسلحة ما يُسبّب في اصابات وبائية بالجراثيم.

٣) أسلحة إشعاعية، تُستخدم فيها المواد المُشعّة، أو الأتربة المشبعَة بالإشعاعات، بحيث إذا ألقيت فوقَ منطقة، أحدثتْ فيها من الأثر ما تُحدِثه الانفجاراتِ النّوويّة[1].

ومن شاء التوسُّع في التصوُّرات المزعجة لنتائج حرب محتملة، ومعرفة ما هيأتْه الحضارة المعاصرة من أسباب خرابها وفنائها بأيديها، فليقرأ كتاب (ما يكون من الحرب القادمة ؟) الذي نشره الاتحاد البرلماني العالمي بجنيف.

وإذا كانت الأخلاق من الدعائم الأساسية للحضارة، فإنّ تهذيب الغرائز بصفة عامة، والغريزة الجنسية بصفة خاصة يأتي في المقدّمة. إذ لا شيء يخرب البيوت، ويزدري بالقانون، وبالتقاليد المرعيّة، ويُحدث اضطراباً في حياة الأسرة والمجتمع، وانحلالاً في الأمة ؛ كانطلاق هذه الغريزة بلا كوابح، كما نرى ذلك في أكثر المجتمعات الغربية.

وقد أصبحت المرأة في المجتمعات الاسكندنافية تطالب بإلغاء عقد الزوجية، لأنه يحدّ من حرية المرأة، وقد نجحت في حليّة الزنا رغم مخالفة الكنيسة، ولم يعُد في هذه المجتمعات عموماً أيّ مانع من إنجاب الزوجة، إذا كان زوجها عقيماً، بالتلقيح الصّناعي أو بغيره.

قرأت أخيراً في بعض المجلّات أن بعض المحلّات التجارية ومخازن

---

(١) أمين محمد عثمان : تراثنا العربي في ضوء العلم الحديث : ١٧٨ (ط. دار الكشاف ببيروت).

البيع الكُبرى في أوروبا وأمريكا عمدت إلى وضع مساطب مستطيلة الشّكل في مختلف زوايا محلّاتهم. وعلى كل مسطبة ترقد حسناء عارية. والهدف من ذلك جلبُ أكبر عدد من المنحرفين الذين تدفعهم شهواتهم لأنْ يَتوافدوا على مِثل هذه المحلّات، ويفترسوا بأعينهم المنهومة الأجساد المعروضة فيها.

وهكذا فإنْ استثارة الشهوات، واستغلالَ جسد المرأة أضحى وسيلة لكسب الأرباحِ الطائلة في عالَمنا اليوم، ولا ندري ما هو المصير الذي سَيُؤدّي إليه مِثلُ هذه الوسائل الدنيئة ؟

وقد أكّدت التجارب والبحوث المختلفة أن ظهورَ الأمراض النفسيّة وانتشارها، يرجع الكثير منه إلى الضغوط النفسية التي يتحمّلها الأفراد.

أجْرى عالم سويدي تجارب شتى للبحث عن سبب الأمراض النفسية، وكانت تجاربه عرض فيلم جنسي خليع أمام عدد من الشباب والفتيات تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٥ سنة، تم أجرى فحوصاً عليهم تبيّن له أثناءها أن زيادة هورمون (استرس) كانت بنسبة ٧٠ في المائة عند الذكور و٢٠ في المائة عند الإناث. وبعبارة واضحة : فإنَّ الرجال عند مشاهدتهم لمثل هذه المناظر الخليعة، تقوي الرغبة عندهم في ارتكاب المحرمات بتلك النسبة نفسها، وإنْ تَغلّبوا على كبح جماع هذه الرغبة فقدْ يُصابون بعقدة نفسية[١].

إن العبث الذي أخذ يطغى على عالم الأخلاق فيصيبنا سرطانه، لا تعطينا مذاقاته إلا المُرَّ والعلْقم، وإن مجتمعنا الإسلامي الذي يسعى للنهوض، هو اليوم في حاجة إلى التماسك من أجل البناء، وشيوعُ الخلاعة والميوعة في حياتنا سيعوقُنا حتماً عن السير في طريق التحول من التخلف إلى التطور، سيما وأنّ تطلع المرأة في الأسرة المسلمة إلى المرأة الغربية كنموذج للمرأة التي تخلّصت من مخلّفات الماضي، وخطت خطوات عملاقة في طريق التحرّر المزعوم، يحُول بينها وبين أن تأخذ بتعاليم الإسلام في تربية النشء الذي سيكون امتداداً لهذه المجتمعات الإسلامية المعاصرة[٢].

---

(١) انظر مجلة الفكر الإسلامي لسنة ١٩٧٦ عدد ٢٧ و ٢٨ ـ ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) محمد البهي : عقبات في طريق المجتمعات الإسلامية المعاصرة : ٢٠ (ط. القاهرة ١٩٧٧).

ومن المؤسف أن نرى الفتاة المسلمة تلهث وراء تقليد المرأة الغربية في هذه المظاهر التحريرية، لتكون أكثر تطوراً وحضارة.

والحياة الماديّة الصّرف لا تُنتج إلّا الأثَرة والنّهم والحقد، ولا تجرّ إلّا إلى الذلّ والخوف والمآسي !

ونحن اليوم كمن يقتل نفسه بالأسلحة التي يقدمونها له. فمتى ينكشف لشبابنا الغطاء ليروا بأعينهم الزيف جاثماً وراء المظاهر البرّاقة ؟؟ هل تساءلوا يوماً عن أسباب الشذوذ والانحراف، وعوامل ارتفاع نسبة الانتحارات في أوروبا وأمريكا ؟

وهل بلغهم نبأ مأساة الانتحار الجماعي لطائفة معبد الشعب التي حدثت بالولايات المتحدة الأمريكية في ١٨ نوفمبر ١٩٧٨ والتي بلغ عدد المنتحرين فيها ما يتجاوز التسعمائة ؟

وهل حلّلوا كيف يحدث مثل ذلك في مجتمع متقدّم كالولايات المتحدة الأمريكية التي ضربت الرقم القياسي في الرخاء، وبلغت الذروة في العلم والتكنولوجيا، ويعتبرها أكثر سكان العالم الثالث النموذج الذي يُحتذَى في الاستقرار الاجتماعي والازدهار الاقتصادي ؟

(ونحن في العالم الثالث، والعالم العربي الإسلامي خاصّة ملهوفون لتحقيق النموّ ــ وحُقَّ لنا ذلك ــ لنُوفّر الازدهار والكفاية. غير أن تفتّحنا على الغرب لم يمكنّا فحسب من التكنولوجيا ووسائل العمل والحياة الجديدة والخبرات الضرورية، بل أعشت أضواؤه أبصارنا وبينما نفرك أعيننَا، ولا ندرك أين نحنْ من حضارة الغرب وأسلوب حياته، تَنفث في وجدان أجيالنا الصاعدة، وفي عقول ذوي الكفاءات العلميّة والأدبية الناشئة سموم هذه الحضارة من جانبها السلبي الذي اكتفينا في هذا المقام، بذكر شهادات بعض أقطاب التفكير والتحليل في الغرب عنها، حتى لا يُقال، وحتى لا يقول بعض التائهين حضارياً في ديارنا : إنّنا متعصّبون، أو مصابون بحنين إلى الماضي، بل حرصنا على أن يشهد شاهدٌ من أهلها)[1].

---

(١) محمد مزالي : مجلة الفكر لسنة ١٩٧٩. ع : ٤٦٨/٤ (ط. الشركة التونسية لفنون الرسم).

وأنا أضيف إلى ما استدلّ به الأستاذ محمد مزالي من شهادات أبناء الحضارة الغربية شهادات أخرى.

يقول وِيل ديورانت في مقدمة كتابه (متعة الفلسفة) : لقد أصبحنا أغنياء في التكنولوجيا والآلة، إلا أنّنا فقراء في الهدف. إن الإنسان في عصر العلم لم يتغيّر عن ذلك الإنسان الذي كان يعيش في عصور خلت أسيراً لقوتَي الغضب والشهوة، وعبداً لَهما. لم يستطع العلم أن يُحرِّر الإنسان من أهوائه النفسيّة، ولا أن يُغيّر ذهنيّة التجبّر والسفك والاعتداء من روح الإنسان، مع فارق واحد، هو أنّ روح النفاق والتظاهر قد سادت في العالم، وهيمنتْ عليه.

ويقول أرنولد توينبي وهو من أعـلام الفكر الحضاري الغربي أيضـاً متحدّثاً عما ينخر كيان هذه الحضارة القائمة، من عوامل بطيئة خفيّة : تُرى ! ما هي الحادثةُ التي سيقع عليها اختيارُ مؤرِّخي المستقبل، ويرون أنها أبرز الحوادث في عصرنا ؟

أظنّ أنها لن تكون إحدى الحوادث السياسية والاقتصادية المثيرة أو المُفجعة التي تشغل عناوين الصُّحُف، وتحتلّ مكان الصدارة في أذهاننا، ولا الحروب والثورات والمذابح، والمجاعة، وإغراقُ الأسواق بالسّلع، والهبوط الفجائي في الأسعار و و......... ولكنها ستكون من الحوادث التي لا نكاد نشعر بها، والتي يتعذّر علينا أن نجعل منها عنواناً مُثيراً.

إنّما تجذب أنظارنَا مِثْلُ تلك الأحداث، لأنّها تطفو على سطح نهر الحياة وهي تَصْرِفُنا عن النّظر إلى الحركات البطيئة ؛ الحركات التي تصنع التاريخ في النهاية، وهي تبدو بارزة في ضوء الماضي حين تتضاءل الحوادث المُثيرة العابرة، وتظهر في نِسَبِها الصحيحة على مسرح الماضي.

سيقول مؤرخو المستقبل : إن الحادثة الكبرى في القرن العشرين، هي اصطدام الحضارة الغربية بسائر المجتمعات الأخرى القائمة في العالم، وسيقولون عن هذا الصِّدام : إنّه بلغ من القوة والشمول بحيث أدّى إلى قلب ضحاياهُ رأساً على عقب، وبطْناً لظهر، وأثّر بشدة في سلوكهم وآرائهم

ومشاعرهم وعقائدهم رجالاً ونساء وأطفالاً، ومسَّ من أوتار الروح ما لا تمسُّه القوى المادية الخارجية وحدها، مهما بلغت شدّتُها وهولها....»[1].

ولقد أحسّ الغرب نفسه بسآمة التّقيّد بالواقع الماديّ كما هو، والتعرّف على الظواهر كما هي في حياته العملية، فالتمس متنفّساً بالفنّ الذي لا يُقيده بالواقع، ولا بالقيود الموضوعيـة. وابتدعتْ أهواؤهُ ما شاء لها أن تبتدع، وهام خياله في كل واد، فأفرز خليطاً من فتنة الجنس، وقلق الحيرة، وتشاؤم العبث، جاء كالكوابيس التي نراها في المنام بلا معقوليتها ولا منطقيّتها.

ومن هنا فإنّ من سمات حضارة اليوم أنه يسودها معقولُ العلم من جهة، كما يسودها لا معقولُ الفنّ من جهة ثانية، «فجعلت من الإنسان إلهاً، ثم جعلت منه في الوقتِ ذاته حيواناً، ثم جعلته في النهاية عبداً سلبياً خانعاً لا حول له ولا طول بإزاء آلهة المادة والاقتصاد، وآلهة الحتميّات»[2].

وإنّا لنرى في كل حين سننَ الله في الأمم تتكرّر أمامنا، ولكنِ هلْ من معتبر ؟ فوَبَالُ الأعمال السيئة الذي ذاقته الأمم السالفة يَحِيق اليوم بالأمم الغربيّة، كآفات الحروب، ومشكلات الاقتصاد، وتفاقم البطالة، وانتشار الأمراض الحضارية الغَرِبية، وتفكّك الأسرة، وتبدّد النظام العائلي الخ... ﴿ولا يَحيقُ المَكْرُ السيّء إلّا بأهله. فهل ينظرون إلّا سُنَةَ الأولين، فلن تجدَ لسنة الله تبديلاً، ولن تجدَ لسُنّة الله تحويلا﴾. (فاطر : ٤٣).

حضارة الإسلام وحضارة الغرب :

فنحنُ إذا قارنّا بين الحضارتينْ : الإسلامية التي لم يُكتب لها أنْ تعمِّر بكلّ مقوّماتها وعناصرها، وبكل ما يمدُّ فروعَها أُفُقياً ؛ والحضارة الغربية التي تبلغ من العمر نحو ثلاثة عشر قرناً، ولكنّ تناقُضاتها العديدة لا يقبلها منطق سليم ؛ نجد الفروع بينها عميقةً في نقاط عديدة وأَهَمُّهَا :

---

(١) الحضارة في الميزان : ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٢) محمد قطب : جاهلية القرن العشرين : ٢٥٤ (ط. دار الشروق ١٣٩٨ هـ).

١) أنّ الحضارة الإسلاميّة روحيّة ماديّة في اعتدال وتناسق وتمازج عجيب.

وطريقُهـا :

ـ ما نزَل به الوحيُ السّماوي على قلب محمد ﷺ.

ـ ما يتوصّل إليه العقلُ بالبحث العلمي.

ـ ما يكْتسِبُه الإنسان بخبْرته وتجربته وممارستِه التطبيقية.

فهي تحمل في طيّاتها ما هو خالد. وتَعْتَبِر : أنّ حاجة الدين إلى الدُّنيا كي يستقرّ ويمتدّ، كحاجَةِ الرّوح إلى البدن السويّ كي يسمع ويُبصر ويمشي على هذه الأرض، ولكن لا ارتباطَ بين التمكين في الأرض، والخبْط في شهوات الدنيا، أو السرّف في شهوات البدن، أو الميل مع نزعات الهوى والظلم[1].

وحضارة العصر ماديّة تعتبر الدّين مسألة شخصية، لا علاقة لها إلا بضمير الفرد، كما هو مذهب أكثر الغربيين أو تُطرِده من حياة الإنسان، كما هو مذهبُ الشيوعيين،وتعاليمُ السماء لم تَعُدْ نافقةً في سوق العالم.

والمبرَّر عندهم : اتّجاه العصر، ووِجهة التيار، وسير الزمان ؛ وأن الإنسان تنحصر حياته كلُّها في هذه الدنيا، وهدفُه أن يحقِّق رغباته المادية بأكثر ما يكون من الوفرة والجوْدة، والوجهُ الحقيقي لاستعمال القوة، هو أن ينسجم الإنسان مع ما يجري في هذا الكون من قانون (تنازع البقاء) و (الانتخاب الطبيعي) و (بقاء الأصلح). والحضارة التي اتّخذتْها أوروبا كانت تقوم على هذه النظرية التي جسّمها الاستعمار الأوروبي في أفظع أشكاله وألوانه.

ويكاد العالم يتوزّع بين قوّتين : هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي. وكلتاهما تمثّل القوة الماديّة الهائلة التي توصّل إليها الإنسان المعاصر، والتي لها ضغوطُها الشديدة على الشعوب الضعيفة

---

(١) محمد الغزالي : كيف نفهم الإسلام : ٥٢ (ط. مصر).

سياسيّاً واقتصاديّاً وعسكريّاً، وقد تتفق القوّتان على مصالحهما ضدّ بعض المواقف والشعوب.

٢) حضارة الإسلام إنسانيـةُ النّزعـة في جوهرهـا ؛ تقـومُ علـى الشّخصانية والفردية، للتنوّع وللإبداع الذاتي، وليكون كلُّ مؤمن نسيجاً وحده، يختلف باطنياً عن الآخرين، وهذا لا يعني إقامة جدران ضِدَّ الوحدة التي بناها الإسلام في المجتمع، ولكنَّ هذا التنوّع، وهذا الاستقلال، أساسٌ لقيام مجتمع لا يطويه التّشَابُه الأصمّ، والتجريد الميّت، وإنّما تتكامل فيه عناصر الإبداع، ومقوّمات التنوّع، فيغدو كلوحة تتنـاسق فيهـا الألـوان وتتعاطف.

إنّ ما قاله الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه من صفات ذاتية وصدق باطني، وإيمان راسخ ؛ غير ما قاله لعمر رضي الله عنه من قدرة على تحدّي الغُموض، وثبات على الحق، وسعي دائب لبلوغ الهدف ؛ وغير ما قاله لعثمان رضي الله عنه مقدِّراً فيه حياءَه العميق، وحلمَه الذي لا تحدّه حدود ؛ وغير ما قاله لعلي رضي الله عنه عندما يسلِّمُه الرّاية، ويدفعه إلى القتال فارساً مُنافحاً عن دينه، لا تصدّ عزيمتَة جيوشُ الشّرك ؛ وغير ما قاله لأبي ذرّ رضي الله عنه معلناً أنه سيموت وحده، ويُبعث وحده، لأنه نسيج وَحْده... ؛ وغير ما قاله لكثير من أصحابه الكرام، ومهيِّئاً كلاًّ منهم لدوره المنفرد العظيم .

فَحِرصُه ﷺ على تفرّد أصحابه، وإنماءِ الشخصيّة المستقلة لكل منهم بما يميّزها من تجربة باطنية عن غيرها، ليس إلا تطبيقاً عمليّاً لرغبة الإسلام في إقامة حضارته المتوحّدة على فكرة تنوّع النماذج الإنسانية، ورفضه الشديد لأنْ يتحول المجتمع الإسلامي إلى قَطيع من الأغنام....، إلى أرقام متشابهة في معادَلة رياضية.

صحيحٌ أنّ هناك قاسماً مشتركاً أعظَمَ، جاء الإسلام ليجمع عنده مطامحَ المسلمين وتعاطفهم وتكافلهم وآلامهم وآمالهم وأهدافهم المشتركة لكنّ ذلك لم يمنع من إتاحة المجالِ للإنسان الفرد أن يُنمِّي طاقاته الخاصة، وقدراته الذاتية، وتجاربه الشخصية، والإسلامُ في تأكيده على ذلك،

إنّما يريد أن يصبّ ماءه الفرات في محيط الحضارة الواسع، فيزيده غنى وحلاوة وامتلاء[1].

وحضارةُ الغرب إنسانيّةُ النّزعة في مظهرها لا في جوهرها. لأنّ الفرد في المجتمعات الغربية قد تطغى به الأنانية الهدّامة، فيتألّهُ وينسى أنّ بِجَانبه بشراً مثلَه، فيركب رأسه في إشباع رغباته، ولا يهمّه أن يتضرر المجتمع بتصرفاته الحمقاء، إنّه يُرَابِي، ويحْتكر الأُسواق، ويُضَيِّق الخناق على الآخرين ليُثْري، فتغرّه النّعم، ويُغريه التّرف، وتموت فيه رُوح النضال والمبادرة في الخير.

والفردُ في المجتمعات الاشتراكية الشيوعيّة لا يوجد إلا للمجتمع، ليكون لَبِنَة من لَبِنَاتِ بنائه، لأنّ المُهِمّ عندهم في الحياة الإنسانية، أنّ المجتمع هو غاية الإنسان، وليس الفرد إلّا وسيلة لتلك الغاية. فهو نسخة مكرَّرة من المجتمع أو هو مجرد جزء مِنْ كُلٍّ اجتماعي. وهذا قد يَصْدق أيضاً على الحشرات الاجتماعية كالنّحل والنمل.

وأهمُّ اتصالات النّفس هو اتصالها بالله، وهو ما ألْغته الشيوعية.

فالعواملُ الماديّة أساسية لنشأة الحضارة، ولكنْ لا بدّ أنْ تضاف لها عوامل روحية تستحثّ خُطاها، وتُحدّد مَسْراها، وتبعث فيها دوافع التّطلّع والإبداع والإنشاء.

٣) حضارة الإسلام مصدرُها رسالةٌ سماوية، فلمْ تقم على البغي والعدوان، بل على مقاومتهما، وعلى نشر العدل والفضيلة والأمن.

والتاريخ يشهد كيف كان المسلمون ـ وبيدهم السلطة والقوة ـ يحسنون معاملة أهل الكتاب من اليهود والنصارى المتساكنين في دار الإسلام، فقد كان لهم من الحقوق المدنية للمسلمين، وربّما بلغ بعضهم إلى عصور متأخرة شأواً لم يبلغه المسلمون أنفسُهم في سَعَة الثروة، وحسن الرعاية، وحريّة المعتقد عملاً بتوصيات الكتاب والسنة.

(١) عماد الدين خليل : في النقد الإسلامي المعاصر : ٢٩ ـ ٣٠ (ط. بيروت ١٩٧٢).

على حين أنّا نرى اليوم ما تعاني الأقليّات الإسلامية والجاليات والعَمَلَةُ المهاجرون في الأقطار الأجنبية.

وما الحروب الصليبية المتوحّشة التي سالت فيها دماء الأبرياء انهاراً، والاستعمار التوطيني المفروض على الشعوب الإسلامية بقوة الحديد والنار أجيالاً، والصهيونية الباغية التي انتهكت حرمات المسجد الأقصى، وشرّدت شعب فلسطين الأبيّ، وتحدّت العرب والمسلمين والعالم أجمع باغتصابها للأراضي العربية، وانتهاكها لحقوق الإنسان، واعتداءاتها المتلاحقة على مخيمات اللّاجئين الفلسطينيين، وتشتيت شمل المسلمين وتفريق كلمتهم بالمناورات والدسائس، أليس ذلك كلُّه عدواناً مبعثه القوة المادية التي هي إحدى الدَّعائم الأساسية للحضارة الغربية، والحافز الكبير عليها في الأصل ؟

يقول آرناست باركر في كتابه (تراث الإسلام) : (كان تأثير الحروب الصليبية عظيماً في تطوّر فن الحرب عندنا، وإيجاد رابطة جديدة للوحدة الأوروبية، شعوراً منها باتّحاد المصالح المشتركة، وكان يسود المسيحية روحٌ دولي قاعدته العامة : العدوان المشترك على العدوّ (المسلمين)، ولئن لم تكسب المسيحية في هذه الحروب بما يُستطاع قياسه على الخريطة، فقد كسبت أشياء أخرى غير محسوسة لها قيمتُها)[١].

ومازالت منتجات الحضارة الغربية تستنـزف ثروات البلـدان غيـر المصنّعة بمختلف الوسائل والطرق، وتبتلع معاملُها الموادَّ الخام، من المعادن التي ينتجها غيرها، وتستغل شركاتُها ملايين الأطنان من الطاقة البترولية، وترفع أسعار منتوجاتها بلا حساب.

فماذا قدَّموا مقابل ذلك للشعوب النامية التي هي في حاجة إلى المساعدة بالخبرة الفنية، وتطبيق الوسائل العصرية لتوفير الإنتاج، وإحياء الأرض والزيادة في المحصول، رغم الطلبات الملحّة التي قُدّمت لهم في ذلك لتحقيق توازن اقتصادي عالمي أكثر نزاهة وعدلاً ؟

---

(١) آرناست باركر : تراث الإسلام. ج : ١٣٩/١ ـ ١٤٠.

ثم هل وضعوا حدّاً للمجاعة التي أضحت تهدد جزءاً كبيراً من سكان العالم، سِيَما ونحن نحتفل هذا العام بالسنة العالمية للطفولة ؛ والإحصائية الأخيرة للأمم المتحدة أثبتت أن نسبة الأطفال المحرومين من ضروريات الحياة في العالم مرتفعة جداً، تزرع الخوف والذّعر، بينما يزداد إثراء البلدان المصنّعة على حساب المعذّبين في الأرض ؟

إن المعجَبين بمنجزات الحضارة الغربية ومعجزاتها، والمفتونين بها أصبحوا ـ اليوم ـ أكثر من أي وقت مضى ـ يبحثون عن موارد هذه الحضارة، وعوامل نموّها وازدهارها، وعن مدى ما أفادت الإنسانية في غير الاستهلاك اليومي لمنجزاتها الذي هو عملية تجارية، كما أعجب غيرُهم من قبلُ بالجمال الفني في بناء الهرم الأكبر، أو بجمال الجواهر في قبر توت غنج آمون مثلاً، ثمّ نشب في نفوسهم صراع بين شعور الاعتزاز بالانتصارات التي أحرزها الفن الإنساني في عهود سحيقة، وبين شعور الألم والاستنكار للثمن البشري الذي اقتضته هذه الانتصارات، ألا وهو الأعمال الشاقّة التي فُرضت ظلماً وبغياً على الكثير من العُمّال والصُّنّاع لقطف أزهار الحضارة اليانعة، التي كانت وقفاً على طائفة محظوظة تجني ثمار ما لم تزرع ! وقد سَلَب سادةُ الحضارة خلال ما يناهز خمسة آلاف عام من عبيدهِم ثمرات الجهود المشتركة دون جزاء، ولا شفقة أو رحمة، كما يُسلَب الشهد من النحل ؟

إن الشناعة التي ينطوي عليها هذا العمل الجائر من الناحية الإنسانية الأخلاقية ليُفسد الجمال الرائع لهذا العمل الفني، وإنْ بَلَغَ ما بلغ من الجودة والدقّة والإتقان. ومن هنا يصح القول بأن الحضارة الغربية ليست وليدة الرجل الغربي، بل هو صنيعتُها.

٤) والنقطة الرابعة : أنّ الحضارة الإسلامية مفتوحة الحدود، تمتدّ أرجاؤها حتى تشمل بالنفع والإحسان، كلَّ ذي نفس من إنسان وحيوان.

جاء في الحديث الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى شَكَر لرجل رَأى في الفلاة كلباً يلهث من شدّة العطش، فنزل الرجل إلى بئر فيها، فملأ خُفّهُ ماء، ثم خرج فسقى الكلب » فأين هذا من تجنّي الحضارة

الحديثة على الطبيعة وتلويث البحار والمحيطات بما يقضي على الأسماك والحيتان ويمحق ثروة ضخمة سخّرها الله لعباده ؟

وتَفَتُّحُ حدودِ حضارتنا الإسلامية يتمثّل في ثلاثة جوانب :

أ ـ إنّ ضِيق الفكر لا يحدُّ من أبعادها، إذ في ظلها نشأت مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية التي أنشأت تراثاً إسلاميّاً ضخماً. ورغم ما نشب بين أصحابها من خلافات حادّة، فإنها تنتمي كلُّها إلى الإسلام الذي لم يضق عن أي فرقة منها، طالما لم تخرج عن أصولِ عقيدتِه وشريعته ؛ لأنّ حضارته تتسامى عن القومية المتعصِّبة، والعنصرية المقيتة، والاقليمية الضيِّقة، كما نرى هذه الحدود في معظم الحضارات البشرية.

ب ـ أنَّ طاقتها المادية والروحية في عُمق البحث والاكتشاف لا تقف عند حدّ معيّن، وذلك ما جعلها في القمّة لا في السفح ؛ لاستجابة الإسلام إلى ما يطمح إليه الإنسان السويّ.
وإذا حصل فراغ أو نقص في العلوم التجريبية، فمرجعه إلى المسلمين، لا إلى طبيعة الإسلام.

جـ ـ أنَّ شمولَها وعالميتها لا تسمح لها بأن تحتكر العلم، بل تفيد به المسلم وغير المسلم على السواء. وإذا أُطلِق العلمُ في الإسلام، شمل كل ما ينفع الإنسان في آخرته أو دنياه، ولم يُعرف عن علماء الإسلام في أيّ فرع من فروع العلم، أنهم كتموا عن غيرهم ما تعلّموه، عملاً بقوله ﷺ : « من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار ». (رواه ابن حبّان في صحيحه).

فكان بيت الحكمة في بغداد والقيروان، وكانت قرطبة كجامعة مفتوحة للجميع بدون تمييز، يؤمُّها المسلمون والأوروبيّون على السّواء.

ونحن نرى اليوم في البلاد المتقدّمة علميّاً وصناعيّاً مناطق محرّمة من التكنولوجيا الحديثة على أبنائنا الذين تكوّنت لهم بدراستهم في جامعات أوروبا وأمريكا عقولٌ وملكات علميّة بالمعنى الحديث للعلم، ولكن لم يوفّروا

لهم في المخابر والمصانع التجارب التقنية التي تخرجهم من الحدود النظرية المجرّدة، إلى التطبيق العلمي المتجسّم في أجهزة تصنعها التقنية الحديثة، أو تُصلحها إن تعطّلت، أو أصابها عطب. فذلك هو الذي يُبدّل حياة المجتمعات من حال إلى حال.

وإذا تَكَوَّنَ لأحدهم اختصاص ما، أو مهارةٌ في بعض العلوم الحديثة أغرَوه بمختلف وسائل الإغراء، ليبقى، فينتفعوا بخبرته، ويمتصّوا جهوده، رغم احتياج وطنه إليه.

سبيلُنا إلى الحضارة الحقّ :

وخلاصةُ القول : فإنّ سبيل الحضارة الإسلاميّة هو المنهج الذي يتجاوب مع فطرة الإنسان، ويمكّنه من أداء دوره في الحياة، وتفاعُلِه مع عناصر الكون تفاعلاً صحيحاً، دون أن تتحكم فيه المادة، وتستعبده الأهواء، وتنسيَه زينةُ الدّنيا ومتاعُها أنّه ملتزِم مع الله.

وقد حدَّثنا القرآن عن حضارات بلغت درجة رفيعة في الرقيّ الماديّ، ولكنّها عندما أخذت زخرُفَها وازّيّنتْ، وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرُ الله، فصارت حصيداً كأنْ لم تَغْنَ بالأمس، ثم بقيت معالمُها أطلالاً، تنطق بما أصاب أصحابَها من بَوَار ودمار، وتبعث على العِظة والتأسّي، كحضارة سبأ وعادٍ وثمود[1] ؛ لأنّ الحضارة التي لم يشدَّها الإيمانُ والعلم والفضيلة، دمّرها الكفرُ والجهل والرذيلة.

« أوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلِهم كانوا أشدَّ منهم قُوّةً وآثاراً في الأرض، فأخذَهم الله بذنوبهم، وما كان لَهم من الله من وَاقٍ » (غافر : ٢١).

ونظرةٌ مقارِنة بين حضارة الإسلام وحضارةِ الغرب تُرينا ما يجب الوقوف عنده للتَدبّر والتفكّر والاعتبار، وما في ديننا الحنيف من قوة ودفع، ومن كنوز ثمينة مفاتيحها بأيدي حُماته من شبابه وقادته، وما في الحضارة

---

(١) توفيق محمد سبع : قيم حضارية في القرآن الكريم : ج ١٩٣/١. (ط. القاهرة ١٩٧٢).

الغربية من سلبيّات خطيرة، واتجاهات هدّامة شَغَل بها أبناءَنا عن عناصرها الإيجابية في علومها التجريبية والتقنيّة التي تعمّدوا إخفاء نُظمِها عنهم لِخِطّة مرسومة. فهم يُغدقون عليهم بكل سخاء هذا القصص الجنسي المائع، وهذه الأفلام الجديدة الخليعة والعنيفة، وهذا الغناء في الإذاعة المسموعة المرئيّة، وهذه المجلّات والكتب المفتوحة على حانات الخمر ومراقص الليل، وهذه الأشكال المتنافرة في الملابس، والأزياء ؛ ليطبعوا نفوسهم بطابع العصر، ويُلهوهم بزيف حضارته عن حقيقته، وبِقشْرها عن لُبابها، حتى يفلت زمامُ الأمر من أيدي القادة ورجال الإصلاح نهائيّاً بقوّة التيار.

فلنبدأ من الإيمان بتطهير قلوبنا وأعمالِنا من البدَع، والشّرك الخفيّ، وأخلاقنا من الانحلال والفساد، ومُعاملاتنا من المخالفات والمحرَّمات ؛ ثم نسير نحو أهدافنا البعيدة على ضوء مُخطّط مرْحَلي، كي لا تكون تحرّكاتنا هامشية أو عشوائيّة. إنّنا في حاجة إلى تأصّل وتفتُّح نحققهما عَبْرَ مراحل ثلاثة :

١) مرحلةُ التأصُّل، فيها نحاول استيعاب الفكرة الحضارية التي تتمثل في الدّين الإسلامي إيماناً وعلماً.
فيجب كما قال الشيخ الغزالي : (أن تزول الفجوةُ التي بيننا وبين الإسلام، وأن تقف فوراً هذه الحرب الفاجرة على تعاليمه وأشياعه).

٢) مرحلة البعث. وفيها، نتحسّسُ التخلّف، ونستيقظ من سباتنا ونعتزم أن نحيا كأقوى ما تكون الحياة في حركيّتها الدّائبةو نشاطها المتواصل.
فيجب أن نتخلى عن كل ما يكبّلنا ويخدّرنا من مثل :
« هل رأى الحبُّ سُكارى مثلَنا ».

٣) مرحلةُ التّفتُّح، وفيها نعمل بروح نضاليّة على الإفادة من تقنيّات العلم الحديث ؛ فيجب أن نغيّر الواقع بواقع آخر أقوى، ونعمل أكثر ممّا نقول، حتى لا نمْلأ الجو بانفعال الغضب وصيحات الغيظ، ونظنّ أن هذا كفيل بأنْ تنزاح عن أرضنا دبّاباتُ العدوّ، وتختفي من سمائنا طائراتُه. وقدْ نَصِفُ العدوَّ برذائل الأوّلين والآخرين، ولكنّ ذلك لا يغيّر الواقع في شيء.

فنحن على أبواب قرن جديد، القرن الخامس عشر الهجري الذي أعدّت له الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي الترتيبات الخاصّة من برامج عالمية ووطنية ومؤتمرات ومعارض، وما تتطلبه هذه التعبئة الضخمة من جهود ومهارات وتنظيم وتمويل، والذي سَتكُون هذه المنظّمة المجاهدة في الله، المنظّمة العالَمية للشباب الإسلامي التي ستضطلع بدورها الإيجابي في إنجاحه بإذن الله، بحكمة قادتها الهُداة، وإيمان شبابها بأنه لم يُخلَق للانسياق مع التيارات الغربية، بل ليواجهها في صمود وثبات، فليكن واعياً بمسؤوليّاته الجسيمة في هذا العصر الذي تحطّمت فيه الذّرّة، وانشطرت النّواة، واختُرِع القمر الصناعي مخترق الفضاء، والصاروخ عابر المحيطات.

فإنّ الدّعوة إلى مواكبة العصر في علومه وتقنياته بالكلمة في خطاب أو مقال أو قصّة أو قصيدة أو كتاب برغم أهميّتها وضرورتها، أصبحت لا تكفي، إذا لم يَقترِنْ بها الفعل الدّؤوبُ في المخابر والمصانع والجامعات. ولا ينبغي أن يكون الهدفُ الوحيد لمجتمعاتنا الحديثة في الرخاء المادّي والترفيه، والاستمتاع بمرافق الحياة العصريّة، ولا أن تأخذ المعاناة اليوميّة في كفاحنا المعاشي من جهودنا وطاقاتنا أكثر ممّا تستحق، ولا أن نَحْمِل اللّامعين من شبابنا في علوم العصر على الهجرة إلى البلاد الأجنبية حيث المرتّباتُ المغرية، والتشجيع الأدبي، بينما أقطارُ العالم الإسلامي في حاجة مِلحّة إلى تبادل الخبرات والتعاون الاقتصادي والفنّي والتقني ؛ ومكتبتنا العربيّة ما يزال ينقصها الكثير من الكتب والبحوث العلميّة العصرية في نواحي المعرفة التي تزخر بها مكتبات الغرب ؛ والمصطلحات العلميّة في لغتنا ما تزال غير موحّدة، وغير مزوّدة بمفاهيم علميّة كاملة، وغير شاملة لكل متطلّبات العصر، ومقتضيات حضارته المادية مثل المصطلحات الأجنبية العلمية من حيث الدقّة في التعبير والتصوير للمدرك العلمي والتقني.

وإذا كان تعلّمُ اللغات الحية ضرورياً لتعلّم العلوم العصرية وإتقانها وترجمتِها، فإنّ تبدُّلَ اللغة كتبدّل الأثواب المختلفة، لا يكون سبباً في تغيير ملامح العصر.... وقد صَبَّ الفرنسي مثلاً نتاج العصر في لغته الفرنسية، فصار بذلك معاصراً لزمانه، وكذلك فعل الإيطالي والألماني والروسي

والياباني. فلا مُبرِّر إذَنْ لمعارضة بعض المتحذلقين ترجمةَ العلوم العصريّة، ظنّاً منهم بأن هذه العلوم لا يليق بها إلا الثّوْبُ الانجليزي أو الفرنسي أو غيرهما من لغات الأمم المتقدمة. وقد قُبِلت العربيّةُ في المجامع الدولية لغةً خامسة، إلى جانب اللغات الحيّة العظمى، ثم إن الحضارة العلميّة الحديثة تقذف في كل يوم بعشرات المصطلحات الجديدة إلى ساحة التداول، فكيف نلاحق هذه السرعة، ونحن مازلنا بعيدين عن الهدف ؟

إنّه لا يحقُّ لنا الحديث عن وجودنا في عصرنا قبل أن نجِدَ هذا العصر بكل مقوّماته قدنطق بلسان عربيّ، وبقدر ما نسكُب مادّة العصر في إنائنا اللغوي يكون نصيبنا من المعاصرة مع احتفاظنا بأصالتنا. وهذه إحدى الخصائص التي تختفي في كل حالة بدائيّة، وتظهر في كلّ حالة حضاريّة.

فإذا أردنا أن نَبقَى على صلة حضارية مع العالم الغربي، فلا يجوز لنا بحال أن نُسقِط الإسلامَ من اعتبارنا، أو نستخفَّ بما يبدو شكليّاً، ولكنه في الحقيقة أساسيّ لصياغة الرُّوح الإسلاميّة عند المسلم، فلا بدّ من احترام لغتنا وإحيائها، ولا بدّ من احترام التاريخ الهجري، والأعياد والمواسم الإسلامية وتوحيدها لتحقيق معنى التضامن الإسلامي في أتَمِّ صُورِهِ وأشكاله، واعتبار مكّة المكرمة، هي القدوةُ المُثلى، والمركز الرئيسي لما يصدر عن المسلمين من مقرَّرات لإصلاح دينهم ودنياهم. والله سبحانه من وراء القصد.

المراجع

(١) ابن خلدون : المقدمة : ٧٧٧ (ط. بيروت ١٩٦١).
(٢) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر : ٢٠٢ ـ ٢٠٣ (ط. دار الشروق ١٩٧٦).
(٣) المصدر السابق : ٢٠١.
(٤) زكي نجيب محمود تجديد الفكر العربي : ٢٩٤ ـ ٢٩٦ (ط. دار الشروق ١٩٧٣).
(٥) الملتقى السادسي للفكر الإسلامي ١٩٧٢ : ٣٦، ٣٧ (ط. الجزائر).
(٦) تاريخ الفلسفة في الإسلام. (ت) أبو ريدة : ٢٠٤ (ط. القاهرة : ١٩٤٨).
(٧) محمد إقبال : التحديد الديني في التفكير الإسلامي (ت) عباس محمود : ٦١ (ط. مصر ٥٥).
(٨) عبد الرحمن حسن الميداني : أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها : ١٩٠ ــ ١٩١ (الدار العربية للطباعة والنشر).
(٩) زكي نجيب محمود : ثقافتنا في مواجهة العصر : ٢٠٣.
(١٠) ارنولد توينبي : الحضارة في الميزان : (ت) محمود أمين الشريف : ٣٧ (ط. الحلبي القاهرة).
(١١) ع. محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية : ١٦٠ (ط. مصر. ١٩٤٦).
(١٢) الملتقى الثامن للفكر الإسلامي بالجزائر سنة ١٣٩٤ : مج : ١١٦٢/٣ (ط. الجزائر).

(١٣) عثمان الكعاك : ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر سنة ١٣٩٢ مج : ٣٠٧/١ (ط. الجزائر).
(١٤) سليمان حزين : مقومات الحضارة الإسلامية (التوجيه الاجتماعي في الإسلام : ٢٥/١ (مجمع البحوث الإسلامية).
(١٥) محمد خلف الله أحمد : أثر الحضارة الإسلامية في رقي البشرية (التوجيه الاجتماعي في الإسلام : ٤٢/١ (مجمع البحوث الإسلامية).
(١٦) L'Afrique aux trois visages P. Houart : (Bruxelles 1961 : ١٩٦١)
(١٧) مجلة حضارة الإسلام. العدد الثالث لسنة ١٩٦٢.
(١٨) ابن حوقل : المسالك والممالك : ١٠ ـ ١١ (ط. ليدن ١٨٧٢).
(١٩) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ت) أبو ريدة ٢٢.٢١/١ (ط. بيروت ١٩٦٧).
(٢٠) لبيب عبد الستّار : الحضارات : صفحة ٢٨١ وما بعدها (ط. ٢ بيروت).

(٢١) جرترود هارتمان : العالم الذي نعيش فيه : (ت) محمود حامد شوكت : ١١٨ (ط. القاهرة ١٩٤٩).
وانظر : كتاب دراسات في تاريخ العلوم عند العرب : حكمت نجيب عبد الرحمن.
وكتاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقية : حسن حسني عبد الوهاب.
وكتاب : العلوم في الإسلام : حسين نصر.
وكتاب : الفنون الإسلامية : أحمد محمد عيسى.
فان في هذه الكتب من التفاصيل المبينة للحركة العلمية وتاريخ العلوم عند المسلمين ما يكشف عن مدى النهضة التي بلغوها في شتى فروع العلم وعن مدى فضلهم في تقدّم بعض العلوم الحديثة، بما وضعوا لها من أسس ومهدوا لها من سبل.

(٢٢) L'emploi des caractères arabes dans l'orientation chez les peuples chrétiens d'occident (Revue Archéologique 1846).

(٢٣) آرناست باركر : تراث الإسلام (ت) علي أحمد عيسى. ج : ١/٨٣ – ٨٤ (ط. لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٦).

(٢٤) محمد عبد المنعم خفاجي : الإسلام والحضارة الإنسانية : ٢١٥ – ٢١٦ (ط. بيروت ١٩٧٣).

(٢٥) هارتمان : العالم الذي نعيش فيه : ٢٦٩.

(٢٦) أرنولد توينبي : الحضارة في الميزان : ١٨٥.

(٢٧) المصدر السابق : ٧٦ – ٧٨.

(٢٨) أمين محمد عثمان : تراثنا العربي في ضوء العلم الحديث : ١٧٨ (ط. دار الكشاف بيروت).

(٢٩) انظر مجلة الفكر الإسلامي لسنة ١٩٧٦ عدد ٢٧ و ٢٨ – ص ٥٩ – ٦٠.

(٣٠) محمد البهي : عقبات في طريق المجتمعات الإسلامية المعاصرة : ٢٠ (ط. القاهرة ١٩٧٧).

(٣١) محمد مزالي : مجلة الفكر لسنة ١٩٧٩. ع : ٤/٤٦٨ (ط. الشركة التونسية لفنون الرسم).

(٣٢) الحضارة في الميزان : ١٨٨ – ١٨٩.

(٣٣) محمد قطب : جاهلية القرن العشرين : ٢٥٤ (ط. دار الشروق ١٣٩٨ هـ).

(٣٤) محمد الغزالي : كيف نفهم الإسلام : ٥٢ (ط. مصر).

(٣٥) عماد الدين خليل : في النقد الإسلامي المعاصر : ٢٩ – ٣٠ (ط. بيروت ١٩٧٢).

(٣٦) آرناست باركر : تراث الإسلام. ج : ١/١٣٩ – ١٤٠.

(٣٧) توفيق محمد سبع : قيم حضارية في القرآن الكريم. ج/١/١٩٣ (ط. القاهرة ١٩٧٢).

التحدّيات الحضاريّة المعاصرة للأمّة الإسلاميّة

للأستاذ فيصل حسّون
نقيب الصحفيين السابق في العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، ونصلي ونسلم على خاتم المرسلين محمد بن عبد الله، الذي أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وترك للبشرية كتاب الله وسنة رسوله، منهاج حياة كاملاً شاملاً، لن تضل إن اتبعته، ومضت على هديه أبد الدهـر ... وبعـد ،

فليس تعبير « الحضارة » بالمفهوم المتداول حالياً بين بني البشر، لكونه تعبيراً مستحدثاً، دخل لغة العصر عندنا، وعند غيرنا من الأمـم والشعوب، بالرغم من أنه لا يزال حتى الآن تعبيراً مطاطاً يحتمل كثيراً من المعاني بمثل ما يعجز عن الإحاطة بكثير سواها.

وفي لغتنا العربية فهمنا الحضارة على أنها البديل عن البداوة أو نقيضها، وأنها ليست أكثر من انتقال البداة إلى الحواضر، بما يكسبهم ذلك الانتقال من عادات وما يتراكم نتيجة له عندهم من تراث وما يطرأ على حياتهم من تغييرات.

الحضـارة والبـداوة :

وقد تحدث ابن خلدون في مقدمته عن البدو والحضر فقال : « إنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصـار وجـدنا أكثرهم من أهـل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة

والترف الذي في الحضر. وذلك يدل على أن أحوال الحضارة، ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها ».

أما في اللغة الإنكليزية فقد اختلطت التعبيرات ببعضها، فقيل في الحضارة أنها Civilization ثم قيل مرة أخرى أنها Culture مع أن كلمة Culture تعني في الأعم الثقافة، ووصفت الحضارة أحياناً بأنها Progress التي تعني التقدم أكثر مما تعني شيئاً آخر، أي أن تعبير الحضارة ذاته يتسع ليشمل مدلولات ومفاهيم المدنية والثقافة والتقدم معاً.

تعاريف علمية :

ولو حاولنا أن نذكر التعاريف العلمية للحضارة، لما اتسع لنا المجال، ولذلك نكتفي بالإشارة إلى أن أول من حاول تعريف الحضارة تعريفاً علمياً في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، هو الألماني غوستاف كلم Guster Kelmm إذ وصفها بأنها « العادات والمعلومات والمهارات والحياة الخاصة والعامة في السلم والحرب، والدين والعلم والفن، وتتمثل الحضارة في نقل تجارب الماضي للجيل الجديد ». ثم عرف الإنكليزي سير إدورد تيلر Sir Edward Taylor الحضارة والمدنية بأنها ذلك الكم المركب الذي يحتوي على المعلومات والمعتقدات والفنون والقيم والقوانين والتقليد وجميع القابليات والعادات التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع ما. « وعرف روبرت لوي Robert Lowie الحضارة بأنها مجموع ما يحصل عليه الفرد في مجتمعه، أي المعتقدات والتقاليد والنماذج الفنية والعادات المتعلقة بالغذاء والحرف، التي تصل إليه عن طريق فعالياته الإبداعية بل كميراث في الماضي ينقل إليه بالتعليم العفوي أو المنظم ». أما رالف بدنجتن Ralph Piddington فيأتي بتعريف فريد، إذ يرى أن حضارة شعب ما تتكون من « مجموعة الأدوات المادية والفكرية التي يستطيع بها ذلك الشعب إشباع حاجاته الحياتية والاجتماعية وتكييف نفسه لبيئته ». ويعرفها ميلفل هيركوفتس Melvidle Herkovits بأنها « الجزء الذي يخلقه الإنسان من البيئة »، ثم يصفها بأنها « تتعلم وتلقن وذات كيانات متميزة وقابلة للتقسيم إلى أوجه مختلفة ومتغيرة وتتفرع من كل العناصر المكونة لوجود الإنسان ».

وهكذا نخلص إلى أن تعبير الحضارة يمثل الصورة التي عاشها الإنسان ولا يزال مستمسكاً بها أسلوباً حياتياً له، نتيجة ما حقق من التقدم الفكري والثقافي والعمراني والعلمي، وتمازج وتفاعل الطاقات والأفكار والإمكانات وبذلك تبدو الحضارة وكأنها النهج الثابت الذي تسلكه أمة من الأمم في ميادين الحياة كافة، مع ما يتركه هذا النهج على مسيرة البشرية من بصمات وتراث ومعطيات.

حضارتنا والحضارات الأخرى :

والسؤال الذي لا بد أن نطرحه هو :

من أين انبثقت حضارتنا، وما علاقتها بالحضارات الأخرى القائمة سلباً أو إيجاباً ؟، ولا بد من التوضيح بأننا عندما نقول « حضارتنا »، فنحن نعني بالتأكيد « الحضارة العربية الإسلامية »، التي كان يمكن أن تنطمس مع حضارات عاصرتها ثم اندثرت منذ عهد بعيد وضاعت معالمها تحت غبار وقائع التاريخ، أو احتوتها حضارات طغت عليها وطوتها تحت جناحيها.... فما الامتياز الذي انفردت به حضارتنا العربية الإسلامية وجعلها تصمد للتيارات التي تسللت إليها أو تهددت وجودها ؟، بل ما السر الذي كان وراء وقوف حضارتنا شامخة في وجه أعتى التحديات وأعنف الهجمات وأبشع المؤامرات ؟.

امتيـاز ... وسـر :

إنه « الامتياز »، وهو في الوقت نفسه « السر »، اللذان يضعان وجودنا العربي الإسلامي في هذه المرحلة من التاريخ موضع الامتحان والاختبار، بل في مواجهة أخطر معركة وأقسى تصادم مع الحضارات والتيارات العالمية الأخرى.

فمنذ تميزت حضارتنا عن سواها من الحضارات بأنها رسالة « خير أمة أخرجت للناس » حيث ولدت مع قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1]، وبعد أن

---

(١) سورة المائدة آية ٣.

حدد المنهج الإلهي أبعادها في قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب »[1]، وقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين »[2].

منذ تلك اللحظة والإسلام، ديناً ونظاماً اجتماعياً وحضارة، يتعرض لمقاومة حضارية تقودها قوى وعناصر الردة والاستمساك بالقديم والجديد الذي لا يخرج عن إطار وحضارة القديم.

العقيدة المثلى للإنسان :

والإسلام ـ كما يقول عباس محمود العقاد : « هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً ومجتمعاً، وعاملاً لروحه وعاملاً لجسده، وناظراً إلى دنياه، أو ناظراً إلى آخرته، ومسالماً أو محارباً، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته، فلا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة، ولا يكون مسلماً لأنه روح تنكر الجسد أو لأنه جسد ينكر الروح، أو لأنه يصحب إسلامه في حالة ويدعه في حالة أخرى، رهيناً بوساطة بينه وبين السماء يتولاها في المعابد سدنة موكلون بالوساطة بين المخلوق والخالق وبين العابد والمعبود، ولكنه هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه في جميع حالاته وجميع حالاتها، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع. إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة في العقيدة الإسلامية »[3].

شمول العقيدة الإسلامية :

والعقيدة الإسلامية كما يقول سيد قطب : « هي المثال الواحد الذي عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل، إنها العقيدة التي تتسع فتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة، فلا تقتصر مهمتها على حقل دون

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩.

(٢) سورة آل عمران ضاية ٨٥.

(٣) كتاب « الإسلام في القرن العشرين » ص ١٦.

حقل، ولا على اتجاه دون اتجاه، إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، فما لقيصر وقيصر ذاته في العقيدة الإسلامية كله لله، وما لقيصر حق ليس للفرد من رعاياه، وإنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده، أو تتولى شعائره وتهمل شرائعه أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه، وإنها لا تتولاه فرداً وتهمله جماعة ولا تتولاه في حياته الشخصية وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته »[1].

وإذا كان التاريخ قد حدثنا بإسهاب وإطناب عن صراع الحضارات، فإن بواعث هذا الصراع المصيري مردها العقيدة التي تجسدها كل حضارة أو التي تدفع وتوجه وتتمثل كل حضارة، أي أن الحضارة هي صورة العقيدة التي صنعتها، وحين تنحسر حضارة من الحضارات أو تأفل شمسها وتخبو أضواؤها فمعنى ذلك أن العقيدة التي تجسدها تلك الحضارة هي التي انخذلت وذهب ريحها ولم تعد تقوى على الصمود والاستمرار.

العلاقة بين العقيدة والحضارة :

وعلاقة العقيدة بالحضارة علاقة عضوية متينة وعميقة، وهي تؤدي بالنسبة لها وظيفة الروح نحو الجسد، وكما أن جسداً بلا روح يغدو جثة بلا حراك سريعة العطب معرضة للتحلل والزوال، فإن حضارة تنشأ بدون عقيدة متميزة أصيلة، لا بد أن تتلاشى حين تقوم على عقيدة مهزوزة، أو تنبت في مجتمع ليست له « عقيدة » وإنما يكتفي باستعارة ثوب الحضارة المزركش موهماً نفسه بأنه ثوبه، محاولاً التمتع بثمار الحضارة الجنية ـ من تقدم علمي أو ارتفاع في مستوى وأساليب المعيشة، أو انتفاع من مخترعات أو مبتكرات العصر دون استيعاب واستكناه العقيدة التي خلقت ذلك كله وكانت وراء تحقيقه.

عقيدة خالية من التعقيدات :

وصحيح أنه قامت حضارة في بلاد العرب ـ في اليمن وفي وادي الرافدين وعلى شواطئ الخليج وفي وادي النيل ـ قبل بزوغ نور الإسلام،

(١) كتاب « السلام العالمي والإسلام » ص ٨.

لكنها لم تكن حضارة عقيدة متميزة لتصمد وتثبت وتنتشر وتسود، بل سرعان ما تقاذفتها تيارات مطامع الحضارات القائمة يومئذ، فاجتاحتها جيوش الفرس حيناً، وغزاها الأحباش حيناً آخر، وتسلط عليها الروم حيناً ثالثاً، إلّا أنه ما كادت رسالة الإسلام تنطلق بدعوة التوحيد من واد غير ذي زرع، لتقضي على الوثنية وعبادة الأصنام، وما كاد الدين الجديد يرسي قواعد وأسس الحياة الكريمة بنظامها الإلهي الأمثل في ديار العرب تمهيداً لنشر الدعوة إلى الدين والنظام الجديد في أرجاء الأرض كلها، حتى رأينا الحضارات التي تمثلها امبراطوريات وعروش وعقائد، تتراوح بين عبادة النار وعبادة الأوثان، وادعاء الصليبية واصطناع العقائد التلمودية، رأيناها جميعاً تنهار أمام الزحف الإسلامي الجارف الذي اكتسح العالم المتحضر في ذلك الوقت ـ لا بالسيف فقط لأن السيوف التي كانت تحمي تلك الحضارات أكثر وأعز جنداً، وإنما بالعقيدة والإيمان أولاً وقبل كل شيء ـ ليفرض عليه الحضارة العربية الإسلامية، ويقيم النظام الإسلامي المتميز بكونه إلى جانب أنه دين إلهي منزل من لدن بارىء الأكوان، وخالق كل شيء، فهو دين الفطرة والعقل الذي يقول عنه البروفسور مونتيه : « إن الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي Rationalism بأنه طريق تقويم العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق ينطبق عليه تمام الانطباق، وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين : في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه. أما من وجهة نظرنا ـ نحن الذين نحلل عقائدهم تحليلاً لا روح فيه ـ فهي العقيدة في الله والحياة الآخرة، وهذان المبدءان هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة في القرآن. وان بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام، وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من **التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعاً لذلك في متناول إدراك الشخص العادي : أن تمتلك ـ وأنها لتمتلك فعلاً ـ قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى الناس** ».

لماذا انتشر الإسلام سريعاً ؟ :

وفي كتابه « الدعوة إلى الإسلام » « The Preaching of Islam » يقول البروفسور توماس أرنولد Thomas Arnold : « يجب ألا نتلمس الأسباب التي أدت إلى مثل هذا الانتشار السريع للعقيدة الإسلامية في أخبار الجيوش الفاتحة، بل الأجدر أن نفتش عن ذلك في الظروف التي كانت تحيط بالشعوب المغلوبة على أمرها، وقد أمد الخليفة هؤلاء الذين دخلوا حديثاً في الإسلام بما ينبغي أن يمدهم به من علماء يلقنونهم مبادئ الدين. ومن الأمثلة على التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة واستمر في الأجيال المتعاقبة نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح ».

اصبع الله في الفتوحات :

ويضيف أرنولد قائلاً : وقد استطاع ميخائيل الأكبر Michael the Elder، بطريك أنطاكية اليعقوبي، أن يحبذ فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ما قرره إخوانه في الدين، وأن يرى **إصبع الله في الفتوح العربية** حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامي خمسة قرون، وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل : « وهذا هو السبب في أن إله الانتقام ـ الذي تفرد بالقوة والجبروت والذي يدير دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع ـ لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القسوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا ديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم »، ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في فحل كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : « أنتم أحب إلينا من الروم ـ وإن كانوا على ديننا ـ أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا ».

رحمة الإسلام وقسوة الآخرين :

ويمضي أرنولد إلى القول : « ويمثل لنا تاريخ الحروب الصليبية الثانية حادثاً على جانب عظيم من الأهمية، فكان البون شاسعاً بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج المسيحيون من المسلمين، وبين ما عانوه من قسوة أخوانهم المسيحيين الذين فرضوا عليهم السخرة وضربوهم وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل، حتى أن كثيراً منهم دخلوا في دين منقذيهم بمحض إرادتهم ».

وبعد أن رسخت العقيدة الإسلامية وأقامت حضارتها المتميزة انتشر الدين الحنيف على ضفاف نهر الفولغا في أواسط روسيا بفضل البلغار المسلمين الذي حاولوا جذب الروس في القرن العاشر الميلادي لاعتناق العقيدة الجديدة. ويقول البروفسور أرنولد : « أن الأخبار دونت كثيراً من دخول الناس في الإسلام أفواجاً، وقد قيل أن **أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي الذي كان أكثر رقياً**، كما يرجع أيضاً إلى شعور التآخي الذي يشيع في هذا المجتمع والذي كان أكثر تماسكاً وقوة، وكان كل مسلم ساذج أمي، داعية إلى دينه ».

دين دعوة هادية :

ويؤكد أرنولد أن الإسلام « كان منذ بدء ظهوره دين دعوة ـ من الناحية النظرية أو من الناحية التطبيقية ـ وقد كانت حياة محمد ﷺ تمثل هذه التعاليم ذاتها، على أنه ينبغي أن لا نتلمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المضطهد أو تعسف المتعصب، ولا حتى في مآثر المحارب المسلم ـ ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه، وحمل القرآن في اليد الأخرى ـ وإنما نتلمسها في تلك الأعمال الوديعة الهادئة التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض ».

أوروبا مدينة لحضارة الإسلام :

وفي كتابه « قانون التاريخ » Lalai de history يقول جوليفيه كارتلو

Jalivet Cartelot : « كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ عظيماً جرى على أسرع ما يكون، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة، وقامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب، ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم، وقبض العرب بأيديهم، خلال عدة قرون على مشعل النور العقلي، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية، فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين، لا بالمعنى المعروف بل بما أحرزوا في أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة للغاية. وكانت المدنية العربية قصيرة العمر، إلّا أنها باهرة الأثر، وليس لنا إلّا إبداء الأسف على امحلالها، وإن أوروبا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت سرياناً بطيئاً ناقصاً في القرون الوسطى. وإن أوروبا لتتجلى لنا منحطة جاهلة أمام المدنية العربية وأمام العلم العربي والآداب العربية. وقد انقضت أربعة قرون لا حضارة فيها غير الحضارة العربية، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق ».

في ظل الإسلام ازدهرت الثقافة :

وفي كتابه « أصول أوروبا والمدنية الأوروبية » Les Origines de l'Europe (et la Civilisation Européenne) يقول كريستوفر داوسون : « كانت الحضارة العباسية ولسانها العربية ودينها الإسلام، مكملة بمظهرها العقلي للحضارات القديمة التي مثلتها مملكة العباسيين الواسعة. ويصح ذلك على الخصوص بما نشأ من الفلسفة العربية والعلوم العربية اللذين ارتقيا في ذلك العصر، وأثرا تأثيراً عظيماً في أهل القرون الوسطى عامة. ولقد كانت الحركة العلمية في العالم في أكثر من أربعة قرون بأيدي الشعوب الإسلامية. وعن العرب أخذت أوروبا الغربية أصولها العلمية ويرجع العمل العلمي والفلسفي في العالم الإسلامي إلى العرب وإلى الإسلام نفسه ».

ويضيف داوسون قائلاً : « إنا اعتدنا اعتبار مدنيتنا كأنها تألقت من جوهر الحضارة الغربية حتى صعب علينا أن نعتقد بأنه أتى زمن وأهم قطر متحضر في أوروبا الغربية لم يكن سوى ولاية ذات مدنية غريبة عنها، وأن

البحر المتوسط مهد حضارتنا كان مهدداً بأن يصبح بحراً عربياً، وكادت النصرانية في الغرب والإسلام في الشرق يكونان شيئاً واحداً في زمن كانت فيه آسيا الصغرى نصرانية وكانت أسبانيا والبرتغال وصقلية تؤوي حضارة إسلامية زاهرة. هكذا كان الحال في القرن العاشر الميلادي، وقد فعلت هذه الحضارة فعلها في ترقي العالم في القرون الوسطى، فانتشرت الثقافة الغربية في ظل حضارة الإسلام واستطاعت النصرانية في قرونها الوسطى بفضل هذه الحضارة، أن تأخذ طرفاً من التراث العلمي والفلسفة اليونانية، وما كان ذلك قبل القرن الثالث عشر، ولم يتم إلا عقبي الحروب الصليبية وبعد فاجعة المغول الكبرى، حين تمكنت الحضارة النصرانية الغربية من بلوغ مكانة مساوية بعض المساواة للمدنية الإسلامية، وبقيت مع هذا متأثرة بالمؤثرات الشرقية ».

الإسلام دين المستقبل :

هكذا كان الإسلام منطلق الحضارة العربية والإطار الذي رسم معالمها والمعين الذي نهلت ــ وستظل إلى الأبد تنهل ــ منه، وهو بالتالي صاحب الفضل الأول والأكبر على الحضارة الغربية الأوروبية التي انفردت في المرحلة الأخيرة، بزمام التقدم الإنساني واحتكرت ظواهر المدنية والازدهار العلمي والاقتصادي، ولولا الإسلام لما استطاعت البشرية في كل مكان الوصول إلى ما وصلت إليه، وما الزعم بأن العقيدة الإسلامية هي سبب الشعوب والأمم التي تؤمن بها، إلا محض افتراء رخيص وتجديف باطل تدحضه اعترافات كبار مفكري الغرب نفسه ممن لم يأكل الحقد على الإسلام قلوبهم، وممن لم يضع التعصب غشاوة على أبصارهم تعميهم عن رؤية الحقيقة وتجعلهم ينكرون أن الإسلام هو نظام الحياة الأكمل الذي لن تجد البشرية ــ مهما أجهدت أجيالها بالبحث ــ بديلاً عنه أو نظيراً له يحقق للإنسانية الخير ويوفر السعادة ويؤمن الرخاء والاستقرار، حتى أن الكاتب الأيرلندي الشهير برنارد شو لم يتردد ــ بعد أن درس الإسلام دراسة متعمقة ــ عن الجهر بالقول : « **اني أرى في الإسلام دين أوروبا في القرن العشرين** ». بل هو القائل : « أعتقد أن رجلاً كمحمد ــ ﷺ ــ لو تسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه لتم النجاح في حكمه، ولقاده إلى الخير وحل

مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة ». وما أروع ما هتف به غوته أديب الألمان وكاتبهم الكبير متسائلاً : « **إذا كان هذا هو الإسلام، أفلا تكونوا مسلمين ؟** ».

الإسلام والرأسمالية والاشتراكية :

وفي عنفوان الصراع بين الأنظمة الاقتصادية القائمة في هذه الحقبة من عمر الدنيا يرتفع صوت الاقتصادي الفرنسي جاك أوستري Jacques Austray في كتابه « الإسلام في مواجهة النمو الاقتصادي » L'Islam face au développement économique قائلاً : « إن طريق الإنماء الاقتصادي ليس محصوراً في الاقتصادين المعروفين الرأسمالي والاشتراكي، بل **هناك اقتصاد ثالث راجح هو الاقتصاد الإسلامي** الذي يبدو بأنه سيسود عالم المستقبل لأنه أسلوب كامل للحياة يحقق المزايا كافة ويتجنب المساوئ كافة »[1]، ويقول فرانشيسكو جابرييلي كبير المستشرقين الإيطاليين المعاصرين : « ولد الإسلام في منطقة صحراوية من العالم القديم، ولكنه سرعان ما تجاوزها وأصبح عقيدة تشع منها قوة عجيبة أنتجت حضارة تدعو إلى الإعجاب رغم اختلاف البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت فيها ».

نظام للبشر كافة :

والإسلام الذي انبثق نوره في أرض العرب ليبدد دياجير الجهل ويقضي على ضلالات الجاهلية لم تقتصر رسالته على تلك الرقعة في الدنيا، وإنما جاء هدى ورحمة للبشر كافة، ولقد خاطب الله تعالى رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام بقوله : « وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[2]. ولقد حدد سبحانه وتعالى مسلك البشرية بصورة حاسمة ونهائية بقوله : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين »[3]. وعندما بلغ الإسلام هذه المرحلة في

---

(١) طبعة باريس عام ١٩٦١ م.
(٢) سورة سبأ آية ٢٨.
(٣) سورة آل عمران آية ٨٥.

مواجهة عناصر الضلال، حدث ما كان لا بد أن يحدث، إذ تصدت العقائد والحضارات والقوى السياسية والاجتماعية السائدة في العالم يومئذ للدعوة الجديدة بالعداء السافر والمقارنة العنيفة استمساكاً بنهج عتيق أو حرصاً مزعوماً على أباطيل متوارثة « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيأً ولا يهتدون »[1]، خوفاً على مصالح ومكاسب احتكرها أولئك الضالون بغير وجه حق ويخشون أن يجردهم منها النظام والعدل الجديد.

انتصارات تثير الحفائظ :

وبدأ الصراع منذ بدأت الدعوة تهدي الناس إلى الطريق القويم، وانبرى المشركون والوثنيون وحملة لواء اليهودية التلمودية البعيدة عن شرعة موسى عليه السلام والتي ابتدعها اليهود في عهود السبي البابلي، انبرى كل أولئك للإسلام يناصبونه عداء حاقداً خبيثاً مجافياً للمنطق، متجاوزاً حدود الأخلاق والقيم والأعراف، وبالرغم من « ان الدين عند الله الإسلام »[2]، فإن الإسلام لم يعامل الذين أوتوا الكتاب معاملة المشركين بل دعا الله تعالى رسوله ﷺ إلى إقامة حوار معهم بقوله : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[3]، ومع أن الإسلام ميز اليهود والنصارى على عبدة الأوثان وأهل الشرك ومنحهم أفضليات وسوى بينهم وبين المسلمين في كثير من الحقوق ولم يكرههم على ترك دينهم والانخراط في الدين الحنيف فقد أبت اليهودية التلمودية ومن بعدها النصرانية الصليبية إلا أن تتحالفا ـ على فداحة ما كان بينهما ولا يزال من تناقض حاد وخلاف عميق الجذور ـ ضد الإسلام في مواقف كثيرة وفي أزمان متفاوتة، ولقد حاول الإسلام أن يثنيهم عن ذلك المسلك بقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٠.
(٢) سورة آل عمران آية ١٩.
(٣) سورة آل عمران آية ٦٤.

« يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »[1].
إلا أن قوى الشر أمعنت في غيها واستسلمت لنداء الشيطان وازداد سعار حقدها تأريثاً واشتعالاً بارتفاع رايات الإسلام في العالم المتحضر، آنذاك كله والانتصارات التي حققها برغم المكائد والمؤامرات التي حيكت ضده وبرغم الصراع الدامي الذي خاضه المسلمون أفراداً وجيوشاً، حتى دقت طلائع الإسلام أسوار الصين شرقاً ووقفت خيولها على شاطئ بحر الظلمات الذي يسمى الآن بالمحيط الأطلسي غرباً. وكانت أوروبا مجرد مغارة يخيم عليها ظلام الجهالة وتسودها قوانين الغاب البربرية، حين اندفع الإسلام إليها عبر بوابة الأندلس، وراحت الحضارة الجديدة التي ولدت ونمت وازدهرت في ظل النظام الإسلامي تبهر العالم كله بمعطياتها وبهائها، واندمجت الشعوب والأمم التي شرح الله صدور أبنائها للإسلام في كيان الدولة العربية، الإسلامية الكبرى التي امتدت رقعة سلطانها لتشمل العالم المعروف يومئذٍ بأسره. وبدأ أعداء الإسلام الذي أثارت الانتصارات الإسلامية المذهلة حفائظهم يحاولون الانقضاض على الحضارة الإسلامية سواء بالاندساس فيها والعمل على تخريبها من الداخل، كما فعل الشعوبيون أو بالتآمر عليها وممارسة التصادم والغزو معها في خارج الحدود كما فعل الروم والأقوام الوثنية واليهودية التلمودية.

الحروب الصليبية وفضائح النصرانية :

ومن المؤلم أن المسلمين قد استهانوا بالأخطار، وسمحوا للصراعات الداخلية بين قادتهم وطوائفهم أن توهن من كيان الدولة الإسلامية التي فقدت وحدتها على نحو جعل الأعداء يتنمرون ويستأسدون وينقضون على الوطن الإسلامي يقتطعون منه الأجزاء واحداً بعد الآخر، ويستبيحون الأقطار الإسلامية قطراً بعد قطر، محاولين أن يقضوا في النهاية على الإسلام، وهيهات « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »[2]، إذ حتى المغول ـ بقسوتهم ووحشيتهم التي تحدث عنها

---

(١) سورة آل عمران آية ٧١.

(٢) سورة التوبة آية ٣٢.

التاريخ ـ لم يستطيعوا أن يقتلعوا جذور الحضارة الإسلامية، رغم أنهم دمروا حواضر الإسلام وبددوا التراث الحضاري الإسلامي، وفي النهاية تحولوا إلى الدين الحنيف وحملوه إلى ديارهم ليقيموا حياتهم وفق نظامه الأمثل. ومن قبلهم هبت عاصفة الحروب الصليبية التي صورها جوليفه كستلو بأنها « حملت ريحاً من الجنون في أفكار الناس » بدعوى محاولة شعوب أوروبا النصرانية الاستيلاء على القبر المقدس في إيليا إذ كانت الحملة الأولى عام ١٠٩٥م ـ كما يقول كستلو ـ مؤلفة من مائة ألف فرنسي وألماني فنيت في الطريق ولم تصل إلى غير القسطنطينية، ثم مزق الأتراك شملها في آسيا الصغرى والتحقت بها حملة مؤلفة من مليون إنسان فيهم النساء والأولاد والمحاربون منهم ثلاثمائة ألف خلص منهم ثمانون ألفاً إلى القدس ففتحوها، أما سائر الحملات فقد أخفقت، ومع هذا كانت كنوز الشرق تغوي الحملات الأخيرة أكثر مما تستهويهم أوهام الدين. ولكم أن تشبهوا حملات النصارى على الشرق بحملات البرابرة المتوحشين، وإن كانت دعوى انقاذ القبر المقدس المشكوك في أنه قبر المسيح، قد اتخذها الباباوات ثم الملوك، حجة ليحمسوا الشعوب ويجندوا الناس. وكانت هذه الحملات الكبرى شؤماً على أوروبا. وكان من طمع الباباوات ما استغلوا به سذاجة الجماهير، فكلفهم باهظ التكاليف وتجلت في ذلك شهواتهم المفرطة كي يحرزوا الثروة السهلة المأخوذة من غير حلها. وتولت المحنة تكذيب أوهامهم فكان من ذلك أشد المصائب. وبينما كانوا يرجون أن يسقطوا على سعادة وغنى ومجد، لم يشهدوا إلا آلاماً وبؤساً وقد أرخوا العنان لغرائزهم المتوحشة مدفوعين إليها بعامل الفاقة والأمل. **وستظل الحروب الصليبية إحدى فضائح النصرانية السياسية**، ونحن لا نرى فيها ما يعزوه إليها المؤرخون من الفوائد إلا كذباً وبهتاناً عظيماً. إن تبادل الأفكار بين الشرق والغرب قد نتج من الاحتكاك بين عرب أسبانيا والأوروبيين أكثر مما كان من أثر الصدمة البربرية بين جيوش النصرانية والإسلام. وعلى كل حال فإن أوروبا مدينة كثيراً للحضارة العربية والتركية أكثر مما تدين الحضارة العربية للحضارات المنحطة في الغرب بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين ».

لمـاذا ينشغل الغربي بالإســلام :

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد انكمشت نتيجة التحديات التي جابهتها والظروف الصعبة التي مرت بها إثر طرد الصليبيين من ديار الإسلام والامتحان بوحشية ومذابح المغول والتتار والتدهور الذي أصاب الكيانات التي قامت في البلدان الإسلامية وضياع الأندلس والثغور والمواقع المتقدمة في مواجهة أوروبا، حتى وقوع ديار الإسلام تحت سلطات الاستعمار الغربي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، فإن مرحلة التقوقع والتراجع عن أداء الحضارة الإسلامية دورها الرائد في هداية البشر، لم تفقدها وجودها، ولم تجعلها تندثر، شأنها في ذلك شأن حضارات غابرة سبقتها أو عاصرتها ثم انتهت بانتهاء سيطرتها السياسية أو العسكرية. وهنا يكمن سر الحضارة الإسلامية التي تستمد وجودها وخلودها من وجود الإسلام وخلوده. ومن هنا أيضاً تبدأ مرحلة أخرى من مراحل الصراع والتحدي الذي يخوضه الإسلام ضد قوى الشر وجنود الشيطان. فالإسلام ليس دعوة عصر من العصور تنتهي مهمته بانتهاء ذلك العصر، بل هو منهاج حياة ثابت يصلح لكل زمان وكل مكان، وهو بطبيعته متطور يلتقف كل أفانين التطور ولا يجعلها تتجاوزه أو تنجح في محاولتها تصويره بأنه متخلف عنها. وبهذه الصفة فالإسلام يظل قائماً بمهمته، ويظل متربصاً بكل فكر وكل نظام وكل منهج يمكن أن يطلع به مفكر أو تطرحه فئة من الناس أو تدعو إليه جماعة من الجماعات، حتى يظهر عليه ويبرز بمميزاته ومعطياته ومعجزاته في مواجهته، ولذلك نرى « أن الغربي ـ كما يقول عباس محمود العقاد ـ مشغول بأمر الإسلام شغلان من يشعر بيقظته ويترقب ما وراء هذه اليقظة فلا يخرجها من حسابه، وأهم ما يهمه أن يعلم كيف يقف الإسلام غداً من مجاميع الأمم الغربية والشرقية، وكيف يكون مسلكه إذا التحمت المعسكرات ثم افترقت عن هزيمة هذا وانتصار ذلك »[1].

تحذيـر صليبي من صحوتنا :

أما الكاتب الألماني باول شمتز فإنه لا يتحرج من إعلانها صريحة

(١) كتاب « الإسلام في القرن العشرين » ص ١١٨.

إلى حد الوقاحة والصلف في كتابه « الإسلام قوة الغد العالمية » عندما يحذر العالم الأوروبي تحذيراً شديداً من الإسلام، ويحفز الهمم فيه إلى « التكاتف والعمل الجماعي لمواجهة العالم الإسلامي الذي بدأ ـ على حد قول شمتز ـ يصحو وينفض النوم عن عينيه ».

تاريخنا مع الاستعمار الغربي :

ولو رجعنا إلى تاريخنا الحديث مع الاستعمار الغربي، لوجدناه زاخراً بالأمثلة والوقائع التي تؤكد أن المستعمرين لم يستهدفوا في الحقيقة الاستحواذ على خيرات أرضنا والاستمتاع بثروات أقطارنا بمقدار ما استهدفوا ـ وما زالوا يستهدفون ـ القضاء على « عقيدتنا ».

وبعرض سريع لما نستذكره من أحداث على سبيل المثال لا الحصر، نجد أن المحاولات الصليبية تجددت ـ رغم انتهاء الحروب الصليبية في عام ١٢٩١ الميلادي، تحت ألوية وشعارات جديدة في ظاهرها لكنها هي هي في مقاصدها ومطامعها وأهدافها.

وكانت حملة نابليون بونابرت على مصر ثم إنطلاقه منها في سنة ١٧٩٩م جزءاً من الحروب الصليبية التي توقفت معاركها قرابة خمسة قرون لتتجدد أشد نكراً وأخبث مكراً، وأغرب ما أسفرت عنه تلك الحملة ذلك النداء الذي وجهه نابليون إلى يهود العالم كافة يستحثهم فيه على الانضواء تحت رايته لإعادة بناء ما أسماه « مجد إسرائيل الضائع في القدس »، والهدف طبعاً هو التواطؤ الصليبي ـ الصهيوني ضد أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

ولم يكتف الغرب الصليبي باحتضان الحركة الصهيونية التي قادها التلمودي تيودور هيرتزل، وإنما انعقد في لندن مؤتمر لجنة الاستعمار الذي تدارس مستقبل المصالح الإستعمارية وتدارس موقف الإسلام وخطورته على تلك المصالح فيما لو اتحدت شعوبه أو قامت وحدة بين الأقطار العربية، ولذلك أوصى تقرير المؤتمر الذي عرف باسم تقرير كامبل ينرمن وقدم إلى وزارة المستعمرات البريطانية في عام ١٩٠٨ بأن « يقام حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا ويربطهما معه بالبحر

الأبيض بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار عدوة لسكان المنطقة ». وكان هذا كله قبل أن تفكر بريطانيا بمنح اليهودية العالمية الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وقبل أن يصدر وعد بلفور بعقد من السنين. وعندما دخل الجنرال الإنكليزي اللنبي مدينة القدس عام ١٩١٧م قال كلمته التي رددتها من بعده أوروبا كلها والتي لا يجوز أن ينساها مسلم أبد الدهر : « اليوم انتهت الحروب الصليبية ». واختار الإنكليز لتنفيذ سياستهم ومخططاتهم في فلسطين مندوباً سامياً يهودياً هو هربرت صموئيل... أما القائد الفرنسي الجنرال غورو الذي دخل دمشق في عام ١٩٢٠، فقد وقف على قبر البطل الإسلامي صلاح الدين الأيوبي الذي طرد الصليبيين من ديار الإسلام ليقول ـ حاقداً متشفياً وهو يدق بسيفه على بناء القبر ـ « صلاح الدين... نحن هنا ».

جرائم في ديار الإسـلام كلها :

والكلام عما جرى في الجزائر وفي الشمال الأفريقي على أيدي الفرنسيين والإيطاليين وما جرى في مصر والعراق والخليج العربي وجنوبي شبه الجزيرة العربية وفي الهند وإيران وأواسط أفريقيا وفي جنوبي شرقي آسيا على أيدي الإنكليز وفي أندونيسيا على أيدي الهولنديين وفي تركستان وعلى شواطىء بحر قزوين وفي أذربيجان على أيدي الصليبيين من القياصرة ثم الذين رفعوا بعدهم رايات الشيوعية الحمـراء، من محاربـة للإسلام وللـحضارة الإسلامية.. الكلام عن هذا كله يطول ولا ينتهي ويمكن وينبغي أن تكتب عنه المجلدات، بل لا بد أن توضع في مراجعته ومتابعته الدراسات التاريخية وتجري بشأنه الأبحاث العلمية التي ستكشف دون ريب، أي دور مخز مجرم لعبته ـ وما زالت وستظل تلعبه ـ الصليبية الحديثة بالتعاون مع اليهودية التلمودية لتقويض أركان الحضارة الإسلامية وإفساد عقائد وعقول الأجيال المسلمة الجديدة، بمحاولة تهجين الفكر الإسلامي وحرفه عن شرعتـه السمحاء وإشاعة المفاهيم والقيم الصليبية والتلمودية والمانوية والإلحادية لتحل محل العقيدة الإسلامية تحت ستار حرية الفكر أو دعوى محاربة التخلف والانفتاح على المدنية العصرية أو نشر الديموقراطية المشوهة بإقامة أنظمة حكم وفرض تشريعات وقوانين واتباع أساليب حياة ناشزة تتعارض مع

النظام الإسلامي ولا تحقق بالتالي للمسلمين حياة السعادة الروحية والمادية معاً إلى جانب توفير العدل والرخاء والإزدهار.

تسلط على التعليم والفكر :

وقد نشأت ـ في ظل تلك السياسة الخبيثة التي تسلطت على التعليم ومارست نحوه أبشع ألوان الغزو والتشويه الفكري وأشاعت فيه سمومها ـ مدارس وأجيال وأفكار وأحزاب ومنظمات ودعوات إبتعدت كثيراً عن الإسلام، بل كانت مهمتها الأساسية محاربة الإسلام، إلى جانب نشاط الجامعات والبعثات التبشيرية وفعاليات أكثرية من يسمونهم بالمستشرقين... وأوشكت أن تحقق الأغراض الصليبية التلمودية، بعد ما زرعت إسرائيل في قلب الوطن العربي الإسلامي، وبعد أن استقطب الإستعمار ولاء طوائف وعناصر حاقدة على العرب والإسلام ممن عاشوا في ديار الإسلام، واستظلوا بحمى الإسلام ولكنهم قابلوا الجميل بالنكران وكان جزاء الإسلام منهم جزاء سنمار، وأوشكت الحضارة الإسلامية أن تصاب بزلزال مدمر لولا أن رحمة الله قد أدركت المسلمين فبدأ الوعي الإسلامي يحرك هذه الأمة ويوقظها من سباتها، ويرفعها إلى أن تنهض بمسئولية رسالتها، ولم يكن أمام المسلمين، إلّا أن يرفعوا الصوت بالعودة إلى شرعتهم ونظامهم الأمثل والأكمل. وكانت الدعوة إلى الحكم بشرعة الإسلام في منطقة تتوافر لها إمكانات مادية وبشرية ـ وقبل ذلك رسالة إلهية وعقيدة مثالية ـ يمكن أن تحولها إلى قوة عالمية كبرى تستأنف مسيرة الدعوة الإسلامية التي حطمت في بدء انطلاقها عروش كسرى وهرقل والمقوقس، ولا بد أن تضع الأنظمة والقوى المتحكمة في العالم اليوم في موقف حرج ينتهي بها إلى ما انتهت إليه من قبل أنظمة وقوى كانت تسيطر على الدنيا إبان مولد الإسلام.

تحالف ثلاثي غير مقدس :

وهكذا اندفعت الصليبية واليهودية التلمودية والشيوعية في تحالف ثلاثي غير مقدس لإعلان حرب شرسة ولئيمة ضد الإسلام والحضارة الإسلامية، على امتداد جبهات العالم الإسلامي كله. ولو أننا ألقينا نظرة عابرة على ما يحدث في ديار الإسلام من مجابهة تصل إلى حد القتال

الدامي والصراع الذي لا يتعفف عن إزهاق الأرواح وإهدار الأموال فضلاً عن استباحة الضمائر والأفكار والعقول، نجد أن قوى التحالف الثلاثي تعمل بتنسيق وتوافق عجيب، على الرغم من مزاعم التناقض والخلاف التي يفترض أنها تباعد بينها ولا يمكن نظرياً أن تجعلها تجتمع بأي وجه من الوجوه... لكن ما حدث هو أنها اجتمعت ـ وربما لأول مرة ـ صفاً واحداً في مواجهة الإسلام، كيف... ولماذا... وفي سبيل أي شيء ؟!

إن الرد على هذه التساؤلات يمكن أن نعثر عليه، لو أننا حللنا بإيجاز موقف أية قوة من القوى التي يتألف منها هذا الثالوث المعادي للإسلام.

اليهودية والعداء القديم :

فاليهودية التلمودية التي رفعت قبل نيف ومائة عام شعار « الصهيونية »، وبدأت غزوتها لديار الإسلام باغتصاب فلسطين متصدرة القوى والتيارات المحاربة للإسلام، ليست إلا وريثة تلك الطغمة التي ناصبت الدعوة الإسلامية منذ بدء مسيرتها قبل أربعة عشر قرناً أعنف العداء، والتي لا تنسى أنها هزمت في يثرب وفي خيبر ويوم ذهاب ريحها، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « لا يجتمعن في جزيرة العرب دينان » وقد جاءت الآن تريد تصفية حساباتها القديمة مع الدين الإسلامي ولا تخفي أطماعها في العودة إلى المدينة المنورة والولوج إلى قلب الجزيرة العربية، بل طالما تبجحت بصلافة وقحة بأنها تملك ذراعاً طويلة تستطيع الوصول إلى أي مكان من الوطن العربي الإسلامي. ومنذ عهد بعيد كانت « الاسرائيليات » نتاجاً شيطانياً لتشويه الإسلام ومحاولة إقحام ما ليس منه عليه، والعمل على إشاعة الفتنة وبذور الشكوك وزرع الريب والأباطيل لطمس معالم الدعوة وتحقيق الأمل اليهودي القديم بالقضاء عليها وتنفيذ أحكام التلمود التي فصلتها بروتوكولات حكماء صهيون المشهورة.

أحقاد موروثة متجددة :

والصليبية الجديدة وارثة أحقاد تلك الحملات العدوانية السبع التي بدأت في عام ١٠٩٦ الميلادي، ولم تتوقف إلا بعد أن كتب لها الاخفاق والخذلان في عام ١٢٩١ الميلادي... هذه الصليبية التي تعيش وشبح

الانهيار مخيم على أقطارها، بعد أن تزعزعت العقيدة التي قامت عليها حضارتها، وبعد أن تراجعت المسيحية عن طبيعتها الأصيلة، حتى لقد تحولت الكنيسة عن أداء رسالة الدين نحو المجتمع الذي تعيش فيه أو نحو الإنسان الذي ينبغي أن تتولى مسئولية وواجب هدايته وإرشاده لتكتفي بأن تكون مجرد أداة سياسية تحكمها شهوات التسلط وتسيرها مطامع وأهداف الاستعمار متلفعة بدعاوى التبشير ونشر رسالة المسيحية في بلدان متخلفة بالرغم من إدراكها تماماً أن أوروبا قد أفرغت من الإيمان برسالة الدين، وتهاوت فيها القيم وسقطت المفاهيم والنوازع الروحية لتحل محلها مادية بشعة رخيصة تخاطب الغرائز وتثيرها وتأخذ مكانها أفكاراً إلحادية متحللة كان من حصادها هذا التيه الذي انزلقت إليه الحضارة الغربية وما زالت ماضية في انحداره لا يعصمها من ذلك غلاف قشري رقيق من مظاهر التقدم العلمي والتكنولوجي يزيد من عذاب الإنسان الأوروبي في هذه المرحلة التي يعيشها ويعمق من إحساسه بأنه يواجه خواء في فكره وفراغاً في حياته، وضياعاً لا نهاية له في حاضره ومستقبله. ومع أنه كان بوسع الحضارة الغربية أن تخرج من محنتها وتتلمس سبيل خلاصها من الجحيم الأرضي الذي تعانيه وتحسم المشكلات اليومية التي تنشأ وتتضخم باستمرار في مجالات الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، عن طريق اللجوء إلى الإسلام شرعة ونظام حياة ومسلكاً لبناء المجتمع المتحضر السليم العامر بالخير والتعاطف والعدل، باعتبار الإسلام طوق النجاة الوحيد الذي ينقذ البشرية في النهاية من التدهور والانحدار إلى هاوية الانحطاط والانهيار. إلا أن القوى الشريرة الممسكة بأعنة الأمور في المجتمع الغربي والمستغلة لسلبيات حياة هذا المجتمع، أبت إلا أن تركب رأسها وتمضي في غيها وضلالها وتؤرث أحقاداً متراكمة في أعماق بعض النفوس، وكان مؤملاً أن مضيّ سبعمائة عام عليها كفيل بإطفاء جذوتها وإخماد سعارها.. إلا أن الصليبية الجديدة انطلقت في حربها للإسلام ـ حتى بشعارات الصليبية القديمة ـ مع إدراكها أن الإسلام هو البديل الأفضل لها ولأي نظام أو عقيدة أو مسلك حياة مندثر أو معاصر، وهي تريد أن تسد الطريق بوجه هذا البديل لأنها ترى فيه الخطر على وجودها ومصالحها بغباء وجهالة تسقط

معهما من حسابها مستقبل الأجيال التالية ومصالحها الروحية والحضارية. ولم يكن غريباً إذن أن تحزم الصليبية الجديدة أمرها وتخطط للذود عن باطلها بالعودة إلى أسلوب الغزو الفكري والغزو الاقتصادي والغزو السياسي والعسكري تحت لواء الصليب وباتحاد كلمة شعوب وأقوام ودول نبذت أكثريتها المسيحية وأنكرت جهاراً شرعة عيسى عليه السلام لتنادي بديلاً عنها بدعوى العلمانية ولتفسح المجال لنزعات الإلحاد والكفر بكل الأديان، رغم أنها تحارب الإسلام باسم الصليب، وتخوض معاركها ضده سراً وعلانية بأسلحة التبشير أو باقتحام المجتمعات الإسلامية بالبدع وتيارات الانحراف والإفساد وتحطيم الكيانات المسلمة في آسيا وأفريقيا، وليس ما حدث في نيجيريا ـ عندما قتل تفاوه بليوه وأحمد وبللو وأثيرت فتنة دولة بيافرا التي التفت حولها قوى المسيحية الصليبية جمعاء ـ ولا ما حدث في الباكستان ـ عندما مزقت الهندوكية وحدة البنجاب والبنغال بدفع من الصليبية والشيوعية معاً حتى أصبح البلدان يعيشان تمزقاً ومآس ليس لها أول ولا آخر ـ ولا ما حدث في الصومال وأريتريا ـ عندما وقفت الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية جنباً إلى جنب في دعم نظام منغستو هيلا ميريام الصليبي الشيوعي المدعوم من إسرائيل للقضاء على الوجود الإسلامي في أثيوبيا وإقليم أوغادين ـ ليس كل ذلك إلا صفحات ـ كما يقول العسكريون ـ من المعركة المستمرة التي بات من حصادها هذا التسلط العجيب على البلدان الإسلامية، حيث تتحكم الأقلية المسيحية في الأغلبية المسلمة وتتولى سلطة الحكم في نيجيريا وفي كل من السنغال وأثيوبيا وتشاد ولبنان الذي شاءت الصليبية أن تتحدى بمأساته المسلمين في عقر دارهم فجعلته ساحة تراق فيها دماؤهم وتستنزف طاقاتهم ويتهدد وجودهم، والغرب واسرائيل والشيوعية معاً يعملون يداً بيد لإذكاء النيران وإلهاب المواقف وإبقاء سيف الخطر والإرهاب مسلطاً فوق الرؤوس والأعناق.

دور الشيوعية الإلحادي :

أما الشيوعية، هذا النتاج الذي أفرزه تمازج الصليبية واليهودية التلمودية، فإنه السلاح الذي ابتدعه حكماء صهيون ليتولى على المدى البعيد تمهيد الطريق أمام مؤامرة تنفيذ مقرراتهم، وهو في الوقت نفسه الصيغة

الجديدة التي تطرحها الصليبية الكافرة بالقيم الروحية ليؤدي بالنيابة عنها مهمة إشاعة الإلحاد والعودة بالإنسان إلى عبادة المادة والارتهان لها وتحكيمها في تصرفات البشر وسلوكه وحتى في كتابة التاريخ، وقد تبدو الشيوعية لأول وهلة بأنها جاءت لهدم التلمودية والصليبية وغيرهما معاً، فهي إذن جديرة بعدائهما، لأنها ـ كما يدل على ذلك ظاهر الحال ـ لا تلتقي معهما في أي ميدان ولا يمكن أن تمضي معهما في أي طريق. لكن ما حدث ويحدث الآن هو العجب العجاب. فالشيوعية قد ولدت في رحم اليهودية التلمودية وانتشرت في أكثر البلدان اتباعاً لنهج الكنيسة وإذعاناً لنفوذها، وها هي الآن تجتمع مع اليهودية والصليبية صفاً واحداً في خصومة الإسلام، لأن هذا الدين الحنيف والحضارة التي أقامها هما الطود الشامخ الذي تتكسر على جدرانه دعاوى وإرهاصات التيارات الثلاثة وشعاراتها الزائفة عن التسامح والتقدم والعدل الاجتماعي وبناء الإنسان الجديد والحضارة المزدهرة المتميزة، وهكذا نجد الشيوعية تفتح نيرانها على كل مجتمع إسلامي، ناشرة الإلحاد مروجة الأباطيل، دافعة عملاءها للتسلط وانتزاع الحكم باستغلال الحريات وتزييف إرادة وانتهاك حرماته... وقد كان من نتيجة ابتعاد بعض الدول المسلمة ـ أو أغلبيتها ويا للأسف بتعبير أدق ـ عن النهج الإسلامي القويم، أن انفتحت الأبواب أمام الشيوعية لتتسلل وتضرب ضربتها في أقطار كثيرة كالأفغان واليمن الجنوبي والصومال، ولتفسد عقول وعقائد وضمائر كثير من العناصر والفئات التي اضطربت عندها القدرة على التمييز بين الصالح والطالح من الأفكار أو التي انخرطت في العمالة الشيوعية والارتكاس في حمأتها سواء كان ذلك لقاء أجر معلوم أو على سبيل الغواية والتطوع والاختيار. ولأن الإسلام هو وحده النظام الذي يجسد جماع أماني البشر في قيام المجتمع الحر السعيد، ولأنه دين الله الوحيد الخالد على هذه الأرض فكان من الطبيعي أن تجعله الشيوعية أول أعدائها الذين لا تألو جهداً في حربهم وخصومتهم.

أرضية تحالف القوى الثلاث :

وإذا كانت اليهودية التلمودية دائبة على تحقيق المطامع والأغراض التي تتطلع إلى الفوز بها منذ أكثر من أربعة آلاف عام، وهي ترى في

الإسلام الجدار الذي تصطدم به والذي يبدد أحلامها وأساطيرها.

وإذا كانت الحضارة الغربية وهي تعاني الإفلاس وتواجه حالة الاحتضار وتخشى أن ينفسح المجال أمام الإسلام ليصحح مسيرة البشرية بنظامه وسلوكه وأحكامه على أنقاض الصليبية القديمة والجديدة.

وإذا كانت الشيوعية تعيش الآن مرحة الجزر بعدما افتضحت دعاواها وأباطيلها عن الفردوس الشيوعي الذي تحول معه كل بلد ابتلى بهذا الفكر الجهنمي كلياً أم جزئياً إلى سجن كبير يقاسي فيه الإنسان أبشع ألوان خنق الحريات وعذاب القهر وهتك الحرمات وامتهان الحقوق والمقدسات، فأخوف ما تخافه الشيوعية على مستقبلها هو الإسلام باعتباره النظام الذي ينسخ مزاعمها وأكاذيبها عن السعادة والعدل الاجتماعي وحرية الإنسان.

وهكذا نجد أن التحالف بين القوى الثلاث ينطلق من أرضية واحدة، متجهاً بالرغم من ظواهر اختلاف مسلكه نظرياً، إلى هدف واحد.. فكل من اليهودية والصليبية والشيوعية على السواء تمر بظرف مصيري قد ينتهي باندثارها، ولا تجد في الوقت نفسه عدواً تخشى خطره سوى الإسلام الذي تشعر بأنه قوة المستقبل التي لا بد أن تهدي البشرية سواء السبيل، وترد عنها غائلة الحضارات القائمة التي طحنت الإنسان وحولت حياته إلى سلسلة من المتاعب والقلق والضياع ليس أدل على فداحتها من الارتفاع المذهل لأرقام جرائم القتل والانتحار والاغتصاب والسلب وادمان المخدرات وامتلاء المعتقلات والسجون بضحايا الإرهاب السياسي والاجتماعي فضلاً عن تمزق شمل الأسرة وتفشي الفساد الأخلاقي وانعدام روح الحب والمودة والتراحم في قلب الإنسان غير المسلم.

وكان طبيعيا إذن أن يتم التحالف بين القوى الثلاث بالرغم من الاختلافات والتناقضات المظهرية التي بينها، لتتجه جميعاً، وأحياناً كل واحدة من منطلقها الخاص لضرب الإسلام، بوصفه العدو الأهم، والأول والأخطر. أما ما بينها من صراعات فيوظف أيضاً للمهمة ذاتها.

ولو وقفنا قليلاً عند الغزو الفكري الذي تمارسه القوى الثلاث في ديار الإسلام كافة، لرأينا بوضوح أن كلاً من الصليبية والشيوعية واليهودية

تعمل بتوافق مذهل لتحطيم الفكر الإسلامي وزرع السوس في بنية المجتمعات الإسلامية على نحو يحقق لها جميعاً في النهاية لا سمح الله ـ أغراضها ومآربها.

ومع أنه يبدو أن كل قوة تعمل وحدها ولحسابها، إلا أننا ونحن نرى التواطؤ الصليبي ـ اليهودي من جهة، والتواطؤ اليهودي ـ الشيوعي من جهة أخرى، وما حدث منذ الحرب العالمية الثانية ومنذ قيام إسرائيل ومنذ قيام أنظمة حكم في البلدان الإسلامية تتنكر للإسلام وترفع الرايات الحمراء ـ وهي أنظمة هيأت لقيامها وتسلطها أنظمة زرقاء... لا بد أن نكتشف عند تقييم حصيلة ذلك كله أن القوى الثلاث كانت ومازالت ماضية نحو غاية واحدة مهما اختلفت بها السبل ومهما تنوعت الوسائل والأساليب.

الإسلام في مواجهة التحديات :

والآن وقد وصلنا إلى هذه الحقيقة المرة التي وضعت الإسلام والحضارة الإسلامية أمام امتحان مواجهة التحديات الحضارية المعاصرة التي تمثلها هذه الحرب الشرسة والحاسمة التي تتحالف فيها ضدنا الصليبية واليهودية والشيوعية... ما هو موقف المسلمين وما الذي ينبغي أن يفعلوه ؟، هل سيظلون سادرين عن الخطر، غير مقدرين عواقبه الوخيمة فيما لو تركناه يستفحل ويستشري ويتفاقم ؟، وما المنهاج الذي سنتبعه للدفاع عن ديننا وحضارتنا ووجودنا... بعد أن اتضح بما لا يقبل الشك أو الجدل أن أعداءنا الثلاثة عازمون هذه المرة على تصفية الحسابات القديمة والجديدة وخوض المعركة الفاصلة ضدنا، لاعتقادهم بأننا إذا ما اجتزنا هذا الامتحان الصعب، فإن أبواب المستقبل ستفتح للإسلام كما انفتحت في بداية انطلاقته قبل أربعة عشر قرناً، ومن هنا تتجلى جسامة مسئولية المسلم، وتبرز أهمية وخطورة الموقف وما لا بد أن نقوم به في مواجهة ما يراد بنا ولنا على أرضنا وفي كل مكان.

لا يجوز لنا أن نبقى ـ كما كنا حتى الآن ـ مسلمين بالوراثة، نحمد الله على أن منَّ علينا بنعمة الإسلام دون أن ندرك أن الإسلام والحضارة

الإسلامية في خطر وأن مسئوليتنا تجاه ديننا لا تقتصر على أداء شعائر العبادة والصبر على ما تجري به المقادير.

ولا يجوز أن نجلس في حلبة الصراع متفرجين على ما يجري، وكأن الأمر لا يهمنا أو يعنينا...

فالأمر أخطر بكثير مما نتصور، أو مما يتوهم بعضنا أنه مجرد إغراق في التشاؤم أو تخوف في غير محله... والموقف لا يحتمل أن نسكت عليه أو نضيع وقتاً في الحيرة والتردد.

إن أعداء الإسلام يتحركون بسرعة، لأنهم يدركون ـ قبل إدراكنا نحن ـ أن الإسلام بما هيأ الله له من ظروف وإمكانيات وطاقات، بات يهددهم في الصميم الآن أكثر من أي وقت آخر، وهم لذلك حراص على أن يأخذوا زمام المبادرة في حربهم ضده، وقد بدأوا الحرب فعلاً ونقلوها إلى أرضنا وديارنا بل حتى إلى كل بيت من بيوتنا وإلى عقولنا وأدق خصوصيات حياة مجتمعاتنا.

والمسألة ليست مجرد مطامع اقتصادية أو رغبة جشعة في التسلط على خيرات الوطن الإسلامي فقط، ولو كان وراء تحركات القوى الثلاث هذا الدافع الاقتصادي وحده لوجدنا أقطاراً غنية ـ ربما أكثر من غنى بلداننا ـ تتعرض لبعض ما نتعرض له نحن. ففي بلدان كثيرة آبار نفط ومناهج ومعادن وأرض خصبة تخرج أفضل المنتوجات الزراعية وأيد عاملة كثيرة ورخيصة وبحار تفيض بالخيرات... ولكن النيران لا تفتح إلّا علينا، والشرور لا تسلط على سوانا. لأن عندنا عقيدة لا بد أن تقودنا ـ إلى جانب ما أفاء به الله تعالى علينا من نعم وطاقات ـ إلى المضي بالإسلام إلى المركز الأول الذي كان له عند بدء الدعوة، وعندئذ تنهار حضارات وتسقط دعاوى وتتهاوى أباطيل.

معركة تصفية حسابات :

فالحرب المعلنة علينا، هدفها ضرب الإسلام واجتثاث الحضارة الإسلامية من الجذور... وإلى جانب الواجب الديني الذي يحتم علينا أن ندافع عن الإسلام، ونجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، فإن مستقبل حضارتنا

والحرص على وجودنا يحتمان علينا الدفاع عن النفس، بل ان رسالتنا في الحياة وهي رسالة الإسلام ذاته تفرض علينا أن نتصدى للمؤامرات التي تدبر ضد ديننا وضد حضارتنا وضد وجودنا.

ورب قائل يقول، إن الإسلام قد امتحن منذ بدء الدعوة بالأعداء والخصومات وأن ما يجري الآن مجرد حلقة في سلسلة طويلة من المكائد والمحاولات التي لا يبدو أنها ستنتهي، والتي لن تزيد مخاطرها عما عرفنا، وألفناه.

وقد يكون في هذا القول جانب كبير من الصواب قياساً على ما شهدنا من معارك خاضها الإسلام في الماضي... لكن ما نبغي ألا يفوتنا أو نهمل التنبه إليه والحذر منه، هو أن المعركة الراهنة التي تشنها قوى التحالف الثلاث تتجاوز في أهدافها ومراميها كل ما تعرض له الإسلام على مدى أربعة عشر قرناً من حياته، فقد أخذت اليهودية التلمودية والصليبية الجديدة والشيوعية الملحدة على عاتقها مهمة تصفية الحسابات القديمة والجديدة مع الإسلام صفقة واحدة، وقد اقتحمت كل منها ديار الإسلام على شكل من الأشكال :

أولاً : بغزو عسكري استيطاني يقتلع المسلمين من أرضهم ليصادرها ويحل فيها آخرين محلهم.

ثانياً : بغزو فكري عقيدي يزلزل إيمان المرء بربه ودينه وأحكام شريعته وبتركه يواجه ضياعاً وجاهلية لا تختلف عن تلك الجاهلية التي عاشتها الإنسانية قبل الإسلام، إلّا من حيث اختلاف الأزمنة والأمكنة.

ثالثاً : بغزو اقتصادي وسياسي يحرم المسلمين من خيرات ديارهم ويجردهم من الطاقات التي تحقق التقدم الحضاري في ديارهم.

مزاعم ومطاعن وافتراءات :

ولا بد لنا من مواجهة هذه التحديات، بتحديات نثبت بها أصالتنا وجدارتنا بأن نحمل مسئولية الرسالة الإسلامية.

ولعل من فضول القول أن ندعو للعودة إلى جوهر الإسلام، لأن هذه

العودة هي الواجبة والالتزام الإسلاميان، حتى ولو لم تكن هناك حرب أو مخاطر أو تحديات.

لكننا ــ واحسرتاه ــ قد نسينا الواجب وتنكبنا شرعة الله وأوغلنا في العماية حتى بات الإسلام غريباً في دياره، وحتى باتت أحكامه لا تتبع أو تمارس إلّا في القليل النادر، بل لقد عطلت أهم أركانه وفشا التحلل واستباح الكثير من المسلمين المحرمات وربيت أجيال منهم تربية لا صلة لها بالإسلام ولا بفضائله مطلقاً. وقد استقبلنا نحن ذلك كله باستسلام للمزاعم والإفتراءات والمطاعن التي صورت الإسلام بأنه دين تخلف وأن من مقتضيات التمدن والحضارة أن نبتعد عن الدين، حتى أصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر، وحتى بلغت الوقاحة بأعداء الإسلام وبعملائهم والدائرين في فلكهم أو المخدوعين بأباطيلهم، أن يصموا المسلم الملتزم بأحكام الدين، بأنه رجعي أو محافظ، أو على أهون الفروض غير عصري، بالرغم من أن الإسلام هو ــ كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة « دين العقل فما من أمر جاء به إلّا كان موافقاً للعقل يدركه ويصدقه... وأن النظم التي سنها الإسلام لا تزال برونقها وصفائها أعدل من كل ما اهتدى إليه العقل البشري من نظم، سواء أكان ذلك في نظام الحكم، أم في نظام المال، أم في نظام الأسرة... فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يصلح لحكم الإنسانية، وفيه علاج أدوائها »[1].

والإسلام لم يكن متخلفاً أبداً، وهو ليس دين رهبنة وعزوف عن متع ومباهج الحياة والاستمتاع بخيراتها، يقول تعالى: « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »[2]. وإنما الإسلام دين عبادة وحياة معاً، تقترن فيه العبادة بالحياة وتمتزجان فلا يمكن الفصل بينهما، والعبادة فيه هي ممارسة الحياة، والحياة ذاتها عبادة في ممارساتها الخيرة النبيلة الفاضلة... والإسلام متفتح على كل تطور، وهو يتقبل التقدم

(١) كتاب « المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ».
(٢) سورة الأعراف ــ ٣٢.

العلمي والتكنولوجي ويتعامل معه من أي مصدر جاء، لكنه يرفض ما يمكن أن يصاحب ذلك العلم من تدهور في القيم والأخلاقيات والأفكار التي تمسخ إنسانية البشر وتحولها إلى حيوانية وانحلال وضياع. وقد قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً »[1]، ويقول الشيخ محمد عبده : « إن الناس كانوا قبل ظهور الإسلام على قسمين : قسم تقضي عليه تقاليده بالمادية المحضة، فلا همَّ له إلّا الحظوظ الجسدية كاليهود والمشركين، وقسم تحكم عليه تقاليده بالروحانية الخالصة وترك الدنيا وما فيها من اللذات الجسمانية كالنصارى والصابئين وطوائف من وثني الهند أصحاب الرياضات، وأما الأمة الإسلامية فقد جمع الله لها في دينها بين الحقين : حق الروح، وحق الجسد، فهي روحانية جسمانية، وإن شئت قلت : أنه أعطاها جميع الحقول الإنسانية، فإن الإنسان جسم وروح، حيوان وملك، فكأنه قال : جعلناكم أمة وسطاً، تعرفون الحقين وتبلغون الكمالين »[2].

أسلوبان للتصدي للأعداء :

إننا نستطيع، ويجب أن نأخذ من الآخرين كل ما توصلوا إليه من مخترعات وإنجازات وأجهزة علمية وتطوير صناعي دون أن نتخلى عن عقيدتنا وأصالتنا ومنهج حياتنا وحضارتنا، وإنما نوظف هذه المخترعات والإنجازات والأجهزة والتطوير، ونستخدمها في خدمة ديننا وأصالتنا وحضارتنا، أما الحرب المستعرة ضدنا فنحن مدعوون إلى وضع خططنا للقاء ومناجزة أعدائنا فيها بأسلوبين : الأول ـ داخلي، والثاني ـ خارجي، على أن يسير الأسلوبان في خطين متوازيين ومتلازمين.

والأسلوب الداخلي يتمثل في الرجوع إلى جبهتنا الإسلامية الداخلية لتنقية صفوفنا من الثغرات التي فتحها الأعداء فيها والخلاص من عناصر الفساد والإفساد التي تسللت إليها بهدف القيام بدور الرتل الخامس في تخريب الكيانات الإسلامية ونسفها من الداخل، ولا بد ـ لكي تجعل

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣.

(٢) تفسير المنار ـ ج ١ ـ ص ٤ ـ ٥.

مجتمعاتنا الإسلامية قادرة على الصمود لما يراد بها ـ من المبادرة على الفور إلى اتخاذ الخطوات الآتية :

١) العمل بالشريعة الإسلامية في ديار الإسلام كافة، مع الالتزام بأحكام الشريعة على الصعيد الرسمي والشعبي، ثم الجماعي والفردي في وقت واحد، كما نصحح مسيرتنا وننقذ وجودنا وحضارتنا من الاستمرار في الانزلاق في مهاوي الجاهلية التي يدفع بنا إليها الأعداء وقد قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[1].

٢) إعادة النظر في سياسة التعليم ومناهجه في مراحله كافة، بدءاً من رياض الأطفال حتى أعلى المستويات العلمية، وجعل السياسة التعليمية الجديدة نابعة من جوهر الإسلام منسجمة مع أهدافه مجسدة لفضائل لا تشوبها شوائب الزيف والتحريف والتدليس ولا تحيد بأجيالنا المقبلة عن الصراط السوي، وإنما تنشئ المسلمين على الطراز الذي أنشأ به الإسلام أهله، وتفتح أمامهم أبواب الحياة الزاهرة بعيداً عن أوبئة وأدواء الحضارات المعاصرة التي شوهت كل شيء وصورت الإسلام بصور بشعة هو منها براء.

٣) وضع سياسة إعلامية إسلامية موحدة تتولى تنفيذها والالتزام بها أجهزة ووسائل الإعلام في العالم الإسلامي كله، وتكون مهمتها بالنسبة للداخل توعية المسلمين وإفهامهم حقيقة دينهم الذي عمد الأعداء إلى نشر الضباب من حوله وتصويره بأنه عامل تأخر وتعويق عن اللحاق بركب المدنية المعاصرة مع أنه... على العكس من ذلك كله ـ دين تقدم حقيقي ومنهج تطور إلى الأحسن والأفضل والأكرم، أما بالنسبة للخارج فتكون مهمة أجهزة الإعلام الإسلامي تولي مسئولية الدعوة إلى الإسلام ـ لأن الدعوة مستمرة ولا يجوز أن ـ تتوقف أو تتلكأ ـ وبالتالي دحض المفتريات وكشف الأباطيل التي يحاول الأعداء أن يدنسوا بها على الدين الحنيف.

٤) عقد ندوة إسلامية كبرى تضم رجال الفكر والعلم والتقوى من المسلمين كافة مهما كانت مذاهبهم وطوائفهم، للوصول إلى موقف حاسم

---

(١) سورة المائدة آية ٤٤.

ينهي إلى الأبد هذه الخلافات التي ما أنزل الله بها من سلطان ويحول دون استمرار الصراعات الجانبية بين المذاهب والطوائف الإسلامية بالرجوع إلى كتاب الله وأحكامه وسنة نبيه الصادق الأمين ﷺ، لنسد بذلك الطريق أمام الفتن ونحول بين الأعداء وبين إذكاء النيران بين المسلمين أنفسهم، في حين أن الحال يتطلب أن تأتمر بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين »[1]، وقوله تعالى : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة »[2]، وقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[3]، وقوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم. قل إن هدى الله هو الهدى. ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم، مالك من الله من ولي ولا نصير »[4].

٥) إنشاء جامعة للدول الإسلامية تكون مهمتها تحقيق التلاحم بين المسلمين حتى يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه ازر بعض في ساعات الشدة وأيام الرخاء، وحتى يغدو الدفاع عن الإسلام وعن أي بلد إسلامي مسئولية المسلمين جميعاً، فلا نترك الأعداء ينفردون بكل قطر إسلامي على حده، يكيدون له ويعتدون عليه ونحن نتفرج لا حول لنا ولا طول. وإنما يهرع المسلمون للدفاع عن كل ذرة تراب من ديار المسلمين وكأنهم بلد واحد ورجل واحد لنقضي بذلك على الأسلوب الاستعماري المشهور « أسلوب فرق تسد ». وليس الهدف من قيام جامعة الدول الإسلامية أن تكون بديلاً لجامعة الدول العربية، بل هي قطعاً ستكون سنداً لها ونصيراً، ولا بأن تقوم تكتلات إقليمية إسلامية في أرجاء العالم المتفرقة ـ على غرار جامعة الدول العربية ومنظماتها ـ لتتحقق في نهاية المطاف الوحدة المرجوة بين الأقطار العربية والإسلامية.

---

(١) سورة النساء آية ١٤٤.
(٢) سورة النساء آية ٧٤.
(٣) سورة الأنفال آية ٦٠.
(٤) سورة البقرة آية ١٢٠.

٦) إقامة منظمات ثقافية واقتصادية واجتماعية وإعلامية إسلامية تعمل على تحقيق التكامل بين الأقطار الإسلامية لنستطيع التعاون فيما بيننا واستثمار خيراتنا بأيدينا ولمصالحنا ولنواجه القوى العالمية ونحن قوة عزيزة الجانب نتصرف من مركز المنعة والإقتدار لا أن يتحكم بنا الآخرون ونحن ضعاف لا نملك إرادة حرة ولا نستطيع أن نمنع من يريد استغلالنا والتسلط علينا من أن يفعل ذلك.

٧) التعجيل في الدعوة إلى مؤتمر قمة إسلامي يحضره ملوك وأمراء ورؤساء الدول الإسلامية جمعاء، وتكون أولى مهامه إبراز وحدة العالم الإسلامي في مجابهة الأخطار وإعداد الخطط العاجلة والبعيدة المدى لتحقيق التحام المسلمين وبدء التحرك للدفاع عن الإسلام والحضارة الإسلامية، سواء باتخاذ قرارات العودة إلى العمل بالشريعة الإسلامية أو بإعداد مناهج تعليمية وثقافية إسلامية شاملة أو وضع سياسة إعلامية موحدة أو جمع ندوة الفكر الإسلامي لإنهاء خلافات المذاهب أو إنشاء جامعة الدول الإسلامية أو إقامة منظمات ثقافية واقتصادية واجتماعية وإعلامية على امتداد ديار الإسلام.

في الميدان الخارجي :

أما الأسلوب الخارجي فيتمثل في نقل معركة التحدي إلى معاقل الأعداء باتخاذ الخطوات الآتية :

١) تكثيف الجهود في مجالات نشر الدعوة إلى الإسلام على أوسع نطاق، وإنشاء مجلس أعلى للدعوة مخول بأكبر السلطات ومزود بأضخم الإمكانات توضع بتصرفه وسائل الإعلام الناجحة من صحافة وإذاعة ودور نشر وتليفزيون وسينما وغيرها .ويتوسع في إنشاء الصحف والمجلات باللغات العالمية الحية في مدن العالم الكبرى، لإبراز حقيقة الدين الحنيف بوصفه نظاماً حياتياً كاملاً وناجحاً لا بد أن ينقذ البشرية من التردي في الهاوية التي توشك أن تنتهي إليها.

٢) إقامة مؤسسة دولية كبرى في إحدى العواصم الغربية تكون لها فروع في أنحاء العالم كافة ومهمتها العمل على رصد الحركات المناوئة

للإسلام والتصدي لأية محاولة تستهدف الإساءة للدين الحنيف بالنشر أو بث الأراجيف أو إذاعة المفتريات وتوفر لهذه المؤسسة الإمكانات المادية والفكرية الضخمة التي تجعلها قادرة على أداء رسالتها على أكمل وجه، وعندما نعلم أن لدى الأعداء مؤسسات كبرى مماثلة هدفها تشويه صورة الإسلام فلا أقل من أن نقابلهم بمثل السلاح الذي يشهر في وجوهنا.

٣) دعم الحركات والتجمعات الإسلامية في الأقطار والبلدان التي يؤلف فيها المسلمون أقلية مستضعفة أو البلدان التي تسلطت على أغلبيتها الإسلامية أقلية باغية والعمل على إسناد هذه وتلك من الأقليات أو الأغلبيات الإسلامية والدفاع عن حقوقها والحيلولة دون استمرار اضطهادها ومحاربتها في دينها باستخدام الوسائل والأساليب الفعالة وعدم توفير نفوذ وإمكانات الدول الإسلامية في هذا السبيل.

٤) إتخاذ الدول الإسلامية مواقف موحدة وحازمة في تعاملها مع الدول الأخرى سياسياً وثقافياً واقتصادياً حيث تكون أفضلية التعامل وتبادل المنفعة قاصرة على الدول التي تخطب ودنا وتسالم نهجنا، أما الدول التي تختار الوقوف ضدنا وتجاهرنا العداء، فليس لها عندنا إلّا الجفاء والعداء.

٥) إنشاء تجمع إسلامي في المنظمات الدولية ـ كالأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها أو المنظمات الفنية والعلمية والمهنية ـ للدفاع عن مصالح المسلمين وإظهار وحدة كلمة الإسلام في المحافل والمجالات الدولية.

وخلاصة ما تقدم من البحث أن الحضارة الإسلامية التي صمدت على مدى أربعة عشر قرناً بفضل الله تعالي وفضل الإسلام الذي انبثقت عنه وفضل حيويتها وأصالتها إنما تواجه امتحاناً رهيباً وقاسياً بعدما اجتمعت قوى التحالف الثلاثي الذي يجسده تواطؤ الصليبية واليهودية التلمودية والشيوعية، لخوض المعركة الفاصلة مع الإسلام. وكما قال الأستاذ سيد قطب منذ ربع قرن من الزمان فإن « كل دولة مستعمرة سارت على طريقة في مقاومة هذا الدين وخنقه منذ قرون مضت، وما تزال تسير على خطة متعاونة في صميمها تبدو في موقف الأمم الغربية من كل قضية تواجه فيها الإسلام من قريب أو

بعيد... والذين يحسبون أن نفوذ اليهود المالي في الولايات المتحدة وسواها هو الذي يوجه الغربيين هذا التوجيه، والذين يحسبون أن المطامع الإنجليزية والمكر الانكلوسكسوني هو الذي يوجه الموقف، والذين يحسبون أن الصراع بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية هو الذي يؤثر... كل أولئك يغفلون عنصراً حقيقياً في المسألة يضاف إلى هذه العناصر جميعاً هو الروح الصليبية التي تحملها دماء الغربيين والتي تنغرس في عقلهم الباطن، مضافاً إليها الخوف الاستعماري من الروح الإسلامي، والعمل على تحطيم قوة الإسلام، حيث يربط الغربيين جميعاً شعور موحد ومصلحة موحدة في تحطيمها، تجمع بين روسيا الشيوعية وأمريكا الرأسمالية، ولا ننسى دور الصهيونية العالمية في الكيد للإسلام وتجميع القوى ضده في العالم الاستعماري الصليبي والعالم المادي الشيوعي على السواء وهو الدور المستمر الذي قام به اليهود دائماً منذ هجرة الرسول إلى المدينة وقيام دولة الإسلام »[١].

ويبقى على هذا الجيل من شباب الإسلام أن يدركوا جسامة المسئولية وأن يحملوها وينهضوا بعبئها مضيـاً في سبيل إعـلاء كلمة الدين الحنيف وذوداً عن حضارة إسلامية هي عنوان فخر الإنسانية ومصدر عزها وسعادتها وسلامها. ولن يضيرنا أن تتجمع هذه القوى الغاشمة صفاً واحداً في محاربتنا ـ والكفر دوماً ملة واحدة ـ لأننا أصحاب الحق ورواد العدل ودعاة الخير. وقد قال تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[٢]، كما قال تعالى : « ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا، فإن حزب الله هم الغالبون »[٣]، صدق الله العظيم.

---

(١) كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » ص ٢٥٢ ـ ٢٥٦.
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩.
(٣) سورة المائدة آية ٥٦.

الصّراع على تبنّي الحضارة والثقافة الغربيّة في تركيا الإسلاميّة

للأستاذ عثمان أوز ترك

بسم الله الرحمن الرحيم

نعني بكلمة « المستغربة » (أي التي تميل للغرب) تلك الأمم التي تقوم على الحضارة والفلسفة الاغريقية القديمة، ومن ثم فإن « الاستغراب » (أي الميل للغرب) أمر ممكن عقلياً ومنطقياً لكل تلك الأمم التي كانت مستغربة بهذا المعنى فقط. ولكن من الخطأ أن نفكر في استغراب أمة غير غربية. ذلك أن استغراب أمة غير غربية لها أسس حضارية وثقافية مختلفة لا يمكن اعتباره في حقيقة الأمر إلا وقوعاً في حبائل الغزو الثقافي الاستعماري والأجنبي الذي يعتبره كل العاقلين بأنه انتحار لهذه الأمة. ودعنا ننظر في المجرى التاريخي لحركة الاستغراب والميل لأوروبا والتي بدأت أولاً في تركيا ثم انتقلت عدواها إلى الدول الإسلامية الأخرى التي كانت تسيطر عليها القوى الاستعمارية ـ تلك القوى التي سيطرت سيطرة كاملة على تلك الدول بعد القضاء على الخلافة.

وقبل كل شيء ينبغي أن نؤكد أن تركيا، من الناحية التاريخية والثقافية، ليست غربية ولكنها شرقية. ذلك أن الأتراك ظهروا في مختلف مراحل التاريخ في وسط آسيا، كما أنهم في العصور التالية كان لهم تاريخ مشترك مع الأمم الشرقية وليس مع الغرب. وباعتناقها الدين الإسلامي فإن تركيا دولة شرقية باتجاهها خمس مرات في اليوم نحو مكة. إنها ليست أوروبية ولكنها شرقية. وبتاريخها المشترك وروابطها الدينية وثقافتها التي ترتكز على

الدين الإسلامي، فإنها دولة شرقية من الناحيتين النظرية والعملية. وبالنظر إلى أسلوب تفكيرها والعرف السائد فيها وعاداتها وتقاليدها ومعاييرها للقيم، ونظرتها إلى الخير والشر والفضيلة والرذيلة ـ أي بنظراتها الكلية إلى كافة الأمور الدنيوية فإن تركيا والأتراك يعتبرون مستشرقين وليسوا مستغربين ففي حين أن نظرة العالم الغربي ترتكز على المادية فإننا نحن الأتراك المسلمين قد أثبتنا أن نظرتنا أخلاقية. ولقرون عديدة كنا نقيم للزوار مؤسسات لرعايتهم مثل بيوت الفقراء والمطاعم المجانية والمساجد والنافورات والجسور والمدارس. وفي الوقت الذي ينشأ فيه المستغرب في الماضي والحاضر على حب المتع الدنيوية، فإننا كمسلمين نستلهم الإسلام ولم يغب عن ذهننا قط الخوف من الآخرة والتمسك بكل الوسائل بالقيم الأخلاقية وليس بالقيم المادية. لقد كان الكثير من الناس يتناولون طعامهم في مطعم الفاتح مجاناً، ولكن الأوروبي مازال يشعر بأن عليه أن يدفع ثمن أكله في البيت الذي يدعى إليه كضيف. ومن ثم فإن تركيا الإسلامية دولة آسيوية أخلاقية وليست دولة أوروبية مادية.

ونظراً لهذه الخصومة الطبيعية بين الأمم الإسلامية الشرقية والأمم المسيحية الغربية، فإنه من الواضح أن الاستغراب أمر غير منطقي بالنسبة لتركيا مثلما هو بالنسبة للدول الإسلامية الأخرى. ولكن لسوء الحظ اختارت تركيا بِرُعونةٍ كاملة الطريق غير المنطقي، وفي أعقابها تسابقت غيرها من الدول العربية والإسلامية إلى اتباع نفس الطريق المحفوف بالمخاطر.

ويمكن اعتبار القرن الثامن عشر بداية لحركة الاستغراب في تركيا. وفي بداية الأمر لم يكن مخططو الحركة يتحدثون عن الاستغراب والميل إلى أوروبا، نظراً لأن الظروف والأحوال السائدة كانت تحول دون رفع مثل هذا الشعار. وقد أخفى المحركون للاستغراب أهدافهم الحقيقية خلف مقترحات جذابة. وكانت النتيجة أن جيشنا الذي لم يعرف الهزيمة أبداً بدأ يعاني من الهزيمة. وكان السبب هو أن الضباط والجنود لم يكونوا متمرسين على الأساليب العسكرية الحديثة. وكحل لذلك بدأ إحضار ضباط متخصصين من أوروبا لتدريب الضباط في كلياتنا العسكرية. ومن جهة أخرى بدأ إرسال الطلاب إلى أوروبا لدراسة العلوم العسكرية. وبهذا حقق المعجبون بأوروبا

مهمتهم. وكالمريض مرضاً مزمناً يهتم بكافة أنواع النصائح، أخذت الدولة العثمانية، في أكثر فتراتها ضعفاً، بهذا الوصف كمنقذ لحياتها. ومعنى ذلك أن تركيا قد اختارت المجال العسكري (الجيش) كأول هدف في حركة الاتجاه إلى أوروبا. ومن ثم فإن الجيش التركي الحالي كان أول من ابتلعه الاستغراب ونتيجة لذلك بدأ يدير ظهره للدين. ولعل أكثر الأمثلة تحديداً في حركة الاتجاه لأوروبا في المجال العسكري هو قانون « النظام الجديد » الذي صدر عام ١٧٩٣، وبموجب هـذا النظام جاء الضبـاط من فرنسـا وسويسرا. وكان الزي العسكري « لضباط الإسلام المنتصرين » خليطاً من الأزياء العسكرية الفرنسية والانجليزية والروسية. ونتيجة لكل ذلك أخذت حركة الاستغراب تتشكل في المجال العسكري بسرعة هائلة. ومنذ إعلان الجمهورية عام ١٩٢٣ حتى اليوم يتم نقل أهم الأسرار والمواقع العسكرية إلى الغرب من أجل الاستغراب وإظهار أن تركيا دولة أوروبية. على أنه يتعين علينا في نفس الوقت أن نضع في أذهاننا أن الممارسات والأفكار المتعلقة بالاستغراب والاتجاه إلى أوروبا، سواء في المجال العسكري أو في غيره من المجالات الأخرى كانت تختلف في فترة ما قبل إعلان الجمهورية عام ١٩٣٢ عما بعدها. فلقد كان الاستغراب قبل عام ١٩٢٣ يعني إنشاء المؤسسات ذات الصبغة الأوروبية، وتشجيع إدخال الأفكار وأساليب الحياة الأوروبية في المؤسسات العثمانية. ولكن بعد إعلان الجمهوريـة بدأت ممارسات ومفاهيم الاستغراب في مواجهة الإسلام بتحطيم أمجادنا الوطنية وقيمنا الأخلاقية، والنظر باستعلاء إلى أعرافنا وعاداتنا، وبعداء إلى تاريخنا. وقد قتل الكثير من الناس بسبب إدخالهم أسلوب الحياة الغربية بعد صدور قانون عام ١٩٢٥.

ولقد كان الهدف الأكبر لحركة الاستغراب في تركيا قبل عام ١٩٢٣ وبعده هو مجال التعليم العام. فإلى جانب كلية الديانة الإسلامية، أنشئت عام ١٨٤٥ جامعة على الطراز الغربي هي « دار الفنون ». وفي كلية الحقوق التابعة لها بدأ تدريس مواد ليس لها علاقة بنا، مثل القانون الروماني والقانون الفرنسي على أيدي أساتذة غير مسلمين، وذلك باسم الاستغراب. وبعد قيام الجمهورية دعت الدولة أستاذاً سويسرياً يدعى « أ. مالشي » لجعل هذه

الجامعة أكثر ميلاً للغرب. وقد تم قبول التقرير الذي تضمن رأيه في إصلاح الجامعة ووضع موضع التنفيذ. وفي عام ١٩٢٣ أغلقت دار الفنون وكلية الديانة الإسلامية بها، وحلت محلها جامعة اسطنبول بناء على نصيحة الأستاذ « مالشي ». وقد أنشئت كليات هذه الجامعة لسوء الحظ على أيدي أساتذة أجانب، ولم يكن الأساتذة الأتراك يمثلون أكثر من نصف عدد الأساتذة فقط. وقد وصل الجنون بالأفكار الغربية إلى حد أنه حتى عشر سنوات مضت كانت اللغة العربية واللغة الفارسية تدرسان في كلية الآداب بهذه الجامعة على أيدي أساتذة ألمان (ه. ريتر، أ. رايشر). ومن أجل الاستغراب كان المجال مفتوحاً أمام المدارس الانجليزية والفرنسية والألمانية للتدريس بلغاتها وكانت إداراتها غير خاضعة للرقابة التركية. وفي عام ١٩٢٦ تم حذف الدروس الدينية من مقررات كافة المدارس. وبعد عام ١٩٥٠ سمح بتدريسها مرة واحدة في الأسبوع في بعض الفصول الدراسية فقط. وبين عام ١٩٣٠ وعام ١٩٥٠، كانت قراءة القرآن محرمة. وفي عام ١٩٢٨ تم التخلي عن النسخة القرآنية التي ظللنا نستعملها نحو ألف عام، ومن ثم فإن كافة الأعمال المكتوبة قبل هذا التاريخ لم تخاطب الشباب التركي المسلم وبالتالي انقطعت صلته بدينه وتراثه الثقافي. وقد قامت وزارة التعليم بطبع كتب من المؤلفات الاغريقية القديمة مثل أعمال هوميروس وشيكسبير وسرفانتس وذلك باسم الاستغراب.

وبعد عام ١٩٢٣ وفي الكتب المقررة على الشباب التركي تم استبدال التاريخ الغربي وجغرافيته وأدبه بتاريخناوجغرافيتنا وأدبنا، ومن لا يستذكرها يرسب في الامتحان. وقد وصل الاندفاع نحو الاستغراب والميل إلى أوروبا إلى حد أنه في عام ١٩٢٥ أعدت وزارة التعليم كتاباً دراسياً يدعو إلى هجر الموسيقى الشرقية. وقد رفض مجلس التعليم الذي انعقد في ١٥ يناير ١٩٤٣ إعادة تنظيم الأخلاقيات الوطنية وانحصرت أهدافه في تربية الشباب التركي ليكونوا رجالاً تربوا على أخلاقيات الأمم الغربية غير الإسلامية والمعادية للوطنية. ومن المرحلة الابتدائية حتى المستوى الجامعي كان الطلبة ذكوراً واناثاً، يضطرون للدراسة معاً. وقد كان ذلك انعكاساً آخر للاستغراب بعد قيام الجمهورية. ونتيجة لحركة الاستغراب وخاصة بعد قيام الجمهورية ظهر

التعليم الوطني التركي معادياً للوطنية. وقد أدى ذلك إلى ظهور جيل جاهل بدينه وبتراثه وليست له ثقافة أو شخصية قائمة بذاتها. ونتيجة لذلك صارت هذه الجامعات مكاناً خصباً لتفريخ الفوضويين الذين كانوا يملأون الشوارع ويحرمون المجتمع التركي من الأمن على حياته وممتلكاته. ولما كان التعليم هو روح الأمة وعقلها فان الأزمات والفوضى في التعليم قد بذرت في كل رجالنا على مختلف المستويات والطبقات في المجتمع بذور الأزمات والفوضى. وطبقاً لفكرة الحضارة فانها كل لا يتجزأ. ومن ثم فإنه كان من اللازم الأخذ بكل أساليب الحضارة الغربية. وعندما تم استدراج الأتراك المسلمين الذين لم يكونوا غربيين مطلقاً إلى حظيرة الاستغراب نشأ وضع غريب أدى إلى استغراب تركيا التي فقدت طريقها ومرشدها. وعلى الرغم من أنه لم يكن أمراً طيباً، إلا أنه لو تم استغراب تركيا بالكامل لكانت في وضع أفضل مما هي عليه الآن[1]. فقد كان من الممكن على الأقل حل مشكلات الطرق والمياه والكهرباء. ان الذين يحولون تركيا في اتجاه الغرب يعرفون جيداً أنه حتى الطرق الريفية في أية دولة غربية أفضل بكثير من أي طريق في مدينة استطنبول. إن إسرائيل تحول مياه البحر بالتقطير إلى مياه صالحة للشرب. أما تركيا التي تدعي أنها غربية فإنها لا تستطيع الاستفادة بالكامل من مياهها الكثيرة ذات النوعية الجيدة والموجودة بكثرة في آبارها، وتعاني من الجفاف ولا تستطيع الاستفادة من أنهارها. وإنه من الصعب أن نجد تياراً كهربائياً غير منقطع ليس فقط في القرى وإنما أيضاً في المدن بل حتى في المدن الكبيرة مثل اسطنبول وأنقرة.

وفيما يلي بعض مظاهر تركيا المستغربة :

* تسيطر المادية الغربية على كل القطاعات. وقد وصل الإلحاد المادي إلى حد أنه حتى الخدمات الدينية لا يتم أداؤها دون إغراء مادي.

---

(١) هذا مجرد افتراض عقلي، وقد يكون الافتراض صحيحاً كذلك (أي أن تكون تركيا قد وصلت إلى حضيض أسوأ مما وصلت إليه في ظل التغريب الجزئي).. ذلك لأن قوانين التاريخ ومسيرة الحضارات لم تكتب حالة واحدة لأمة مقلدة نجحت في الوصول، من خلال التقليد والذوبان، إلى مستوى الإبداع الحضاري.

* كافة أشكال المظاهر الغربية من ملابس وأطعمة وشراب ومتعة واحتفالات يعتبر اتباعها أمراً ضرورياً.
* في سنة ١٩٢٥ وباسم الاستغراب تم إغلاق مساكن الدراويش (التكية)، والتي كانت تعتبر من بقايا مؤسسات الانقطاع لعبادة الله، وحلت محلها الحانات والنوادي الليلية « وصالات » الرقص وغيرها من أماكن الرذيلة وذلك بأعداد كبيرة غطت كل أرجاء البلاد.
* لم تتم حماية صناعاتنا الوطنية بل تم فتح الأبواب لكل أنواع المنتجات الصناعية الغربية.
* تركت الموارد والثروات التجارية للشركات الأجنبية.
* بدأت القيم الاجتماعية في الانحدار، وأخذ المال والشهرة والمنصب تستحوذ على الاحترام وليست الفضيلة والقيم والأخلاق.
* ظهر جيل جديد لا يعرف شيئاً عن قيمه الدينية والوطنية والتاريخية، بل يعرف الكثير عن الممثلات والمغنيات والراقصات الغربيات.
* أصبحت الأغلبية التي لا تملك عقلاً والتي تربط خلاصها بالغرب هي سيدة الكلمة في البلاد.

ويمكن إيراد الكثير من هذه الأمثلة التي تبين أن تركيا قد سقطت بالفعل في أحضان الاستعمار والثقافة الغربية. وللأسف ليس هناك أية محاولة جادة وحقيقية للتخلص من ذلك. بل على العكس يزداد كل يوم اختناقنا بالأفعى الغربية.

إنه يتعين على أمة الإسلام أن تأخذ حذرها من الدور الذي لعبته حركة الاستغراب في تركيا. ويجب أن يكون معلوماً أولاً أن « الكفر ملة واحدة »، وأن المسيحيين أو اليهود لا يمكن أبداً أن يكونوا أصدقاء لنا إلا إذا قبلنا دينهم، إن واجب المسلمين هو أن يعملوا على كسب رضا الله وليس أوروبا أو أمريكا. كما أن عليهم أن يتبعوا طريق الحق وهو طريق الله وليس طريق الغرب.

إن خلاص الدول الإسلامية يكمن في الاتجاه إلى الإسلام وليس في الميل إلى الغرب.

ثورة الجنس في عالمنا المعاصر

« نظرات طبيب مسلم »

للدكتور حسان حتحوت

أستاذ الولادة وأمراض النساء - جامعة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

عالمنا يتقارب بعضه من بعض بانتشار الكلمة المسموعة أو المطبوعة والصورة المرئية المتحركة أو الثابتة ووفرة المواصلات التي تحمل الناس بأسرع مما يسري الصوت في الهواء. ولم يعد أحد يطمح أن يعيش بمعزل عما يدور في أرجاء هذا العالم، وأصبح نتاج هذه المدنية يخترق الحدود والحواجز في سهولة ويسر، سواء أكان هذا النتاج مادياً أم كان فكرياً.

لهذا أحببنا أن ليكوّن شبابنا المسلم على بينة مما يدور حوله، وعلى ما يكتنف العالم من تيارات، وعلى حقائق العصر ليكون فيها رأيه الإسلامي على بصيرة وفي ثقة، وحتى لا يجرفه الإعلام أو الاعلان أو الأعراف الباطلة إلى ما لا يرضاه له ربه، سواء ارتحل شبابنا في أرجاء الأرض واختلط بمن فيها وما فيها، أم ظل في داره، فقرعت بابه الأفكار والمذاهب والفلسفات.

ولعل من أكبر ما يميز عصرنا الحاضر هو تلك المراجعة الجذرية الشاملة للقيم الجنسية التي كانت مستقرة منذ قرون ومعبرة حتى عقد أو عقدين من الزمان، وركوبها موجة السرعة المذهلة للتقدم التقني والعلمي التي هزت نفس الإنسان هزة خلخلت ما بينه وبين القيم التي كان يستهدي بها،

فكأنها زلزال لا يبقى إلا أنقاضاً ويجعل المجال خالياً لإتمام بنيان جديد على نمط جديد ومفاهيم جديدة.

ونود أن نطوف في إيجاز غير مخل بطائفة من الموضوعات المحددة التي تشكل سمات واضحة على وجه الثورة الجنسية المعاصرة..

(١) الفلسفة الإباحية :

ليست فلسفة الإباحة الجنسية جديدة على التاريخ الإنساني ولكنها بالتأكيد جديدة على الحقبة الحاضرة منه. وقد تتالت على التاريخ كالموجات ترتفع ثم تنخفض، وطالما كانت سبباً في انهيار حضارات قامت قوية ثم استقرت ثم دخل إليها الوهن من هذا الباب كما تدخل جراثيم المرض الجسم من مدخل ما، وتبقى فيه فترة لا تظهر فيها عليه أعراض مرضية وهي ما تعرف في علم الطب بفترة الحضانة، فإذا تمكنت واستحكمت وانتشرت عجلت بالانهيار وأفضت إلى النهاية.

حدث ذلك للامبراطورية الرومانية، وحدث في سادوم وعامورة، وشهدنا نموذجاً مصغراً له في فرنسا بين الحربين العالميتين، كما اعترف مارشالها بيتان وهو يستسلم للألمان. وجرثومته بالتأكيد ناشطة في جسم حضارتنا المعاصرة التي تعرف بالحضارة الغربية، وإن كانت بعد كامنة لم تفض إلى نتائجها البعيدة المدى بعد..

نشأت فيما بين الحربين العالميتين فلسفة ذات ذراعين مدتهما إلى العالم، شرقه وغربه، ولن يعجزكم بعد أن أصفهما أن تعرفوا لمن الذراعان، ومن الرأس المدبر.

الأولى تنكر الله تماماً. وتعزو خلق الكون إلى حتمية الصدفة المادية المتطورة.. وترى أن الدين اختراع بشري ابتكرته سلسلة من المصلحين الاجتماعيين هم الأنبياء والمرسلون، وأن الآخرة هي بديل لمصرف وهمي وعدوا الناس أن يكافئوهم منه بعد الموت لقاء طاعتهم لهم.. وأن الدين بذلك أفيون الشعوب. وانتشرت هذه الفلسفة مستغلة العمى الروحي آناً، والعنف والقهر آناً آخر، حتى أصبحت تبسط رواقها على أكثر من ثلث سكان عالمنا المعاصر، وهي الفلسفة المادية الشيوعية. أما الذراع الأخرى

فامتدت في صورة غزو فكري إلى العالم الغربي المسيحي.. انبثقت عنه الفلسفة المسماة بالفضيلة الجديدة New Morality استغلت هذه الحركة التقدمات العلمية الهائلة التي أنجزها العقل البشري خلال القرن الأخير، وانبهار الناس بما تفتق عنه عقل الإنسان من مخترعات ومكتشفات : فدعت إلى تحكيم هذا العقل في كل أمور الحياة الإنسانية والنزول على رأيه والاهتداء به وحده. وكان مما عرضته على العقل كذلك كل التراث الأخلاقي سواء ارتكز على العرف أو على الدين.. يدخل ضمن ذلك العلاقات الجنسية.

كانت الدعوى أن ما وافق العقل فهو نافذ، وما خالفه فهو باطل. وفاتهم أن العقل ذاته أداة ناقصة، فلو سلمنا للعقل بالكمال لكان علينا أن نغلق المختبرات ونوقف الأبحاث، بل إن كل كشف جديد اعتراف بنقص عقلنا قبل أن نكشفه، وسعينا وراء الجديد اعتراف منا بالمدى الذي مازال العقل يجهله وما أكثره. والحق أنه كلما ازداد العلم تقدماً ازداد إدراكاً بمدى ما يجهله. العقل إذن ناقص لا يقدر أن يصدر الأحكام المطلقة، فضلاً عن أن العقل قابل للإيحاء وهذه من صفات الإنسان، يغالبه الهوى وتلح عليه النزوة ويلاحقه الإلحاح فيلين رويداً رويداً، ويميل خطوة خطوة، فإن ما كان بالأمس خطأ يصبح اليوم مقبولاً ويصبح في غد ممدوحاً : وإن ما كان بالأمس رذيلة يصبح في غد فضيلة.. وهكذا صار في قضية الجنس. بتحكيم العقل أحلت هديه محل الهدي الإلهي.. فاتبع الإنسان هواه وكان أمراً فرطاً. وإذا الفضيلة الجديدة هي الرذيلة القديمة. وألفت كتب مثل كتاب « فضيلة بلا دين » تحض على معرفة الشر والخير لا ديناً ولكن بما تسببه من نفع وضر. ووجدت من يؤيدها من فلاسفة مثل برتراند راسل الذي دعا لحرية الجنس بين الطلاب والطالبات في الجامعات، ومن رجال كهنوت مثل الأسقف الأحمر في انجلترا الذي ادعى أنه إذا ضاجع الشاب فتاة في محبة وبغير قهر كان ذلك مبرة.

وأساتذة علم نفس يحذرون من العواقب الوخيمة من جراء الكبت الجنسي لدى الشباب المتمسكين بالعفة.. ومن رجال تشريع أخذوا يعبثون بالقوانين حتى لم يعد اللواط جريمة يعاقب عليها القانون.. ومن مؤلفين

ومخرجين ومنتجين وسينمائيين وصحافيين وعلماء اجتماع مازالوا بأممهم حتى تغير مناخ القيم الأخلاقية تماماً.

وكم آلمني أن أقرأ أن لجنة من مجلس الكنائس البريطاني : في تقرير لها عن الجنس والفضيلة تقول : « أنها ضد الاستغلال الجنسي وأنها تبارك الصلة الجنسية في الزواج ولكنها ترفض الرأي الداعي إلى العفة قبل الزواج.. أو الالتزام بعده، وترفض رأي الإنجيل ضد الزنى الذي تراه مسموحاً في بعض الأحوال، إن شكل امتزاجاً شاملاً بين بالغين راضيين ». (مجلة تايم ٢٨ أكتوبر ١٩٦٦ ص ٣٨).. ويدعو التقرير إلى تهيئة وسائل منع الحمل للفتيات غير المتزوجات، وإلى مزيد من التراخي في تشريعات الإجهاض. وفي موجة الحرية والمساواة دعوا إلى مساواة المرأة بالرجل في حرية الجنس بدلاً من دعوة الجنسين إلى مراعاة العفة.

ولا نرانا في حاجة لبيان رأي الإسلام في هذا الموضوع فهو أعرف من أن يعرف، ونحمد الله على أن الإسلام تكفّل منزله سبحانه وتعالى بحفظه وحفظ كتابه فلم تمتد إليه يد بهذا العبث. ولكن على الشباب المسلم في المقام واجبين :

الواجب الأول أن يحكم صلته بربه، ويوثق قبضته على دينه، فإن تعرضه لوسائل الإغراء الفائقة التي أتقنتها الرذيلة وتأنقت فيها لم يطش صوابه أو يزايله إيمانه أو تعصف الفتنة بثباته على طاعة ربه.

والواجب الثاني أن يدعو القوم إلى سبيل الرشاد ولو استمد الحجة من منطقهم ما داموا لا يؤمنون بقرآننا، ولم يعودوا يؤمنون بإنجيلهم. وهنا نأخذ عليهم السبيل بما يرفعون به أصواتهم من دعوى العدالة والمساواة بين الناس رجالاً ونساء. ونقول لهم بمنطقهم إن أية علاقة بين اثنين لا تتوزع نتائجها على الاثنين بالتساوي فهي علاقة نابية عن العدل. ونظرة إلى العلاقة الإباحية التي صارت عرفاً متبعاً في الغرب والتي تبيح المعاشرة بغير رباط الزواج ومسئولياته، نظرة إلى النتائج ترينا أن المردود غير موزع بالتساوي. فالمرأة دائماً هي الخاسرة.. إن عوشرت ثم هُجرت فهي الخاسرة... وإن حملت سفاحاً فهي الخاسرة، فإن لجأت إلى الاجهاض فهي الخاسرة، فإن

وضعت وتنازلت عن وليدها فهي الخاسرة، وإن احتفظت به ولداً بلا والد فهي الخاسرة.

ووراء القشرة البراقة التي تشبه الطُّعم الذي يُستعمل في الوقيعة بالفريسة، يغص المجتمع الغربي بالحقيقة المرة والمضاعفات الكريهة والضحايا من النساء والولدان، وأعلم ذلك علماً مباشراً فأنا طبيب لأمراض النساء وعملت في بريطانيا وفي أمريكا وأبصرت شناعة ما يحيق بالمرأة وأقنعت زملائي وأساتذتي الغارقين في الدهشة والخجل والتسليم أن مجتمعهم قد ظلم المرأة.

* * *

(٢) منــع الحمــل :

في رأي الكثيرين من علماء الاجتماع أن عصرنا الحالي سيتسم في التاريخ بأنه عصر حبوب منع الحمل أكثر من كونه عصر تحطيم الذرة. فلأول مرة يمكن التحكم في الخصوبة البشرية بصفة فعالة وبوسائل ميسورة يسراً يجعلها في متنـاول من يريـد. وقد هلل الكثيرون من هـل الدراسات السكانية والاقتصادية لمجيء هذا الإنجاز في الوقت الذي بدأ فيه أن خطر الانفجار السكاني يوشك في رأيهم أن يهدد الحياة البشرية على الأرض. ويتوقعون أنه إذا استمر معدل الزيادة في السكان على ما هو عليه فستصل الأرض في حياة كثير منا إلى مرحلة التشبع، فلا يعود ما فيها من رزق يكفي من فيها من السكان.

على أن مسألة التحكم في الإنجاب هذه تعنيني أنا من وجه آخر أود أن أورده قبل أن أتعرض للتعقيب عل الرأي الاجتماعي العام الذي أسلفته. وأعني بذلك ما يختص بعملي طبيباً متخصصاً في أمراض النساء والولادة، ومما لا شك فيه أن الكشوف الجديدة أصبحت عوناً لنا فى كثير من المواقف. فقد تصاب السيدة بمرض من الأمراض التي تتفاقم مع الحمل فتهدد حياتها أو كيانها، وقد تجتاز فترة من الزمن.. ومن الناحية الاجتماعية قد يحجم الشباب عن الزواج لأنه لا يستطيع الباءة، وهي القدرة على تكاليف الزواج كما ورد في حديث رسول الله ـ ﷺ ـ : « يا معشر

الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له، وجاء » « صحيح مسلم ». وفي وجود طريقة للتحكم في الإنجاب ربما يتشجع الكثيرون على عدم تأجيل الزواج انتظاراً للدخل الأوفر.

وفي مجال عملي وجب عليَّ أن أنظر في هذا الأمر نظرة المسلم ونظرة الطبيب، لأن الطبيب المسلم يمتاز عن غيره من الأطباء بأنه محكوم بإسلامه.

ودلني النظر في هذا الأمر إلى أن منع الحمل، ككثير غيره من الأمور، لا يحكم له أو عليه حكماً عينياً بالحل أو الحرمة. حكماً عابراً.. بل أعتقد أن العبرة بالتطبيق. الذين يقولون بالحل يتمثلون بإجابة الرسول عليه السلام لسائله بقوله : « اعزل أو لا تعزل فإنه آتيها ما قدر لها ».. ويقول بعض الصحابة : كنا نعزل على عهد رسول الله فلم ينهنا. وبتفريق الغزالي وغيره بين منع الحمل وبين الاجهاض والوأد من حيث الأخيرين عُدْوان على موجود كائن حاصل وليس كذلك منع الحمل.

ومع ذلك فلا شك أن من يجرد الزواج من وظيفة التكاثر ويقصره على وظيفة المتعة فقد نبا عن الصواب. وإن كانت الأمة في حاجة إلى الكثرة العددية التي تفي بالقيام بأمرها واستخراج خيراتها والذود عن حياضها أصبح الانجاب تلبية لحاجة عامة وأصبح النكوص عنه أنانية غير حميدة.

هناك كذلك على النطاق العالمي اهتمام مركز على مسألة تحديد النسل، ومن يبصر هذا الاهتمام يتوهم أن تحديد النسل هو المدخل الوحيد لتوقي شح الموارد.. ولا نرى ذات الاهتمام ينصب على التعاون على استخراج خيرات الأرض واستنباطها، سواء كانت الأرض اليابسة أو الأرض المغمورة بالبحار والمحيطات.. ولو تنافست الدول القادرةُ في الإعمار جزءاً يسيراً من منافستها في الإعداد للحرب والدمار لتغيرت الحال تماماً. بل إن بعضاً من الدول تملك الفائض الغذائي ولكنها تضن به أو تستعمله للمقايضة السياسية، أو حتى تهلكه حتى لا تنخفض أسعاره.. ومنذ برهة وجهت الحكومة في إحدى دول أوربا المتقدمة نداء إلى الشعب تناشده أن يأكل

الفرد بيضه زيادة كل يوم لتصريف الفائض لدى الفلاحين، بينما تعاني الملايين من أبناء الأسرة الإنسانية في مواطن أخرى من الفاقة والحرمان.

ونحن المسلمين، وإن كنا في عالمنا المعاصر دولاً ذات حدود وحكومات، ينبغي ألا يصرفنا ذلك عن أننا أمة واحدة عرفها الله بقوله : « وان هذه أمتكم أمة واحدة ».. وينبغي أن تنسق الحكومات فيما بينها فتجعل من أمة الإسلام وحدة مؤتلفة متعاونة متراحمة متآزرة، ولو استطاعت أن يكون واقعها هو حاصل جمع ما تملكه من أرض ومن ماء ومن معادن ومن سواعد ومن عقول ومن شواطئ ومن أنهار ومن بحار، إن تعاملت فيما بينها جمعاً وضرباً وليس طرحاً وقسمة، لحققت بذلك رسالتها، ولحلت أزمتها وأزمة العالم، وليس من سبيل لذلك إلا بأن تحيا في قلوب أبنائها جذوة الإسلام من جديد، فليس لها دون الإسلام من رباط مهما جربت من رباط، وليس لها من دون الله من نصير مهما شرقت أو غربت في البحث عن النصير : إنه الإسلام وليس غير الإسلام، فلذلك فليدع الشباب المؤمن.

(٣) الاجهـــاض :

الاجهاض هو خروج الجنين من رحم أمه ولما يكتمل نموه لدرجة تتيح له أن يعيش بعد ذلك. وقد يحدث الإجهاض تلقائياً لعلة مرضية ظاهرة أو خفية، ولكن الذي يعنينا هنا هو ذلك الاجهاض المحدث عنوة بفعل فاعل. ومنذ بواكير الحضارة الإنسانية، ومنذ فجر المهنة الطبية وأعلامها كالوزير « أمحوتب » في مصر القديمة ثم « أبقراط » في العهد اليوناني كانت حرمة الحياة الإنسانية تنسدل على الجنين، فكان من قَسَمِ الأطباء ألّا تمتد يدهم بالأذى دوائياً أو جراحياً للجنين المحمول. وظلت هذه من مقدسات المهنة الطبية وموروثاتها حتى عقدْنا الحالي، حين امتدت إليها كذلك تلك اليد التي آلت على نفسها أن تعبث بكل ما استقر من تراث الإنسان. ومسألة الاجهاض خيط من نسيج وجزء من صورة كلية. وأعود إلى موانع الحمل فأقول : إنها وإن كانت تقدماً علمياً وعوناً طبياً واجتماعياً، إلا أن أبحاثها الأولى كانت ممولة ومحفوزة من قبل الحركة التي سمت نفسها حركة تحرير المرأة، وكان مما تدعو إليه تلك الحركة في انجلترا مساواة المرأة

بالرجل، وكان من شعائر تلك المساواة أنه إن كان الرجل يمارس الجنس دون أن يهدد بالحمل فينبغي أن يكون للمرأة كذلك أن تمارسه دون تهديد الحمل.

ولم تكد تستقر أمور منع الحمل حتى جعلوها في المتناول الميسور للبنات غير المتزوجات.. وفي حضوري المؤتمرات الدولية المتعاقبة لفتت نظري في أوائل الستينات نغمة جديدة ذرت بقرنها على استحياء تنادي بحق المرأة في جسمها، ثم تنادي بأنه من الظلم أن تضطر المرأة إلى أن تحتفظ في أحشائها بجنين لا تريده، وكان القائمون على هذه المؤتمرات بادىء ذي بدء يعلنون تنصلهم من هذه الأفكار ويعزونها إلى آراء فردية لأقلية متحمسة، ولكن ما إن طرقت هذه الأفكار الأسماع مرة تلو مرة وأصبح الجهر بها أمراً مألوفاً لا يثير صدمة حتى ظهر أنها كانت مقدمة لحملة منظمة شاملة هادفة. وتداعت تلك القوى حتى نجحت في تشديد ضربتها إلى التشريع البريطاني. وبعد أن كان الاجهاض الطبي مباحاً فقط في الحالات التي يشكل فيها استمرار الحمل خطورة على حياة الأم، صدر في سنة ١٩٦٧ قانون الاجهاض الجديد في بريطانيا، ورغم اعتراض الهيئات الطبية المعنية واحتجاجها، مرر المشرعون أعضاء البرلمان القانون الجديد الذي وسع رقعة الإباحة لتشمل ليس فقط تهديد حياة الأم إن استمر الحمل، بل تهديد صحتها الجسمية أو النفسية، أو الصحة الجسمية أو النفسية لأي أحدٍ من أفراد الأسرة بما فيهم الأبناء بالتبني، ويستوي أن يكون هذا التهديد في الحاضر أو في المستقبل المرتقب.

وأفضى هذا القانون إلى أن يعبث كل من طاوعه ضميره في الأرض إجهاضاً. فإن القانون الجديد لم يشكل ضابطاً ولا رادعاً. لو أن أسرة تبنت طفلاً ثم حملت السيدة فذهبت للطبيب تقول إن متبناها يشعر بالغيرة من قدوم طفل جديد، فالقانون الطيع اللين يسمح بالاجهاض إن وافق الطبيب على أن ذلك يهدد الصحة النفسية للمتبنى في المستقبل.

فماذا كان بعد ذلك ؟..

ظهر أن هذه الإباحة لم تستخدم في المحافظة على صحة الزوجات

أو للحد من نسل الأسرة كثيرة العيال التي تؤودها النفقة..

ولكن طالعتنا الإحصاءات بأن الكثرة الغالبة من المجهضات كن نساء غير متزوجات بل حاملات من سفاح، فكشفت بذلك عن حقيقة الحاجة التي لباها التشريع الجديد وحقيقة الظمأ الذي رواه...

ثم أصبح الاجهاض تجارة رابحة، وصارت له سوق تحتية تلبس مسوح الطب وتبطن جشع الشيطان. وفي ظل القانون الواحد ثبت أن حفنة قليلة من دور العلاج الخاصة كانت تنجز من الاجهاضات أضعاف ما تقوم به المستشفيات الحكومية ذوات العدد والسعة. وأمست لندن عاصمة الاجهاض وعاصمة البغاء.. وفي كتاب حديث لبريطاني وبريطانية تنكرا في هيئة عشيقة حامل وصديقها... يرويان ما شهداه في مطافهما بسوق الاجهاض، مما تشمئز له نفس الإنسان فما بالكم بالطبيب..

وتكونت شبكة اجهاضية وكأنها المؤسسات السياحية ترتب للبنات هناك أو القادمات من الخارج كل شيء من أول التاكسي بالمطار مروراً بالفندق والمستشفى والعملية حتى المطار مرة أخرى للمغادرة.

ومن العجيب أنهم ظنوا أن شيوع الاجهاض سيمنع ظاهرة الأطفال المولودين سفاحاً، فهالهم أن هؤلاء في ازدياد، ومع إقبال الأسر المحترمة على الحد من عدد الأبناء أصبح كل خامس مولود في بريطانيا مولوداً من سفاح.

وانتقلت العدوى التشريعية من بريطانيا إلى كثير من دول أوربا وكثير من ولايات أمريكا.. وأذكر أنني في إحدى زياراتي لإحدى أمهات المستشفيات في أمريكا مررت بجناح الحوامل فإذا كلهن ما عدا واحدة آنسات غير متزوجات، وحضرت لست عمليات إجهاض فإذا كلهن بنات غير متزوجات.

وأعجب لهذا الفصام الذي أصاب المهنة الطبية. فمن معالم التقدم الطبي في السنوات العشرين الأخيرة ظهور التخصص الجديد الذي يسمى الطب الجنيني.. والذي أفضى إلى تشخيص كثير من العلل في الجنين المستكن في الرحم وتناولها بأصنافه من العلاج الدوائي أو حتى الجراحي.

معنى هذا أن الطب اعتبر الجنين زبوناً من رعاياه يبسط عليه رواق الوقاية والعلاج.. فكيف بالله تجيز نفس المهنة أن تمتد يد الطبيب إلى الجنين السوي البريء وتقتلعه من جذوره إلى سلة المهملات.

وانظر إلى مسألة الاجهاض نظرة إسلامية فتطالعني بادئ ذي بدء دلالات كريمة هادية في الآيات الكريمة :

(١) « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ».
(٢) « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ».
(٣) « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليُرْدوهم ».
(٤) « ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألّا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينك في معروف، فبايعهن واستغفر لهن الله، إنَّ الله غفور رحيم ».

آيات تدور كلها حول جريمة قتل الأولاد ــ وكلمة الأولاد تشمل الذكور والإناث، وهو قتل يشارك في اقترافه الرجال والنساء. ونعلم أن الجاهلية في جريمة الوأد كان رجالها وحدهم يئدون الإناث وحدهن : فمن تكون الضحايا ذكوراً وإناثاً تغدر بها الرجال والنساء جميعاً إلا إن كان القصد أنها الأجنة تغدر بها يد الاجهاض ؟ ثم أنظر في الشريعة الإسلامية وموقفها من الجنين فأجد الآتي :

أولاً : اذا مات رجل وظهر أن امرأته حامل حجز من تركته نصيب ولد، ولم يأخذ باقي الورثة أنصبتهم إلا إن تعهدوا إن وضعت المرأة أكثر من ولد أن يردوا على التوأم نصيبه.

ثانياً : إذا حكم على امرأة بالإعدام وتبين أنها حامل أرجئ تنفيذ العقوبة حتى تلد، وفي رأي حتى ترضع.. حتى لو كان الجنين محمولاً من سفاح.

ثالثاً : إذا أجهض جنين في أية مرحلة من الحمل وظهرت عليه أية علامة من علامات الحياة كتحريك إصبع أو نفس أو سعلة أو عطسة أو

غيرها ثم مات بعدها.. فإن هذا الجنين يرث أيّاً من مورثيه الشرعيين مات بعد بداية الحمل، ثم يرث الجنينَ ورثتُه الشرعيون.

رابعاً : في الإسلام عقوبة مالية على الاجهاض لا تجب غيرها من عقوبات التعزير على عدوان أو اصابة أخرى. وهذه الغرامة اسمها « الغرة » وتبلغ عشر دية البالغ. تدفع لورثة الجنين الشرعيين. فان كان من بينهم متسبب في الاجهاض دفع حصته من الغرامة وحرم نصيبه منها.

كل هذا يدل على أن من له هذه الحقوق فإنها تالية للحق الاصيل وهو حق الحياة. فحياة الإنسان محترمة في نظر الإسلام حتى وهو جنين. ولقد كانت هناك شبهة فقهية في السابق، إذ كان يظن أن الحياة تبدأ في الجنين في الوقت الذي تشعر فيه أمه بحركته في بطنها، ويكون ذلك عادة في نهاية الشهر الرابع.. لهذا أجاز بعض السلف الاجهاض قبل هذا الوقت، أما الآن فنعلم علم اليقين أن الجنين حي من البداية، نرقب بأجهزتنا حركة ودقات قلبه، وانما تشعر به الأم بعد أن يكون بلغ مبلغاً من الحجم والقوة واستطالة الاطراف يمكنه من أن يركل رحم أمه ويلكمه بصورة محسوسة. حياة الجنين اذن محترمة، ولا يضحى بها إلا إن كان في استمرار الحمل خطورة على حياة الأم المريضة، لأن الأم في الشريعة أصل والجنين فرع، والفرع فداء الأصل.

(٤) الأمراض الجنسية :

وهي التي تعرف أيضا بالأمراض السرية وتنقل عدواها عن طريق الاتصال الجنسي عادة. ونود أن نوجز كلمات عن المرضين المشهورين الرئيسيين منها.

الأول مرض السيلان :

سببه مكروب ثنائي صغير.. يستقر في غدد الجهاز البولي والتناسلي فيحدث أولاً التهاباً حاداً يتميز بحرقة البول وتكوين صديد يُخرج قطرات منه على غير إرادة من فتحة البول. وإذا لم يعالج فإن دوره الحادّ يهدأ ولكنه

يتحول إلى الطور المزمن حي تتحصن المكروبات في أعماق الغدد البولية والتناسلية وهي مخابىء تأمن فيها على نفسها، وتستمر في إفراز سمومها التي تمتص في الدورة الدموية فتحدث آثاراً بعيدة في أماكن كالمفاصل أو القلب أو العين، ومن مخاطر هذا المرض أن الالتئام منه قد يُحْدِثُ تليفاً يُضيّق قنوات مسار المني أو يسدها.. وبالرغم من أن الالتئام شفاء إلا أنه إن أفضى إلى انسداد القنوات المنوية أدى إلى العقم.. لأن الحيوانات المنوية لا تستطيع أن تجد طريقها إلى الخارج فيكون السائل المنوي خالياً من الحيوانات المنوية ويكون الرجل عقيماً.

وقد تحدث نفس النتيجة في المصابة الأنثى إذا التهبت ثم تليفت ثم انسدت القناتان اللتان تجتازهما البويضات إلى الرحم فيحكم على السيدة بالعقم.. وفي حياتي الطبية أمثلة عديدة لسيدات شريفات عفيفات أصبن بالعقم نتيجة لخطيئة زوج فرط في الأمانة فنقل العدوى من المومس البغي إلى الزوجة الطاهرة.

أما المرض الثاني :

فهو الزهري.. جرثومته لولبية الشكل تبدو تحت المجهر في صورة الحية. ولا تظهر آثار هذا المرض ظهوراً سريعاً كالسيلان ولا هي تصحب بالالتهاب الحاد أو الألم. ولكنه يغزو الجسم في بطء وأناة وثبات ماراً بأدوار ثلاثة :

الدور الأول : قرحة تظهر بعد برهة طويلة منذ الاتصال الجنسي تقدر بأسبوعين إلى أربعة، وتظهر القرحة على المكان الذي ثقبت فيه الجرثومة سطح الجسم. قد تكون على العضو الذكري أو الفرج أو المهبل أو عنق الرحم في الأنثى مكنونة في الداخل غير ظاهرة.. وقد تكون على الشفة أو اللسان إن دخلت الجرثومة بالتقبيل.. ومن الأسف أن هذه القرحة غير مصحوبة بألم، ويتحالف عدم الألم ووجودها في مكان مستور مع مزيج من الخجل أو الجهل أو الإهمال على تثبيط المريض عن الاستعانة بالطبيب، ويساعد على هذا أن القرحة تختفي بعد تماماً فيظن المسكين أنه شفي ولكن هيهات. وبعد شهر أو اثنين يظهر.

الدور الثاني : على هيئة طفح جلدي عام على الجسم.. ولا يلبث هذا أن يزول ليأتي **الدور الثالث** بعد أشهر أو سنوات. وتحكم القبضة على المريض، وللدور الثالث صور شتى : منها زهري الجهاز الدوري الذي يضرب القلب والشرايين الكبيرة، ومنها زهري الجهاز العصبي الذي يفضي إلى صور من الشلل والجنون، ومنها الزهري الكامي الذي تهترئ معه أجزاء متفرقة من الجسم كالعظم أو المخ أو القلب أو الرئة أو غير ذلك. وتستطيع جرثومة الزهري في جسم الحامل أن تخترق المشيمة إلى الجنين، فإما مات عاجلاً أو آجلاً، وإما ولد وعاش مريضاً بالزهري الذي يسمى آنذاك الزهري الوراثي.

من أجل ذلك وغيره قال ربنا جل وعلا : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ».

ويعلم الجميع أن هذه الأمراض قديمة.. فما بالنا نوردها تحت عنوان « ثورة الجنس في عالمنا المعاصر » ؟.

نوردها قصداً وعمداً. لأنها في عالمنا المعاصر قد اتخذت هيئة ثورية. فعندما اكتشف الطب المضادات الحيوية في الأربعينات بدءاً بالبنسلين.. فرحت الهيئات الطبية بفعاليتها ضد هذه الأمراض وظنت أنها قد قضت عليها إلى غير رجعة. وسرعان ما تبين أن ظاهرة خطيرة قد جدت.. ذلك أن فصائل من المكروبات قد غيرت من نشاطها الحيوي مستغنية عن أدوار في نموها كانت هي مقاتلها بالنسبة للمضادات الحيوية.. وظهرت فصائل ذات مناعة ضدّ ما في جعبتنا من الأدوية.. وكلما استنبطنا دواء جديداً نجح برهة من الزمن ثم تملصت منه المكروبات بتلك المناعة المكتسبة..

وعاد الزهري والسيلان من جديد.. ولكن بفروق عما كانا عليه من قديم، وهنا مكمن الثورية وخطورتها..

فالأنواع الجديدة من الزهري والسيلان أعصى على التداوي من أجيالها السابقة عند بدء استعمال المضادات الحيوية.

ونوع المريض وسماته قد اختلفت عن ذي قبل اختلافاً خطيراً.. لم يعد التوزيع الجنسي كما كان في السابق خمسين رجلاً لكل امرأة. ولكنه

أصبح متساوياً بين الجنسين من المرضى..

ولم يعد معدل سن الإصابة حول الخامسة والثلاثين ولكنه أصبح نحو العشرين. لم يعد مصدر الإصابة مومس الأمس يقصدها العديد من الرجال المنحرفين.. ولكن زنى اليوم صار دولة بين الشباب، فزانية اليوم في الغرب هي الفتاة العادية الشابة في كافة مرافق الحياة.

وهنا الجناية.. يمهد لها ويعين عليها حشد كامل ذكي لكل ما يثير الغرائز من أزياء ومن مطبوعات ومن أفلام ومن أقلام ثم من مفاهيم جديدة. تسمي الزنا حباً وتسمى الرذيلة حاجة فسيولوجية وتسمى العفة والشرف رجعية وتخلفاً وجموداً لا يليق بمدنية العصر.

ووراء النور الذي يجذب الفراشةَ النارُ التي تحرقها.. ويعلن الدكتور و. براون من المركز الأمريكي لمكافحة الأمراض أن ستمائة وخمسين ألفاً من الأمريكان شباباً وفتيات تحت سن العشرين يصابون بالزهري أو السيلان،... وأن حالات الزهري المعروفة قد ازدادت في عام واحد ٥٥ بالمائة في نيوجرسي و ٣٣ بالمائة في مدينة نيويورك.. ويعلن الدكتور ماكنزي بولوك من الجمعية الصحية الأمريكية عن تفاقم الإصابات ويدعو إلى إعلان حالة الطوارئ القومية.

وبعـــد ..

فهذا يجري في عالمنا ولا مهرب لنا من أن نلقاه فيغلبنا أو نغلبه. ونحمد الله على أن عالمنا الإسلامي مازال محتفظاً لدرجة كبيرة بقيمه الإسلامية في هذا المضمار.. فانهم في الغرب يصعقون حين نقول لهم إن معدل البكارة عندنا في الفتيات دون الزواج يكاد يكون مائة بالمائة. وشبابنا جزء من الشباب العالمي.. فما موقفه من هذا التيار الهادر ؟

أود أن أقول من خلال مهنتي إنني أكره الشر ولا أكره الشرير. وأقول إن مهنتي تفرض عليّ أن أتعامل بالرحمة وليس بالعدل. وتفرض علي كذلك أن أستر وأن أصون السر وألّا أخون إذا ائتمنت.

ويأتي إليّ الزاني مصاباً، أو الزانية سفاحاً، أو العدوّ القالي، أو

الخصم المحارب، فليس في جعبة الطبيب إلا الرحمة وإلا العلاج وإلا النصيحة المخلصة بالحكمة والموعظة الحسنة. ومع العلاج أدعو إلى التوبة إلى الله توبة نصوحاً والفرار إلى الله لا الفرار منه. وقد وسعت رحمته كل شيء.

أما شبابنا المسلم، في حله وترحاله، فيعلم أن عليه واجبين : واجباً دفاعياً، وآخر هجومياً. أما الدفاعي فأن يُثَبِّت جنانه وايمانه تجاه كل ما يتعرض له من إغراء إن بدا لذيذاً طيباً، فكم من لذة ساعة أورثت أهلها غماً طويلاً. القلب المليء بالله ليس فيه متسع لسواه، فلتعمر القلوب بذكر ربها : ولتحسن اسلامها فالاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك. واعلم أنك كما تدين تدان.. فارْضَ لبنات آدم ما ترضاه لأختك أو زوجك أو ابنتك، كفى بهذا زاجراً وواعظاً وإنه لبرهان ربك بليغاً جلياً.

وأما الواجب الهجومي، فوفاء بواجب من آتاه الله النور، والناس تتخبط في الظلام، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ». ومسئولية من آتاه الله الدواء والناس في قبضة المرض. علينا أن نطب للانسانية المريضة، وأن ننير لها السبيل، وأن ننتشلها من وهدتها، ونقيلها من عثرتها.. لا باللوم والسباب ولكن بتحبيبها فيما ندعو إليه من سبيل الله.. ولا بالكره والانطواء ولكن بالقدوة الصالحة والكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة.

ويوم نستطيع أن نُري الناس الإسلام في صورة رجال تمشي على الأرض، ويوم نستطيع أن نملك زمام أنفسنا فسنملك زمام الناس إن أحسنا التبشير وأخلصنا في الدعوة وصبرنا على الناس صبر أولى العزم فقد علمنا أن الله لا يضيع صبر الصابرين.

والطريق طويلة. والبناء أشق من الهدم، والرذيلة ذات فتنة وزينة ورواء، ولكن أي امرئ أولى بالثقة ممن علم أنه مع الله وأن الله معه.. وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ».

صدق الله العظيم ..

مشكلات الأقلّيات الإسلاميّة التي تعيش بين أغلبيّات غير إسلاميّة

للدكتور عبده كاسوزي
الأستاذ بجامعة ماكريري - أوغندا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة :

يعتبر الدين أفضل العوامل الأخلاقية التي منحها الله للإنسان من حيث أنه يقدم له قوانين للسلوك وشرائع تقوده في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة. ولهذا فإن الدولة الإسلامية بالنسبة للمسلمين هي الشكل الأمثل للحكومة، وفي الدول التي وجد بها أكثر من دين واحد يصبح من العسير ليس فقط تحديد قانون أخلاقي واحد، أي تحديد ما هو صواب وما هو خطأ، ولكن أيضاً بالنسبة للأقليات التي تعيش طبقاً لما تعتبر أنه صواب وإن كان يتعارض مع ما تعتبره الأغلبية كذلك، كثيراً ما تكون هذه الأغلبية هي القوة المسيطرة من الناحية السياسية والاجتماعية، وغالباً ما تجد الأقلية أن القوانين الأخلاقية للأغلبية هي التي توضع كمعيار لما هو صواب وما هو خطأ.

وفي أفريقيا جنوبي خط الاستواء تعتبر أغلبية الشعوب في معظم هذه الدول (باستثناء تنزانيا) مسيحية[1]. ويهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء

---

(١) المصدر دبليو. ام. وات : « الصلة السياسية للإسلام في شرق أفريقيا ».
الشئون الدولية _ ٤٢ _ ١٩٦٦ _ ص ٣٥ _ ٤٤.
ملحوظة : قد تكون هذه الأرقام مشكوكاً فيها، ولكنها تعطي لمحة عن الوضع.

على مشكلات الأقليات الإسلامية التي تعيش في مجتمعات أغلبياتها مسيحية، مستخدمين شرقي أفريقيا عموماً وأوغندا على وجه الخصوص كأمثلة على ما نقول. وفي الختام سأحاول أن أقترح ما يمكن عمله لتصحيح الوضع.

ـ حاجة الإنسان للدين :

يحتاج الإنسان للدين كي يبين له ضوء الحق الرائع، ويرشده في هذه الحياة من خلال إظهار ما هومقدس وما هو صواب وما هو خطأ. كما أن الدين يطهر قلب الإنسان ويساعده على أن يعيش في سلام مع نفسه ومع جاره. كذلك يكشف له أسرار الكون ويساعده على معرفة الطبيعة المادية لهذه الدنيا على أساس قاعدة ثابتة ترتكز على الإيمان بأنه لا إله إلا الله وحده.

ولما كان الإنسان كائناً سياسياً كما قال أفلاطون منذ القدم فإنه في حاجة إلى المجتمع كي ينمي قدراته نحو الأفضل، ويمكن أن يزيد الدين من سعادة المجتمع وطاقته من خلال توفير الانسجام فيه إذا تمكن من جعله مجتمعاً أخلاقياً واحداً تسوده معتقدات متماثلة وسلوك متماثل وقوانين متماثلة وأذواق متماثلة تجاه الحياة الطبيعية[1] ومعنى ذلك أنه إذا كان لمجتمع ما دين واحد فإن هذا الدين يستطيع أن يساعد أفراد هذا المجتمع على تحديد أهدافهم ومثلهم العليا. إنه يوحد أفراد هذا المجتمع ويجعلهم متماسكين ككتلة واحدة صلبة تشترك في تجارب وشعائر ومواقف وقيم ووسائل مشتركة في الحياة. وفي نفس الوقت فإنه يفصل هذا المجتمع عن غيره ممن لم يشاركوه نفس المعتقدات. وعلى الرغم من أن المؤمنين بهذا الدين قد تكون بينهم فوارق شاسعة من حيث المنشأ والمهنة والثروة والمنصب والجنس، فإن الدين يستطيع أن يوحدهم في مجتمع واحد يعمل من أجل مصير واحد. ولقد كان الدين دائماً هو موحد الأمم والأمبراطوريات لأجيال طويلة. وهذا أمر طيب في المجتمعات والدول التي تدين بدين واحد.

---

(١) دوركيم : « الأشكال المبدئية للحياة الدينية » ـ ١٩٢٦ ـ ص ٤٧.

ـ الدول التي بها أكثر من دين واحـد :

إذا كنا نعني بالأخلاق ذلك القانون أو نظام الأفكار التي تعتبر صواباً في مجتمع من المجتمعات، فإنه يتعين، لكي يكون قانون الأخلاق فعالاً، أن يكون مقبولاً على أنه صواب من جانب كل الناس أو من كل الصفوة الموجـودة بهذا المجتمع. لهذا فإنـه يضع مبدأ ما يمكن اعتبـاره صواباً أو خطأ ويحدد ماهية الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة. وإذا ما استطاع المجتمع أن يحدد قانونه الأخلاقي فإن عاداته وأسلوب حياته ومعاييره المقبولة تتشكل وتصبح معروفة للجميع. وهكذا يبدأ أفراد هذا المجتمع في تحديد سلوكهم داخل إطار القانون الأخلاقي المقبول في مجتمعهم فهذا أمر ممكن وسهل في المجتمعات التي يسودها دين واحد. أما المجتمعات التي بها أكثر من دين واحد فإنه ليس فقط من العسير اتباع قانون أخلاقي واحد فيه ولكن في الحقيقة تنشأ الصراعات داخل هذا المجتمع لتحديد أي القوانين الأخلاقية جدير بالاتباع. ويرجع ذلك في كثير من الحالات إلى أن الأديان تختلف في تفسيرها لما هو صواب وما هو خطأ. فما هو مسموح به في دين من الأديان يعتبر محرماً في دين آخر والعكس صحيح. وفي نفس الوقت فإن أتباع كل دين ليس لديهم الاستعداد للتنازل عما يعتبرونه الحق في نظرهم. ويدعي كل مجتمع ديني بإصرار شديد أن قوانينه الأخلاقية هي الحق وأن قوانين غيره هي مجرد أكاذيب.

وفي مثل هذه المحن فإن ما يحدد مجريات الأحداث هو امتلاك السلطة. ومهما يكن لدى جماعة دينية ما من قوة، فإن السلطة السياسية هي التي تحدد في أغلب الأحيان ما هو الصواب وما هو الخطأ. ذلك أن قوانينها الأخلاقية تصبح هي المصدر الرئيسي لسلوك المجتمع ما لم يكن هناك مستوى عال من التسامح ـ وهو أمر نادر في الدول النامية. وتجد الجماعات الدينية غير المميزة ـ وهي في الغالب جماعات الأقلية ـ أنه ليس أمامها سوى التوافق مع القيم الأخلاقية والالتزامات الدينية للجماعة الحاكمة.

٣ ـ حالـة أوغنـدا :

يوجد في أوغندا وفي غيرها من دول شرق أفريقيا أكثر من دين واحد.

وقد دخل الإسلام أوغندا في أول الأمر على يد أحمد بن ابراهيم عام ١٨٤٤ [١]. وقد جاءت البعثات التبشيرية الانجليكية البروتستنتية عام ١٨٧٧ ثم جاء القساوسة الكاثوليك عام ١٨٧٩ [٢]. وإلى جانب اعتناق الديانات الموجودة في العالم كان الكثير من الناس مازالوا يعتنقون الديانات الأفريقية التقليدية. ويعد كل دين من هذه الأديان على أنه في جانب الحق وأن غيره على الباطل.

ولقد كان ذلك هو الموقف على وجه الخصوص بين المسيحيين من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى. وكانت النقاط التي اختلفوا حولها هي فكرة الله، والتثليث، ووضع مؤسس الديانتين، والموقف من الكتب المقدسة، واستعمال الصور والتماثيل، والزواج، وشرب الخمر، وأنواع الطعام التي تؤكل، ويوم الراحة الأسبوعية.

وتتمثل الفكرة الإسلامية عن الله في أنه واحد أحد خالق كل المخلوقات بالأرض والسموات، لم يلد ولم يولد كما تقرر سورة الإخلاص. وقد يبدو أن المسيحيين قد فهموا العقيدة الإسلامية، ولكنهم كانوا يُصرّون على استعمال اسم « الله » باللغة العربية حتى وإن كانوا يتكلمون باللغة الانجليزية أو أية لغة أخرى، ليوهموا غير المتعلمين بأن المسلمين يعبدون إلهاً غريباً اسمه « الله ».. ومن ناحية أخرى كان المسلمون يفسرون عمداً فكرة التثليث، وهي فكرة الثلاثة في واحد، بأنها تعني أن المسيحيين يقولون بأن لله ابناً مجسداً. وكان المسيحيون يركزون على الحياة الخاصة للنبي محمد ـ ﷺ ـ ليسخروا من زواج المسلم من أكثر من زوجة واحدة، كما أن المسيحيين كانوا يفسرون موقف القرآن الكريم بطريقة لا يقبلها المسلمون.. فالقرآن بالنسبة للمسلمين هو كلمة الله التي أوحى بها إلى النبي محمد ـ ﷺ ـ عن طريق كبير الملائكة.. أما المسيحيون فإنهم يقولون بأن القرآن هو تجميع لأقوال وكتابات محمد، وليس من عند الله،

---

(١) « سيرجون جراي » أحمد بن ابراهيم : أول عربي يزور يوجندا. جريدة أوغندا ٢ – ١٩٤٩ – ص ٨٠ – ٩٧.

(٢) جي. في. تايلور : « نمو الكنيسة في يوجندا » ـ لندن ـ ١٩٥٨.

وهم بهذا يشبهونه بالإنجيل الذي جمعه الحواريون. وقد اتهم المسلمون، الذين لا يقبلون التمثيل المادي لله أو للنبي أو للملائكة، اتهموا المسيحيين وخاصة الكاثوليك بأنهم يعبدون صور وتماثيل مريم العذراء الموجودة في كنائسهم. كما أن المسيحيين الذين يريدون أن يبنوا المجتمع على أساس أن يتزوج الرجل امرأة واحدة، وجدوا أن المسلمين يبيحون تعدد الزوجات، وقد جعل ذلك بعض المسيحيين يثيرون التساؤلات حول هذا الأمر[1]. وقد أراد المسلمون أن يقيموا مجتمعاً لم يتم فيه تناول الخمور أو المخدرات، ولكن المسيحيين أباحوا شرب الخمر. لم يكن المسلمون يستطيعون أن يأكلوا إلّا اللحوم المذبوحة طبقاً للشريعة الإسلامية، ولكن المسيحيين لا يعبأون بالطريقة التي يذبح بها الحيوان، ويوم الجمعة هو يوم الراحة الأسبوعية للمسلمين، في حين أن يوم الراحة للمسيحيين هو يوم الأحد. ولقد حسمت السلطة السياسية الوضع، في نهاية الأمر، بالنسبة لهذه المحنة.

أ ـ استعمال السلطة السياسية ـ ١٩١٠ ـ ١٩٤٥ :

في عام ١٩١٠ لم يهزم المسيحيون في أوغندا المسلمين هزيمة كاملة في معارك السيطرة على السلطة فحسب، ولكنهم أيضاً حولوا الكثيرين منهم إلى المسيحية. ومن ثم فقد استخدموا السلطة الرسمية لإقامة القوانين الأخلاقية المسيحية كأساس للسلوك في أوغندا، ولهدم الإسلام بكل طريقة ممكنة. وكانت الجماعة المسيحية الرئيسية التي كانت ترى في الإسلام عائقاً أمام إقامة أسلوب الحياة المسيحية هي البعثات التبشيرية المسيحية الأوروبية.

ومنذ عام ١٩٠٨ كان موضوع تقدم الإسلام وكيفية القضاء عليه على رأس قائمة الموضوعات التي تتناولها مؤتمرات التبشير.. كما كان هذا الموضوع يملأ صفحات مجلات التبشير في أوروبا[2]، وقد ذهب الأسقف « كاسيان سبيس » إلى حد القول بأن المسلمين ليس عندهم أخلاق، وهم

---

(١) أبولو كاجوا : « كيف جاء الإسلام إلى أوغندا » من مذكرات أوغندا ـ المجلدات ١٩٠٢.

(٢) آراء أوليفر : « العامل التبشيري في شرق أفريقيا » ـ ص ١٠٩ ـ ١٢٤.

مخادعون ومصابون جميعاً بالأمراض التناسلية[1]. وقد كانوا دائماً يحذرون الحكام المستعمرين من أخطار الإسلام، وكانوا يروجون من الناحية السياسية القول بأن المسلمين أقل ولاء لأسيادهم المحتلين من المسيحية.

وفي المؤتمر الاستعماري الذي عقد في برلين عام ١٩١٠ تم التأكيد على أن شرق أفريقيا الإسلامية لن تكون إلّا مناهضة لأوروبا[2]. وخوفاً من شرق ووسط أفريقيا الإسلامية نصح « ويليس » أسقف أوغندا الحاكم أن يستخدم القوة الرسمية لمنع حدوث مثل ذلك[3]. وقد وافق الحاكم (أو المفوض) السير « هاري جونستون » الأسقف على ذلك بقوله إنه يعارض بشدة انتشار الإسلام أكثر من ذلك، وأن هدفه هو طرد الإسلام إلى أبعد ما يمكن في السودان[4] وقد كان يرى أن أوغندا هي الحصن المنيع في أفريقيا الاستوائية لنشر المسيحية تدريجياً في المناطق المحيطة بها[5]. وقد نصح موظفيه السياسيين بالوقوف في وجه انتشار الإسلام بقوله : « إنه ليس من مصلحة الحكومة البريطانية أن تكسب المحمدية أتباعاً آخرين أكثر مما نستطيع، ذلك أننا لا نستطيع التعامل مع المسلمين الذين يعارضون دائماً أن تدير أمورهم سلطة مسيحية[6].

وفي عام ١٩٢٤ عارض وزير الشئون المحلية حركة إدخال التعليم الغربي للمحمديين[7]. وعندما حاول المسلمون الأفارقة إحضار مدرس هندي مسلم لتعليم أولادهم التعليم الغربي الرسمي عمل الحاكم على إحباط محاولتهم[8]. وفي شرق أفريقيا الألمانية قامت السلطات هناك بأساليب

---

(١) مذكرات وسجلات تنجانيقا ـ رقم ٦٣/٦٢ ـ ص ٨٣ ـ ٩٠.

(٢) آراء أوليفر : نفس المصدر ص ٢٠٦.

(٣) ويليس : مذكرات منجو ـ أغسطس ١٩٠٦ ـ ص ٢٣.

(٤) جونستون إلى تاكي ـ أول ديسمبر ١٩٠٠ ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

(٥) تقرير أوغندا عام ١٩٠٣ ـ ٤ ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

(٦) المفوض السامي (جونستون) إلى بوجوسا ـ ٣ ديسمبر ١٩٠٠. مراسلات. برجوسا ـ بند ٥٣/١ أ، ٥٣/١/١١ ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

(٧) فيلنيس كارتر : « تعليم المسلمين الأفارقة في أوغندا » ـ جريدة أوغندا ـ ٢٩ ـ رقم ٢ ـ ١٩٦٥ ـ ص ١٩٣ ـ ١٩٩.

(٨) دبليو. ان. جورز إلى وزير المستعمرات ـ ٣٠ نوفمبر ١٩٢٣ ـ رأشيف الحكومة عنتيبي.

اضطهاد للإسلام أكثر إلتواء من خلال العمل على تخريبه تماماً في السر، وادعاء مناصرته في العلن، وقد أصدر حاكم شرق أفريقيا الألماني منشوراً دورياً للحصول على المشورة خلال ثلاثة أشهر عما يمكن عمله في كل مقاطعة للوقوف بشكل فعال في وجه الدعوة الإسلامية. وقد اقترح منع الأئمة من أداء واجباتهم وتحريم الختان وفرض تربية الخنازير كمصدر دخل لكل المواطنين[1]. وفي كل أقاليم شرق أفريقيا الثلاثة، وهي : كينيا، وأوغندا وتنجانيقا، كان يوم الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية، أما يوم الجمعة فكان يوم عمل بالنسبة للجميع بمن فيهم المسلمين. كذلك كانت أيام أعياد المسلمين مثل عيد الفطر وعيد الأضحى أيام عمل عادية، في حين أن أيام عيد الفصح وعيد رأس السنة الميلادية (الكريسماس) كان إجازات عامة ولم يتم جعل أيام الأعياد الإسلامية إجازات عامة إلّا بعد الاستقلال. كذلك لم تكن توجد قوانين تفرض ذبح الحيوانات على الطريقة الإسلامية. ولما كانت الأقليات الإسلامية تعيش بين المسيحيين وتختلط بهم في المناطق الريفية والحضرية على السواء فإنه لم يكن من الممكن منع المسلمين من أكل اللحوم غير النظيفة.

ب ـ استخدام السلطة الاجتماعية :

إلى جانب السلطة السياسية « الرسمية » فإن الجماعات الحاكمة تفرض إرادتها على المحكومين باعتبار أنها هي التي تضع المعايير التي يتعين على الجميع الالتزام بها، ولما كانت هذه الجماعات الحاكمة في الغالب من صفوة المجتمعات التي تحكمها، فإن ما تعتبره صواباً يؤخذ في أغلب الأحيان على أنه المثل الذي يتعين احتذاؤه. إن ما تعتقده يؤخذ دائماً على أنه الحق وما تحتقره يصبح مدعاة للسخرية.

ومن ثم فإن الأغلبيات التي قد لا تؤمن بما تعتقد السلطة الحاكمة بأنه صواب، تعتبر غير قادرة على التكيف مع المجتمع، كما يصبح ما تؤمن به لا ينظر إليه بعين الجدية.

---

(١) سجلات موشى ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

وهذا هو ما حدث في أوغندا. فبعد هزيمة المسلمين في حروب أوغندا الدينية في الفترة من ١٨٨٠ ـ ١٩٥٠ أقام المسئولون الاستعماريون البريطانيون مجتمعاً مسيحياً من كافة جوانبه.. وكان هذا المجتمع يتكون من ثلاثة قطاعات. فعلى قمة الهرم كان يقف الإداريون الأوروبيون وكلهم من المسيحيين، وبعدهم كانت تأتي البيروقراطية الأفريقية التي تضم الرؤساء وصغار الإداريين ورجال الأمن. وكان معظم هؤلاء أيضاً من المسيحيين. والحقيقة أنه كان من العسير أن يكون هناك أي رئيس يتمتع بمركز من المراكز دون أن يكون مسيحياً[1]. وقد شاع مثل بين قبيلة الباسوجا، وهي قبيلة صغيرة في شرق أوغندا، مؤداه أن أي شخص يريد أن يكون رئيساً فإن عليه ألا يكون مسلماً أبداً. وهذا يرجع إلى أنه لم يكن هناك أي شخص مسلم ذي أهمية تذكر.

وقد كانت تلك هي الميزة الرئيسية للمسيحية على الإسلام. لقد كان الرؤساء الذين يقلدون أساليب أسيادهم البيض هم الذين يضعون المعايير للمجتمع. وكان كل ما يعتبرونه صواباً يؤخذ على أنه صواب، وما يظنونه خطأ يؤخذ على أنه خطأ من جانب المحكومين.

وفي نهاية درجات السلم كانت تقف جماهير الشعب التي كانت تتكون في أوغندا من صغار الفلاحين الذين يعيشون على قطع صغيرة من الأرض التي يملكونها أو يستأجرونها. وكان الكثير منهم فقراء، ولكن بعضهم ولا سيما المسيحيين منهم استطاعوا أن يرفعوا أبناءهم إلى مستوى القطاع الثاني في المجتمع بالحصول على درجة جيدة من التعليم الأوربي.. ولكن لم تتوفر مثل هذه الفرصة للمسلم الذي لم تكن تتاح له فرصة دخول المدارس، لأنه لم تكن هناك بعثات إسلامية تبني المدارس.

ومن ثم فإن معظم المسلمين كانوا يحصلون على أدنى الأعمال مثل : عمال المزارع وسائقي الشاحنات، والجزارين والسعاة، وما إلى ذلك..

---

(١) انظر :

أ ـ اف. بي. ولبورن : « الدين والسياسة » في أوغندا ١٩٥٢ ـ ١٩٦٢ ـ نيروبي ـ ١٩٦٥.

ب ـ مسلمو بوجوسا إلى الحاكم ـ ١٦ مايو ١٩٤٥ ـ أرشيف الحكومة ـ عنتيبي.

جـ ـ آي. آي. رتشاردز « رؤساء شرق أفريقيا » ـ ١٩٥٩.

لقد كانوا يعيشون في هذا الوضع الأدنى في المجتمع الأوغندي لدرجة أن الأطفال الصغار كانوا يقولون : « لقد قابلت شخصين ومسلماً »[1]..

وكانت أغلب الخدمات الاجتماعية تقدم للطبقة الحاكمة.. ففي المدارس كان التعليم يهدف إلى الترويج لمعتقدات الجماعة الحاكمة، وتزييف معتقدات الأقلية المعارضة، ويكفي أن نورد مقتطفاً من أحد كتب تاريخ أوغندا المقررة في المرحلة الابتدائية لنبرهن على ما نقول. يقول الكتاب للتلاميذ والمدرسين عن النبي محمد، ﷺ :

« ... وقد استطاع أن يدرس كتابات اليهود والمسيحيين.... وبعد أن بلغ سن الأربعين بدأ يعطي وقتاً أكثر فأكثر للعبادة والتأمل. ثم بدأ يكتب القرآن... وفي عام ٦٣٢ مات محمد في مكة ودفن هناك... ويقال أن محمداً كان مقاتلاً جيداً ورجلاً مقدساً »[2]..

ومن الطبيعي أن الكثير من التلاميذ المسلمين والمسيحيين يقرأون مثل هذه الكتابات ويكونون موقفهم من الإسلام على أساسها، وفي المستشفيات والمراكز الاجتماعية والأندية وغيرها من المؤسسات العامة يصبح ما تمليه الأغلبية هو القانون الأخلاقي المقبول للسلوك، أما معتقدات الأقلية فإنها تختفي تحت مستوى سطح البحر.

والنتيجة النهائية لهذا الضغط الاجتماعي على عقول الأقلية الضعيفة هي تشككها في صحة معتقداتها. إنها تبدأ في طرح الأسئلة حول مدى صحة قوانينها الدينية.

ونتيجة لذلك فإنها تبدأ في التساهل في بعض المبادىء الأساسية لدينها. كما أن البعض منها يبدأ في الشعور بالخجل مما هو عليه، ومن مظاهر هذا الوضع في أوغندا تغيير أسماء الشباب المسلمين لتصبح بقدر الإمكان أكثر اقتراباً من الأسماء المسيحية على أمل أن ينظر إليهم على أنهم مسيحيون.. ومن ثم فإن « عبده » يصبح « آبي »، « موسى » يصبح

---

(١) ولبورن ـ نفس المصدر ـ ص ٦.

(٢) ام. هودجز : « كتاب تاريخ أوغندا » ـ ١٩٦٦ ـ ص ٥٥ ـ ٥٦.

« موسيس »، و « محمد » يصبح « ميد »، و « فاطمة » تصبح « فاتي » أو « فاتينا » و « عائشة » تصبح « آسي »، « ابراهيم » يصبح « ابرام »، و « جمعة » يصبح « جيمي »، و « ادريس » يصبح « ايـــدي »، و « اسحق » يصبح « ايزاك »... الخ. ثم يبدأ هؤلاء الشباب في حضور المناسبات الاجتماعية المسيحية ويفضلون اعتبارهم مسيحيين فيتوقفون عن الصيام وأداء الصلاة ويبدأون يشربون الخمر مثل أترابهم غير المسلمين.

وباختصار يبدأ شباب الأقلية الإسلامية يفقدون ثقتهم بأنفسهم. وعندما يفقد المجتمع أو جماعة منه ثقته في أخلاقياته وكيانه وتكوينه، فإن باب الانهيار لا يمكن إغلاقه بسهولة.. وعندما يكبر هؤلاء الشباب فإنهم يحملون معهم عاداتهم الفاترة تاركين المجال مفتوحاً أمام جيل آخر من الشباب يقلد ما كان يفعل الكبار منهم. إنهم يفعلون كل ذلك ليس بسبب الضغط الحكومي أو الرسمي، ولكن بسبب الحافز البيئي الذي يضغط عليهم كي يتكيفوا بالمثل السائدة بين أغلبية المجتمع الذي يعيشون داخله كأقلية محتقرة ومحرومة.

٤ ـ ما الذين يمكن عمله ؟

إنه من الصعب في هذه المرحلة، وقبل أن تجري الأبحاث في مختلف المناطق التي تعيش فيها الأقلية المسلمة على حافة الانهيار، أن نقترح ما يمكن عمله. ذلك أن كل منطقة وكل جماعة معينة من الناس لها مشكلاتها الخاصة التي لا يمكن حلها إلا بد دراسة أوضاعها الداخلية، ولكن بصفة عامة، فإن الأمة الدولية تستطيع أن تساعد هذه الأقليات من خلال مساعدتها على مساعدة نفسها بالوسائل التي سنوردها فيما بعد، والتي اقترحتها في مذكرتي إلى الأمين عن « أطماع الكنيسة في شرق أفريقيا » وهي على النحو التالي :

أ ـ مساعدتهم في إنشاء مؤسسات تنظيمية :

إن هناك حاجة ماسة لإقامة مؤسسات أو أنظمة للإدارة لجمع الأقليات معاً من أجل مراقبة حقوقها والمحافظة على قوانينها ومساعدتها على تخطيط استراتيجيتها، ونشر الأفكار المناسبة داخل المجتمع. وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى إقامة دولة داخل الدولة، ولكننا نقترح إقامة أجهزة دينية

لمعالجة مختلف المشكلات الطارئة للأقلية الإسلامية.

ب ـ الحاجة إلى قادة دينيين :

إن الأقلية التي تريد الحفاظ على كيانها تحتاج إلى قادة، ولا سيما القادة المتعلمين تعليماً جيداً ليس فقط من أجل تذكير أتباعهم دائماً بدينهم ولكن أيضاً لمساعدتهم على التغلب على الضغوط التي يتعرضون لها، والتي سبق أن تحدثنا عنها من قبل. إنه بدون قادة، فإن الأتباع يصبحون كالأغنام بدون رعاة. ولكن يتعين أن يكون هؤلاء القادة على دراية كبيرة بمشكلات هذه الحياة الدنيا والآخرة. إن عليهم أن يكونوا متعلمين كي يكسبوا الاحترام، وأن يعرفوا دقائق المجتمع والعلوم ومشكلات الناس الذين يقودونهم. كما أن عليهم أن يقوموا بواجب حماية الأقلية من عداء البيئة التي تحيط بهم.

كما أنه يتعين توفير الخدمات الاجتماعية مثل : المدارس (وخاصة دور الحضانة والمدارس الابتدائية)، والمستشفيات، والمكتبات، والمسارح وما إلى ذلك من خدمات. ذلك أنه في مثل هذه الأماكن فإن المؤمنين لن يشعروا بالأمان فقط، ولكنهم سيشعرون أيضاً بأن مجتمعهم يهتم بهم. إن ذلك من شأنه أن يوقظ في قلوبهم الإحساس بالواجب والمسئولية تجاه مجتمعهم. وبهذه الطريقة فإنهم سيتعلمون كيف يرعون ويحمون أقليتهم الصغيرة.

جـ ـ الشبـــاب :

لما كان الشباب هم الذين يقررون نجاح أو فشل مجتمعهم في المستقبل فإنه ينبغي تربيتهم بكل عناية حتى يعتنوا بمجتمعهم، وينبغي وضع كافة الأفكار الحيوية عن الدين والسلوك القويم في قلوبهم. ويتعين عليهم أن يعلموا أنهم إذا تعثروا أو ترددوا، فإن مجتمعهم سوف يسقط، ولكنهم إذا ساروا إلى الأمام، فإن مجتمعهم سوف يتقدم أيضاً إلى الأمام.

د ـ وسائل الإعلام :

إن تأثير الرأي يعتبر أمراً حيوياً في حياة المجتمعات. وإن من

يستطيع السيطرة على تأثير الرأي يمكنه في نهاية الأمر أن يسيطر على المجتمع. ومن ثم فإن على الأقليات الإسلامية أن تجد الوسيلة للتأثير ليس فقط على آرائها بل أيضاً على آراء الناس، كما أنه يجب محاربة برامج التليفزيون والإذاعة والتقارير الصحفية التي تميل إلى توجيه الإهانات إلى دينها بكل وسيلة ممكنة.

وبهذه الطريقة فإننا نأمل أن تتمكن الأقليات الإسلامية التي تعيش وسط أغلبيات مسيحية من المحافظة على كيانها بصورة محترمة. وإذا استطاعت هذه الأقليات أن تحقق احترامها لنفسها، فإنها تستطيع بعد ذلك أن تجاهد من أجل كسب المزيد من الأتباع إلى صفوفها.. ولكنها إذا حاولت أن تكسب المزيد من الأتباع إلى صفوفها دون أن تكون واثقة من نفسها، فإنها بذلك قد تجلب مزيداً من النسور إلى معسكرها.

* **مذكـــرات :**

١ ـ إلى جانب نقص الأموال اللازمة لجمع البيانات ذات العلاقة، فإن هنـاك مشكلات كثيرة، بعضها سياسي في جمـع المعلومـات عن الانتماءات الدينية، ففي أوغندا مثلاً : لم تورد إحصائية عام ١٩٦٩ أرقاماً عن الانتماءات الدينية حيث كان المسيحيون خائفين من أن تأتي إحصائية عام ١٩٦٩ في صالح المسلمين.

وعلى أية حال، فإن المسلمين كانوا خلال العقدين اللذين سبقـا الاستقلال يشكلون أقلية كبيرة جداً في شرق أفريقيا كما يتضح من الجدول التالي :

البلـد	السنـة	البروتستانت	الكاثوليك	المسلمون	آخرون
أوغنـدا	١٩٥٩	٢٤,٨ ٪	٣٢,٦ ٪	٥,٢ ٪	٣٧,٢ ٪
كـينـيـا	١٩٤٨	٢٤,٨ ٪	٧,٧ ٪	٤,٣ ٪	١٢,٩ ٪
تنجانيقـا	١٩٥٧	٧,٨ ٪	١٧,١ ٪	٣٠,٩ ٪	٤٤,٢ ٪

الباب الرابع

عوامل انحطاط الحضارة الإسلاميّة وسبيل النّهوض بها ودور الشباب في بعثها

عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية

للشيخ : محمد الغزالي

كيف ننهض بالمجتمعات المسلمة المعاصرة

للأستاذ : محمد رأفت سعيد

القيادة في المجتمع المسلم

للأستاذ محمد صلاح الدين

الإسلام والحضارة ودور الشباب

للدكتور : محمود فوزي حمد

القدوة ودور الشباب المسلم في المجتمع الإسلامي المعاصر

للدكتور : مسعد سيد عويس

الشبـــاب والتغيـير

للأستاذ : فتحي يكـن

دور الشباب في بناء الأمة والحضارة وكيف نعنى به

للدكتور : عبد المجيد العبد

معالم الشخصية الإسلامية الفاعلة في الفرد والجماعة

للأستاذ : فاروق بدران

الوراثة الصالحة للحضـارة المعاصـرة

للدكتور : فاروق حمــادة

عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية

للشيخ محمد الغزالي

الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب انهيار الحضارة الإسلامية :

في غضون القرن الثالث عشر والرابع عشر للهجرة، كان الوجود الإسلامي يعاني من علل مبرحة، كان الرجل المريض ـ كما سموه ـ يترنح وهو يسير ببطء نحو مصيره، حاول نفر من المصلحين أن يعطوه حقناً تجدد حياته بيد أن جهودهم ضاعت سدى.

سقطت الدولة الإسلامية سقوطاً مروعاً، وظهر جلياً أن الانهيارات الداخلية هي التي عجلت بهذا الختام الكئيب.

ومع أن الدولة قضت إلا أن الأمة بقيت تواجه مستقبلها، وشرعت الجماهير تتلمس الطريق إلى مستقبل أشرف، وتتغلب بجهد شديد على العقبات الكثيرة التي تسد أمامها المنافذ.

وإذا كان أغلب البلاء جاء من عند أنفسنا فيجب أن تتجه الجهود إلى الإصلاح الداخلي قبل أن نفكر في ضرب العدو المتربص، فإنها لو هزمت عدوها ـ فرضاً ـ وبقيت أدواؤها الداخلية على جسامتها فلن يعد ذلك نصراً للإسلام، ولن تكون الأمة المنتمية إليه قدوة حسنة للعاملين،

فكيف ونحن لا ننتصر إلا بالإسلام وحده، وبالولاء له والتطبيق الحسن لتعاليمه. من أجل ذلك نريد إلقاء نظرات صريحة على أسباب تخلفنا بعد أن كنا طليعة معجبة، ولا يجوز أن نخجل من إحصاء عيوبنا إذا كنا نريد الشفاء المريح والرضاء الأعلى.

ويمكن أن نقول إجمالاً، إنه كان هناك قصور في فهم الإسلام شمل عدداً من المفاهيم والقضايا، كما كان هناك تقصير متعمد بإضافة تعاليم صريحة والخروج عليها، والقصور ضعف في الفقه، أما التقصير فعصيان سافر، وقد يرى القاصر أو المقصر أنه سليم المسلك.

ولكن المعلول لا يعد صحيحاً إذا كانت الجراثيم تسرح في كيانه، ولا بد أن تثأر منه سنن الله الكونية التي لا تحابي أحداً.

من الرذائل المنكرة التي انتشرت في تاريخنا حب الرياسة وطلب الإمارة مع أن الإسلام رَهّب ترهيباً شديداً من هذه الخلة وبيّن أن أمر هذه الأمة لا يسلم لمن يطلبه ويحرص عليه ويتوسل بما أمكن ليبلغه.

وهناك أناس يتعشقون الصدارة كي يفرضوا ذواتهم على المجتمع، أقلهم يملك المواهب التي تسعفه، وأكثرهم مريض بحب الظهور وتجاوز الآخرين. والأمم السعيدة هي التي تمنح قيادها من يقلق لتحمل المسئولية، ومن ماتت في نفسه غرائز الأثرة والاستعلاء.

والغريب أن التاريخ الإسلامي تقسمته أفراد وأسر من الصنف المعتل الذي يشبع بالحكم نهمته إلى السلطة والترف.

والويل لأمة يتولى أمرها شرارها، وتتمرد على قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها[1]).

ذاك نموذج سريع للتقصير في ميدان الحكم، أما التقصير في الميدان الاجتماعي فهاك صورة سريعة له.

جاء في السنن الصحاح عن عبد الله بن عمر أن رسول الله قال : لا

---

(١) سورة النساء آية ٥٨.

تمنعوا إماء الله مساجد الله، فلما روى ابن عمر هذا الحديث قال ولده : والله لنمنعهن، فأقبل أبوه عليه يسبه أشد السب، وقاطعه طول حياته، والغريب أن الأمة الإسلامية خلال القرون المتأخرة تبعت الابن العاق، وغضت الطرف عن الحديث الذي رواه أبوه.

فتقرر حرمان النساء من دخول المساجد للصلوات الجامعة، ولسماع الخطب والدروس، ولما كنت مديراً للمساجد بمصر بذلت جهوداً كبيرة ليأخذ النساء وضعهن في بيوت الله، وأمكن بعد لأي إعداد أماكن لهن في بعض المساجد على أغماض من الرجال وضيق.

ولا يزال منع النساء من المساجد حكماً سارياً في أقطار شتى مما أضر أبلغ ضرر بالأسرة المسلمة، وارتباطها بالعبادات المقررة.

ولنعط كذلك نماذج عاجلة للقصور الديني عند بعض الناس...

كنت أقرأ لمؤلف ينفر الأتراك من الدين الإسلامي، فرأيت هذه العبارة : (يا للحيرة من عقولكم واعتقاداتكم الباطلة، تتركُون تقديس سلطان قوي الشوكة كحضرة الفاتح ـ يقصد السلطان محمد الفاتح ـ وتوجهون احترامكم لشخص خيالي موهوم). وقضية أن الخضر رضي الله عنه حي يرزق يسبح في الأرض قضية تافهة وسخيفة، ومع ذلك فان أعداداً من المتصوفة تتعصب لها وتجادل دونها كأنها من معالم الدين، وهي ـ كما ترى ـ من أسباب مروق بعض المتمردين.

وحدث من مظاهر القصور الديني ـ أن استقدم بعض العلماء ليقرأوا البخاري في سفن الأسطول التركي حتى تحصل البركة، وكان تعليق بعض الظرفاء أن الأسطول يسير بالبخار لا بالبخاري.

ومن الأحداث الجديرة بالنظر أن أحمد عرابي باشا أقام مع رجاله قبيل موقعة التل الكبير حفل ذكر ـ رقص ديني بالتعبير الصريح ـ كي ينصره الله على الانكليز، وكانت النتيجة أن انهزم بعد معركة استغرقت ثلث الساعة[1].

كان التصور الديني أن تلاوة الأوراد، من الكتاب، أو السنة، أو تأليف

---

(١) يخشى أن يكون هذا من زيادات المؤرخين الغربيين لتشويه الحركة العرابية (عويس).

المشايخ، تصنع العجائب، وقد صنعت فعلاً صدعاً هائلاً في تاريخ كبير.

فلنترك هذه الأمثلة السريعة ولننظر آثاراً مفصلة للقصور والتقصير في حياتنا الإسلامية كي نعرف ما نال منا في الماضي حتى نتجنبه في يومنا وغدنا.

(١) التصـور الجزئي للإسـلام :

الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، هل هذه الشعب مركوم بعضها فوق البعض كيفما اتفق ؟ هل هي كسلع اشتراها شخص من السوق ثم وضعها في حقيبته كيفما تيسر ؟، لا... إنها شعب متفاوتة الخطر والقيمة ولكل منها وضع عتيد في الصورة الجامعة لا يعدوه.

والشبكة التي تُكون شعب الإيمان كلها تشبه الخارطة الموضوعة للجهاز العامل في إحدى الوزارات أو إحدى المؤسسات، وهناك مديرون وهناك مساعدون وهناك فعلة وهناك مراقبون، وبين هذه وتلك علاقات مرسومة ونظم إرسال واستقبال وتنفيذ وإنتاج.

إن شعب الإيسان التي تعد بالعشرات تشبه السيارة المنطلقة... لها هيكل وإطارات وقيادة ووقود وكوابح ومصابيح وكراسي وغير ذلك، وكل منها له وظيفته وقيمته ومرتبته.

ومنذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل وأصول وفروع وأعمال قلبية وأعمال جسمية.

والذي يحدث عند بعض الناس أن جزءاً ما من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله.

وقد كان الخوارج أول من أضيب بهذا القصور العقلي أو بهذا الخلل الفقهي، فقاتلوا علياً أو يتبرأ من التحكيم، وقاتلوا عمر بن عبد العزيز أو يلعن آباءه ملوك أمية.

وسيطرة فكرة معينة على الإنسان بحيث تملأ فراغه النفسي كله، ولا تدع مكاناً لمعان أخرى شيء لا يستساغ، لقيني رجل من المعروفين بالطيبة

وسألني هل تؤمن بكرامات الشيخ فلان، قلت لم أقرأ سيرة هذا الشيخ، قال إليك كتاباً يشرح سيرته، ثم لقيني بعد فترة وسألني ما رأيك ؟ قلت، نسيت أن أقرأ الكتاب، قال، كيف ؟ ـ بانفعال ـ قلت الأمر غير مهم، إذا مت وأنا لا أعرف صاحبك فان الله غير سائلي عنه وعن كراماته، فانطلق يشيع عني أني مارق لا أؤمن بالكرامات، وقابلني آخر يقول، ما رأيك في الموسيقى فأجبت ان كانت عسكرية تثير الحماس والتضحية فلا بأس، وإن كانت عاطفية تثير النشاط أو الرقة فلا بأس، وإن كانت تثير العبث والمجون فلا، فانطلق يشيع عني أني متحلل أسمع الحرام.

كلا الشخصين آمن بشيء حسبه الدين كله، فهو يحاكم الأشخاص والأوضاع إليه.

وهذا التورّم الذي يصيب جانباً دينياً معيناً هو السرّ وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء، وهو السر وراء محدثين يحفظون النصوص ولا يضعونها مواضعها ولا يجيدون الاستنباط منها، وأصحاب رأي يلمحون المصلحة ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ، وهو السر وراء حكام يعملون حسب المواصفات المقررة ـ رعاة للجماهير، وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية فاذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهي والتعرض لغضب الحكام لاذوا بالصمت الطويل، وهو السر وراء أنا يتقنون مراسم العبادة ولا يفرطون ذرة في صور الطاعات الواردة، ومع ذلك لا يعون من حكمتها شيئاً ولا يستفيدون منها خلقاً.... الصلاة تورث النظام والنظافة وهم فوضى شعثون، والحج رحلة العمر التي تعمر القلب والجوارح بالسكينة والرحمة وهم في أثناء المناسك وبعدها خسأة سيئون، إن الدعوة تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط ينطلقون بعقولهم الكلية فيسيئون ولا يحسنون.

ماذا يفيد الإسلام من شبان يغشون المجتمعات الأوروبية والأمريكية، يلبسون جلاليب بيضاء ويجلسون على الأرض ليتناولوا الطعام بأيديهم، ثم

يلعقون أطراف أصابعهم، وهذا في نظرهم هدي الرسول في الأكل والسنة التي يبدأون من عندها عرض الإسلام على الغربيين.

هل هذه آداب الإسلام في الطعام ؟.

وعندما يرى الأوروبيون رجلاً يبغي الشرب فيتناول الكأس ثم يقعى وكان واقفاً ليتبع السنة في الشرب، فهل هذا المنظر الغريب هو الذي يغري بدخول الإسلام ؟.

لماذا تُجسم التوافه على نحو يصد عن سبيل الله ويبرز الإسلام وكأنه دميمُ الوجه ؟.

ثم إن الدعوة إلى الإسلام لا يقبل فيها عرض القضايا الخلافية مهما كانت مهمة عند أصحابها، والأكل على الأرض أو بالأيدي مسألة عادية وليست عبادية، ومن السماجة عرض الإسلام من خلالها.

ووضع النقاب على وجه المرأة أمر تناوله الأخذ والرد ولا يسوغ بحال تقديمه عند عرض دين الله على عباد الله. وتدبر هذا الحديث الذي رواه البخاري في أسلوب عرض الرسالة الإسلامية كما أحكمه رب العزة عن يوسف بن ماهك قال : إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها عرقبي فقال : أي الكفن خير ؟ قالت ويحك، وما يضرك ؟ قال : يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت : لم ؟ قال : لعلي أؤلف القرآن عليه فإنه يُقرأ غير مؤلف قالت : وما يضرك أيّة قرأتَ قبل ؟ ؛ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل : لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلّا وأنا عنده، قال : فأخْرجَت له المصحف فأملت عليه آي السورة).

لكن أناساً يشتغلون بالدعوة لا فقه لهم ولا دراية يسيئون إلى هذا الدين ولا يحسنون، وفيهم من يمزج قصوره بالاستعلاء ولمز الآخرين.

وقد تطور هذا القصور فرأيت بين أشباه المتعلمين ناساً يتصورون الإسلام يحد من جهاته الأربع : بلحية في وجه الرجل، ونقاب على وجه المرأة، ورفض للتصوير ولو على ورقة، ورفض للغناء والموسيقى ولو في مناسبات شريفة وبكلمات لطيفة.

ولا أريد تقرير حكم معين في أشباه هذه الأمور، وإنما أريد ألا تعدو قدرها، وألا يظنها أصحابها ذروة الدين وسنامه، وهي شئون فرعية محدودة يعتبر القتال من أجلها قضاء على الإسلام وتمزيقاً لأمته.

٢) الثقافة الإسلامية في طورها القائم تحمل مخلفات القرون الماضية بما فيها من قوة وضعف واستقامة وعوج وأخلاط لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص وتفرض علينا ميز الخبيث من الطيب.

وهناك ملاحظات صادقة على هذه الثقافة الموروثة، يجب وعيها لأنها وراء المد والجزر الذي تعرض له تاريخنا الطويل، ونوجزها فيما يلي :

أ) التقعر في دراسة ما وراء المادة، مرض أصاب المسلمين ولوى مسيرتهم العلمية لياً شائناً والمعروف أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب ومناط التكاليف الاعتقادية والعلمية، وأنه بحسب المسلمين في عالم الخلق والسلوك وعالم العقيدة والعبادة وعالم القضاء والتشريع ـ أن يعتمدوا على هذه الآيات المحكمة وحدها، أما ما تشابه في الحديث عن ذات الله وصفاته فلا مجال للعقل في بحثه.

إن العقل البشري أعجزُ من أن يفقه حقيقة الروح بين جنبيه، بل أعجز من أن يفقه تحول الأغذية في جسده إلى طاقة وخلايا فكيف يريد أن يعرف كنه الألوهية، واتصال الذات بالصفات ؟.

لكن المسلمين للأسف خاضوا بحاراً مغرقة في هذه البحوث العقيمة كان لها أثر وخيم في تعجيز العقل الإسلامي عن البحوث المادية وإحسان الإفادة منها، وهذا الاتجاه الشارد عصيان لله الذي أمر بالنظر في الكون، وبنى على هذا النظر السديد حسن الإيمان وجميل المنفعة.

ب) الإسلام دين عملي يؤثر الواقع على الخيال، ويؤثر الحقيقة على

الظن، ويؤثر الحركة الماضية في مرضاة الله على اللغو والشقشقة وافتراض الفروض وتشقيق الكلام، وهل نجح سلف الأمة إلّا بهذا المنهج ؟.

بيد أننا وجدنا الدراسة الدينية تميل إلى الشروح النظرية المطولة دون سبب واضح والذي أحسه أن دراسة الطهارات والصلوات لا تحتاج إلى هذه التآليف المسهبة والأوقات المتطاولة، ومع ذلك فقد أصبح ذلك جزءاً من أعمار المسلمين، ومثار افتراق واسع بين الدهماء، بل بين نفر من المنتسبين إلى العلوم الدينية.

ولم يكتف البعض بهذا الطول المفتعل فأضاف إلى أعمال الحج أدعية في أشواط الطواف وأشواطاً لسعي لا أصل لها، حتى يزيد المراسم وعورة وتهيباً، وقد تأدت هذه المزايدات إلى إضعاف علاقة المسلمين بالحياة، وكانت مشغلة لهم عن إنتاج أهم وأجدى.

جـ) هناك فارق مؤكد بين درجة التخصص ودرجة التثقيف العام، فالمتخصص يلم بمعارف شتى في فنه ويعيبه أن يجهل ناحية ما في ميدانه، أما أصحاب الثقافة العامة فيكفيهم ما يحتاجون إليه في بيئاتهم وأحوالهم ولا معنى لحشو أذهانهم بما لا أثر له في معايشهم.

وقد رأيت أناساً من العوام تبلبلت أفكارهم إثر أحاديث نبوية درّست لهم وهي أحاديث صحيحة السند، ولكن ليس من الحكمة أن يعرفها العوام، فهي فوق طاقتهم الذهنية، وقد جاء في الأثر : (انك ما حدثت قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم إلّا كان لبعضهم فتنة). ومع ذلك فإن قرويين وبدواً وهملاً من الخلق يذكر لهم أن نبياً ضرب ملك الموت ففقأ عينه، وأن آدم حاج موسى في القدر فغلبه، وأن موسى راجع نبينا في الصلوات الخمسين حتى جعلها خمساً، وأن الجبار ليلة الأسراء هو الذي دنا فتدلى...... الخ.

لماذا تشغل أذهان الجماهير بهذه الأمور ؛ ولماذا لا يختار لهم من السنن ما يصحح وجهتهم في الحياة ؟ لقد توارث العوام أن سماع هذا الكلام عبادة وأورثهم ذلك شيئاً من الخدر والاسترخاء غير قليل.

د) أَلِفَ المسلمون أن يحفظ القرآن للأطفال، وألفوا أن يوجه للتعليم الديني الضعاف والفقراء وذوو العاهات، وفي بعض الأقطار الإسلامية يكاد

العلم الديني يكون نصيب المطرودين من ميادين التعليم التي يشترط فيها التفوق والتبريز أو حسن المظهر وقوة العصبية.

وهذا المسلك يزري بمعنى التدين، ويضعف أهل الدين عن اقتياد الحياة بقوة، وقد يعجزهم عن مقاومة الجبارين والخطائين.

وعلى ضوء التجارب الكثيرة ينبغي وضع سياسة أخرى للتعليم الديني.

ولنذكر أن الفجوة عمقت بين العلم والحكم في تاريخنا، وأن عدداً من الأئمة والأشياخ أدى واجبه شامخاً راسخاً.

ولكن عدداً آخر ــ ربما كان أكبر ــ آثر الانزواء، وارتضى في تغيير المنكر أضعف مراتب الإيمان.

وهناك فريق آخر ربما كان أكبر وأكبر مشى وراء الساسة مداهناً فأكثر من الأكل من حلوائهم وسكت عن أهوائهم.

وإذا فسد العلماء والحكام أخذت الأمم طريقها إلى القاع.

٣) موقف المسلمين من الدنيا :

الذي أبدع هذا العالم الكبير يعرف أنه أبدع شيئاً يبهر ويعجب، وعندما يلفت النظر إلى أسرار جماله ووساقة بنائه فهو يرجعنا إلى الشعور بعظمته ويثير في أنفسنا الخضوع والإعزاز لقدرته وحكمته.

أحياناً أفكر في هذا الهواء الرقيق المنتشر في الجو، إنه بلطافته يثير الأبخرة فتتصاعد سحباً ومع ذلك فهو يضغط داخل أطر السيارة فإذا الهواء المضغوط يحمل فوقه عصابة من الرجال وكتلات الأثقال.

إن صانع هذا الهواء يقسم به في أطواره المختلفة....

« والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسّمات أمرا * إنما توعدون لصادق »[1].

ما معنى هذا القسم ؟ إنه لفت نظر لما في هذه الحياة من آيات

---

(١) سورة الذاريات / ١ ــ ٥.

تدل على الرب المبدع، وليس غريباً أن يقول لك المهندس العبقري الذي صنع سيارة جيدة انظر السرعة الفائقة، انظر الآلات الدقيقة، انظر الكراسي الوثيرة، انظر المصابيح الكاشفة، إنه يلفت إلى ما صنع لك، ولكنه قبل ذلك وبعده يلفتك إلى عبقريته ومهارته، ولقد كان جديراً بالمسلمين أن يفكروا في الكون وينتهزوا فرصة حياتهم على الأرض ليعرفوا عظمة رب العالمين بدراسة خواص المادة والقوانين السارية بين شتى العناصر، إن الله لا يعرف بدراسة ذاته فهذا مستحيل، وإنما يعرف بدراسة ملكوته الضخم واستجلاء الآيات الدالة عليه هنا وهناك، لا بأسلوب شعري هائم ولكن بأسلوب علمي صارم، وذلكم هو منهج القرآن الكريم. وقد ولدت الملاحظة والتجربة في البيئة الإسلامية وكان يمكن أن تترعرع وتؤتي ثمارها إلى آخر مدى لولا الانحراف الذي أصاب العقل الإسلامي بالتقعر فيما وراء المادة، ولولا انطلاق بعض المخربين يصرفون الناس عن الدنيا ويضعون على حواسهم حجباً فلا يدركون من فوقها ولا من جمالها شيئاً.

ويستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان، ويستوى على الطريق !! والثقافات الإسلامية المبتدعة والمنحرفة سر هذا العوج، وفي مقدمتها التصوف الدخيل. إن الله جل شأنه لما خلق البشر خلق لهم كل ما في الأرض ليستمتعوا به ماداموا على ظهرها أحياء، ومعنى ذلك أن يعرفوا ما هيأ لهم معرفة شاملة، فمن الغباوة أن يأكل المسلمون ما زرع غيرهم أو يستهلكوا وينتج غيرهم.

إن العلم بالحياة الدنيا وارتفاقها والاستمكان منها معان إنسانية عامة فطر الناس عليها ولا يعد التنبيه إليها مثار دهشة بل الدهشة أن يتقلب الناس في جنبات الأرض دون قدرة على إثارتها.

وكما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم ينتفعون بها في دعم أفكارهم وتأييد مبادئهم وقيمهم، فالكف العزلاء تخذل الحق، والسلاح التافه يجر الهزيمة.

وقد استطاع ناس كثيرون أن يعرفوا من دراسات الأرض والسماء ما جعل أيديهم باطشة وأسلحتهم فاتكة، فأين منزلة المسلمين من هؤلاء ؟.

عندما كنت أقرأ الهجوم الفرنسي على مصر في القرن الثالث عشر للهجرة، كنت أحس طنيناً في دماغي لغزارة ما سفك من دمائنا دون جدوى. كان الفرسان الشجعان يذوبون أمام المدافع الحديثة والذخائر الخبيثة، وكانت خبرة الفرنسيين بالحياة وعلومها وكشوفها تساعدهم على التوغل بقدرة، وترغم الأحرار على الفرار أو الموت الرخيص.

لماذا جهلنا الحياة وبحوثها على هذا النحو ؟ إن الأرض الإسلامية كلها استبيحت نتيجة هذا الجهل الغليظ مع أن العلم بها لا يقل عن العلم بأركان الصلاة، فإن بقاء الإيمان في الأرض وصحة الجهاد دونه لا يتمان إلا بهذا العلم الدنيوي.

العلم الواسع بالدنيا والقدرة التامة عليها كانت أموراً بديهية عند أسلافنا، وقد نصروا الحق بهذا الإدراك السديد، ثم خلف من بعدهم من نفض يديه من شئون الدنيا فخزى نفسه ودينه على سواء.

وقد قال المربون الأذكياء : املك الدنيا بغير حدود، ولكن اجعلها في يدك لا في قلبك... اجعلها في يدك لتتنزل عنها فداء دينك وشرفك عند أول نداء، ولا تجعلها في قلبك فتستعبدك وتكون كاليهود الذين ذمهم الوحي لشرههم فقال : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة)[1].

لقد كان من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية سوء الموقف من الدنيا وعلومها وبناء التربية الدينية على أفكار غبية شاعت بين فريق من المتصوفة والزهاد والفقهاء الصغار.

ولنفرق بين النوعين من التذكر والتفكر، فإن الشائع بين جماهير العابدين الذكر العددي، وهو ذكر تافه لا يفتح أغلاق القلب ولا يوسع آفاق النظر، وهو أن يردد اللسان اسماً من أسماء الله الحسنى عشرات أو مئات أو ألوف المرات، وقد تضاحك الظرفاء لأن الذاكر الذي يصيح يا لطيف أعداداً متتابعة تتحول الكلمة على لسانه (فلطى فلطى) وهي كلمة تشبه بغام الدواب ولا تغني شيئاً، إن هذا الذكر قليل الغناء، وقد استحسنه العباد من

---

(١) سورة البقرة آية ٩٦.

عند أنفسهم لا من عند الله، فإن الفكر الإنساني المتعرف على ربه أشرف من ذلك وأجل. إذا قال الله تعالى : (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون)[1]، فهل هذا الأمر يعني النظر الحالم ؟ أو النظر القاهر ؟ أو النظر العقيم ؟.

وهل تكرار هذا النظر العقيم ؟

أو هل تكرار هذا النظر التافه يفيد يقظة أو ثقافة أو يفتق أمام العقل منفذاً يصله بعظمة الله وآياته ؟.

والواقع أنه ما يوجد كتاب دين أمر بالنظر في الكون كالقرآن الكريم، وما يوجد ناس في قرونهم الأخيرة، عموا عن النظر في الكون كجمهور المسلمين.

ونشأ عن ذلك أن الأقمار الصناعية تنم عن أحوالهم وهم يلعبون في بلادهم، وأن غيرهم يغزو الفضاء ويتلمس الكواكب وهم لا يحسنون التنقل على الأرض إلا إذا صنع لهم غيرهم سيارة يركبها أو طائرة يستقلها.

إن الإسلام بريء من هذه البلادة، وقد كان المسلمون حتى عهد محمد الفاتح متفوقين على خصومهم حضارياً ومدنياً وعسكرياً، ثم غلبهم الضعف العلمي والعجز النفسي، فأخذوا ينهارون ويتهاوون حتى ذهب ريحهم تماماً أول هذا القرن، وقضية الغنى والفقر تحتاج إلى بيان صحيح، فإن جمهور المسلمين كان يفضل الفقر على الغنى، ولا تزال كتبنا المتأخرة ترى أن الفقير الصابر أفضل عند الله من الغني الشاكر، وقد يجري على لسان المسلم في ذم الثراء وأهله قوله تعالى : (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، وتزهق أنفسهم وهم كافرون)[2].

وهذا خطأ فاحش، فالآية في الأغنياء الذين سخروا ثرواتهم في نصرة الباطل وضرب الإيمان، وهل هزم هؤلاء إلا أغنياء سخروا أموالهم في نصرة الحق وكسر الطغيان ؟ إنه لأمر ما أحصى الله العشرة المبشرين بالجنة، فكانوا

(١) سورة الأنعام آية ٩٩.
(٢) سورة التوبة آية ٥٥.

جميعاً من هؤلاء الأغنياء الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله.

إن المال قوة هائلة، والقدرة على مساندة الدين به عمل صالح راجح.

وتسأل : كيف تبني مدرسة أو قلعة، وتزود هذه وتلك بالمعلمين والمقاتلين ما لم يكن ثَمَّ مال موفور ؟ وكيف تنشأ أجهزة الحرب والسلام وهي الآن فنون باهظة الكلفة ما لم يكن وراءها مال ممدود.

ان ترجيح البأساء والضراء على النعمة والعطاء تفكير بالغ السخف. والمال، كما قال القرآن الكريم في أثره، أساس الحياة : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما)[1].

ونحن لا نعرف مصير كل فرد ولا دخيلة نفسه ولا حقيقة نيته، ولا تزال أنصبة الناس من الفقر والغنى مجهولة السبب.

ففي البلاد الشيوعية فقر حقيقي وغنى حقيقي، والتمتع الذي يباح للوزير أو مهندس الفضاء غير ما يتاح للساعي أو الجندي.

وفي البلاد الأخرى فقر وغنى كذلك وقد اعتبر القرآن الكريم أن كلا الحالين ابتلاء يحكم الله فيه يوم اللقاء.

وليس ذلك إلينا، وإنما الذي نستطيع تقريره بقوة أن الصعلكة لا تساند قيمة ما وأن الغنى مطلوب لتربية الفرد وتقوية المجتمع.

ويظهر أن هناك خلطاً بين الغنى والاسراف والترف، وأن هناك خلطاً لذلك بين الفقر والقصد والاستعفاف، وهذا الخلط مرفوض بدءاً ونهاية، فلكل معنى حكمة والذي نريد توكيده أن على المسلمين امتلاك الدنيا وحسن بذلها لله، فإن الفقر العام شَانَ حضارتهم في القرون الأخيرة، وجعل أيديها السفلى في أكثر من ميدان.

الجبرية في العالم الإسلامي :

من أسباب انهيار حضارتنا شيوع مبدأ الجبرية بين الناس، فالمرء لا

(١) سورة النساء آية ٥.

حول له ولا طول، ولا قدرة ولا إرادة، وإنما هو يحيا بتوجيه خفي أو جلي من مشيئة الله التي تدفع به ذات اليمين أو ذات الشمال، والتي تهيىء له حياة العسر أو حياة اليسر برغمه.

وقد يذكر من باب التغطية أو الاعتذار عن الشرع (!) أن للإنسان كسباً أو اكتساباً، والحقيقة أنه مسلوب الإرادة على حد قول الصوفي.

أنا قلم والاقدار أصابع.

وما يصنع القلم وحده ؟ إنه أداة وحسب.

أو كما يقول الجبريون أنفسهم في بيان حال الإنسان مع الأقدار الغالبة :

كريشةٍ في مهب الريح حائرة   لا تستقر على حال من القلق

ولا يزال أغلب المسلمين إلى يومنا هذا يرون أن الطاعة والمعصية والغنى والفقر حظوظ مقسومة وأنصبة مكتوبة، وأن المرء مسيّر لا مخيّر.

ونشأ عن ذلك أن الشخصية الإسلامية اهتزت، وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية.

والسبب في ذلك علم الكلام والتصوف وبعض مفسري القرآن وشرّاح السنن.

إن التربية الصحيحة تقوم على حقائق واضحة، وعلى تقرير حاسم للمسئولية الإنسانية ولا يجدي في هذا المجال جدل ولا لعب بالألفاظ.

ومذهب الأشعري الذي اعتنقه جمهور المتأخرين يتحدث عن المسئولية الشخصية بأسلوب غامض لا تتضح معه عدالة التكليف حتى قال الظرفاء فيه، أخفى من كسب الأشعري.

أما الصوفية فقد محقوا الإرادة البشرية، وجعلوا الإنسان مشدوداً بخيوط الهية إلى مصيره المجهول أو المعلوم.

وكذلك فعل بعض علماء التفسير والحديث وهم يشرحون النصوص المتصلة بالقدر ولا بد من تخليص العقل الإسلامي من هذا القصور والتخبط

بحيث يقبل المسلم على الحياة وهو موقن بأنه مكلف حسب استعدادات حرة، وأن له قدرة وإرادة يملكان قدراً من الاستغلال يسأل به عما يفعل، وأنه لا جبر ولا افتيات ولا تمثيل في قصة هذه الحياة التي نحياها.

المسلمون وقانون السببية :

وينضم إلى شيوع مبدأ الجبر ضعف الصلة أو انقطاعها بين الأسباب والمسببات فعدد كبير من المربين والموجهين أشعروا الأمة بأن النار قد توجد ولا يوجد الإحراق، وأن الماء قد يوجد ولا يوجد الري، وأن السكين قد توجد ولا يوجد القطع، وأن الواجبات العادية قد تتخلف، وأن قانون السببية ـ على الإجمال ـ غير ملزم ولا مطرد.

وعلماء الكلام الذين مالوا إلى هذا الرأي أرادوا الرد على بعض الفلسفات الإغريقية التي تجعل الأسباب خالقة، وتنسب إلى الطبائع ما يقع هنا وهناك.

وكلام اليونان أن الطبيعة تخلق، وأن السبب ـ من ذاته ـ يفعل هو كلام لا وزن له، ولا دليل عليه بيد أن الرد لا يكون بنفي ما أودع الله في الأشياء من خواص وما ناطه بها من آثار، فإن الأسباب ـ بقدر الله فيها ـ تؤتي نتائجها حتماً، أما خوارق العادات فلها شأن آخر وتعليلات فوق المعارف المعتادة وهي، إذا صدقت فهي شذوذ يؤكد القاعدة ولا يهدمها.

لكن المسلمين ـ خصوصاً في القرون المتأخرة ـ جعلوا الدنيا لا تضبطها قاعدة ولا يحكمها قانون، ومن المقبول عقلاً وشرعاً أن يتزوج رجل في المشرق بامرأة من المغرب، وأن تلد منه على بعد الشقة، لأنه قد يكون من أهل الخطوة، أي ربما انتقل من المحيط الهندي إل الأطلسي في لحظة ما من ليل أو نهار.

وهذا التصور المخبول لا ينضج معه علم، ولا يصح فيه بحث، ولا يملك أصحابه الأدوات التي يحققون بها نجاحاً عملياً في هذه الحياة.

والمقرر في العلوم الكونية والتجريبية والإنسانية وغيرها أن قانون السببية محترم وأن رفضه جنون.

والغريب أن كتابات دينية كثيرة جعلت (الولاية) مقرونة بخرق العادة، ولما كان في كل قرية شيخ مشهور بالصلاح، ولما كان لا يخلو زمان من هؤلاء الأشياخ العظام.

ولما كان خرق العادة يقع منهم أحياء وأمواتاً بطريقة يعتبر إنكارها جرماً فإن سيلان الخوارق زحم العالم الإسلامي، وجعل قانون السببية لغواً، وكان لذلك أثر محزن في انهيار حضارتنا واختلال ثقافتنا.

وقد تدارك العلماء هذا العوج وألفوا رسائل في دعم قانون السببية وضرورة احترامه.

والشيء الذي نقف عنده قليلاً هو هوس بعض الكاتبين في إثبات الولايات وخوارقها وكأن الرسالة الإسلامية ما جاءت إلا لإثبات هذه القضية.

والذي بدا لي أن هذا الهوس يرجع إلى التعلق بغير الله ودعاء المقبورين لعمل العجائب.

فإذا قلت : رجل مات ما تنتظرون منه ؟ قيل : إنه ــ حياً أو ميتاً ــ يفعل بقدر الله، فالتعلق به لا ينكر، فإذا اعترضْتَ جاء الاتهام السريع : أتنكر كرامات الأولياء ؟ وأمة يدور تفكيرها في هذه القوقعة كان لا بد أن تنهار أمام أعدائها.

تقاليد الرياء في المجتمعات الإسلامية :

كان السلف الأول أسلم الناس فطرة، وأصفاهم طبيعة، كان الله تبارك اسمه غايتهم فيما يفعلون ويتركون، وكان رسوله قدوتهم المحببة، وكان هواهم تبعاً لما جاء به ﷺ.

وكان انقياد الأمم لهم يتم بعد التعرف عليهم والتفرس في سيرتهم، والواقع أن هذا هو السر الأول في انتصار الإسلام واستقراره في الأرض.

أما مسلمو القرون الأخيرة فقد استحدثوا تقاليد كثيرة في نواحي حياتهم كلها، تقاليد تقوم على التكلف والتزويق وتبتعد عن فطرة الإسلام السائغة، وجعلوا هذه التقاليد حدوداً صارمة لا يتعدونها مهما فدح ضررها.

لما تأيمت حفصة بنت عمر بن الخطاب من زوجها الأول لم ير الرجل الكبير غضاضة من مفاتحة صديقه أبي بكر في الزواج منها.

وعمر بهذا التصرف رجل يحترم الطبيعة الإنسانية وتتحرك في فؤاده عاطفة الأبوة، والإطار الذي يعمل داخله هو فطرة الإسلام السهلة فلا ريبة إلا فيما يغضب الله، وكرامته الخاصة مصونة وغالية ما بقي حريصاً على مرضاة الله ورسوله ثم خلفت خلوف لها منطق آخر يحار فيه أولو الألباب.

الرجل له ابنة في سن الزواج بل توشك أن تتخطاه، يجيئها خطيب كفؤ يعرض المهر الذي استطاع جمعه، فإذا الأب يقول في صراحة : لا، لا بد من عشرات الألوف من الريالات.

ثم تمر السنون ويغلق الأبواب على عوانس كثيرات بائسات يائسات، لِمَ ؟ لأن تقاليد الرياء التي تحكم المجتمعات الإسلامَية في بلاد كثيرة حكمت بهذا البتات.

إن الرياء شرك، وهذا الشرك سيطر على أعراف وعادات جعلت المسلمين يرقب بعضهم بعضاً ويتقي بعضهم بعضاً، وجعلت الرجل ـ باسم كرامته الخاصة أو كرامة الأسرة التي ينحدر منها ـ يعيش طول عمره وفق أوضاع وقيود من صنع الاستعلاء والتزمت.

أراد عمر بن عبد العزيز إسراج مصباحه فقام وفعل ما أراد، فقال له واحد من المجلس كنت تأمر أحدنا بذلك، فقال : قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

إن الرجل العظيم لم يحس غضاضة في تصرف يأنف منه الصغار في عصور الانهيار، ولا غرو فعمر يقلد رسول الله ﷺ الذي قام بنفسه يخدم وفد الحبشة فلما قيل له نكفيك هذا، قال : لا، إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين.

وهو الذي رأى أن يجمع الحطب عند اعداد الطعام واشتراك الأصحاب في ذلك فلما عرضوا عليه أن يستريح أبى لأن الله يكره أن يتميز الرجل على أصحابه، إن الأمة الإسلامية في القرون الأخيرة جمعت الكثير من

الجاهليات في مسالكها الخاصة والعامة، في نفقاتها، في صداقاتها، في أحزانها، وأفراحها، في علاقاتها بحكامها، ولم تكن تفسيراً عملياً لأحكام الإسلام وحدوده، ودهماء محصورون في طلب القوت، ومساجد سامقة البناء، يعمرها من لا همة لهم ولا طموح، وكأن المسلمين أخوة لمن وجدهم ذو القرنين دون السدين : (لا يكادون يفقهون قولا..............).

وضع المرأة في عصور الضعف :

في حديث مكذوب رواه الحاكم أن المرأة لا يجوز أن تتعلم الكتابة، وفي حديث متروك آخر أن المرأة لا يجوز أن ترى أحداً ولا يراها أحد.

على هذه الآثار انبنى حرمان المرأة من التعليم ومنعها من الذهاب إلى المدرسة وفي مرويات أخرى تخالف المتواتر والصحيح من السنن حظر على النساء جملة الذهاب إلى المساجد، فأقفرت منهن بيوت الله، وانقطعن عن التوجيه الديني، فلا قرآن ولا حديث ولا فقه، فضلاً عن سائر العلوم الأدبية والانسانية.

وبذلك أصبحت المرأة المسلمة دون غيرها من نساء العالم أقل ارتباطاً بالدين واتصالاً بالمجتمع.

ولما كانت المرأة ربة البيت وحاضنة الأولاد وغارسة الشمائل الطيبة أو الخبيثة والأفكار الخاطئة أو الصحيحة، فإن حبل التربية اضطرب في العالم الإسلامي اضطراباً شديداً وكان ذلك لا ريب من أسباب خوره وانهزامه.

وقضية المرأة لا تعالج على ضوء النصوص قدر ما تعالج على ضوء ملابسات نفسية أخرى، فهناك ناس مصابون بسوء الظن وشدة الغيرة، وتصديق الأوهام، وهناك مصابون بعلل الشيخوخة وأعراض الضعف الجنسي، يتطيرون من خروج المرأة إلى مسجد أو مدرسة فيطوحون بكل قول صائب إيثاراً لما وقر في نفوسهم.

فإذا انضم إلى هؤلاء أتباع الشائعات العلمية والآثار التافهة علمنا أي حيرة تكتنف قضية المرأة.

والواقع أن الملك فيصل رحمه الله لم يتمكن من تعليم البنات في

السعودية وفتح المدارس لهن إلا بعد لَأْيٍ وفي وجه مقاومة ما كان غيره يستطيع التغلب عليها.

وبديهي أن الخط الذي رسمه الإسلام للمرأة غير الخط الذي رسمته الحضارة الحديثة، فإن هذه الحضارة أطلقت الاختلاط وارتضت نتائجه على الأعراض، ورفضت قيماً مقررة في كل وحي نزل.

وقد يكون الأغبياء من رجال الدين أحد الأسباب وراء هذا الانحلال، كانوا يعاملون المرأة بعقلية السجان، فجاء من قذف بها في الطريق متحررة من كل شيء.

إن تعلم المرأة وتعبدها يجعلان منها إنساناً مصوناً مأموناً ويجعلان منها ربة بيت منجبة محسنة، تنشأ الأجيال في كنفها وفي تألف الشمائل الزاكية والمسالك العالية. وأكاد أجزم بأن انهيار التربية السليمة في العالم الإسلامي ـ خلال الأعصار المتأخرة ـ يرجع إلى أن المرأة قصرت على الشئون الحيوانية من طعام وسقاء، وأن ما وراء ذلك يجيء على هامش حياتها، وحياة الأسرة.

عندما كانت المرأة تذهب إلى المسجد حتى القرن الخامس السادس كانت مصدر خير لرجلها وولدها والجماعة كلها، وقد قرأت أن سيدة مؤمنة تأثرت بحديث خطيب المسجد عن جهاد الصليبيين، وما أعد الله من درجات علا لأولئك المجاهدين، ولكن أنى لها الجهاد وهي امرأة ؟ فماذا تصنع ؟ جذت شعرها المسترسل وبعثت به إلى المسجد مع رقعة كتبت فيها : إنها ترجو أن يجدل هذا الشعر ليكون حبلاً يقيد به جواد احد المجاهدين في سبيل الله.

قرأ الخطيب الرقعة على الناس، وضج المسجد بالبكاء والتكبير.

وانبعث أولو النجدة والبأس إلى الميادين بعد ما هزهم هذا المثل من امرأة مؤمنة أن حملة الصليب لم ينكسروا وينكسر معهم شعارهم إلّا بهذه المعادن الصلبة من الإيمان الصاحي في قلوب الرجال والنساء على سواء.

أما النسوة الجاهلات فهن يحسن البكاء على عقود أو الصياح لرغبة

لم تجب وما يدرين عن قضايا الدين والدنيا شيئاً.

ونحن نؤكد مرة ومرة أن مكانة المرأة المسلمة في المجتمع المسلم شيء آخر غير ما يقع في أوروبا وأمريكا الآن للنساء، وشيء آخر غير ما يقع في أقطار واسعة من العالم الإسلامي حيث شخصية المرأة ممحوقة من الناحية الدينية والثقافية وقد تكون باقية للحديث عن ثوب غال وحلية نفيسة، أما ما عدا ذلك فهي منه صفر.

وأذكر أن بعض الحراس على تقليد الجهل ناقشني في هذا الموضوع وقال : الزوج أو الأب يعلم النساء في البيت ويعودهن الصلاة داخله، ولا معنى لخروجهن والتعرض للفتنة.

قلت : إن صاحب الرسالة لم يرسم هذه الخطة التي تقترحها، فهي مرفوضة من هذه الناحية وناحية أخرى، ان هذا الذي ترجوه معلماً لأهل بيته يحتاج مثلهن للتعليم، ضعف الطالب والمطلوب.

المرأة الروسية غزت الفضاء، ويراد أن تعجز المسلمة عن معرفة الطريق إلى المسجد، كل دين في عصرنا مهما بلغ بطلانه ربط النساء بمعابده، ويراد من الإسلام وحده أن ينفي النساء عن بيوت الله.

لقد أشرت إلى أن قضايا النساء لا تعالج بعلم قدر ما تعالج بعقد نفسية وأمزجة سوداوية وقصور يدعي الغيرة ويتطاول على الحقائق والمعالم التي صان الإسلام بها الأعراض ينبغي إبرازها، فلا خلاعة ولا تبرج ولا يؤذن بخلوة مع أجنبي، ولا يؤذن بعمل ما يؤدي إلى ذلك، والأعمال الفنية والإدارية التي يقوم بها النساء، وكذلك جميع الثقافات اللاتي يحتجن إليها أو يرغبن فيها يمكن أن توضع لها الضوابط الإسلامية التي تحفظ حدود الله.

والحكم في هذه الأمور لا يؤخذ من أشباه حفيد عمر الذي قال لأبيه بنزق وطيش : والله لنمنعهن ـ وهؤلاء كثيرون في دنيا الناس ـ إنما يؤخذ الحكم من الفقه الصادق في الكتاب والسنة.

والغريب أن الشيخ محمد ناصر الألباني ألف كتاباً في الحجاب اعتمد فيه على ما ثبت من نصوص، ولكن الكتاب منع تداوله لأنه على غير

ما يهوى البعض، فإن عقلية السجان لا تزال تسيطر على نفر غير قليل من المتحدثين في شئون المرأة، إنهم يريدونها محبوسة في قعر الدار لا ترى أحداً ولا يراها أحد حتى تنتقل من ضيق البيت إلى ضيق القبر.

ذيـول الأدب العربي :

التدين الفاسد لا يكسب الآخرة، ولا يحفظ الدنيا، وقد لوحظ أن المسلمين لما ضعف إيمانهم وجفت ينابيع التقوى في أفئدتهم، أضاعوا دولتهم القائمة على قيم بينة، وأضاعوا في الوقت نفسه عناصر حياتهم العاجلة وفقدوا الإحساس بالجمال والقبح وأصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر، وقل الأدباء المصورون، كما قلَّ المؤلفون والمفكرون، ونظرة إلى الأدب ورجاله منذ القرن السادس تجعلنا نشعر بهذه الحقيقة، فالديباجة الفخمة والنفس الرائق والوصف الكشاف والحكمة النفاذة والغزل الرقيق والرثاء الذي يغزو النفوس بالحزن الرفيع والمدح الذي يرسم المثل العالية خلال الثناء الصحيح أو المزعوم، كل ذلك تلاشى.

وانكمش الأدب شعراً ونثراً انكماشاً يثير الاشمئزاز فبعد أن كان الشاعر يقول القصيدة ملأى بالجمال الفني أياً كان موضعها جاء شعراء صغار احتقر التاريخ أسماءهم، بقول أحدهم ملغزاً في خاتم، أو واصفاً شمعة أو مهنئاً بمناسبة، وكان العرب في جاهليتهم أقدر على الحياة وأشعر بأفراحها وأحزانها منهم بعد سقوط بغداد، أو حتى بعد فتح القسطنطينية.

وقد فار الأدب العربي أوائل هذا القرن الرابع عشر فورة عظيمة، وجد شعراء كشوقي ومحرم والبارودي وحافظ والزهاوي والرصافي، كما وجد أدباء أعادوا للعربية قوة الأداء وسحر البيان، ولكن هذه النهضة اعترضت بقوة ويجري الآن قتلها ومحو آثارها، لأن القضاء على اللغة العربية جزء من المخطط المرسوم للقضاء على الإسلام نفسه.

ونريد التنبيه إلى أن ازدهار الأدب يعين الدعوة الإسلامية على الانطلاق كما يعين مراجع الإسلام الأولى على التألق وقرب الانتفاع منها.

ويوجد علماء دين في هذا العصر نصيبهم من الأدب العالي والبيان

الشافي قليل، وهؤلاء عبء على الإسلام وفقهه ودعوته، فإن معجزة هذا الدين كتاب، ورسوله إنسان مرهف الحس أوتي جوامع الكلم، فكيف يتذوق الإسلام امرؤ محروم من الذوق الفني ومن القدم الراسخة في اللغة وآدابها ؟!!

سياسة المال في المجتمع :

اضطربت سياسة المال وساء تداوله في المجتمع الإسلامي، ونشأ عن ذلك فقر مدقع وترف مفسد، وكادت تعاليم الإسلام في هذا الميدان الخطير تنسى أو تجحد.

أ) إن الأرض لم تشهد جيشاً يسير لأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء الباخلين إلّا الجيش الذي سيره الخليفة الأول، ولم تشهد فقهاً اقتصادياً منصفاً للكادحين والمساكين إلّا فقه الخليفة الثاني.

وبين الحين والحين تبرق لمع من العدل تضيء الطريق للمتبعين ولكن أغلب الحكام لم يهتم بهذا الجانب الإسلامي، فتعرضت جماهير الفقراء لغبن كبير.

ب) أعلن الإسلام أن المال صنو النفس وأن الحفاظ عليه والدفاع عنه يساوي المحافظة والمدافعة عن الدم والعرض.

ومع ما تقرر من أن كل لحم نبت على سحت فالنار أولى به، فإن كثيراً من الحاكمين وحواشيهم أخذ الأموال الوفيرة عن طريق النهب الذي ترتفع له العيون دهشة أو طريق الرشوة التي لا تقضى الحاجات إلّا بها.

ومن أقبح صور الرشوة والفساد ما وقع من (بلطجي باشا) قائد الجيش التركي، فإن الجنود المسلمين استطاعوا تطويق الروس في إحدى المعارك الحاسمة وكادوا يقضون عليهم قضاء مبرماً، ولكن القيصرة كاترين ذهبت إلى القائد التركي بنفسها ومالها وكان ما كان، وصدرت الأوامر بفك الحصار.

واستأنف الروس ضربهم لدولة الخلافة الضرب الذي قرب الرجل المريض من الموت، وشيوع الرشوة بين المسئولين الكبار أمر يخزي حتى قيل :

وزير لا يمـل من الرقاعـة يولى ثم يعزل بعد ساعـة
إذا أهل الـرشا صاروا إليـه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

والصورة الساذجة للرشوة مال يهدى، ولكن صور الرشوة أمست أعقد من ذلك وأبعد عن المؤاخذة، ولكن هل من نجا من مؤاخذات الجماعة يفر من عقاب الله ؟ (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين والوزن يومئذ الحق......)[1].

ج) البطالة آفة تأكل الدولة وتجرها إلى الحضيض، والمفروض أن الدولة مسئولة عن إيجاد شتى الحرف للعاطلين، وافتتاح أبواب الرزق من أبعد مظانها حتى تضمن موارد ثروة لهم ولها، وإلّا فكيف تؤدي رسالتها ؟.

إن النبي ﷺ وجه العاطلين للعمل، وعدَّ نفسه مسئولاً عن القاعد حتى يعمل والمحتاج حتى يجد.

والدولة التي ترفع رايات الوثنية والإلحاد والشرك ترى من صميم وظيفتها النهوض بهذا الواجب فكيف تنكل عنه حكومة مسلمة ؟.

والبطالة المقنعة لا تقل سوءاً عن البطالة الصريحة، ومن المأثور عن عمر بن الخطابُ إني أرى الرجل فيعجبني فإذا علمت أنه لا عمل له سقط من عيني.

وقد امتلأ العالم الإسلامي بالطاعمين الكاسين من فضول أموال لا يدرى كيف نبتت أصولها، ولا بد من النظر بخوف إلى هذه الفئات التي تستهلك ولا تنتج والذي يدفعنا دفعاً إلى هذا النظر، ليس ما وقع في الماضي فقط من مآسي شداد إنما هو ما يقع في العالم الآن من تجنيد لكل الطاقات.

ونحن نعلم أن دولاً تقوم الآن على أن بطاقة الأكل لا يحرزها إلّا من لديه بطاقة عمل، فمن المهم أن تعمل الحكومات الإسلامية بجد على جعل العمل معصوباً بجبين كل رجل بحيث لا يبقى مكان محترم للبطالين.

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ٧ ـ ٨.

الفســاد السيـاسي :

يقول الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)[1] لكنه في ميدان الحكم طاحت الأمانات وقلما عثر لها على أثر.

ما وسد الأمر إلى أهله، وما حاول الذين وسد إليهم الأمر أن يرتفعوا إلى مستواه، ولا قنعوا مادياً وأدبياً بالعيش في نطاقه المحدد.

لقد خولفت خطة السلف في اختيار الأكفاء فإذا كان أبو بكر بويع لأنه أفضل الناس، وإذا كان عمر اختير لكفاءته وقوته فإن الجمهرة العظمى من الحكام ولوا مناصبهم دونها بمراحل، ولما ولوها اتخذوها مصيدة لدنيا عريضة واستمتاع مطلق، وكانت نتيجة ذلك وبالاً على الدولة وسواد الأمة ومستقبل الرسالة.

وقد بدأ هذا الانحدار رويداً، ثم شرع على اختلاف الليل والنهار يتكشف حتى سقطت الخلافة أول هذا القرن.

واقترن باختيار الخلفاء على ذلك النحو ما يلي من مخالفات دينية :

أ) أهملت الشورى، ولم يعتمد عليها الحاكمون في أحكام الشئون الدينية مع أن الإسلام قرر أن المجتمع يقوم على التناصح والتواصي بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على الخير ورفض الإعجاب بالرأي والافتيات على الجماعة، وهذه المعاني قد تقع لها صور ساذجة فيما يدور بين الناس من حديث أو فيما يسعون له من مصالح، لكنها تحتاج إلى مؤسسات جادة ضخمة لضبط شئون المسلمين بين المحيطات العظمى التي تحدّ عالمهم الكبير.

ب) العجز الإداري، وهو وراء الفتوق والخروج على الدولة في عهود شتى ونشوء دويلات كثيرة، بعضها لم يخلص للإسلام ولاؤه، بل بعضها كان حرباً عليه.

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٧

ومن الفواجع أن دولة القرامطة فتكت بقوافل الحجيج سنين عدداً، وأنها انتزعت الحجر الأسود من مكانه، وعجزت دولة العباسيين عجزا مفضوحاً عن استرداده، فما عاد الحجر إلا بتفاهم بين القرامطة والفاطميين.

وقد فرض النظام اللامركزي نفسه في وجه رغبة من الخليفة العاجز أن يحكم القارات دون مواهب وقدرات.

وقد يختفي العجز الإداري حيناً مع وجود حاكم شديد البأس، ثم يبرز الداء ويعاني المسلمون آلامه.

جـ) فقدان الأجهزة المسئولة عن الدعوة في الداخل والخارج. المسلمون حملة رسالة، ودولتهم تنهض على فكرة معينة، وبديهي أن تتكون في مجتمعهم الأداة التي ترقب سير الدعوة في الخارج وتشرف على كيانها في الداخل، وأن يكون هناك رصيد يقظ للأرباح والخسائر، والانتصارات والهزائم، وقد كنت أسأل نفسي أحياناً : وهل انعقد مؤتمر للبحث عن سبب سقوط القدس في الحملة الصليبية الأولى ؟ هل انعقد مؤتمر للبحث عن سقوط بغداد وأسباب اجتياح التتار للدولة ؟، هل انعقد مؤتمر للبحث في أصول مسلمي الأندلس وتعرض دولتهم للانكماش حتى تلاشت !!. تلاشت !!.

إن الجفوة الرهيبة بين العلم والحكم كانت من وراء الاضطراب الشديد في العالم الإسلامي، وكانت من وراء الذهول المعيب عن قضاياه الكبرى.

ربما كان هناك اكتراث شعبي ينفح العلماء أحياناً ليتحول إلى عمل مبرور وجهاد صالح، لكن الحكام كانوا في واد آخر ولعلهم آخر من يعلم ويتحرك.

د) مع الغفلة السائدة عاشت داخل الكيان الإسلامي فرق دينية أبطنت الخيانة والمروق وظلت تنتظر الفرص المواتية لضرب الإسلام وطعن أمته في ظهرها، وقد تحركت هذه الفرق مع الزحف الاستعماري الأخير وأعانت الغزاة على إدراك لباناتهم من هذا الدين المسترسل السمح.

كيف ننهض بالمجتمعات المسلمة المعاصرة

للأستاذ محمد رأفت سعيد
المحاضر بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
والمشرف على النشاط الثقافي بها

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم ونستعينك ونستهديك، ونصلي ونسلم عل خاتم أنبيائك ورسلك سيدنا محمد.

وبعــد ..

فإن معالجة هذا الموضوع تتعدد بتعدد الوسائل، وترتيبها في نظر كل بـاحث.

وهذه الوسائل كلها تهدف في النهاية إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ووسائل النهوض بالمجتمعات المسلمة المعاصرة كثيرة، فبعض الباحثين يرى أن الجانب الاقتصادي له أهمية كبرى في ذلك فيركز عليه، والبعض يرى أن الاهتمام بالتعليم هو الأهم في النهوض بتلك المجتمعات، وفريق ثالث يرى أن العناية بالقوة العسكرية هي الوسيلة، وتبع ذلك كثرة في الخطط (لا شك أنها مفيدة) وكثرة في اللقاءات والمؤتمرات (ولا شك أنها مثمرة).

لكني أرى أن الآثار المترتبة على تلك الخطط لا تصل بالمجتمعات المسلمة إلى نهضة. فالمجتمعات كما هي ــ بل تزداد عن إسلامها بعداً. فما السبب في ذلك ؟..

السبب في ذلك هو أن هذه المجتمعات لا تتفاعل مع هذه الخطط ؛ لأن أجهزة التفاعل فيها قد فسدت أو شغلت بما لا ينفعها، ولذلك أقبلت على هذه الأجهزة في الإنسان محاولاً التعرف على خصائصها وكيف تسلم. وكذلك كيف تمرض. لنصل بعد ذلك إلى خطة نستطيع بها أن نصلح أجهزة التفاعل في مجتمعاتنا ؛ فنقبل بها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مسترشدين بفهم السلف الصالح لهذين المصدرين لنحسن التلقي عن الكتاب والسنة ؛ فنأخذ بكل ما جاء عن الله ورسوله فننهض في فكرنا وفي اقتصادنا وفي حربنا وفي علاقاتنا الاجتماعية وعلاقاتنا بالأمم الأخرى. أو قل لنصل بهذا إلى ما كان عليه سلفنا الصالح. « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود »[1].

وأحب قبل أن أتحدث عن هذه الأجهزة. وهي السمع والبصر والفؤاد أن أشير إلى أن حديثي عنها سيكون في دائرة الكتاب والسنة، ولن تكون هناك شطحات تخرجني إلى عالم الخيال، إن شاء الله تعالى.

ان مفتاح هذا البحث في قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر. فهل من مدكر ؟ »[2].

إنه في هذا التقرير الصادق والاستفهام الذي يليه.

ولنبدأ في عرض هذا التقرير الإلهي لتيسير القرآن للذكر ؛ حتى لا يبقى للإنسان عذر يعتذر به من عدم الاعتبار أو « الادكار ».

لقد يسر القرآن الكريم للذكر منذ أن دوى صوت في جو السماء ينادي يا محمد أنت رسول الله. وأنا جبريل..

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

(٢) سورة القمر آية ١٧.

« نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين »[1].

فحامل الوحي إلى النبي - ﷺ - أمين - والاشارة بنزول الوحي على قلب النبي ﷺ تفيد أنه نزل في قرار مكين ومع تمكن الوحي من القلب فهو في وضوح وجلاء لا يداخله لبس أو غموض فهو « بلسان عربي مبين »[2].

وذاق النبي حلاوة القرآن فتشوق إلى استقباله، وإذا قرأ عليه جبريل حرك لسانه شوقاً فأوحى الله إليه مطمئناً له « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه »[3].

فوعد الله سبحانه رسوله ﷺ بجمع القرآن في قلبه وإقراء القرآن له، وكذلك على الله بيانه.

ويحفظ الرسول الكريم ما ينزل عليه من الوحي ويأمر بكتابته على أدوات الكتابة المعروفة آنذاك ويحفظ من يجلس إليه من أصحابه، فإذا عاد الرجال إلى بيوتهم كانت الزوجات حريصات على معرفة ما ينزل من الوحي فيحفظن كما حفظ أزواجهن. ثم يعلمن أطفالهن. فالقرآن الكريم يرتل في مجالس النبي ﷺ ويرتل في الصلوات وفي قيام الليل ويرتل في البيوت. والرسول الكريم يشجع عل ذلك ويذكر ما أعده الله لمن يتلو كلامه : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور »[4].

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن هو حبل الله. النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن رد. فاتلوه فإن الله يأجركم

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ١٩٣ - ١٩٤.
(٢) سورة الشعراء آية ١٩٥.
(٣) سورة القيامة الآيات ١٦ - ١٩.
(٤) سورة فاطر الآيتان ٢٩، ٣٠.

على تلاوته بكل حرف عشر حسنات. أما اني لا أقول ألم حرف »[1] ويقول ﷺ : « من أعطي ثلث القرآن فقد أعطي ثلث النبوة ومن أعطي ثلثي القرآن فقد أعطي ثلثي النبوة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطي النبوة كلها غير أنه لا يوحى إليه ويقال له يوم القيامة اقرأ وارق فيقرأ آية ويصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له اقبض فيقبض ثم يقال له : أتدري ما في يديك فإذا في يده اليمنى الخلد وفي اليسرى النعيم »[2].

فهذا الحث الكريم من النبي ﷺ والتشجيع على التلاوة يتضمن أيضاً وصفاً تفهم منه الخصائص التي منحها الله لكتابه والتي يستطيع الإنسان أن ينتفع بها إذا أحسن في تلقيها. ولا شك في أن هذا قد حبب الصحابة في الإقبال على القرآن الكريم وشجعهم على تلاوته وحفظه والعمل به والتفاني في تبليغه فضلاً عن أسلوب القرآن المتميز والآخذ بالقلوب في حماسة واقناع عقلي حكيم. وفوق كل ذلك الشعور بسمو القرآن الكريم على كل كلام وإيمانهم تبعاً لذلك أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب المعلم ﷺ.

ونستطيع أن نقول إن منهج الصحابة مع القرآن الكريم كان كما علمهم النبي ﷺ :

١ ــ الاستماع.
٢ ــ ثم الفهم لما يسمع.
٣ ــ فالحفظ لما يفهم.
٤ ــ يتبع ذلك بالعمل.
٥ ــ ويكون الإخلاص رائداً للمسلم في كل ذلك.

وقد سجلت السنة المطهرة لأصحاب النبي ﷺ كل هذا. فهم إذا جلسوا إلى النبي ﷺ فكأن على رؤوسهم الطير. آذانهم تسمع وقلوبهم تخشع إلى ذكر الله وما نزل من الحق.

---

(١) ص ٥ من تفسير القرطبي. وانظر الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ١٧١ حديث ٢٠٨٢.
(٢) ص ٧ من تفسير القرطبي. وانظر الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ١٦٧.

والمجلس النبوي الذي كان يشهد آيات الله ووحيه كان على أعلى مستوى للبيئة العلمية فهو مجلس لا تسمع فيه همساً إذا علا صوت النبي ﷺ.

وقد تولى القرآن الكريم تأديب الصحابة بأدب الاستماع الجيد حين قال لهم : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم »[١].

فالجالسون في مجلس النبي مستمعون أفسحت ألسنتهم المجال لآذانهم كي تتحقق من السماع إلّا في سؤال يوجه أو استزادة تطلب أو مراجعة في أدب. يوضح المعنى ـ أيضاً ـ حديث النبي ﷺ الذي يلقن فيه أدب الإنصات حين التلقي الجماعي فيقول : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب :« أنصت » « فقد لغوت »[٢].

فالجو كان مهيئاً للاستماع الحسن الذي يتبعه الفهم ثم الحفظ وذلك بتعاهد ما سمع وفهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت ».

فإذا ما حفظوا ترجموا هذا المحفوظ إلى أعمال أي أن القرآن الكريم حفظ في قلوبهم وحفظ أيضاً في سلوكهم فعن علي رضي الله عنه قال : كانت السورة إذا نزلت على عهد رسول الله ﷺ أو الآية أو أكثر زادت المؤمنين إيماناً وخشوعاً ونهتهم فانتهوا »[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعلم ما فيه فقيل

---

(١) سورة الحجرات الآيتان ٢ ، ٣.

(٢) رواه الجماعة إلا ابن ماجه، انظر فقه السنة ص ٢٦٥ جـ ٢.

(٣) ص ١٩٩ من حياة الصحابة.

لشريك : من العمل ؟ قال : نعم »[1].

وظل هذا الحال حتى اكتمل نزول القرآن الكريم حفظه الرجال والنساء والأطفال، ويرتل في البيوت فيسمع لهم بالليل دوي بالقرآن كدوي النحل. وقصت علينا السيرة استماع الرسول الكريم لأبي موسى (وكان يقرأ في بيته) وأثنى الرسول الكريم على قراءته وصوته وأنه يشبه أصوات آل داود فيجيب أبو موسى : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً.

كما حكت السيرة تأثر عمر بآية سمعها من بيت مسلم فتوقف من سماعها، فالذي يسير في الشارع يسمع القرآن، والذي يجلس في المسجد يقرأ أو يسمع القرآن، والذي يصلي يصلي بالقرآن، وصبغت الحياة بالصبغة القرآنية. وكان جبريل ينزل في ليالي رمضان فيدارس النبي ﷺ القرآن، وعرضه في جبريل في العام الأخير عرضتين.

ولحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى وقد حفظ القرآن الكريم كله في الصدور، كما سجل في السطور. ميسراً ومبيناً.

وجاء عهد أبي بكر وشاوره عمر في جمع القرآن الكريم المكتوب في أدوات الكتابة (يومها) في مصحف واحد. وبعد مراجعة شرح الله صدر أبي بكر لما شرح له صدر عمر، وتكونت لجنة بإمارة زيد بن ثابت وكانت تشترط لكتابة النص القرآني وجود حافظين من الرجال بالإضافة إلى النص المكتوب حتى تم تسجيل القرآن الكريم بتلك الطريقة العلمية الدقيقة في مصحف واحد حفظ عند أبي بكر، فلما مات أبو بكر حفظ عند عمر، فلما مات عمر حفظ عند أم المؤمنين حفصة ــ زوج النبي ﷺ ــ. فلما كان عهد عثمان رضي الله عنه، (وقد اتسعت رقعة الأمة الإسلامية ودخلها أهل بلادهم لهجاتهم الخاصة) خشي صحابي جليل عنده غيرة على كتاب الله أن يختلف الناس، فأشار على عثمان بكتابة مصاحف وتوزيعها على الأمصار المفتوحة، فكتبت اللجنة بنفس الدقة مجموعة من المصاحف وزعت على الأمصار الإسلامية المفتوحة في ذلك الوقت، وصارت مرجعاً

---

(١) نفس المصدر.

لكل من أراد مصاحف من أهل هذه البلاد، كما صارت مرجعاً لكل من أراد أن ينسخ مصاحف جديدة. حتى وصل إلينا كتاب الله ما كان قرأه رسول الله ﷺ لم يزد فيه حرف ولم ينقص منه حرف، سجل على اسطوانات وكتبت منه ملايين النسخ، وصار في متناول كل إنسان إن أراد أن يستمع أو أراد أن يقرأ، وصدق الذي قرر :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون »[1].

والحمد لله الذي لم يجعل حفظ كتابه موكلاً إلى عهد البشر. الذي يعتوره الفتور والكسل بل تولى حفظه بحوله وقوته وتوفيقه لأولى العزم من البشر.

ويتضح لنا من هذا العرض السريع صدق التقرير الإلهي الجليل : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » ويبقى التساؤل. « فهل من مدكر ؟ »[2] هل من معتبر ومتعظ بهذا القرآن الذي يسر للذكر ؟

وأمام هذا التساؤل القرآني الكريم « فهل من مدكر ؟ » يقف الإنسان أمام صورتين :

صورة لمجتمع كان مريضاً فيسر الله له الدواء فأقبل عليه وأخذه بالطريقة التي أرادها الله لشفائه فعوفي وصار قوياً « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه »[3] وصورة لمجتمعنا المعاصر والذي ينتسب إلى هذا المجتمع القوي غير أنه أهمل في الدواء فلم يأخذه متكاملاً وإذا أخذ منه شيئاً أخذه بهواه وبطريقته الخاصة وليست بطريقة من أنزله وجعله شفاء لأمراض النفوس والمجتمعات. فصار مجتمعاً مريضاً يطمع فيه أعداؤه ويريدون أن يرثوه وهو حي لأن حياته تشبه حياة الأموات من شدة الأمراض.

ومن العجائب والعجائب جمة ... قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيش في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

فالدواء والشفاء ميسر للذكر منذ أن أنزل إلى يومنا وإلى يوم القيامة

---

(١) سورة الحجر آية ٩.

(٢) سورة القمر آية ١٧.

(٣) سورة الفتح آية ٢٩.

والناس يتفاوتون في الأخذ منه فمن أقبل عليه وجعله إمامه قاده إلى الخير في الدنيا وإلى الجنة في الآخرة، ومن جعله خلفه حرم من خيره في الدنيا (ولا خير في غيره) ثم ساقه إلى جهنم في الآخرة.

ولذلك فإن الإجابة على السؤال تتضح لنا من تتبع الآثار ..

فإن وجدت الآثار القرآنية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع (في البيت، وفي الشارع، وفي العمل، وفي المسجد، فيما تراه العين، وتسمعه الأذن، في اقتصاديات المسلمين، وتعاملاتهم الدولية) كان هناك ادّكار بالقرآن. فإن تخلفت الآثار القرآنية دل ذلك على عدم الادكار.

ولكي نقف على الشهادة التي لا غش فيها على مجتمعنا المعاصر في أنه لا يدكر بالقرآن ولا يحسن الأخذ عنه أذكر هذه المقارنة السريعة. يقول الله تعالى في وصف المجتمع المسلم الذي انتفع وربي بالقرآن : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود »[1] فماذا عن مجتمع المسلمين اليوم ؟

هل هم أشداء على الكفار ؟

هل هم رحماء بينهم ؟

هل تراهم ركعاً سجداً ؟

هل ترى في وجوههم نور وجلال السجود ؟.

إن واقع المسلمين يجيب على هذه التساؤلات لنصل في النهاية إلى أنه لا إدكار. والاعتراف بالمرض هو الخطوة الأولى في طريق العلاج..

فما أسباب عدم الادكار ؟

إن السبب في عدم الإعتبار والاتعاظ بالقرآن هو أن أجهزة التفاعل مع القرآن في الإنسان قد شغلت بغيره.

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩.

أو بمعنى آخر أصابها مرض أو موت فلم تحسن التعامل مع كتاب الله عز وجل أو آياته الأخرى وهذا يتضح إذا تدبرنا هذه الآية الكريمة :

« ولقد مكناهم فيما إنْ مكناكم فيه، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة. فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، إذ كانوا يجحدون بآيات الله، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون »[1].

فهؤلاء قد منحوا السمع والبصر والفؤاد فعطلوا كل هذه النعم، لأنهم[2] جحدوا بآيات الله فلم ينتفعوا بسمع أو ببصر أو فؤاد.

كما توضح آية أخرى أداة الإعتبار في الإنسان حينما تقص علينا ـ أيضاً ـ هلاك من هو أشد بطشاً، فنقبوا في البلاد هل من محيص. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد »[3].

فأدوات الإعتبار في الإنسان هي سمعه وبصره وفؤاده.

ولذلك نص الله تعالى على مسئولية الإنسان عن هذه الأدوات لخطورتها، ولشدة تأثرها وتفاعلها، فإن أحسن في استعمالها ووجهت إلى ما ينفعها أمدت صاحبها بعناصر السلامة والقوة، وإن ترك لها الأمر لتتفاعل مع كل شيء دون أن يختار لها هدمته وزلزلت بنيانه، ولذلك يقول الله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً »[4].

ولما كان الناس في تفاوت نحو هذه المسئولية رأينا هذه الأدوات في تباين أيضاً من جهة سلامتها. ولنأخذ أهم هذه الأدوات لنفرده بالحديث كي يتضح الموقف ثم نبين تأثره بالأداتين الأخريين.

أهم هذه الأدوات بدون شك ـ القلب ـ وفيه قال النبي ﷺ « ... ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢٦.

(٢) « اذ معمولة لا غنى وأشربت من معنى التقليل » انظر تفسير الجلالين ص ٦٦٩.

(٣) سورة ق الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.

(٤) سورة الإسراء : آية ٣٧.

فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب »[1].

ومن عجيب خلق الله تعالى أنه جعل هذا القلب محل الإيمان والكفر، والطمأنينة والقلق والحب والكره.

وهذا القلب قد يكون صالحاً سليماً، وقد يكون مريضاً، وقد يشتد به المرض فيفتك به ويصير قلباً ميتاً، وهذه الدرجات هي الجديرة بالدراسة لنقف على حقائقها ولنتمكن من الإنتفاع بهذه المضغة ـ كما سماه رسول الله ﷺ ـ.

أولاً : القلب السليم :

وهو القلب الذي منحه الله قيادة صاحبه في الدنيا حتى يدخله الجنة. وشهد الله بتلك المكانة للقلب في قوله الحكيم : « يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلّا من أتى الله بقلب سليم »[2].

وإذا فتشنا في هذا القلب السليم لرأينا أن سلامته نشأت من سلامة الإيمان فيه، فإن سلامة الإيمان تطرد كل ما يسبب فساد القلب. ولكن يبقى التساؤل : كيف يكون الإيمان سليمكا ؟ ونحن نسمع من الجميع أنهم مؤمنون.

وهنا ينبغي أن نفرق بين نوعين من الإيمان. نوع لا يتجاوز الإدعاء، أو يتجاوز النطق بكلمة الإيمان فإذا فتشت عن مدلول الكلمة لا تجد شيئاً.

إن الإيمان في هذه الحالة لا يحرك ساكناً ولا ينتج أثراً ولا يشعر صاحبه بحلاوة ذلك الإيمان، إنه إيمان ميت.

أما النوع الآخر من الإيمان فهو الإيمان الحي النابض، المتحرك، الدافع الذي يشعر صاحبه بحلاوته وأثره.

ونتساءل أيضاً : وكيف يكون الإيمان بتلك الحالة النابضة ؟ أي كيف يكون الإيمان سليماً ؟.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة الشعراء : الآيتان ٨٨ ـ ٨٩.

يكون الإيمان سليماً نابضاً بأشياء، منها شيء قد جعله الله متاحاً لكل إنسان، لأن كل إنسان يستطيع أن يمارسه قدر جهده ألا وهو التفكير ومادة التفكير ـ كما قلنا ـ تتنوع بتنوع المفكر.

يستطيع الإنسان لكي ينعش إيمانه أن يفكر في الطعام الذي يأكله... كيف صب الله الماء صباً، وشق الأرض شقاً، وأخرج له منها طيبات تختلف في ألوانها ومذاقها، وكيف تقضم بأسنانه، وتهضم بأجهزته، ويبقي الله ما ينفعه من عناصر الغذاء في جسمه، ثم يجعل للضار من الطعام مخرجاً. وقد مارس أصحاب النبي ﷺ مثل هذا التفكير.. فسلم إيمانهم وسلمت قلوبهم، فقد أثر عنهم رضي الله عنهم هذا القول بعد قضاء الحاجة:

« الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه ».
يستطيع الإنسان أن يفكر في الماء الذي يشربه. كيف جعله الله عذباً فراتاً برحمته بعد دورة تصاعد فيها البخار فوق سطح البحر، ولو شاء الله لتجمعت السحب فوق البحر ثم أفرغت ما فيها في البحر مرة أخرى ولكن الله يرسل الرياح كوسيلة لحمل هذه السحب وسوقها إلى الأماكن التي تبعد عن سطح البحر ليشرب الناس جميعاً بفضل الله ورحمته، ولو عامل الله الناس بذنوبهم لجعله ملحاً أجاجاً، ولذلك كان رسول الله ﷺ ـ يقول عقب الشرب:

« الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا ».

يستطيع الإنسان أن يفكر في الهواء الذي يستنشقه. كيف ركب بهذه التركيبة، وكيف يملأ صدره منه في شهيقه دون أن يجد من يحسب عليه الشهيق والزفير « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[1].

---

(١) سورة يونس آية ١٠١.

أما الذين آمنوا فإن النظر والتفكير ينمي هذا الإيمان ويزكيه ويصفيه ويجعله ايماناً سليماً يسلم به قلب صاحبه.

وهذا الإيمان السليم لا يجعل في القلب مكاناً لآفة أو مرض مما يصيب القلوب ـ والذي سنشير إليه عند القلب المريض ـ فيظهر بذلك للقلب السليم علامات واضحة تميزه وبها يعرف الإنسان أنه يحمل قلباً سليماً. من هذه العلامات :

١ ـ هواية القلب :

قال تعالى : « ما أصاب من مصيبة إلّا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه، والله بكل شيء عليم ».[١]

وهداية القلب التي جعلها الله سبحانه وتعالى جواباً لشرط الإيمان من أهم الأدلة والعلامات على صحة هذا الإيمان وسلامته. وهي على ذلك من أجل النعم، لان القلب إذا اهتدى عرف كيف يستقبل الأحداث، إن أصابه خير شكر فكان خيراً لصاحبه، وإن أصابه شر صبر فكان خيراً لصاحبه. وهذا الحال ـ كما أخبر النبي ﷺ ـ ليس إلّا للمؤمن فأمره كله خير.

إنه بهداية القلب يتماسك عند النعمة فلا يتكبر ولا يختال، ويتماسك عندما يصيبه ما يكره فلا ييأس ولا يتحطم بل يبقى على سلامة نفسه حتى يخرج من محنته ظافراً برضى الله تعالى ومستعداً لممارسة تجربة أخرى.

٢ ـ سكينة القلب :

وفي ذلك يقول الله تعالى : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »[٢].

ويقول جل شأنه : « لقد رضي الله عن المؤمنين، إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً »[٣].

---

(١) سورة التغابن آية ١١.

(٢) سورة الفتح آية ٤.

(٣) سورة الفتح : آية ١٨.

٣ ـ الربط على القلب :

وهو دليل على الإيمان السليم وثمرة من ثماره. فيخبرنا الله تعالى عن أصحاب الكهف فيقول : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم، إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض، لن ندعو من دونه إلهاً، لقد قلنا إذاً شططاً »[1].

ومن العلامات التي يتعرف بها المؤمن على سلامة قلبه :

٤ ـ نقاء القلب وتقواه :

فيما رواه ابن ماجه : « قيل لرسول الله ﷺ : من خير الناس ؟.

قال : كل مؤمن مخموم القلب.

قيل : وما مخموم القلب ؟.

فقال : هو التقي النقي، الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد »[2].

وسلامة القلب من هذه الموبقات من أبرز علامات القلب السليم والتي ركز عليها القرآن الكريم حينما وصف ركائز هذا المجتمع وحينما حدثنا عن صفات الرعيل الأول من هذه الأمة فقال مثنياً على الأنصار رضوان الله عليهم :

« والذين تبوّؤوا الدار والإيمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا »[3].

وبعد هذا الحديث العطر عن المهاجرين والأنصار يأتي الحديث عمن سيأتي من بعدهم :

« والذين جاؤوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين

---

(١) سورة الكهف : آية ١٣ ـ ١٤.

(٢) رواه ابن ماجه جـ ٢ ص ١٤٠٦ من كتاب الزهد باب (٢٤) الورع والتقوى حديث رقم ٤٢١٦.

(٣) سورة الحشر : آية ٩.

سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم »[1].

فإذا سلمت القلوب من هذه الأدران، وتطهرت من الحسد والضغينة، تفرغت لربها وآياته، فأحسنت استقبالها وادَّكرت بها على أحسن وجه. أما إذا شغلت بعداوة المخلوقين فلا وقت عندها لربها وآياته، ولعل ذلك هو السر في أن الرسول ﷺ قد حذر من فساد ذات البين، وأخبر أن فساد ذات البين هو الحالقة التي تحلق الدين، وبالتالي فإن صلاح ذات البين هو المناخ الملائم لانتعاش الدين، والحالة المناسبة لاستقبال الذكر الحكيم.

ولذلك ـ أيضاً ـ كان الرسول ﷺ يقطع كل أسباب انشغال القلب فيقول : « لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »[2].

فإذا تفرغ القلب بهذه الصورة الطيبة، فلم يعد فيه ما يشغله من آفات، سنذكرها بعد قليل إن شاء الله تعالى ـ صار قلباً رقيقاً ليناً، ولذلك فإن من علامات القلب السليم أيضاً :

٥ ـ لين القلب إلى ذكر الله :

قال تعالى : « الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله »[3].

٦ ـ الوجـــل :

وهو الخوف من الله والفزع من عذابه، ويصف الله سبحانه أصحاب هذه القلوب السليمة بذلك حين يقول :

« وبشر المخبتين، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم »[4].

---

(١) سورة الحشر : آية ١٠.
(٢) رواه أبو داود والترمذي.
(٣) سورة الزمر : آية ٢٣.
(٤) سورة الحج : الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

٧ ـ التفاعل مع آيات الله التي تتلى عليهم :

فيقول الله تعالى، بعد ذكر وجل القلب إذا ذكر جل جلاله :

« وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً »[١].

فهذه القلوب السليمة هي التي تنتفع ـ وحدها ـ بآيات الله فتزداد بها إيماناً. وهذا التفاعل القلبي مع آيات الله التي تتلى، ومع معاني الوحي التي تخرج من فم النبي ﷺ له مظاهر مرئية، منها : **البكاء** :

ففي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه يقول :

« وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون »[٢].

« أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَلِ من البكاء »[٣].

وهذا القلب السليم هو القلب الذي يذّكر بالقرآن، وهو الجهاز الوحيد الذي يتفاعل مع وحي الله، يتلقى ما يبلغه عن الله كأحسن ما يكون التلقي، فيحتفظ به، ويترجمه إلى سلوك وعمل. ويظل هذا القلب في الانتفاع بوحي الله حتى يصل إلى الدرجات العلى من الصفاء، ويمد بالنور الذي يفرق به بين الحق والباطل، والبر والإثم. وقد بلغ أصحاب النبي ﷺ هذه الدرجة العليا. ولذلك رأينا آثار وحي الله في نفوسهم وفي مجتمعهم.

يقول النبي ﷺ : « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون ـ يعني ملهمون ـ فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر »[٤].

(ومما روي أن عمر رضي الله عنه قال في أثناء خطبته وهو على المنبر : « يا سارية الجبل » حين انكشف لعمر أن العدو قد أشرف على

---

(١) سورةالأنفال : آية ٢.

(٢) أبو داود والترمذي.

(٣) أبو داود والترمذي.

(٤) رواه مسلم.

سارية فحذره لمعرفته ذلك. ثم يصدق سارية بعد ذلك على بلوغ صوت أمير المؤمنين إليه).

ويكفي أن تطالع صفحات من حياة الصحابة والتابعين لكي تقف على هذه النماذج الطيبة من القلوب السليمة.

علاقة القلب بالسمع والبصر :

والسمع والبصر هما النافذتان اللتان يتعامل بهما القلب مع العالم الخارجي. وقد حمل الإنسان مسئولية النافذتين مع القلب، ومنح إمكانية التحكم فيهما نظراً لأن ما يحيط بالإنسان من مرئيات ومسموعات قد يختلط أمرها فيصبح استقبال بعضها بالسمع أو البصر خطراً على القلب.

والقلب ذو حساسية مرهفة، فقد ينتعش ويزكى بنظرة اعتبار واحدة، وقد يُقْتَلُ بنظرة شهوة واحدة. ولعل ذلك هو السر في التحذير النبوي الكريم من فتح العين على ما حرِّمَ عليها، في قوله ﷺ : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس..... »

فالنظرة المحرمة سهم يقتل القلب لأنه مسموم. وإذا قتل القلب فلا حياة لصاحبه، ولذلك حينما أمر القرآن الكريم بغض البصر فقد أراد الحياة الطيبة للمؤمنين بسلامة قلوبهم من الشهوات : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون »[١].

ويسمع الإنسان آية كريمة أو حديثاً شريفاً أو نصيحة طيبة أو أي قول نافع، فيتلقاه القلب السليم فيزداد بهذا السماع خيراً.

ويسمع الإنسان لغواً من القول أو فاحشاً من الكلام، فينفذ إلى القلب فيفسده وإذا فسد القلب فسد صاحبه..

من أجل ذلك اهتم الإسلام بالبيئة المحيطة بالإنسان منذ خروجه من بطن أمه، فأمر المحيطين بالمولود أن يسمعوه خيراً، وألّا يرى منهم إلّا خيراً، لأن تكوينه سينشأ ويتم من مسموعاته ومرئياته، فوجه الرسول الكريم ﷺ إلى أن يكون الأذان هو أول ما يطرق أذن المولود.

---

(١) سورة النـور : آية ٣٠.

والقرآن الكريم قد نبه إلى خطورة السمع والبصر والفؤاد في عملية التكوين الأولي ثم ما يتلوها حينما قرر أن الإنسان قد أخرجه الله من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، أي أن بداية علمه وبداية تكوين شخصيته الفكرية ستكون بعد خروجه من بطن أمه بالسمع والبصر والفؤاد، « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[1].

فالسمع والبصر يبنيان القلب، وأيضاً يهدمانه. ومن أجل هذا كانت المسئولية. والمسئولية في هذا تتوزع على فريقين :

الفريق الذي يلقي، والفريق الذي يتلقى.

وطلب الإسلام من الفريق الأول ألا يسمع إلّا خيراً، ولا يرى منه إلّا الصالح، والذي ينتسب إلى الإسلام من أفراد وجماعات يلتزم بهذا، لأنه يعلم أن المؤمن ليس بطعّان ولا لعّان ولا فاحش ولا بذيء، ولأنه يعلم أيضاً أن الله تعالى سيحاسبنا على العمل، وعلى آثار العمل ؛ فمن سنَّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

فإذا قام الملقي بهذه المسئولية والتزم بآداب الإسلام فيها، فإن المتلقي سيستريح، لأنه لن يسمع إلّا خيراً ولن يرى إلّا صالحاً. أما إذا لم يلتزم الفريق الأول بهذا وفرط في مسئوليته، فإن الفريق الثاني، إن أراد الحياة الطيبة لنفسه، فعليه بالجهاد، صيانة لبصره وسمعه، وحفاظاً على نقاء قلبه.

ولقد جاهد أصحاب النبي ﷺ في هذا الميدان جهاداً عظيماً، فصرفوا سمعهم عن البكاء والتصدية والغناء الفاحش ولهو الحديث، إلى كتاب الله عزّ وجل.

كما صرفوا أبصارهم عن مرئيات الجاهلية وصحائف النصارى واليهود إلى كتاب ربهم، وظل جهادهم هذا حتى صارت البيئة لهم، فعمروها بوحي الله، وعطروها بسلوكهم الإسلامي، فما يرى الناشئة إلّا إسلاماً متحركاً في

---

(١) سورة النحل : آية ٧٨.

كل مجالات الحياة، وما يسمع الناشئة إلّا ما يزكي هذا الجو الإسلامي الكبير.

ولكن أعداء الإسلام والذين لا يحبون الحياة الطاهرة النظيفة، مكروا مكرهم ووضعوا خطتهم للقضاء على هذه الأمة بذكاء خبيث استخدموا فيه قديماً حاسة السمع ولكنهم لم يفلحوا، ورد الله كيدهم في نحورهم.

فاستخدموا حديثاً حاسة السمع والبصر في تنفيذ نفس الخطة القديمة، ونجحوا. فما هي هذه الخطة ؟ وعلى أي أساس تقوم ؟

لقد أخبرنا الله تعالى بهذه الخطة على لسانهم حيث يقول جل شأنه :

« وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تَغْلِبُونَ »[1].

فهم قد عرفوا مصدر القوة لهذه الأمة، وهو القرآن الكريم.

وأنه ما دام المسلمون يسمعون لهذا القرآن، ويستجيبون له، ويتفاعلون معه بالطاعة الكاملة، فإنه لا مجال للغلبة عليهم.

فرأوا أنه، لكي يتغلبوا على هذه الأمة، لا بد أن يسلكوا واحداً من طريقين :

١ ـ ألَّا يُسْمَعَ لهذا القرآن. ولم يستطيعوا ذلك لأن الله تعالى قد يسر القرآن للذكر ـ كما رأينا.

٢ ـ إحداث اللغو فيه : ومعنى ذلك أنهم رأوا أنه لا بأس من سماع القرآن إذا أحدثوا اللغو معه، لأن القلوب عند ذلك لن تحسن استقبال القرآن الكريم، فلا تظهر آثاره عليهم.

فإشغال المسلمين عن القرآن باللغو والتشويش هو منهج أعداء الإسلام، ولكنهم استخدموا حاسة السمع لذلك في بداية الأمر، وفي وقتنا، ومن قبل بقليل استخدموا السمع والبصر.

---

(١) سورة فصلت : آية ٢٦.

في بداية الدعوة جاء عمر بجوامع من التوراة إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، جوامع من التوراة أخذتها من أخ لي من بني زريق ؛ فتغير وجهه ﷺ. فقال عبد الله بن زيد الذي أُريَ الأذان، أمسخ الله عقلك، ألا ترى الذي بوجه رسول الله ﷺ. فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبالقرآن إماماً، فسُرِّيَ عنه ﷺ. ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو كان موسى بين أظهركم ثم تبعتموه وتركتموني لضللتم ضلالاً بعيداً، أنتم حظيّ من الأمم، وأنا حظكم من النبيين »[1].

فلم يقبل النبي ﷺ أن يشغل مسلم عن كتاب ربه. أما في وقتنا الحاضر ــ ومن قبل بقليل ــ فقد شغل أعداء الإسلام المسلمين عن القرآن الكريم، مستخدمين في ذلك المسموع والمقروء.

وجرب أعداء الإسلام طرح الفكر الذي يتناقض مع الفكر الإسلامي، وتوصيله بأحدث الأساليب إلى المسلمين، وإثارة الشبهات حول الإسلام، مستخدمين في ذلك جهاز المستشرقين، وبعض أبناء المسلمين. ولكنهم في تلك المحاولة كانوا كالبعوض الذي أراد أن يحجب بأجنحته ضوء الشمس، لأن منهج اللهسبحانه وتعالى لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا يستطيع فكر بشري قاصر أن يزاحم وحي الله أو أن يقلل من قدره.

فلجأ أعداء الإسلام إلى أسلوب آخر حقق لهم أغراضهم بنجاح وهو إفساد قلوب هذه الأمة وسمعها وبصرها حتى لا تستطيع أن تتلقى كلام ربها. فاستخدموا لذلك الكلمة المسموعة والصورة المشاهدة، وضربوا على أوتار الشهوات، وساعدهم في ذلك أمران :

الأول : أن أجهزة التوصيل للكلمة والصورة قد غطت كل بيت من بيوت المسلمين.

الثاني : أن فريقاً من أبناء المسلمين ممن يتبعون الشهوات قد كفى أعداء الإسلام من الظهور المباشر لأداء هذه المهمة.

---

(١) للكبير وفيه أبو عامر القاسم بن محمد الأسدي، ولم أر له من ترجمه وبقية رجاله موثقون، كذا في مجمع الزوائد جـ ١ ص ٧٤ ــ وانظر جمع الفوائد جـ ١ ص ٣٠.

فسممت الكلمة، ولعبت الصورة دورها في إلهاب الغرائز، حتى أصيبت القلوب بالمرض.

والقلب إذا مرض لا يحسن التلقي عن الله ورسوله، فيسمع القرآن الكريم بأذنه، وتحول الشهوات بينه وبين تدبر ما يسمع، والتفاعل مع آيات ربه، والاستجابة لأوامر الله ورسوله ؛ ولذلك من الضروري أن نتعرف بدقة على الأمور التالية :

١ ـ كيف يمرض القلب ؟.

٢ ـ وما علامات مرضه ؟.

٣ ـ وكيف يعالج القلب المريض ؟.

أما كيف يمرض القلب ؟

فإن صاحب القلب إذا أصاب ذنباً نكتت في القلب نكتة سوداء. وهذه هي بداية المرض. فإذا تمادى صاحب هذا القلب في ارتكاب الذنوب اتسعت رقعة السواد وازداد القلب مرضاً.

فإذا استقبل بعينه أو سمعه ما حرم عليه وتفاعل القلب معه دب الداء إلى القلب واسوَدَّ. ففي الحديث الشريف : « إن الرجل ليصيب الذنب فيسوَدّ قلبه، فان هو تاب صقل قلبه »[(١)].

وعن حذيفة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال :

« تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشْرِبَها، نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةَ ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مرباداً[(٢)] كالكوز مجخياً[(٣)] لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلّا ما أشرب من هواه »[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) ممزوجاً بياضه بسواد.

(٣) منكوساً.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

١ ـ العناد والتمرد على حكم الله ورسوله :

وقد صور القرآن الكريم الذين في قلوبهم مرض تصويراً يكشف عن حقيقة أمرهم إذا ما عرضت عليهم آيات الله سبحانه. ويزيد الله موقفهم بياناً حينما يذكر لنا موقف المؤمنين مع آياته الكريمة، فيقول القرآن الكريم في ذلك :

« وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون[١].

ومن العجيب أن الذي في قلبه مرض يدعي الإيمان بالله وبالرسول كما يدعي الطاعة، فإذا ما دعي إلى تطبيق حكم الله ورسوله فإذا هو من المعرضين. وهذا هو التصوير القرآني لنفوس مثل هذا المريض :

« ويقولون : آمنا بالله وبالرسول، وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين.

وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين.

أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل أولئك هم الظالمون »[٢].

ويتبع هذا المرض القلبي، الذي يجعل المريض يعرض عن حكم الله ورسوله، إقبالٌ على حكم البشر (مع قصوره وثبوت عجزه)، ولذلك أيضاً علامات منها :

أ ـ تمجيد الفكر البشري وإعلاؤه، وتقرير دراسته على الناشئة المسلمة، وتنحية منهج الله عن مناهج التعليم، وتعمد تشويهه أمام أعين المسلمين، وعرض بعضه مشوهاً، والإعراض عن أكثره.

---

(١) سورة التوبة : آية ١٢٤ ، ١٢٥.

(٢) سورة النور : الآيات ٤٧ ـ ٥٠.

ب ـ ويتبع ذلك الانقباض إذا ارتفع صوت ينادي بتحكيم شريعة الله، والاستبشار إذا طرحت أفكار البشر، وطرح اللغو من القول :

« وإذا ذُكِرَ الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذُكِرَ الذين من دونه إذا هم يستبشرون »[1].

ج ـ ونظراً لأن ما أقبلوا عليه من فكر بشري يعرض له من التغيير والتبديل والتعديل والتصويب الشيء الكثير، فإن هؤلاء في اضطراب دائم وتناقض مستمر.

٢ ـ الخداع والظهور بغير الواقع :

ويقول الله تعالى في ذمهم : « ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر، وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا، ومايخدعون إلّا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »[2].

٣ ـ التطلع والتشوق إلى المعصية :

ولذلك علم القرآن الكريم النساء المسلمات بالتوجيه إلى نساء النبي ﷺ ـ ألا يخضعن بالقول حتى لا يطمع من كان في قلبه مرض. يقول تعالى : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض »[3].

٤ ـ كراهية الجهاد :

لضعف يقينهم في الآخرة وشدة تعلقهم بالدنيا. يقول الله تعالى : « ويقول الذين آمنوا، لولا نُزِّلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت »[4].

---

(١) سورة الزمر : آية ٤٥.
(٢) سورة البقرة : الآيات ٨ ـ ١٠.
(٣) سورة الأحزاب : آية ٣٢.
(٤) سورة محمد ﷺ آية ٢٠.

هذا هو القلب المريض وتلك بعض علاماته، فكيف يعالج مرض القلب ؟.

إن علاج القلب من مرضه أمر جعله الله ميسراً، وذلك من رحمته بعباده. فإذا عرفنا أن سبب المرض هو اقتراف الذنوب، فإن علاج القلب وصقله يكون بالتوبة الصادقة من هذه الذنوب، التوبة التي تعني اعترافاً من التائب بفعله الذنب وكراهيته لهذا الذنب، والعزم على عدم اقترافه، والرجاء أن يعفو الله عنه. فبهذه التوبة يذهب المرض ويصقل القلب. وقد مر بنا الحديث الشريف الذي يقول فيه النبي ﷺ : « ...... فإن هو تاب صقل قلبه ».

فإذا ما صفا القلب وطهر صار سليماً يحسن استقبال وحي الله جل شأنه، ويبقى الأمر الأهم بعد هذا في استمرار هذا الصفاء القلبي.

ويكون ذلك ـ بعد أن عرفنا علاقة القلب بالسمع والبصر ـ بارتفاع نسبة الشعور بالمسئولية في المجتمع المسلم (بما فيه من ولاة للأمور والرعية) لما يسمع ولما يرى، ويتبع هذا الشعور المرهف بمسئولية الكلمة المسموعة والصورة المرئية الرقابة الكاملة والمتابعة المتصلة من أولياء أمور المسلمين ليحاسبوا بدقة تامة من لا يلتزم بالكلمة الطيبة النافعة، ومن يظهر أو يظهر بصورة غير طيبة. ولقد زادت هذه المسئولية على الحكام المسلمين، وذلك لتعدد مصادر الكلمة والصورة، وسنتناول من تلك المصادر ماله دور بالغ التأثير على القلوب، لنرسم في هذا التناول الخطة الواجبة في هذا السبيل للنهوض بالمجتمعات المسلمة.

١ ـ المذياع والتلفاز :

وهما من أهم الأجهزة التي يسر دخولها في كل بيت. والجهازان لهما دوران متناقضان : البناء والهدم.

فإذا أردنا بالمجتمعات المسلمة خيراً ونهوضاً فلنسخر هذين الجهازين للبناء، ولنحذر كل الحذر من استخدامهما للتدمير.

وأقترح لذلك ما يأتي :

أولاً : تكوين مجموعة من العلماء المخلصين، الذين عرف عنهم الورع والغيرة الصادقة على الدين، والقيام بواجب الدّعوة إلى الله تعالى، وأن يكون أعضاء هذه المجموعة ذوي تخصصات في جميع فروع العلوم الإسلامية. وتقوم هذه المجموعة بوضع برنامج إسلامي متكامل لحياة المسلم والمسلمة، وبأسلوب ميسر يصل إلى العام والخاص من الناس.

وأن يبث هذا المنهج الواعي في الجهازين بأصوات جيدة وإخراج طيب.

وأن يختار لهذا المنهج أنسب الأوقات.

وبذلك نُكَوّنُ في كل بيت مدرسة تلقن منهج الله يومياً بصورة مشوقة، فنملأ الفراغ ونصقل القلوب.

ثانياً : تدريب مجموعات من الشباب المسلم على الفنون التي لا تتصادم مع الإسلام حتى يقوموا بإعداد وتقديم البرامج الأخرى دون تناقض أو تضارب بينها. وحتى نطمئن على الكلمة الأمينة والصورة الحسنة التي تقدم.

ثالثاً : أن تفرغ مجموعة مسلمة غيورة لمتابعة ما يرى وما يسمع قبل أن يُبَثَّ، ويكون لها الحكم الفوري النافذ. وألا تقبل هذه المجموعة عملاً فيه أدنى مساس بالمفاهيم. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه.

رابعاً : ألا يكون الهدف هو كمية ما يبث بل نوعية ما يبث. ولا حرج من التوقف إذا لم نجد الكلام، فرحم الله امرءاً قال فغنم أو سكت فسلم.

خامساً : أن يحاسب كل من يخالف (في الكلمة أو الصورة) أمراً إسلامياً محاسبة فورية، وأن يعزل عزلاً نهائياً عن بث الكلمة أو الصورة. وقد نفي المخنث وضرب المشكك حتى ذهب شكه.

سادساً : أن ترتفع في نفوسنا والقائمين على الجهازين مسؤولية الكلمة والصورة ونشعر بأهميتهما وخطورتهما. وأن يكون أمام أعين المتكلمين قول الله تعالى : « ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد »[1]، وأن

---

(١) سورة ق : آية ١٨.

يكون شعار الذين يقدمون الصورة قول الله تعالى : « إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين »[1]، فالله يحاسبنا على الكلمة، ويحاسبنا على آثار أفعالنا وما نقدمه فيتبعه غيرنا.

سابعاً : أن يتوقف البث في أوقات الصلاة تماماً وبمقدار كاف لصلاة خاشعة. وأن ينتهي الإرسال بعد صلاة العشاء بساعة على الأكثر، وأن يبدأ البث مع أذان الفجر، حتى يستقيم حال المسلمين مع الزمن، ولكي يناموا مبكرين ويستيقظوا مع السحر مستغفرين، وليبدأوا يومهم بنشاط وهمة.

١ ـ الصحف والمجلات :

وهذه تحمل الكلمة المقروءة والصورة المشاهدة، ولكي تكون من أدوات النهوض بالمجتمعات المسلمة فينبغي أن تنطلق من الفكر الإسلامي الصحيح، وأن تحافظ على المناخ الفكري وتغذيه بمادة ترتفع بمستوى من يقرأها، وخاصة أن الذي يقرأها قد حصل نصيباً من المعرفة، وأن تكون أداة ربط لهذه المجتمعات المسلمة المتباعدة، وأن يقوم على هذه الأداة رجال فيهم روح الإسلام، والشعور بأن المسلمين كالجسد الواحد، فينقلون إحساس المسلم الذي يقيم شرق الأرض إلى المسلمين في بقيتها حتى يتم التعارف والتآلف والتناصر والتآزر.

وألّا تسمح لنفسها (بمسئوليتها الحساسة للكلمة والصورة) أن تنساق وراء الكسب المادي فتقبل من الاعلانات ما يخالف الإسلام، أو تنشر من المقالات ما يتصادم مع الفكر الإسلامي. وأن لا تشغل الناس بما لا ينبغي أن يشغلوا به من تفاهات الأمور.

وأن يحاسب من يكتب على أسلوبه اللغوي، فلا يترك المجال للعبث بلغة القرآن الكريم حتى يتعود القارىء المسلم على لغة كتاب الله، وأن تكون تعليقاتها نابعة ومنسجمة مع المفاهيم الواضحة..

والأمر الأهم في ذلك إن تلزم الصدق والقول السديد، فلا تخادع، ولا تداهن، ولا تخش في الله لومة لائم.

---

(١) سورة يس : آية ١٢

ومسئولية ولاة الأمور في ذلك أن يكونوا ـ أيضاً ـ جهاز رقابة متخصص، فيه غيرته الإسلامية لكي يراقب ويحاسب بحزم من ينحرف عن السبيل المستقيم في كتابه أو عرضه لصور.

والموضوعات التي تحتاج إلى معالجة صحيحة لتقدم إلى الشباب المسلم في عالم اليوم الذي أثيرت فيه الشبهات هي الجديرة بالدراسة والتحليل، أما أن تملأ الصفحات باللغو من الكلام فهذا ما نهينا عنه.

وإن كان الرسول ﷺ قد أنكر على عمر قراءة صحيفة غير القرآن، فما بال المسلمين اليوم والصحف تشغلهم بأفكار تناقض القرآن.

واقترح في ذلك ألا يتاح النشر لكاتب في صحيفة أو مجلة يتداولها الناس إلّا إذا كان مسلماً صادق الإسلام، يعرف الإسلام ويدين به، ولا يلبس الحق بالباطل ويكتم الحق على علم منه.

٢ ـ المدارس والجامعات :

وهي الأماكن التي نلقي فيها بأبنائنا رجاء أن يتعلموا علماً نافعاً يؤهلهم لحياة إسلامية عزيزة متقدمة، فإذا بالنتائج على غير ما رجونا، ويرجع ذلك للأسباب الآتية :

١ ـ المعلم الذي يعلِّم.
٢ ـ المادة التي تُعَلَّم.
٣ ـ المنهج الذي يعلِّم به.
٤ ـ التلاميذ أنفسهم.
٥ ـ التناقض بين المدرسة وغيرها.

فالمعلم الآن ـ إلّا من رحم ربي ـ قد تعلم في هذه المدارس وتلك الجامعات وليست لديه الصورة الواضحة للمفاهيم الإسلامية، فقد ضلله الإعلام بوسائله، ولم ينل حظه من كتاب الله، فلم يستقم لسانه على الفصحى. فماذا يعطي ؟

والمادة التي يدرسها وضعها أعداء الإسلام فجردوها من روحها الإسلامية، وجعلوها تنأى بالمعلم والمتعلم عن فكر الإسلام الذي لا يعرف

التجزئة. وإنما يرى العلم والدين شيئاً واحداً. فيدرس الظواهر الكونية ويتعمق فيها ويكتشف أسرار هذا الكون وهو يشعر بأنه يؤدي فريضة، ويستجيب لأمر ربه « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض »[1].

« فالخواجة » هو الذي عرّى العلوم بسلخ الدين منها فشوهت، وأقبل عليها المسلم بنفس متشائمة، ولذلك تأخر فيها.

أما في العصور الأولى فلم يحدث الفصل، فبرع المسلم في العلوم الكونية وقعّد القواعد وحدد المفاهيم العلمية.

ولذلك فالأمر في حاجة إلى تغيير شامل لما يدرس للطلاب المسلمين، وأرى في ذلك ما يأتي : ــ

١ ــ أن تفتح دور حضانة قرآنية إجبارية للأطفال منذ السنة الخامسة، يقتصر فيها على حفظ القرآن الكريم وتجويده، ومبادىء القراءة والكتابة والحساب.

٢ ــ أن تصنف المواد تصنيفاً جديداً تعاد فيها الروح الإسلامية.

٣ ــ أن تعرب العلوم الكونية حتى يدرسها الطالب العربي بلغته، فيبرع فيها ويطورها ولا يظل أسيراً لما يقدمه له (الخواجة).

٤ ــ أن توضع مواد إسلامية خفيفة الأسلوب تصحب المتخصصين في العلوم الكونية طيلة سنوات الدراسة.

٥ ــ أن تبقى الدراسات الإسلامية المتخصصة في كلياتها وأن يشجع الطلاب عليها.

وأما المنهج فهو أيضاً في حاجة إلى تغيير لأنه ليس من صنعنا إنما صنعه من لا يدين بديننا، وتقبلناه بقبول حسن فأنتج أنصاف المتعلمين. ولدينا منهجنا الإسلامي الذي له السبق والتكامل، لأنه منهج الله سبحانه وتعالى. ألم يقل ربنا جل شأنه لرسول الله ﷺ : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[2] ــ أي القرآن الكريم ــ « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما

---

(١) سورة يونس : آية ١٠١.

(٢) سورة الحجر : آية ٩.

نزل إليهم »[1]. أي أن الله أنزل القرآن وأنزل بيانه.

أو قل بعبارة أخرى، علم الرسول القرآن وعلمه كيف يبين القرآن، أي علم المادة والمنهج.

ولو أننا أقبلنا على سنة نبينا ﷺ وعايشناها وتدبرناها لتوصلنا إلى هذا المنهج المتكامل العظيم. ولقد آمنت بهذا ودفعني هذا الإيمان إلى إجراء دراسة حول هذا المنهج فوجدت الطريق والحمد لله ممهداً ولا يحتاج منا إلى الأخذ بمفتاح وحي الله، ألا وهو التدبر. فإذا تدبرنا منحنا الله من كنوزه التي لا تفنى.

وما وصايا علم النفس التعليمي (في عملية التعليم والتعلم) بجانب هذا المنهج إلا كعبث الأطفال أمام جدية الرجال.

وأما التلاميذ فهم آثار إعلام ليست فيه المفاهيم الإسلامية المتكاملة، وآثار بيوت نتحدث عن أثرها الآن.

٣ ـ البيـــوت :

والبيوت ـ كما نعلم ـ هي المكان الأول الذي يتعلم فيه المولود عن طريق الكلمة والمشهد. فإذا أردنا البنـاء فليعرف الوالد مسئوليته ولتعرف الأم مسئوليتها. في الملاطفة أولاً ثم التأديب ثانياً ثم المؤاخذة ثالثاً. ولكن البيوت قد ألقت العبء على أجهزة أخرى على المدرسة والجامعة وتركت التوجيه تركاً كاملاً.

ولو وجه بيت نحو الخلق الإسلامي وربي التربية الإسلامية لوجد في نفس البيت من يناقضه، فالشاشة أمام الأبناء وتأثيرها أقوى، والمذياع تحت أيديهم وتأثيره كذلك كبير. فماذا يفعل الآباء وتفعل الأمهات ؟ ومتى يكمل البنيان تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟.

ومع كل ذلك فالأمر سهل إذا أردنا النهوض. ويمكن أن نوفر على الآباء والأمهات عناء التربية إذا جعلنا في كل بيت مدرسة، وذلك كما ذكرنا ـ آنفاً ـ إذ وظفنا التلفاز والمذياع لتوصيل المنهج الجديد الذي يربى عليه

---

(١) سورة النحل : آية ٤٤.

كل مسلم. إذا فعلنا ذلك فقد أحسنّا في تربية الأبناء وجعلنا مناخاً طيباً لتوجيه الآباء والأمهات. ولكن لماذا لا يحدث هذا وهو ميسور ؟ إن هذا لأمر عجيب.

٤ ـ الطـريـق :

والطريق ملك للجميع وليس خاصاً بأحد، ولذلك ينبغي أن يكون متسماً بالسمات الإسلامية فلا يحدث فيه أمر مخالف لخلق إسلامي، ولا يسعى فيه النساء على غير ما أمرهن الله به. ولا يحتج على ذلك بالحرية الشخصية لأنها حرة في مكانها الخاص، أما المكان الذي يشترك فيه جميع الناس ويمشي فيه البر والفاجر فإن ولي الأمر مسؤول عن صيانة الجميع بالضرب على المنحرفين والمنحرفات في الطرقات. فلكي تنهض المجتمعات فلا بد من إعطاء الطريق حقها من التستر وغض البصر وإفشاء السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإماطة الأذى عنه.

٥ ـ الأسـواق :

ويبرز فيها التعامل بين الناس ويترتب على هذا التعامل كثير من العلاقات الاجتماعية. فإذا ما تراحموا وكان الصدق شعارهم، والأمانة صفتهم، دعمت الثقة فيما بينهم. أما إذا سمعت الأيمان الكاذبة، وشوهدت صور من التحايل والغش فإن هذا هو الخطر على علاقات المسلمين وخاصة في التعامل المادي. ولذلك أقترح للنهوض بهذا المرفق الهام في حياة المسلمين ما يأتي :

أ) أن ينشأ معهد يقوم بتدريس الأحكام المتعلقة بالبيع والشراء والشبهات التي يمكن أن يقع فيها البائع والمشتري.

ب) أن تكون مدة الدراسة بهذا المعهد وجيزة لا تزيد على الشهر.

جـ) لا يسمح للتجار المتفرغين للتجارة والدائمين فيها بمزاولة هذا السبيل إلا بحمل شهادة من هذا المعهد تفيد أنهم استوعبوا أحكام الإسلام في البيع والشراء.

د) أن تكون الرقابة مباشرة في الأسواق حتى لا يتساهل في تلك الأحكام.

فإذا تم ذلك استراح البائع وربح واطمأن المشتري، دون أن نسمع أو نرى أمراً مخالفاً ومغضباً لله تبارك وتعالى.

٦ ـ دور السينما والنوادي والمقاهي :

ومعالجة هذه الأدوات هين، وذلك لأنها لا تذهب إلى الناس بل يسعى الناس إليها. فإذا ما أصلحنا الأدوات السابقة فلن تجد إلّا نضوجاً يفرق بين الغث والسمين. فلا يسعى الإنسان إلا إلى ما يجد فيه صلاحه وصلاح كل أمره.

وإذا أردنا نهوضاً بهذه الدور فلنلاحظ ما يأتي :

أ) ألا يكون الهدف من عرض الأفلام الحصول على أكبر قدر مادي بجذب أكبر عدد المشاهدين.

ب) ألا تستغل الغريزة الجنسية في جذب الشباب الذي أثير بالأدوات السابقة.

جـ) أن تعرف السينما دورها في تقديم ما يتلاءم مع الفكرة الإسلامية تلاؤماً كاملاً.

د) أن تربط العالم الإسلامي بعروض تقدم فيها حياة المسلمين في كل بلاد العالم ليقف على الحقائق جميع المسلمين.

هـ) الإمكانات الضخمة التي تنفق فيها الآن وهي بعيدة عن رسالتها الإسلامية توجه لإنتاج إسلامي جديد.

و) ما قلناه في التلفاز والمذياع من تدريب مجموعات مسلمة على أعمال فنية نافعة ضروري للقيام بهذا الدور.

ز) وحتى يتم هذا الاصلاح تتوقف دور السينما عن عرض أي فيلم فيه أدنى مخالفة للإسلام.

خ) أن يكون لجهاز الرقابة المسلم الحق الكامل في إسقاط العمل الذي لا يناسب.

ط) محاسبة من يخالف محاسبة فورية وإقصاؤه عن هذا الميدان.

وأما النوادي فيمكن الانتفاع بها لتقوم ببناء الأجسام مع برامج أخرى لبناء القلب والعقل. وأما إذا ظلت على حالها من بناء للأجسام فقط، ومع بنائها للأجسام تثيرها بما تقدمه لها من شهوات في صورة أفلام صارخة، فإن هذا هو التدمير وليس البناء.

وأما المقاهي فهي المكان الذي خصص لحرمان الآباء من الجلوس مع أبنائهم (ملاطفين أو مؤدبين)، وخصص أيضاً لقتل الأوقات وتضييعها فيما يغضب الله من ألعاب وسماع. في الوقت الذي فيه الواجبات على المسلم أكثر من الأوقات. ولا حاجة للمسلمين فيها.

ويبقى أخيراً الحديث عن المساجد، وجعلتها في آخر هذه الأجهزة لأنها والحمد لله مازالت بخير. وما زالت الكلمة الطيبة تخرج منها، والعمل الصالح يرى فيها. ولكن لي اقتراحات بشأنها حتى تعود عودة كاملة إلى رسالتها الأولى، فمن هذه الاقتراحات :

١ ـ أن يلتزم إمام المسجد في خطبه ودروسه بمنهج إسلامي متكامل يربي المسلم في عقيدته وسلوكه ومعاملاته وسائر حياته ـ ولا بأس بوضع ذلك المنهج بمعرفة رجال متخصصين لهم اهتمامات بارزة في الدعوة الإسلامية (كما ذكرنا في الاقتراح الخاص بالتلفاز والمذياع)، ولكن الفارق هنا هو أن هذا المنهج سيدرس بطريق إمام المسجد. والذي يحضر لدراسة هذا المنهج هم أهل الحي الذي يحيط بالمسجد وأي مسلم آخر.

غير أن أهل الحي يلتزمون بالحضور ـ وخاصة ـ إذا اختير الوقت الذي يناسب كل حي من الأحياء السكنية. والحاضرون سيكون منهم العامل والزارع والطبيب والمهندس والتاجر أي أنها لا تقتصر على فئة معينة.

٢ ـ أن يطبع هذا المنهج المتكامل في كتب وتوزع مجاناً على أهل الحي.

٣ ـ أن يكون لهذا المنهج فترة زمنية تحدد على أساس حجم هذا المنهج.

٤ ـ أن يعقد اختبار شفوي من مجموعة من العلماء لكل من يرغب من أهل الحي في نهاية الدورة.

٥ ـ الذي ينجح في هذا الاختبار يحمل إجازة بتدريس هذا المنهج.

والغاية من هذا أن يربط أهل الحي ببيت الله ـ وأن يحيط المسلم بكل جوانب إسلامه بدلاً من تكرار خطب ودروس في أمور قتلت من كثرة الكلام فيها، ومل الناس من استماعها.

وأن نعيد صورة التلقي الأولى حيث كانت مجالس العلم تضم جميع الناس ويتخرج من تلك المجالس العلماء الكبار.

وأن نمحو تلك الأمية المتفشية حيث نجد الجهل بأمور هامة في الإسلام، ولا عذر لنا في الجهل بها.

ثم نعمل بذلك على الاكثار من الدعاة الذين سيدرسون هذا المنهج وكثير من بلدان العالم الإسلامي ـ الآن ـ يشكو من قلة الدعاة أو انعدامهم.

٦ ـ يلزم من ذلك أن تبقى بيوت الله مفتحة الأبواب في الليل والنهار حتى تتاح المدارسة لأبناء الحي في مسجدهم.

٧ ـ كما يلزم لذلك أن يكون في كل مسجد مكتبة عامرة بالكتب الإسلامية في كل التخصصات وتبقى دائماً مفتحة الأبواب.

٨ ـ أن تكون خطبة الجمعة ملتزمة بهذا المنهج ـ على الأقل ـ في الجزء الأول منها ـ وتكون للخطيب حرية (التعليق والنصح) على ما يحدث في العالم من حوله في الجزء الثاني منها.

٩ ـ أن يختار العاملون في المساجد من أئمة وعاملين على أساس صدقهم في إسلامهم واهتمامهم بالدعوة إلى الله على بصيرة.

وواضح من هذا أن النهوض بتلك الأدوات جميعها من مسئولية أولياء الأمور الذين مكنوا في الأرض بفضل من الله عليهم. لأن جهود الأفراد وحدهم لا تستطيع القيام بهذا. أو لو قامت بهذا ولم تكن عند ولاة الأمور همة النهوض بتلك الأدوات فسيجد الأفراد العنت والمضايقات. ولذلك فمسؤولية

ولي الأمر المسلم في ذلك كبيرة، وعليه أن يقوم بها يناصره فيها أولو العزم من المسلمين الصالحين، فيسلم القلب بتوبة صاحبه وينتعش المناخ الذي يحيط به، ويغذيه من وسائل الإعلام المسلم، والمدارس والجامعات المسلمة، والبيت المسلم، والطريق والسوق والسينما المسلمة والمسجد. وتصبح القلوب بذلك متفاعلة مع وحي الله فتأخذه بقوة وتطبقه بهمة، وتظهر آثار هذا التطبيق تقدماً مادياً يصحبه ويجاوره بل ويمتزج به تقدم وارتقاء روحي.

فنرى الآثار في عزة النفوس، وإبائها التبعية لأحد ممن لا يدين بالإسلام، ونرى الآثار في التكامل الاقتصادي بين إخوة توحدت شعائرهم فتوحدت مشاعرهم، وتآلفت قلوبهم، وصار ما عند بعضهم يصل إليهم دون عوائق. نرى الآثار في التقدم العلمي الرائد والاستعداد بالقوة لكل ما يواجه المسلمين في كل مكان من أرض الله الواسعة. نرى الآثار في صلاح حال المسلمين وفي تهيئة المناخ للناشئة المسلمة حتى تستنشق عبير الإسلام فتنمو عليه دون تناقض أو تضارب.

عندها ستخرج الشبيبة المسلمة فلا تجد تناقضاً بين توجيه حسن في المسجد يبنى وتدمير يراه في الشارع أو في غيره. سنرى الانسجام في كل شيء. سنرى الغرائز هادئة. وعندما يأتي وقت هيجانها ستجد المصرف الحلال الذي تهدأ وتسكن فيه. سنجد المجتمع الرباني الذي ارتضاه لنا ربنا حين قال لنا : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1]. ولكن إذا تاب صاحب القلب المريض وصقل قلبه، ولم يجد تهيئة المناخ لكي يسمع طيباً ويرى حسناً.

وإذا أراد الصلاح لنفسه وقصر ولاة الأمور المسلمين في مسئوليتهم، وفرطوا في حق ربهم وحق شعوبهم، فحملوا أوزارهم وأوزار من يفسد من شعوبهم ـ فإن المسئولية لا تسقط عن الفرد المسلم، بل عليه أن يسلك سبيل الجهاد لحماية بصره وسمعه وفؤاده.

---

(١) سورة المائدة : آية ٣.

وقد وعده الله تبارك وتعالى بهذا الجهاد أن يهديه سبيل الرشاد، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا. وإن الله لمع المحسنين »[1].

وقد مر بنا أن الذي يجاهد نفسه، فلا ينظر نظرة محرمة خوفاً من ربه، أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه. ويجد حلاوة الإيمان في جهاده الذي يحرص به على ألا يعود إلى المعصية أو الكفر كما يكره أن يقذف به في النار.

وليعلم وهو في جهاده أنه يشق طريقه إلى الجنة فقد « حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات ».

ويظل في هذا الجهاد حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. لأن الله تبارك وتعالى لا يترك الأمة إذا ارتدت عن دينها فترة طويلة حتى يأتي الله بقوم آخرين صالحين، « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم »[2].

هذا ما منّ الله به عليّ من رؤية في معالجة أهم أمور المسلمين، وكيف ننهض بالمجتمعات المسلمة، ورأيت أن ذلك النهوض لا يكون إلا إذا أحسنت هذه الأمة في تلقيها لوحي ربها وتفاعلها معه وتطبيقها له في كل حياتها دون تفريق بين أمر وأمر، فحرصت على معالجة القلب الذي هو أداة التفاعل في الإنسان وصلته بالسمع والبصر، ومسئولية ولاة الأمور والأفراد في ذلك، والأجهزة التي تستخدم هذه الحواس. فإن كانت الرؤية صائبة فذلك فضل الله، وله الحمد من قبل ومن بعد. وإن كانت سوى ذلك فأسأله أن يهدينا سواء السبيل. « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله. عليه توكلت وإليه أنيب »..

* * *

(١) سورة العنكبوت : آية ٦٩.

(٢) سورة المائدة : آية ٥٤.

القيادة في المجتمع المسلم

للأستاذ محمد صلاح الدين
محرر جريدة ديلي جسارات - كراتشي - باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

إن مشكلة القيادة ترتبط بالخصائص الذاتية للمجتمع وقوانينه الأساسية واستهدافاته وغاياته .. وفوق كل هذا، الأساس النظري العقائدي للمجتمع.

فصحيح أننا يمكن أن نستعمل كلمة « قائد » للدلالة على أي شخص قادر على توجيه غيره من أعضاء المجتمع لما يتمتع به من قدرات غير عادية أو الامتياز عليهم في ميدان نشاطه على أساس من المعرفة والخبرة والإدراك والحكمة وبعد النظر والقدرة على اتخاذ القرار والجلد وما يتمتع به من إقدام ومبادرة وصبر.

وعليه فإن سر القيادة يكمن في الفكرة والرؤية التي تؤدي دوراً مهماً في رسم الاتجاه وتحديد الغاية... والواقع أن كل الكفاءات التي يتمتع بها القائد تتضح الحاجة إليها في كل مراحل تقدمه نحو تحقيق غاياته.

ومهما علا شأن القائد وسمت شخصيته فإنه لا يمكن التعرف على قيمته الحقيقية إلا بربطه ونسبته إلى مجتمعه. فأعلى الديموقراطيين الغربيين كعباً قد لا يساوي شيئاً في مجتمع شيوعي. وبالمثل فإن أعظم القادة الشيوعيين لا ينتظر له أن يصل إلى القيادة في المجتمع الديموقراطي.

فإذا ما تطرقنا إلى مشكلة القيادة في المجتمع المسلم واجهتنا أفكار ووجهات نظر أهم وأعظم.

فالمجتمع المسلم يقوم على معتقدات معينة وله أهداف محددة، ويقوم على أساس إيماني يجعله يستلهم مصدراً معيناً للهداية حتى يحدد خطة للتصرف بادئاً من أبسط الشئون اليومية إلى القيام بأمر الحكم والدولة. ومن ثم فإن شخصاً يملك أرقى المواهب الإدارية ثم يفتقر في تكوينه الإيماني والفكري إلى التلقي من منبع الهداية فلا شك في أنه لا يصلح لشيء من القيادة في مجتمع المسلمين.

ونحن ـ في الحقيقة ـ نحتاج إلى القواد في ميادين السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع والتعليم والتقنين وغيرها من ميادين الحياة، ولا يكفي أن يتمتع هؤلاء بالحذق والكفاءة الأكاديمية والفنية في مجالاتهم، بل يلزم أن يكونوا متجردين لإسلامهم مؤمنين به ذوي عزم وتصميم على وقف كل قواهم وجهدهم للبعث الإسلامي والنهوض بالمسلمين.

ومما يدعو للأسف أن العالم الإسلامي لم ينجح حتى الآن في تبني وتربية هذا النمط من القادة على مستوى كبير، فنحن مازلنا نعاني نقصاً شديداً ونواجه حاجة ماسة في كل مجالات الحياة إلى أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يمكن أن يصلوا إلى مستويات القيادة الإسلامية.

وهناك سببان أساسيان لهذا الوضع المؤسف :

١) وقوع أكثر بلاد العالم الإسلامي تحت وطأة الاحتلال الاستعماري البريطاني والفرنسي والهولندي وغيرها مما جعل شعوب هذه البلاد تفقد استقلالها. وفي أثناء فترة حكم الاستعمار أدخل نظام جديد للتعليم في غالبية البلاد المحتلة بغرض تخريج موظفين مخلصين.. وكان الأشخاص الذين يتخرجون تحت ظل هذا النظام يعينون كذيول وأدوات في مختلف قطاعات الحكومة. وحملت غالبية هذا الصنف من الناس راية استلهام علمانية (لا دينية) الغرب الديموقراطي.. وانتهوا إلى تقطيع أواصر ارتباطهم الفكري مع باقي المسلمين الذين ظلوا على استمساكهم بالإسلام.. وأخيراً حين حصلت هذه البلاد على الاستقلال الوطني وصلت كل السلطات السياسية والإدارية إلى أيدي هؤلاء الطغمة القليلة من ذوي الصبغة العقلية العلمانية.... ومن ثم فحين تحركت القوى الإسلامية فيما بعد

الاستقلال لإقامة نظام إسلامي كانت هذه الفئة هي التي سدت الطريق.. ومن ثم فقد تطور صراع القوى الإسلامية والقوى المعادية للإسلام.. في كل البلاد الإسلامية التي حصلت على استقلالها حديثاً.. وفي أثناء هذا الصراع استيقنت القوى المعادية للإسلام أن الناس لن ترضى ما لم يتغير النظام الاستعماري العفن. وانطلاقاً من هذا الفهم خرجت هذه الطبقات الحاكمة بالشعارات الاشتراكية إبقاء على سلطانهم وهيمنتهم، وهم حساسون للإسلام ـ فقط لأنهم غير مستعدين للتخلي عن الانفصالية السياسية والإقليمية التي أشربت بها قلوبهم من خلال نظام التعليم الاستعماري. نعم.. لقد تقبلوا الشيوعية كبديل.. أما الإسلام فكان شيئاً بغيضاً بالنسبة لهم.. وتستمر هذه الطبقة عقبة كؤوداً في طريق الإسلام إلا أنها ترخي قبضتها تدريجياً أمام ظهور القوى الإسلامية واضطراد قوتها.

٢) وسبب آخر لعدم توفر الكفاءات القيادية المطلوبة في المجتمع المسلم. تمثل في هذه القرون من الركود والتبعية التي تركت المسلمين متخلفين تماماً عن ركب العلوم وفنون الأداء التكنولوجي. وغيرها من النظم الحديثة.. وبرزت الحاجة إلى تعليم عال.. فلما كانت فترة ما بعد الاستقلال لم يكن بد من ابتعاث الأبناء إلى جامعات البلاد الخارجية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية لتحصيل ما يتيسر من علوم وفنون وتدريب.. ونظم التعليم في هذه البلاد جزء من كل متكامل.. فهو قائم على أيديولوجياتهم الخاصة بهم.. ويستهدف إيجاد قيادات لمجتمعاتهم هم.

وطالما أن نظام التعليم في الغرب قائم على أسس المادية والعلمانية ـ الانفصام عن الدين ـ فإنه سيؤدي إلى التأثير على عقول المسلمين الذين يدرسون على أساسه ومن هنا نستطيع تفسير ميول واتجاهات هذه الطبقات التي تلقت هذا التعليم.. فهم ليسوا فقط في حالة عدم اتساق مع قيمنا ونظمنا الإسلامية.. بل وفي حالة مناقضة وتناقض واضح مع تعاليم الإسلام.

فأولاً : إن التصور الغربي للحياة تصور ترفي يجري وراء المتعة. وهذا التصور الذي كان المثل أمام النخبة من المسلمين التي تلقت

تعليمها الغربي. ففي الغرب ظهر جنون التعالي في البنيان والجري وراء زينة الحياة وفاخر الأثاث والرياش وكل وسائل الترف والمتعة. وأن أسلوب الغرب في الحياة قد نفذ إلى مجتمعنا ولا أحسب أن أحدنا لديه الوقت الذي يستطيع أن يحصي فيه عدد الأشياء التي نستخدمها.. وهل هي من إنتاجنا.. وكم من المال ندفع في سبيل الاستمتاع بهذه الأشياء غير الضرورية من الواردات.

ثانياً : والمجتمعات المسلمة اليوم ترقد عرضة لهذه الحضارة الغربية القاتلة على أيدي هؤلاء الذين تعلموا على أيدي الغرب. فالأدب الهابط والأفلام الخليعة والملابس التي لا تستر عورة وتشف عن الفتنة.. وغيرها من وسائل التوجيه الخلقي والإفساد قد غزت مجتمعنا بصورة كاملة.. وتسببت في تعفن وفساد أخلاقي كامل.

لا شك في أن التعليم الأجنبي قد مكننا من مواكبة تطورات العصر الحديث وأعاننا على التقدم مادياً في مختلف الميادين إلا أننا إذا حاولنا أن نقيم موازنة لثمرة هذا التعليم لوجدنا الحاصل والأثر على ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة قد دمر بشماله ما قد بنى بيمينه.

إن القيادة النابعة من النخبة المستغربة Westernized قد أشربت تماماً أسلوب القيادة الغربية.. وحتى إذا اتسمت بالإخلاص والحماس للإسلام فإنها تميل إلى أن تنهج نهج الغربيين فيما تتخذه من قرارات في كافة شئون الحياة العملية، لأنها لا تستطيع أن تنبذ وتتخلى عن الروابط الفكرية التي تربطها بالبيئة التي نشأت فيها.

ويستلزم هذا الأمر الانتباه إلى سرعة اكتفاء العالم الإسلامي ذاتياً في مجالات التعليم والتكنولوجيا بحيث توظف كل مواردنا في إقامة هيكل متكامل جيد للتعليم العالي.. بحيث ينتهي تماماً اعتمادنا على الغرب في هذا المجال.. والواقع أن مدارسنا ـ فقط ـ هي التي ينبغي أن تسد احتياجنا من القيادة التي تقوم بدورها المهم في إعادة بناء وتطوير مجتمعنا المسلم على الأسس المناسبة.

وإن القيادة التي نحتاجها إنما تنبت من طهارة الخلق والشخصية،

بينما يركز التعليم الأوروبي استهدافه في تحصيل الخبرات الأكاديمية والمهارة الفنية ـ ومن ثم فالناحية المعنوية (الخلقية) ليست ذات أهمية في حس الأوروبيين، ولذلك فإن كل الأفكار المثالية الأخلاقية تتقلص بصورة واضحة في الغرب. وطبيعي ألا نجد ـ حتى مجرد الأثر للمبادىء العليا الأخلاقية.. التي تتطلع إلى ترسية أساس تعليمنا المتميز عليها.

والآن نعود إلى السؤال الأساسي عن تصورنا للقيادة.. وما هو هذا التصور ؟ وما هو النموذج والمستوى من القيادة الذي قدمه لنا القرآن ؟ وما هي الصفات الأساسية لمثل هذه القيادة ؟

ويمكن أن تدلنا الدراسة الواعية للقرآن الكريم إلى أن الأنبياء إنما اصطفاهم الله لتعليم وهداية البشرية. وعلى النقيض من ذلك أورد القرآن بعض الحكام ـ مثل فرعون والنمرود وهامان.. وغيرهم.. كنماذج للقيادة السيئة التي أوردت الإنسانية موارد الهلاك والدمار. فالله يقول في سورة طه : (وأضلَّ فرعون قومه وما هدى) : ٢٠ : ٧٩)

والنبي محمد ﷺ، ليس آخر وخاتم النبيين فحسب، وإنما هو المثال الكامل للقيادة.. ولم يكن ما جاء به من وحي هو الوحي الخاتم فحسب وإنما كانت بعثته تجسيداً للأسوة والريادة في مجال التوجيه وإرشاد البشرية إلى طريق الخير وحتى يوم القيامة.. وهذه القيادة صالحة لكل الأزمان والأحوال. ويلزم كل من جاء بعده أن يتبعه ومن بين من يهتدون بهم خلفاء الرسول.

وحقيقة الأمر أن نموذج القيادة الذي قدمه الخلفاء الأربعة الأول : أبوبكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم).. لم يكن بدعاً وشيئاً آخر غير ما كان عليه الرسول، وإنما كان اتباعاً مخلصاً صادقاً للقائد الأول. وإنما كان نجاحهم قائماً على أساس كونهم أصدق أتباع محمد وأشدهم التزاماً بما جاء، وتاريخ الإسلام كله مصبوغاً بهذا المبدأ. وعلى طول زمن الأمويين والعباسيين والعثمانيين وغيرهم.. اضطردت هذه القاعدة وأثبت الحكام أنهم متبعون للقائد الأول.. وكانوا يعرفون بقادة المسلمين، سواء كانوا حكاماً أو معلمين أو أئمة مساجد. فعمر بن عبد العزيز، بالرغم من انحداره من أسرة

مالكة، حاز على شعبية لأنه التزم التزاماً كاملاً بالاقتداء برسول الله ﷺ.. وضم المؤرخون فترة حكمه إلى فترة الحكم الراشد للخلفاء الأربعة. وما استطاع واحد من حكام بني أمية أن يحقق مثل هذا الأمر.. ثم جاء وقت أحس فيه الناس أنه ليس من حكامهم ـ من العباسيين ـ من يلتزم بهدي رسول الله ﷺ فالتفتوا إلى الأئمة البسطاء يلتزمون أوامرهم ولا يقيمون وزناً لما يصدره من على العرش من أوامر ومراسيم. ولما جاهد ـ أور نجزيب ـ من المغول في الهند ليلتزم بالسنة النبوية تقبله الناس قائدا للمسلمين تتبعه جماهير المسلمين في زمانه، واليوم نجد المغفور له الملك فيصل وصاحب الجلالة الملك خالد يتمتعان بحب الناس، ليس فقط في المملكة العربية السعودية بل في كل العالم الإسلامي، لالتزامهم بسنة رسول الله ﷺ ولخدماتهم الجليلة للإسلام. وعلى نقيض ذلك نجد أن شاه إيران عوقب لما يضمه صدره من عداء للإسلام، وفي الباكستان أقدم الرئيس ضياء الحق على مبادرة لتطبيق الشريعة الإسلامية واقتفى أثر النبي في حياته الشخصية، ومن ثم فقد أصبح محبوباً ليس بين الباكستانيين فقط وإنما نال تأييد المسلمين في كافة بقاع الأرض.

وهذه الحقائق التاريخية والميل المستمر من جانب جماهير المسلمين، لهي شهادة جلية للحقيقة القائلة بأن للأمة قائداً واحداً وزعيماً فرداً، هو خاتم النبيين. وقد أفصحت هذه الحقيقة وأعلنت عن نفسها مرات عديدة. غير أنها ـ ولسوء ـ الحظ لا تلقى ما تستحق من الالتفات والفهم. إن فكرة خاتمية الرسالة كائنة في حسنا وعقلنا الباطن في الوقت الذي أخفقنا في جعلها واقعاً ملموساً في حياتنا.

إن المبدأ الأساسي في فلسفتنا عن القيادة هو اتباع قائد واحد في كل مجالات الحياة.. سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو تعليمية، تشريعية أو قضائية.. فبادئاً من أدنى مسئول إلى أعلى قائم بأمر المجتمع المسلم نجدهم يتطلعون إلى أخذ يد المسلمين بكل احترام ولطف وأمان وهم في ذلك متبعون مخلصون للقائد الحق الوحيد، فكل سلوكهم قائم على أساس التأسي برسول الله ﷺ.. والواقع أنه بقدر ما يظهر منه من نقاء وصدق تكون محبته والتعلق به.

وقد أعطى القرآن الكريم حكمه الواضح الصريح في أن النموذج الواجب الاتباع، وحتى يوم القيامة، إنما انحصر في شخص خاتم النبيين محمد ﷺ « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » (٣٣ : ٢١).

في المجتمع المسلم لا يستطيع إنسان أن يرقى إلى مرتبة القيادة دون اتباع كامل للنبي.. فإذا ما بدأنا هذه البداية فلننطلق بحثاً وراء المكونات اللازمة للقائد المسلم في ضوء القدوة الحسنة.

١ ـ اجتناب الشرك :

التوحيد هو أساس الإسلام، ووصف القرآن الشرك بأنه أكبر الكبائر.

« لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم » (٣١ : ١٣)

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ».. (٤ : ٣٦)

« .. هو الله ربي ولا أشرك به أحداً » (١٨ : ٣٨)

وليس اجتناب الشرك هو العمل الوحيد الذي يلزم القائد المسلم، بل يطلب منه محاربة كل صور الشرك وإقامة التوحيد.

٢ ـ الإسلام والخضوع لله :

ونجد أن واحداً من المكونات المهمة لنموذج القيادة يقدمها القرآن على لسان رسول الله، « قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي. إن أتبع إلا ما يوحى إليّ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » (١٠ ـ ١٥). وقد أبان القرآن أن طاعة الأقوام لأنبيائهم ليست لذواتهم وأشخاصهم، وإنما بأمر الله ولأنهم يحملون رسالة ربهم..

« وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله »... (٤ : ٦٤)

فإن طاعة الرسول في الحقيقة هي طاعة لله..

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٤ : ٨٠).

٣ ـ طاعة رسول الله :

أما عن المكون المهم الثالث في القيادة الإسلامية، فهو طاعة النبي ﷺ فقد أمر الله المسلمين :

« .. أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ».. أي أننا أمرنا

بطاعة النبي كطاعتنا لله، غير أن الآيات المذكورة آنفاً توضح أن الطاعة للنبي ـ هي في الحقيقة ـ طاعة وخضوع لله، وعموماً فإن طاعة السلطات المشار إليها في الآية طاعة مشروطة، فالسلطات واجبة الطاعة طالما أطاعت هي الله. ويتضح هذا تماماً في الآية التالية :

« فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ».... (٤ : ٥٩).

فواضح أن الاختلاف قد يقع من السلطات وليس من الله ـ سبحانه ـ أو نبيه ـ ﷺ ـ والسبيل الوحيد لحل هذا النزاع وفضه إنما يكون في ضوء الشريعة كتاباً وسنة. وهناك مكون ـ هو في الحقيقة نتيجة طبيعية لفهم هذه الآية ـ إن قيادة المجتمع المسلم لا يجوز لها أن تصدر قوانين تتعارض مع أوامر الكتاب والسنة لأن الاستسلام والخضوع الكامل ـ دون قيد أو شرط ـ لأمر الله وأمر الرسول من متطلبات الإيمان ومقتضاه.

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً » (٤ : ٦٥).

٤ ـ التقوى :

من المكونات المهمة للنموذج المطلوب للقيادة الإسلامية :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٤٩ : ١٣).

وتقرر هذه الآية المستوى القياسي والمعيار الذي يقاس عليه في المجتمع المسلم.

وقد أكد رسول الله ﷺ في خطبة الوداع (على عرفة) :

« كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ».

وقد اشترط الفقهاء عنصر التقوى في القيادة، وصح هذا في اختيار الخلفاء الراشدين.. وحين ترك عمر وصيته طلب أن ينظر إلى الأتقى.. ومن ثم فإنه لا يتصور أن يسند أمر المسلمين إلّا لمن يتوفر فيه هذا العنصر.

٥ ـ الخوف من الآخرة :

إن الخوف من الحساب في الآخرة أساس لكل عمل صالح، ولا

يتصور أن يخلو حس إنسان من هذه الرهبة ثم يكمل إيمانه.. فإن أسمى غايات المؤمن أن يكون من الفائزين في الآخرة.. فإذا ما آثر الآخرة الباقية على العاجلة الفانية حصل على السعادة حتى في هذه الدنيا، ولذلك فإن علينا أن ندعو « ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذابَ النار » (٢ ؛ ٢٠١)

وان تفاهة هذه الحياة الدنيا ـ بالقياس إلى ما في الآخرة ـ قد أوضحته هذه الآية :

« قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لم اتقى ولا تظلمون فتيلاً » ومن واقع القرآن نجد أن الفوز الحقيقي إنما هو فوز الآخرة.

« قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم » (٥ : ١١٩).

وان الشعور بالحساب في الآخرة ينتج في الإنسان فضيلتين :

١ ـ الشعور بالمسئولية

٢ ـ أسلوب التفكير المستقبلي.

فالإنسان بذلك يتعلم من الماضي دون أن يغرق فيه.. وهو يجاهد ليكون حاضره أفضل.. سعياً وراء مستقبل أكثر نجاحاً ترضى به نفسه.

وان السمة المميزة للقيادة الرشيدة تتجلى في نهوضها بالحاضر وسعيها نحو غد أفضل.

٦ ـ الأهلية :

إن كون القائد أهلاً لعبء القيادة شرط ضروري لتولي هذه القيادة « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »...

وقد وردت كلمة الأمانات بمعناها الشامل.. بحيث تشمل كل الموارد والطاقات.. فكل المسئوليات يجب أن يعهد بها إلى من هو لها أهل وعلى أعبائها قادر. والحق أن النبي ﷺ عَدَّ من الخيانة أن يختار الذي هو

أدنى دون الذي هو أفضل مع توفره ووجوده.. بحيث عَدَّ من علامات الساعة أن يسند الأمر لغير أهله.

ومن ثم ففي نظرتنا إلى قيادة المجتمع المسلم يلزم أن نهتم بأمر الأهلية والاستحقاق.. وفوق ذلك كله، فإن المسئولية الجماعية للأمة تنصبُّ على ضرورة اختيار الأُصلح وتنحية من لا يصلح ولا يستحق عن مكان القيادة.

الاستخـــلاف :

إن مثال القيادة الذي يقدمه لنا رسول الله ﷺ لا تكتمل له ملامحه دون وجود الثقة.. والإسلام يعطي تصوراً شاملاً جداً عن الخلافة في الأرض. فهو لا يحصرها في الأمور المادية بل يجعلها تضم إليها كل الكون. فالله ملك كل شيء ومالكه.. فكل ما للإنسان، حياته وممتلكاته وقدراته ومهاراته.. ووسائله الاقتصادية ومؤسساته السياسية.. كل ذلك ملك لله، وعليه أن يستخدم كل هذه الأشياء وفق إرادة الله وحسب مشيئة المالك ـ الله ـ لأنه محاسب عليها في الآخرة.. لأنه اؤتمن عليها واستخلف فيها. وهنا يبرز عقد واجب الوفاء بين الله وبين المؤمنين. جاء في القرآن على هذا النسق :

« إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة »... (٩ : ١١١)

وبتمام هذا العقد أصبحت كل الأشياء التي وهبها الله.. بما في ذلك الحياة نفسها.. أصبحت أمانة وموضوع الاستخلاف.. ومن ثم فليس هناك أي مبرر أو دعوى يمكن على أساسها الانحراف عن إرادة الله ومشيئته وتوجيهات رسوله بحيث يستغل ما استخلف فيه لصالح نفسه وبإرادته الحرة..

٨ ـ الشعــور بالمسئوليـة :

إن القيادة الإسلامية قد عهد إليها بمسئوليات جسام فيما يتعلق بحقوق الله وحقوق الناس.. كرعاية شئون المسلمين ورفاههم والدفاع عن أرض الإسلام ولإعلاء كلمة الله.

ومن المهم أن تظل القيادة يقظة مهتمة بهذه المسئوليات، وأن المدى الذي وصل إليه شعور رسول الله ﷺ ـ نفسه ـ بثقل هذه المسئوليات قد صوره القرآن الكريم :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ».

وهذا الشعور بالمسئولية جعل الخلفاء الراشدين لا يقر لهم قرار حتى يكونوا دائماً على الجادة. وعلى الرغم من تسلمهم ذروة القيادة فما هدأوا وما استراحوا لأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة.

٩ ـ اليقظة والعملية (في القيـادة) :

إن المثال الذي قدمه لنا رسول الله ﷺ لم يكن نموذج قيادة مفكر أو فيلسوف أو رجل يجري وراء الترف العقلي.. لا تتجاوز جهوده ووظيفته وضع المصطلحات والقواعد.. وتنفيذ المبادئ البراقة، بل كانت حياته دفاقة ملأى بالفاعلية، وقد وهب حياته فداء لدعوته ـ لأنه ـ أي الرسول ـ وأصحابه مأمورون من رب العالمين بأن يكونوا مستعدين ـ نشطين ـ يستفيدون من كل القدرات المتاحة لهم :

« وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم ».... (٨ : ٦٠)

وقد بين الله أن رضوانه إنما يصيب العاملين المجاهدين من المؤمنين بحيث لا يستوون مع القاعدين والمتقاعسين :

« لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضَّلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكُلاًّ وعد الله الحسنى، وفضَّلَ الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » (٨ : ٩٥).

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله، وأولئك هم الفائزون ». (٩ : ٢٠).

ولذلك فإن الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة من نصيب من يدأبون

على الجهاد في سبيل الله ورفعة دينه.. ولا يضنون بأنفسهم وأموالهم أن يبذلوها في سبيل هذا الهدف المقدس.

إقامة السلام والأمان :

إن القائد المسلم مأمور أن يستخدم كل وسائله وقدراته لتحقيق السلام والأمن والأمان في كل العالم، وأن يزيل مظاهر الهرج والاضطراب وكل مظاهر الطغيان.

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، والعاقبة للمتقين » (٢٨ : ٨٣).

إن القهر والفساد شر يؤدي ـ تلقائياً ـ إلى قتل كفاءة الشخص بحيث لا يستطيع أن يحمل أمانة القيادة.. وحتى ذرية الأنبياء لا بد لهم أن يمروا بهذا الامتحان، فحين جعل الله إبراهيم إماماً.. وطلب إبراهيم هذه الإمامة لأبنائه من بعده فأجابه الله تعالى بوضوح :

« لا ينال عهدي الظالمين »

١١ ـ الشدة على الكافرين والرحمة بالمؤمنين :

إن الرحمة ملمح مهم من ملامح شخصية القائد.. والتي تمثلت في شخص الرسول الكريم.. والقيادات من صحابته الذين رباهم.. فكانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم كما حكى عنهم القرآن الكريم :

« محمدٌ رسول الله، والذي معه أشدّاءُ على الكفار رحماءُ بينهم »... (٤٨ : ٢٩)

وينبني على ذلك أن القيادة المسلمة يستحيل أن تمارس شيئاً من العنف والقسوة نحو المسلمين، لأن هذا يدخر لمواجهة الأعداء من الكافرين فقط.

١٢ ـ العدالة :

ألزم الله ورسوله أئمة المسلمين بالعدل.. وأمروا أن يسووا بين الناس دون النظر إلى جنسهم أو دينهم..

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

والواقع أن المعيار الذي وضعه الإسلام للعدل هو معيار لا يطال إليـــه..

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإنْ تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ». (٤ : ١٣٥)

وإن من أوجب واجبات القيادة الإسلامية إقامة شرع الله على الأرض، ويستحيل أن يتقبل المسلمون قائداً لا يصل إلى هذا المستوى من إقامة العـــدل.

١٣ ـ الحكمة والقدرة على الحكم :

يلزم ـ بالضرورة ـ أن يكون القائد المسلم حكيماً.. وقد وصف الله هذه الخصيصة في نبيه الكريم.

« يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (٢ : ١٥١).

ومعنى هذا أن عمل النبي ﷺ، لا ينحصر في إيصال كلمة الله والبلاغ فحسب، وإنما يستلزم قدرة خاصة على الإبانة وتجسيد معاني الكلمة من ناحية، وتطبيقها عملياً من ناحية أخرى.. وهذا الذي سماه القرآن الخير الكثير.

« يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ». (٢ : ٢٦٩)

وقد أمر الله المسلمين أن يقدموا دين الله بأسلوب معين أساسه، الحكمة والموعظةالحسنة.

« أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنـة، وجادلهم بالتي هي أحسن » (١٦ : ١٢٥)

كما أمروا ألّا يعهدوا بشئونهم للسفهاء.

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً »... (٤ : ٥).

والله سبحانه لا يستوي عنده الحكمة وما عداها :

« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٣٩ : ٩).

١٤ ـ الشـــورى :

مهما علا كعب امرئ وسمت وحسنت أعماله.. وحتى في مجال الحكمة والحكومة وإدارة شئون الدولة.. فإنه مطلوب منه أن يسلك طريق الشورى. ومع أن النبي كان يوحى إليه فيتلقى التوجيه المباشر من رب العالمين إلا أنه كان يطلب المشورة ترسية لمبادئ مهمة في مجال الشورى ـ قد أمر من لدن الله.

« وشاورهم في الأمر » (٣ : ١٥٩)

وعلى ذلك تأسس المبدأ والسلوك في كافة أفراد الأمة.

« وأمرهم شورى بينهم » (٤٢ : ٣٨)

ولا يستثنى من هذه القاعدة قائد مسلم لأن في هذه القاعدة وقاية للأمة من الجنوح إلى « الدكتاتورية »، الطغيان.

١٥ ـ حسن الخلق :

الواقع أن اللفظ القرآني المستخدم في هذا المجال قد استوعب كل الصفات التي تناولناها آنفاً لأن الله حين أراد أن يمتدح نبيه ويصف شخصه الكريم ـ وفي إيجاز ـ قال :

« وإنك لعلى خلق عظيم » (٦٨ ـ ٤)

وحين أراد النبي أن يوضح دعوته ورسالته، وفي كلمات قلائل، قال :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (رواه أحمد، والبيهقي)[١]

وفي حديث آخر :

« خياركم أحاسنكم أخلاقاً » رواه مسلم[٢].

---

(١) ورد باللغة العربية في الأصل الانجليزي.. ولم نقم بالتحقيق.

(٢) ورد باللغة العربية في الأصل الانجليزي.. ولم نقم بالتحقيق.

وفي عدة مواطن في القرآن نجد الإشارة إلى الصلاح والاستقامة جنباً إلى جنب مع تعليمات الحكمة والعمل.. لأن إقامة الأخلاق وتحقيق الاستقامة من أخطر مهام النبي.. ويستحيل على قائد مسلم أن يمضي في القيادة دون التخلق بالخلق، والمنتظر منه ليس الوقوف عند حد التحلي بهذه الأخلاق والوصول إلى الاكتمال بل يلزم ـ أيضاً ـ أن يعلم الناس ويحول بينهم وبين التردي في الخطأ والانحراف عن فاضل الخلق. ويضع القرآن ـ في هذا الصدد ـ قاعدة مهمة لقيادة المجتمع المسلم.

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ».

والواقع أن هذه الآية تحدد اتجاه كل سعي وجهاد يلزم أن يمارسه الفرد أو الجماعة أو الدولة وأن يقيم عليه ويستمسك به، ومن الطبيعي ألا نعطي الثقة لقائد في المجتمع المسلم إلا إذا اتضح من واقع حياته إخلاصه والتزامه هذا الطريق.

هذه إذن بعض الصلاحيات الأساسية التي نلمسها ـ واضحة في الأسوة الحسنة.. رسول الله.

وان علينا بعد دراستنا لهذه المجالات ـ أن نطرح هذا السؤال : هل يمكن لنظام التعليم الغربي وبيئة معاهده التعليمية وكل ما تتميز به أجواؤه الثقافية.. هل يمكن أن يمدنا بقيادات من النوعية التي عرضنا لها وتحتاجها المجتمعات المسلمة ؟ لا شك أن الاجابة بالنفي.. ومما لا شك فيه أيضاً أننا يجب أن نزف تهانينا لأولئك الشباب القلائل الذين يعودون بعد أن ينهوا تعليمهم في الغرب دون أن ينسلخوا عن إيمانهم.. ولا يقدح وجود هذا العدد الضئيل الناجي في حقيقة أن هذه المعاهد يستحيل أن يتخرّج منها قيادات للمجتمع المسلم.

وعلينا أن نقيم نظاماً تعليمياً مستقلاً في بيئتنا مستمداً من عقيدتنا وديننا ليخدم ويحقق أهدافنا وغايتنا.. وكلما أسرعنا في كسر إسار العبودية الفكرية كان ذلك أفضل.

وتقع المسئولية الحقيقية في هذا الصدد على أكتاف أجيالنا الشابة..

فمن ناحية يلزم أن يشن شبابنا حرباً لا هوادة فيها على النفوذ الغربي في المجتمع المسلم وخاصة في مجال مواجهة اتباع الشهوات وسوء الأخلاق والجري وراء المادة... ومن ناحية أخرى على الشباب أن يقوم بالدور الرئيسي ليصوغ أفراد وجماعات المجتمع المسلم على نمط الأسوة والقدوة الكبرى محمد رسول الله ـ ﷺ ـ وفوق هذا فإن العمل الأكبر والأهم يتشكل في إقامة مراكز تعليمية ومراكز للأبحاث ضخمة لتنافس وترقى إلى مستوى معاهد الغرب ومؤسساته، وعلى الأجيال الحالية أن تبدأ بذلك حتى تعطي الفرصة وتمهد الطريق أمام الأجيال القادمة وحتى لا تحتاج هذه الأجيال القادمة إلى السعي إلى الغرب للحصول على التعليم.. بل يتلقون تعليمهم في جوهم النظيف المشبع بقيمهم الإسلامية.. ولعل واحدة من مميزات عدم الاعتماد على الغرب في مجال التعليم العالي سيتيح الفرصة أمام الكافة فلا يقتصر على أولاد الأغنياء وهم قلة.. وان في اتساع قاعدة التعليم العالي ـ والتخلص من ربقة التبعية لأوروبا سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأخلاقياً كفيل بتوفير الفرصة للثورة الاقتصادية الاجتماعية التي نصبو إليها.. والتي بدونها لن نستطيع أن نتخلص من قبضة تبعية عقولنا وأجسادنا.. كما أننا لن نستطيع إيجاد القيادات الإسلامية التي يمكن أن تؤثر في الفكر الإسلامي والشخصية الإسلامية.

الإسلام والحضارة ودور الشباب

للدكتور محمود فوزي حمد
رئيس قسم الهندسة الميكانيكية - كلية الهندسة - الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحضارة لغة هي سكنى الحضر. وأخذت في العصر الحديث معنى اصطلاحياً، وهو ما تتمتع به أمة من الأمم في عصر من العصور وفي بقعة من بقاع الأرض من معرفة وعلم وثقافة، وما لها من أخلاق وعقائد ومبادىء وآداب، وما يربطها من نظم وقوانين وشرائع وطبائع وعادات وتقاليد، تنظم حياة أفرادها العقيدية والأخلاقية والاجتماعية والفنية والسياسية والاقتصادية. وغايتها تأمين حياة إنسانية كريمة، وسعادة مادية ومعنوية، وحرية ينطلق في رحابها العقل والفكر والنفس والوجدان.

وعلى هذا فأسس الحضارة هي : عقائدية وفطرية، وعالمية وإنسانية، فكرية وعلمية، تقنية وفنية، أخلاقية واجتماعية، سياسية واقتصادية.

والحضارة في اعتقادنا هي إيمان بمبادىء سامية وعقيدة إلهية حقة تتحلى بأخلاق فاضلة، ومسلك إنساني كريم، سواء سكن الإنسان الحضر أو القفر، أو قطن المدينة أو البادية.

والإسلام بعقيدته وعباداته وأخلاقه ومعاملاته وما يدعو إليه من وحدانية وعبودية لإله واحد، وحكم بدينه وقرآنه، هو الحضارة الخالدة بعينها، مشتقة أصولها وجذورها ومبادئها من تعاليمه ومبادئه الثابتة التي لا تتغير بتغير أشكال هذه الحضارة ولا بتعدد صورها وهياكلها.

ودور الشباب المسلم وواجبه يمليان عليه أن يأخذ بما جاء به القرآن ويهتدي بهدي النبوة، ويعمل جاهداً لإصلاح المجتمع ونشر الفضيلة والخير، ويسعى دائباً لإقامة حكم الله في الأرض وتطبيق شرعه ليكفل السعادة للبشرية، والحرية للشعوب ليقيم العدل والحق، وينشر السلام، ويعم الخير تحت راية الرحمن ولواء الإسلام.

* * *

الحضارة لغة هي سكنى الحضر وهي بمعنى المدينة وهي سكنى المدن وهي بخلاف البداوة وهي سكنى البادية أو الصحراء.

وعلى هذا فإن الفوارق بين عادات وطبائع وأخلاق سكان كل من المدينة والبادية، والاختلافات بين الأسس التي تبنى عليها الحياة في كل منهما تقدم التعريف لمعنى الحضارة.

وبهذا المفهوم صُور للناس حياة البداوة بأنها التأخر والجهل والتقهقر والبؤس وأن حياة الحضر هي حياة المعرفة والعلم والتقدم والنعيم.

وأخذت كلمة الحضارة معنى اصطلاحياً في العصر الحديث وانسلخت عن معناها اللغوي، وإن كانت لا تزال تحمل في جنباتها ذلك التصور الذي ألمحنا إليه سابقاً.

أخذت تدل على ما تتمتع به أمة من الأمم أو شعب من الشعوب في عصر من العصور وفي بقعة من بقاع الأرض من معرفة وعلم وثقافة، وما لها من أخلاق وعقائد ومبادئ وآداب، وما يربطها من نظم وقوانين وشرائع وطبائع وعادات وتقاليد، تنظم حياة أفرادها العقيدية والأخلاقية والإجتماعية والفنية والسياسية والإقتصادية. كل ذلك في سبيل تأمين حياة إنسانية كريمة وسعادة مادية ومعنوية وحرية ينطلق في رحابها العقل والفكر والنفس والوجدان.

ويُعرّف معالي الأستاذ محمد المبارك، في كتابه « الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية »، الحضارة بأنها : « مجموع المعارف العلمية والتشاريع والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية

في مرحلة من مراحل التاريخ، وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعباً أو أكثر ».

ويحدثنا في مكان آخر من نفس الكتاب عن غاية الحضارة قائلاً « إن غاية الحضارة الارتفاع بالحياة الإنسانية، والحياة الإنسانية معقدة كثيرة الجوانب. فإن فيها حياة فكرية عقلية، وحياة مادية وعلمية معاشية، وحياة نفسية خلقية، وحياة اجتماعية، إلى جانب الحياة الفردية، والحضارة الصالحة الخيرة هي التي ترتفع بهذه الجوانب كلها وتعدل بينها، فلا يظلم جانب منها جانباً آخر ولا ينمو واحد ولا يضمر آخر ».

وعلى هذا فإن أسس الحضارة هي :

عقيدية ، فطرية.

عالمية ، إنسانية.

فكرية ، علمية.

تقنية ، فنية.

أخلاقية ، اجتماعية.

سياسية ، اقتصادية.

وترتفع حضارة أي أمة بارتفاع هذه الأسس وتقدمها وتوفرها وتضافرها وتناسقها، وأي خلل في إحداها يؤثر قليلاً أو كثيراً على حضارة الأمة وقد يرفعها إلى السماء أو يهبط بها إلى الحضيض.

هذه الأسس لا تحمل نفس الأثر وليس لها نفس الأهمية في الوصول إلى الغاية وتحقيق الهدف.

هذه الأسس بعضها مادي وبعضها معنوي، بعضها يُؤَمِّنُ للإنسان حياة مادية سعيدة مريحة وبعضها يؤَمِّنُ حياة عقلية وفكرية كريمة، حياة نفسية ووجدانية، سامية في أهدافها ومراميها.

وأي حضارة في عقيدتنا لا تسمو بأفرادها فكراً ووجداناً، عقلاً وشعوراً.

أي حضارة لا تُؤَمِّنُ للناس حريتهم وكرامتهم.

أي حضارة لا يسود فيها الحق والعدل.

أي حضارة لا تُبنى على المودة والأخوة.
هي حضارة فاسدة ومدنية زائفة.

ولقد فهم بعضهم أن الحضارة هي العيش الرغد، هي المجون، هي احتساء الخمر ولعب الميسر والانخراط في الجنس والرذيلة.

لقد فهمها بعضهم بأنها الربا والزنا والخنا، أنها الرقص والتخنث والتقليد الأعمى للغرب في لباسه وعيشه وأخلاقه وتصرفاته.

لقد فهمها بعضهم أنها البعد عن الدين والقيم الأخلاقية الفاضلة والصفات النبيلة.

لقد فهمها بعضهم أنها البعد عن التقاليد الطيبة الموروثة والعادات الخيرة والتنكب للفضيلة والعقيدة.

لقد فهمها بعضهم أنها النطق بلسان أعجمي ولغة أجنبية، وفهمها بعضهم أنها الإلمام بالممثلين والممثلات والراقصين والراقصات ومعرفة أحوالهم ومخازيهم.

وفهمها بعضهم أنها الشرك والكفر والإلحاد.

وفهمها بعضهم أنها الرأسمالية أو الشيوعية أو الاشتراكية.

هذه المفاهيم، مع كل أسف جميعها، تسلب الإنسان إنسانيته وتبعده عن فطرته السليمة الطيبة، وتمرغه في الوحل أو تستعبده لآلهة خسيسة دنيئة : تارة هي المال، وأخرى هي المادة وثالثة هي الجنس، ورابعة هي الحكم والسلطة.

أَمِنَ الحضارة أن يكون من أكثر الناس رخاء وثراء أصحاب الحانات ؟

أَمِنَ الحضارة أن يكون أكثر الناس رخاء وثراء الفاجرات والعاهرات ؟

أَمِنَ الحضارة أن تُكرّم البغايا ويرفع شأن الراقصات ؟

أَمِنَ الحضارة أن تكسب الواحدة من هؤلاء في ليلة واحدة ما لا يكسبه علماء أمة وأئمة في سنة كاملة ؟

أَمِنَ الحضارة أن نجد شعوباً تئن جهلاً وتتضوَّر جوعاً وتشكو مرضاً وتموت ظلماً واستطالة ؟

أَمِنَ الحضارة أن تنفق الدول الملايين والمليارات في سبيل تكريم ما يسمى زوراً بالفن والفنانين، في إقامة النصب والتماثيل، وإحياء الليالي الساهرة ؟ وقرى بأكملها تحتاج إلى النور والماء، تحتاج إلى المسكن والمأوى، تحتاج الدواء والعلاج.

أَمِنَ الحضارة أن تخترع القنابل الذرية والأسلحة المدمرة والمواد الكيميائية المحرقة، والجراثيم المهلكة ؟ لاستئصال الشعوب وتدميرهم في سبيل الشيطان ورغبة في السيطرة والاستعباد.

أهذه هي الحضارة ؟

هل الحضارة طعام وشراب وعيش خلاب كذاب ؟
هل الحضارة كشف الصدور وتعرية النحور ؟
هل الحضارة غش وكذب ولهو ولعب ؟
هل الحضارة فسق وفساد وظلم واستعباد ؟
هل الحضارة رشوة وسلب وسرقة ونهب ؟
كــــلا !

ليست الحضارة تعرية للصدور وكشف للشعر.
ليست الحضارةِ في مراقصة النساء واستمرار البغاء.
ليست الحضارة في ارتداء أفخر الثياب وإطالة الشعر والكعاب.
ليست الحضارة في اقتناء الأثاث الوثير وسكنى القصور.
ليست الحضارة تقليد الغرب في الإيجاب والسلب.
ليست الحضارة في ارتياد دور السينما وأندية اللهو.
ليست الحضارة في لعب الميسر واحتساء الخمر.
كـلا وألف كـــلا.

ليست الحضارة أن نخلع ثوب الحشمة والفضيلة ورداء الأدب والعفة كلما قصدنا بلاد المجون وأرض الفساد، ولِمَ نقصدها إن لم يكن هناك

غرض نبيل، ومقصد شريف، وإن لم يكن هناك علم مفيد يبتغى، أو صناعة متقدمة تنشد، وتجارة خيرة ترتجى.

ليست الحضارة هجراً للغة الآباء والأجداد، وتحريك اللسان بكلمات أجنبية، كثيراً لا نحسن نطقها.

الحضارة في يقيني واعتقادي هي إيمان بالمبادئ السامية والتحلي بالأخلاق الفاضلة، هي التقدم في المعرفة الخيرة وفي العلم المفيد.

حضارة أمة هي تاريخها المشرق المشرف المليء بجلائل الأعمال.

حضارة أمة هي صناعتها الموجهة لخير الإنسانية وسعادة الشعوب وازدهارها.

حضارة أمة هي اقتصادها المبني على التعاون والصدق والأمانة، الموجه لعمارة الأرض ورفاهية الشعوب لا للاستغلال والإذلال.

حضارة أمة هي أخلاقها الفاضلة وعاداتها الكريمة وتقاليدها الشريفة.

حضارة أمة هي مسلك أبنائها في معاملة بعضهم وسلوكهم في معاملة أعدائهم وخصومهم.

حضارة أمة هي شرف الكلمة وصدق الوعد ووفاء العهد.

حضارة أمة هي إخلاص وأمانة وعزة وكرامة

حضارة أمة ضمير حي يتفجر في نفوس أبنائها بالخير والنبل والعطاء عند رؤية فقير أو مريض أو مظلوم أو يتيم..

حضارة أمة هي أدبها الرفيع وفنها البديع، هي فكرها النقي وقلبها التقي، التي كلها تسمو بنفوس أبنائها وتهذب طباع أفرادها وتوجههم نحو الخير والفضيلة، وتعلمهم الشهامة والكرامة، والبذل والعطاء والحب والإخاء.

حضارة أمة هي معتقدها الذي يفجر إنسانيتها الخيرة، ويهبها حريتها للانطلاق في دروب السداد وطرق الرشاد، ويفيض عليها بالطمأنينة والأمن، ويرشدها بتعاليمه الربانية إلى أفضل الأعمال وأشرف الأفعال، ويسددها بمبادئه الإلهية نحو السمو والرفعة والإباء.

أي حضارة لا تؤسس على العقيدة الحقة والأخلاق الفاضلة هي

حضارة زائفة بل هي رجعية وفساد، وظلم واستعباد.

ويحدثنا الدكتور مصطفى السباعي في كتابه « من رواع حضارتنا » : « وكلما كانت الحضارة عالمية في رسالتها، إنسانية في نزعتها، خلقية في اتجاهاتها، واقعية في مبادئها، كانت أخلد في التاريخ، وأبقى على الزمن، وأجدر بالتكريم ».

والإسلام هو المنهج الرباني الخالد، الذي أنزله الله عز وجل على رسوله محمد بن عبد الله ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور يعبدون الله لا يشركون به أحداً.

والإسلام : عقيدة، وعبادة، وأخلاق، ومعاملات.

الإسلام إيمان بإله واحد لا إله إلّا هو الحي القيوم له ملكوت السماوات والأرض وهو الخالق المصور الحاكم المدبر.

الإسلام إيمان بالله وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

الإسلام شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله.

والإسلام عبودية لله عز وجل وحده وإفراد له في الحاكمية والألوهية، والحكم بشريعته التي جاء بها القرآن الكريم، وبهدي محمد عليه الصلاة والسلام.

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (المائدة ٤٤)

والإسلام صلاة وزكاة وحج.

والإسلام دعوة إلى الخير والعدل والحق والصلاح، دعوة إلى الأخوة والمحبة والمساواة، دعوة إلى العزة والكرامة والشهامة، دعوة إنسانية لا تعرف قومية ولا عنصرية ولا تميز بين أسود وأبيض ولا بين رجل وامرأة ولا بين غني وفقير ولا بين حقير وأمير.

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات ١٣).

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) (آل عمران ١٠٤).

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (آل عمران ١١٠).

دعوة ربط فيها خير الدنيا بخير الآخرة، فالإحسان والصدق والإخلاص بل المودة والمحبة سبيل الجنة، وبهذا يقول عليه الصلاة والسلام محمد بن عبد الله :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والذي نفس محمد بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابّوا ».

هذا هو الإسلام دين الفطرة، وتلك هي الحضارة الحقة الخيرة. والمتأمل لأسسها وأركانها، والمدقق في أهدافها وغاياتها يجدها نبتة من نبتات الإسلام وأسس من أسسه ومعالم من معالمه، وعامل من عوامله.

وان ما يدعو إليه الإسلام هو الحضارة التي فيها خير الإنسانية جمعاء هو المدنية التي تسعد فيها البشرية برخاء، وتعيش معها في رغد وأمان، وراحة واطمئنان.

وان ما يأمر به الإسلام هو الحضارة التي لا تذبل على مدى العصور ولا تخبو على مر السنين. حضارة تضيء بنور الله وتخلد بخلود كتابه وتسمو بهدي رسوله.

فالمسلم المؤمن المطبق لتعاليم ربه هو متحضر بانتمائه للإسلام، متحضر بأخلاقه ومسلكه ومعاملاته، متحضر بمسكنه وملبسه ومأكله. سواء سكن الصحراء أو الحضر، وسواء عاش في بادية أو مدينة، وسواء نام على الأرض أو السرير، وسواء لبس الكتان أو الحرير، وسواء هو غني أو فقير، وسواء هو سوقة أو أمير.

إن حضارة الإسلام مبنية على أسسه ومبادئه، مشتقة من أصوله وتعاليمه التي هي ثابتة صادقة على مدى الزمن ومر العصور. وقد تتخذ هذه الحضارة أشكالاً متعددة أو صوراً مختلفة في تركيبها المادي وبناء هيكلها،ولكن تبقى الأسس ثابتة والأصول مستقرة راسخة، لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولا تتبدل بتبدل الأحوال والظروف ولا بتعدد الأشكال واختلاف الصور.

أصول هذه الحضارة ومقوماتها كما لخصها الشهيد سيد قطب في كتابه معالم في الطريق :

« العبودية لله وحده.

التجمع على آصرة العقيدة فيه.

استعلاء إنسانية الإنسان على المادة.

سيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته.

حرمة الأسرة.

الخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه.

تحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شئون هذه الخلافة.

إن أشكال الحضارة الإسلامية التي تقوم على هذه الأسس الثابتة تتأثر بدرجة التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي »

حضارة شيدت على العدل ليكون أساساً للملك « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (النساء ٥٨)

حضارة أسست على مبدأ القصاص في الحياة (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون) (البقرة ١٧٩).

حضارة قامت على الفضيلة والعزة والشهامة.

حضارة أسست على الصدق والصبر (.. الصادقين والصادقات والصابرين والصابرات.. أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً) (الأحزاب ٣٥)

حضارة بنيت على أسس عقيدية إلهية متينة ومبادئ علمية نفسية عميقة، وأصول تربوية واضحة، علمت الإنسان الحر المسلم كيف يلين لأخيه ومتى يثور لكرامته :

(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) (المائدة ٥٤).

حضارة أسست على إجلال العلم وتقدير العلماء.

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (المجادلة ١١).

حضارة غايتها العبادة (وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون) (الذاريات ٥٦).

حضارة تخاطب معتنقيها (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) (البقرة ١٤٣).

حضارة تعلم أصحابها (فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم) آل عمران ١٥٩).

حضارة تؤكد :

(والعصر إن الإنسان لفي خسر إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (سورة العصر).

حضارة تعلن :

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزال ٧ و ٨).

حضارة تحض على الجهاد في سبيل الله والدفاع عن المستضعفين (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) (المائدة).

حضارة هذه مقوماتها وأوصولها وتلك صفاتها، حكمت شعوباً مختلفة لم تفرّق بين قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، مسلمهم وذميهم، مجوسيهم وصابئهم، بشريعة سمحة ونظام عادل ومبادىء فاضلة، وكان أكرمهم عند الله أتقاهم وأحبهم إليه أكثرهم رأفة بعباده وأوصلهم للقربى وأشدهم عطفاً على الفقراء ومساعدة للضعفاء، ولهذا علت دولتها وسمت مدنيتها وانتشرت تعاليمها وخفقت رايتها على البشرية بالسعادة والخير والهداية.

حضارة هذه أسسها وتلك هي مقوماتها هي حضارة حية لا تبلى جدتها ولا تخمد جذوتها، هي حضارة عالمية بنيت على عقيدة إلهية لها

فهم واقعي وحقيقي للحياة وقيمها وتفسير منطقي للتاريخ والمجتمع. بنيت على عقيدة حررته من شتى أنواع العبودية وجعلت الحاكمية لله وحده. وبنيت على شريعة من عند الله حققت له إنسانيته وسعادته.

حضارة سمت مبادئها وبرزت جلائلها وشعت فضائلها في ميادين الفكر والفن، في ميادين العلم والأدب فعلا سعدها، وخفق علمها، وطار صيتها، وساد بنوها، وملكوا الأرض وحرروا البشرية من الظلم والظلام، من العبودية والاستعباد، من الذل والفساد.

حضارة دانت لها البلاد وشغف بها العباد.

حضارة أخذت بالألباب، ومالت لها الرقاب، إجلالاً وحباً.

حضارتنا هي إسلامنا، برزت مشرقة في أخلاقنا ومعاملاتنا وبدت جلية في تقاليدنا وعاداتنا في رحمتنا وتسامحنا.

حضارتنا هي عقيدتنا سمت في ميادين العلم والمعرفة نوراً واختراعاً وفي ميادين الأدب والفلسفة فكراً وإبداعاً. وفي مجالات التشريع والقانون عدلاً وحقاً، وفي مجالات الاقتصاد والاجتماع نظاماً وخيراً.

حضارتنا هي شريعتنا بدت واضحة في تاريخنا وآثارنا العلمية والفلسفية والأدبية، وظهرت ساطعة في مخترعاتها العلمية وقصورنا ومدننا وفننا.

حضارتنا تجلت فيما خلفنا من مكتبات ومستشفيات ومدارس ومعاهد.

حضارتنا تجلت حتى في حروبنا وفي معاملاتنا لأعدائنا وأسرانا، وبرزت في معاملاتنا لليهود والنصارى والطوائف الأخرى.

وأمة أدَبها القرآن.

فكان الإسلام دينها فتصدت للجاهلية وحاربت الإلحاد، ورفضت الشرك وحطمت الأصنام.

وكان الإسلام عقيدتها فنبذت الأفكار الفاسدة والمبادئ المستوردة والمدنيات الدخيلة.

وكان الإسلام هويتها. فعادت القبلية والقومية والعنصرية.

وكان الإسلام خلقها فعُرِفت بالتقى والصلاح، والصدق والأمانـة، والعدل والحق، والرحمة والشفقة، والعزم والحزم، والشجاعة والقوة، والصبر والحلم.

فهمت أن المال والثروة التي وهبها إياها الله عز وجل هي أمانة لديها لا تنفق منها إلا بميزان الحق والخير.

وفهمت أن الصحة والقوة نعمة أنعمها الله على الناس ليعبدوه ويقوموا بخلافة الأرض على أسس الفضل والخير والتقى والحق.

وفهمت أن السلطان والحكم عبء وأمانة، وتكليف لا تشريف، وخدمة لا تسلط، ورعاية لا جبروت.

وفهمت حق الجار والمريض والفقير.

وفهمت وصانت حق الذمي والكتابي والعدو والمحارب.

أي أمة في التاريخ تحتل بلاداً أو تدخل أرضاً ويقاضيها المغلوب إلى قاض منها فيحكم على جيشه بالخروج وإعادة البلاد إلى أهليها، أي جند هؤلاء الذين أطاعوا قرار قاض يحكم عليهم بإعادة بلاد بكاملها إلـى أهليهابعد أن تم لهم النصر واستولوا عليها وحكموها. وأي جند هؤلاء الذين سَحَروا بمعاملتهم المثلى وسلوكهم الفـاضل قلـوب أعدائهـم وأفئدتهـم فجعلوهم يقبلون بهم حكاماً ويرضون بهم قضاة وولاة وبعد أن قضي لهم ورغم استردادهم لحريتهم وأرضهم. قبلوا ذلك بعد أن لمسوا عدل الغالب ذلك العدل الذي حلموا به دائماً فوجدوه محققاً، ورحمة المنتصر تلك الرحمة التي طالما تمنوها طول حياتهم.

أي أمة في التاريخ عاملت أسراها وأحسنت إلى أعدائها كالمسلمين في حربهم وسلمهم. هذه وصاة أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه إلى جنده، وهذا عفو صلاح الدين بعد نصره، أمثلة ما عرف التاريخ لها شبيهاً.

أي جندي حدثتنا عنه الحرب يبتر فيها ساعده ويبقى عالقاً بكتفه فلا يشكو ولا يهدأ ولا يفتر، حتى إذا ما أعاقه، وهو يتدلى على جانبه، عن

الحرب، وضع كفه تحت قدمه وتمطي حتى خلع ساعده ورماه واستلّ سيفه وتابع جهاده يريد الشهادة أو النصر. أي جندي هذا وأي عقيدة وجهته وأي إيمان سما به وأي شجاعة وبطولة وصبر تجعل منه ثورة عارمة وروحاً محلقة في نور الله راغبة في جنته فلا يشعر بألم ولا يهوله دم ينزف ولا موت يزحف.

هذه هي الحضارة وهذا هو الإسلام، هذه هي مدنيات الأرض وهذه هي حضارة الإسلام، هذه هي فلسفات الأمم الأخرى والدعوات المختلفة والمذاهب المتباينة وهذه هي عقيدة الإسلام وفلسفته.

وهذا ما كان عليه ماضينا وما بلغه أجدادنا من سؤدد وشرف ومجد وما كانوا عليه من قوة وسلطان ومن علم ومعرفة. هم قرأوا القرآن ففهموه ديناً ودولة مصحفاً وسيفاً، فهموه رحمة وعدلاً، فهموه علماً وعملاً. قرأوا القرآن فظهر في قلوبهم إيماناً ويقيناً، وفي أفئدتهم عدلاً وحقاً، وفي عقولهم علماً وعملاً وفي وجدانهم رحمة وحباً، وفي دمائهم عزماً وحزماً وفي سلوكهم خيراً وفضلاً. اعتصموا بحبل الله فجمع شملهم، وأنابوا إليه فقواهم وأيدهم، نصروه فنصرهم وعبدوه فأحياهم. أطاعوا أمره فآتاهم نصره.

حضارة هذا مبلغ إبداعها وسموها، فلماذا يخبو نورها وينقطع إشعاعها ويجافيها أبناؤها ويخذلها بنوها.

أمة هذه مقوماتها ومواصفاتها، هذه أصولها ومبادئها، هذه تعاليمها وعقائدها، فماذا أصابها ؟ ما حل ببنيها ؟ وجرى لرجالها وحملة لوائها ؟.

ويتساءل معي المستشرق « كاراديفو » عن سبب توقف العلم عند المسلمين ويقول : إنه لا يجد ضرورة في نفسه لمحاولة البحث عن السبب.

فهل نجد نحن أحفاد المسلمين أسباب تأخرنا وسر خمولنا ودواعي ذلنا وصغارنا، وسبق الأمم لنا واستعمارهم إيانا ؟

نعم هل نجد السبب ونعرف العذر ونكشف السر ؟

إنه دور الشباب المسلم ليشمّر عن سواعده ويعرف دوره في هذه الحياة ليعيد للمسلمين رفعتهم ويبني لهم دولتهم ويرفع لهم رايتهم. أجل إنه دور الشباب المسلم ليعقد النية ويحزم الأمر ويؤكد العزم على نصرة الإسلام ورفع راية القرآن وعبادة الله تعالى وحده.

أجل ما هو دور الشباب المسلم ؟ أو ما يجب أن يكون عليه دوره ؟
ما هو واجبهم نحو دينهم وبلادهم وأمتهم، نحو مقدساتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ؟

دورهم أن يعملوا ليقيموا حكم الله في الأرض خالصاً نقياً كما جاء في قرآنه وسنة رسوله.

دورهم أن يسعوا ليعيدوا اليقين إلى قلوب المسلمين بدينهم وعقيدتهم، وليتمثلوه عقيدة وعبادة وسلوكاً وأخلاقاً.

دورهم أن يجدّوا ليدفعوا عن أمتهم الجهل والفقر والمرض والخمول.

دورهم أن يتكاتفوا ليرفعوا عن شعوبهم الذل والجبن والعبودية ويعيدوا إليهم العزة والشجاعة والحرية.

دورهم يأمرهم أن يبعدوا عن إخوانهم شبح اليأس والقنوط ويُحيوا في نفوسهم الصبر والتجلد والأمل.

دورهم يأمرهم بالعبادة والسلوك الفاضل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

دورهم يأمرهم أن يأخذوا بأسباب العلم والمعرفة والصناعة والتجارة وأن يكون لهم دورهم الكبير فيها جميعاً.

دورهم يأمرهم أن يُشيعوا المحبة والأخوة والرحمة وأن يدعوا إلى التكاتف والتعاون والتغافر وأن ينشروا العدل والحق والخير والمساواة.

دورهم يدعوهم للتضحية في الجهد والوقت والمال ويأمرهم بتقديم العون والمساعدة للمحتاج والفقير والمريض.

دورهم يدعوهم للسعي في توحيد صفوف المسلمين وأفكارهم وأهدافهم.

دورهم يأمرهم أن ينتشروا في الأرض داعين لله عز وجل، مبشرين بدينه.

دورهم يأمرهم أن يقيموا الندوات والمؤتمرات، يناقشون فيها أمورهم ويتدارسون فيها أحوالهم ويتخذون من الأسباب الفعالة لجلب الخير لأمتهم

ودفع الشر عنها.

دورهم يدعوهم للكتابة والتأليف والنشر ليبلغوا دعوة الله وينشروا الحق ويدفعوا الظلم ويفضحوا الكذب ويقضوا على الفساد.

دورهم يدعوهم أن يتميزوا بأخلاقهم وسماتهم، بأقوالهم وأفعالهم فلا تسيطر عليهم ثقافة منحلة أو لغة أجنبية أو لباس غريب أو عادات فاسدة.

دورهم يدعوهم أن يعود المغترب منهم إلى أرض الإسلام ليقدم له علمه وعمله ومعرفته وخبرته، وليضمن صلاح ذريته ونشأتها في أرض طيبة صالحة، وألا يبقى بعيداً عنها إلا من له سبب شرعي يدعوه لذلك.

دورهم ألا يتزوجوا من الغربيات والأجنبيات غير المسلمات حتى ولو أسلمن، ومهما كن عليه من الصلاح ففاقد الشيء لا يعطيه، وإن أحلَّ الإسلام الزواج من الكتابيات فما أحله إلا لضرورة وضرورة ملحة.

دورهم يدعوهم إلى تحرير المرأة من الجهل وسوء المعاملة التي لم يأمر بها الإسلام، والله يأمرهم بتعليمها ما ينفعها في حياتها وفي بيتها وفيما يتلاءم مع وظيفتها التي أعدها الله عز وجل لها. كما يأمرهم أن يحرروها من كل دخيل على حضارتنا وعاداتنا وأخلاقنا، أن يعيدوا إليها عفتها وحشمتها وحياءها، ويعدوها لتأخذ دورها الفاضل المشرف البناء في هذه الحياة. لقد احترم الإسلام المرأة أيما احترام ورفع من منزلتها ومكانتها وجعل الجنة تحت أقدامها وحفظ لها حقوقها وصان لها شرفها وعزتها وأمرها بالتعلم وسمح لها بالعمل والجهاد عند الحاجة.

دورهم يدعوهم لرعاية الناشئة من أخطار المذاهب الهدامة كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية، ومن فساد المبادئ الخطرة والأفكار الإلحادية والإباحية ومن أضاليل الدعوات المنحرفة المضللة كالقومية والعنصرية والقبلية.

دورهم يدعوهم لتوعية الناشئة من الغزو الصليبي واليهودي والصهيوني ومن غزو الماسونية والقاديانية والباطنية والبهائية.

دورهم يأمرهم بدرء مخاطر التقاليد والعادات الغربية عن شبابنا

وشاباتنا وتنبيههم إلى مساوئها وأخطارها وتحذيرهم من مفاسدها وأضرارها وتحصينهم ضد التغريب وفضح طرقه وأساليبه من مجلات وجرائد وأفلام وأشرطة وحفلات.

دورهم يحتم عليهم فضح أساليب الاستعمار والتبشير التي استغل فيها المدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية والنوادي كالروتاري والأسود وغيرها. وكشف دور الاستشراق الخطر في تشويه تاريخ الإسلام وسرقة تراث علماء المسلمين.

دورهم يحتم عليهم الانتباه إلى دور السفارات والقنصليات والشركات الأجنبية، والخبراء الأجانب غير المسلمين عقيدة وتطبيقاً، الذين كثيراً ما يُروّجون الرذيلة وينشرون المفاسد، ويفسدون ذمم الناس وأخلاقهم عن طريق المال والنساء والخمور، والذين كثيراً ما تكون دورهم ومنتدياتهم كنائس تقام فيها الطقوس ومراقص تدار فيها الكؤوس ويضيع فيها الشرف والناموس.

دورهم يدعوهم للعناية بالمزارع وابن القرية والفلاح والعامل يزودونهم بالعلم والمعرفة، وينتشلونهم من الجهل والفقر والمرض، ليضمنوا لهم المسكن والنور والماء، ويمكنوهم من أن يعيشوا عيشة كريمة طيبة ويرفعوا من مستوى معيشتهم وليحسنوا من مدى تفكيرهم ومنطقهم، ويَصِلوهم بالمعرفة والثقافة والحضارة الخيرة. ليُعِدّوهم ليكونوا لبنة صالحة في بناء المجتمع، علماً وفهماً، ليكونوا جنوداً مزودين بفنون الحرب وضروب القتال وأسس الجهاد العقيدية والمادية.

دورهم يدعوهم ليعلموا الناس الاستفادة من ثروات البلاد المختلفة وتوجيهها الوجهة الاقتصادية العلمية الصناعية الخيرة ليستغلوا جميع ما وهبهم الله من نعم وما أفاء عليهم من فضل استغلالاً حكيماً مدروساً، استغلالاً طيباً واعياً.

دورهم يدعوهم إلى إعداد العدة لاستعادة أرضهم المغصوبة وتحرير شعوبهم المستعبدة، يدعوهم للجهاد في سبيل الله، « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله

فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة ٢٤).

دورهم هو دور التوعية والنصيحة والإرشاد، دورهم هو دور كشف مخططات الأعداء وحيلهم وألاعيبهم، دورهم هو دور رفع الهمم وشحذ النفوس وتزويدها بالصبر والشجاعة واليقين والأمل خاصة ولقد هزمنا الأعداء نفسياً وغدا الواحد منا يائساً من مستقبله قانطاً من النصر، لقد هزمونا في عقيدتنا وفي أخلاقنا وعاداتنا وفي معاملاتنا، كما هزمونا في العلم والتقنية وأصبحت التبعية منالهم وأضحى من خصائصنا الثناء بحمدهم، ومن سجايانا تعظيمهم، ومن شيمنا إجلالهم.

التبعية شيء وذكر الفضل لأهله ونسب العمل لصاحبه شيء آخر، احترام الآخرين أمر والاستخذاء والعبودية أمر مختلف، ولهذا على المسلم أن ينتبه إلى أمره ويعود إلى رشده ويترك القنوط ويبتعد عن اليأس ويلجأ إلى الله ويعتصم بحبله ويتوكل عليه ويتمتع بالصبر.

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم وأصبحتم بنعمته إخوانا » (آل عمران ١٠٣)

« واصبر وما صبرك إلا بالله » (النحل ١٢٧).

ويتصف بالحزم والعزم ويبادر إلى العمل والبذل فهو منتصر بإذن الله ووعده :

(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (محمد ٧).

هذا هو دور الشباب المسلم في الحياة وهذا هو واجبه تجاه دينه وأمته وبلاده ونفسه، هذا هو دوره نحو الإنسانية جمعاء، ليكفل لها التقدم والرخاء، والسعادة والهناء، هذا هو دوره في الإشادة والبناء، في العمارة والنماء، وفي البذل والعطاء.

وهذا وعد الله لعباده المؤمنين وهذا إكرامه لهم وأي إكرام أن جعلهم خلفاء في الأرض، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنا) (النور ٥٥).

القدوة ودور الشباب المسلم في المجتمع الإسلامي المعاصر

للدكتور سعد سيد عويس
الأستاذ المشارك بكلية التربية - جامعة الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ».

صدق الله العظيم

(من سورة الأحزاب ــ ٢١)

أولاً ــ مقدمة :

في ضوء أهمية الموقع الخاص للشباب في المجتمع الإسلامي، نجد أنه من المفيد أن تتم مجموعة من الدراسات العلمية والتربوية لمحاولة تفهم الحقائق التي تساهم في تكوين هذا الشباب منذ المراحل السنية الأولى.

وحيث أن الدين الإسلامي الحنيف، قد حدد لنا الإطار العام للأسوة الحسنة وللقدوة الصالحة، فإننا نود، في هذه الدراسة الميدانية الواقعية، أن نتحقق من مدى تطابق القدوة التي يقتدي بها النشء والشباب المسلم مع تعاليم الدين الإسلامي، وذلك من خلال ما تقدمه لهم أجهزة التنشئة التربوية القائمة من برامج تربوية متنوعة... تسهم بلا شك في تشكيل صفات هذه القدوة.

ولعل هذا الموضوع يوضح لنا أثر الاتجاهات التربوية المختلفة في تشكيل شخصية النشء والشباب المسلم من خلال التعرف على نوعية **أشخاص** القدوة الذين يقتدون بهم، الأمر الذي يمكن أن يعكس لنا بعض صور الثقافة الإسلامية لهؤلاء النشء والشباب.

ولقد استهدفت الدراسة الحالية إلى التعرف على القدوة التي يقتدي بها النشء والشباب في محيط قادة بعض المجالات الحيوية مثل المجال الأسري والمجال التعليمي والمجال الديني والمجال الثقافي والمجال الوطني والمجال السياسي والمجال الفني ثم المجال الرياضي.

ولقد تم جمع أعضاء عينة البحث بطريقة عشوائية من معسكرات النشء والشباب، ومن طلاب الجامعات في القاهرة وعين شمس وأسيوط وكان عددهم (٥٦٠ عضواً) من بينهم (٤٦٦ عضواً) من الذكور بنسبة ٨٣,٢٪ و(٩٤ عضواً) من الإناث بنسبة نحو ١٦,٨٪ (انظر جدول رقم ١) كما أجريت هذه الدراسة في الفترة من أغسطس ١٩٧٢ م حتى ديسمبر ١٩٧٤م.

ثانياً ـ الإطار النظري للدراسة :

القدوة هي « الأسوة » ـ يقال فلان قدوة يقتدى به ـ كما يقال : « لي بِكَ قدوة »[٢]. وذلك هو المعنى الذي تبناه الباحث عند قيامه بالدراسة الحالية.

ولقد تبين لنا أن قضية القدوة بوجه عام هي جزء من نتائج العمل التربوي في محيط النشء والشباب، ولقد شغلت هذه القضية اهتمام القيادات الدينية والسياسية والتربوية في مختلف المجتمعات، وتسهم في محاولة التعرف على القدوة التي يقتدي بها النشء والشباب في بعض المجالات المحددة مثل المجال الدراسي أو الديني أو الثقافي... في إلقاء الضوء على بعض الحقائق الموضوعية التي قد تؤثر في سلوك الفرد واتجاهاته. ولعل عملية التعرف على القدوة تساعد كذلك في رسم صورة واقعية للنماذج من القادة الذين يتخذ منهم النشء والشباب نبراساً لهم يعملون على محاكاتهم ويسعون للسير على هديهم.

ويلاحظ أن المجتمعات الإنسانية بوجه عام والمجتمعات الإسلامية بوجه خاص في حاجة ماسة إلى معرفة مدى نجاحها في تكوين صفات القدوة المثلى في وجدان أعضائها، بالمقارنة بالنموذج الأمثل الذي تحاول إرساءه في نفوس هؤلاء الأعضاء منذ المراحل السنية الأولى وعن طريق أجهزة التنشئة التربوية المعنية.

وتقوم أجهزة التنشئة التربوية هذه، ممثلة في الأسرة والمؤسسة التعليمية والمؤسسة الدينية والمنظمات السياسية وأجهزة الإعلام... وغيرها، في تشكيل (نموذج القدوة) الذي يمكن للنشء والشباب أن يقتدوا به في ضوء القيم والمثل العليا للمجتمع، وكذلك في ضوء المصالح الرئيسية للجماعات التي يتكون منها المجتمع. ولا شك في أن موضوع القدوة من الموضوعات التي تؤثر عادة في اتجاهات وسلوك النشء والشباب في فترات تكوينهم الأولى. وقد تؤثر القدوة على حاضرهم ثم على مستقبلهم وبالتالي قد تؤثر على حاضر ثم على مستقبل المجتمع الذي يعيشون فيه.

ولقد حددت الكثير من الدراسات العلمية التربوية كيف أن القدوة تختلف وتتطور من مجتمع لآخر ومن وقت لآخر، ولقد لوحظ كذلك أن القدوة التي تصلح في مجتمع ما قد لا تصلح في مجتمع آخر. كما أن القدوة التي تصلح في وقت ما قد لا تصلح في وقت سابق أو في وقت لاحق. وقد يكون ذلك لأن كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي تضع أمامها مهام محددة في المجال الاقتصادي والاجتماعي مما يحدد لها بالتالي معالم خاصة بنماذج القدوة في تلك المرحلة ويكون السعي للوصول لهذه النماذج من القدوة هو هدف الأهداف الذي تسعى أجهزة التنشئة التربوية ـ في حدود مصالح جماعات المجتمع الرئيسية المهيمنة على هذه الأجهزة ـ للوصول إلى تعميقه في أذهان وضمائر النشء والشباب بالوسائل المختلفة[٣].

عرض لبعض العوامل التي تساهم في تكوين القدوة :

يحاول كل مجتمع من المجتمعات أن يشكل القدوة التي تصلح له

في ضوء المصالح الخاصة به وكذلك عن طريق الأجهزة المتخصصة في التنشئة التربوية كما يحاول كل مجتمع كذلك أن يشكل النماذج البشرية الملائمة للمرحلة التاريخية التي يمر بها، ويسعى عن طريق وسائل العمل التربوي إلى تقديم صفات النماذج البشرية (الصالحة) لكي يقتدي بها النشء والشباب. ويسعى كذلك وبنفس الحماس إلى إقصاء النماذج البشرية (غير الصالحة) حتى لا يقتدي بها النشء والشباب محققاً بذلك للفلسفة التي يرجى السعي لإرسالها داخل هذا المجتمع.

وقد يختلف (نموذج القدوة) باختلاف المراحل السنية التي عبر بهاالفرد. فالأطفال مثلاً يتأثرون بالنماذج البشرية المحيطة بهم داخل الأسرة، ثم يتغير أو يتطور أو يتسع نموذج القدوة كلما تفاعل هؤلاء الأطفال مع أجهزة المجتمع الأخرى في البيئة المحيطة (الجيرة) ثم في دور الحضانة ثم في مؤسسات التعليم ثم في دور العبادة، لما لها من إشعاع يسهم في نشر المناخ الديني في نفوس المجتمع صغاراً أو كباراً على السواء. وعموماً فإن الأطفال في مراحل التنشئة الأولى يتأثرون بالآباء والأمهات والأقارب والجيران والمدرسين فضلاً عن تأثرهم، بالطبع، بمن هم في نفس سنهم وبدرجات مختلفة.

أما الشباب فيتوقع أنهم يعتمدون في اختيارهم (للقدوة) على خبراتهم الذاتية النامية وعلى نتائج ملاحظاتهم اليقظة لنشاطات وأعمال القيادات الذين يحيطون بهم، وكذلك عند قادة المجتمع في كافة الميادين ومن خلال الاطلاع والقراءة فضلاً عن دراستهم لقادة بعض الفترات التاريخية السابقة إلى جانب قادة الزمن المعاصرين له. ويعتبر كل ما سبق أمثلة للفرص التي تكون أمام الشباب يتعرف من خلالها على بعض القيادات في شتى الميادين الأمر الذي يحتمل معه أن يتخذ من بعضهم قدوة له.

ويلاحظ أن الاستعدادات الخاصة بكل فرد تسهم بلا شك في اختياره للنموذج الأمثل للقدوة التي يقتدي بها. كذلك نجد أن التخصص الدراسي والتخصص المهني بالإضافة إلى الاهتمامات الشخصية من العوامل التي تحدد صفات القدوة التي يقتدي بها النشء والشباب.

وقد تبرز بعض الأمثلة الإيجابية للقدوة الصالحة من خلال الأحداث الاجتماعية التي يمر بها المجتمع الإنساني بوجه عام. ومن الممكن أن تصبح فرصاً طيبة للنشء والشباب ليختاروا من أبطالها وقادتها قدوة لهم.... إذا ما قامت أجهزة في المجتمع باستخدام وسائل أجهزة التنشئة التربوية المختلفة وبصفة خاصة الإمكانات الهائلة لوسائل الإعلام المختلفة لكن على النقيض مما سبق قد تبرز وتطفو على السطح بعض الأمثلة السلبية للقدوة غير الصالحة التي، إن لم يتخذ المجتمع إزاءها الإجراءات اللازمة للحد منها وللقضاء عليها.... لأصبحت فرصاً تربوية غير طيبة للنشء والشباب. وأحياناً نجد بعضاً من النشء والشباب يسعون فعلاً للاقتداء بنماذج بشرية غير سوية في رأي المجتمع لكنها تكتسب بريقاً ولمعاناً بفضل التركيز عليها والإعلان عنها في أجهزة الإعلام المختلفة.

ولا شك أن النموذج الأمثل للقدوة يختلف من مجتمع لآخر في ضوء فلسفته ومعتقداته ومصالحه. لكن الغريب أننا قد نجد تطابقاً لفظياً في مفهوم القدوة الصالحة في مجتمعات تتناقض تماماً في أهدافها وفلسفاتها ومعتقداتها، لذلك علينا أن نراعي الحرص عند تفسير المصطلحات المقصودة من النماذج المقترحة كقدوة صالحة، حيث أن ما يفهم على أنه قدوة صالحة في المجتمع الأمريكي يختلف عن المجتمع السوفييتي أو الإنجليزي... الخ.

والتفسير الصحيح لمفهوم القدوة في كل مجتمع ـ وفي فترة زمنية محددة ـ لا يكون صحيحاً إلّا بعد التعرف على الفلسفة التي تحكم هذا المجتمع. وتتضاعف مشكلة تحديد مفهوم النموذج الأمثل للقدوة الصالحة في مجتمعات الدول النامية حيث تعيش هذه المجتمعات مشاكل متنوعة بعد أن انتهت أو كادت تنتهي من مرحلة التحرر الوطني وتتطلع بعد ذلك إلى اجتياز مرحلة التخلف إلى التقدم. وتبرز هنا مسألة اختيار النموذج المناسب للتنمية وما يصاحب ذلك من مشاكل سياسية واجتماعية واقتصادية عميقة الجذور تتسبب في عدم استقرار هذه المجتمعات لفترات تاريخية غير قصيرة. وتبعاً لذلك نجد أنه من الصعب علينا تحديد المعالم التي تساهم في تشكيل القدوة الصالحة في مثل هذه الدول النامية.

القـدوة في المجتمـع الإسـلامي :

تتحدد القدوة في المجتمع الإسلامي في ضوء ما جاء في القرآن الكريم وفي السنة المحمدية وفي أفعال وأقوال رسول الإسلام محمد ﷺ، أي أن الدين الإسلامي قد حدد الإطار العام للأسوة الحسنة وللقـدوة الصالحة.

لذلك فإننا نجد أن دراسة تاريخ نشأة الدين الإسلامي وترجمة سير المسلمين الأوائل وكبار الصحابة وقادة الجهاد الإسلامي منذ فجر الإسلام وحتى الآن أمر من الأهمية بمكان لتحديد معالم القدوة الصالحة للإنسان المسلم. ولا شك أن القدوة الصالحة تكون من خلال الممارسة الفعلية خاصة لكل من يتصدى للعمل في الحقل التربوي مع النشء والشباب في المراحل السنية الأولى. لذلك نجد أننا ندعو، من خلال هذه الدراسة ومن خلال ما قد يظهر فيها من حقائق، إلى تحديد معالم القدوة الصالحة في المجتمع الإسلامي المعاصر مع العمل على التطور بنموذج القدوة طبقاً للمراحل السنية لأعضاء المجتمع الإسلامي. وفي ضوء الظروف الموضوعية لكل جماعة من الجماعات.

وقد يتغير ويتعدل نموذج القدوة الصالحة طبقاً لما سبق من حيث الشكل لكنه من المؤكد أنه يجب أن يكون هناك تحديد لمعالم القدوة الصالحة من حيث المضمون في ضوء تعاليم الدين الإسلامي.

يبين لنا الأستاذ محمد قطب في كتابه « منهج التربية الإسلامية » كيف أن الإسلام يربي بالقدوة ويربي بالموعظة ويربي بالعقوبة ويربي بالقصة ويربي بالعادة ويربي بالأحداث. كما يرى أنه من السهل تأليف كتب التربية أو وضع منهج تربوي، لكن هذا المنهج يظل حبراً على ورق ما لم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض... ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادىء المنهج ومعانيه. عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة ويتحول إلى حركة ويتحول إلى تاريخ. « يؤكد الأستاذ قطب أنه « **لا بد من قدوة** » وأنه لذلك بعث الله محمداً ﷺ ليكون قدوة للناس... ووضع في شخصه ﷺ الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي، الصورة

الحية الخالدة على مدار التاريخ. ثم يدعو سيادته قادة أجهزة التنشئة التربوية إلى : « أنه ينبغي أن تكون سيرة الرسول جزءاً دائماً من منهج التربية سواء في المنزل أو المدرسة أو الكتاب أو الصحيفة أو المذياع، لتكون القدوة دائمة وحية وشاخصة في المشاعر والأفكار »[٤].

ثالثاً ـ عرض لأهم حقائق هذه الدراسة :

١ ـ تبين أن أعمار أغلب أعضاء مجتمع البحث ما بين ١٦ : ٢٥ سنة حيث بلغ عددهم (٢٧٢) عضواً بنسبة نحو ٤٨,٧٪، كما أن هناك عدد (١٠٦ عضواً) تقع سنهم ما بين ١٢ : ١٥ سنة وبنسبة نحو ١٨,٩٪ وتبين أيضاً أن هناك (١٥٨ عضواً) تقع أعمارهم ما بين ٢٦ : ٣٠ سنة بنسبة نحو ٢٨,١٪ ولم يبين (٢٤ عضواً) بنسبة ٤,٣٪ أعمارهم وبذلك تكون أعمار كل أعضاء البحث من الذين ذكروا أعمارهم بالتحديد تقع ما بين ١٢ : ٣٠ عاماً. (جدول رقم ٢).

٢ ـ ومن حيث المستوى التعليمي لأعضاء هذه الدراسة فقد تبين أن (٣٦٥ عضواً) بنسبة نحو ٦٥,٢٪ يدرسون في الكليات والمعاهد العليا أو من الحاصلين على مؤهلات عالية. كما ظهر أن (٣٠ عضواً) بنسبة نحو ٥,٣٪ في مستوى التعليم الابتدائي، كذلك فإن هناك (٩٠ عضواً) بنسبة نحو ١٦,١٪ في مستوى التعليم الإعدادي كما أن (٥٤ عضواً) بنسبة نحو ٩,٦٪ في مستوى التعليم الثانوي، وظهر أيضاً أن (١١ عضواً) بنسبة نحو ٢٪ في مستوى تعليمي فوق المتوسط. ولم يبين (١٠ أعضاء) بنسبة نحو ١,٨٪ المستوى التعليمي الخاص بهم. (راجع جدول رقم ٣).

٣ ـ وفيما يتعلق بالتخصصات الدراسية لأعضاء من ذوي التعليم العالي، فقد اتضح أنها تشتمل على مجموعة كبيرة من التخصصات المتنوعة. فقد بلغ عدد المتخصصين في العلوم التجارية والتعاون والاقتصاد والعلوم السياسية (٦٠ عضواً) بنسبة نحو ١٦,٢٪ كما بلغ عدد المتخصصين في العلوم التربوية وكليات المعلمين (٥٢ عضواً) بنسبة نحو ١٤,٢٪ وعدد المتخصصين في العلوم الزراعية (٤١ عضواً) بنسبة نحو

١١,٢٪ أما المتخصصين في العلوم الهندسية والصناعية والتكنولوجيا فبلغ عددهم (٣٦ عضواً بنسبة نحو ٩,٩٪ وفي الطب والصيدلة (٣٢ عضواً) بنسبة نحو ٨,٨٪ والآداب والفلسفة والدراسات الإسلامية (٣١ عضواً) بنسبة نحو ٨,٥٪ أما في الخدمة الاجتماعية وعلم الاجتماع وعلم النفس فوصل عدد المتخصصين فيها (٢٤ عضواً) بنسبة نحو ٦,٦٪ وفي القانون والشريعة (١٨ عضواً) بنسبة نحو ٤,٩٪ وأخيراً في العلوم الطبيعية والجيولوجيا (١٣ عضواً) بنسبة ٣,٣٪ ولم يذكر (٥٩ عضواً) بنسبة نحو ١٦,٢٪ التخصص الدراسي الخاص بهم على الرغم من أنهم من ذوي المستوى التعليمي العالي. (جدول رقم ٤).

٤ ـ وحول محل ميلاد ومحل تنشئة أعضاء الدراسة فقد اتضح أن (٣٨١ عضواً) بنسبة نحو ٦٨٪ كان محل ميلادهم بالمدينة كما أن (١٧٠ عضواً) بنسبة نحو ٣٠,٤٪ كان محل ميلادهم بالقرية ولم يوضح (٩ أعضاء فقط) بنسبة نحو ١,٦٪ محل ميلادهم بالتحديد. ولقد لوحظ أن هناك بعض التغير في محل تنشئة أعضاء الدراسة بالمقارنة بمحل الميلاد حيث تبين أن (٤٠٦ عضواً) بنسبة نحو ٧٢,٥٪ قد نشأوا في المدينة في حين أن (١٢٥ عضواً) بنسبة نحو ٢٢,٣٪ قد نشأوا في القرية ولم يبين (٢٩ عضواً) بنسبة نحو ٥,٢٪ محل تنشئتهم (جدول رقم ٥) و (جدول رقم ٦).

٥ ـ وحول مدى تواجد **(القدوة)** في محيط أعضاء هذه الدراسة فقد تبين أن (٥١٠ عضواً) بنسبة نحو ٩١,١٪ لديهم قدوة بصفة عامة في حين أن هناك (١٤ عضواً) بنسبة ٢,٥٪ ليس لهم قدوة يقتدون بها، كما أن (١٨ عضواً) بنسبة نحو ٣,٢٪ لا يعلمون تماماً إن كان لديهم قدوة يقتدون بها، كذلك لم يجب على هذا السؤال (١٨ عضواً) بنسبة نحو ٣,٢٪ (جدول رقم ٧).

٦ ـ وكانت **(صفات القدوة)** التي تم حصرها وتحديدها بعد توحيد مفاهيمها عند أعضاء الدراسة الذين قاموا بترتيب هذه الصفات في كل من يودون اتخاذه قدوة لهم كالتالي :

يرى (٤٦٥ عضواً) بنسبة نحو ٨٣٪ أن يتصف القدوة بأن يكون له (مواقف إنسانية) في المقام الأول. وجاءت صفة (التواضع) في المرتبة التالية في رأي (٤٦١ عضواً) بنسبة نحو ٨٢,٣٪ ثم رأى (٤٤٥ عضواً) بنسبة نحو ٧٩,٥٪ أهمية اتصاف القدوة الذي يقتدون به بصفة أنه (مفكر). أما صفة **(التدين)** فقد وردت في رأي (٤٤٣ عضواً) بنسبة نحو ٧٩,١٪ ثم رأى بعد ذلك (٣٧٠ عضواً) بنسبة نحو ٦٦,١٪ أن يكون للقدوة (مواقف طيبة). كما قرر (٣٣٣ عضواً) من أعضاء هذه الدراسة بنسبة نحو ٥٩,٥٪ أن يكون القدوة الذي يودون الاقتداء به (طيب القلب). وتلا ذلك صفات (حسن المظهر) وأن يكون للقدوة (قدرات خاصة) أو أن يكون القدوة قد أدى (خدمات خاصة) لمن يقتدون به بنسبة نحو ٤٦,٦، ٣٣,٢٪، ١٣٪ على التوالي. كما سرد (٢٠٧ عضواً) بنسبة نحو ٣٧٪، مجموعة من الصفات الأخرى المتنوعة (جدول رقم ٨).

٧ ــ ومن حيث مدى الحاجة إلى القدوة فقد اتضح أن أغلب أعضاء الدراسة وعددهم (٤٢٠ عضواً) بنسبة نحو ٧٥٪ لديهم **(حاجة ماسة لوجود القدوة)** في حين أن (٨٩ عضواً) بنسبة نحو ١٥,٩٪ قرروا أنه **(لا يوجد لديهم حاجة لوجود القدوة)** وأفاد (٢٨ عضواً) بنسبة نحو ٥٪ أنهم **(لا يستطيعون تحديد مدى حاجتهم للقدوة)** ولم يبين (٢٣ عضواً) بنسبة نحو ٤,١ ٪ رأيهم في هذا الموضوع. (جدول رقم ٩).

٨ ــ وفيما يتعلق بأسباب اتخاذ أعضاء هذه الدراسة للقدوة فقد تبين أن هناك (١٨٥ عضواً) بنسبة نحو ٣٦,٣٪ رأوا أنهم يتخذون القدوة **(لكي يحاولوا أن يكونوا مثلهم)** في حين أن (١٤٥ عضواً) بنسبة نحو ٢٨,٤٪ رأوا أنهم يتخذون القدوة **(لكي يكونوا مثلهم فعلاً)**، لكن الأكثرية من الأعضاء وعددهم (١٨٩) عضواً بنسبة نحو ٣٧٪، كان رأيهم أن سبب اتخاذهم للقدوة هو **(لكي يكونوا أفضل منهم)**، ولم يوضح (٦ أعضاء) فقط بنسبة نحو ١,٢٪ رأيهم في هذا الشأن (جدول رقم ١٠).

٩ ــ ولقد حدد أعضاء الدراسة بوضوح المجالات التي قاموا بانتقاء القدوة منها وفي ضوء ذلك ترتيب تلك المجالات على الوجه التالي :

١ ـ المجال الأسـري :

أفاد (٤٩٠ عضواً) بنسبة نحو ٨٧,٥٪ أنه يوجد لديهم قدوة في المجال الأسري، في حين أن (٥٩ عضواً) بنسبة نحو ١٠,٥٪ سجلوا أنه لا يوجد لديهم قدوة في المجال الأسري، كما اتضح أن (١١ عضواً) بنسبة نحو ٢٪ فقط غير مبينة إجاباتهم بالتحديد نحو هذا الموضوع. وتركزت القدوة في عشر شخصيات من أعضاء الأسرة من مختلف درجات القرابة وفي مقدمتهم الأب.

٢ ـ المجـال الثقـافي :

جاءت القدوة في المجال الثقافي في المرتبة الثانية حيث يرى (٤٨٦ عضواً) بنسبة نحو ٨٣,٦٪ حيث يرون جميعاً أن لديهم القدوة في هذا المجال. ويرى (٦٧ عضواً) بنسبة نحو ١٢٪ أنه لا يوجد لديهم قدوة في المجال الثقافي، ولم يبين (٢٥ عضواً) بنسبة نحو ٤,٤٪ رأيهم في هذا الشأن. واختار أعضاء الدراسة (٦٨ شخصية) من المفكرين والقادة الثقافيين من العرب والأجانب وفي مقدمتهم العاملين بالصحافة.

٣ ـ المجـال الـوطني :

أظهرت نتائج الدراسة أن المجال الوطني يجيء في المرتبة الثالثة حيث أفاد (٤٥١ عضواً) بنسبة نحو ٨٠,٥٪ أن لديهم قدوة في المجال الوطني لكن (٧٧ عضواً) بنسبة نحو ١٣,٧٪ ليس لديهم قدوة في هذا المجال، ووجد أن (٣٤ عضواً) بنسبة ٦,١٪ غير مبينة إجاباتهم في هذا المجال. وتحددت القدوة هنا في نحو (٦٠ شخصية) من القادة الذين ساهموا في خدمة بلادهم وكان على رأسهم رؤساء الدول.

٤ ـ المجـال الـديني :

كما بيَّنت نتائج الدراسة أيضاً أن المجال الديني يجيء في المرتبة الرابعة حيث قرر (٤٤٢ عضواً) بنسبة نحو ٧٨,٩٪ أن لديهم قدوة في المجال الديني، وقرر (٨٤ عضواً) بنسبة نحو ١٥٪ أنه لا يوجد لديهم قدوة في المجال الديني، ولم يبين (٣٤ عضواً) بنسبة ٦,١٪ رأيهم نحو القدوة

في هذا المجال. وفي محاولة لإلقاء بعض الأضواء على نوعيات وأوصاف الذين تم اختيارهم قدوة في المجال الديني من قبل أعضاء هذا البحث الذين قرروا أن لديهم قدوة في هذا المجال، فقد تبين لنا أنه على الرغم من أن الدراسة قد حددت أن اختيار القدوة في المجال الديني وفي بقية المجالات يكون من القيادات المعاصرة، أو من غير المعاصرة، أي تقتصر على البشر العاديين مهتدين في ذلك بقوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[1]. إلّا أن أغلب أعضاء البحث قد اختاروا القدوة في المجال الديني من الأنبياء والرسل بوجه عام وفي مقدمتهم رسول الله محمد ﷺ. أما الذين التزموا بالمعنى الدقيق للسؤال فقد قاموا باختيار نحو (١٧) قائداً ومفكراً ومجاهداً إسلامياً منهم على سبيل المثال (أحد الخلفاء الراشدين) ثم (مفكر إسلامي معروف) ثم (الأب). جاء أيضاً قدوة في المجال الديني ثم (أحد قادة الأزهر) يليه (مفكر إسلامي وأستاذ جامعي معاصر) ثم (مفكر ديني رحل منذ بداية القرن الحالي) وجاء هؤلاء بنسب نحو ١١,١٪، ٥,٢٪، ٥,٢٪، ٤,١٪، ٤,١٪، ٣,٨٪، ٣,٤٪ على التوالي. وجاء بعد ذلك مجموعة أخرى من المفكرين الإسلاميين من المعاصرين ومن غير المعاصرين. (جدول رقم ١١).

٥ ـ المجـال السياسي :

جاء المجال السياسي في المرتبة الخامسة حيث قرر (٣٩٩ عضواً) بنسبة نحو ٧١,٣٪ أن لديهم قدوة في هذا المجال لكن (١٠٥ عضواً) بنسبة نحو ١٨,٧٪ بينوا أنه ليس لديهم قدوة في المجال السياسي ولم يبين (٥٦ عضواً) بنسبة نحو ١٠٪ رأيهم في القدوة في هذا المجال. ولقد حدد أعضاء الدراسة بالأسماء وبالأوصاف (٢٣ شخصية) ممن تولوا مواقع سياسية مختلفة.

٦ ـ المجـال الفني :

وتبين أن القدوة في المجال الفني قد جاءت في الترتيب السادس

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٢١.

حيث أن (٣٩٣ عضواً) بنسبة نحو ٧٠,٢٪ لديهم قدوة في المجال الفني كما أن (١٣٣ عضواً) بنسبة نحو ٢٣,٧٪ ليس لديهم قدوة في هذا المجال كما لم يبين (٣٤ عضواً) بنسبة نحو ٦,١٪ رأيهم بالتحديد في المجال الفني. ولقد اتسع مجال اختيار القدوة هنا حتى اشتمل على (١٢٣ شخصية فنية) وفي مقدمتهم المطربين والمطربات والعاملين بالسينما والمسرح وكان بعضهم من الأجانب.

٧ ـ المجال الدراسي :

كانت المرتبة السابعة تخص القدوة في المجال الدراسي الذي كان لا يقل كثيراً عن المجال السابق حيث قرر (٣٩٢ عضواً) بنسبة نحو ٧٠٪ أن لديهم قدوة في المجال الدراسي في حين أن (١٣٥ عضواً) بنسبة نحو ٢٤,١٪ ليس لديهم قدوة في هذا المجال، ولم يبين (٣٣ عضواً) بنسبة نحو ٥,٩٪ رأيهم في هذا الشأن. ويقدر عدد الذين اختارهم أعضاء الدراسة كقدوة في المجال الدراسي بعدد مقارب لعدد هؤلاء الأعضاء أنفسهم لذلك فقد تم تصنيفهم طبقاً لنوعية المرحلة التعليمية التي اختار منها الأعضاء قدوتهم في المجال الدراسي. وبذلك ظهر أن نحو ٢٧,٥٪ من الأعضاء اختاروا قدوتهم من أساتذة الجامعات والتعليم العالي. ورأى نحو ٦,٦٪ فقط أن يختاروا القدوة من مدرسي المرحلة الثانوية. كما قرر نحو ٢,٥٪ فقط أن يختاروا القدوة من مدرسي المرحلة الإعدادية أو المتوسطة واختار نحو ٥,٣٪ القدوة من مدرسي المرحلة الابتدائية، والغريب أن الأغلبية الكبرى من أعضاء الدراسة بنسبة نحو ٥٨,١٪ قد اختاروا القدوة في المجال الدراسي من غير المرتبطين ارتباطاً مباشراً بالعمل في مؤسسات التعليم. (جدول رقم ١٢).

٨ ـ المجال الرياضي :

احتل هذا الترتيب الثامن والأخير في رأي أعضاء هذه الدراسة حيث قرر (٣٧٠ عضواً) بنسبة نحو ٦٦,١٪ أن لديهم قدوة في المجال الرياضي كما أن (١٥٧ عضواً) بنسبة نحو ٣٨٪ أفادوا بأنه ليس لديهم قدوة في هذا المجال ولم يبين (٣٣ عضواً) بنسبة نحو ٥,٩٪ رأيهم بالتحديد في هذا

المجال. ولقد اختار أعضاء البحث (٧٥ شخصية رياضية) كان في مقدمتهم لاعبي كرة القدم والملاكمة والسباحة من العرب والأجانب. (جدول رقم ١٣، ١٤).

رابعاً - نتائج الدراسة الحالية :

في ضوء الحقائق السابقة يمكن للقارئ أن يستلخص الكثير من النتائج، ولعل أحد هذه النتائج في رأي الباحث أن تكون كما يلي :

١ - إن إجابات أعضاء الدراسة قد تأثرت بظروفهم الشخصية وبأماكن تنشئتهم التربوية حيث ظهر أن أغلبهم قد نشأ بالمدينة. فضلاً عن تأثر هؤلاء الأعضاء بأجهزة التنشئة التربوية التي تعاملت معهم منذ مراحل نموهم الأولى. كما يحتمل أيضاً أن تكون طبيعة المرحلة الدراسية والتخصص العلمي والمستوى السني الذي يمرون به قد أثرت على إجاباتهم فيمايتعلق بآرائهم نحو القدوة وفي اختيارهم للقدوة.

٢ - ولقد اتضح أن أغلب أعضاء الدراسة لديهم من يقتدون به في مختلف المجالات، الأمر الذي يؤكد أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه القدوة الصالحة في التنشئة التربوية لأعضاء المجتمع.

٣ - ولقد تبين أيضاً أن أعضاء الدراسة الحالية قد حددوا الصفات التي يرونها فيمن يودون اتخاذه قدوة لهم وكانت معظم هذه الصفات إيجابية في ضوء القيم والمثل العليا النابعة من الدين الإسلامي، لكن ترتيبها يحتاج إلى مراجعة خاصة، وأن هناك بعض الصفات غير الموضوعية لكنها جاءت في ترتيب متأخر عن الصفات الأخرى.

٤ - وتؤكد الحقائق المستقاة من الدراسة الحالية أن أغلب أعضاء العينة قد قرروا أنهم في حاجة ماسة إلى القدوة الأمر الذي يزيد كذلك من أهمية تأثير القدوة الصالحة في تربية النشء والشباب.

٥ - ولقد تبين أيضاً أن أغلب أعضاء الدراسة الحالية على أمل في أن يصبحوا (**أفضل من القدوة**) التي يقتدون بها. وإن كان من الممكن اعتبار أن ذلك ثقة منهم بأنفسهم، وهذا أمر إيجابي، إلّا أنه يحتمل وجود

قدر من التفكير اللاواقعي أو الغرور عندما لا تقابل هذه الحقائق من أعضاء الدراسة بمحاولة بذل الجهد المناسب للوصول إلى هذا الهدف.

٦ ـ ولقد قام أعضاء الدراسة الحالية بتحديد مدى وجود القدوة لديهم في بعض المجالات الحيوية التي اهتمت بها هذه الدراسة، بالإضافة إلى (المجال الديني) ولقد ظهر أن هناك تبايناً واضحاً من حيث مدى تواجد القدوة في تلك المجالات في ضوء آراء النشء والشباب، تلك الآراء التي تم تشكيلها من خلال برامج أجهزة التنشئة التربوية التي ساهمت بشكل أو بآخر في تشكيل اتجاهات أعضاء الدراسة نحو القدوة، الأمر الذي يوصي بأنه ليس هناك لدى هذه الأجهزة سياسة تربوية شاملة تسعى لتحقيقها في محيط أعضاء المجتمع.

٧ ـ ولقد ظهر أيضاً أن القدوة في (المجال الديني) قد جاءت في الترتيب الرابع وكان من المتوقع أن تتقدم القدوة في هذا المجال في ضوء المناخ الديني السائد في المجتمع، الأمر الذي يستحق المراجعة والدراسة للتحقق من جدوى جهود مؤسسات التنشئة التربوية في نشر الثقافة الإسلامية بالشكل الذي يتناسب مع كافة المراحل السنية للنشء والشباب. كما أن هناك نسبة لا يستهان بها وهي تزيد عن ٢٠٪ من أعضاء الدراسة الحالية قرروا عدم وجود قدوة لديهم في المجال الديني، أو لم يبدوا رأياً محدداً في هذا الموضوع وهذا الأمر يحتاج إلى مراجعة جادة من قبل المسئولين عن الثقافة الإسلامية.

٨ ـ وفي الوقت الذي لاحظنا فيه مدى صعوبة اختيار القدوة في المجال الديني من رجال الدين المعاصرين عند أعضاء هذه الدراسة نجد أنه على النقيض من ذلك حيث أن نفس أعضاء هذه الدراسة لم يجدوا صعوبة في تحديد القدوة وبأعداد كبيرة في بقية المجالات الأخرى، وقد يعني هذا أن بعض أعضاء الدراسة وأغلبهم من طلاب الجامعات والمعاهد العليا لم يتبلور لديهم بصورة واضحة نموذج للقدوة في المجال الديني من رجال الدين المعاصرين أو من غيرهم من القادة في شتى الميادين طبقاً للسؤال المحدد الذي وجه لهم في هذه الدراسة.

خامساً ـ توصيات مقترحة من خلال الحقائق والنتائج النابعة من هذه الدراسة :

في ضوء الحقائق الخاصة بهذا البحث، ومن خلال النتائج التي أمكن استخلاصها من هذه الحقائق يمكن اقتراح بعض التوصيات التالية :

١ ـ يرجى العمل على اتفاق أجهزة التنشئة التربوية على تحديد مفهوم القدوة الصالحة في ضوء تعاليم الدين الإسلامي وفي ضوء الأهداف والقيم والمثل العليا للمجتمع.

٢ ـ يجب أن يتم وضع السياسة العامة لأجهزة التنشئة التربوية، وفي إطار من الشمول والتكامل، حتى تتكامل بالتالي برامج كافة المؤسسات التربوية في ضوء ما يتطلبه المجتمع الإسلامي المعاصر وفي ضوء النظرة الشاملة للشخصية الإنسانية.

٣ ـ يجب دراسة إمكانية تحديد الإطار والنموذج الخاص بالقدوة في المجال الديني بوجه خاص وكذلك في بقية المجالات بحيث يمكن للنماذج الصالحة من القدوة أن تقوم بدور إيجابي في رفع مستوى الثقافة الإسلامية في محيط النشء والشباب.

٤ ـ تعتبر القدوة الصالحة والأسوة الحسنة بوجه عام عامل هام في تربية النشء والشباب منذ المراحل السنية الأولى، وتتضاعف أهمية القدوة عند إعداد قادة المجتمع في شتى الميادين وبصفة خاصة قادة التربية والتعليم والثقافة والإعلام. لذلك فإنه يجب الاهتمام بتكوين القدوة الصالحة من خلال خطط وبرامج الإعداد التربوي للنشء والشباب منذ المراحل السنية الأولى وفي إطار التربية المستديمة مدى الحياة.

٥ ـ يجب أن يساهم القادة في مؤسسات التعليم وفي أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة وفي الأندية والجمعيات وغيرها... ـ بالإضافة إلى جهود الآباء والأمهات داخل الأسرة ـ في تشكيل القدوة الصالحة في ضوء تعاليم الدين الإسلامي بحيث يتيسر للنشء والشباب السعي نحو الاقتداء بها وهم في دور الإعداد والتكوين بحيث تتناسب نوعية (القدوة الصالحة) مع المقومات السنية وخصائص مراحل النمو في تدرج

قائم على الأسس العلمية والتربوية، وأن يتم إعداد البرامج التربوية للقدوة بشكل منطقي وبحيث تكون تلك القدوة شاملة لجوانب الشخصية الإنسانية من النواحي الروحية والبدنيـة والاجتماعيـة والنفسيـة... طبقاً لما تحـدده الشريعة الإسلامية السمحة.

سادساً ـ خاتمـــة :

وختاماً يرجى عند تفسير النتائج التي وردت في هذا البحث وفي ضوء الحقائق التي تم جمعها الالتزام بالبعد الزمني السابق ذكره وبالبعد المكاني الذي نشأ فيه أعضاء عينة الدراسة الحالية فضلاً عن أهمية دراسة كافة البرامج والمناهج التربوية التي قام المجتمع عن طريق أجهزته المعنية بتقديمها لهم بوعي أو بدون وعي. كما يجب أن نتعرف إن كانت هناك خطة تربوية شاملة للعمل مع النشء والشباب أم لا ؟ كذلك يجب أن نضع في الاعتبار تلك الظروف التاريخية التي مر بها المجتمع بصفة عامة.. ومدى تأثيرها على النشء والشباب فضلاً عن أسلوب قادة العمل التربوي الذين ساهموا في تربية هؤلاء النشء والشباب من أعضاء هذه الدراسة، الأمر الذي كان له بعض أو كل التأثير على تشكيل القدوة عند هؤلاء النشء والشباب.

وبالإضافة إلى كل ما سبق يجب أن نضع في الاعتبار كافة عوامل التأثير الخارجي التي تأتي من خارج المجتمع والتي تأثر بها أعضاء الدراسة وغيرهم ممن هم في نفس السن ودرجات تأثير تلك العوامل عليهم في المجال الزمني المحدد.

ويعني كل ذلك أيضـاً أن التفسير العـام لهـذه النتائج ـ لا يكـون صحيحـاً ـ إلا من خـلال الدراسات العلمية الشاملـة للمجتمع حتى يتيسر لنا الفهم السليم لنتائج مثل هذه الدراسة وغيرها من الدراسات العلمية والتربوية المماثلة.

ويجدر بنا الإشارة إلى أن مثل هذه الدراسات يجب إجراؤها كلما مضى وقت من الزمن وبصورة دورية منتظمة لما قد يرجى فيها من فوائد لتقييم المناهج التعليمية والبرامج التربوية التي تقوم بها مختلف أجهزة التنشئة التربوية فضلاً عن تقييم القادة العاملين في نفس هذه الأجهزة. كما أن نفس هذه

الدراسات قد تفيد كذلك في قياس بعض أو كل المؤثرات التي تؤثر في العمل التربوي مع النشء والشباب بوجه خاص ومع أعضاء المجتمع بوجه عام.

والله الموفق..

قائمة المراجع
طبقاً لترتيب ورودها في هذه الدراسة

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ محمد بن أبي بكر الرازي : « مختار الصحاح » القاهرة ـ ١٩١١ ـ المطبعة الأميرية ـ صفحة ٥٥١.

٣ ـ مسعد عويس : « القدوة في محيط النشء والشباب » القاهرة ١٩٧٩ ـ دار الفكر العربي ـ الطبعة الثانية.

٤ ـ محمد قطب : « منهج التربية الإسلامية » بيروت ـ القاهرة ـ جدة ـ دار الشرق ـ صفحات ٢٢١ ، ٢٢٩.

عرض الجداول الملحقة بهذه الدراسة

جدول رقم (١)

(توزيع أعضاء عينة الدراسة من حيث النوع)

البيان	ذكور	إناث	إجمالي
العدد	٤٦٦	٩٤	٥٦٠
النسبة المئوية	٨٣,٢٪	١٦,٨٪	١٠٠٪

جدول رقم (٢)

(عرض فئات السن لأعضاء عينة الدراسة)

البيان	١٢ ـ ١٥ سنة	١٦ ـ ٢٥ سنة	٢٦ ـ ٣٠ سنة	غير مبين	إجمالي
العدد	١٠٦	٢٧٢	١٥٨	٢٤	٥٦٠
النسبة المئوية	١٨,٩٪	٤٨,٧٪	٢٨,١٪	٤,٣٪	١٠٠٪

جدول رقم (٣)

(توزيع أعضاء عينة الدراسة طبقاً للمستوى العلمي)

البيان	ابتدائي	إعدادي	ثانوي	فوق المتوسط	تعليم عال	غير مبين	إجمالي
العدد	٣٠	٩٠	٥٤	١١	٣٦٥	١٠	٥٦٠
النسبة المئوية	٥,٣٪	١٦,١٪	٩,٦٪	٢٪	٦٥,٢٪	١,٨٪	١٠٠٪

جـدول رقـم (٤)
توزيع أفراد العينة من الحاصلين على مؤهلات عليا أو من طلاب التعليم العالي طبقاً للتخصصات الدراسية وعددهم (٣٦٥ عضواً)

مسلسل	التخصص الدراسي	العدد	النسبة المئوية
١	التجارة والتعاون والاقتصاد والعلوم السياسية	٦٠	١٦,٤٪
٢	العلوم التربوية وكليات المعلمين	٥٢	١٤,٢٪
٣	العلوم الزراعية	٤١	١١,٢٪
٤	العلوم الهندسية والصناعية والتكنولوجيا	٣٦	٩,٩٪
٥	الطب والصيدلـة	٣٢	٨,٨٪
٦	الآداب والفلسفة والدراسات الإسلامية	٣١	٨,٥٪
٧	الخدمة الاجتماعية وعلم الاجتماع وعلم النفس	٢٤	٦,٦٪
٨	القانـون والشريعـة	١٨	٤,٩٪
٩	العلوم والطبيعة والجيولوجيا	١٢	٣,٣٪
١٠	غير مبين التخصص الدراسي	٥٩	١٦,٢٪
	العـام	٣٦٥	١٠٠٪

جـدول رقـم (٥)

(توزيع أفراد العينة طبقاً لمحل الميـلاد)

البيـــان	مـدينـة	قـريـة	غير مبيـن	إجمـالي
العــــدد	٣٨١	١٧٠	٩	٥٦٠
النسبة المئوية	٦٨٪	٣٠,٤٪	١,٦٪	١٠٠٪

جـدول رقـم (٦)

(توزيع أفراد العينة طبقاً لمحل التنشئة)

البيـان	مدينـة	قريـة	غير مبين	إجمـالي
العـدد	٤٠٦	١٢٥	٢٩	٥٦٠
النسبة المئوية	٨٢,٥٪	٢٢,٣٪	٥,٢٪	١٠٠٪

جـدول رقـم (٧)

(مكانة القدوة عند النشء والشباب من أعضاء الدراسة)

البيـان	يـوجـد قـدوة	لا يوجـد قـدوة	لا أعلـم	غير مبين	إجمـالي
العـدد	٥١٠	١٤	١٨	١٨	٥٦٠
النسبـة المئويـة	٩١,١٪	٢,٥٪	٣,٢٪	٣,٢٪	١٠٠٪

جـدول رقـم (٨)
صفات القدوة مرتبة ترتيباً تنازلياً طبقاً لآراء أعضاء الندوة

مسلسل	الصفـــات	عـدد التكرارات	النسبـة المئويـة
١	له مواقف إنسانية	٤٦٥	٨٣,٠٪
٢	متـــواضـــع	٤٦١	٨٢,٣٪
٣	مفـكـــــر	٤٤٥	٧٩,٥٪
٤	متــديـــن	٤٤٣	٧٩,١٪
٥	لـه مـواقف طيبـة	٣٧٠	٦٦,١٪
٦	طيـب القلـب	٣٣٣	٥٩,٥٪
٧	حســن المظهــر	٢٦١	٤٦,٦٪
٨	له قـدرات خاصـة	١٨٦	٣٣,٢٪
٩	يؤدي خدمـات خاصـة	٧٣	١٣,٠٪
١٠	صفـات أخـرى متنوعـة	٢٠٧	٣٧,٠٪

جـدول رقـم (٩)

(مدى الحاجة إلى القدوة في رأي أعضاء اللجنة)

البيـــان	نعم هناك حاجة للقدوة	لا توجـد حاجة للقدوة	لا أعلـم	غير مبين	إجمـالي
العـدد	٤٢٠	٨٩	٢٨	٢٣	٥٦٠
النسبـة المئويـة	٧٥٪	١٥,٩٪	٥٪	٤,١٪	١٠٠٪

جـدول رقـم (١٠)

(بيان أسباب اتخاذ القدوة لدى أعضاء الدراسة من الذين قرروا أن لديهم قدوة بوجه عام وعددهم ٥١٠ عضواً)

البيـــــان	التكرارات	النسبة المئوية
لكي أحـاول أن أكـون مثلهم	١٨٥	٣٦,٣٪
لكي أكـون مثلهم	١٤٥	٢٨,٤٪
لكي أكـون أفضـل منهم	١٨٩	٣٧٪
أسبـاب أخـرى	١٤٤	٢٨٪
غيـر مبـين	٦	١,٢ ٪

جدول رقم (١١)
نوعية القدوة في المجال الديني في رأي أعضاء الدراسة الذين لديهم قدوة في المجال الديني وعددهم (٤٤٢ عضواً)

مسلسل	القدوة الدينية	النسبة المئوية
١	الأنبياء والرسل وفي مقدمتهم محمد ﷺ	٤٧,٧٪
٢	أحد الخلفاء الراشدين	١١,١٪
٣	مفكر إسلامي	٥,٢ ٪
٤	الأب	٥,٢ ٪
٥	أحد قادة الأزهر	٤,١ ٪
٦	مفكر إسلامي وأستاذ جامعي معاصر	٤,١ ٪
٧	مفكر ديني راحل منذ بداية القرن الحالي	٣,٨ ٪
٨	مفكر ديني معاصر	٣,٤ ٪
٩	مجموعة من رجال الدين المعاصرين وغير المعاصرين وعددهم عشرة	٥,٦ ٪

ملحوظة :

يلاحظ أننا لم نحاول الإشارة إلى أسماء القادة الذين اختارهم أعضاء الدراسة كقدوة في المجال الديني لأن المعيار ليس في الأسماء المجردة بل في الصفات التي اتخذت القيادات قدوة على أساسها.

جدول رقم (١٢)
نوعية القادة الذين تم اتخاذهم قدوة في المجال الدراسي

مسلسل	البيان	النسبة المئوية
١	أساتذة التعليم العالي والجامعي	٢٧,٥٪
٢	مدرسو المرحلة الثانوية	٦,٩ ٪
٣	مدرسو المرحلة المتوسطة والإعدادية	٢,٥ ٪
٤	مدرسو المرحلة الابتدائية	٥,٣ ٪
٥	من غير العاملين في مؤسسات التعليم	٥٨,١٪
	إجمالي	١٠٠٪

جـدول رقـم (١٣)
مدى تواجد القدوة عند أعضاء العينة في مجالات الدراسة طبقاً للترتيب التنازلي

ترتيـب		البيـان	يوجـد قـدوة	لا يوجـد قـدوة	غـير مبـين	إجمـالي
١	المجـال الأسري	العدد	٤٩٠	٥٩	١١	٥٦٠
		٪	٨٧,٥	١٠,٥	٢	٪١٠٠
٢	المجـال الثقافي	العدد	٤٦٨	٦٧	٢٥	٥٦٠
		٪	٨٣,٦	١٢	٤,٤	٪١٠٠
٣	المجـال الوطني	العدد	٤٥١	٧٧	٣٢	٥٦٠
		٪	٨٠,٥	١٣,٧	٥,٨	٪١٠٠
٤	المجـال الديني	العدد	٤٤٢	٨٤	٣٤	٥٦٠
		٪	٧٨,٩	١٥	٦,١	٪١٠٠
٥	المجـال السياسي	العدد	٣٩٩	١٠٥	٥٦	٥٦٠
		٪	٧١,٣	١٨,٧	١٠	٪١٠٠
٦	المجـال الفني	العدد	٣٩٣	١٣٣	٣٤	٥٦٠
		٪	٧٠,٢	٢٣,٧	٦,١	٪١٠٠
٧	المجـال الدراسي	العدد	٣٩٢	١٣٥	٣٣	٥٦٠
		٪	٧٠	٢٤,١	٥,٩	٪١٠٠
٨	المجـال الرياضي	العدد	٣٧٠	١٥٧	٣٣	٥٦٠
		٪	٦٦,١	٢٨	٥,٩	٪١٠٠

جدول رقم (١٤)
بيان عدد الشخصيات القيادية
التي تم اتخاذها قدوة في مختلف مجالات الدراسة

الترتيب	المجالات	عدد الشخصيات التي تم اتخاذها قدوة
١	الأسري	١٠
٢	الثقافي	٦٨
٣	الوطني	٦٠
٤	الديني	١٨
٥	السياسي	٢٣
٦	الفني	١٢٣
٧	الدراسي	٣٩٢
٨	الرياضي	٧٥

الشَّبَابُ وَالتَّغييرُ

للأستاذ فتحي يكن
أمين الجماعة الإسلامية - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

التغيير شعار كثر طرحه في الأزمنة الأخيرة من قبل ما يسمى (بالإتجاهات الثورية)، والماركسية أبرز الاتجاهات التي تؤمن بالتغيير القسري، أي بالعنف، وماركس يفصح عن رأيه في الأسلوب الذي ينبغي أن تعتمده الحركة الشيوعية في تغيير المجتمعات والكيانات الرأسمالية فيقول (لا سبيل لإحلال الإشتراكية محل الرأسمالية إلّا بالثورة).

والشباب هو القطاع المعتمد لدى كل الاتجاهات ذات الاستراتيجية التغييرية، فالثورات والإنقلابات، التي قامت وتقوم في شتى أنحاء المعمورة، اعتمدت أساساً على الشباب في سبيل تحقيق أغراضها.

فما هو حظ الإسلام من الاعتماد على الشباب ؟، وما هو دور الشباب في التغيير الإسلامي المنشود ؟، وما هي سمات التغيير الإسلامي ؟، كل ذلك ما سنحاول مناقشته وتناوله خلال بحثنا هذا (الشباب والتغيير).

لماذا الشباب ؟ :

لماذا التركيز دائماً على الشباب ؟.

لماذا الاعتماد باستمرار على الشباب ؟.

في منطق الإسلام، لا يعني الاعتماد على الشباب إغفال دور الرجال والكهول أو إغماطهم حقهم أو الإقلال من شأنهم كما كان حال الشيوعية حين طالب أحد زعمائها بعد الثورة بإبادة جميع المسنين حتى لا يكونوا كلًّا على الدولة.

في منطق الإسلام، كل إنسان له دوره، وكل دور ينبغي أن يعطى حقه من غير حساسيات، وبدون منازعات، وضمن الأصول والقواعد التالية :

١) رحم الله امرءاً عرف حده فوقف عنده.

٢) ليس منا من لم يوقر كبيره ويرحم صغيره.

٣) اقبل الحق ممن جاء به من صغير أو كبير ولو كان بغيضاً بعيداً، واردد الباطل على من جاء به من صغير أو كبير ولو كان حبيباً قريباً.

وإذا كان التركيز في نطاق المهمات التغييرية على الشباب فهو من قبيل التناسب والتناسق بين الطاقات والمهمات، فالإنسان في كل طور من أطوار حياته تكون لديه من الإمكانيات والطاقات ما تتناسب مع مهمة معينة، وقد لا تتناسب مع كل المهمات، فهو في سن الطفولة غيره في سن الشباب، غيره في سن الرجولة، غيره في سن الكهولة، (ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً)[1].

ـ فلماذا الشباب هنا ؟.

ـ في الحقيقة إن الشباب هو سن الهمم المتوثبة والدماء الفائرة، والآمال العريضة، سن العطاء والبذل والفداء، سن التلقي والتأثر والانفعال.

من هنا كان سن الشباب في منطق الإسلام ذا مسئولية وقيمة خاصة، لطالما حرص رسول الإسلام على إشعار الشباب بها، منها قوله ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك).

الكائن البشري ـ في طبيعة تركيبه وتكوينه ـ يبلغ في سن معينة قمة

---

(١) سورة الحج : آية ٥.

العطاء الحسيّ، ثم يبدأ المؤشر بالتراجع والانحدار، (وتلك الأيام نداولها بين الناس)[1]، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: (إن لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنّتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك).

من هنا كان الحرص على الاستفادة من سن الشباب ومن الشباب في تحقيق المهمات الصعبة، وتذليل العقبات الكؤود، ومواجهة التحديات التي يفرضها منطق التغيير الحضاري.

لماذا الشباب المسلم ؟ :

والإسلام حين يحرص على الشباب في تحقيق أهدافه التغييرية، فليس لكونه الجيل الذي لديه الصفات والمواصفات التجريدية فحسب، وإنما يفرض ـ فوق ذلك وقبل ذلك ـ أن تتحقق في ذلك الجيل صفةُ الانتماء للإسلام والالتزام بمبادئه أي أن يكون جيلاً مسلماً.

إن الشباب بالإسلام شيء، وبغير الإسلام لا شيء.

إن الشباب بالإسلام هو العطاء وهو الخير وهو البناء، وهو بغير الإسلام تعاسة وبلاء.

فالشباب طاقة يسخرها الإسلام في عمارة الكون وقد يسخرها الآخرون في إهلاك البشرية.

إن المجتمعات البشرية اليوم ممتلئة بالشباب، ولكنه شباب فارغ تائه شارد.

شباب انعدمت شخصيته فهو يقلد كالقردة.

شباب انعدمت أخلاقه فهو إلى الأنعام أقرب.

شباب غاضت رجولته فهو إلى التخنث أميل.

شباب جندته قوى الشر والطغيان، وانتظمته أحزاب الكفر والشيطان.

شباب خنث لا خير فيهم ... وبورك في الشباب الطامحينا

(١) سورة آل عمران : آية ١٤٠.

لماذا إعداد الشباب المسلم ؟ :

هنالك تصورات مختلفة حول مهمة الشباب المسلم والهدف من إعداده.

فما هو الهدف الأصيل من إعداد الشباب المسلم ؟.

هل الهدف من إعداد الشباب المسلم أن يحفظ نفسه من مضلات الهوى وبواعث الفتنة، ويؤدي ما افترضه الله عليه ويجتنب ما نهاه الله عنه وكفى ؟.

أم هل الهدف من إعداد الشباب المسلم أن يتزود بحظٍ وافر من الثقافة الإسلامية يمكنه من الكتابة والخطابة فحسب ؟.

وهل الهدف من إعداد الشباب المسلم أن ينهض ببعض الواجبات الخيرية... يطعم المساكين ويداوي المرضى ويواسي البؤساء والمحرومين فقط ؟.

أم هل الهدف من إعداد الشباب المسلم أن يقوم بدعوة الناس إلى الإسلام ـ معذرةً إلى الله ـ استجابوا بعد ذلك أم لم يستجيبوا ؟.

أم هل الهدف من ذلك أن يكون الشباب في تنظيم شبابي إسلامي وكفى، سواء أكان من العاملين فيه أم من المتفرجين عليه أو المعوقين له ؟.

في الحقيقة إننا لسنا أحراراً في أن نختار هذا الهدف أو ذاك...، والعالم الإسلامي يعيش في ظل حكم الطاغوت، والإسلام مبعد عن دوره القيادي ؟.

إنه يتعين أن يكون الهدف من إعداد الشباب المسلم اليوم هو أن يحقق قوامة الإسلام على مجتمعه وعلى العالم. وهذا يفرض بالتالي أن تكون مهمة الشباب المسلم ـ نقل قيادة الأمة، من أيدي الجاهلية وأفكارها وتشريعاتها وأخلاقها، إلى يد الإسلام وأفكاره وتشريعاته وأخلاقه.

إن هذا العمل وما يحتاجه ويتصل به ويتفرع عنه ويتطلبه يجب أن يمثل في الحقيقة المهمة الأساسية للشباب المسلم والغاية الرئيسية من

إعداد الشباب المسلم، وهو في هذا الإطار واجب شرعي لا يسقط حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

إن غاية المنهج الإسلامي تعبيد الناس لله في شتى نواحي حياتهم، في سلوكهم كما في معاملاتهم، في قوانينهم كما في أفكارهم وتشريعاتهم، وهذا يعني بدون شك نقض الأسس والمرتكزات التي يقوم عليها المجتمع الجاهلي والحضارة المادية، وإرساء الأسس والمرتكزات الإسلامية مكانها.

إن ذلك يعني أن مهمة الشباب المسلم (تغييرية) وليست ترقيعية أو ترميمية، أو هكذا يجب أن تكون.

إنها في الحقيقة مهمة صعبة وشاقة ولكنها المهمة المطلوبة، وكل ما عداها من مهمات تفقد قيمتها وهويتها وشخصيتها وتساعد بالتالي على امتصاص النقمة وتعطيل إرادة التغيير، بل ومسايرة الواقع الجاهلي والتعايش معه.

الإسلام منهج تغييري :

ومن خصائص المنهج الإسلامي أنه تغييري، يرفض الترقيع أو الترميم، ولا يرضى بأنصاف الحلول أو أرباعها، كما لا يستسيغ التعايش مع الجاهلية (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)[1].

نهج الرسول كان تغييرياً :

ونهج الرسول ﷺ في مواجهة الجاهلية كان تغييرياً، فعندما جاءت قريش تعرض على محمد أن يعبد آلهتها شهراً لتعبد إلهه شهراً آخر، ينزل القرآن الكريم بالموقف الحاسم : (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين)[2]، (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم لنا

---

(١) سورة الأنفال : آية ٣٩.

(٢) سورة الكافرون : الآيات ١ ـ ٦.

أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا وإليه المصير)[1].

وضع الأمة الإسلامية يفرض التغيير :

والتغيير واجب بالضرورة على الشباب المسلم لمواجهة تحديات العصر لوقف الموجات المادية والزحوف الإلحادية التي تتهدد الوجود الإسلامي بالزوال والفناء.

إن نظرة فاحصة إلى أوضاع المسلمين في كل مكان تؤكد ضرورة إعداد الشباب المسلم إعداداً يتكافأ مع مهمة التغيير الإسلامي المنشود، بل وتجعل القيام بذلك تكليفاً شرعياً لا يجوز القعود عنه أو التهاون فيه.

فلسفة التغيير الإسلامي :

والتغيير الإسلامي المنشود ليس فلسفة معقدة كما قد يفهم أو يظن أو يزعم البعض، على عكس ذلك تماماً هي فلسفة التغيير في الإسلام، وبكلمات موجزات عبَّر عن هذه الفلسفة رجل من المسلمين هو ربعي بن عامر، قال ربعي لرستم قائد جيوش فارس بعد أن سأله هذا عن سبب زحوفهم : (الله جاء بنا لنخرج من شاء من العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهار، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قَبِلَ منا ذلك قبلناه منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله).

مفهوم الحكم الإسلامي :

كذلك فلسفة التغيير الإسلامي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع مفهوم الحكم الإسلامي ولا انفكاك لإحداها عن الأخرى.

فالحكم الإسلامي بهذا المفهوم ليس شعاراً يرفع.

ليس نصاً في دستور الدولة على أن دينها الإسلام.

---

(١) سورة الشورى : آية ١٥.

ليس قراراً يحرم بموجبه عمل، ويباح آخر.
ليس مظهراً سياسياً لدولة.
إنما هو :
- حكم يصدر في كل ممارساته عن تصور الإسلام للكون والإنسان والحياة.
- حكم يحقق ربط الفرد والمجتمع والدولة بالله وفق منهج الإسلام.
- حكم يكون شرع الله فيه أساس التقاضي والتحاكم.
- حكم يكون شرع الله فيه ميزان التعامل في الداخل والخارج في السلم والحرب.
- حكم يأخذ بكل أسباب القوة المادية فضلاً عن القوة المعنوية.

فهو بذلك : ليس حكم دراويش، أو حكماً رجعياً، أو ثيوقراطياً أو مظهرياً.

التغيير الإسلامي عملية شاقة ولكن ليس لنا خيار :

إننا حين ندعو إلى أن تكون الغاية من إعداد الشباب المسلم (تغيير الواقع الجاهلي بالواقع الإسلامي) ندرك أبعاد ذلك وماذا يترتب عليه.

إننا ندرك أن ذلك يعني تألب القوى العالمية كلها - اليهودية والصليبية والشيوعية - لإحباط عملنا.

إننا ندرك أن ذلك يعني كذلك تكاتف القوى المحلية - أحزاب الشيطان وأنظمة الطاغوت - ووقوفها جميعاً في وجهنا.

ولكن في الحقيقة ليس لنا خيار، فالشباب إما أن يعد الإعداد الذي تتطلبه مصلحة الإسلام اليوم فيكون إعداداً متكافئاً مع تحديات الجاهلية، أو أنه سيكون إعداداً لا طائل تحته، فضلاً عن كونه ليس الإعداد المطلوب شرعاً في هذه المرحلة وفي هذه الظروف.

اختيار ذوي الأهلية :

إن المهمة التغييرية - الصعبة - التي يفرضها الإسلام لاستنقاذ الإنسانية من وهدة الجاهلية التي وصلت إليها، تحتاج، للقيام بها، إلى

شباب على جانب من الأهلية وعلى مستوى من الإعداد.

وهذا يفرض بالتـالي حسن الاختيـار.

ومنطق الاختيار هذا ليس جديداً أو مستحدثاً، فهو المنطق الذي تحققت به مهمات التغيير عبر التاريخ، ذلك أن قابليات البشر واستعداداتهم وإمكانياتهم متفاوتة كماً ونوعاً، وما يطيقه إنسان قد لا يطيقه آخر، وما يقدر عليه هذا قد لا يقدر عليه ذاك، وصدق رسول الله ﷺ حيث يصور تفاوت الناس وتفاوت قابلياتهم في التلقي والعطاء فيقول : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها :

١) نقية (أي طيبة) قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها :

٢) أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي :

٣) قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به).

ومنطق الاختيار هذا جعل الرسول ﷺ ينتقي لدعوته من كان يقدر أن لديه الاستعداد والامكانية قبل أن يقوم بعرض دعوته على قبائل العرب وعامة الناس.

ولقد درج على مبدأ الاختيار حيال كل مهمة صعبة.

فيوم خيبر قال : (لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله)، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ وكلهم يرجو أن يعطاها، فقال : (أين علي بن أبي طالب ؟) فقيل : يا رسول الله هو يشتكي عينيه، قال : (فأرسلوا إليه)، فأتى به فبصق رسول الله في عينيه ودعا له فبرئ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية.

والقرآن الكريم أشار إلى مبدأ الاختيار في كثير من المواقع والآيات في معرض كلامه عن الأنبياء والمرسلين.

ففي اختيار موسى عليه السلام للرسالة قال : (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)[1]، وقال : (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)[2]، وقال : (واصطنعتك لنفسي)[3].

وفي اختيار مريم قال : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين)[4].

وفي اختيار آدم ونوح وابراهيم قال : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذريةً بعضها من بعض)[5].

وفي اختيار رسول الله ﷺ يقول عليه الصلاة والسلام عن نفسه : (إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)[6].

المؤشرات الأصيلة للأهلية :

إن تفاوت القدرات والاستعدادات بين فرد وآخر أمر بديهي وواقعي، فهنالك عوامل كثيرة تخلق هذا التفاوت وتوجده، منها الفطري ومنها الوراثي ومنها الاكتسابي، أي أن هذه العوامل، منها ما هو أصيل ثابت في شخصية هذا الفرد، ومنها ما هو دخيل عليه.

وعملية الاختيار ينبغي أن تعتمد على ما هو أصيل من هذه الصفات أولاً وقبل كل شيء، من ذلك :

١ ـ الاستعداد الانضباطي :

إن من أبرز الصفات التي ترشح الشاب المسلم لمهمة التغيير الحضاري هي استعداده الانضباطي. فالانضباطية استعداد نفسي وذهني

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٤.
(٢) سورة طه : آية ١٣.
(٣) سورة طه : آية ٤١.
(٤) سورة آل عمران : آية ٤٢.
(٥) سورة آل عمران : الآيتان ٣٣ ـ ٣٤.
(٦) رواه مسلم في صحيحه.

للتقيد والالتزام، فإذا انعدم هذا الاستعداد انعدم بالتالي عنصر الطاقة وانعدمت بالتالي قابلية التلقي للتنفيذ، وما قيمة القدرات الروحية والفكرية والجسدية إذا لم يمكن الاستفادة منها وضبطها وتوجيهها، إنها قد تكون أحياناً قُدُرات مخربة ومعوقة.

٢ ـ الاستعداد الإبداعي :

ومن الصفات التي يجب أن تتوافر فيمن يرشح لمهمة التغيير صفة الإبداع، أي صفة العطاء والإنتاج، الصفة التي تجعل الشاب المسلم في مجتمعه (طليعياً) وليس (ذيلياً)، نشيطاً متفاعلاً وليس كسولاً خاملاً، الصفة التي تجعله من ذوي المبادرات الذاتية ما دامت هذه المبادرات في إطار المهمات الموكولة إليه، أما الذين لا يتحركون إلا بتكليف وتقريع أو ضغط وتأنيب، فهؤلاء قد لا تكون حاجة الإسلام اليوم إليهم كبيرة، فالحاجة اليوم ملحة إلى من يحملون الإسلام لا إلى من يحملهم الإسلام.

٣ ـ الاستعداد الجهادي :

ومن الصفات التي ترشح الشاب المسلم لمهمة التغيير الإسلامي هي الصفة الجهادية، أي الاستعداد النفسي للجهاد وما يفرضه من تضحية بالنفس والمال وبكل شيء، الصفة الجهادية التي تجعل لدى الشاب المسلم الاستعداد الكامل لوفاء البيعة مع الله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقْتلون ويُقْتلون، وعْداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾[1].

هذه أبرز الصفات التي يجب أن تتوافر فيمن يُرشح من الشباب المسلم لمهمة التغيير، وعن هذه الصفات الرئيسية تتوالد سائر الصفات التفصيلية الأخرى.

ملامح التشوه في الشخصية الإسلامية الحديثة :

إن إعداد الشباب المسلم لمواجهة التحدي وإحداث التغيير

---

(١) سورة التوبة : آية ١١١.

الإسلامي المنشود يجب أن تُوفر له كل الضمانات التي تجعله قادراً على تكوين الشخصية الإسلامية تكويناً صحيحاً غير منقوص أو مشوه أو ممسوخ.

لقد أصيبت الشخصية الإسلامية الحديثة بكثير من التشوه مما أدى إلى تعطيل دورها الأصيل أو استنزافها في قضايا جانبية لا طائل تحتها، ومما أفقدها القدرة على المضي في الطريق حتى النهاية أو ما شابه ذلك من النتائج السيئة.

إن مناهج الإعداد يجب أن تلحظ الثغرات التالية التي يمكن أن تتسبب في تشويه شخصية الشباب المسلم :

أ) المثالية النظرية والعقم الحركي :

فالشباب المسلم يجب أن يربى بالممارسة والقدوة، إلى جانب النظرية والفكرة ليكون شباباً معطاء قادراً على ترجمة أفكاره ونظرياته إلى سلوك بشري وإنتاج حركي، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل).

ب) التطرف والتشنج :

وظاهرة التطرف والتشنج لدى فئات من الشباب المسلم غدت من أخطر الظواهر على الإسلام والعمل الإسلامي، فهي من جهة تدمر أصحابها، ومن جهة أخرى يمكن أن تصبح سلاحاً بيد أعداء الإسلام يصيبون الإسلام به مقتلاً، فكم من ضحايا وتضحيات قدمت ـ بسبب هذه الآفة ـ من غير طائل وبدون ثمن، بل كم من جبهات ومعارك فُتحت على الإسلام وعلى العاملين فيه من غير توقع أو حسبان بسبب تطرف البعض وتشنجهم.

جـ) غلبة الجزئية على الكلية :

وهنالك فريق من الشباب المسلم هنا وفريق هناك استهوتهم جوانب معينة من الإسلام فتشبث بها دون غيرها وغدت محور حياته كلها، فنشأ عن ذلك فرق مهووسة من الشباب، فهؤلاء مهووسون بالعطر والتعطر،

وأولئك باللحية والمسبحة والزي، وغيرهم بوسائل العنف والقوة، وسواهم بالترهب والتصوف، وآخرون بالفقه والتفقه، وكل يدعي الحق وأن ما عداه الباطل.

د) غلبة الشخص على الشرع :

ومن مظاهر التشوه، الانقياد الشخصاني والمبالغة في التبعية البشرية، وهذا ما أدى إلى نشوء محاور بين الشباب المسلم سببها الرئيسي عدم خلوص الولاء لله، والتحزب والتعصب للأفراد والأسماء وليس لما شرع الله، فما أحوجنا في نطاق الإعداد إلى ترسيخ قاعدة : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، وقاعدة : (نحن نعرف الخلق بالحق ولا نعرف الحق بالخلق).

هـ) غلبة الهوى على الحق :

وهناك مظهر آخر من مظاهر التشوه تكون تبعية الإنسان فيه لهواه ومزاجه ورأيه، ولو كان مخالفاً في ذلك رأي قيادته إن كان عضواً في تنظيم، أو رأي شيخه إن كان مريداً، والتربية الإسلامية يجب أن تستأصل النزعة الفردية والمزاجية ليحل محلها الولاء المطلق لله، (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم).

و) بين الرضوخ والطموح :

ومن مظاهر تشوه الشخصية الإسلامية الحديثة قبولها بالواقع والركون إليه، وهذا ما يجعل النتائج والمحصلات مرتهنة لما هو كائن وليس لما يجب أن يكون. إن الفرق بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون كالفرق بين الحق والباطل، وهو المقصود بالتغيير، والشباب المسلم يجب أن يربى على الطموح بالحق والاستعلاء على الباطل وعدم الارتهان للواقع ليتمكن من تحقيق التغيير الإسلامي المنشود.

أطر إعداد الشباب المسلم :

بما أنه قد ثبت لدينا أن مهمة الشباب المسلم مهمة تغييرية، مهمة صعبة وشاقة، فقد أصبح من البديهي أن يكون إعدادهم متكافئاً مع ضخامة

العبء وثقل المسئولية وخطورة المهمة التي سيضطلعون بها، ومن هنا كان لا بد أولاً وقبل كل شيء من تحديد الأُطر الرئيسية المبدئية لهذا الإعداد قبل الدخول في تفصيلاته وتفريعاته وجزئياته :

١) أن يكون إعداداً متكاملاً :

بمعنى أن يتناول جوانب الإعداد كلها، الفكرية والنفسية والحركية، فلا يكون إعداداً فكرياً نظرياً فحسب، أو روحياً تربوياً فقط، أو حركياً سياسياً وحده، وإنما تكون العناية بجوانب الشخصية كلها لتكون شخصية إسلامية متكاملة قادرة على الصمود والتحدي والاستمرار وتحقيق الهدف من وجودها.

٢) أن يكون إعداداً متوازناً :

بمعنى أن يكون الاهتمام بإعداد كل جانب من الجوانب بالقدر المطلوب من غير زيادة أو نقصان.

ذلك أن زيادة الاهتمام بأي جانب سيكون حتماً على حساب الاهتمام بالجوانب الأخرى، وسيؤدي هذا ـ لا محالة ـ إلى تشوه في الشخصية واختلاف في توازنها.

٣) أن يكون إعداداً ميدانياً :

بمعنى أن لا يقتصر على النظريات وإنما يعتمد على أسلوب ونهج تطبيقي في عملية التكوين والإعداد، وعلى توفير القدوة الحسنة المتحركة... إن هذا يعني أن يكون الإعداد من خلال الحركة والعمل، وليس فقط من خلال الموعظة والدرس.

إن تحقيق هذه الأُطر الرئيسية ـ المبدئية في عملية الإعداد ـ من شأنها أن تساعد على إيجاد الشخصية السوية غير المعقدة وغير المشوهة وغير المتطرفة وغير المترخصة.

هذه الشخصية ـ بهذه الصفة ـ هي التي يحتاج إليها الإسلام اليوم في عملية التغيير.

ملامح منهج لإعداد الشباب المسلم :

يجب أن يتضمن المنهج ثلاثة مناح للإعداد :

١) الإعداد الفكــري.
٢) الإعداد النفسي.
٣) الإعداد الحركي.

١) الإعداد الفكري :

ونعني به تكوين العقلية الإسلامية لدى الشباب المسلم، فما هي الثقافة اللازمة لذلك ؟.

إن الشاب المسلم، حتى يتمكن من النهوض بواجبه على أكمل وجه في مهمة التغيير، يحتاج إلى بناء فكري كامل.

أ) الثقافة الإسلاميــة :

فهو يجب أن يتسلح أولاً بالثقافة الإسلامية، وأن تكون هذه الثقافة أصيلة ومركزة وثابتة الأصول والقواعد، فهو بحاجة إليها ـ ابتداء ـ ليقيم حياته على أساسها، كما أنه بحاجة إليها كذلك لاجتذاب الآخرين إليها، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ولتكوين الثقافة الإسلامية لا بد من دراسة العلوم التالية :

القرآن وتفسيره ـ السنة النبوية وعلومها ـ السيرة النبوية ـ حياة الصحابة ـ الفقه وأصوله ـ علم العقيدة ـ علم التزكية ـ النظم الإسلامية. (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين).

ب) الثقافـة العامـة :

والشاب المسلم يحتاج، إلى جانب تسلحه بالثقافة الإسلامية، أن يطلع على الثقافات والعلوم والأفكار الأخرى ليتمكن من نقضها ومواجهة ما كان منحرفاً منها. وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : (من تعلم لغة قوم أمِنَ مكرهم)، (خذوا الحكمة من أي وعاء خرجت).

ولتكوين ثقافة عامة لا بد من دراسة ما يلي :

الثقافة الإنسانية ـ الثقافة العلمية ـ الثقافة الواقعية ـ الثقافة التاريخية.

٢) الإعـداد النفسي :

ونعني به تكوين النفسية الإسلامية لدى الشباب المسلم، والنفسية الإسلامية هي النفسية التي تقوم بتصريف الغرائز والميول وفق أحكام الشرع، النفسية التي تستفتي الإسلام وتلتزم بما يفتي به، فلا يتحكم بها هوى أو تقودها شهوة أو تستبد بها مصلحة.

إن الإعداد النفسي هو بمثابة التجسيد الحي للإعداد الفكري، والترجمة العملية للعقلية الإسلامية.

إن الإعداد النفسي هو ترويض النفس على التقيد بشرعية إشباع الميول والرغبات، بفهم أحكام الشرع لحدود الإشباع أولاً، ثم بترويض النفس بالتكاليف العبادية والتربوية.

٣) الإعـداد الحركي :

ونعني به إعداد الشباب المسلم وتدريبه على كل ما يتعلق ويتصل بالجانب الحركي الإسلامي والمعادي للإسلام، وما يتعلق ببيئة الدعـوة وتركيبها ومشكلاتها، وبدراسة أفضل الوسائل العلمية الحديثة التي يمكن اعتمادها في هذا النطاق.

إن الإعداد الحركي أشبه (بالمناورات) التي تمارس الجيوشُ من خلالها اختباراتها العسكرية قبل أن تخوض المعارك الحقيقية الحية، وما لم يمارس الجيش هذا النوع من التدريب فسيخسر الحرب لا محالة.

وميدان العمل الإسلامي هو في الحقيقة ميدان معركة وجهاد وإن اختلفت الأسلحة، والشباب في ميدان الدعوة كالجنديّ في ميدان المعركة لا بد له من إعداد ميداني يمارس من خلاله تطبيق ما تعلّم من نظريات قبل أن ينزل إلى ميدان التحدي الأكبر وساحة المواجهة الحقيقية.

فكم من علماء مختصين في شتى مجالات العلوم بقيت علومهم

حبيسة رؤوسهم وبقي مجال الانتفاع بهم ضيقاً حرجاً، وذلك لنقص في خبراتهم العملية أو لتهيّبهم الأعمال الميدانية.

ومن فقرات الإعداد الحركي : دراسة الواقع الحركي الإسلامي، ودراسة الواقع الحركي الجاهلي، ودراسة البيئة والمجتمع، ودراسة المنطلقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تمثل آمال الجماهير، ودراسة العلوم التجريبية الاختبارية ـ وأخيراً تدريب الشباب المسلم على ما يلي :

- تدريبهم على طاعة الله وعبادته : بالصلاة الجماعية والصوم الجماعي والحج الجماعي وحضور مجالس العلم والذكر، وتذكّر الموت، وتحري السنة، وتوثيق الصلة بكتاب الله قراءة وحفظاً وتفسيراً والتزاماً، وبسنة الرسول ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين من بعده.
- تدريبهم على أساليب الدعوة : كأسلوب التوجيه والإرشاد، وأسلوب المناقشة الموضوعية، وأسلوب الترغيب والترهيب والأسلوب القصصي.
- تدريبهم على حمل المشاق، والتعرض للصعاب، ومواجهة الأخطار ؛ لتقوى عزيمتهم ويشتد عودهم ويعظم صبرهم وتصلب إرادتهم فلا يكونوا ممن عناهم الشاعر بقوله :

خطرات النسيم تجرح خديه ولِبْسُ الحرير يدمي بنانه

* * *

وأخيراً فإن مهمة الشباب المسلم المعاصر مهمة شاقة صعبة، وطريقها محفوفة بالمهالك، إن مهمة إقامة الإسلام في واقع حياة الناس تحتاج إلى جيل قرآني جديد على غرار الجيل القرآني الأول، (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله).

دور الشباب في بناء الأمة والحضارة وكيف نعنى به

للدكتور عبد المجيد العبد
مدير المركز القومي للتدريب والاستخدام

بسم الله الرحمن الرحيم

يمثل الشباب في أي مجتمع القدرة الكامنة على النمو والتطوير والطاقة المحركة التي لو أطلقت لأصاب المجتمع خيراً كثيراً، نتيجة لاستيعاب منجزات العلم والتكنولوجيا والتغلب على تحديات العصر، كما تتوقف حيوية المجتمع وقدرته على إحداث التغيير على مدى ما بشبابه من قوة وأمانة، واستعداده لتحمل مسئولياته في إحداث التطوير.

وعادة ما يمثل الشباب النسبة الغالبة من السكان في المجتمعات النامية، الأمر الذي يقتضي مزيداً من الاهتمام به والاستثمار فيه، حيث يعتمد نمو خبرات هذه المجتمعات وملاحقتها لمطالب التطور، وتفوق هيكل عملها وجودته، على مدى جدوى عنصر الشباب فيها. ولهذا السبب نفسه نجد أن سرعان ما ينهار أي مجتمع وتضيع قيمه، إذا ما وهن شبابه، وأغلقت دونه نوافذ العلم والخبرة، فتتفرق به السبل وتنطفئ جذوة معنوياته. بينما تتقدم المجتمعات الأخرى وتسبق غيرها معتمدة على فارق الزمن في إطلاق هذه الطاقات لأقصى ما تستطيع أو ما تقدر عليه.

لذلك كانت إعانة الشباب في خدمة أمته وتطويع قدراته لدفع عجلة تقدم مجتمعه مسئولية كبرى تتلاقى مع ضخامة دور الشباب في بناء الأمة والحضارة، الأمر الذي يتطلب الربط بينهما لأنهما وجهي عملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما.

وإذا ما رجعنا إلى الماضي، وفي أي عصر من عصور النهضة والتطور،

نرى الأمثلة المؤيدة لتحدي الشباب في مختلف المجتمعات بالقدوة الصالحة والسعي وراء إصرارها وإنجازاتها وقيادتها، تماماً كما هو في العمل على محاكاتها. ومتى كان ذلك صحيحاً فيما أرشد إليه التاريخ فإنه لا زال قائماً في كل عصر من العصور التالية، متوقفاً الأمر كله على رسم معالم الطريق لعطاء الشباب وتفوقه، ومعززاً لمدى حرص مجتمعه على إثارة طاقاته وحيويته. وإذا ما قسنا على المجتمعات الإسلامية وعلى قيم الإسلام ومتطلباته في شباب الأمة فإننا قد نجد الكثير من المآخذ التي ينبغي أن يقابلها الكثير من أبواب الإصلاح، والتي لا يجوز أن تترك وشأنها لتأتي بعض الأمثلة الطيبة من الشباب عفوية في حالات فردية قد تنجح في ظل أي نظام اجتماعي أو سياسي، بل يتعين أن تخضع لخطة شاملة تستهدف العمل الجماعي على كافة مستويات المجتمع وعلى طول محاور تقدم الإنسان.

ويناقش البحث هذه المشكلة وفقاً للمراحل التالية :

أولاً : معالم مجتمع الشباب قياساً على ما هو عليه في المجتمع العربي والمجتمع الإسلامي، ذكوراً وإناثاً، كَمّاً ونوعاً، خدمات وانتاجاً، وسيخضع ذلك للأرقام المتاحة والمقارنات المتيسرة مع بعض الدول المتقدمة، وسيصاحب ذلك استخلاص أوجه الضعف ومؤشرات التخلف وردها إلى أسبابها.

ثانياً : ما الذي يمكن عمله بالنسبة لمحاور الإنسان الثلاثة : العقل والجسم والفؤاد، وعلى شتى مستويات المسئولية بين الأسرة، والمدرسة، والمجتمع الصغير، والمجتمع الكبير، والمجتمع الإسلامي بأسره.

ثالثاً : وأخيراً، وحتى لا يأتي البحث في صورة أكاديمية غير مرتبط بخطة تنفيذية، فستتعرض الورقة لدور المركز القومي للتدريب والاستخدام (اقرأ)، وهو أحد المشروعات السعودية المصرية التي تستهدف جانباً رئيسياً من خطة إعداد الشباب، للوقوف على أهداف المركز ونشاطه وما أصابه، وما يمكن أن يحققه العمل الجماعي من مساندة على المستوى الإسلامي. وإن كان هذا المشروع لا زال في سنواته الأولى إلا أنه ينير الطريق إلى بعض ما

قد ينبغي عمله، وما يمكن أن يقاس عليه ونسعى إليه نحو إنشاء بنك إسلامي للثروة البشرية.

أولاً : معالم مجتمع الشبـاب

١) الشبـاب والسكـان :

يوضح الجدول رقم (١) نسب الشباب إلى السكان، والعمر الوسيط للسكان في بعض الدول العربية والإسلامية، مقارنة ببعض الدول الغربية. وكلما ارتفعت نسبة الشباب في سن العمل في مجتمع ما دل ذلك على ارتفاع قدرته على الانتاج، كذلك لو تضاءلت هذه النسبة وارتفعت بالتالي نسب السكان في الأعمار الصغيرة أو بين المسنين من الأعمار الكبيرة كلما انخفضت قدرته على الانتاج. وتشترك دول العالم الإسلامي، شأنها في ذلك شأن الدول النامية، في ارتفاع نسب السكان في سن التعليم ٥ ــ ٢٥ حيث تتراوح بين ٤٢٪ و ٤٦٪ من إجمالي السكان في مقابل ٢٥٪ ــ ٣٠٪ في الدول المتقدمة، وهو ما يلقي عبئاً على هذه المجتمعات ويطالبها بالمزيد من الإنفاق على مجالات الخدمات لهذا القطاع الكبير من السكان الذي لا يزال معالاً من الآخرين، لا ينتج ولا يعطي عائداً لمجتمعه.

وتطالب حكمة التطور نحو الأخذ بأنظمة أخرى في التعليم والتدريب تجمع بين المدرسة والحياة لتستفيد من هذه الفترة من عمر الطفولة والشباب ــ التي قد تستغرق ثلث عمر الإنسان في حياة العمل ــ لتستثمر في الإسهام في أعمال الإنتاج والخدمات، تعويداً للشباب على العمل المنتج من الصغر وتشجيعاً لهم على تحمل مسئوليات الرجال، كما تغرس الإحساس بمشكلات المجتمع وتنمي المفاهيم الصحيحة حول أهمية العمل الفني واحترامه، ولعل ذلك هو نفس منطق مجتمع النحل الذي تشارك فيه الخلية بكافة شغالاتها منذ الصغر حتى نهاية أعمارها على طول حياة لا تستغرق إلا حوالي ثمانية أسابيع.

وفي حين تتضاءل نسب الشباب في الأعمال المنتجة في الدول الإسلامية (٢٥ ـ ٤٠ سنة) إلى حوالي ١٦٪ من إجمالي السكان ـ باستثناء الدول التي تزداد فيها معدلات الهجرة إليها حيث ترتفع هذه النسبة بسبب الوافدين إليها من الذكور ـ نجد أن نسبة الشباب في هذه السن في المجتمعات المتقدمة تصل إلى ٢١٪، مما يؤكد قدرة هذه المجتمعات على مزيد من الإنتاج بما يقابل احتياجات المجتمع ويحقق فائضاً يضاف إلى ثروته الاقتصادية ودخله القومي، الأمر الذي ينبغي للمجتمعات الإسلامية أن تعوضه نتيجة إخصابها ووفرة شبابها على أن تحقق ذلك من سن مبكرة.

ومن ناحية أخرى يقع العمر الوسيط للسكان في الدول الإسلامية فيما هو دون ١٧ سنة وبما لا يزيد عن ١٩ سنة، في حين أن هذا العمر الوسيط يرتفع في الدول المتقدمة ليصل إلى ٣٦ سنة، مؤيداً نفس الظاهرة ومؤكداً أهمية توفير المزيد من العناية الصحية والتعليمية للأطفال والشباب قبل هذه السن، والتي تمثل استثماراً مرتفع العائد يرتد إلى المجتمع أضعافاً مضاعفة في سنوات العمل والإنتاج، وهو ما يشير إليه الجدول رقم (٢) عن مؤشرات الوفيات وتوقع الحياة.

ولا يصح أن تقف العناية عند هذه المرحلة بل ينبغي على الدول الإسلامية أن تواصل اهتمامها بشبابها بعد السن الوسيط الذي يقع في مدخل حياة العمل، حياة الإنتاج والعائد، والتحول من صفة المعال إلى العائل. ونظراً لأنها تمتد إلى أكثر من ثلاثة أضعاف حياته السابقة في الطفولة والدراسة، فلا بد أيضاً من مواصلة الاهتمام بها نحو مزيد من العمل المنتج، والتدريب المنظم، والرعاية الموجهة تأكيداً لاستمرار جذوة الحياة في الإنسان من مهده إلى كبره، وأنها ليست قاصرة فقط على مرحلة تعليمه الأولى وحدها، وتتشابه الحكمة في ذلك أيضاً مع ما يجري عليه الحال في مجتمع النحل الذي يدرب على مدى حياته القصيرة في أكثر من ٤ تخصصات، كما تأخذ به الآن المجتمعات المتقدمة التي تزكي الجمع المستمر بين فترات الدراسة والعمل على طول حياة الإنسان.

٢) القــوى العاملــة :

أ) نسبـة الإعالــة :

يقع السكان ذوي النشاط الاقتصادي ممن يضيفون لاحتمالات عائد المجتمع ويضطلعون بإنتاج السلع والخدمات فيما بين ١٥ ـ ٦٤ سنة، ويوضح الجدول رقم (٣) أنهم يشكلون نسبة قدرها ٣٣,٥٪، أي أن كل مائة شخص من السكان يقابلهم ٣٣,٥ شخص داخل سوق العمل، وهو أمر يتوقف بالضرورة على نسب الأطفال والشيوخ من طرفي العمر، بينما نجد هذا المعدل يصل إلى ٤٥,٦٪ في الدول الغربية، الأمر الذي يعني إضافة التزام أكبر على الشباب المسلم الذي يضطر إلى إعالة فردين علاوة على نفسه، أي بنسبة إعالة قدرها ١ : ٣ بينما هي لا تزيد عن ١ : ١,٢ في الدول المتقدمة، وتخفيفاً لهذا العبء ينبغي تشجيع المرأة والشباب من سن مبكرة في المشاركة في العمل طالما جاء ذلك معززاً للدراسة والتقدم.

ب) قـوة العمـل النسائيـة :

في حين تساهم المرأة المسلمة بجانب ضئيل في قوة العمل لا يتجاوز ١١,٣ ترتفع هذه النسبة إلى ٣٥,٤٪ في الدولة الغربية، كما تهبط هذه النسبة في بلاد إسلامية كثيرة إلى ما لا يزيد عن ٤٪ من إجمالي قوة عملها (جدول رقم ٣).

ويرجع انخفاض نسبة مشاركة المرأة في الدول الإسلامية إلى عدة عوامل، أهمها ما توارثته من تقاليد وعادات اجتماعية حالت دون نزولها إلى سوق العمل واشتغالها بما يتناسب وقدراتها، وإن اختلفت نسبة عمالة المرأة في بعض الدول عن غيرها، فلا زالت هذه القاعدة صحيحة، وإنما يرجع الاختلاف إلى طرق التعريف والحساب لقوة العمل النسائية.

وليس من المعقول، وتقضي تعاليم الإسلام بأن الله لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى رغم أن سعيهما لشتى، ومجالات عملهما قد يختلفان، ألّا تسهم المرأة بقدراتها التي تتفوق في بعض الأحيان على الرجل فيما حباها الله من صفات، وفي عصر ضاقت فيه أبعاد الوقت والمسافة، ودخلت الدائرة الالكترونية معظم البيوت، وأصبح تأثيرها كبيراً في مجالات

الترفيه، والأولى تسخيرها لمجالات العلم والإنتاج. وليس من المنطق في شيء أن تظل المرأة محجوبة العائد، بعيدة عن المشاركة في بناء المجتمع والإسهام في زيادة دخل الأسرة، غير قادرة على تأدية رسالتها كمربية للأجيال وصانعة للرجال، لأنه لا تستقيم الأوضاع السائدة، رغم وجودها في المنزل، مع هذا الانتشار الواسع للأمية، وانخفاض مستوى الصحة العامة، وعدم الرغبة في مواصلة التعليم، وكلها أمور كان يمكن أن تستفيد من جهد الأم لتدفع بأبنائها إلى المجالات الصحيحة.

وغني عن البيان أن حوالي ٥٠٪ من سكان أي مجتمع يتشكل من الإناث، فما لم يشاركن في مسئولياتهن تجاه مجتمعهن ويضطلعن بما يقدرن عليه فستظل نسبة الإعالة في المجتمعات الإسلامية مرتفعة بالمقارنة مع غيرها من الدول المتقدمة، على ألّا يعني ذلك تفريط في كرامة المرأة أو امتهان لأخلاق المجتمع، بل تكامل لكافة المقومات، وإطلاق لشتى القدرات.

٣) توزيع قوة العمل حسب النشاط الاقتصادي :

يبين الجدول رقم (٤) توزيع قوة العمل ذكوراً وإناثاً على الأنشطة الاقتصادية الرئيسية : الزراعة والصناعة والخدمات.

وتؤكد الاحصاءات ارتفاع النسبة الغالبة في قوة العمل بين قطاعي الزراعة والخدمات، وانخفاضها في مجال الصناعة، رغم أن الاتجاه الحديث في الدول المتقدمة هو انخفاض نسبة العمالة في مجال الزراعة، وارتفاعها في كل من الصناعة والخدمات، كما توضحه أرقام الجدول.

لذلك لا تعني المقارنة وجود احتياطيات كبيرة في قوة العمل الزراعية فحسب، بحيث يمكن، باستخدام الطرق الحديثة رفع إنتاجيتها وتحويل فائضها إلى المجالات الأخرى، ولكنها تعني أيضاً انخفاض نوعية الخدمات بسبب كثرة القائمين عليها وهبوط معدلات كفاءتها.

كما تؤكد هذه الظاهرة إغراق الدول الإسلامية في استيراد السلع واستهلاكها، بدلاً من قيامها فيما بينها أو بالنسبة لبقية دول العالم كطاقة منتجة تضيف سلعاً ومنتجات شتى بجانب ما تستهلكه، ومن ثم أصبحت

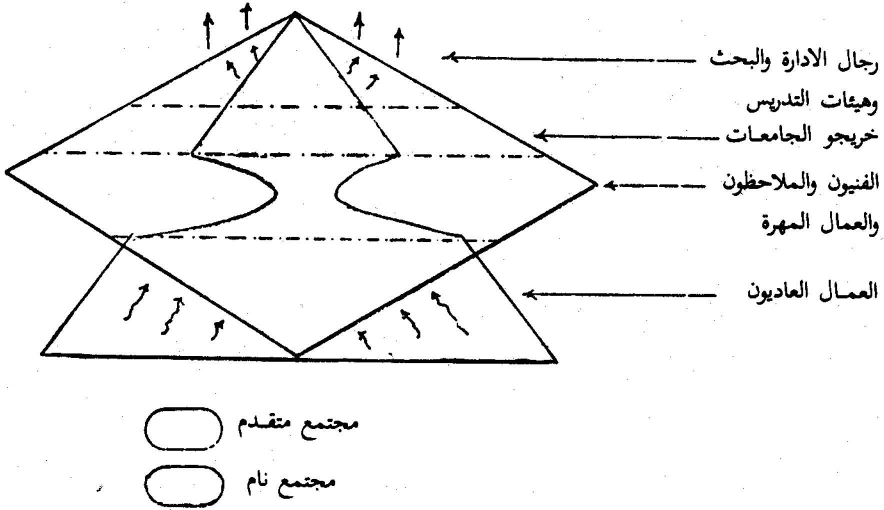
عالة على المجتمعات الصناعية، معتمدة في غذائها وملبسها وخدماتها على ما تستورده من الآخرين وما يتحكم فيه غيرها.

٤) التركيب المهني للقوة العاملة :

يوصف التركيب المهني وهيكل العمالة في الدول الإسلامية باتخاذه شكل هرم تتسع قاعدته أمام كثرة قوة العمالة العادية والمهارة المحدودة المترتبة على انتشار الأمية، بينما تضيق بعد ذلك في اختناق كبير حلقات العمل الوسطى لقلة الاهتمام بالإعداد الفني والتدريب المهني، وتشكل عجزاً خطيراً في مستوى العمال المهرة ولملاحظين والفنيين، ثم يتسع الهرم ثانية أمام زيادة حصيلة الخريجين من الدراسات الأكاديمية والجامعية والعالية في مجالات لا تتناسب مع الموجود من المهارات بين بقية المشتغلين على طول سلم العمل.

في حين يتشكل هيكل العمالة في الدول المتقدمة على صورة معين تضمر قاعدته ويمتد وسطه بعد أن أخذ شكل هرمين متلاصقين ومتضادين يعتمدان على قاعدة مشتركة تشكل مركز القوة في المجتمعات المتقدمة، وهي مركز ضعف المجتمعات الإسلامية، حيث تزداد نسبة المشتغلين بالصناعات التحويلية، وتقل نسبة العمالة العادية محدودة المهارة، ثم تنبعج قمته عندما يرتفع من جهة أخرى حجم المشتغلين بالمهن العملية والفنية والمديرين والأعمال الإدارية والتنفيذية كما يوضحها الرسم المرفق.

هيكل قوة العمل في الدول النامية
والدول المتقدمة



٥) استهلاك الإنسان للطاقة :

يعتبر استهلاك الإنسان لطاقة مؤشراً دالاً على مدى تقدمه وتسخيره للمستحدث من مجالات العلم والتكنولوجيا، حيث يعطي طن واحد من البترول طاقة قدرها ١١,٦ ميجاوات ساعة أي ما يعادل حوالي ٤٦,٦٠٠ قوة بدنية للإنسان، تستجيب لما يطلب إليها دون أية معاناة أو خدمات. ويبين الجدول رقم (٦) البيانات المقارنة لحجم استهلاك الطاقة في الولايات المتحدة وغيرها، الأمر الذي يكشف أن البلدان الإسلامية التي حبا الله، إيران والدول العربية كلها، بفائض من الطاقة البترولية لا تستهلك إلّا قدراً ضئيلاً منها إذا ما قورنت باستهلاك الولايات المتحدة أو دول غرب أوروبا، فبينما تستهلك أمريكا (٢٠٥ مليون نسمة) ثلث الطاقة الإجمالية المتاحة للبشرية، أي ١,٨ بليون طن بترول سنوياً، وبمعدل ٩ طن بترول للفرد سنوياً،

يستهلك العرب والإيرانيون (١٣٥ مليون نسمة) ما يوازي ٦٣ مليون طن بترول سنويا، وهم يفتقدون مصادر الفحم والطاقة الهيدروليكيـة، أي بمعـدل ٠,٤٦٥ طن بترول سنوياً، أي أن استهلاك الإنسان العربي والإيراني للطاقة لا يزيد عن ١ : ٢٠ إذا ما قورن بنظيره الأمريكي، مع مراعاة ظروف اختلاف الجو من حيث احتياجات التدفئة والإضاءة الصناعية.

لذلك فإنه أولى بالمجتمعات العربية، وإيران بصفة خاصة، أن تعيد النظر في سياستها البترولية لتسعى نحو تسخير جزء منها لصالح مجتمعاتها الإسلامية. حيث دل الحساب على أن تصنيع ١٥٪ من فائض البترول العربي والإيراني يمكن أن يخلق فرص عمل منتجة تكفي حوالي ٥٠ مليون فرداً لا يقل دخل كل منهم في المتوسط عن خمسة آلاف دولار، وهو دخل أعلى مما يتمتع به الفرد في مجتمع دبي أو ليبيا، بشرط أن يجد الأسواق المناسبة بين المجتمعات الإسلامية نفسها لكسر الاحتكار السائد، ولن يتأتى ذلك ما لم تغير الدول الإسلامية من سياستها نحو تنمية ثرواتها البشرية واستغلال مصادرها الطبيعية بقدرات أبنائها. وحتى يتحول طغيان الأمية السائد في هذه المجتمعات إلى علم متجدد، ومن مجرد الإقبال على التعليم العام والجامعي إلى تفوق في المجالات الفنية والمهنية، ومن تركيز مراحل التعليم في السنوات الأولى من العمر إلى انطلاق لقدرات البشر على طول سلم الحياة والعمل، وإلى اهتمام الحكومات ورجال الأعمال إلى توازن المهارات البشرية مع مطالب الإنتاج، بدلاً من تحيزهم لسوق الخدمات وحده، والذي لا يعني الكثير بمفرده أمام تحديات العصر.

٦) الدخل القومي ودخل الفرد :

في حين يتفاوت دخل الفرد بين المجتمعات الإسلامية بين ١١٠ دولاراً في الصومال إلى ١٥٤٨٠ دولاراً في الكويت، كما تظهرها بيانات الجدول رقم (٧) أي بنسبة تبلغ ١ إلى ١٥، تضيق هذه التفاوتات في الدول المتقدمة بما لا يزيد عن الضعف كما هو الحال بالنسبة للولايات المتحدة وانجلترا.

ولكن هذه المقارنة لا توحي وحدها بصحة دلالاتها، لأنه رغم أن الكويت والامارات وقطر يزيد دخل الفرد فيها عن نظيره في كل من الولايات

المتحدة وكندا والسويد، فلا يعني ذلك تفوق الدخل القومي في الحالتين، وهو ما يرتبط أساساً بقدرات السكان ومهارات قوة العمل أكثر من ارتباطه بموارد البترول وثروات الدولة الطبيعية ـ الأمر الذي يكشف عن أن هناك منطلقاً كبيراً أمام المجتمعات الإسلامية، لا سيما الغنية بمواردها الطبيعية، عندما تسخر هذه الموارد بواسطة شبابها فتتحول بعقولهم وسواعدهم إلى ثروة مستمرة النماء بدلاً من أن يستغلها غير أصحابها بينما يعيش سكانها كَلّاً عليها.

٧) الأميـــة :

ترشد الإحصاءات الموضحة في الجدول رقم (٨) إلى ارتفاع نسب الأمية بين سكان العالم الإسلامي من الذكور والإناث ابتداء من سن التعليم (١٠ سنوات فأكثر)، وللشباب في سن التعليم (١٠ ـ ٢٩) بالمقارنة إلى نظائرها في بعض الدول المتقدمة.

ورغم أن البيانات تشير إل تحسن مستويات الأمية بازدياد الإنفاق على التعليم الابتدائي إلا أن أي مجتمع يفقد حصيلة سكانه وحجم قوة عمله متى كانت محدودة القراءة والكتابة في عالم يقاس فيه التقدم بانفجار المعارف الفنية والتكنولوجية وتبديلها وتغييرها كل عشر سنوات، الأمر الذي لا يعطي للكثرة الأمية أي وزن يعتد به في عالم اليوم. وتشكل هذه العقبة سداً منيعاً يصعب تخطيه طالما عجزت هذه المجتمعـات عن إدراك مسئولياتها الأساسية في سنوات التعليم الأولى للطفولة والشباب لا سيما بالنسبة للبنات أمهات المستقبل اللائي تزداد فيهن نسبة الأمية.

ثانياً : ماذا يمكن عملـه ؟

١) على محاور الإنسان الثلاثة :

لا يتقدم الإنسان على رجليه بل على محاور ثلاثة هي : عقله وجسمه وفؤاده، حيث يعقد لواء التفوق أساساً على مدى ما أصابه الإنسان في ثبات فؤاده وسلامة قلبه، وتعتبر محصلة هذه المحاولات الثلاثة عاكسة لصفات النفس البشرية خيراً وشراً، ضراً ونفعاً.

ويمثل **العقل** أيسر المحاور إعداداً وتوجيهاً، وهو يحوي من الخلايا الحساسة ما يفوق آلاف المرات أكبر العقول الالكترونية الحديثة، ولكننا مع ذلك لم ننجح في برمجته لفشل الإنسان ذاته ومدرسته ومجتمعه في هذه البرمجة.

وتقدر هذه الخلايا بحوالي عشرة بلايين خلية، بينما تحوي العقول الالكترونية حوالي نصف مليون مركز حساب، ويزداد العقل مضاءاً وذكاءاً بالعلم والممارسة، كما تنمو عضلات الجسم بالحركة والعمل، لذلك ينبغي أن تتصل حياة الدراسة والعمل وتستمر على طول حياة الإنسان مؤكدة إكسابه المزيد من العلم والخبرة والمهارة.

وفيما مضى نجح المصريون القدماء في تلقين صناع آمون الكثير من الخبرات أثناء نومهم، وهو ما بدأ يفكر فيه العالم المتقدم بعد الحرب العالمية الثانية، انتفاعاً من وقت النوم الذي يصل إلى أكثر من ثلث عمر الإنسان.

أما **الجسم** فهو الإطار الشامل الذي يضم العقل والفؤاد، وكلما كان هذا الإطار صحيحاً سليماً كلما زادت خلايا العقل طاقة وقوة، وسكنت النفس وارتاحت في حياتها. ومع ذلك فهناك من الأجسام الهزيلة التي تحوي قوة متجددة من صفاء النفس ورجاحة العقل، ويعتبر ذلك من شواذ القاعدة التي تؤكد سلامتها.

ويشكل الجسم الجانب المادي من حياة الإنسان والذي لا يختلف في إمداده بعناصر الحياة إلا بما لا يتجاوز من حوالي ١٦٠٠ : ٣٢٠٠ سعرة حرارية أي ضعف ما يحتاجه الشبع بالمقارنة بالجوع. وكلاهما حالتان من الإفراط والتفريط ينبغي أن نبتعد عنهما ونلجأ إلى ما بين ذلك لتذليل مشكلة سوء التغذية التي يعاني منها المجتمع الإسلامي. انظر الجدول رقم (٩).

ويضم الجسم تلك الحواس ذات التأثير المباشر على تحصيل العلم واكتساب المهارات، حيث كان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه

مسئولاً، وجميعها تمثل المكونات اللينة والمعنوية التي تنمي العقل وتدفع الإنسان إلى التقدم كلما شعر بتحقيقه مزيداً من النجاح.

أما محور **الفؤاد** فهو الجانب الصعب في محصلة النفس البشرية وليس هناك من المقاييس المتداولة ما يكشف عن قوة السلوك ومتانة الأخلاق كما هو الحال في المقارنات الإحصائية عن المرأة والرجل والنشاط الاقتصادي ومستويات التعليم.

وسيظل الفؤاد، الذي تدفعه الكلمة الطيبة والأصل الثابت، العنصر المرجح في حياة الإنسان ورقيه، أخلاقاً وسلوكاً، وقوة وأمانة. ولكنه للأسف ليس هناك مخططات واضحة حتى في العالم المتقدم ترشد عن هذه البرامج، لأنهم يعيشون حياتهم بقوة دفع المدنية والتي تحوي من معاول الهدم والظلم كما فيها من عوامل الرقي والتفوق. وليس أمام العالم الإسلامي لاستعادة قدوته إلا تطويع الحاضر والمستقبل بما أرشد إليه التراث.

ولا يتميز المؤمن القوي عن المؤمن الضعيف بمدى قدرته على الإنفاق وإخراج الزكاة، بل بمحصلة تقدمه على المحاور الثلاثة في سبيل الخير، وحيث يتفوق من يكتب بالقلم على الأمي نتيجة استخدام قدرتي العقل واليد وانطلاقهما إلى ما بعد ذلك، كما يتميز العامل القوي الأمين على ما دونه أمانة مهما بلغ من قوة بحسن سلوكه وإخلاصه في عمله، ويتفوق ولي الأمر القادر علماً وسلوكاً، ومهارة وخبرة، وقوة وأمانة، على ما دونه مما لا يرقى إلى هذه المستويات، وعندئذ يكون ضرره أكثر من نفعه طالما لم يُعَدّ ولم يُخْتَرْ وفقاً لهذه المقاييس.

٢) الأســرة والبيت :

يتحمل الوالدان عبء تربية الصغار وتنشئتهم، وبينما يجد الشاب في والده قدوته في عمله ودليل مستقبله، يجد في أمه قبل أبيه المودة والرحمة التي تذكره دائماً بهذا الجانب الرقيق من مسئوليته تجاه زملائه ومجتمعه الصغير والكبير، لأن الأم الصالحة معين لا ينفذ نحو إكساب هذه الصفات وغيرها لأولادها في الصغر وحتى الكبر.

لذلك كان سلوك الوالدين وإعداد البنت والأم حجر الزاوية في

إحداث التغيير، وليس الأمر متوقفاً على الغنى أو الفقر، والعلم أو الجهل، بل هو في تمسك عناصر الأسرة من نعومة أظافر أطفالها إلى شباب أولادها ورجولتهم بالمبادئ والقيم الصالحة والحث عليها في الاتجاه الصحيح، ومن ثم كان من الضروري شغل وقت الفراغ في العمل والدراسة، وبدلاً من استخدام برامج الإذاعة الصوتية والمرئية لمجرد الترفيه بل في تعزيز مجالات البناء والتقدم، لتأكيد دور الأسرة ومسئوليتها في تنشئة البنت والولد والشاب راغبين في التقدم والارتقاء. ولعل ذلك يرتبط بصورة أساسية بمستوى معيشتهم وما يجدوه من فرص اكتساب الرزق. لذلك كان التغلب على مشكلة الفقر مدخلاً أساسياً لمكافحة مشكلتي الجهل والمرض.

٣) المدرسة :

تتحمل المدرسة في مراحلها الأولى مسئولية اكتشاف قدرات المجتمع الكامنة في نشئه وشبابه، وما لم توجه البرامج نحو هذا الغرض، فلا تقتصر على مجرد الاستطالة والاستذكار والاختبار، دون التركيز على ما يغذي محوري الجسم والفؤاد، ويعرض الشباب لشتى الأنشطة والخبرات، فلن يكتشف الإنسان نفسه ويتعرف على المجال الأنسب لتقدمه ومواصلة تعليمه. وبذلك يضيع على المجتمع قدرات عطاء شبابه لانفصال طرفي المسئولية لعدم ارتباط المدرسة بالحياة والكلية بالمصنع والمعهد بالمزرعة، وبذلك يسقط النشء والشباب ضحية هذا التباعد تماماً كما يحدث عندما تنفصل عرى الأسرة فيضيع أولادها ضحية هذا التفكك.

ويعتبر هذا المبدأ صحيحاً على طول سلم الدراسة، فهو الذي يربط مكونات البرامج مع خبرة الحياة، وتفاعل قدرات هيئة التدريس مع تجارب هيئات الإنتاج، وارتباط النظرية مع التطبيق، واحتكاك الطلبة المتفوقين بالموهوبين من العمال والمبتكرين.

هذا ما أيدته خبرة الشرق والغرب، وأولى بالعالم الإسلامي وهو أمة وسط بين الناس، أن يبدأ من حيث انتهى الآخرون ولا يكرر الأخطاء الموجودة.

ويعتبر المربي، والداً كان أم مدرساً أم مديراً، القدوة ذات التأثير

الكبير على الآخرين، وكان من الضروري توخي الحرص التام على اختبارهم وإعدادهم. لذلك فقد تأكد أنّ نجاح المدرسة وتفوق تأثيرها على الشباب مرتبطٌ بخطط تنمية هيئات التدريس وحفزهم علماً وقدرة وسلوكاً.

٤) المنشـــأة :

يعتبر دور المنشأة مكملاً لدور الأسرة ودور المدرسة، وكما يجد الشباب في والديه ومدرسيه الانطباع المؤثر على شخصيته وسلوكه، فإنه يجد في رئيسه ومشرفه في منشأته ما يضيف إلى هذا السلوك حسناً أو سوءاً.

ورغم قصر الوقت الذي يقضيه الفرد في كسب رزقه والقيام بعمله (١٦٪ من حياته)، إلا أنه ذو تأثير بالغ على مشاعره وشخصيته، لأن الإنسان يمضي في منشأته زهرة شبابه حتى نهاية حياة عمله بما يفوق ضعفي حياة طفولته ودراسته، ومعتمداً على كسبه ورزقه من حصيلة عمله، الأمر الذي ينبغي معه أن تهتم المنشآت الاقتصادية وأجهزة الخدمات بثرواتها البشرية بقدر أكثر ـ إن لم يتعادل ـ مع اهتمامها بمواردها المادية، بحيث تعمل على الاستفادة من هذه الطاقات في العمل الفردي أو الجماعي وفي الجانب التنفيذي أو الإداري، بما يزيد من كفاءة الإنتاج وتأدية الخدمات من جانب، ويقوي من روابط المجتمع الصغير ممثلاً في المنشأة من جانب آخر، فيتعلم فيها الفرد على طول محاوره الثلاثة تلك الاضافات الواجبة في حياته العملية.

ففي جانب **السلوك** يمارس الفرد أنماط احترام المواعيد والانتظام في العمل الإخلاص فيه، وتنغمس فيه روح الجماعة والولاء لمنشأته ومجتمعه إلى غير ذلك.

وفي جانب **المعرفة** يتعلم ما يساعده على نمو خبراته وملاحقة تطور العلم والتكنولوجيا تمكيناً له من مواصلة تقدمه، وأن يرتقي في مستويات تعليمه سواء كان أمياً أو متعلماً إلى أقصى ما يستطيع مرتبطاً بتطوير كفاءته، وزيادة رزقه.

وفي جانب **المهارات** يدرب الفرد ويزاول المزيد منها، ليصبح قادراً على القيام بممارسة وظائف متعددة بما يضيف إلى إنتاجية منشأته ويرتفع

بجودة عملها، حيث تتفوق المجتمعات المتقدمة معتمدة على اتساع المهارات التي يقدر عليها الشاب أو العامل.

أما من ناحية **اللياقة** فإنه يقع أيضاً على المنشأة واجب نحو تأكيد سلامة البنية وعدم تعريضها للأمراض المهنية أو إصابات العمل، علاوة على تنميتها بأوجه النشاط خارج المنشأة التي تكسب الصحة وتنمي السلوك.

وليس هناك برنامج واحد يمكن القياس عليه، الأمر الذي ينبغي أن تنطلق معه المنشآت الإسلامية في تنمية ثرواتها البشرية وتتبادل الخبرات النوعية والعامة في هذا المجال الحيوي، وعليها أن تقدر أن تنمية الثروة البشرية تحتاج إلى وقت أطول من مجرد إقامة المباني أو شراء المعدات، وفي حين تبلى الماكينات من أضعف أجزائها، تنهار قوى العمل من أقوى حلقاتها (المدرب ـ المشرف ـ المدير ـ الباحث)، وفي حين تستهلك المعدات بتقادم عهدها يلمع الإنسان في علمه ومهاراته وسلوكه طالما وجد التحدي وسارعت الحوافز الفردية والجماعية إلى دفعه وحثه، وقد دلت الإحصاءات الأخيرة أن أكبر معدل للاستثمار في المنشآت الأمريكية وقد تجاوز ٢٥٠٠٪، كان ولا زال في الإنفاق على التدريب داخل العمل.

٥) المجتمع الكبير :

يتمثل المجتمع الكبير للشباب في مدينته أو إقليمه أو قطره، وكما يعتبر الفرد مسئولاً عن نفسه لتغييرها نحو ما هو أقوم، فإن نظم المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ذات تأثير بالغ على إحداث هذا التغيير، ولعل صفة الجماعة في « تغيير ما بأنفسهم » دليل على صحة هذا المبدأ. تماماً كما يتحمل الجسم إصابة أو فقد أحد أعضائه ولكنه يتأثر تأثيراً بالغاً بتلف أحد أنظمته (الدورة الدموية ـــ الجهاز العصبي) فكأن النظم أشد تأثيراً في الإنسان وفي المجتمع من الأعضاء والأفراد.

وكان أولو الأمر والمسئولون عن الآخرين وواضعو هذه النظم أشد حاجة إلى العناية وأولى بالأسبقية في اختبارهم وإعدادهم عن غيرهم من أفراد المجتمع، وكانت أجهزة الرقابة التي تمثل الصفوة ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أمر لا غنى عنه كمدخل سليم لإرساء قواعد المشورة

والاطمئنان على سلامة إعداد الأمة، طالما كانوا مسئولين عن كل من فيها.

وليس هناك من مؤشر قوي على إعداد الشباب من اطمئنانهم في حياتهم داخل مجتمعهم الكبير نتيجة تبادل احترام الفرد وقيادة وإعلاء كلمة الحق على القوي قبل الضعيف، وتحمل الأفراد وأولي الأمر عسر الحياة، كما ينتفعون في أوقات أخرى من يسرها، كما هو في الحرص على المنفعة العامة دون المساس بالمنفعة الخاصة إلا بقدر موزون.

ويحتاج تشكيل مثل هذا المجتمع، ما يسمح بالكثير من البحث والتطوير وتبادل الرأي أمام افتقار الدول الإسلامية إرساء مبادىء الإسلام وإثراء العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

٦) المجتمع الإسلامي الكبير : (جدول رقم ١٠)

يضم المجتمع الإسلامي الكبير أقواماً شتى من بلدان متجاورة تمتد من شرق آسيا إلى غرب افريقيا، يبلغ عددهم في هذا الجزء من العالم ما لا يقل عن ٦٠٠ مليون مسلمٍ بنسبة لا تقل عن ٩٠,٤٪[١] من سكان هذه المنطقة. بالإضافة إلى مئات الآلاف الأخرى من المسلمين يعيشون في مناطق متفرقة كانت من قبل تزدهر بالإسلام لا سيما الصين والجمهوريات الشرقية من الاتحاد السوفيتي.

بينما يعاني العالم في هذه الآونة من اهتزاز معتقداته الدينية والمعنوية وانتشار الإلحاد، فقد بات من الضروري على المجتمع الإسلامي أن يثبت شخصيته الإسلامية وتفوق رسالته، إن أراد الله له بعثاً وقوة، كما تم في أول عهد الرسالة وما تلاها من طفرات قوية شاء الله أن يدعمها بها.

وليس أحق بالشباب أن يعي هذا الهدف وأن يقدر هذه الثروة البشرية الكبيرة، وما تملكه من أراضٍ شاسعة وموارد مائية ومعدنية ضخمة، وفي موقع جغرافي متصل بين آسيا وأفريقيا لا نظير له في العالم. ولكن يقف في سبيل تحقيق هذا الهدف اختلاف النظم السياسية، وتعدد اللغات، وعدم وضوح

---

(١) بدون الهنـد

الرؤية كاملة في قوة هذا الاتجاه وآثاره على المجتمع الإسلامي وعلى العالم.

ولن تتجاوز خطط إحداث التغيير عمر الشباب متى صلحت النيات وعقد العزم على تنفيذها في أمانة وإخلاص، وسيناقش هنا ثلاثة موضوعات لها تأثير بالغ الأهمية على هذه الخطة.

أ) خطة تثبيت الأفئدة :

يفتقد العالم المتقدم في شرقه وغربه خطة واضحة المعالم لتثبيت الأفئدة بل تركوا الأمر يسير وفقاً لأنماط حياتهم، وما اكتسبوه من صفات ينقلونها بصورة طبيعية إلى الأجيال القادمة، كما يعززوها بالكلمة المكتوبة والأنظمة السياسية ومنظمات وقت الفراغ، وقد أسفر ذلك مع اهتزاز بعض إيمان أهل الكتاب إلى انتشار عدوى أمراض المدنية وسرعة انتقالها إلى العالم أجمع.

لذلك بات على المجتمع الإسلامي أن يرسم خطة شاملة يركن في تفصيلاتها إلى توزيع أبعادها على الدول والمجتمعات القادرة، لكي تنفذها وتجري عليها وترصد النتائج لتصويبها قبل أن تنشر على باقي الدول الإسلامية. ويحتاج الأمر في كل ذلك إلى دراسات تفصيلية تنهل من الماضي وتطور الحاضر وتقود إلى المستقبل وتسعى في كل ذلك إلى تثبيت الفؤاد على مستوى الفرد والأسرة والمدرسة والمجتمع الصغير والكبير. وليس هذا بالأمر الهين، طالما كان لا نظير له في العالم المعاصر، مما يحتاج إلى جهد كبير في جمع المعلومات وإعداد البحوث وتنفيذ البرامج ومتابعة النتائج ونشرها، ولكنه متى صحت النيات فإن بلداً أو بلدين كفيلان بقيادة هذه الخطة ووضعها موضع التنفيذ.

ب) اللغة العربية :

يقف حائلا دون تعارف الشعوب الإسلامية، لاسيما بين شبابها، تعددُ لغاتهم، وعدم اعتبار اللغة العربية الأصيلة، وقد يعزى ذلك إلى تصور قلة العائد الذي تجنيه هذه المجتمعات لو منحت اللغة العربية أولوية أولى أو ثانية على غيرها من اللغات، الأمر الذي يصح أن يكون موضع دراسة تهدف

إلى إنشاء صندوق مشترك يدعم نشر اللغة العربية بين الشعوب الإسلامية ويحث على الحوافز الكفيلة بجذب الاهتمام للإقبال عليها والتمكن منها، ومن بين ما يصح اتخاذه.

١ ـ دراسة القرآن الكريم والسنة باللغة العربية مع إدراك معانيها من واقع التاريخ والحاضر، فليس بعد كتاب الله من سبيل لاعتصام الشعوب الإسلامية بحبل الله.

٢ ـ إعداد برامج التعليم العام والفني عن طريق الدراسة الذاتية باللغة العربية، والتي تتخطى فوارق الزمن والمسافة، ولتيسر فهم الدارسين لها ممن يتحدثون بلغات أجنبية مختلفة.

٣ ـ السعي إلى محو أمية قوى العمل المسلمة عن طريق إكساب المهارات وتلقينها باللغة العربية. (انظر محـو الأمية الإسلامية في نهاية البحث).

٤ ـ إتاحة فرص العمل وتشجيع انتقال المسلمين إلى المجتمعات الجديدة التي يجدون فيها معيشة أفضل ومجالاً مشتركاً لصهر مختلف الأجناس في بوتقة واحدة وأمة واحدة، ويعتبر اختيار هذه المجتمعات الجديدة والتخطيط لتنميتها أمراً حيوياً، يتحدى موارد المال والرجال لترتبط الشعوب بلسان عربي مبين ودين حنيف متين.

جـ) النظـام السياسي :

تختلف الأنظمة السياسية بين الدول الإسلامية اختلافاً بيناً، حتى يكاد أغلبها ينقل من النظم الغربية أو الشرقية أو يتمسك بالأوضاع المتوارثة فيبقى عليها ولا يطورها، بينما لا مجال لإحداث التغيير في الشباب أو غيره إلّا بقدر تفاعل النظام السياسي في صورة يطمئن فيها إلى تطبيق أحكام الإسلام ومبادىء الخلف الصالح.

ورغم أن حرية الرأي والمشورة في الأمر أمران يتفق فيهما الإسلام مع غيره من الأنظمة المتقدمة، إلّا أنه قد يكون الخلاف بينهما فيما يراه المجتمع الإسلامي بعد أن جاءته البينات أن لا يترك قومه يتفرقون ويختلفون شيعاً وأحزاباً، بل يعقد لواء الأمر والنهي إلى من كان يستحق القيادة والولاية، ويحتاج تفسير هذا المدخل إلى تجربة ناجحة يرتفع معها لواء الإسلام أمام قوة تأثيره على كيان المجتمع وشبابه.

ثالثاً : المركز القومي للتدريب والاستخدام « اقرأ »

كي لا يأتي البحث في شكل أكاديمي، بعيداً عن التطبيق، مما قد يؤدي إلى صعوبة فهمه وتنفيذ ما جاء به من توصيات، ونظراً لكونها متعددة متشابكة، فقد رؤي أنه من الصالح القومي أن تتعرض الدراسة في نهايتها إلى تجربة محدودة يقوم بها « المركز القومي للتدريب والاستخدام (اقرأ) »، لكي تنير الطريق أمام الحكومات والمنظمات والشركات والشباب إلى ما يمكن أن يكتسبوه على ضوء ما توصلت إليه دراسة الجدوى بالمركز، وما شرع فيه من تنفيذ في مجالات شتى.

ولا شك أن طرح هذه الأمور على المجتمع الإسلامي إنما هو من باب محاولة الانتفاع بأهمية التخطيط للثروة البشرية وتنميتها، وما « اقرأ » إلا مقدمة لبنك إسلامي للثروة البشرية، هذا البنك هو أحد توصيات ثلاث سبق أن أقرها مؤتمر التضامن الإسلامي للعلم والتكنولوجيا عام ١٩٧٦م بجامعة الرياض.

ما هو « اقرأ » :

يمثل « اقرأ » فكراً جديداً متطوراً لا يرضى بالأوضاع التقليدية، أنشأه حضرة صاحب السمو الأمير محمد الفيصل آل سعود بالاشتراك مع الشركة الإسلامية للاستثمار، وشركة القوى العاملة، وبعض المستثمرين المصريين.

وقد اختيرت القاهرة مقراً له حيث تتوفر بها الموارد البشرية والخبرات التكنولوجية التي يمكن أن تكون انطلاقاً لتطوير ما جرت عليه الأمور في العالم العربي والإسلامي.

وفيما يلي ملخصٌ لبعض مشروعاته التي تمس الشباب، ذكوراً وإناثاً، وما يمكن أن تستفيد منه المجتمعات والحكومات الإسلامية، طالما كان الاعتماد على اللسان العربي المبين كوسيلة لانتقال الخبرات وتبادل الرأي.

أ) بالنسبة للشباب :

١) الدراسة الذاتية :

يمضي الإنسان في العصر الحديث، بناء على ما توصلت إليه

الإحصاءات الأمريكية ـ لمن يعيش ٧٠ عاماً في المتوسط :

١٦٪ من وقته في العمل.

٤ ٪ بين وسائل الانتقال والاتصال.

٤٤٪ لمواصلة الحياة والإعاشة.

بينما يتبقى له :

٣٦٪ لوقت الفــراغ.

ولن تلحق المجتمعات الإسلامية بركب التقدم وتنجح في تضييق فجوة التخلف بينها وبين المجتمعات المتقدمة، إلا إذا مارست جهداً أكبر لتستغل معه وقت الفراغ في التعليم والعمل، لأنه ليس أمامها من رصيد متبقٍّ للحاق بعصرها إلا هذا الرصيد، حيث أنها لن تقدر على منافسة من سبقها في أنشطة العمل أو الاتصال أو الانتقال، وطالما استوى الغني والفقير أو الجاهل والمتعلم في الوقت اللازم لمواصلة الحياة والإعاشة.

والجدير بالذكر أن أبحاثاً تجري الآن في معاهد الولايات المتحدة الأمريكية لمحاولة إكساب الإنسان مزيـداً من المعارف والخبرات أثناء نومه، وهو أسلوب سبقهم إليه من آلاف السنين كهنة آمون في تنمية خبرات صناع آمون.

لذلك فقد اتخذ « اقرأ » قراره بادخال أسلوب الدراسة الذاتية ـ أو ما تسمى بدراسة وقت الفراغ ـ طالما أجمع عليها الشرق والغرب، معتمداً على الخبرات المتاحة في العالم والتي منها، الجامعة المفتوحة بلندن، والمدارس العالمية للمراسلة، ومعهد بيتمان للسكرتارية، لتخدم كل فرد بدءاً من التعليم العام، وعلى طول سلم العمل والإدارة بمختلف مستوياته، وفي كل تخصص يمكن أن يتوافر فيه العدد الذي يبرر ـ اقتصادياً ـ نشر برامجه بالعربية، بعد ترجمتها من لغتها الأجنبية وأقلمتها.

ولقد وصف هذا الأسلوب بأنه سمة القرن الحادي والعشرين، حيث يتوافق مع قدرات الإنسان ووقته، ويتمشى مع استقلاله فلا يحد طموحه دارس ضعيف أو يتحداه دارس متفوق، ولا يحتاج معه إلى ضياع وقته في الانتقال إلى أماكن الدراسة والعودة منها، كما تعتبر نفقاته أقل بكثير من النفقات التقليدية في نظم التعليم والتدريب المباشر، لأن الكلمة المكتوبة هي أرخص

وسائل التعليم وأكثرها جدوى لمن يقدر على قراءتها وفهمها، كما تيسر إكساب الفرد الخبرات والمهارات اللازمة للإسراع بتنمية قدراته عندما يتم تعزيز هذا الأسلوب بالمعينات السمعية والبصرية وبحلقات المناقشة التي تعقد بعد فترات الدراسة المختلفة وفي نهايتها، وتزداد فاعليته عندما يستكمل التدريب بالممارسة العملية في المنشآت التدريبية أو داخل العمل، وبنفس المنطق يمكن ربطه بوسائل التعلم الجماعي عن طريق الإذاعة الصوتية والمرئية كما يحدث في جامعات العالم الشرقية والغربية.

٢) محو الأمية المهنية اللغوية : (انظر محو الأمية الإسلامية في نهاية البحث)

تزداد مشكلة الأمية تفاقماً وازدياداً أمام عيوب نظام التعليم وقلة هيئات التدريس وانصراف الشباب بنوعيه ـ الذكر والأنثى ـ عن استكمال سلم التعلم لظروف شتى. لذلك كان من الضروري أن نبدأ من حيث انتهى إليه الآخرون لمداركة هذا القصور في الشباب والكبار قبل الصغار، والذين ما زالت أمامهم فرص متاحة للتعليم. ويجري « اقرأ » دراسة على نحو مشابه لما نجح في كل من البرازيل والولايات المتحدة بالاعتماد على البدء باختيار مجموعات من المصطلحات الفنية التي يعرفها المشتغلون في هذا المجال ويفهمون معناها واستخداماتها في العمل ولكنهم لا يقدرون على قراءتها أو كتابتها.

عل أن يخضع تنظيم هذه الكلمات والمصطلحات في صورة رتيبة لتعزيز القدرة على فهم الحروف بمفردها ومقاطع الكلمات في صورة متدرجة، كما يساعد على تحقيق ذلك استخدام السمع والبصر أيضاً بصورة ذاتية أو بتدريب مباشر عن طريق الملاحظين والمشرفين في أماكن العمل، وبذلك يمكن لهذا النوع من البرامج تحقيق الاتصال الوثيق بين التعليم والتدريب من جانب مع مهنة العامل من جانب آخر، مما يساعده على اكتساب المزيد من المعرفة الفنية والمهارة داخل مجال عمله، فضلاً عن استخدام هذه المركبة لتمكنه من القراءة والكتابة.

ولكن، بالإضافة إلى ما سبق، يخطط « اقرأ » لمشروعين يكسبان

المرأة والفتاة إنتاجاً مثمراً يضاف إلى عائد الأسرة، ويتمشى مع الحاجة إلى الحفاظ على التراث الإسلامي وإثرائه عن طريق استحداث مجالات وتطبيقات جديدة، كما يحاول « اقرأ » إدخالها، مثل صناعة السجاد الحريري والملابس الحريرية من نبات الخروع، وتجميع لوحات الموزايك، والاستفادة في هذا المجال بالفنون الإسلامية وحصيلة التراث العربي الكبير عبر قرون طويلة من الازدهار، وهو ما يساعد المرأة والفتاة في ذات الوقت على محو أميتها.

ب) بالنسبة للمجتمعات والحكومات :

بالإضافة إلى المشروعات السابقة فإنه يمكن للحكومات والمجتمعات الإسلامية أن تستفيد وتتعاون في مثل ما يلي من مشروعات يقوم بإعدادها وتنفيذها « اقرأ ».

١ ـ الترجمة من الإنجليزية إلى العربية :

يدرس « اقرأ » مشروعاً ضخماً يحاول فيه مع شركة « سمارت » وشركة « بوينج » الأمريكيتين، الاعتماد على الحاسب الالكتروني في أعمال الترجمة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، وقد سبق لهما أن تولتا الترجمة بهذه الطريقة من الإنجليزية إلى الفرنسية والألمانية والأسبانية.

وتتم الترجمة عن طريق تبسيط اللغة الانجليزية في برنامج مبدئي ثم إضافة برنامجين آخرين، أحدهما للمصطلحات الفنية للموضوع الذي تجري فيه الترجمة، والآخر للمصطلحات العامة ومداخل الجمل التي يشيع استخدامها. بحيث يمكن ترجمة ونسخ ٥٠ ألف كلمة في الساعة، أي بما يوازي عمل ٢٥ مترجماً ومراجعاً، ومثلهم من المشتغلين بأعمال النسخ لمدة ٢٤ ساعة يومياً وبصورة مستمرة. ولكنه مع كل ذلك فلن يغني العقل الالكتروني عن العقل البشري الذي عليه أن يراجع ويبرمج ما يقوم به الحاسب.

ويعتبر هذا المشروع تحدياً كبيراً للأمة العربية والإسلامية بما يحققه من انفتاح العالم الإسلامي، وباللغة العربية، على حضارة الغرب ومعارفه الفنية والتكنولوجية المنشورة بالإنجليزية.

٢ ـ إنتاج المعينات السمعية والبصرية باللغة العربية :

يقوم « اقرأ » بتعزيز استخدام حاستي السمع والبصر بإنتاج معينات سمعية وبصرية باللغة العربية، مما يضيف فاعلية وكفاءة الدراسة الذاتية وبرامج التدريب العملي المركزة، حيث ينقل مركز المسئولية من المدرس والمدرب إلى الطالب والمتدرب، تمشياً مع أهمية اضطلاعه بالمسئولية وتحمله لأبعادها خلال التدريب، بما يدفعه إلى مثل ذلك أثناء العمل.

٣ ـ البرامج السلوكيـة :

من بين المشروعات الحاكمة التي يفكر « اقرأ » في تطويعها وإعدادها لصالح التدريب السلوكي وتثبيت الفؤاد، استخدام الكلمة المكتوبة والصورة المرئية في قالب إسلامي ولسان عربي مبين، وهو ما استحدثته بعض المنظمات الغربية كمنظمة التسلح الخلقي وغيرها، لتؤكد على علاقة العبد بربه وأهمية إذكاء ضميره بما يحقق هذا الاتصال، أو لتثير فيه أهمية الحفاظ على عنصر الوقت أغلى سلعة في الوجود.

ويعتبر هذا المجال مدخلاً جديداً وكبيراً ينبغي أن يستقطب كل الجهود المفكرة لتوجيه الشباب المسلم أينما كان، وفي أي موقع من المسئولية لأبعاد الأمانة المتعددة.

هذه بعض الأنشطة التي يمارسها « اقرأ » والتي يمكن أن تخدم المجتمع الإسلامي عن طريق نشرها ودعمها، وإنشاء مراكز أخرى لـ « اقرأ » في الدول الإسلامية، وذلك إلى حين أن تتوحد ـ بإذن الله ـ جميعها تحت لواء البنك الإسلامي للثروة البشرية ليعنى في النهاية بتعبئة وتنمية وترشيد إمكانيات الإسلام من القوى البشرية.

جدول رقم (١) نسب الشباب إلى السكان والعمر الوسيط في بعض الدول الإسلامية والغربية ـ عام ١٩٧٨

الدولة	نسبة الشباب إلى السكان			العمر الوسيط للسكان
	٥ ـ ١٠	١٥ ـ ٢٥	٢٥ ـ ٤٠	
الجزائر	٢٦,٥	١٩,٤	١٥,٧	١٦,٠
ليبيا	٢٥,٥	١٨,٧	١٦,٣	١٧,٨
المغرب	٢٦,٤	١٨,٦	١٦,٤	١٦,٤
السودان	٢٥,٩	١٨,٦	١٦,٦	١٧,٢
تونس	٢٥,٦	١٩,٣	١٦,٣	١٧,٤
مصر	٢٤,٥	١٨,٦	١٧,٥	١٩,٤
موريتانيا	٢٤,٣	١٨,٢	١٧,٧	١٩,٠
الصومال	٢٤,٣	٢١,٠	١٧,٧	١٧,٢
البحرين	٢٩,٨	١٧,٩	١٩,٦	١٧,٥
العراق	٢٦,٧	١٨,٧	١٦,٣	١٦,٦
الأردن	٢٦,٧	١٨,٥	١٦,٥	١٦,٨
الكويت	٢٨,٦	٢٤,١	٢٤,١	١٦,٦
لبنان	٢٨,٥	١٧,٧	١٧,٥	١٨,١
عمان				
قطر				
العربية السعودية	٢٥,٥	١٨,٥	١٦,٩	١٧,٦
اليمن الجنوبية	٢٥,٥	١٨,٥	١٧,٠	١٧,٦
سوريا	٢٦,٣	١٨,٩	١٥,٩	١٧,٢
الامارات	٢١,٦	١٧,٦	١٧,٩	٢٣,٠

Source : 1) Demographic Year Book.
2) ILO Year Book.

تابع ـ الجدول رقم (١)

اليمن الشمالية	٢٥,٦	١٨,٤	١٧,٠	١٧,٦
تـــركيـــا	٢٣,٩	١٨,٨	١٧,٣	١٩,٠
ايـــــران	٢٥,٦	١٩,٦	١٦,٣	١٧,٠
أفغـانستـــان	٢٥,٧	١٨,١	١٧,٣	١٧,٩
أنـــدونيسيـــا	٢٥,٥	١٨,٩	١٧,٣	١٨,٠
بــاكستـــان	٢٧,٠	١٩,١	١٥,٦	١٦,٦
بنجـلاديـــش	٢٦,٠	٢٠,٣	١٦,٠	١٦,٧
الولايات المتحدة	١٤,١	١٨,٤	٢٠,٩	٢٩,٦
كـنـــــدا	١٤,٨	١٩,٠	٢١,٢	٢٧,٥
إنجـلتــــرا	١٤,٠	١٥,٤	١٩,١	٣٤,١
الســـويــد	١٢,٦	١٣,٥	٢٠,٧	٣٥,٦
الــدانمــرك	١٢,٩	١٤,٨	٢١,٤	٣٣,٧

جدول رقم (٢) بعض المؤشرات عن الوفيات وتوقع الحياة لبعض دول العالم مقارنة بعض الدول المتقدمة ، ١٩٧٨م

دول إسلامية			
الدولة	معدل الوفيات لكل ١٠٠٠	معدل وفيات الرضع لكل ١٠٠٠	توقع الحياة عند الميلاد
السودان	١٦	١٤١	٤٩
الصومال	٢١	١٧٧	٤١
العربية السعودية	١٩	١٥٢	٤٥
اليمن الجنوبية	١٩	١٥٥	٤٥
اليمن الشمالية	١٩	١٥٥	٤٥
موريتانيا	٢٤	١٨٧	٣٩
أندونيسيا	١٤	١٣٧	٤٨
بنجلاديش	٢٠	١٥٣	٤٦
أفغانستان	٢٢	١٩٠	٤٠

دول غربية واليابان			
الدولة	معدل الوفيات لكل ١٠٠٠	معدل وفيات الرضع لكل ١٠٠٠	توقع الحياة عند الميلاد
الولايات المتحدة	٩	١٥	٧٣
كندا	٧	١٤	٧٣
الدانمرك	١١	١٠	٧٤
السويد	١١	٩	٧٥
فرنسا	١٠	١٤	٧١
إنجلترا	١٢	١٤	٧٢
اليابان	٦	٩	٧٤

تابع ـ الجدول رقم (٢)

بنجلاديش	٨٥,٠	٧٣,١	٨٦
مالديف	٠,١	٠,١٠	١٠٠
ماليزيا	١٣,٠	٧,١٥	٥٥
السنغال	٥,٤	٤,٣٢	٨٠
النيجر	٥,٠	٣,٥	٧٠
تشاد	٤,٣	٢,٥٨	٦٠
جيبوتي	٠,١	٠,١٠	١٠٠
ساحل العاج	٧,٢	٥,٠٤	٧٠
زامبيا	٠,٦	٠,٤٨	٨٠
غينيا	٤,٨	٣,٣٦	٧٠
مالي	٦,٣	٤,٤١	٧٠
البانيا	٢,٦	٢,٢١	٨٥
جملة	١٢٣٤,٠	٦١٢,٧٩	٥١,٠
جملة بدون الهند	٥٩٩,٣	٥٤٢,٦٤	٩٠,٤

المصدر : د. طه عبد العليم رضوان، جغرافية العالم الإسلامي، جدول رقم (١) ص ٢٨ ، ٢٩

Population Reference Bureau Inc., 1978 World Population Data Sheet.

جدول رقم (٣) السكان النشطون اقتصادياً حسب النوع في بعض الدول الإسلامية عام ١٩٧٨

الدولة	عدد السكان النشطين اقتصاديا	٪		معدل العمل ٪	نسبة الإعالة
		ذكور	إناث		
الجزائر	٤,١٤	٩٥,٦	٤,٤	٢٢,٥	٣,٤
ليبيا	٦,٣١	٩٤,٦	٥,٤	٢٢,٥	٣,٤
المغرب	٥,٠٦	٨٤,٢	١٥,٨	٢٦,٨	٢,٧
السودان	٦,٢٩	٨٩,١	١٠,٩	٣٦,٨	١,٧
تونس	١,٤٩	٩١,٠	٩,٠	٢٤,٨	٣,٠
مصر	١١,٣٣	٩٢,١	٧,٩	٢٨,٦	٢,٥
موريتانيا	,٤٢	٩٥,٦	٤,٤	٢٨,٠	٢,٦
الصومال	١,٣٤	٧٠,٨	٢٩,٢	٣٩,٤	١,٥
البحرين	,٠٩	٩٤,٦	٥,٤	٣٠,٠	٢,٣
العراق	٣,٠٥	٩٥,٥	٤,٥	٢٥,٠	٣,٠
الأردن	,٧١	٩٣,٥	٦,٥	٢٤,٥	٣,١
الكويت	,٣٥	٩١,٠	٩,٠	٣١,٨	٢,١
لبنان	,٨٢	٨٠,٧	١٩,٣	٢٨,٣	٢,٥
عمان	,٣٨	٩٧,٦	٢,٤	٤٧,٥	١,١
قطر	,٠٥	٩٧,٨	٢,٢	٥٠,٠	١,٠
العربية السعودية	٢,٥٧	٩٤,٩	٥,١	٣٢,٩	٢,٠
اليمن الديمقراطية	,٤٧	٩٤,٨	٥,٢	٢٤,٧	٣,٠
سوريا	٢,٠٧	٨٨,٢	١١,٨	٢٥,٥	٢,٩
الامارات	,٣٨	٩٧,٥	٢,٥	٤٧,٥	١,١
تركيا	١٨,٠٩	٦٢,٩	٣٧,١	٤٢,٩	١,٣
إيران	١٠,١٦	٨٥,٥	١٤,٥	٢٨,٦	٢,٥
اليمن	٢,٠٤	٩٥,٦	٤,٤	٣٥,٢	١,٨

تابع ـ الجدول رقم (٣)

الدولة	عدد السكان النشطين اقتصاديا	٪ ذكور	٪ إناث	معدل العمل ٪	نسبة الإعالة
أفغانستان	٧,٠٦	٨١,٢	١٨,٨	٣٩,٧	١,٥
أندونيسيا	٥٠,٥٥	٧٠,١	٢٩,٩	٣٦,١	١,٨
باكستان	٣١,٣٣	٨٩,٥	١٠,٥	٢٧,٨	٢,٦
بنجلاديش	٢٧,٤٦	٨٧,٥	١٧,٥	٣٢,٣	٣,١
المتوسط	١٨٤,٠٠	٨٨,٧	١١,٣	٣٣,٥	٢,٠
الولايات المتحدة	٩٩,٠٨	٦١,٤	٣٨,٦	٥٤,٤	١,٢
كندا	١٠,١٤	٦٦,٤	٣٣,٥	٤٣,٠	١,٣
فرنسا	٢٣,٠٦	٦٤,١	٣٥,٩	٤٣,٢	١,٣
ايطاليا	٢٠,٨٢	٧١,٣	٢٨,٧	٣٦,٧	١,٧
السويد	٣,٧٢	٦٢,٥	٣٧,٥	٤٤,٨	١,٢
النرويج	١,٥٤	٧١,٣	٢٨,٧	٣٧,٦	١,٦
الدانمارك	٢,٤٢	٦١,٨	٣٨,٢	٤٧,٥	١,١
إنجلترا	٢٦,٤٠	٦٢,٥	٣٧,٥	٤٧,١	١,١
اليابان	٥٩,٦	٥٩,٧	٤٠,٣	٥١,٧	,٩
المتوسط	٢٤٦,٣٤	٦٤,٦	٣٥,٤	٤٥,٦	١,٢

Source : ILO, 1950-2000 Labour Force, Vols. 1,2,4.

جدول رقم (٤) توزيع قوة العمل حسب النشاط الاقتصادي والنوع ١٩٧٨

النشاط الاقتصادي / الدولة	زراعة		صناعة		خدمات	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث
الجزائر	٦٢,١	٢٩,٢	١٤,٦	١٣,٨	٢٣,٣	٥٧,٠
ليبيا	٣٢,٩	١٢,٦	٢٠,٩	٤٠,٩	٤٦,١	٤٦,٥
المغرب	٥٩,٦	٤٠,٣	١٦,٤	٢٣,٤	٢٤,١	٣٦,٤
السودان	٨٢,٣	٧٩,٢	٧,٥	٩,٦	١٠,١	١١,٢
تونس	٥٣,٢	٩,٤	١٨,٨	٤٦,٥	٢٨,٠	٤٤,١
مصر	٥٦,٣	٢٩,٢	١٩,٢	١٣,٣	٢٤,٥	٥٧,٥
موريتانيا	٣٣,١	٣٧,٨	٢٨,٨	١٠,٣	٣٨,١	٥١,٩
الصومال	٨١,٥	٩٢,٢	٧,٨	١,٢	١٠,٧	٦,٥
البحرين	٧,٠	٠,١	٣٥,٨	٤,٠	٥٧,٢	٩٥,٩
العراق	٤٧,٧	١٩,٩	٢١,٧	٢٨,٤	٣٠,٦	٥١,٧
الأردن	٣٤,٣	٢٥,٠	٣٣,٢	٢٦,١	٣٢,٥	٤٨,٩
الكويت	١,٩	,١	٣٦,٦	٥,٦	٦١,٥	٩٤,٣
لبنان	١٨,٩	٢٣,٦	٢٦,٤	٢٠,٠	٥٤,٧	٥٦,٤
العربية السعودية	٦٥,٣	٨١,٥	١٢,١	٣,٣	٢٢,٦	١٥,٢
اليمن الجنوبية	٦٤,٠	٧٨,٣	١٨,٣	٤,٣	١٧,٧	١٧,٤
سوريا	٤٩,٢	٦٧,٧	٢١,٧	١٣,١	٢٩,٢	١٩,٢
اليمن الشمالية	٧٩,١	٨٣,٣	٩,١	٥,١	١١,٨	١١,٦
تركيا	٥٦,٨	٨٦,١	١٧,٥	٣,٠	٢٥,٦	١٠,٩
إيران	٥٠,١	١٧,٩	٢٤,١	٥٦,٨	٢٥,٨	٢٥,٣
أفغانستان	٨٠,٢	٨٨,٤	٧,٨	٥,٨	١٢,٠	٥,٨
أندونيسيا	٦٦,٩	٦٤,٩	٩,٠	١١,٣	٢٤,١	٢٣,٨
باكستان	٥٧,٨	٦٩,٣	١٩,١	١٥,٠	٢٢,١	١٥,٦

تابع ـ الجدول رقم (٤)

بنجلاديش	٨٤,٩	٩٠,٩	٣,٤	٣,٨	١٦,٧	٥,٤
كندا	١٠,٦	٣,١	٣٨,٧	١٨,٠	٥٠,٧	٧٨,٩
أمريكا	٥,٢	١,٠	٤٢,١	٢١,٣	٥٢,٧	٧٧,٧
الدانمرك	١٣,٧	٦,٦	٤٤,٩	٣٣,٨	٤١,٤	٧٠,٦
إنجلترا	٣,٦	١,٣	٥٣,٢	٣٠,٤	٤٣,٢	٩٨,٣

جدول رقم (٥) توزيع قوة العمل حسب المجموعات المهنية في بعض الدول الإسلامية والغربية

الدولة	أصحاب المهن العلمية والفنية	المديرون المشتغلون بالأعمال الادارية والتنفيذية	المشتغلون بأعمال كتابية	المشتغلون بأعمال البيع	المشتغلون بأعمال الزراعة والصيد	المشتغلون بالمناجم والمواصلات وعمليات الانتاج	المشتغلون بالخدمات	غير مصنفين
الجزائر ٦٦	٣,٥	,٨	٣,٥	٤,٩	٤٩,٩	١٤,٧	٨,٧	١١,١
ليبيا ٧٣	٩,٩	,٨	٧,٠	٥,٧	٢٠,٧	٣٥,٣	١٤,٨	٥,٨
المغرب ٧١	٤,٠	٣,٠	—	٥,٦	٥١,٤	١٩,٢	٨,٢	٨,٦
السودان ٧٣	٢,٥	,٣	١,٣	٤,٣	٦٥,١	١٠,٥	٦,٧	٩,٣
تونس ٧٥	٤,٤	,٣	٥,٣	٤,٦	٣٢,٤	٣٣,٧	٥,٨	١٣,٥
مصر ٦٦	٥,٠	١,٨	٥,٦	٦,٥	٥١,٤	٢٢,٠	٧,٨	—
البحرين ٧١	٨,٠	١,٧	٨,٦	٨,٦	١٧,٠	٤٦,٥	١٨,١	١,٥
الكويت ٧٥	١٣,٧	,٩	١٢,٥	٧,٩	٢,٥	٣٤,٨	٢٥,٧	٢,٠
لبنان ٧٠	٩,٢	١,٩	٧,٩	١١,٥	١٧,٨	٣٢,١	١٦,٨	٢,٨
سوريا ٧٥	٤,٥	,١	٥,٢	٨,٨	٥٠,٠	٢٧,٣	١,٧	٢,٤

تابع ـ الجدول رقم (٥)

ايــــران	٧٢	٣,٥	,٢	٤,١	٨,٤	٤٧,٩	٢٨,٣	٦,٢	١,٤
اندونيسيــا	٧١	٢,٢	٣,٤	٣,١	١٠,١	٥٩,٠	١١,٨	٣,٨	٥,٩
بـاكستـان	٧٠	٣,٠	٠,٧	٢,٦	٩,٨	٥٣,٨	٢٣,٦	٤,٤	١,٨
دانمـــارك	٧٠	١٢,٢	١,٦	١٢,٩	٩,٦	١٠,٥	٣٨,٩	١١,٤	٢,٩
اليابـــان	٧٥	٧,٨	٤,٢	١٧,١	١٢,٥	١٣,٤	٣٣,٩	٨,٥	٢,٦
فــرنســا	٦٨	١١,٤	٢,٧	١١,٧	٧,٦	١٥,٣	٣٤,٦	٩,٦	٧,١
ايطـاليـا	٧١	٧,٣	٠,٦	١٠,٦	٨,٧	١٦,٥	٤٢,٠	٩,٤	٤,٩
امـريكــا	٧٠	١٣,٨	٣,٨	١٦,٨	٦,٦	٢,٩	٣٣,٥	١٢,٩	٥,٧

جدول رقم (٦) الانتاج والاستهلاك من البترول عام ١٩٧١

الوحدة مليون طن

الاقليم	الانتاج البترولي	الاستهلاك البترولي
امريكا الشمالية	٢٥٩,٥	٨٤٧,٥
امريكا الجنوبية	٦٠٧,٥	١٤٨,١
افريقيا بدون العرب	٢٨٠	٤٦,٢
العرب وايران	٨٠٢,٨	٦٠,٣
جنوب شرق آسيا والهند واليابان	٧٧,٥	٣٤٦,٢
المعسكر الشيوعي والاتحاد السوفيتي والصين	٤٢٢,٢	٣٦٩,٤
أوروبا الغربية	١٥,٣	٦٢١,٧
الاجمالي	**٢٤٦٤,٨**	**٢٤٣٩,٤**

جـدول رقـم (٧) الدخل القومي ودخل الفرد سنوياً (بالدولار) بين بعض الدول الإسلامية والغربية

الدولة	الدخل القومي بالمليون	دخل الفرد
الجزائر	١٨,٢١٦	٩٩٠
ليبيا	١٧,٦٦٨	٦٣١٠
المغرب	١٠,٢٠٦	٥٤٠
السودان	٤,٩٥٩	٢٩٠
تونس	٥,٠٤٠	٨٤٠
مصر	١١,٠٨٨	٢٨٠
موريتانيا	٠,٥١٠	٣٤٠
الصومال	٠,٣٧٤	١١٠
البحرين	٠,٧٢٣	٢٤١٠
العراق	١٦,٩٥٨	١٣٩٠
الأردن	١,٧٦٩	٦١٠
الكويت	١٧,٠٢٨	١٥٤٨٠
لبنان	١,٨٢٠	٧٠٠
عُمَان	٢,١٤٤	٢٦٨٠
قطر	١,١٤٠	١١٤٠٠
العربية السعودية	٣٤,٩٤٤	٤٤٨٠
اليمن الجنوبية	٠,٥٣٢	٢٨٠
سوريا	٦,٣١٨	٧٨٠
الامارات	١١,١٩٢	١٣٩٩٠
اليمن الشمالية	١,٤٥٠	٢٥٠
تركيا	٤١,٧٧٨	٩٩٠
ايران	٦٨,٥١٥	١٩٣٠

تابع ـ الجدول رقم (٧)

افغانستان	٢,٨٤٨	١٦٠
اندونيسيا	٣٣,٦٤٨	٢٤٠
باكستان	١٣,٠٥٦	١٧٠
بنجلاديش	٩,٣٥٠	١١٠
الولايات المتحدة	١٧٢٣,١٧٦	٧٨٩٠
كندا	١٧٧,٢٣٦	٧٥١٠
الدانمرك	٣٧,٩٩٥	٧٤٥٠
السويد	٧١,٩٦١	٨٦٧٠
فرنسا	٣٤٩,٧٧٠	٦٥٥٠
انجلترا	٢٢٥,١٢٠	٤٠٢٠

جدول رقم (٨) نسب الأمية بين السكان والشباب في سن التعليم في بعض الدول الإسلامية مقارنة ببعض الدول الغربية

الدولة		نسبة الأمية للسكان ١٠ +			نسب الأمية بين الشباب				جملة
		ذكور	إناث	متوسط	١٠ ـ ١٤	١٥ ـ ١٩	٢٠ ـ ٢٤	٢٥ ـ ٢٩	
الجزائر	٧١	٦٤,٠	٨٣,٢	٧٣,٦		٥٢,٨	٥٢,٦	٧٧,١	٦١,٩
ليبيا	٦٤	٦٥,٢	٩١,٥	٧٨,٣		٥٧,٤	٦٧,٣	٧٨,٩	٦٧,٩
المغرب	٧١	٦٦,٤	٩٠,٢	٧٤,٨	٦٠,٢	٥٨,٨	٦٦,٦	٨٠,٨	٦٥,٩
السودان	٦٦	٧١,١	٩٥,٣	٨٢,٣	٧٣,٣	٧٩,٠	٨٢,٤	٨٢,٢	٧٨,٥
تونس	٦٦	٥٣,٦	٨٢,٤	٦٧,٨	٣٢,٦	٤٧,٢	٦٦,٧	٧٩,٤	٥٦,١
موريتانيا	٦٥	٨٠,٣	٩٦,١	٨٨,٩	٨٩,٦	٩٠,٧	٩٠,١	٩٠,٨	٩٠,٠
الصومال	٦٢	٩٣,٢	٩٩,١	٩٧,٠	٩٢,٧	٩٥,٦	٩٨,٠	٩٩,١	٩٦,٤
البحرين	٧١	٥٠,٨	٧١,٥	٥٩,٨	٢٥,٤	٢٦,٥	٤١,٨	٥٨,٨	٣٨,١
العراق	٦٥	٦٣,٠	٨٤,٥	٧٣,٦	٤٩,٠	٥٣,٨	٦٢,٧	٧٧,٢	٦٠,٧
الأردن	٦١	٦٠,٠	٧٣,٢	٦٧,٦	ـ	٤٩,٣	٦٠,٠	٦٥,٨	٥٨,٤
الكويت	٧٠	٣٦,٦	٥٨,٠	٤٣,١	١٣,٣	٢٨,٣	٣٨,٠	٤١,١	٣٠,١
لبنان	٧٠	٢٥,٣	٣٧,٤	٣٠,١	١٠,٧	١٤,٦	٢٠,٠	٢٦,٥	١٧,٨
العربية السعودية	٦٢	٩٠,١	٩٩,٢	٩٦,٨	٨٩,٤	٩٤,١	٩٦,٤	٩٨,٠	٩٤,٥

تابع ـ الجدول رقم (٨)

اليمن الجنوبية	٧٣	٦٠,٤	٨٥,٦	٧٢,٩	—	—	—	—	—
سوريا	٧٠	٥٠,٠	٦٦,٣	٥٧,٨	٣٢,١	٤٠,٨	٤٥,٢	٥٥,٤	٤٣,٣
الامارات	٦٨	٧٣,١	٩١,١	٧٩,١	—	٢٧,٣	٧٥,٣	٨١,٤	٧٦,٢
اليمن الشمالية	٦٢	٩٠,٠	٩٩,٢	٩٦,٨	٩٢,٩	٩٣,٩	٩٥,٠	٩٨,١	٩٥,٠
تركيا	٧٠	٣٠,٩	٦٦,٤	٤٦,٢	٢٣,٣	٢٦,٢	٣٠,٥	٤٣,٧	٣٠,٩
إيران	٦٦	٦٧,٢	٨٧,٨	٧٥,٢	٤٧,٧	٥٨,١	٦٧,٦	٧٨,٣	٦٢,٩
أفغانستان	٦٥	٨٢,٧	٩٧,٢	٩٢,٢	٨٦,٤	٩١,٤	٩٢,٥	٩٤,٥	٩١,٥
أندونيسيا	٧١	٢٩,٢	٥١,٠	٣٩,١	١٨,٨	١٧,٨	٢٢,٨	٣٨,١	٢٤,٤
باكستان	٦١	٨٠,٠	٩٧,٣	٨٩,٥	٨٢,٣	٨٢,٢	٨٦,٥	٩٣,٠	٨٦,٠
بنجلاديش	٦١	٧٠,٠	٨٩,٠	٧٩,٣	٦٩,٦	٧٣,٦	٧٥,٨	٧٩,٩	٧٤,٧
الولايات المتحدة	٧٠	١,٠	١,٠	١,٠	,٣	,٣	,٣	,٣	,٣
اليونان	٧١	١٣,٢	١٦,٠	١٤,٨	١,٤	١,٨	٢,١	٣,٧	٢,٢
ايطاليا	٧١	٥,٧	٦,٤	٦,١	—	,٩	١,٢	٢,١	١,٤
اليابان	٦٠	٢,٠	٢,٢	٢,١	٠,٢	٠,٢	٠,٢	٠,٢	٠,٢

Source : UNESCO, Statistics of Educational Attainment and Illiteracy, 1945-1974, No. 22

جدول رقم (٩)
نصيب الفرد من الطاقة الحرارية في اليوم
مقدرة بالسعرات

دول إسلامية	نصيب الفرد	دول غربية	نصيب الفرد
الجزائر	١,٧٣٠	الولايات المتحدة	٣,٣٣٠
موريتانيا	١,٩٧٠	كندا	٣,١٨٠
الصومال	١,٨٣٠	الدانمرك	٣,٢٤٠
أفغانستان	١,٩٧٠	انجلترا	٣,١٩٠
أندونيسيا	١,٧٩٠	فرنسا	٣,٢١٠
		ايطاليا	٣,١٨٠

جدول رقم (١٠)
عدد السكان المسلمين ونسبتهم إلى السكان

الدولة	عدد السكان	عدد السكان المسلمين	نسبة المسلمين ٪
الجزائر	١٨,٤	١٧,٤٨	٩٥
ليبيا	٢,٨	٢,٨٠	١٠٠
المغرب	١٨,٩	١٥,١٢	٨٠
السودان	١٧,١	١٤,٥٣	٨٥
تونس	٦,٠	٥,٧٠	٩٥
مصر	٣٩,٦	٣٧,١١	٩٣,٧
موريتانيا	١,٥	١,٣٥	٩٠
الصومال	٣,٤	٣,٤٠	١٠٠
البحرين	,٣	,٣٠	١٠٠
العراق	١٢,٢	١١,٧١	٩٦
الأردن	٢,٩	٢,٩٠	١٠٠
الكويت	١,١	١,٠٨	٩٨
لبنان	٢,٩	١,٤٥	٥٠
عُمَان	,٨	٠,٧٥	٩٤
قطر	,١	,١٠	١٠٠
العربية السعودية	٧,٨	٧,٨٠	١٠٠
اليمن الجنوبية	١,٩	١,٨٦	٩٨
سوريا	٨,١	٧,٢٩	٩٠
الامارات	,٨	٧,٦٨	٩٦
اليمن الشمالية	٥,٨	٥,٨٠	١٠٠
تركيا	٤٢,٢	٤١,٣٦	٩٨
إيران	٣٥,٥	٣٤,٧٩	٩٨

تابع ـ الجدول رقم (١٠)

أفغانستان	١٧,٨	١٧,٦٢	٩٩
أندونيسيا	١٤٠,٢	١٢٦,١٨	٩٠
باكستان	٧٦,٨	٦٩,١٢	٩٠
الهند	٦٣٤,٧	٧١,١٥	١١,٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

محو الأمية الإسلامية

« اقرأ.. الذي علم بالقلم »،

إنها لحكمة بالغة أن يبدأ القرآن الكريم مشيراً إلى أهمية القراءة، والتي ليس معناها فقط مجرد القراءة، بل تحمل أيضاً معنى ترديد الدعوة. ثم ليتبعها بعد ذلك بأهمية الكتابة، والتي تجتمع فيها قدرات العقل مع قدرات اليد، وهما محوران أساسيان لتقدم الإنسانية، سواء أكان ذلك متمثلاً في تسجيل المعارف والخبرات وتداولها بين الأجيال كميراث البشرية من بعض علم الله الذي لا ينفد، أو كانت الإشارة متجهة إلى تطويع المعرفة التي يتزود بها العقل ولتتحول بقدرات اليد إلى عمل صالح ـ وسواء أكانت أداة التحويل قلماً للكتابة أو شيئاً آخر يؤدى به العمل، كأي أداة من أدوات الصناعة.

لذلك كان من الضروري أن نركز على محو الأمية لنرقى ونتزكى ولنحقق المقصود من هاتين الآيتين الكريمتين، وحيث أثبتت التجارب الحديثة في العالم أن الفرد الأمي، ذكراً كان أم أنثى، لن يقبل على وسائل التعليم التقليدية التي تخلف عنها في مقتبل حياته، ولن يرضى بالرجوع إليها بصورة أو أخرى، ما لم يكن هناك حافز قوي وأسلوب جديد يحثه على التعلم كنتيجة مباشرة لزيادة رزقه وانفتاح الطريق أمام مستقبله.

وقد يأتي ذلك عن طريق تحدي الفرد في اكتساب مهارة ما تستخدم فيها اليد، وهي الآلة التي لن يصنع مثلها مهما تقدم العلم أو انفجرت التكنولوجيا، لأنها المقياس الوحيد ذو الأغراض المتعددة والذي يقيس الأطوال والحرارة والأوزان والنعومة والمقاومة، كما يسمح الإبهام الذي يتصل بكافة أصابع اليد بقدرة لا نظير لها في القبض والتحكم ليختلف في ذلك الإنسان عن باقي مخلوقات الله عندما يتزن على رجليه ويخلي يديه ليتقن بهما أي شيء.

من خلال هذا المفهوم ينبغي أن تمحى أمية الناطقين بالعربية، وبنفس خطط البرامج التي ستوضع لمختلف المهن والأعمال يمكن أن تنتقل المهارات وتكتسب الخبرات ذات العائد على الناطقين بغير اللغة العربية من مجتمع الأمة الإسلامية، وعندئذ ينبغي إضافة عناصر أخرى ـ إن لم تكن قد أضيفت ـ لأنهم أشد حاجة إليها تتمثل في مجموعة الكلمات والآيات التي يسمعونها ويرددونها وقد لا يفهمون معانيها أو يقدرون على كتابتها.

ويستخلص تخطيط البرامج وأسلوب تنفيذها فيما يلي :

١ ـ تختار الكلمات الحاكمة في كل مهنة أو مجال والتي يفهمها العامل ويعرف المقصود منها، ولكنه لا يقدر على قراءتها أو كتابتها.

٢ ـ ترتب هذه الكلمات مع الكلمات الأخرى المقتبسة من شعائر الصلاة والآذان والقرآن الكريم ذات الصفة الغالبة والتي تتناسب مع مكونات الكلمات الحاكمة في العمل الذي سيوجه إليه العامل.

٣ ـ ترتب مجموعة الكلمات وفقاً لمقاطعها المتكررة توطئة لتضمينها برامج يعتمد فيها على السمع والبصر، ليحوي كل منها عدداً لا يقل عن ٥٠٠ إلى ٨٠٠ كلمة جديدة.

٤ ـ تسجل الكلمات في دروس متتابعة تخدم تقدم الفرد في مجال عمله، وليستمع إليها أينما كان فيستفيد من كثرة تكرارها عليه وفي الوقت الذي يروق له، وبحيث تضيف إليه حصيلة جديدة من الخبرة، كما تستقر في ذهنه نتيجة انسجام مقاطعها التي أحسن تخطيطها.

٥ ـ يصاحب هذه التسجيلات مرجعاً مزوداً بالكثير من الصور والحروف والمقاطع والكلمات يرجع إليه الدارس من خلال استماعه إلى هذه

الدروس ليحاول معه تفهم أسلوب الكتابة وهدف التدريب الذي ارتبط به وعاش فيه وانتفع منه.

٦ ـ يقاس تقدم العامل في مدى فهمه وتحصيله وقراءته وكتابته بصورة متدرجة خلال هذا البرنامج ليعرف موضعه منها، وسواء ليزداد ثقة في تقدمه أو يعاود دراسة ما فاته.

وعادة ما يتخطى الأمي عقبة أميته بعد إلمامه بحوالي ٢٠٠ ـ ٣٠٠ كلمة ويتمكن من نفسه بعد أن أحاط بكلمات البرنامج كله والهدف منه.

٧ ـ كما يمكن أن يتم ذلك عن طريق ملاحظي العمل من المتعلمين والذين يعتبرون أكثر قبولاً للعامل من أي مدرس له هو من عمر أولاده، وحيث يستمع العامل إلى توجيهه ونصحه من خلال إشرافه عليه. فلا يشعر بأية غضاضة من دوره كمدرس يرشده في عمله ويساعده في تعليمه وتدريبه ويوفر عليه من وقته وانتقالاته، ولكن ذلك لا يمنع من استخدام الوسائل الذاتية التي تعطي العامل حرية التعلم دون ما مساس بشخصيته أو مكانته بين أقرانه.

اني أذكر أن أحد الوافدين إلى الأزهر من نيجيريا كان يشكو للسيد أمين الجامعة العربية بأن مجرد تعلمه القرآن الكريم لا يكسبه رزقاً عند عودته إلى بلاده، لذلك فقد طالب بأنه في أشد الحاجة إلى تعلم مهنة ما ترفع من مستوى معيشته، كما تساعده على نشر الدعوة.

إن هذا الأسلوب المقترح والذي يحتاج إلى جهد كبير لتطبيقه ونشره، يحقق استخدام الأبعاد الثلاث التي يسأل عنها الإنسان « السمع والبصر والفؤاد »، حيث كان السمع والبصر وسيلتي انتقال المعرفة، كما أنه في اضافة محور الفؤاد قوة أخرى لتثبيت المعرفة وحفز الفرد عن طريق توثيق صلته بربه وتطويع قدراته على اكتساب رزقه، هذا فضلاً عن تجاوب هذا الأسلوب لتمكين يد الإنسان لتثبت قدرتها على الكتابة كما تثبت قدرتها كذلك على استخدام الأدوات التي يحتاج لها الفرد في تقدمه ووصوله إلى علم ما لم يعلم.

إن المجتمع الإسلامي يشكو كما تشكو مختلف المجتمعات النامية من نقص كبير في المهارات العملية والفنية، كما يتعرض وغيره من المجتمعات النامية إلى انتشار الأمية بين رجاله ونسائه ـ هذا ويمكن أن تتكيف برامج المرأة الأمية بما ينفعها في أسرتها ويزيد من رزقها ـ بسبب أخطاء برامج التعليم التي حاولنا محاكاتها من الغرب أو الشرق، ولم نقدّر معها ظروفنا وإمكاناتنا، فتسبب في زيادة عدد المتخلفين رغم ما يبدو ظاهرياً من انخفاض نسبة التخلف، لذلك كان في الأسلوب المقترح السبيل الوحيد الآن لتحدي الأفراد من العرب ومن المسلمين لاكتساب ما افتقدوه من قراءة وكتابة أو من قدرة على العمل الصالح، كما هو في تعلم اللغة العربية. إنه لا طريق غيره لمواجهة ازدياد عدد الأميين الآن، بل لا سبيل سواه في تقارب معظم الشعوب الإسلامية عن طريق لسان عربي مبين، وطبقاً لأحدث ما وصلت إليه تكنولوجيا التدريب لخدمة التطور ووحدة الأمة.

معالم الشخصية الإسلامية الفاعلة في الفرد والجماعة

للأستاذ فاروق بدران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أولاً ـ مقـدمــة :

الشخصية الإسلامية شخصية متفردة في التاريخ، فهي تسير وفق منهاج رباني منزل من السماء، رأت أمامها خير قدوة هو محمد ﷺ الذي حدد لها تفاصيل طريق العمل ودلها على الحلال فاتبعته وعلى الحرام فاجتنبته.

فخرجت شخصية فريدة في التاريخ، عبر عن ذلك الصحابي ربعي بن عامر حين قال لكسرى : (أمرنا أن نخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام).

هذه الشخصية التي سنتناولها اليوم بالتحليل، ما صفاتها، وكيف تتكون ؟ وكيف تكون فاعلة في الفرد والجماعة ؟ وما الدور المطلوب منها في القرن الحاضر ؟

ثانياً ـ الحاجة إلى الشخصية الإسلامية :

عندما يدلهم الليل، وتعصف المصائب بالأمة الإسلامية، تبدأ بتلمس مواطن الخلاص فتتبعها لعلها تقودها إلى شاطئ الأمان.

والأمة الإسلامية اليوم تقع في مثل هذا الضيق، فالغزو الفكري يكاد يضيع شخصيتها. والاستعمار لم يخرج جنوده من بلد إلا ترك جنوداً من أبنائه، يؤمنون بما يؤمن، ويحبون ما يحب، ويكرهون ما يكره.

والغزو العسكري المتمثل في الغزو الصهيوني لفلسطين، والأثيوبي لأرتيريا والصومال، والهندوكي لباكستان، والشيوعي لسائر أقطار الأرض، كلها تهدد العالم الإسلامي.

والغزو السياسي المتمثل في تبعية بعض النظم إلى الكتل العالمية المتصارعة.

والغزو الاقتصادي الذي يجعلنا سوقاً مستهلكاً فضلاً عما يأخذه من خيـرات البلاد الإسلامية بأبخس الأثمـان.

كل ذلك يدعو المتأمل للسؤال عمن يتولى إخراج شخصية تنقذه من هذه الويلات وتقوده للسير على هدى الإسلام.

إن هذه الشخصية أمنية بل حلم، ولا بد أن تتحقق الأماني والأحلام. ويذكرنا رسول الإسلام محمد ﷺ بهذا المعنى فيقول: « إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصلح أمر هذا الدين ». فما صفات هذا الداعية الكبير، وما صفاته الشخصية ؟

الحقيقة أن هذا الشخص نعرفه جميعاً، فهو مسلم يؤمن بالإسلام تسليماً، فيلتزم بكل ما يأمر الله به ثم يؤمن بالإسلام تطبيقاً.

فلنبحث عن صفات هذا (الشخص)، إنها تدلنا على ما يلي :

١ ـ الإيمان بالله وحـده :

إن هذا الإيمان يعني أن يؤمن (الشخص) بالله قولاً ثم عملاً فبالتسليم لله بالعبادة يجعل المسلم يخرج عبادة ما سوى الله من قلبه. سواء أكان ذلك من الأوثان أم من البشر أم من الهوى أم من الفكر أم من النظريات الفلسفية ـ بمفهوم القرن العشرين ـ ويجعله دائم التأمل والتفكير والعمل لتطبيق هذا الإيمان.

والجندي والطبيب لا يكون جندياً أو طبيباً بحق إلا إذا تدرب على المهنة التي اختارها، فالمؤمن لا بد له من أن يتدرب على ممارسة الإيمان بالطرق التالية :

أ ـ التدريب على قهر النفس :

يجب على المسلم أن يتدرب على قهر نفسه، وأن يملكها ويحسن قيادتها جيداً، وأن يبعدها عن أن تسير مسار الذين لا يؤمنون بالآخرة.

فالمال الذي بيده ليس له، إنما هو لله تعالى.

والعمل الذي يدرّ عليه المال ليس من مواهبه الخاصة، بل من القدرة الذهنية والفضيلة اللتين منحهما إياه الله سبحانه.

والنفس التي بين جنبيه ليست له، بل هي وديعة يأخذها المودع أنى شاء.

ومتي التزم المسلم بأن يملك نفسه ـ بالتدريب ـ فإنه بذلك يملك الأرض، (انّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين).

ب ـ الممارسة والتطبيق :

لا بد من اقتران الفكرة بالتطبيق والقول بالعمل، فممارسة العدل خير من الكلام النظري عنه، لأن مساعدة المحتاجين والمشاركة في ميادين الخدمة العامة والتطوعية وتنمية صلة المسلم بالمجتمع والاهتمام بمشكلاته هي التطبيق العملي للفكرة، وإلا يكون ترديد حديث رسول الله ﷺ، (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)، منطبقاً في هذا المجال. ومن الممارسات التي تصنع شخصية المسلم أن يعي الحلال فيمارسه ويعي الحرام فيتجنبه.

ومن الممارسات، الدقة في المواعيد في إعطائها والدقة فيها، فلا يحتج صاحب الميعاد بأنه تأخر لأنه صلى العصر ـ مثلاً ـ بل كان الأولى به أن يحدد الميعاد بعد صلاة العصر مضافاً إليه مسافة الطريق.

ومن الممارسات عدم إحراج الآخرين بالزيارة دون ميعاد مسبق، ويجب احترام أوقات الآخرين وارتباطاتهم. فإن كان لا بد من الزيارة فإن من حق الفرد ألا يستقبل الآخرين، (فإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم).

والحقيقة أن (الذوق) الذي تتركه الممارسة في نفوس الآخرين ذو أثر

كبير في نفوسهم لأنه هو الذي يفتح للمسلم القلب فيدخله ومعه أفكاره.

وهناك مئات الممارسات مثل هذا النوع، منها الحضور في الوقت المناسب للموظف، والخروج كذلك في الوقت المناسب، وإعطاء العمل حقه وزيادة بل أخذ المزيد من الواجبات. وبهذا تحصل الثقة بين المسلم ورؤسائه فيتقدم في عمله.

ومن الممارسات البعد عن الشهرة الشخصية لأن هذا ينافي الإخلاص، والعمل لوجه الله وحده.

ومن الممارسات البعد عن الأنانية وتطويع النفس على العمل في المجال الإسلامي التطبيقي.

٢ ـ الانتماء الشعوري للإسلام :

إذا آمن الفرد بالله رباً وبالإسلام ديناً، فإن هذا الانتماء ينبغي أن يمس القلب ويجعله يلتزم به لقوله ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). فإن كان هناك أي موقف في الحياة فينبغي أن يكون إلى جانب الموقف الإسلامي، وهذا يدفعه لتقصي الحقائق عن المواقف.

٣ ـ الوعي العــام :

المسلم مطلع دائماً على الأحداث، يتابعها ويحللها لأنه مأمور بذلك من الله، وقد فرح المسلمون حين انتصر الروم على الفرس لأن الروم كانوا أهل كتاب.

ومن نواحي تدريب الشخصية الإسلامية على ذلك قراءة الصحف اليومية أو الصحف التخصصية واستمرار القراءة والمطالعة لأن المسلم قراء بطبعه.

٤ ـ دراسة المجتمع المحلي والكبير والأكبر :

إن فهم المجتمع مطلوب من المسلم لأن هذا المجتمع هو العقل الذي سيعمل فيه ويبلغ دعوة ربه. ولقد كان الرسول ﷺ يتحدث مع كل وفد من وفود العرب بلهجته الخاصة. كما كان يلبس مختلف طرز الثياب لإشعار هذه الوفود أنه منها فتتفتح له قلوبهم فيدخلها بالإسلام.

٥ ـ الاستفادة من تجارب الآخرين :

المسلم مأمور أن يستفيد من تجارب الآخرين ـ في التطبيق لا في أصول العقيدة ـ .

وفي مجال العمل للإسلام يمكن للمسلم الاستفادة من تجارب الآخرين في ميدان الصحافة وأصول العمل فيها، وفي ميدان الإذاعة والتلفزيون وكيف تعد وتخرج البرامج الناجحة.

بل يمكن القول أكثر من ذلك، وهو أن يتخصص الشباب في ميادين جديدة متجاوزين الميادين التقليدية، أن يتخصصوا تخصصاً علمياً في ميدان الإنتاج والإخراج التليفزيوني والإذاعي والصحافي وسائر مجالات الإعلام من أجل تبليغ كلمة الإسلام إلى الناس كافة، وأن يتخصصوا في ميدان التربية وعلم الاجتماع لما لهذين الميدانين من أثر على فهم المجتمع.

٦ ـ التخصص العلمي :

من نعمة الله على المسلمين في هذا القرن أن مجال العلم والثقافة مفتوحان للجميع، والتخصص ميسر للجميع.

ومن فوائد التخصص العلمي ابتعادنا عن استقدام الخبراء الأجانب الذين ربما يقترحون الحلول غير المناسبة. والتخصص العلمي من شأنه أن يضع الجامعات في متناول دعوة الإسلام فلا تعطي غير العطاء.

لقد ولى الوقت الذي يتولى فيه قيادة المجتمعات القادة التقليديون وربما جاء الوقت الذي يتولى فيه العلماء القيادة لأنهم يملكون فهم مشاكل المجتمع وإعطاء الحل لها مع التزامهم بقواعد الإسلام، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

٧ ـ اتقان العمل :

المسلم متميز في أشياء كثيرة فهو يتلقى التوجيه من الله ورسوله. والله ورسوله يأمران بإتقان العمل، (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه).

والأجر الذي يأخذه من العمل، رغم أنه من جهده أو من المؤسسة

التي عمل فيها، إلّا أن الأجر من الله هو الأجر الحقيقي. وهذه سمة تفرق بين العمل في الإسلام والعمل من وجهة النظر الغربية.

ومن إتقان عمل المعلم ألّا يضيع وقت طلابه وجهدهم أثناء الدرس، ومن إتقان عمل الأب ألّا يترك أبناءه بغير رعاية.

ومن إتقان عمل التاجر ألّا يكذب ولا يغش.

والحقيقة أن المسلمين ـ سابقاً ـ فهموا هذا المبدأ، وعندما احتكوا بالأمم غير المسلمة رأت فيهم هذا الخلق فاعتنقت الإسلام طواعية، وما أندونيسيا والصين والهند وأفريقيا عن ذاكرتنا ببعيدة.

٨ ـ النظـام والنظافـة :

من نافلة القول أن نذكر هاتين الخصلتين، إلّا أنهما سلوك مطلوب أداؤه وخاصة في هذا القرن.

أما النظام فهو من خلق المسلم، وكثيراً ما أساء بعض المسلمين إلى الإسلام بعدم التزامهم بالنظام وتنظيم الفكر والعمل منهم، إذا وعدوا تأخروا وأخلفوا، وإذا تحدثوا رأيت الفوضى في معلوماتهم وفي تناولهم للموضوع، وإذا خطبوا أو كتبوا قاسوا أحكامهم على مقدمات خاطئة.

وإذا أردنا أن نتجنب الفوضى في التفكير والسلوك فعلينا العودة إلى سيرة رسول الله ﷺ، ودراسة خططه في الدعوة، وإرسال الوفود، وفي الغزوات لنعرف كيف صهر صحابته رضي الله عنهم في بوتقة التفكير المنظم.

وأما النظافة فلقد علمت أن إخواننا الجدد في الإسلام من المسلمين السود في أمريكا، وقد غيروا هويتهم إلى هوية الإسلام، يحرصون على التميز عن مجتمعهم السابق بالنظافة، فيحرص أحدهم على تغيير قميصه مرتين في اليوم معتزاً بأن الإسلام أمره بذلك، ولذلك جلبوا إليهم الانتباه، وهم الآن يشهدون مرة ثانية وعلى نطاق واسع معنى الآية الكريمة، ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾.

ثالثاً ـ كيف تكون الشخصية فاعلة :

تكون الشخصية ـ أي شخصية ـ فاعلة إذا توفر لها شروط ثلاثة أساسية : الإيمان بما تقول، والعمل المبني على التخطيط والتدريب، والتقويم المستمر. فإذا توافرت هذه الشروط الأساسية الثلاثة رأت الشخصية لعلمها ثمرة.

والشخصية المسلمة أولى بالأخذ بهذه الشروط لأنها مأمورة أن تعمل العمل الصالح. والعمل الصالح هنا هو العمل الدقيق المخطط المبني على إيمان.

فالإيمان يتم بالتلقي عن الله سبحانه مباشرة، من القرآن الكريم أو من السنة النبوية المطهرة.

وأما التدريب والتخطيط فمبني على إتقان العمل الذي ورد في الحديث الشريف قبل قليل، ولا يكون إتقان العمل إلّا بالتخطيط والتدريب والتأهيل.

وأما التقويم المستمر فمبني على المحاسبة اليومية المستمرة وعرض كل الأعمال على الله تعالى وطلب العون منه.

والشخصية الفاعلة ليست شيئاً جامداً بل هي مكونة من عدة جوانب، ويجب تدريب هذه الجوانب جميعها لكي تكون في مجموعها شخصية فاعلة، فما هي هذه الجوانب :

١ ـ جوانب الشخصية الإنسانية :

وجد الدارسون من العلماء أن الإنسان ليس مخلوقاً عادياً، فهو يفكر ويأكل ويتحرك، وله عاطفة وله نفس تواقة إلى كشف المجهول ومعرفته وهو يحب أن يكون مع مجموعة من الناس.

وقد عبروا عن التفكير بالجانب العقلي، وعن الحركة بالجانب الحركي، وعن العاطفة بالجانب الانفعالي، وعن النفس التواقة بالجانب الروحي، وعن معيشته مع الناس بالجانب الاجتماعي.

والإسلام لم يمانع هذا التقسيم، فلقد أمر بالتفكير واستخدام العقل في كل الأمور باستثناء الغيبيات ـ وأمرنا بتعليم الناشئة السباحة والرماية وركوب الخيل. أما الجانب الانفعالي فلقد شجع الإسلام اتباع النظام الجميل. فلقد سأل رجل رسول الله ﷺ بقوله ـ بعد أن قال النبي الرسول ﷺ عن الكبر (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر) ـ إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال الرسول ﷺ : (إن الله جميل يحب الجمال). أما النفس التواقة إلى كشف المجهول، فقد أمر الله بالتفكر في خلق الله وبالسموات وبالنجوم وبالكواكب والسير في الآفاق. أما الجانب الاجتماعي فقد أمر الإسلام بالتزام الجماعة، وقال الرسول ﷺ : (إن الذئب يأكل من الغنم القاصية)، حتى إنه أمر بالحديث على الطعام ولو كان الكلام عن السلاح.

وهكذا فالإسلام حريص على تنمية جميع جوانب النفس الإنسانية، فالقراءة والمطالعة والفكر رياضتها العقلية.

والحركة والرياضة رياضتها البدنية.

والتأمل في الكون الواسع رياضتها الانفعالية.

والاتصال بالله سبحانه رياضتها الروحية.

والتزام الجماعة رياضتها الاجتماعية.

هذه هي جوانب النفس الإنسانية التي يجب أن تكون أساسية في تربية الشخصية الإسلامية. وهذه الجوانب تنفي الجمود والجهل والعزلة والتقوقع. هذه الجوانب ينميها الإسلام في الطفل والشباب والبالغين وفي الرجال والنساء، كل حسب قدرته وحدود الإسلام.

٢ ـ وجود القدوة الحسنة :

لقد كانت القدوة الحسنة للصحابة رسول الله ﷺ وهو خير قدوة.

فقراءة سيرته أساس في تربية الشخصية الإسلامية. كيف كان يعامل الأطفال والنساء، كيف كان القلب الكبير للجميع، كيف راض نفسه ـ ترعاه عين الله ـ على أن يكون القدوة الحسنة للناس جميعاً.

واليوم مطلوب من قادة العالم الإسلامي أن يكونوا القدوة الحسنة لشباب العالم الإسلامي، مقتدين جميعاً برسول الله ﷺ، فالإسلام قادر على أن يصنع الرجال في كل وقت.

٣ ـ تطبيق الإسلام على السلوك :

إذا اقترن العمل بالإيمان كانت النتيجة سلوكاً. ولقد أجابت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله (كان خلقه القرآن).

والمطلوب من الذين يرعون تربية الشخصية الإسلامية في الوقت الحاضر أن يراعوا هذه الناحية. فعليهم النظر دائماً إلى السلوك وهو النتيجة المطلوبة، فإذا لم يحدده فعليهم أن يفتشوا عن السبب.

ولا أعني بالسلوك الخلق فحسب بل أمور كثيرة، فالاهتمام بمصالح المسلمين من السلوك الحسن، وإعطاء الوقت الجزل لدعوة الإسلام من الخلق الحسن... وهكذا يتربى المسلم على ممارسة التطبيق العملي للإسلام مسترشداً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

رابعاً : الخصائص العامة للشخصية الإسلامية :

تدلنا سنة الله في خلقه أنه لا شخصية فاعلة إلّا بما تؤمن به وتربي نفسها عليه، وفي هذا المعنى يقترن الإيمان بالعمل في آيات القرآن الكريم، ولقد ورد هذا المعنى في أحاديث رسول الله ﷺ التي منها : (ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. وإن قوماً قالوا أحسنا الظن بالله ولم يعملوا، ألا كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل).

ولكي تكون الشخصية فاعلة لا بد من توفر الخصائص التالية فيها :

١ ـ تحديد هدف العمل :

إذا تم الإخلاص لله وحده من خلال الإيمان به وحده يجب تحديد هدف العمل الذي يمارسه المسلم. والعمل للإسلام قد يكون بالكلمة المسموعة أو المرئية أو بالاحتكاك المباشر مع الناس وحل مشاكلهم، أو بالتعليم أو بالقدوة، وذلك هو أفضل أنواع التعليم. ومهما كان نوع العمل فيجب أن يحدد أولاً ثم تتخذ الوسيلة لتطبيقه.

٢ ـ اختيار الوسيلة :

إذا تحدد العمل اختير لتطبيقه أفضل الوسائل. ولنفرض أن صاحب العمل قد حدد هدفه، وهو إيصال الكلمة المسموعة، فعليه أن يدرس ـ دراسة علمية ـ كيف يؤدي عمله. فالنطق السليم، ومعرفة نفسية الذين يوصل إليهم كلمته وعقليتهم والوقت المناسب ـ له ولهم ـ هي من الوسائل التي يوصل إليهم كلمته.

٣ ـ الإخلاص لله في العمل :

ينبعي أن يكون الإخلاص رائد المسلم ـ لله وحده ـ عند إيصال كلمته، فالابتعاد عن المنفعة الشخصية والشهرة وتمجيد الذات أمور أساسية للإخلاص ؛ والنفَس الطويلُ والرحلة الطويلة والمتابعة وعدم اليأس شروط للإخلاص وإلّا فقد المسلم طريقته ووقف بل وربما أساء.

٤ ـ المراجعة المستمرة لبرنامج العمل :

المراجعة أساسية في عملية التقويم المستمر لبرنامج العمل وتعديله، وملء الثغرات التي ظهرت أثناء التطبيق.

٥ ـ الاستراحة والتزود بالوقود :

والوقود هنا هو القرآن الكريم الذي نعود إليه لنأخذ منه الأحكام والمعاني والعبر. فلعلنا نحصل أثناء القراءة على معنى جديد وطريقة جديدة تعين على الوصول إلى الهدف.

٦ ـ التنسيق بين العاملين للهدف :

إن هذا التنسيق مطلوب لمنع الازدواجية والتضارب، فما دامت النية موجودة، والعمل لله وحده، فينبغي أن يكون التنسيق موجوداً بل مطلوباً بين أصحاب الأهداف المتماثلة.

خامساً : الدور المطلوب من القائمين على الندوة :

ما دام الطريق قد وضح في كيفية إيجاد الشخصية الإسلامية العاملة

في الفرد والجماعة، فان الدور المطلوب من الحركة الإسلامية ومن القائمين على الندوة أن يضعوا الأولويات لإخراج القيادات الشابة الإسلامية إلى حيز الوجود. وأعني بالقيادات الشابة، الشباب المؤهل للعمل للإسلام، وله خصائص ومميزات تمكنه من التفاعل مع المجتمع. شباب يدخل المجتمع وقد فتح قلبه له، فيضع فيه البذرة الصالحة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. شباب مدرب على حسن الأداء.

والاقتراح هنا هو أن يوضع له منهاج للعمل ذو معالم :

١ ـ معالم المنهاج :

للمنهاج أربعة أسس لا يقوم إلا عليها وهي : الهدف، والمحتوى، والوسيلة والتقويم.

فالهدف المطلوب من القيادات الشابة أن تكون عاملة للإسلام ضمن الاختصاصات التي وهبها الله إياها.

ومحتوى المنهاج مادته التي يدرسها الدارسون، ولا بد من أن تكون متكاملة لتغطي جوانب النفس الإنسانية كلها.

ووسيلته هي الطرق التي بها يتحقق تطبيقه. فإن كان الهدف إعداد قادة رياضيين يتولون تدريب أطفال المسلمين فالوسيلة هي وضع أفضل نظم التدريب الرياضي، والإسعاف الأولي والتشريع وغيرها. والتقويم هو الواسطة التي يحكم بها على صحة المحتوى والوسيلة بدلالة الأهداف. فإذا نتج أثناء التقويم نتيجة غير الهدف وغير طبيعية الهدف فلا بد من المراجعة للمحتوى والوسيلة وإصلاح النقص الذي ظهر فيهما.

٢ ـ أهداف مقترحة ووسائل مقترحة :

ما دام الكلام محصوراً في إيجاد الشخصية الإسلامية الفعّالة، فلا بد من ذكر بعض الأهداف والوسائل يمكن للعاملين للإسلام أن يربوا على أساسها الشباب الإسلامي الذي هو الأمل المنشود.

أ ـ الأهـداف :

١ ـ توجيه الشباب حسب إمكاناتهم الذهنية والإبداعية لدراسة الحقول

التي يمكن أن يدعوا فيها ليكونوا فيما بعد قادة في ميدانهم.

٢ ـ تشجيع الشباب على دراسة البيئة المحلية.

٣ ـ إرشاد الشباب إلى أساليب اللقاءات الاجتماعية فيما بينهم بغرض التعارف لإيجاد نوع من المناخ الطاهر.

٤ ـ توجيه خريجي الجامعات لإكمال دراساتهم العليا أو الانخراط في المهن المختلفة.

٥ ـ حث أصحاب الأقلام على نشر الأدب الإسلامي والبدء بالأولويات مثل قصص الأطفال وشعر الأطفال.

٦ ـ تنمية وتشجيع مواهب القادرين على القيام بالتمثيليات والمسرحيات الإسلامية.

٧ ـ تنمية مواهب القادرين على الكتابة في الصحف.

٨ ـ تشجيع إيجاد مجموعات من محرري الصحف.

ب ـ الوسائل :

١ ـ إعداد الشباب على فنون القيادة الصحيحة في مختلف المجالات الحياتية، كل في مجال إبداعه، كالمجال الثقافي أو الرياضي أو الاجتماعي.

٢ ـ تدريب الكفاءات على أصول إقامة الندوات والمؤتمرات والحلقات الدراسية.

٣ ـ تكوين النوادي ليمارس الأطفال والشباب رياضتهم ولتنمية الناحية الاجتماعية فيهم.

٤ ـ إصدار صحافة الأطفال.

٥ ـ إصدار سلاسل من القصص الهادفة للأطفال والشباب.

سادساً : خاتمة :

هذه معالم الشخصية المسلمة العاملة في الفرد والجماعة في رأيي ؛ في الحاجة إليها وخصائصها وعملها وطريقة إعدادها، والله أسأل أن ينفع بها، (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين).

الوراثة الصالحة للحضارة المعاصرة

للدكتور فاروق حمادة
الأستاذ المحاضر بكلية اللغة العربية - مراكش

بسم الله الرحمن الرحيم

« **ولقد** كتبنا في الزبور من بعد الذكر، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، إنّ في هذا لبلاغاً لقوم عابدين »[1].

هل تستطيع الشخصية المسلمة التي اصطبغت بالصبغة الربانية أن تثبت وجودها في إطار منهج واضح، وبسلوك مطابق للتعاليم الإلهية معبر عن هذه الصبغة صادق التعبير، في هذا العالم المتوتر المشحون بالغضب واليأس، والانحراف والتمرد ؟ أجل، إن هذه الشخصية هي الملاذ، وهي الأمل الذي يبحث الناس عنه، إنها المنقذ الوحيد الذي يستطيع أن يعيد السكينة والطمأنينة إلى هذا الوجود !! « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور »[2].

إنه ليس عجباً أن ينحسر طوفان هذه الحضارة المعاصرة، ويتراجع في كثير من جوانبه بسرعة مذهلة، بعد أن بسط غثاءه وزبده على كل شيء في

(١) سورة الأنبياء : آية ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٢) سورة الحج : آية ٤١.

أرجاء المعمورة. وليس غريباً أن ينتشر الذعر والخوف والهلع في أحياء تلك المدن الضخمة الأنيقة وشوارعها الممتدة الطويلة، بعد أن بقيت مدة من الزمن آمنة مطمئنة يأتيها رزقها من كل مكان، وتنشر هي القتل والذعر والدمار خارج حدودها، بعيداً عن أجوائها وأنحائها !! ليس عجباً كل ذلك، بل إننا لنعتقد أن هذا الغزل، الذي حيك على غير هدى من الله ورضوان، سينقض أنكاثا ولسوف تقضي هذه الحضارة كما قضى غيرها من قبل، ان لم تتداركها اليد الصالحة والجماعة المؤمنة فتأخذها حيث يريد الله سبحانه، إنه ناموس كوني وقدر إلهي : « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً »[1].

لقد بيّن لنا القرآن الكريم واقع حضارات عديدة، قد شيدت وعلت وتطاولت ثم تهاوت وبيدت وانتهت إلى غير رجعة، ومن استعراض سور القرآن وجدت أن هناك سورة خاصة بقيام الحضارات واندثارها، وقد خصها - أي السورة - النبي ﷺ - بمزيد من التأمل والإمعان لما فيها من هذا المشهد المأساوي المؤثر، حتى أنها أثرت في نفسه عليه الصلاة والسلام أبلغ الأثر وأظهره حين عبّر عن ذلك، وقد سأله أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن ظهور علائم الكبر والتعب في ملامحه صلوات الله وسلامه عليه بقوله : أراك قد شبت يا رسول الله ؟ قال : شيبتني هود، وأخواتها..[2].

أجل.. إن سورة هود قد أبانت عن المثلات والنوازل المريعة التي حلت بالقرون الخوالي والأمم الماضية، وكشفت عن هذا القانون الإلهي الصارم الذي يحكم هذا الكون أمام الباقين عساهم يعتبرون ويهتدون، وإن استعراضاً سريعاً لهذه السورة الكريمة التي أهم النبي ﷺ شأنها، نجد فيها أن ست حضارات قد حلت بها نقمة القوي الجبار فأصبحت حصيداً كأن لم تغن بالأمس، ونجد كذلك من خلال الآيات القرآنية الكريمة أن كل

---

(١) سورة النساء : آية ١٢٣.
(٢) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب. أنظر الأحوذي ١٩٣/٤، والحاكم في مستدركه وقال : على شرط البخاري وأقره الذهبي ٣٤٣/٢، وأبو يعلى الموصلي في مسنده، والطبراني، انظر تفسير ابن كثير ٥٢٤/٣.

واحدة من هذه الحضارات قد سيطر عليها نوع بارز من الانحراف الذي جر عليها الوبال والدمار بعد أن أعرضت عن هدى الله سبحانه وتعالى وهديه.

تطالعنا السورة بقوم نوح عليه السلام وقد لبث فيهم داعياً إلى الله والهدى ألف سنة إلا خمسين عاماً وهم مصرون على استكبارهم وعنادهم، قد ملأ قلوبهم الشعور بالعظمة وغشى أبصارهم عقدة السمو والكبرياء، فاحتقروا الضعفاء والفقراء، وازدروا المعدمين والمساكين، وتاهوا في شعاب هذا الترف الطبقي المستعلي على الحق والصدق والهدى، فإذا دعاهم نوح عليه السلام أجابوه بهذا المنطق المنحرف، وجابهوه بهذه الحجة السقيمة، « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي»[1]، وان أمة سيطرت عليها هذه الضلالة واستخفتها هذه الغواية لجديرة بالفناء والزوال، وكذلك كان « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون »[2].

أما عاد قوم هود، فقد غرتهم قوتهم، وما هم فيه من شوكة وسلاح، وزادهم غروراً، خيرات الأرض المتدفقة، وثمراتها المتكاثرة، فجحدوا نعمة الله، « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين »[3]. فعصوا رسله واتخذوا قادة ارهابيين من العتاة المجرمين الذين يحادون الله ورسله، يقطعون الطريق، ويشيعون الخوف والرعب في الأحياء والأنحاء « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد »[4]، فاستحقوا اللعنة الأبدية، والنكال الأليم : « وأُتبِعُوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة، ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بُعْداً لعاد قوم هود »[5].

---

(١) سورة هود آية ٢٧ بادي الرأي. في قراءة من لم يهمز بادي : معناه ظاهر الرأي، ومن همز معناه أول الرأي، إي تبعوك عن غير فكر ولا ترو ولا نظر، بل بمجرد دعوتك أجابوك سريعاً وانقادوا إليك قبل غيرهم.

انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢٨٧/١/ وتفسير ابن كثير ٥٤٧/٣.

(٢) سورة هود : آية ٣٧.

(٣) سورة هود : آية ٥٢.

(٤) سورة هود : آية ٥٩.

(٥) سورة هود : آية ٦٠.

وثمود قوم صالح الذين كانوا يرفلون في الرخاء والنعمة، وسعة العيش بعد الفقر والعدم، « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »[1]، يتقلبون في جنات وارفة، وعيون ثرة جارية، وزروع مختلفة وأشجار باسقة بشتى الطعوم والألوان والأشكال، كل ذلك في أمن كامل وسلام شامل، تتناثر بينها القصور العتيدة والأبراج الشامخة عنواناً لهذه النعمة الإلهية الغامرة.

« أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين »[2]. ولكنهم أسرفوا على أنفسهم وظنوا أن المال كل شيء في هذه الحياة واستخدموه على غير وجهه المشروع، فصدهم بطرهم عن سماع كلمة الهدى ورؤية الطريق الصحيح، وتمادوا على حرمات الله لأنها حالت بينهم وبين شهواتهم ومتعهم، فعقروا الناقة..

« فعقروها، فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب.... وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها، ألا إنّ ثموداً كفروا ربهم، ألا بعداً لثمود »[3]. وهكذا طوتهم صفحة النسيان، ودخلوا ليل التاريخ المظلم، وما كنا لنعلم عنهم شيئاً لولا حديث القرآن الكريم.

ثم قوط لوط الذين سخروا القوة التي كانوا يتمتعون بها لقهر الضعفاء والتنكيل بهم حماية للشهوة المرذولة والسيئات المردية التي انتشرت فيهم انتشاراً خطيراً فلم تعد سراً يستر، وعيباً يستحيا، بل غدا الأمر جهاراً يدافع عنه بحد السيف ويتفاخر به، وتدور في فلكه عصابات وجماعات تتحدى العقلاء وتخرج على قواعد المجتمع وعرفه، ممزقة بذلك هذا المجتمع، قاهرة لكل رجل رشيد فيه ــ إن كان ــ « فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي، أليس منكم رجل رشيد، قالوا : لقد علمت ما لنا في بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد، قال : لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد »[4].

---

(١) سورة هود : آية ٦١.

(٢) سورة الشعراء : الآيات ١٤٦ ــ ١٤٩.

(٣) سورة هود : آية ٦٥ ــ ٦٨.

(٤) سورة هود : آية ٧٨ ــ ٨٠.

عندما انتشرت فيهم الفاحشة وأصبح كل شيء لأجلها لم تعد تنفعهم دعوات الداعين، ولا شفاعة الشافعين، بل سرى عليهم ما سرى على غيرهم من قانون ونظام هذا الكون : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد »[1]، وإن رجاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومجادلته دونهم لم يحل دون وقوع العذاب : « فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط، إن إبراهيم لحليم أواه منيب »[2]. إنه قد فات الأوان، وانقضت : الفرصة، « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود »[3].

وإلى مدين قوم شعيب حيث أكرمهم الله بنعمه السابغه، فصبت السماء قطرها، وأخرجت الأرض خيرها وثمرها، فلم يشكروا للمنعم نعمته، بل غووا وطغوا وتنافسوا في التكاثر بالأموال وانحرفوا عن الحق ولعبوا بالموازين شحا وأثرة ليس عن فقر وإملاق، بل عن تكاثر وتفاخر، وسلكوا كل سبل الفساد لأجل ذلك من ربا ومقامرة وغيرها، وصدهم سيطرة حب المال وجمعه على قلوبهم عن الاعتبار بالماضين والاهتداء إلى سنن الصالحين، فكان نبيهم شعيب عليه السلام إذا قال لهم : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير.. »[4] أجابوه بأنه لا يعرف أنظمة الاقتصاد، ولا مفاهيم التجارة التي ورثوها عن الآباء والأجداد، « قالوا : يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أَوْ أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء، إنك لأنت الحليم الرشيد »[5].

وهددوه بالقوة التي عندهم إن لم يكف عن دعوتهم ليرجمنه وليطردنه و.... واستشرت سكرة حب العيش والمال فيهم حتى جاء أمر الله، « وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يغنوا

---

(١) سورة هود : آية ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) سورة هود : آية ٧٤ ـ ٧٥.

(٣) سورة هود : آية ٧٦.

(٤) سورة هود : آية ٨٤.

(٥) سورة هود : آية ٨٧.

فيها، الا بعداً لمدين كما بعدت ثمود »[1]. وجاء بعد هؤلاء جميعاً فرعون وقومه حيث لا تزال طلولهم ماثلة للعيان شاهدة على أن فرعون كان من الظلم والعسف والقسوة بمكان، فأضل قومه واستعبدهم، وقال لهم : « أنا ربكم الأعلى »[2]، « فاتبعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار، وبئس الورد المورود، وأتْبِعوا في هذه لعنة ويوم القيامة، بئس الرفد المرفود »[3].

إن هذه الأمم لترشدنا الكلمة الإلهية إلى السبب الأساسي في تهاويهم واندثارهم وذلك في قوله تعالى : « .. وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد »[4].

إنه الظلم بمعناه الواسع، والظلم لغة وضع الشيء في غير موضعه المختص، به إما زيادة وإما نقصانا، وإما بعدول عن زمانه أو مكانه[5].

قال بعض الحكماء : الظلم ثلاثة أنواع، الأول : ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم »[6]، والثاني : ظلم بينه وبين الناس وهو المقصود بقوله تعالى : « إنه لا يحب الظالمين »[7]، « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس »[8].

---

(١) سورة هود : آية ٩٤ ــ ٩٥.
(٢) سورة النازعات : آية ٢٤.
(٣) سورة هود : آية ٩٧ ــ ٩٩.
(٤) سورة هود : آية ١٠١ ــ ١٠٢.
(٥) انظر : الفيروزآبادي : القاموس المحيط ــ مادة ظلم، والراغب الأصبهاني، مفردات القرآن الكريم، مادة ظلم.
(٦) سورة لقمان : آية ١٣.
(٧) سورة الشورى : آية ٤٠.
(٨) سورة الشورى : آية ٤٢.

والثالث ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه »[1] (أ). وقد جاءت دلالة الظلم الوارد في القرآن الكريم على الأمور التالية : الشرك بالله، والكفر به، وجحود هداية السماء والكتب المنزلة، وعلى ارتكاب المحظورات والمنهيات والمخالفة للجادة، وعلى الاعتداء حلى حرمات الناس بغير حق في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وتدل على الجور في الحكم والقضاء (ب).

ويجمع هذه الأنواع كلها اسم (المعصية). (جـ). فكل ظلم معصية حيث يخرج به الإنسان عن طاعة الله وهداه الذي أوضحه الرسل والأنبياء، سواء كان ذلك في العقيدة والفكر، أم في المعاملات والمبادلات ـ أعني في القوانين التي تنظم المجتمع ـ أم في السلوك والتصرف ـ وأعني بذلك قوانين بناء الفرد والأسرة والجماعة أو ما يسمونه بالأحوال الشخصية ـ فإذا تعاظمت المعصية وانتشرت فقد حل البلاء ووقع العقاب، ولهذا كان الأمر الإلهي للنبي ﷺ في هذه السورة نفسها تعقيباً على مصارع الأمم الغابرة : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك. ولا تطغوا، إنه بما تعملون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون »[2].

وإن الأمم السابقة قد ابتليت بواحدة أو أكثر من هذه المعاني، فبعضها جحد هداية السماء واستعلى على الرسل والأنبياء، وبعضها أضاف إلى هذا الاعتداد بالقوة والركون إليها، وبعضها اختلت فيها أنظمتها الاجتماعية وفسدت فيها الأمم والنفوس، وبرزت نوازع الشر وسيطر حب المال، وبعضها عمتها الفاحشة واختلت فيها علاقة الرجل بالمرأة خاصة وعلاقة الإنسان بالإنسان عامة فهي في مظاهر الانحراف والفساد التي

---

(١) سورة فاطر : آية ٣٢.

(أ) انظر : الراغب الأصبهاني مفردات القرآن الكريم مادة ظلم.

(ب) انظر : الدامغاني، اصلاح الوجوه والنظائر ص ٣٠٨.

(ج) انظر : الحكيم الترمذي، تحصيل نظائر القرآن الكريم ص ١١٠.

(٢) سورة هود : آية ١١٢ ـ ١١٣.

كانت سبب الدمار والزوال متشابهة تمام التشابه، ولهذا أسماها الله عز وجل « ظالمة » : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة »[1].

وإن هذا الأمر قد توصل إليه عدد من الباحثين الذين لا يستندون إلى هدى القرآن ولا ينطلقون منه وربما لم يقرؤوا هذا التحليل القرآني لتردي الحضارات ولم يسمعوا به ؛ ومن هؤلاء الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبون الذي كتب عن الحضارات الأولى وحضارة الهند وحضارة الغرب وغيرها حيث يقول : ونحن إذا ما بحثنا في الأسباب التي أدت بالتتابع إلى انهيار الأمم، وهي التي حفظ لنا التاريخ خبرها كالفرس والرومان وغيرهم وجدنا أن ـ العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي تغيراً نشأ عن انحطاط أخلاقها، ولست أرى أمة واحدة زالت بفعل انحطاط ذكائها. ووجه الانحلال واحد في جميع الحضارات الغابرة وهو من التشابه ما يسأل به مع أحد الشعراء عن كون التاريخ صفحة واحدة وإن اشتمل على عدة مجلدات.

ومن هؤلاء أرنولد توينبي ـ المؤرخ الشهير في العصر الحاضر ـ حيث يقول : إن الاختلافات بين الحضارات النامية تتسم بالإنفساح والعمق، ومع ذلك سنجد عملية الانحلال تنزع إلى المواءمة في جميع الحالات على نمط قياسي. ويقول فوستل دوكولانج : « ألم يكن المرض الذي كان المجتمع الروماني يألم منه هو فساد الطبائع، بل فتور العزيمة، ومن ثم وهن الأخلاق ».

العاقبة للمتقين : ومن خلال النص القرآني نجد أن الحضارة عندما تتحلل والأمة تندثر لا ينجو منها إلّا الذين عرفوا مكمن الداء فاتقوه، ومركز الخطر فاجتنبوه، ولم يكتفوا بذلك الجانب السلبي، بل كانوا إيجابيين محذرين ومنذرين من سوء العاقبة، وشر المصير، فمع نوح عِليه السلام نجت القلة المؤمنة « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول ومن آمن، وما آمن معه إلّا قليل »[2].

---

(١) سورة هود : آية ١٠٢.

(٢) سورة هود : آية ٤٠.

وقوم هود، كذلك نجا المؤمنون « ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ »[1].

والذين آمنوا بصالح كذلك نجوا وأخزى الله العاصين « فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ، إن ربك هو القوي العزيز »[2].

وقوم لوط الذين لم يكن بينهم غير بيته وليس منهم امرأته نجوا دون العصاة والمذنبين..

« قالوا : يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، إنه مصيبها بما أصابهم، إنّ موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب »[3].

ومثلهم قوم شعيب « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين »[4]، ونجى الله موسى ومن آمن به، وأغرق فرعون وجنده.

إلّا أن الأمر الملفت للنظر والمؤكد، أن المؤمنين لم يكونوا سلبيين فارين من ساحة المجتمع إلى المغاور والكهوف، بل كانوا دعاة للخير، حرباً عل الرذيلة والمعصية.

استثناء : وإن المجتمعات التي ترتكب واحدة أو أكثر من المعاصي العديد وتستشري فيها يقع بها التغيير بدون شك فهي، إما أن تزول نهائياً وتصبح أثراً بعد عين، وإما أن يقيض الله لها من يهديها إلى مكمن الخطر وتدركه الأمة فتقلع عنه وتغير الاتجاه، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا النوع من التغيير مرتين اثنتين، الأولى عن الأمة التي بعث فيها سيدنا يونس بن متى عليه السلام، والثانية الأمة المصرية التي ساقت الأقدار الإلهية إليها الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب عليهم وعلى نبينا أفضل

---

(١) سورة هود : آية ٥٨.

(٢) سورة هود : آية ٦٦.

(٣) سورة هود : آية ٨١.

(٤) سورة هود : آية ٩٤.

الصلاة والسلام، وإذا كان حديث القرآن الكريم قد جاء عن أمة يونس مقتضباً مجملاً، فقد جاء عن الأمة المصرية ويوسف مفصلاً كاملاً في سورة كاملة، هي التي هدتني بفضل الله إلى تحديد موقف الشباب المسلم من حضارة تحتضر وتوشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة !!!.

أما يونس بن متى عليه السلام، فقد خصت السورة التي وردت فيها الإشارة إليه مع قومه باسمه، وغير خاف أن تسميه السورة القرآنية كانت من الشارع الحكيم، والسورة مكية نزلت حين كانت الجماعة الوارثة تعاني أشد المحن وأقساها، وتسمع كلام الله يتلى فيه قصص السابقين والغابرين والمنحرفين الذين دمر الله عليهم ديارهم، وكانت هذه الجماعة تنظر الواقع المنحرف المظلم الذي يستحق أهله البوار والدمار، فكانت هذه السورة التي تحمل اسم سيدنا يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام مذكرة بحاله مع قومه حيث يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين »[1].

يقول أبو عبيدة في تفسير هذه الآية : فهلا كانت قرية إذا رأت بأسنا آمنت فكانت مثل قوم يونس، ويقول ابن كثير : خرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما ـ لما رأوا أسباب العذاب ـ جأروا إلى الله تعالى واستغاثوا به، وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندما رحمهم الله وكشف عنهم العذاب أُخِّروا.

أما الأستاذ الشهير سيد قطب فيقول تعليقاً على هذه الآية : وحسبنا أن ندرك أن قوم يونس كان عذاب مخز يتهددهم، فلما آمنوا في اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب، وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل، ولو لم يؤمنوا لحل بهم وفاقاً لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه..

---

(١) سورة يونس : آية ٩٨.

حسبنا هذا لندرك أمرين هامين :

أولهما : الإهابة بالمذنبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي، وهو الغرض المباشر من سياقه القصة هذا المساق..

أجل إنها إهابة بالمنحرفين أن يغيروا اتجاههم ومواقفهم فإن رحمة الله قريب من المحسنين، فإذا توفر لديهم الاستعداد وصدقت النية وصحت العزيمة وشقوا الطريق الجديدة، فإن الله يغير حالهم ويبدل مآلهم كما قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1].

وحتى لا يظن ظان أو يعتقد معتقد أن الذين آمنوا بيونس فكانوا بمنجاة من العذاب الأليم قلة قليلة وجماعة يسيرة ذكرهم المولى عز وجل في موضع آخر من سورة مكية أنهم أمة كبيرة حيث قال سبحانه وتعالى : « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا فمتعناهم إلى حين »[2].

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن الحضارة التي آذنت بالرحيل، فأنقذها الله عز وجل بشباب الإيمان، فغيرت وجهتها واستمرت إلى حين، أذكر بأمرٍ مهم جداً ألا وهو أن هذه السور الثلاث المكية، يونس وهود ويوسف قد نزلت تباعاً في مكة، على ترتيبها الذي بين يدينا الآن في المصحف، وهذا الترتيب من وضع الحكيم العليم كما يرى ذلك جمهور علماء المسلمين، ولم يخالف في ذلك إلّا عدد قليل جداً من العلماء.. وفي هذا الترتيب دلالته ومغزاه، حيث كانت سورة هود تتحدث عن النهايات القاسية التي ختمت بها حضارات انحرفت عن هدى الله، بعد إشارة عابرة إلى نجاة أمة واحدة في سورة يونس قبلها، ثم جاءت سورة يوسف لتوضح أبعاد أمة عريقة في الحضارة والتنظيم، وتدل على مواضع الخلل والمعصية فيها، وكيف يقف الشاب المسلم حيال هذا الخلل وتوضح له السبيل لإصلاحها وإعادة تنظيم هذه الحضارة !! وكأني أرى في ذلك أن البشرية بعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام قد رفع الله عنها الدمار الكلي السريع

---

(١) سورة الرعد : آية ١١.

(٢) سورة الصافات : آية ١٤٧.

الذي كانت تتعرض له الأمم السابقة انطلاقاً من عالمية الرسالة المحمدية وشاهديتها على الناس أجمعين، واستمرار طائفة من حملة هذه الرسالة هداة للحق، وحجة على الناس أجمعين كما قال ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).

لهذا كان من حكمة الله عز وجل أن يبقى نموذج يوسف، الذي تولاه ربه واجتباه وعلمه الحكمة، مثلاً حياً ونموذجاً عالياً أمام الشباب المسلم في كل العصور والدهور، ولهذا كان جواب النبي ﷺ، عندما سئل عن أكرم الناس وأنقاهم قال : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم خليل الله، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

وغير خاف أن قصة يوسف وردت بتمامها وطولها في سورة واحدة كاملة بلغت مائة وإحدى عشرة آية، لم يذكر في هذه السورة سوى هذه القصة وما يدور في إطارها، ثم إن هذه السورة تناولت شخصية يوسف عليه السلام الشاب الوسيم القسيم في كل مجالات حياتها وأبعادها، وبكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب، وتلك المجالات.

فارقان أساسيان : عندما حل يوسف عليه السلام في المجتمع المصري بتقدير العزيز العليم كان على إرث سماوي من تعاليم الهداية الإلهية تلقاها من والده النبي الكريم، وعاشها حياة في أحضان والديه وإخوته وأسرته، هذا الإرث لم يكن يعرف منه المجتمع المصري شيئاً، وإن كانت منه بقايا في ذلك المجتمع تحدرت عبر القرون فقد شوهت وتغير وجهها الصحيح، فأصبحت ميتة لا حياة فيها ولا حراك، وهذا فارق أساسي بين أمم وحضارات تمسها نفحة السماء وأمم تسد المنافذ والأبواب في وجه هذه النفحة العلوية !!.

ثم إن يوسف، الذي كان الإنقاذ على يديه، لم يكن من ذلك المجتمع بل كان وارداً عليه من البادية من أرض كنعان حيث لم يبلغ المد الحضاري ما بلغه في المجتمع المصري، وبالتالي فإن الفطرة في مكان نشأة

يوسف أشد صفاء وأكثر نقاء، يستتبع ذلك أن التفكير عند الأقوام التي لم تنشأ في الحضارة وتكون أسيرة لها يكون أقوم وأهدى.. وهذا فارق آخر مهم يؤخذ بعين الاعتبار لتحديد المواقف لتقويم حضارة ما !!.

سمات تلك الحضارة : كانت سمة تلك الحضارة التي واجهها يوسف عليه السلام التنظيم الرفيع والتقسيمات الاجتماعية الدقيقة، يغشى ذلك كله الترف المادي العظيم الذي كانت تنعم به. يدلنا على ذلك قوله تبارك وتعالى : « وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي... »[1]، « قالت امرأة العزيز.. »[2]، « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه : »[3]، « وقال الملك إني أرى سبع بقرات... يا أيها الملأ أفتوني في رُءْياي »[4]، بطانته من حوله، « وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم »[5]، العبيد المأمورون الذين يرقبون إشارة سيدهم.. وكل منهم يختص بعمل معين، « قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً »[6]، « اجعلني على خزائن الأرض »[7]، وزارة خاصة بالمال.. « سجن » وإدارة للسجُون.

أما مظاهر الترف والنعيم فيدل عليها قوله تعالى : « وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهم سكيناً... »[8]، فإن استعمال السكاكين في الأكل والاتكاء على الوسائد والحشايا قبل آلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية ـ السقاية ـ التي كان يختص بها الملك، « وغلقت الأبواب... »[9]، « واستبقا الباب »[10]، دليل على سعة القصور

---

(١) سورة يوسف : آية ٥٤.
(٢) سورة يوسف : آية ٥١.
(٣) سورة يوسف : آية ٣٠.
(٤) سورة يوسف : آية ٤٣.
(٥) سورة يوسف : آية ٦٢.
(٦) سورة يوسف : آية ٣٦.
(٧) سورة يوسف : آية ٥٥.
(٨) سورة يوسف : آية ٣١.
(٩) سورة يوسف : آية ٢٣.
(١٠) سورة يوسف : آية ٢٥.

وحدائقها وأفيائها وهي محكمة الأقفال عالية الأبراج والأسوار.

أزمة تلك الحضارة :

وكانت تلك الحضارة تعاني أزمات خطيرة تجرها بسرعة نحو الهاوية، يتجلى لنا ذلك من خلال النص القرآني وحده، لأني لم أنقب في غيره من كتب التاريخ عن تحديد زمان تلك الحضارة، لأن كتب التاريخ ضرب من الأوهام والظنون عن أمة لم تشهدها.. وكان النص القرآني كافياً لإلقاء نور عليها وعلى أزماتها وهي كالتالي :

١) أول تلك الأزمات في ذلك المجتمع الفراغ الديني والضياع العقدي، حيث كان الناس متعددي الاتجاهات، مختلفي الديانات، وكلها تتجه نحو غير الله سبحانه وتعالى، يدلنا على ذلك قوله تعالى على لسان يوسف الذي رصد حركة ذلك المجتمع وعاش في قصوره وسجونه فقال : « يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان »[1].

وإن الآية القرآنية في سياقها وكلماتها « أرباب، أسماء » لتدل على الكثرة الكاثرة من الآلهة المعبودة في تلك الأمة، وربما كان فيها إلى جانب مظاهر الطبيعة، بشر وملوك يعبدون كذلك، يدل عليه قوله تعالى « متفرقون »، كل واحد حوله شيعته وطائفة تدين له بالولاء وتظهر له الطاعة، وهذا التعدد والتفرق كان من أكبر الأخطار التي تهدد تلك الحضارة.

٢) أزمة اجتماعية بلغت ذروتها في التحلل الخلقي، وسيطرة الجنس الذي سخر كل شيء في سبيله، ولا سيما في بيوت علية القوم وسادتهم مما دعاهم إلى الدوران حول هذا المحور، وتقديس الجمال والركوع في محرابه والتضحية بكل شيء في سبيل الحصول عليه، فالألم يحتمل، والعذاب يُستمرأ ويدل عليه قوله تعالى : « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن : حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلّا ملك كريم، قالت : فذلكن الذي

(١) سورة يوسف : آية ٣٩ ـ ٤٠.

لمتنني فيه »[1]، إنهن حين رأين جمال يوسف وطلعته الوسيمة، نسين أن أيديهن قد قطعت، وأكملن حديثهن بلهفة وشوق، « حاش لله ما هذا بشراً »[2]..

فإن قال قائل : إن قولهن : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه يدفع ذلك، نقول : بل يؤكده، حيث كان من المستهجن عندهن أو أن الغرابة في الأمر، أن امرأة عزيز مصر في مكانتها وسلطانها ورفعتها تتدنى إلى مستوى فتاها المملوك، أو الذي تبنته وجعلته كولدها كما جاء في قوله تعالى حيث قال العزيز لامرأته : « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً »[3]. ويزيد هذا الأمر تأكيداً قوله : « فلما سمعت بمكرهن »[4]، مكرهن حيث تدل هذه الكلمة على أن بقية النسوة ليس لهن الحق في هذا الاعتراض وكثرة القيل والقال، ولهذا عدته امرأة العزيز مكراً. ويدل عليه قول يوسف عليه السلام : « رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه، وإلّا تصرف عني كيدهن أصْبُ إليهن... »[5].

ومن هذا نستنتج أن الطبقة المترفة كانت تعيش لهذا.. وتبحث عنه وعن أخباره، وكانت دوائر خاصة ترقب هذا النوع من المعلومات وتتداوله، يدل على ذلك سرعة انتشار خبر امرأة العزيز حيث لم يشهد الواقعة غير زوجها وشاهد واحد من أهلها ويوسف وكانت وراء أسوار وأبراج مقفلة. وإلى جانب التحلل الأخلاقي انحراف القوانين والأنظمة بدليل أن يوسف رفض التمسك بها لأنها جائرة، وانتشار الخيانة والفساد بين الموظفين.

أزمـة الفكر والقيـادة :

حيث خبا نور العلم في هذا المجتمع الذي سيطرت عليه الوثنية وعبادة غير الله، وسخر جهوده في خدمة الشهوة والترف وهذا ما نجده في

---

(١) سورة يوسف : آية ٣١ ـ ٣٢.
(٢) سورة يوسف : ٣١.
(٣) سورة يوسف : آية ٢١.
(٤) سورة يوسف : آية ٣١.
(٥) سورة يوسف : آية ٣٣.

تخبط الملك، وقد رأى رؤياه التي هالته فاستنجد بالملأ القريب والبعيد ليعبروها له، ولكنه وجد معين العلم قد نضب، وعيونه قد جفت، وإني حين أقرأ قوله تعالى حكاية عن الملك : « يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون »[1]، أتخيله يصرخ بأعلى صوته حين لم يجد عند بطانته والمقربين إليه علماً ومعرفة يستنجد البعداء والنائين، لأن (يا) كما هو معلوم تستعمل في نداء البعيد، ومع ذلك كان الجواب عندهم جميعاً « أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين »[2]، وهذه حيلة الجاهل حين يسأل فيقول : لا علم لي بهذا الجانب..

إذا كان الملك والقيادة يتخبطون بجهلهم، وكان الناس وعلماؤهم عاجزين عن حل مشاكل هذه القيادة وتخبطاتها.. وإنه لفقر فكري رغم مظاهر الترف والحضارة العظيمة والتنظيمات الدقيقة وبالتالي إنها لأزمة..

٤) وبدأ يلوح في الأفق نذير أزمات اقتصادية خطيرة، كانت ستهلك الحرث والنسل، وتقطع دابر العباد لولا أن منّ الله على تلك الأمة بيوسف الصديق، هذا النذير الذي بدأ يلوح في الأفق هو الذي دعا الملك حين أوّل له يوسف رؤياه على وجهها الصحيح أن يعجل باستقدامه، وأن يلح في طلبه مستعيناً به راكناً إليه، وعندما طلب منه منصب التحكم في خزائن المال والسيطرة على الميرة لم يتردد الملك لحظة واحدة بل دفعها إليه راضيـاً، وهذا شأن القادة في كل زمان ومكان حين يعثرون بأزمة ويجدون الحل عند شخص ما يسلمون له القيادة، ويعهدون إليه بتسيير كل الأمور..

هذا الأتون الحضاري المستعر الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام ليكون طليعة مؤمنة نبراساً للاحقين كيف كانت مواقفه وتصرفاته ـ التي رضي الله عنها وأودعها خالد كلماته عبرة وتبصرة وسبيلاً آمناً لكل المؤمنين ؟ حيث قال عز من قائل : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله، وما أنا من المشركين »[3].

---

(١) سورة يوسف : آية ٤٣.

(٢) سورة يوسف : آية ٤٤.

(٣) سورة يوسف : آية ١٠٨.

أجل !! كانت مواقف بشرية بكل ما في البشرية من أبعاد، إلا أنها تستلهم هدى الله وتعتمد عليه في كل حال وشأن، وهذا هو مفرق الطريق بين المؤمن الذي وصل حِبالهُ بالله، وبين الكافر الذي قطع هذه الصلة وأخلد إلى الأرض، فمثله كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث.

ويمكننا تحديد بعض المواقف الأساسية في تصرفات يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام :

١ ـ التعالي عن السوء والفحشاء :

فقد وقف يوسف تجاه سعار الجنس المنتشر وقفة المؤمن المعتصم بالله الذي يأبى أن يدنس أردانه، أو يلطخ عفته، وقد وقف هذا الموقف من منطلق التربية السليمة والمعرفة القويمة التي تلقاها من والده النبي الكريم لحرمة هذه الفعلة الشنعاء، والمنكر الوبيل وقد راودته سيدته وتكررت المراودة، ولكن البشرية أدركت يوسف حيث كانت مواقفه كما قلت مواقف بشر له كل نزعاته، وشهواته، وبجوارها في قلبه نور الإيمان وداعي الله، وهنا حين تكررت المراودة، وأدركته لحظة الضعف البشري التي كادت تنتصر لولا أن رأى برهان الله، وقد قيل في ذلك أنه رأى صورة يعقوب عليه السلام في سقف الغرفة وهو عاض على أصبعه، وقيل : إنه رأى سيده، وقيل : أنه سمع صوتاً اتق الله، وقيل إنه قد رأى آيات مكتوبات...... الخ.

ومهما كان الأمر فقد رأى برهان الله فتذكر نعمة الله عليه فإذا هو مبصر فولى هارباً نحو الباب، إنها حال المؤمن التقي في كل زمان ومكان حيث يقول سبحانه وتعالى : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »[1].

إذاً إنها التربية الإسلامية الصحيحة التي تستند في أوقات الحرج والعنت والحلكة إلى برهان الله، وليس كل الشباب يتأتى لهم رؤية هذا البرهان بوحي من السماء، فيجب على الدعاة أن يمدوا الشباب الذين تولوا تربيتهم بهذا البرهان بين الفينة والفينة، وهذا البرهان الرباني قد استخدمه

---

(١) سورة الأعراف : آية ٢٠١.

النبي ﷺ في تربيته وتقويمه للمنحرفين الذين أعلنوا توبتهم في غير موقف من مواقفه عليه الصلاة والسلام، منها حين حدث أصحابه عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً وأكمل تمام المائة بالراهب المتعبد، واستفتى بعد ذلك العالم فقال : غيِّر هذه الأرض التي عصيت الله فيها..

إن برهان الله عصم ابن الأكرمين يوسف عليه السلام من السوء والفحشاء في عالم لا يقيم للشرف ولا للعرض وزناً ولا معنى.. وهذا البرهان هو الذي ملك على يوسف أقطار قلبه وجميع مشاعره، فجعله يتمنى السجن والتعذيب ومغادرة القصور والجنان حتى لا ينحدر دون مستوى هذا الإيمان، إنه موقف التربية بالبرهان !!

٢ ـ رجــل العقيــدة :

ويظهر يوسف عليه السلام، في هذا الخضم المتلاطم من العقائد والعبادات والشعائر والأفكار، رجل العقيدة الإسلامية الصحيحة التي يبلغها في أي مكان يستطيعه، فلم تبطره النعمة التي كان يحياها في بيت العزيز ولم تطغه، ولم تنسه البأساء واللأواء التي قاساها في غياهب السجن الدعوة إلى عقيدته وبيان زيف العقائد الأخرى بأسلوب حكيم في الوقت المناسب، ويظهر لي ـ والله أعلم ـ أنه كان بإمكان يوسف أن يدعو العزيز وآله إلى الله عندما كان بينهم، خصوصاً عندما كانت المراودة والإغراء على أشدهما، وأن ينصح ويدل زوجة العزيز على الطريق القويم.. كان بإمكانه، ولكنه ـ والله أعلم ـ لم يفعل، ولم يقص ربنا تبارك وتعالى في هذا الشأن شيئاً لأن هذه الطبقة أبعد عن القبول وأنأى عن الهدى من الطبقات الأخرى خصوصاً عندما تكون الحضارة في طور الأفول، وهذا ما يؤكد لنا عناية الدعاة إلى الله بالطبقات الفقيرة، وعدم إهمال الطبقات الغنية، ويؤكد لي ذلك ما جاء في غير موقف وحديث أن ضعفاء الناس ـ غالباً ـ هم الذين يتبعون الرسل ويسبقون الأغنياء إلى الإيمان..

ورجل العقيدة يوسف هو الذي دعته عقيدته إلى هجر حياة النعمة والترف إلى حياة السجن حياة البؤس والشظف، لأن النعماء التي كان يحياها لا تتفق وعقيدته، فطلب السجن الذي يتوارى فيه لأنه أينما تنقل في ذلك

المجتمع سيكون موضع دعوة إلى الفحشاء والسوء، « قال : رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه.... »[1].

٣ ـ السلوك القويم :

وكان يوسف في تقلبه هنا وهناك يعبر أصدق تعبير عن عقيدته بمخالفته للمجتمع الذي هو فيه بسلوك متميز، واستقامة عظيمة، كانت محل تقدير وإعظام من كل من رأى يوسف عليه السلام، هذا السلوك القويم والتصرفات اللبقة، والمعايشة الحسنة جاء التعبير عنها في غير موضع من السورة بوصف يوسف عليه السلام « بالمحسن »، جاءت في قوله تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين »[2].

وقال له صاحبا السجن : « نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين »[3]. وفي قوله تعالى « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين »[4]، وقال له أخوته قبل أن يعرفوه : « يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه، إنا نراك من المحسنين »[5]، « قال : أنا يوسف وهٰذا أخي قد منَّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[6].

آيات خمس تصف يوسف بأنه من المحسنين، والمحسن هو الذي يعمل الحسن أو الأحسن، ويجانب السيء والقبيح، وبهذا كان يوسف في سلوكه وتصرفه معبراً عن شخصيته وعقيدته بسلوكه قبل قوله وهذا ما دعا صاحبي السجن إلى جعله عيبة سرهم، وموضع ودهم ونصحهم لأنهم رأوه

---

(١) سورة يوسف : آية ٣٣.
(٢) سورة يوسف : آية ٢٢.
(٣) سورة يوسف : آية ٣٦.
(٤) سورة يوسف : آية ٥٦.
(٥) سورة يوسف : آية ٧٨.
(٦) سورة يوسف : آية ٩٠.

من المحسنين وكذلك إخوته قبل أن يعرفوه رجوا منه الخير والرأفة دون أن يسألوه عن معتقده ودينه لأنهم رأوه من المحسنين !!.

وإنها صفة جد هامة في الدعاة إلى الله أولاً وفي المسلمين عامة ثانياً، ولهذا ذكر الإحسان والمحسنون والحسنة والحسن في آيات كثيرة جداً لما لهذه الصفة من أثر هام في الحياة الاجتماعية وإنها لعنوان الحضارة الإسلامية !!.

٤ ـ الكفاءة الفكرية :

لقد أثبت يوسف كفاءة فكرية ومقدرة إدارية واقتصادية أكبر من الأزمات التي لم يهتدوا إلى حلها مما جعلهم لا ينازعونه الأمر ولا ينفسون عليه المرتبة، وهذه الصفات هي التي مكنته من القيادة وجعلته الحاكم المطلق، في حين عجز أبناء تلك الأمة عن إظهار مثل هذه المقدرة حين سئلوا عن رؤيا الملك، وحين علموا أن سنين عجافاً ستعقب سنين خير وخصب فلم يهتدوا إلى الحل الذي ينجيهم جميعاً دون الإجحاف بأحد من الناس، وتقدم واثقاً إلى الملك بقوله : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم »[١]، وكأني أشعر أن هذه الآية تشير إلى مميزات يوسف التي تفرد بها. فهو حفيظ أي خازن أمين وهي إشارة إلى انتشار الخيانة بين الموظفين، وعليم، ذو بصيرة ومعرفة بتقسيم الأرزاق والغلات..

وكانت العاقبة للمتقين كما هي السنة الإلهية، « أنا يوسف وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[٢].

رجل العقيدة المحسن، يوسف عليه السلام، عندما سنحت له الفرصة وتمكن من السلطة، لم يحكم بشريعة الملك ولا بقوانين الأمة المنحرفة بل حكَّم شرع الله،وبدأ يوجه الأمة في هذا السبيل، فحقق الله له كل أمل يريده، ورفعه فوق درجات بتطبيق شرع الله، وذلك حين أراد أن

---

(١) سورة يوسف : آية ٥٥.
(٢) سورة يوسف : آية ٩٠.

يعاقب آخذ الصواع.. « كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك »[1]. وهكذا كان التدبير الإلهي الحكيم أوفق لمصالح يوسف ولمصالح بني الإنسان، وبذلك يرتفع المجتمع الذي يحكم شريعة الله درجات فوق من نشاء، وفوق كل ذي علم عليم »[2]. وشتان شتان بين شريعة الرحمة وشريعة الإنسان !!.

ومن خلال العاقبة الطيبة، والنهاية المشرقة للتقوى، يتجلى لنا في يوسف عليه السلام أمران اثنان أولهما : عدم البطر والأشر والاعتداد بالقوة والملك بل فاضت دموع الشكر والحمد لله ورفع يديه تضرعاً إلى الله أن يختم له بالحسنى ويجعله واحداً في ركب الصالحين لأن الأعمال بالخواتيم حيث قال عليه السلام : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين »[3].

والأمر الثاني : أنه دعا إخوته وأهله وقال لهم : مصر أمن وسلام لكم فانطلقوا فيها حيث تشاؤون، أما أبواه فقد آواهما إليه، « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين »[4]، وكأن يوسف عليه السلام ـ والله ـ يريد أن ينتشر الأسباط في أرجاء المجتمع الذي أوشك أن ينهار ليكونوا معالم هداية ونموذجاً جديداً في السلوك.. وأنه أمر جدير بالنظر في منهج التغيير الرباني !!.

لقد بقيت شخصية يوسف المتفردة في صورتها الخاصة الفريدة من أعظم نماذج الإيمان في موكب الإيمان الطويل.. منهجاً للإصلاح وسبيلاً للتغيير، ومثلاً أعلى يتأساه الشباب المؤمن في كل عصر وحين مذكراً بأن الشخصية الشابة المؤمنة الوحيدة التي جاء القرآن عنها بهذا التفصيل الكافي الدقيق هي شخصية يوسف، دون موسى ودون عيسى عليهما السلام ودون

---

(١) سورة يوسف : آية ٧٦.
(٢) سورة يوسف : آية ٧٦.
(٣) سورة يوسف : آية ١٠١.
(٤) سورة يوسف : آية ٩٩.

غيرهم من أنبياء الله، ودون أصحاب الكهف الذين حافظوا على إيمانهم وفروا إلى اللهوماتوا على الإيمان، كل ذلك مما يؤكد لي تكامل منهج الإصلاح الإيماني المستمر لكل العصور في هذه الشخصية التي تحدرت من الكرام العظام، وفي صورتها التي هي بصيرة وسبيل.. وقد ترسم الصحابة رضوان الله عليهم خطى يوسف وهم يواجهون الجاهلية، ويجابهون حضارتين عملاقتين فكانوا نماذج على نمطه ولآلىء تضيء الدياجي كما أضاءها الصديق من قبل، فشادوا الحضارة التي كانت خير حضارة عرفتها الأرض. ودار الفلك دورته، وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فكان عاقبة أمرهم خسراً، وانتهينا من دوارنا فجأة واذ نحن أمام مدافع جبارة ومخترعات غريبة تنطلق من حضارة بعيدة عن أصولنا ومناهجنا ولكنها قوية على أية حال، ولعلنا نحن نعيش اليوم تحت سيطرة حضارة نشأت بعيداً عن هدى الله، كما نشأ غيرها من قبل ندرك مع غيرنا أن روافد التاريخ القديم والحديث قد صبت في هذه الحضارة، ولكن ـ مع الأسف والأسى ـ كانت هذه الروافد غير نقية ولا صافية، مليئة بالأكدار والأقذار مما يحتم أن تكون نهايتها أليمة كسابقاتها، وخاتمتها إلى لعنة الله إن لم تتداركها يد الشباب المؤمن فتقودها إلى حيث يريد الله وتوجهها وجهة أخرى !!.

وإذا أردنا بكلمات موجزات أن نقيّم عطاء هذه الحضارة لقلنا : إنها قدمت عطاء مادياً رهيباً يتمثل في القوة بشتى أنواعها. وهي الآن موضع التسابق والتنافس على المستوى الدولي، وبين جميع الدول، صغيرها وكبيرها، وأنها أعطت كثيراً في جانب المادة والرفاهية المادية من مخترعات ووسائل نقل وبناء ودور وقصور... مما يخدم متعة الجسد، ومن هذين المحورين انطلقت الحضارة الغربية في القرن التاسع عشر والعشرين (القوة، واللذة الجسدية) وغدا كل شيء في هذه الحضارة يدور حولها، من أبسط الأشياء إلى أعظمها وأعقدها، فالقانون المنظم للمجتمع يزيد في أوارها، والسياسة تدندن حولها، والاقتصاد لخدمتها والعلاقات الدولية تشكل من هذا المنظور.. ولكنها، بعد هذا الشوط الطويل والإنتاج الضخم، والإمكانات الجبارة، تجد نفسها اليوم في مأزق حرج يتسع خرقه يوماً بعد يوم ولم تجد راقعاً له، وبدأت تكر أدراجها لتنقض ما بنته في هذين المحورين اللذين دارت

في فلكهما (القوة. اللذة. والمتعة)، فقد كانت القوة الطاغية التي لا توجه بسلطة الحق الذي يستند إلى نفحة السماء سبب دمار كثير من حضارات القرون السالفة. وها هو التاريخ يعيد نفسه كما يقول غير واحد من دارسي التاريخ والحضارة منهم توينبي : حيث كان للنزعة العسكرية النصيب الأوفر في انهيار الحضارات خلال الأربعة أو الخمسة آلاف سنة التي شاهدت الانهيارات العشرين المعروفة حتى اليوم، إن النزعة العسكرية تصرع الحضارة إذ تثير الصراع والنزاعات القاتلة بين الدول المحلية التي تتألف تلك الحضارة منها، وفي هذا الدمار الذاتي يغدو البناء الاجتماعي كله كوقود لتغذية اللهيب الملتهم.

وإذا كان المثل يقول : الشيء الوحيد الذي لا يمكن عمله بالحربة هو الجلوس عليها، فالواقع أن الحضارة الغربية اليوم بدأت تجلس على الحربة التي أنتجتها وكانت تذبح بها الآخرين بدون حق، وهي وإن كانت لاتزال تستنزف بعض ثمن للجلوس على هذه الحربة من دماء الفقراء وكذا المحرومين، وجهود أبناء ما يسمونه بـ « العالم الثالث » فإنه سيأتي اليوم الذي تكمل فيه جلوسها ولكن دون أن تأخذ ثمناً بل ستكون مجبرة وفي ذلك حتفها ونهايتها.

إن أزمة القوة والسلاح من أخطر المشاكل التي يعانيها المجتمع الغربي لأنها تقوده إلى نهايته بسرعة شديدة ولأن هذه القوة تقتنص العناصر المفكرة والمدبرة من رؤساء، وضباط، وقضاة ومحامين ورأسماليين وتجار كبار ومهندسين وفلاسفة، لذلك أصبحت هذه القوة بركاناً يوشك أن يتفجر من داخله قبل أن يصلى بالحمم من خارجه، ونحن مع (جود) إذ يقول : إننا نملك من القوة ما هو جدير بالآلهة ولكننا نستعمله بعقول الأطفال.

وغدا واضحاً للعيان أن الذي يذبح بالسيف يذبح بنفس هذا السيف في هذا العالم الحضاري الذي بدأ بالمأساة الإنسانية عند إقلاعه الحضاري، وانتهى بالمأساة وهو يواجه أيامه العصيبة على عتبة الأفول.

وأما المحور الثاني.. محور اللذة الذي جرد الإنسان لأجله من كل خصائصه العليا، وصفاته السامية، وهبط إلى مستوى الحيوان، أورث مشاكل

لا حد لها ولا حصر لأنه بنى الحضارة كلها على الفحشاء بواسع معانيها، ثم تطورت هذه الفحشاء مع اتساع المد الحضاري إلى منكر، وإذ بها تصل في هذه المرحلة قمتها في الفحشاء والمنكر وهو ما سماه القرآن الكريم بالبغي، حيث تلاقت القوة الغاشمة مع الفاحشة والمنكر بيد الإنسان الذي نزعت منه خصائص الإنسانية فحق عليه قول الله تعالى : « يا أيها الناس، إن بغيكم على أنفسكم »[1]، فاستعمل القوة لاغتصاب الأموال، والأعراض والممتلكات ليحقق لذاته.

ملامـح الأفـول :

ودون أن أتعرض لسرد أمثلة وتفصيلات جزئية، فذلك مشاهد مسموع في كل مكان، أذكر بالمعطيات التي تحتم أفول هذه الحضارة بناء على السنن الربانية في هذا الكون (جزاء وفاقاً)، ويمكن حصرها في النقاط التالية :

١ ـ **أزمة اجتماعية** : تتمثل هذه الأزمة في كل مرفق من مرافق المجتمع الغربي حيث بدأ منذ أمد طويل يدور كل انسان حول نفسه بدءاً من وعيه لها حتى رحيله إلى العالم الآخر، مما فكك عرى الروابط بين هؤلاء الأفراد وجعل كل واحد ينظر للآخر نظرة البعد السحيق عنه وإن كان تحت سقف واحد، وهذا ما أورث الانشقاق في النفس كما سماه أرنولد توينبي وبالتالي الانشقاق في الكيان الاجتماعي حيث يبدو الناس في جملتهم غير مكترثين بما يجري حولهم أو يحيط بهم. وهذا ما تجليه وتؤكده الانتخابات العامة والجزئية وتظهر أنه لا يقبل عليها إلا عدد قليل، لأن الإنسان انطوى على نفسه.

ومن الأزمات الاجتماعية الحادة التي تنطلق من الانشقاق في النفس والتحليل في الكيان الاجتماعي تهدم الأسرة حتى أننا أصبحنا نسمع النواح والعويل من عدد كبير من أبناء تلك الحضارة ومن مختلف طبقاتها وأصبح كل واحد منا يقرأ الاستغاثات والنداءات في كل مكان. وأقتبس منها واحداً من قلب باريس من مجلة تصدر هناك ولا علاقة لها بالدين حيث تقول :

---

(١) سورة يونس : آية ٢٣.

أزمة اجتماعية يعاني منها المجتمع الغربي بأسره والأزمة اسمها الوحدة، الوحدة القاتلة، صوفي ـ امرأة فرنسية ـ تقول : اعذروا اللواتي يتكلمن وحدهن في الشوارع، هذه المدنية التي قضت على الألفة والمحبة، قضت على الأمومة والأخوة والأبوة...

وهكذا فإن التفكك العائلي أحد أهم أسباب الوحدة.. المجلات النسائية المتخصصة في أوروبا تخصص أسبوعياً صفحات لنقاش هذه المسألة التي تعيشها المرأة هنا، ما الحل ؟ العودة إلى الحياة العائلية، إلى الوفاق الجماعي.

وإن تهدم الأسرة والانطلاق وراء المتعة الجسدية بجوار السعار الجنسي اللاهب قذف إلى المجتمع جيلاً من اللقطاء الذين لا تربطهم بالمجتمع سوى رابطة النقمة عليه والتمرد لتحطيمه لأنهم لا يعلمون من أين جاءوا ؟ ولماذا ؟ وقد أثبتت الإحصائيات أن جل هؤلاء يكون مآلهم في ريعان شبابهم احتراف الإجرام وهذا فتيل خطير في داخل هذه الحضارة يزداد تطاير شرره يوماً بعد يوم.

ولن أقف طويلاً عند التحلل الخلقي لأن هذا جزء من المشكلة الاجتماعية ومعه انتشار الخيانة والرشوة على أرفع المستويات حتى وصلت إلى الرؤساء والوزراء والمسؤولين عن الأحزاب الحاكمة في بلدان عديدة وقد نالت هذه الأمور بعض دراسات لا بأس بها وهي معروفة واضحة لكل ذي عينين، ويمكننا أن نقول ما قاله عدد من المفكرين : إن أخلاق الأمة هي التي تمثل الدور الأساسي في تاريخها.

٢ ـ يعمق هذه الأزمة الاجتماعية القوانين والأنظمة التشريعية التي تسود هذه الحضارة حيث تساهم في توسيع رقعة هذه الأزمة، وذلك لأن القوانين تحمي كل المهدمات الاجتماعية، وهذه الآفات الخطيرة لأنها وضعت ابتداء من منطلق اللذة والمتعة مع القوة.

وأعظم محنة تواجهها هذه القوانين هي المحافظة على التقسيم الطبقي للمجتمع وتوزيعه أشلاء دون رابط بينها وذلك بإقامة تشريعات خاصة ومحاكم خاصة للكبار من الموظفين، ومحاكم خاصة أخرى بتشريعاتها

للعسكريين الكبار وأخرى للصغار، ومحاكم أخرى كذلك متميزة لبقية أفراد الشعب.. فتعدد التشريعات والمحاكم القانونية في الأمة الواحدة يجسد الظلم بأجلى مظاهره مما أحدث ردة فعل قوية ضدها وجعل الناس يدبرون عنها ويحاولون باستمرار التملص منها وتحديها، ويضاف إلى هذا عدم استقرار هذه القوانين وسرعة تغييرها لملاحقة التعاظم التكنولوجي والتغييرات السياسية والاقتصادية السريعة. ولهذا نلاحظ دعوة إلى تغيير القوانين بدءاً من قوانين الأحوال الشخصية وانتهاء بالدساتير، ولكن مهما غيرت فلن يستقر لها قرار لأن الاضطراب ينتشر والفوضى تتزايد يوماً بعد يوم.

٣ ـ أزمات فكرية وسياسية، حيث نلاحظ عدم حل أي مشكلة من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مما يؤكد لنا ضعف القيادات الفكرية التي كان من المفروض أن تجابه هذه المشاكل بشجاعة وتتغلب عليها ولكن... !!

ولقد أصاب الكسيس كاريل حين قال : ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التي وضعتها الإنسانية في الحضارة العصرية، فقد أخفقت هذه الحضارة في إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجرأة يقودونها عبر الطريق الخطر الذي تتعثر فيه... لأن بني الإنسان لم ينموا بنفس السرعة التي تثب بها الأنظمة من عقولهم.. ومن ثم فإن أكثر ما يعرض الأمم العصرية للخطر هو النقص العقلي والأدبي الذي يعاني منه الزعماء السياسيون...

ولا يتوقع في المستقبل أن توجد قيادات قادرة فيقول : ويبدو أن الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة.. ففي كل بلد يوجد تناقص في المستوى العقلي والأدبي لأولئك المسئولين عن الشؤون العامة..

وهذا ما تؤكده الاضطرابات السياسية المستمرة في جميع دول الغرب وذيولها في المعسكر الشرقي، وتزحف هذه المشاكل حثيثاً لتصل إلى لحظة الانفجار، فها هي إيطاليا وإسبانيا وبريطانيا العظمى وغيرها قد قاربت لحظة الانفجار وإنها لتعيش الآن ساعات الفوضى التي تسبق الكارثة العظمى التي قد تأتي على يد عصابات من داخل هذه الحضارة، لأن هذه

العصابات أدركت الوهن الذي أصاب تلك الدول والتآكل الذي حل بها، وقوام هذه العصابات شبان مغامرون كان من المفروض أن يتصدروا حماة الأمة والمجتمع.. وليس هناك بلد ليس فيه عصابات يحسب لها ألف حساب.. وفي اعتقادي أن وجود هذه العصابات المسلحة يستند إلى تعدد الولاءات الفكرية، وكثرة المشارب الثقافية بما فيها رد فعل عنيف وقوي على تجريد الإنسان من الإيمان والطمأنينة.

٤ ـ أما نذير الأزمات الاقتصادية فها هو يلوح في الأفق القريب بدءاً من التهديد المستمر بقطع البترول، شرايين الحياة في تلك الحضارة، والذي يتوقف من جراء قطعه ملايين العمال في كافة الصناعات، ومثله الحديد والنحاس، وغيرها من المواد الأولية، هذه الأزمات الحادة التي بدأت تلوح في الأفق القريب دعت دول الغرب أن تجلس مكرهة غير مختارة على مائدة المفاوضات مع دول كانت في نظرها عبيداً لها وأقل شأناً من أن تحسب لها أي حساب، وأحياناً تتدخل بقوة السلاح درءاً لتوقف عجلة الاقتصاد كما حدث هذا في غير موضع، منها منطقة شابا في زائير لحماية مناجم النحاس، والصحراء الموريتانية لحماية مناجم الحديد، والمشرق العربي وإيران لاستمرار إمدادات النفط.. ولكن المفاوضات وقوة السلاح لن تحل المشكل الاقتصادي في الحضارة الغربية.. وكذلك الغول الربوي الذي تقوم على أسسه الحياة الاقتصادية في داخل الحضارة الغربية مما جعل فئة قليلة جداً تملك ولا تعمل والغالبية العظمى تعمل وتجهد ولا تملك بل سعيها وراء لقمة الخبز والاستهلاك السريع..

وان هذه المشاكل والأزمات متداخلة بعضها ببعض لا يمكن فصلها والنظر إليها مجزأة لأن السدى واللحمة في نسيج هذه الحضارة كله على غير تقوى من الله ورضوان، وهي أشبه ما تكون بالحضارة المصرية التي واجهها يوسف عليه السلام.. فأنّى نظرت إلى هذا النسج وجدته كالحاً شقياً، فالمأساة الإنسانية ذاتها تتكرر، وتتعالى أصوات جهيرة بالتغيير والتبديل هنا وهناك.. من رؤساء وقادة وعلماء ومفكرين، ويشيرون إلى بعض مكامن الداء، ولكنهم لما يهتدوا للدواء، أضيف إلى ذلك أن ساعات الإدبار

الحضاري لا تسمع فيها كلمة الرشيد « أليس منكم رجل رشيد »[1]. فما هو البديل الذي يحل الصعاب ؟.

بديـــل زائـف :

وفي مطلع هذا القرن حيث قطع الإنتاج الصناعي والتفسخ الاجتماعي شوطاً لا بأس به وبدأت تنعكس آثاره السيئة على المجتمع، طرحت آنئذٍ أفكار بديلة لحل مشكل الإنتاج والاقتصاد والعمال والأجور، كانت تلك الأفكار من نزعة اشتراكية وتصدرتها الدعوة الماركسية التي أخذت قوتها عندما استولت على السلطة في مجموعة من البلاد. وقد لاقت الأفكار الاشتراكية والماركسية آنئذ نجاحاً ورواجاً لأنه لم يكن على المسرح العالمي أصحاب دعوة ومبدأ سواهم فظهرت بمظهر المخلص المنقذ. ولكن هذا البديل المنقذ لم يستطع الصمود أمام الأحداث ولم يحل المشاكل بل زادها تعقيداً، والسبب الرئيسي في ذلك أن مجموعة هذه الأفكار الاشتراكية وفي مقدمتها الماركسية ليست سوى نقد لأعراض العلل والمشاكل التي بدأت تجتاح الحضارة الغربية، ونحن في هذا الجانب نتفق معها إلى حد ما، وإن كان منظورنا يختلف عن منظورها، وبالتالي فتقويمنا للمشكل ومن ثم حله يختلف عن تقويمها وحلها.. لكن الماركسية لم تقدم الجانب الإيجابي وهو البديل الذي يجعل هذه المشاكل التي تنقدها أمناً وسلاماً، بل إن كل ما كتبه ماركس وانجلز لا يتحدث عن كيفية قيام الدولة وتنظيم الأمة التي تنضوي تحت العلم الأحمر، بل كانا يهومان بتهويمات يبشران فيها بمجتمع يخلو منه الشقاء وتنبت في جميع أرضه السعادة ويكون سادته طبقة البروليتاريا ولم تتضح من خلال جميع كتاباتهم معالم هذه الأمة الشيوعية التي ستنقذ الحضارة، حتى أن الرواد الأوائل في مطلع القرن العشرين كانوا يسيرون في هذا الاتجاه ويتخبطون خصوصاً بعد أن استولوا على السلطة، فكان الواجب عليهم إتمام أعمال ماركس وتطبيقها للوصول إلى رؤية أكثر وضوحاً لِلمجتمع الواجب بناؤه، إلّا أنهم كانوا ـ وما زالوا ـ يخوضون بسهولة في تحليل المجتمع الرأسمالي ويسهبون في هذا التحليل ـ ولا سيما

(١) سورة هود : آية ٧٨.

فيما يتعلق برأس المال والإمبريالية ـ وبالسهولة نفسها كانوا يتعثرون عندما يصبح الأمر متعلقاً بوصف تكوين المدينة الاشتراكية، وطريقة دوراتها..

واختلاف القادة على كيفية تكوين الدولة الشيوعية والمجتمع الاشتراكي هو الذي أدى إلى سلسلة من التصفيات الجسدية بين القادة المؤسسين ومن تبعهم، واسما (تروتسكي وبوخارين) نموذج صارخ على هذا الاتجاه.. كما أدى إلى سلسلة متكاثرة من الانشقاقات على مستوى الدول بدءاً من يوغوسلافيا وإدارتها الذاتية ومروراً بربيع براغ بتشيكوسلوفاكيا ومجالس الشغيلة والفنيين فيها وبثورتها الديمقراطية في ربيع ٦٨، وانتهاء برومانيا وتشاوسيسكو واتجاهه نحو الرفاهية ورده الحازم على الروس والتسلح ثم طلاق الصين المساوية للاشتراكية والشيوعية نهائياً. كما ظهرت على إثر هذه الانشقاقات عدد من التكتلات بين مجموعات من الدول التي تسير في هذا الخط علماً بأننا لا نجد في كل هذه المجموعات دولة واحدة تشابه أخرى في بناء هياكلها وتطبيقها للاشتراكية اللهم إلّا شيئاً واحداً هو عدم حكم طبقة البروليتاريا التي ينادون جميعاً بأن الدولة والحكم لها وبيدها.. ومن هذا يظهر لنا حقيقة هذه الأفكار الطوباوية والخرافية.

وفي خضم تخبطات الماركسيين والدول الماركسية لتحقيق العدالة وإزالة الرأسمالية وفائض القيمة... وغيرها من الدعاوى الطويلة العريضة كانت النتيجة فشلاً ذريعاً في كل ذلك، تناقضاً مريعاً في الإنتاج، وضحايا بشرية تقدر بالملايين في جميع المناطق التي طبقت فيها ولم تبرع الدولة الاشتراكية الأولى إلّا في إنتاج آلات الحرب والدمار التي سخرت لها كل مقدرات الشعوب الواقعة تحت حكمها. فعلى سبيل المثال فإن الاتحاد السوفياتي ينفق على تسلحه ما يقارب نفقات الولايات المتحدة في هذا الميدان، في حين يبلغ دخله القومي أقل من نصف الدخل الأمريكي.

وقد غدا التباين بين العقيدة التي تبشر بها الماركسية شعوبها وبين الواقع الذي تعيشه هذه الشعوب والدول واضحاً للعيان، ولم يعد بالإمكان إخفاؤه وستره مما أصبح يدعو لليأس والقنوط من الحركات الاشتراكية والشيوعية في داخل تلك الأسوار الحديدية وخارجها. فقد حرمت الرفاهية

التي تحياها الشعوب في العالم الرأسمالي وأكرهت على الإلحاد والكفر بالله، كما سلبت جزء الحرية الموهومة التي يحياها الآخرون في المعسكر الآخر، فمطالب الطبقة العاملة في البلدان الاشتراكية والماركسية التي كان من المفروض أن تكون هي الدولة ولكن الواقع غير ذلك.. الا تختلف عنها في البلدان الرأسمالية بالرغم من أن شغيلتهم.. الاشتراكية لم تحقق ما حققته الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية ولهذا غدا التقهقر المستمر سمة الأنظمة الاشتراكية في السنين العشر الماضية، وتخلت عن الأساس الركين في نظريتها ألا وهو معاداتها للفطرة والدين ومحاربتها للرأسمالية حيث أسسوا وزارات ـ كما يقولون ـ للأديان واتصل وزير خارجية الدولة الأمينة على النظام الماركسي بالبابا في مقره بروما. وحيث بدأ التمرغ الاشتراكي على أعتاب التكنولوجيا والرفاهية الغربية منذ مدة.. وذلك تحت الضغط الداخلي والمصاعب الاجتماعية التي تلاقيها الماركسية. ولا أريد أن أتحدث عن التكتلات المعادية الداخلية في تلك البلاد وهذا ما يؤكد لي أنها ستنتهي قريباً جداً. وقد بدأت محاولة المفكرين القوية في التراجع إلى الماضي التاريخي أو في استيراد الأفكار من الغرب البورجوازي العدو اللدود سابقاً (وبذلك فقد غدت الماركسية موضع شك في كل البلدان التي يفترض أن تكون مسيطرة فيها دون منازع). ولقد كان موقف الصين أكثر جرأة وإقداماً حيث عادت لتعانق العدو الذي حاربته وستكون بلا شك بوابة واسعة يدخل منه بقية المعسكر..

إلّا أن هذا ليس هو الحل لأن هذه العودة ستكون إلى لهيب الأتون الذي يأكل أهله، فما مثلهم إلّا كمثل ذاك الذي يستجير من الرمضاء بالنار، وما موقع الفكر الماركسي من الحضارة الغربية إلّا انحراف ولد من الانحراف فزاد الوبال والشقاء، والعودة إلى الانحراف الأول ليست علاجاً ولا دواء، فلن تكون سبيلاً للتقويم وأبعد من أن تكون منهجاً للخلاص !!.

وفاق نافع :

في سلسلة التقهقرات الماركسية والشيوعية نرى تزايد نغمة الوفاق مع المعسكر الرأسمالي وسياسة الانفتاح عليه وغزو الغرب التكنولوجي لدول

الشيوعية، وهذا مخالف لصلب المبدأ إلّا أنه نافع ومفيد جداً بالنسبة للطليعة المنقذة التي يعلق عليها الأمل وذلك بأن يطلع أبناء الحضارة الغربية على واقع التطبيق لهذه الأفكار الخيالية لأنها في معمعة الفوضى الفكرية لا تزال تستهوي نفراً منهم، فحين يرون واقع الأجيال التي اكتوت بنارها، لا شك أنهم سيدبرون عنها ويرفضونها، وليوقن الجهولون من أبناء العالم الثالث إفلاس مبادىء المنجل والمطرقة..، وكذلك أوبة الاشتراكيين إلى أحضان الرأسمالية ستوقعهم من جديد في الأزمات التي فروا منها، أزمات العمل والإنتاج، وهذا ما يهيء الجو ويسهل المهمة التي يضطلع بها الشباب المؤمن، جيل الإنقاذ، لأن تهيئة الجو النفسي لتقبل الأفكار الجديدة عملية هامة جداً، وإذا أراد الله عز وجل أمراً هيأ له أسبابه.

المنقذ الحق :

إن المنقذ الحق والبديل الصحيح لهذا الفراغ العقدي والتردي الفكري والاضطراب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي هو القرآن الكريم، « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً * وأنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً »[1].

وبالتالي حملة هذا القرآن وحماته لأنهم البقية الصالحة على وجه الأرض بما يعلنونه من سلوك، وبما يقدمونه من منهج.. نعم إنه البديل الحق لأن هذه النهاية التي نشهد تباشيرها لهذه الحضارة سنة قديمة وليست بالجديدة، « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أشد منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[2]. ولقد كتب الله عز وجل في ناموس هذه الحياة أن النجاة للذين آمنوا وعملوا الصالحات وعلى أيديهم ينجو من يريد النجاة.. فالمشاكل والأزمات التي تجابهنا اليوم تتزايد ولا حل لها إلّا في هداية السماء وفي رحمة الله التي وضعها بين يدي الإنسان ولذلك فإن كل لحظة يتأخر فيها تقديم الحل

---

(١) سورة الإسراء : آية ٩ ـ ١٠.

(٢) سورة الروم : آية ٩.

الناجح لهذه المشاكل ستزيد من شقاء الإنسان وتلقي به بعيداً في واد سحيق !!.

وان الفرصة جد مواتية، وإن بدا في الطريق عقبات فيجب على هذه البقية الصالحة الاستعانة بالله وتخطيها ولها في ذلك بشائر النصر من الله عز وجل ومن رسوله ﷺ حيث يحدد لها عملية النجاح في هذا الإنقاذ فيما جاء عنه في أحاديث عدة منها : حديث عبد الرحمن بن سمرة وقد جاء مبشراً بعد غزوة مؤتة قبل أن يصل الجيش فقال له النبي ﷺ : على رسلك يا عبد الرحمن ـ أي لا تتكلم أخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل حتى قتل، ثم أخذ اللواء جعفر فقتل رحم الله جعفراً، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل رحم الله عبد الله، ثم أخذ اللواء خالد، ففتح الله لخالد، فخالد سيف من سيوف الله، فبكى أصحاب رسول الله ﷺ فقال : ما يبكيكم ؟ قالوا : وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ؟ فقال : لا تبكوا، فإنما مثل أمتي مثل حديقة قام عليها صاحبها فاجتث زواكيها وهيأ مساكنها، وحلق سعفها فاطعمت عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً، فلعل آخرها طعماً يكون أجودها قنواناً وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحق ليجدن عيسى بن مريم في أمتي خلفاً من حواريه.

وقال الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٥٧ : وقد جاء في الخبر، أنه سيظهر العلم في آخر الزمان ويقبل الناس على أمر الله تعالى حتى تتم حجة الله على عباده.

وفي حديث آخر عند الشيخين ـ البخاري ومسلم ـ من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً ». وهذا لا يكتمل ولا يتم إلّا إذا حصل الأمن والاستقرار.

وها هي طلائع هذه المروج والأزهار بدأت تنتشر هنا وهناك في أرجاء جزيرة العرب !!.

وقد جاء في حديث آخر جامع رسم فيه النبي ﷺ الخط البياني لسير الأمة الإسلامية ويقول فيه : إن أول دينكم نبوة ورحمة، وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم تكون خلافه على منهاج النبوة

ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم يكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله جل جلاله، ثم يكون ملكاً وجبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله، ثم تكون خلافة على النبوة تعمل في الناس بسنة النبي ﷺ ويلقى الإسلام بجرانه في الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدع السماء من قطر إلّا صبته مدراراً ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئاً إلّا أخرجته.

يقول الأستاذ المودودي ـ رحمه الله ـ معلقاً على هذا الحديث : ولا شك في أنها جاءت مطابقة في معانيها لجميع ما ورد من هذا القبيل في كتب الحديث، وقد أشير فيها إلى خمسة أدوار في التاريخ، ثلاثة منها قد مضت إلى الآن، والدور الرابع تجتازه في هذه الآونة، وأما الدور الخامس الذي جاءت بنوءته في هذه الرواية فتدل جميع القرائن أن التاريخ لايزال يسرع إليه من حيث قد جربت الإنسانية جميع النظم التي قد وضعها الإنسان بنفسه فوجدتها نكدة عقيماً، وأصبحت الآن لا محيد لها عن الرجوع إلى الإسلام بعد طول السرى وفرط اللغوب. ا هـ.

وأعتقد أن الطائفة التي تحمل منهج الإصلاح والانقاذ وتبدأ عملية التحويل والتغيير في اتجاه الحضارة المعاصرة لتحولها إلى حضارة واعدة هم من الشباب الذي أشبع بالثقافة القرآنية وتمسك بالهدي النبوي حق التمسك لا سيما وقد أوصى النبي ﷺ بالشباب خيراً كما جاء ذلك في الحديث الذي أخرجه الامام أحمد في مسنده عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : اقتلوا شيوخ المشركين، واستحيوا شرخهم، قال عبد الله بن أحمد : سألت أبي عن تفسير هذا الحديث فقال : الشرخ الشباب، والشيخ لا يكاد يسلم، والشاب كأنه أقرب إلى الإسلام من الشيخ.

معالم في الطريق :

وأن الله عز وجل قد أرسى لنا المعالم وشرع لنا المنهج في هذه الطريق الشائكة المحفوفة بالمخاطر على يد الكريم بن الكريم بن الأكرم وسيبقى قبسه خيراً هادياً إلى يوم الدين في سورته الخالدة يوسف عليه

السلام حيث واجه ما يواجه الشباب ـ وزادها إيضاحاً وتفصيلاً سيدنا محمد ﷺ ـ فقد واجه يوسف الصديق كما أسلفت الفراغ الروحي والضياع الديني فكان جهير الصوت بالدعوة إلى الله بارع الأسلوب في ذلك ثابت الخطا، موفق المساعي وأن هـذه الأزمـة هي أرومة المشاكل الحضاريـة المعاصرة حيث تعدد الآلهة والأرباب فبعضهم طاف حول المال والبنوك والربا وسجد لها، وبعضهم ركع للجنس وعبده وبعضهم مد يديه للطاغوت الظالم يستطعمه ويسترزقه ويستهديه، وبعضهم أكره على الكفر، وبعضهم عبد نفسه. وتاه المتحضرون في غمرتهم هذه إلى حين ولكن فطرة الله التي فطر الناس عليها عادت لتنتفض من جديد بعد أن رجعوا من شوطهم الطويل المرهق خائبين خاسرين وأصبح البحث الدؤوب عن الدين الحق والعقيدة الصحيحة في غالب أمم الأرض وشعوبها خاصة منها التي بلغت قمة الحضارة قوة لا تقهر، وهنا تظهر مهمة الشباب المسلم الذي شرفه الله تعالى بمهمة الأنبياء والمرسلين ألا وهي مهمة الدعوة والتبليغ وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم والترمذي والدارمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.. فأولى واجباته في هذا الميدان أن يكون هو ذاته قد فهم وعلم العقيدة الإسلامية حق العلم والفهم لأن العقيدة الإسلامية مع وضوحها وشمولها توجب العلم بها والمعرفة كما قال تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله »[1]، ودعامة ذلك تعميق الصلة وتقويتها بين الشباب المسلم والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكتب السيرة النبوية المنتقاة ضمن برنامج مدروس ومرحلي ومدقق. وهنا يظهر كذلك واجب العلماء والباحثين المسلمين حيث تفرض عليهم الحالة الفكرية أن يهتموا بهذا الجانب الخطير ويؤلفوا فيه مؤلفات بشتى اللغات تستند إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة، ونشرها في جميع بقاع العالم عن طريق الشباب المسلم، وهذا لا يعفي المسؤولين الرسميين من مهماتهم بل يجب عليهم كذلك أن يمدوا يد المساعدة القوية للشباب والباحثين العاملين في هذا المجال، بعيداً عن سوقهم في التيار السياسي وجعلهم أحزاباً وشيعاً !!

(١) سورة محمد : آية ١٩.

كما لا يعفي الشباب أنفسهم من البحث والسؤال والرجوع إلى أهل الذكر كلما وقفوا أمام مشكل أو جابههم موقف أو خطر ببالهم خاطر بل دائماً نصب أعينهم « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[1].. وإذا كان الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية قد لاقت تشويهاً وتعرضت لحملات مغرضة لا تزال آثارها إلى اليوم، فإن هذا الاضطراب الفكري والقلق الثقافي يساعد على تقبل الأفكار الجديدة لا سيما إذا كانت سليمة مستقيمة، وسيزول قريباً بحول الله هذا الاغراض والتشويه. وفي جانب العقيدة كذلك يجب على المربين والمدرسين أن يولوا اهتماماً كبيراً للناشئة وهم بين أيديهم لتعهد العقيدة في قلوبهم، وربط كل الأفكار بها وتوضيح ذلك، لتكون الناشئة والشباب طائفة في رحاب هذه العقيدة قادرة على رد الفروع إلى أصولها، مدركة المدى الرفيع الذي رفعها الله عز وجل به بهذه العقيدة، وهذه هي الخطوة الأولى والمهمة في بناء الشخصية المسلمة المحسنة التي تستطيع دلالة الناس الحيارى على ربها وبيان واحة السكينة والاطمئنان، وإن انتشار العقيدة الإسلامية بين غير المسلمين أو بين المسلمين أنفسهم عن طريق العاطفة وحدها سيؤدي إلى الوقوع في متاهات أخرى، وانحرافات أخرى، إذ العقيدة علم ومعرفة، وتحتاج إلى علم ومعرفة، وقد قالوا : فاقد الشيء لا يعطيه.

ويأتي بعد ذلك في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الحضارة الأمر الثاني، ألا وهو الالتزام السلوكي الذي ينطلق من هذه العقيدة في كل مكان يحل فيه الشاب المسلم، أو يعمل فيه أو يدرس فيه، وأخطر أزمة سلوكية تواجه في هذا الجانب هي الأزمة الخلقية، فيجب على الشاب المسلم أن يعتصم بالله ويتعالى عليها ويثبت على منهجه، وهذا الأمر يوجب على كل مسلم غيور، سواء كان في موقع رسمي أو غير موقع رسمي، أن يساعد الشباب على اقتحام هذه العقبة الخطيرة، وذلك بتقديم البرهان كما قال تعالى : « ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء »[2].

---

(١) سورة النحل : آية ٤٣.

(٢) سورة يوسف : آية ٢٤.

وهذا البرهان هو الصلة الدائمة بين الشباب المسلم وبين العلماء الموجهين الذين يتصلون به اتصالاً دائماً منظماً مذكرين بالله ومبشرين بالجنة ومحذرين ومنذرين من النار والشقاء، وقد كانت تجلية هذا البرهان وتجديده من لب المنهج النبوي الحكيم حيث كان النبي ﷺ يمشي في أطراف المدينة والعوالي ويتصل بالقبائل المؤمنة ويذكرهم بالله عز وجل وهم قريبون منه ويحضرون الصلوات معه عليه الصلاة والسلام فكيف بمن بعد بهم الزمن، ونأت بهم الأوطان وأصبحوا في غربة للإسلام وأهله.. وخصوصاً الشباب الذين يذهبون للدراسات في بلاد الغرب.. ومن المنهج النبوي كذلك تجديد الإيمان فقد قال عليه الصلاة والسلام: (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم). ورؤية عباد الله الصالحين ومذاكرتهم خير ما يجدد هذا الإيمان، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يلقون بعضهم فيقول أحدهم للآخر: (اجلس بنا نؤمن ساعة) كما أخرج ذلك البخاري وغيره.

ومن صلب هذا البرهان كذلك الكتب والمجلات، والصحف والنشرات الإسلامية التي تحمل في طليعتها أخبار الشباب المسلم ولقاءاته وأفكاره، وتقدم له التوجيهات الخيرة النافعة..

كما أن ما يسمونه بالديمقراطية والحرية يسهل على الشباب المسلم إبراز شخصيته وسلوكه الخاص وإن كان سيلاقي بعض العنت إلا أنه يستطيع ذلك بالصبر والمصابرة، وبذلك سيصل إلى النتيجة التي يقصدها كما قال تعالى: « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[1].

إن استلام هذا الإرث الحضاري الضخم يتوقف على بروز هذه الشخصية إلى عالم الوجود، فمهما نادى الشباب المسلم بالإسلام ودعوا إلى الدين، وكان هناك الانفصام بين دعواهم وسلوكهم فلن يصلوا إلى شيء غير التعب والخيبة والمقت، كما قال تعالى: « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »[2]، فتطبيق المبدأ في السلوك والحياة التي يحياها الداعي سر

---

(١) سورة يوسف: آية ٩٠.

(٢) سورة الصف: آية ٣.

نجاحه، وكم من فلسفة ودعوة ونحلة نادى بها أصحابها ولكنها لم تلاق نجاحاً لأن داعيها لم يؤيد دعواه بالتطبيق، وقد سئل الشاعر الهندي طاغور : ما بال نحلة ــ برهمو سماج ــ أخفقت في مساعيها ولم تنجح، مع أنها أنصفت الأديان، وجمعت الحسنات وسالمت جميع الملل، ومن مبادئها وأصولها أن الديانات كلها على حق، وأن جميع المصلحين من الأنبياء والرسل والهداة هم خيار الناس وصلحاؤهم ثم إنها ليس فيها ما يخالف العقل أو يعارض المدنية الحاضرة، أوْ يناوىء الفلسفة الحديثة وصاحب هذه النحلة قد راعى فيها الظروف الراهنة والشؤون المألوفة الآن، ومع ذلك كله لم تنل من الفوز شيئاً، ولم يتح لها من النجاح قليل ولا كثير ؟ فقال طاغور : إن النحلة لم يكن لها داعية يدعو الناس إليها بسيرته الكاملة وهديه العالي، ولم يكن لها لسان يدعو مؤيداً بعمل يصدقه فتهوي إليه أفئدة الناس وتطمح إليه أبصارهم، ويكون لهم من الدعاة أسوة يأنسون بها وقدوة يقتدون بها).

فالسلوك الحسن الذي يوافق الفطرة هو الذي لفت الأنظار إلى يوسف عليه السلام، وبه وصل إلى الملك وتسلم منه مقاليد الأمور، « إنا نراك من المحسنين ».

وبالسلوك القويم الذي التزمه محمد ﷺ وبخلقه العظيم لم يستطع جاحد أو معاند أن يجد مطعناً يجرحه، وبذلك ثبت الإيمان ورسخ في قلوب صحبه الكرام فالتزموا هذا السلوك واهتدوا به في حياتهم كذلك وساروا به في مشارق الأرض ومغاربها..

وإن انحراف السلوك الذي تعاني منه الحضارة ومن جرائه تهدمت به الأسرة وتفككت الروابط الاجتماعية ما يدعو الشباب المسلم القادر على الزواج أن ينشىء الأسرة المسلمة المتآلفة التي ترتع في المودة، وتلفها السكينة لأن إيجاد الأسرة المسلمة مقدمة ضرورية لتكوين المجتمع الإسلامي الوارث، فإن البشرية ــ كما يقول سيد قطب، لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع، إنما تستجيب لمنهج حي متحرك، مجسم ممثل في حياة جماعة من البشر، مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد، وتلاحظ آثاره العقول.

وبتكوين الأسرة المسلمة يظهر دواء الانشقاق الخطير الذي يشكو منه

الغرب والشرق على حد سواء، وينتحر شبابه إما بانتحار بطيء أو بالانتحار السريع، وإذا وطن الشباب المسلم نفسه للالتزام السلوكي الصارم، والبناء الإسلامي فبذلك يكون قد وصل إلى مرحلة من التوتر الروحي يؤهله أن يجابه كل شيء في هذه الحياة ويتحدى كل صعب في طريقه، لأن الإيمان آنئذ هو الذي ينطلق هادياً وليست الشهرة ولا العقل البشري المعرض للخطأ والصواب، وتكون مرحلة الصعود الحضاري قد بدأت تجاوباً مع توتر الروح.
والأمر الثالث في إطار المنهج الإلهي لوراثة الحضارة هو استعداد الشباب المسلم الفكري وقدرته العلمية لمواجهة المشاكل المستعصية والمتزايدة في أرجاء هذه الحضارة، السياسية منها والاجتماعية والفكرية والاقتصادية هذه الكفاءة الفكرية تنطلق من تغطية كافة التخصصات العلمية والنظرية الموجودة وإظهار التفوق والسبق في كافة هذه التخصصات، وإننا نوقن جازمين أن المشاكل السائدة لن تجد لها حلاً في إطار هذه المناهج القائمة فمهمة الشباب المسلم تتجلى في جانبين أولهما إبراز وإظهار هذا الخلل وبيان أسبابه وما سيترتب عليه من الأخطار، وذلك في المؤلفات والندوات والمحاضرات والنشرات والمناقشات وغيرها حتى تتهيأ الأنفس وتوقن أنها على شفا جرف هار..

وثانيهما : تقديم البديل الإسلامي في مجالات العقيدة والاجتماع والقانون والقضاء والاقتصاد والسياسة وأنظمة الحكم والعلاقات الدولية، والتبادل التجاري. إن الشباب المسلم يجب أن يحذو حذو يوسف عليه السلام حين قال الملأ للملك : « أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين »[1]، فقال له الصديق بكل ثقة : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم »[2]، وها هو الموقف ذاته يعود، فهل استطاع مسئول في العالم منذ سنين طويلة أن يحل معضلة اعترضته داخل بلاده ؟ وهل استطاع المسئولون مجتمعين في مؤتمراتهم الجزئية أو العامة في أروقة الأمم المتحدة وغيرها أن يحلو أمراً ما ؟ أقول جازماً : لا، لا مشاكل الحرب والسلام، ولا مشاكل الاقتصاد والتجارة، ولا مشاكل التنمية والتغذية. ولا الاشتراكية

---

(١) سورة يوسف : آية ٤٤.
(٢) سورة يوسف : آية ٥٥.

والماركسية حققت ما وعدت به من المساواة والعدالة والرفاهية، ولا الرأسمالية استطاعت أن تسعد الإنسان وتكرمه وتجنبه الخيبة، إنهم يعيشون تحت قوله تعالى : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »[1].

وإن التنسيق لطرح هذه الأفكار العملية في إطار منظمة ما تجمع الشباب المسلم والباحثين المسلمين أمر جد مهم وقوة دافعة لوصول الهدف، لأننا نلاحظ أن كتباً وصحفاً ومؤلفات في هذه الجوانب تلقى بين أيدي الناس، مسلمهم وكافرهم، وما هي في الحقيقة إلا تحريف وتشويه.

ختاماً أقول : إن هذا كله وغيره ينضوي تحت كلمة الجهاد الذي ألزم به المسلم كما قال عليه الصلاة والسلام : (والجهاد ماض إلى يوم القيامة)، والله عز وجل يقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين »[2].

أجل إن بروز الشخصية المسلمة بأبعادها الثلاثة المتكاملة ـ عقيدة، وسلوكاً، وفكراً، هو الذي سيطوي هذا السراب المظلم المتجهم أمام البشرية المعاصرة، التي أصبحت تبيت على اليأس، وتستيقظ على القنوط ـ إلا من رحم الله ـ وهذه الشخصية المسلمة بتجمعها الحركي المخلص الواعي هي التي ستعيد فتح صفحات مستقبل متفائل من هدي المنهج الرباني أمام إمكانيات هذه الحضارة الجبارة وأناسيها المتشائمين، والفلك يدور لتتحقق سنة الله في هذا الكون، إن العاقبة تكون دائماً للمتقين، وسيعلن في يوم ما.. ركب الإيمان الممتد ـ بعد العناء والبأساء ـ كما أعلن من قبل قول الله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »[3].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة طه : آية ١٢٤ ـ ١٢٧.

(٢) سورة العنكبوت : آية ٦٩.

(٣) سورة القصص : آية ٥.

إلى الشباب المسلم

للدكتور فؤاد سزكين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشبـــاب المسلم ..
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

إن الإنسان الذي يخاطبك هو مسلم كان قبل عقدين أو ثلاثة عقود شاباً مثلك. وهو اليوم يشترك معك في الإسلام ويختلف عنك في الشباب. إن السنوات التي أدت إلى هذا الفارق في العمر كانت مليئة بالمشاق. لقد قدر عز وجل لهذا الرجل المسلم أن يسلك طريق العلم لتتجلى له عظمة التراث الإسلامي، وليستطيع المقارنة بين ماضي العالم الإسلامي وحاضره، وليفكر في مستقبله وفي أسباب الركود بعد الازدهار المستمر المدهش للحضارة الإسلامية، وليوجه لنفسه السؤال حول العنصر البناء لهذا الازدهار الذي ضاع مع مرور الزمن ولم يستطع التحكم في حياة المجتمع الإسلامي حتى يومنا هذا.

لقد شغل هذا السؤال أذهان الكثير من الناس، من مستشرقين ومستغربين، ومَنْ بينهما. فادعى بعضهم هذا التعليل والبعض الآخر ذاك. إن الإنسان الذي يسعد بمخاطبتك اليوم لا يريد مناقشة صحة ما قيل في هذا المجال أو معالجة هذه القضية الشاقة في هذه الفرصة، ولكنه يكتفي بأن

يلفت نظرك إلى بعض المبادئ الهامة للحضارة الإسلامية في فترة ازدهارها، إذ قد تصلح هذه للبدء في نهضة جديدة لابد منها.

أيها الشاب المسلم ..

أنت تعرف أن الإسلام قد جاء في بيئة قاسية وفي قوم ذوي حضارة كانت دون مستوى الحضارة المعاصرة بكثير. وربما تتساءل عن الدافع الأصلي أو الدوافع الأصلية التي أدت إلى انتشار المجتمع الإسلامي خلال قرن، من إيران حتى الأندلس، وإنشاء أمة متعطشة للعلم رامية لأخذ كل ما تواجد من العلوم والمعارف لدى الأمم الأخرى. ربما تكتفي بأن تعلل هذا كله بالدين الجديد بصورة عامة دون الاهتمام بما جاء به هذا الدين لمعتنقيه، مما أدى إلى تعلق هؤلاء بالعلم. لقد أعطى هذا الدين لمعتنقه الثقة بالنفس، والشعور بمسئولية الفرد تجاه المجتمع، والتضحية والسعي للرفاهية العامة، كما علم معتنقه الزهد في الحياة المترفة، وأعطاه المبادئ التي تصلح لتحقيق هذا الهدف، لقد طلب أيضاً من الفرد تعلم ما وصل إليه البشر من معرفة، وألحّ في هذا الطلب بشدة. وكنتيجة لهذا فقد شهد التاريخ، ولمدة نصف قرن بعد ظهور الإسلام، مجتمعاً منهمكاً في طلب العلم، وهو لا يتعلم القراءة والكتابة فحسب، وإنما يتعلم كل ما يتسنى له الحصول عليه من معارف وعلوم..

في هذا المجتمع تطور بعد مدة قصيرة نموذج للعالم : زاهد في حياته الخاصة، سخي تجاه غيره، حريص على المعرفة برغبة للمعرفة لا تشبع، واثق بقدرته على تحقيق أهداف كبيرة في تعليم العلوم، وتنظيم المجتمع، وتذليل المصاعب التي تواجهه في شتى ظروف الحياة.

أيها الشاب المسلم ..

لو درست تاريخ الحضارة لهذه الأمة في قرونها الأولى لرأيت كيف أصبح الدين الذي جاء نظاماً إلهياً لتنظيم الحياة البشرية وإصلاحها، وبعد فترة قصيرة من ظهوره، كان ديناً مصحوباً بالعلم، إذ حكم العلم في قصور الحكام، وتحكم في خطب الخطباء ومواعظ الوعاظ. ولرأيت كيف كانت

المساجد مراكز للعلوم ولطلب العلم. ولو تعمقت في دراستك للحياة الثقافية لهذا المجتمع لرأيت كيف نشأت، هناك وفي أقل من قرن ونصف، بيئة علمية أدبية حيث تؤخذ وتترجم علوم الأجانب وتوضع قوانين اللغة، ومبادئ الكلام والصحبة والمراسلة. وحيث يعيش مجتمع حضاري ذو مستوى لم يتواجد آنذاك في أنحاء أخرى من العالم. لم تكن حياة الإنسان تكيف وتنظم من خلال الدين فقط.. وإنما أيضاً من حياة أدبية وعلمية ذات قوانين خاصة بها. ألم تقرأ في كتب ذاك العهد مثلاً كيف أن شخصاً كبير السن كان يرحل مع ابنه أو حفيده من جانب العالم الإسلامي إلى جانبه الآخر، من خراسان مثلاً إلى قرية بجوار البصرة، ليسمع أو يتتلمذ على عالم مشهور هناك. لم يكن الرجل المسلم يكتفي بما يوجد في بيئته الخاصة بل أراد أخذ كل ما يمكنه الحصول عليه من العلم، مستهيناً بالمصاعب، متخطياً للمشقات في هذا السبيل، كانت هذه الفضيلة عنصراً بناءً للمجتمع الإسلامي. وكانت نتائج هذا التعطش للعلم هي الانجازات العلمية التي لم تنحصر في بيئة محدودة بل كانت عامة وأثرت في بيئات أخرى. وقد استمر الأمر على ذلك مدى قرون عدة.

لو درست الجو السياسي لتلك القرون لرأيت أنه كان مضطرباً ومليئاً بالقلق. مع ذلك فقد استمر العلم في تطوره السريع لأنه كان يستند على أسس سليمة مكثت حتى عهد الركود في القرن الثامن بعد الهجرة.. مما لم يشعر به العلماء والمسؤولون إلا بعد مضي قرون.

لا أريد أن أخوض في نقاش أسباب هذا الركود أو دوافع وظواهر الازدهار. أود أن أشير فقط إلى أن تأثير الحضارة الإسلامية على العالم الغربي المسيحي قد بدأ في القرن الرابع مما أدى، بعد أخذ علومها والتقليد الواسع لمؤسساتها المختلفة، إلى بدء مرحلة جديدة من العلم في القرن العاشر.

ابتدأ المسؤولون في العالم الإسلامي بعد فترة طويلة، وذلك في القرن الحادي عشر، بملاحظة هذه الظاهرة الجديدة. لقد لاحظوا كيف تطور العلم في أوروبا بخطى سريعة دون معرفة أسباب الركود في العالم الإسلامي وطرق معالجة هذا الركود. وكلما وضحت لهم الفروق في التطور العلمي بين

العالم الإسلامي والأوروبي ازدادت الصعوبات في فهم أسباب الركود، وقد تطور الأمر إلى مستوى اضطر فيه العالم الإسلامي أن يأخذ من الغرب من أوحى إليه بأنه شيء جديد، ضروري، مفيد وصالح، لكن عملية الأخذ لم تكن ناجحة، إذ كثيراً ما صحب الأخذ بتقليد المظاهر وعدم الاهتمام بالأسس والمبادىء للظاهرة الجديدة في الحضارة الأوروبية.

لقد أدرك العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر، وهو القرن الثالث بعد إحساسه بتأخره تجاه الحضارة الأوروبية، بأن العالم الغربي يسبقه في جميع نواحي الحضارة. وبالرغم من أننا قلدنا الكثير من المؤسسات العلمية للعالم الغربي، وترجمنا آلافاً من كتبهم، فإننا لم نستطع أن نعلل الهوة الكبيرة بين المستوى العلمي لديهم ولدينا. إن الهوة لا تزال في تزايد مضطرد. لذلك فلا يغرنك التقدم الجزيل الذي شهده العالم الإسلامي في نواح مختلفة من الحياة الاجتماعية أو في بعض الميادين الصناعية، ولا يغرنك عدد الجامعات والجامعيين أثناء العقدين الأخيرين. حسبنا أن نقارن هذا التطور بما حصل في العالم الغربي في نفس الحقبة في هذا المضمار.

علينا أن نعرف الواقع وأن لا نخاف منه. علينا الاعتراف بأن نموذج العالم الحقيقي الذي تطور في العالم الغربي في القرنين الأخيرين لم يصلنا بعد كما أن نموذج علمائنا في القرون الذهبية للعالم الإسلامي لم يكن يتصور تواجد مثل هذا في العالم اللاتيني، حتى أواسط القرن السادس عشر الميلادي. فكثيراً ما قارنت كتب العلماء العرب المسلمين مثل ابن الهيثم والبيروني بما للعلماء في عهد النهضة الأوروبية. وكانت نتيجة المقارنة لصالح العلماء المسلمين في الإنجاز والأمانة والوضوح واتساع المعرفة والدقة في الحكم والنقد.

أود الآن أن أحدد رأيي بالقول.. بأن العلم يقود العالم، ويسيطر عليه وخاصة منذ الحرب العالمية الثانية، وبأن مستوى العالم الحقيقي هو ركن أساسي في التطور السياسي، الاقتصادي والصناعي للمجتمع. قد يتوافر لدينا عدد كاف من الرياضيين. الأطباء. الفيزيائيين والمهندسين ذوي الكفاءات والمستويات التي لا تختلف اختلافاً كبيراً عما هي عليه لدى زملائهم في

العالم الغربي، لكن الفروق تبقى كبيرة فيما يخص الفلاسفة والاجتماعيين والمؤرخين، مؤرخي الحضارة والعلوم، وعلماء الفقه والتربية. لكن هذه الطائفة من العلماء هي التي تلعب الدور الأساسي في تنظيم أمور المجتمع ورفع مستواه، وهم الذي يمهدون الطرق الصحيحة للحكماء. إنني أرى أسباب الأزمان السياسية والاقتصادية في العالم الإسلامي في فقدان العلماء. وفي رأيي أن أهم مشاكل العالم الإسلامي وأكثرها إلحاحاً هي تربية وإيجاد مثل هؤلاء العلماء بمستوى معاصر. إن هذا التفكير ليؤدي إلى ضرورة الحصول على جامعات بمستوى جامعات العالم الغربي.

بالرغم من أنني لا أطرح رأيي في كيفية الوصول إلى مثل تلك الجامعات، إلا أنني لا أتردد بعرض رأيي حول هذه المشكلة على المسؤولين في الفرص المناسبة، وأود هنا فقط لفت نظر الشاب المسلم إلى هذه المشكلة، وانه ليسعدني لو ساعدني الشباب المسلم في رأيي هذا.

أيها الشاب المسلم ..

إنني أعلم أن الوصول إلى المستوى المطلوب في العلم ليس بالسهل، والطريق إليه مليء بالعقبات والمشاكل، لكنني أعتقد أن العنصر الوحيد والحقيقي لتحقيق هذا الهدف هو أنت : الشاب المؤمن السليم، الذي يستطيع أن يقبل وأن يجرؤ على قبول كل ما يصلح لنا من المبادىء والعناصر في الحضارة المعاصرة دون انحلال وتوليد عقد نفسية، كما فعل آباؤك في العصور الزاهرة.

أنت تحمل في ذاتك آمالنا وهي الوصول إلى العالِم الذي يحتاجه العالَم الإسلامي.. العالم الزاهد في حياته الخاصة، السخي بغيره، الذي يرى طرق حل مشاكل المجتمع بدراسته العلمية.. أسرع في تطورك لتكون هذا العالم الذي نحتاج إليه. لقد مضى الوقت ولم يستغله أسلافك للتوصل إلى هذا ولم يعد هناك مجال للتأجيل..

* * *

المُحَاضَرَاتُ العَامَّة

المحاضرات العامة

جوهر الحضارة الإسلامية

للدكتور : إسماعيل راجي الفاروقي

القرآن والعلم الحديث

للدكتور : موريس بوكاي

إنسانية اليوم وحضارة المستقبل

للدكتور : المهدي بن عبود

الأسباب التاريخية لانحراف المجتمعات الإسلامية، والمنطلقات الإسلامية لتصحيح البنية الحضارية المعاصرة

للدكتور : عبد الحميد أبو سليمان

منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة

للشيخ : سعيد حوى

جوهر الحضارة الإسلامية

للدكتور إسماعيل راجي الفاروقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

لا شك أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام. ولا شك أن جوهر الإسلام هو التوحيد.

هاتان المسلمتان بديهتان. ولم تكونا موضع شك أبداً من قبل ممن ساهموا في هذه الحضارة أو انتموا إليها. وإن وضعها المستشرقون والمبشرون من أعداء الإسلام موضع شك في هذه الأيام، فنحن نوقن أن للحضارة الإسلامية جوهراً وأن جوهرها قابل للمعرفة والتحليل والوصف، وأنه هو التوحيد[1].

فالتوحيد هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها. هو الذي يربط بين أجزائها. هو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويصهرها فتخرج من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها. قديماً وحديثاً كتب مفكرونا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد، وذلك لأنهم رأوا فيه المبدأ الأكبر الذي يشمل جميع المبادئ الأخرى،

---

(١) راجع نقد المؤلف للمستشرقين الذين وجهوا شكوكهم إلى حقيقة أن للإسلام جوهر معروف أو قابل للمعرفة. وذلك في مقالته بعنوان: «جوهر الاختبار الديني في الإسلام» (The Essence of Religious Experience in Islam) نشر في مجلة **Numen** في عددها ٢٠ (٣) بتاريخ ١٩٧٣، ص ١٨٦ ــ ٢٠١.

ورأوا فيه القوة الكبرى التي تفجرت عنها جميع المظاهر المكونة للحضارة الإسلامية.

التوحيد هو الشهادة عن إيمان بأن « لا إله إلا الله »، هذه الشهادة السلبية في مظهرها، والمختصرة « اختصاراً » لا اختصار بعده، تحمل أسمى المعاني وأجلها. فإن أمكن التعبير عن حضارة برمتها بكلمة واحدة، ان أمكن صب كل الثراء والتنوع والتاريخ في أبلغ الكلام ـ وهو أقصره طولاً وأكثره دلالة ـ كان هذا في « لا إله إلا الله » عنواناً للتوحيد، وبالتالي للحضارة الإسلامية.

التوحيد كتصور عام :

التوحيد تصور عام للحقيقة، بما فيها الدنيا كلها والحياة كلها والتاريخ كله. كتصور عام للحقيقة. يعني التوحيد المبادئ الخمسة الآتية :

١ ـ الحقيقة عالمان. عالم الله وعالم الخلق. ينفرد بعالم الله موجود واحد لا شريك له، هو الله جل جلاله. هو الخالق الوحيد، المنزه الصمد. أما عالم الخلق فهو عالم الزمان والمكان بكل ما احتوياه من موجودات وحوادث. ثنائية الحقيقة نهائية قاطعة. ينفصل العالمان عن بعضهما انفصالاً تاماً كونياً ووجودياً. لا يمكن للخالق أن يتحد أو يتصل وجودياً أو يحل أو يتجسد في المخلوق، ولا للمخلوق أن يتحد أو يتصل وجودياً في الخالق أو يسمو بنفسه إلى مرتبة الخالق[1].

---

(١) بهذا يخالف التوحيد الصوفية وبعض مذاهب الهندوكية التي أذابت الدنيا في الله ورفضت الاعتراف بأية حقيقة سوى الله، ففي هذا الرأي لا حقيقة ولا وجود ولا كيان إلا لله وحده، وأن العالم المخلوق وكل ما فيه لا وجود له ولا حقيقة له البتة، إنما هو خيال عابر. ويخالف التوحيد بالمبدأ ذاته المصريين والإغريق القدماء والطاوية والصينيين الذين أذابوا الله ـ تعالى سبحانه عما يصفون ـ في مخلوقاته وقالوا إنه هو فرعون بلحمه ودمه أو النبات الأخضر أو النيل بمائه أو الشمس بحرارتها وضوئها أو مجموع المخلوقات، أو أن كل مخلوق إله اذا انتفخت صفاته وتضخمت إلى درجة اللانهاية والعكس صحيح أي ليس الإله إلا المخلوق المتضخم الصفات. وقد ابتعدت المسيحية كل البعد عن التوحيد عندما ادعت أن الله حل في جسم بشر وتجسم فيه فأصبح المخلوق خالقاً. وإنها لميزة الإسلام الأولى أنه ركز على حقيقة العالمين أو الطبقتين ـ الله الخالق والعالم المخلوق ـ وعلى تمام انفصالهما عن بعضهما البعض طبعاً وطبيعة وأصلاً وفرعاً وبداية ونهاية، وبذلك تميز الإسلام وما سبقه من تراث التوحيد الذي جاء به الأنبياء من قبل، عن عالم الهند والصين المجاور شرقاً وعن عالم مصر والإغريق المجاور غرباً.

٢ ـ ولا صلة بين الخالق والإنسان المخلوق إلا بقوة العقل، وهي قوة فطرية تؤهل المخلوق لإدراك إرادة الخالق وحياً أو تعقلاً، وحياً إن أنزل الله كلامه المعبر عن إرادته، وتعقلاً إن أمعن النظر في المخلوقات فاكتشف سننها وهي إرادة الله سبحانه(١).

٣ ـ لعالم الخلق غاية من وجوده، هي تحقيق إرادة الخالق، فالله لم يخلق عبثاً، ولم يخلق باطلاً(٢)، بل سوّى كل شيء خلقه وقدره تقديراً(٣).

فإرادة الله في خلقه ما عدا الإنسان تحقق بالضرورة وذلك بأن الله وضع تلك الإرادة سنة أو فطرة جبلة المخلوق(٤). أما في الإنسان، فإرادة الله تتحقق باختياره فضلاً عن تحققها بالضرورة في جبلته. وللإرادة الإلهية التي تتحقق باختيار الإنسان مرتبة أعلى من مرتبة الإرادة المحققة بالضرورة. وهذا هو التفاضل القائم بين القيم الأخلاقية والقيم النفعية(٥).

٤ ـ طالما أن الخلق كله خلق لغاية فلا بد أنه قادر على تحقيقها(٦). ففي الإنسان قوة على تغيير نفسه وتغيير مجتمعه وتغيير الطبيعة المحيطة به، وفي نفس الإنسان ومجتمعه ومحيطه الطبيعي قوة على تقبل

---

(١) يشير هذا المبدأ إلى انقطاع الصلة إطلاقاً بين الله والإنسان عن طريق الاتحاد أو الحلول أو التأليه. وأن كل ما يمكن أن يقوم من اتصال هو أن يأمر الله العبد فيسمع العبد القول ويطيعه، وهذا هو سبيل الوحي، أو أن يعقل الإنسان المخلوقات فيدرك أن لها صانعاً خلقها وقدرها، ومحركاً يبقيها ويوجهها وأنه يجب أن يعبد ويطاع، وهذا هو سبيل التعقل. يخالف التوحيد بهذا المبدأ جميع مؤلهي البشر ومجسمي الآلهة من إغريق ورومان وصينيين وهندوكيين وبوذيين ومسيحيين.

(٢) تؤكد هذا المبدأ الآيتان ٣ : ١٩١، ٢٣ : ١١٦.

(٣) ذلك مما جاء في الآيات ٧ : ١٥، ١٠ : ٥ ، ١٣ : ٩ ، ١٥ : ٢٩ ، ٢٥ : ٢ ، ٣٢ : ٩ ، ٣٨ : ٧٢ ، ٤١ : ١٠ ، ٥٤ : ٤٩ ، ٦٥ : ٣ : ٧٥ : ٤ ، ٣٨ ، ٨٠ : ١٩ ، ٨٢ : ٧ ، ٨٧ : ٢ ـ ٣.

(٤) كما أشارت الآيات ١٧ : ٧٧ ، ٣٣ : ٦٢ ، ٣٥ : ٤٣ ، ٤٨ : ٢٣ ، ٦٥ : ٣.

(٥) فالعمل الصادر عن الطبيعة ـ أي بالضرورة ـ غير خلقي بمعنى أنه لا يستحق الجزاء، لا خيره ولا شره. إذ لا يجزى الإنسان على تنفسه أو هضمه، ولا على معروف أو منكر أكره عليه إكراهاً. وذلك بخلاف العمل الصادر عنه مع تمكنه عدم القيام به أو القيام بعكسه أو بعمل آخر مغاير له.

(٦) يؤكد ذلك ما أشير إليه من آيات في موضوع تسوية وتقدير الله لمخلوقاته (ذيل ٤ و ٥ أعلاه) وجميع آيات التكليف وتحميل المسؤولية التي لا تحصى لكثرتها في القرآن الكريم.

فعل الإنسان[1]. فالخلق كله عجين يقوي الإنسان على تكييفه، على جعله يحقق إرادة الله كما فهمها، على إعادة تخريجه كما ينبغي وتحويله إلى ما يجب أن يكون[2].

٥ ـ إذا كان الإنسان مكلفاً بتحقيق أوامر الخالق وقادراً على القيام به حق عليه الحساب، إذ بدونه تسقط جدية التكليف[3]. فالحساب قائم في التاريخ وبعده. يؤتي المستجيب للأمر، المحقق له، فلاحاً وسعادة ويسراً ويؤتي العاصي للأمر، عذاباً وإخفاقاً وضيقاً.

التوحيد كجوهر حضاري :

للتوحيد كجوهر حضاري جانبان : جانب أسلوبي وجانب فحوي. الجانب الأسلوبي يحدد الشكل الذي تنتظم به المبادىء المكونة للحضارة في التطبيق أو التحقيق. أما الجانب الفحوي فهو المبادىء نفسها المنتظمة بالشكل.

يتألف الجانب الأسلوبي من مبادىء ثلاثة الوحدة، والتعقل، والسعة. فهي التي تؤلف الشكل الجامع، الطابع للحضارة الإسلامية.

الجانب الأسلوبي :

١ ـ الوحدة :

لا حضارة بدون وحدة، أي بدون تعلق المفاهيم الفحوية ببعضها البعض بحيث تصبح نسقاً متجانساً واحداً. فالوحدة انتظام في إطار واحد تكون العلاقات داخله هرمية تفاضلية تشد بعضها بعضاً. وانتظام في الإطار الواحد هو الصهر الإسلامي. فالحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها من

---

(١) وهذا ما حملته آيات التسخير من معاني ١٣ ، ٢ ، ١٤ : ٣٢ ـ ٣٣ ، ١٦ : ١٢ ، ١٤ ، ٢٢ : ٣٦ ـ ٣٧ ، ٦٥ ، ٢٩ : ٦١ ، ٣١ : ٢٠ ، ٢٩ ، ٣٥ : ١ ، ٣٨ : ١٨ ، ٣٩ : ٥ ، ٤٣ : ١٣ ، ٤٥ : ١١ ـ ١٢.

(٢) كما تدل آيات التكليف العديدة.

(٣) آيات الحساب في كتاب الله عديدة جداً لا حاجة لاحصائها. فالإنسان لن يترك سدى (٧٥ : ٣٦) بل على الله حسابه (٨٨ : ٢٦ و ٤ : ٨٥).

الحضارات وأخذت منها. لكنها ليست مجرد جمع وإضافة، بل هضماً وتسوية وتخريجاً جديداً. فما من حضارة إلا خرجت من سابقاتها وتغذت بمواد جديدة غريبة عنها. لكنها هضمتها وسوتها فحولتها من جوهر غريب عن الحضارة إلى مادة فحوية تنتسب إلى الحضارة الإسلامية انتساباً عضوياً. والوحدة الأسلوبية هي وحدة المبادىء المؤلفة للجوهر، ووحدة الجوهر مع جميع الأعراض.

ولعل أسوأ ما نزل بنا من كوارث في العصر الحديث هو انتزاع وحدة الأسلوب من حضارتنا. وذلك بإدخال عناصر غريبة على حياتنا دون أن نصهرها ونسويها ونخرجها التخريج الذي يجعلها نسقاً متوحداً. فجمع الأفندي المسلم للإسلام من جهة وللزي غير الإسلامي ولبناء بيته بشكل غير إسلامي، وتأثيثه وتزيينه بالأثاث والتحف غير الإسلامية من جهة أخرى، وجمع ذلك الأفندي المثقف للدين الإسلامي من جهة ولأسلوب عيش وترفيه غير إسلامي أو لعلوم إنسانية واجتماعية تتناقض مع معطيات هذا الدين من جهة أخرى، وكذلك جمع الأفندي الجامعي للإسلام من جهة وللفلسفات الغربية من جهة أخرى معتقداً بأن الدين شيء والعلم شيء آخر، أو أن الدين شيء والسياسة شيء آخر. فذلك كله من الكبائر التي يأباها الضمير ويشمئز منها الذوق السليم.

فالتوحيد وحدة الله. ووحدة الله هي أنه وحده جدير بالعبادة أي بالطاعة. فإذا عاش الإنسان حياته مطيعاً لله محققاً لإرادته، لا بد لحياته من أن تتسم بوحدة من تدين له، فتأتي مرتبطة الأجزاء بخيط واحد بجمعها. وإذا ارتبطت أجزاؤها وتنسقت كانت ذات شكل أو أسلوب واحد.

٢ ـ التعقل :

التعقل مبدأ أسلوبي مؤلف لجوهر الحضارة الإسلامية. يتألف التعقل من ثلاثة بنود.

الأول : رفض ما يخالف الحقيقة.

الثاني : رفض استمرار المتناقضين.

والثالث : الانفتاح وتقبل الدليل المخالف.

فالبند الأول يحمي من الظن ـ إن بعض الظن إثم ـ ويطالب بموافقة الفكرة مع واقع الحقيقة[1]. والثاني يحمي من التناقض البسيط من جهة ومن الـ (بارادوكس) Paradox من جهة أخرى[2]. ليس التعقل إعلاء العقل على الوحي[3]، بل هو رفض استمرار التناقض بينهما. فالتعقل يرجع المتناقض عليه إلى العقل ليمعن النظر فيه تارة أخرى عله يكتشف فيه جانباً جديداً يزيل التناقض، كما يرجع قارئ الوحي ـ لا الوحي نفسه ـ إلى الوحي ليمعن النظر فيه عله يكتشف فيه معنى غاب عنه يعيد إلى تفهمه للوحي ـ لا إلى الوحي كوحي ـ حسن سياقه مع ما وصل إليه العقل. فاستمرار المتناقضين نهائياً لا يتقبله إلا ضعيف العقل. مبدأ التعقل الثالث، أي الانفتاح أمام الدليل المخالف يحمي المسلم من التزمت والتنطع، ويدفعه إلى التواضع الفكري. فالتعقل هو الذي يقرن حكمه دائماً بـ « الله أعلم » لأنه يعلم علم اليقين بأن الحقيقة أكبر من أن يلم بها كلها.

قلنا ان التوحيد هو الإقرار بوحدة الله. والله، هو الحق. فوحدته إذاً هي وحدة الحقيقة. هو مصدر الوحي وهو خالق الخلق الذي عقله الإنسان. وهو المحرك الموحي للإنسان بكل علمه. هو الذي يؤتي الحكمة لمن يشاء. والله جلا وعلا، منزه عن البداء، أي عن تغيير فكره، منزه عن الخطأ فهو العليم المحيط بكل شيء علماً. وهو منزه عن التناقض، عن إساءة الإعلام، تعالى عما يصفون علواً كبيراً.

٣ ـ السعـــة :

السعة كمبدأ أسلوبي هي حسن الظن بالظاهر إلى أن يثبت خَطَؤُهُ.

---

(١) نهى الله تعالى عن الظن في الآيات ٤ : ١٥٦ ، ٦ : ١١٦ ، ١٤٨، ١٠ : ٢٦ ، ٦٦ ، ٤٩ : ١٢ ، ٥٣ : ٢٣ ، ٢٨.

(٢) لا مرادف لهذه الكلمة بالعربية فهي خاصة بالتراث المسيحي الإغريقي وهي مركبة من كلمتين : « شبه » و « عقيدة » وتعني « كل ما يقبله المسيحي من عقائد يأباها العقل السليم ».

(٣) أعلى الفلاسفة العقل على الدين والوحي وجعلوه حاكماً، وهم طبعا على غير حق في هذا بل في ضلال مبين. للفكر الإسلامي أن يعرف العقل والتعقل تعريفًا مغايراً ينطلق منه. وهذا هو تعريفنا الذي عمل به سلفنا الصالح، أي : التعقل هو رفض التناقض النهائي.

فهي إذاً مبدأ معرفي، يقابله اليسر كمبدأ أخلاقي كما أن اليسر هو تقبل المرغوب فيه إلى أن يثبت فساده[1]. فالسعة الفكرية واليسر الأخلاقي يحميان المسلم من الانغلاق والتزمت ويدفعان به إلى الإقبال على مجالات جديدة ليجول فيها فكره ويعمل فيها ساعده. السعة واليسر تمهدان لإثراء فكر المسلم وإنجازه.

السعة كمبدأ أسلوبي في جوهر الحضارة الإسلامية هي الإيمان بأن الله لم يترك قوماً إلا أرسل إليهم نذيراً يعلمهم بأن يعبدوا الله[2] ويجتنبوا الطاغوت[3]، بل إن في فطرة البشر أجمع ما يؤهلهم لمعرفة الدين الحنيف القيم وإدراك أوامر الله وإرادته. فالسعة هي الإيمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى. وهذا هو ما يجدر بالمسلم دراسته والاطلاع عليه بحثاً عن تلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها[4] أو ذلك التنزيل الذي أنزله على عباده في جميع الأصقاع والأزمنة. حتى في الدين، إذاً، وهو أهم الحقول، تحل السعة مكان النقض المتقابل وتحول المجابهة إلى بحث علمي في تاريخ الدين المذكور. وفي الأخلاق يقوم مبدأ اليسر بإبعاد المسلم عن التنكر للحياة، ويحفظ له حسن تفاؤله رغم كل ما قد يعتري حياته من وهن ومصائب « إن مع العسر يسراً »[5]. وكما أمرنا الله بالتبيّن قبل الحكم[6]، أقر الأصوليون التجربة قبل الحكم على المرغوب فيه إن لم يكن مخالفاً بيناً لأمر الله.

---

(١) تدل على ذلك آيات التساؤل عن التحريم العرفي : ٥ : ٩٠ ، ٧ : ١٣ ، ٦٦ : ١، كما يدل عليه المبدأ الأصولي المجمع عليه بأن لا حرام إلا بنص، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى : « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » (٦ : ١١٩ ، ١٥٣).

(٢) وهذا ما تؤكده الآيات ٦ : ٤٢ ، ١٢ : ١٠٩ ، ١٣ : ٤٠ ، ١٤ : ٤ ، ١٥ : ٩ ، ١٦ : ٤٣ ، ١٧ : ٧٧ ، ٢١ : ٧ ، ٢٥ ، ٢٣ : ٤٤ ، ٢٥ : ٢٠ ، ٣٠ : ٤٧ ، ٣٧ : ٧٢ ، ٤٠ : ٧٠.

(٣) الآيات ٤ : ١٦٢ ، ٣٥ ، ٢٣. « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله أنا فاعبدون » (٢١ : ٢٥).

(٤) كما أشارت الآية ٣٠ : ٣٠.

(٥) الآية ٩٤ : ٦.

(٦) الآية ٤٩ : ٦.

تنحدر السعة واليسر من التوحيد كمبدأ أخلاقي. فالله الذي خلق الإنسان ليبلوه حسن العمل، جعله حراً قادراً على التحرك في الكون مقبلاً عليه. فالأصل فيه الحركة لا الجمود[1].

الجانب الفحوي :

١ ـ التوحيد مبدأ ميتافيزيقي :

تعني الشهادة بأن « لا إله إلا الله » أن الله وحده هو الخالق، هو الموجد لكل شيء، هو الفاعل لكل حادث، هو الغاية من كل شيء هو الأول والآخر. فإذا شهد الإنسان بهذه الشهادة عن وعي وإيمان بمدلولها، أيقن أن كل ما يحيط به من حوادث طبيعية كانت أم اجتماعية أم نفسانية، كلها من فعل الله وتحقيقاً لغاية من غاياته. وهذا اليقين إذا وجد، لا يقوى الإنسان على مفارقة مفهومه ولو للحظة واحدة. فهو يعيش كل لحظات حياته تحت ظله. فإذا رأى الإنسان أمر الله في كل شيء وحادث، كان لا بد له من تتبعه لأنه أمر الله. فإذا تتبعه في الطبيعة، كانت العلوم الطبيعية[2]. ذلك أن أمر الله فيها هو السنن التي فطرت عليها والتي لا تبديل لها[3]. وإذا تتبع غاية الله في نفسه أو في مجتمعه كانت العلوم الإنسانية والاجتماعية[4]. فإذا كان العالم كله مبنياً على هذه السنن التي هي إرادة الله وأوامره كان العالم في نظر المسلم حياً ينبض بأوامر هي المفسرة لكل ما يقوم فيه ويحدث. فتوحيد الله يعني انفراده بتسبيب الأشياء والحوادث، وهذا يعني تجريدها عن كل قوة أخرى.

---

(١) سيأتي بحث هذا الجانب بالتفصيل في ما يلي من صفحات.

(٢) لم تنشأ وتزدهر علوم الطبيعة في أي عصر ومكان إلا بافتراض المبدأ بأن الطبيعة مفطورة على سنن ثابتة لا تبديل لها. وهذا ما قدمه الإسلام وهو السبب المباشر لنمو العلوم الطبيعية في جوه. أما الاعتقاد المعاكس أي أن الطبيعة لا ثبات لها ـ فإنه ما يسمح للآلهة المجسمة في الطبيعة أو السحرة العاملين فيها بالتلاعب في حركتها ومقدراتها. ومثل هذه الطبيعة لا يمكن أن تؤدي دراستها وملاحظتها إلى علم.

(٣) وذلك خلافاً للتاريخ الذي يقف عند كل حادثة أو حقيقة معينة ليحللها ويتفحصها ـ إذ تهتم العلوم بما هو عام مشارك به من قبل المخلوقات كلها أو ما انتمى منها إلى فضيلة واحدة، أي بقانون الطبيعة الذي تسير عليه جميع الوحدات الخاصة بفصيلة أو طبقة معينة من الطبيعة.

(٤) كذلك في العلوم الإنسانية والاجتماعية حيث يبحث العلم عن القوانين المكونة أو المسيرة للإنسان في سلوكه الفردي والجماعي.

وتجريد الطبيعة عن كل قوة غير الله هو علمنتها وهذا هو الشرط الأساسي لقيام العلوم الطبيعية. فقبل علمنة الطبيعة بتجريدها عن سائر القوى، من سحر وآلهة وأرواح وقوى سرية، لم يكن العلم يقف على قدميه. أما في التوحيد، فقد جردت الطبيعة عن الآلهة والأرواح والقوى السحرية فأصبح العلم ممكناً[1].

ليست المسيحية دين توحيد، بل هي دين يؤكد تجسد الإله في الطبيعة، ويعتمد التناقض مبدأ للمعرفة. لذلك لم تنتج المسيحية علوماً طبيعية مدى ألف سنة تحكمت في عقول الناس. ولم ينتج المسيحيون العلوم إلا بعد أن تحرروا من عدم التوحيد الذي فرضته عليهم المسيحية وبعد أن انتقلت إليهم علوم المسلمين. وحكمت الهندوكية والوذية آسيا وجنوب شرقها مدى ألف سنة لم يتقدم أهلها إلى مستوى التفكير العلمي، ولكن ما إن أسلموا ووحدوا الله حتى حققوا وأنجزوا التي نراها في ازدهار العلوم عند المسلمين العرب.

التوحيد هو عكس الخرافة. والخرافة أو الأسطورة هي عدوة العلم والحضارة. التوحيد يجمع خيوط السببية ويرجعها إلى الله. وفي هذا الإرجاع تنظيم للأسباب وترابط لها يمكن الباحث من استقصائها واكتشاف علاقاتها. وذلك هو العلم بها والتمكن منها. وهما الشرطان اللازمان للانتفاع بها واستثمارها.

٢ ـ التوحيد مبدأ أخلاقي :

يقول التوحيد بأن الله الأحد خلق الإنسان وقدره وسواه ليعبده أي ليطيعه ويكون له خليفة في الأرض[2]. وقد حمله أمانته التي لم تقو السموات والأرض على أن يحملنها وأشفقن منها[3]. والأمانة هي تحقيق إرادة الله الأخلاقية. فالإنسان وحده قادر على تحقيقها لأنها تتطلب الحرية والاختيار والإنسان وحده حر مختار.

---

(١) عملا بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٥١ ـ ٥٦).
(٢) كما دلت الآيات ٢ : ٣٠ ، ٦ : ١٦٥ ، ١٠ : ١٤.
(٣) الآية ٣٣ : ٧٢.

لم يخلق الله الإنسان عبثاً ولن يتركه سدى. بل منحه حواسه وأحسن خلقه وأكمله، بل ونفخ فيه من روحه[1] ـ كل ذلك لتأهيله للقيام بهذا الواجب العظيم.

فهذا الواجب العظيم هو سبب وجود الإنسان، وهو غايته، وهو تعريفه، وهو معنى وجوده وحياته. فالإنسان مخلوق كوني، له أهمية كونية.. لأن الكون ليس كوناً بدون الجانب الأهم والأعلى من الإرادة الإلهية. ولا محقق لها سوى الإنسان في عمله الحر الاختياري الأخلاقي. فطوبى للإنسان أن يكون الجسر الكوني الذي تعبره إرادة الله الأخلاقية لتدخل التاريخ، ولتحقق في الزمان والمكان.

هذا التكليف الذي اختص به الإنسان لا يعرف حداً. فالوجود كله داخل ضمن نطاقه. جميع البشر هدف لعمل الإنسان الأخلاقي، وجميع الأرضين والأفلاك هدف ومجال له. هو مكلف بها جميعاً إلى أبعد زواياها وأصغر أعضائها. تكليفه عالمي، كوني، لا ينتهي إلّا يوم القيامة.

على هذا تقوم إنسانية الإنسان. فهو أكمل من الملائكة وأرفع منهم درجة لأنه يقدر على العمل الأخلاقي طوعاً. وشتان بين هذه الإنسانية وإنسانيات الحضارات الأخرى. فالإغريقية ألهته وألهت معه فساده. والمسيحية أسقطته وجعلته « كتلة خطيئة »[2] لتقدمه لإلهها تفسيراً لصلبه كعملية إنقاذ وتخليص. والهندوكية صنفته درجات وطبقات، من أسفل سافلين حيث لا يرجى أمل إلى طبقة البراهمة المقربين، دون أن يكون للإنسان ذاته حق في تقرير طبقته وذلك بتمييع شخصيته في انتقالها من جسد إلى جسد. وأما البوذية فقد حكمت على الإنسان والحياة كلها والوجود كله بأنه شر وفساد.

فالتوحيد فقط يقول بإنسانية الإنسان لأنه يحترمه كإنسان دون تأليه ودون تشرير.

---

(١) حسب ما في الآيات ١٥ : ٢٩ ، ٢١ : ٩١ ، ٣٨ : ٧٢ ، ٦٦ : ١٢.

(٢) على حد تعبير القديس أو غسطينوس، ومعناه « كتلة من الخطيئة ».

٣ ـ التوحيد مبدأ قيمي :

يقول التوحيد بأن الله سبحانه وتعالى خلق البشر ليبلوهم أيهم أحسن عملاً[١]، وأن عملهم سيرى[٢]، وأنهم سيجازون عليه خيراً إن كان خيراً وشراً إن كان شراً[٣]، ويقول التوحيد أيضاً أن الله استعمر الإنسان في الأرض[٤]، أي وضعه فيها ليسعى في مناكبها ويأكل من رزقها ويتطيب بطيبها ويتحلى ويتزين بحليتها وزينتها[٥].

هذه هي الإيجابية، الإقبال على الدنيا لأنها خير بريء صنعها الله وسخر كل ما فيها، بما في ذلك الشمس والقمر، كي يعمل الإنسان فيها عمله الأخلاقي ويحقق به الجانب الأعلى من الإرادة الإلهية. فالإنسان مكلف بإشباع غرائزه وحاجاته، بتوفير هذا الإشباع لبني البشر أجمع. هو مكلف بتنمية مواردهم الإنسانية إلى أقصى ما يمكن تحقيقاً لجميع طاقاتهم. وهو مكلف أيضاً بتحويل الأرض كلها إلى رياض وجنان، وله أن يفرقع القمر والشمس إن لزم[٦]. فعليه إدراك سنن الطبيعة وسنن النفس وسنن المجتمع وعليه أن يصنع ويصنع ويحول الدنيا إلى جنة تعلو فيها كلمة الله.

هذه هي الإيجابية المنشئة للحضارة، المؤكدة لحركيتها وتقدمها، فالتوحيد لا يعرف الرهبنة[٧]، ولا الانعزال عن الناس، ولا الزهد في الدنيا ولا التنكر لها. وليست الإيجابية الاقبال على الدنيا دون وازع. فالوازع هنا هو

---

(١) الآيات ١١ : ٧ ، ١٨ : ٧ ، ٤٧ : ٣١ ، ٦٧ : ٢.

(٢) الآيتان : ٩ : ٩٥ ، ١٠٦.

(٣) الآيات ٩٩ : ٧ ـ ٨ ، ١٠١ : ٦ ، ١١.

(٤) الآية : ١١ : ٦١.

(٥) الآيات ٢ : ٥٧ ، ١٧٢ ، ٥ : ٩٠ ، ٧ : ٣١ ، ١٥٩ ، ٢٠ : ٨١.

(٦) أو كما قال تعالى : « يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان » (٥٥ : ٣٣).

(٧) الآية ٥٧ : ٢٧. بل أمرنا الله تعالى بقوله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٢٨ : ٧٧) وعلمنا سبحانه أن ندعوه بأن يؤتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة (٢ : ٢٠١ ، ٧ : ١٥٦)، وأنه تعالى سيستجيب لنا إن أحسنا (١٦ : ٣٠ ، ٣٩ : ١٠).

أمر الله، هو الأخلاق. والأخلاق لازمة للإيجابية إذ بدونها سرعان ما تناقض الإيجابية نفسها وتهدم كل ما أنجزته من بناء.

غالت الحضارة الإغريقية من قبل، كما تغالي الحضارة الغربية اليوم، في إيجابيتها. قالت إن كل ما في الطبيعة خير يرجى وأن كل ما يرجى أو يرغب فيه خير لأنه طبيعة. ولكن الطبيعة تناقض أجزاؤها بعضها بعضاً. فإن لم يكن هنالك وازع أخلاقي يحل التناقض ويضبط المتناقضين ويحسم خلافهما بما يعود على الإنسان والحياة بالخير والنفع فسد أمرها وتحولت إلى جحيم ـ يدمر فيه أعضاؤه بعضهم بعضاً تماماً كما حصل في جبل الألهة ـ أوليمبس وفَالْهَالَا.

ضمانة الإيجابية هي الأخلاق. والايجابية المهذبة بالأخلاق هي الحضارة. وهذا ما يعطينا التوحيد.

٤ ـ التوحيد مبدأ اجتماعي :

يقول لنا التوحيد بأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون[١]. وإنما المؤمنون إخوة، يتحابون في الله، ويتواصون بالحق والصبر[٢]، يعتصمون بحبل الله جميعاً ولا يتفرقون[٣]، يحتسبون بعضهم بعضاً فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[٤]. يطيعون الله ورسوله[٥]. فالرؤيا واحدة، والشعور واحد، والعمل واحد. يجمعون في فكرهم، وفي تقريرهم، وفي موقفهم وشعورهم، وفي سواعدهم. أمتهم ثالوث من مراتب الإجماع، وأخوة عالمية لا تعرف لوناً ولا جنساً ولا هيئة، ولا تفرق بين الناس إلا بالتقوى[٦].

---

(١) الآيتان ٢١ : ٩٢ ، ٢٣ : ٥٣.

(٢) كما دلت سورة العصر (١٠٣) والآية ٤٩ : ١٠.

(٣) الآية ٣ : ١٠٣.

(٤) الآيات ٣ : ١١٠ ، ٥ : ٨٢ ، ٩ : ١١٣ ، ٢٠ : ٥٤ ، ١٢٨.

(٥) كما أمر الله تعالى في آياته الكريمة ٣ : ٣٢ ، ١٣٢ ، ٤ : ٥٨ ، ٥ : ٩٥ ، ٢٤ : ٥٤ ، ٤٧ : ٣٣ ، ٦٤ : ١٢.

(٦) حسب الحديث الشريف من حجة الوداع. المراد من الإجماع المثلث هو إجماع الرؤيا أو العقل والفكر، وإجماع الإرادة أو التقرير والنية وإجماع العمل أو السواعد.

فإذا علم أحد عليه أن يعلم غيره، وإذا طعم أحد عليه أن يطعم غيره، وإذا استقرأ وأفلح أحد عليه أن يعاون آخراً على الاستقرار والفلاح[1].

فلا توحيد إذاً إلا بالأمة. فالأمة هي مجال المعرفـة، ومجال الأخـلاق، ومجال الخلافة والإيجابية. والأمة نظام ينتظم فيه البشر حتى وإن لم يؤمنوا. فالأمة نظام سلام يدخل فيه كل من يرضى بحرية الفكر والدعوة إلى الحق من أفراد وجماعات. الأمة إذاً نظام دولي أفضل من الأمم المتحدة، لمدة الأمس القريب، القائمة على السلطان القومي ونسبية القيم، والمكتفية بمنع الحروب ولكن دون أن يكون لها وسيلة الجيش الرادع أو المدافع. وضع الرسول ﷺ لها دستورها في المدينة في أول أيام الهجرة، وأدخل فيها اليهود والنصارى مؤمناً لهم حريتهم وعقيدتهم ومعاهدهم وهُويَّتهم. وما من دستور عرفه التاريخ احترم الأقليات كما احترمها دستور الدولة الإسلامية.

فالأمة إذاً نظام سلام عالمي بالإضافة إلى كونه نظاماً اجتماعياً داخلياً. الأمة هي صرح الحضارة الذي لا غنى عنه. وكما قال فلاسفتنا في تمثيلهم العقل الإنساني بحي بن يقظان، كان لا بد لحي، بعد أن توصل إلى الحقيقة النهائية، وهي التوحيد، من أن يصنع مركباً يعبر البحر فيه بحثاً عن الأمة.

فالتوحيد هو الأمنيــة..

٥ ـ التوحيد مبدأ جمالي :

يقول التوحيد بأن لا إله إلا الله، ويعني بذلك أن لا إله في الطبيعة والخلق. فكل ما في الخلق مخلوق، ليس من الله في شيء. فالله منزه عن خلقه تنزيهاً تاماً. ويقول التوحيد أن ليس كمثله شيء، ويعني بذلك أن كل ما في الخلق لا يمكن أن يكون مثلاً لله، لا حاملاً لصورته (ليس لله صورة)، ولا معبراً تعبيراً مرئياً عن الله.

ويقول الفن إن في كل شيء في الخلق، لا سيما في الإنسان (وبدرجة

---

(١) شبه النبي ﷺ المسلم بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وبالجسم العضوي الذي يتداعى كله إذا أصيب أي عضو منه بسوء ويعمل لنصرة ذلك العضو.

أقل في الحيوان والنبات) جوهر أولي ما ورائي، قائم بذاته، هو ما يجب على الشيء أن يكونه وان لم يكنه. فالفن هو اكتشاف هذا الجوهر وإعطاؤه الجسد المرئي المطابق له. فهو ليس مجرد نقل عن الطبيعة، بل هو استقراء لها عن جوهرها الماورائي وتصويره أو تمثيل ذلك الجوهر بما يلائمه من ملامح مرئية.

هذا الجوهر الماورائي الذي يهدف الفنان إليه، إلهي في طبيعته الماورائية. فهو جدير بالمحبة والإعجاب الشديد كلما اقترب من الألوهية لذلك جاء النحت الإغريقي تصويراً للآلهة قبل كل شيء. ولم يتدهور إلى تصوير البشر إلا في روما ولكن حتى هناك كان الامبراطور إلهاً مؤلهاً قبل أن تصنع له التماثيل. وكذلك جاءت الفنون المسرحية من دراما وتمثيل في الحضارة الإغريقية كلها تصويراً للآلهة في صراعها مع بعضها البعض. وحقاً قال المستشرق فون جروبناوم، إن الإسلام يفتقر إلى الفنون التشكيلية (من نحت وتصوير ودراما) لأنه خال من الآلهة المجسدة في الطبيعة والمصارعة لبعضها البعض أو لقوى الشر[1].

وقديماً قال اليهود بأن تنزيه الله تعالى يحرم صنيع التماثيل، وتوقفوا عند ذلك الحد فلم يأتوا بأي فن مرئي على الإطلاق[2].

لكن التوحيد لا ينكر الإبداع الفني، ولا يتنكر للجمال. على العكس إنه يؤثر الجمال أي إيثار ويرى الجمال كله في الله وفي كلامه. لذلك اندفع بحبه هذا إلى إبداع فن جديد.

فبما أنه يؤمن بالتوحيد ويقول أن لا إله إلا الله، يقضي الفنان المسلم بأن لا شيء في الطبيعة يحمل صورة الله أو يعبر عنه. لذلك أسلب كل ما صوره، أي أبعده عن طبيعته إلى درجة الإنكار، وقدمه بمثابة شهادته بأن لا إله في الطبيعة.

---

(١) مع الاعتذار للغة واللغويين. فالمعنى المطلوب ـ وهو المشتق من اعتبار الأمة المقولة السائدة التي يرجع إليها في كل شيء ـ لا تؤديه كلمة « أمية » ولا « جماعية » ولا « قومية » ولا « شعبية ».

(٢) راجع تفاصيل ذلك في مقال للمؤلف نشر في مجلة ستوديا اسلاميك الصادرة في باريس، بعنوان « الإسلام والفن » وذلك في العدد رقم ٣٧ الصادر سنة ١٩٧٣ ص ٨١ ـ ١٠٩.

وتأمل الفنان الموحد بأن عدم التعبير عن الله شيء والتعبير عن عدم التعبير شيء آخر، أي أن استحالة التعبير عن الله هي أسمى الأهداف الجمالية التي يمكن له أن ينشدها. ورأى أنه يمكن التعبير عن استحالة التعبير، وذلك يحمل ما يرى على الإيحاء باللانهائية، فاللانهائي هو المحال التعبير عنه.

وعليه أبدع الفنان المسلم فن الزخرفة الإسلامية وهي رسم يمتد في جميع الاتجاهات إلى ما لا نهاية له. فإذا تتبعه المشاهد وأدرك أنه لا نهاية له، أدرك معنى من معاني استحالة التعبير، وبذلك أدرك معنى من معاني التنزيه[1].

لهذا جاءت فنون المسلمين كلها تجريدية، إلا في القليل النادر الذي جاءت فيه مؤسلبة متنكرة للطبيعة وبالتالي للاعتراف بأي جوهر ما ورائي يكمن فيها.

* * *

هذا هو جوهر الحضارة الإسلامية. كلما وضحت رؤيانا له كلما استطعنا التمسك به، وبذلك، الصمود في وجه الحضارة الغازية. وكلما التزمنا به كلما هضمنا الحضارات الأخرى ومنجزاتها. وكلما اختصصناه بولائنا، كلما تمكنا من البناء والإبداع الحضاري.

والحمد لله الذي جعل التوحيد جوهر حضارتنا. فلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد وله الملك، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير.

---

(١) انظر مقال المؤلف في مجلة الإسلام والعصر الحديث.
الصادرة في دلهي، بعنوان « في طبيعة العمل الفني الديني ». وذلك في العدد رقم ١ (٢) الصادر في آب ١٩٧٠ ص ٦٨ ـ ٨١.

(٢) إن رغب القارئ بالاستزادة في موضوع علاقة التوحيد بالفنون المرئية الإسلامية فعليه بمراجعة كتاب الدكتورة لمياء الفاروقي : التجربة الجمالية والفنون الإسلامية. نشر جمعية الإسلام والعصر الحديث، الجامعة الملية الإسلامية، دلهي الجديدة، ١٣٩٩/١٩٧٩.

تعقيبات المستمعين وأجوبة المحاضر عليها

الشيخ محمد الدريعي :

١ ـ يقول الأخ الشيخ الدريعي إن المحاضرة أخذت بالمنطقيات واعتمدت في أسلوبها على الفلسفيات، بينما لا تخضع أمور التوحيد لأي منها.

صحيح أن المحاضرة اعتمدت على المنطق وأن أسلوبها مركز لا حشو ولا زخرفة فيه، لكن قوانين المنطق هي قوانين الفكر، والنظر والتعقل. وقد عرفتها المحاضرة بمبادىء ثلاثة هي : رفض ما يناقض الواقع، وعدم تقبل النقيضين نهائياً، والانفتاح للدليل المخالف. فهل في هذا أو ما بني عليه ما يعيبه الشيخ ؟ وهل يسمح الشيخ لأي مفكر أن يخالف هذه القوانين ؟ إن عدم الالتزام بالمنطق وعدم التقيد بمبادئه لا يجيزه العقل السليم، والمفكر الذي يستجيب للشيخ بعدم الاعتماد على المنطق يحط بفكره إلى مستوى التفاهة.

٢ ـ يعترض الأخ الشيخ الدريعي بأن الله لا يوصف بالعالمية. وقد فعل المحاضر ذلك إذ قال بأن الحقيقة عالمان، عالم الله وعالم المخلوقات.

صحيح ما نسب للمحاضر من قول. إلا أن المحاضر أوضح أثناء إلقائه لمحاضرته المعنىٰ الذي حمله لكلمة « عالم » وهو « نوع » أو « صنف » أو « طبقة » كمعنى كلمة (Class) بالانجليزية. وأوضح أيضاً أن

استعماله لهذه الكلمة استعمال منطقي بحت، لا وصفي، أي أن دلالة الكلمة هي أن هنالك نوعين من الحقيقة، نوع انفرد به الله سبحانه ونوع شاركت فيه جميع المخلوقات. فإذا كان اعتراض الشيخ فحوياً كان مردوداً أصلاً. وإن كان لغوياً فهو في غير موضعه لان لا مندوحة من استعمال كلمات اختبارية في الحديث عن الله تعالى. فأي كلمة تقال عن الله إذا حملت ما حمل الشيخ الدريعي كلمة المحاضر باءت بالرفض بحجة التشبيه. والأمر يتعلق بالتفهم الصحيح للأسلوب المنطقي للقضية.

٣ ـ يعترض الأخ الشيخ الدريعي على قول المحاضر بأن كلمة « لا إله إلا الله » تعني أن الله تعالى هو وحده الخالق الذي خلق العالمين وما فيها.

لا ينكر أن الكلمة المذكورة تعني أن الله وحده هو الله، كما لا ينكر أن الله خالق الكون وأن معنى الخلق مضمون في عبارة « لا إله إلا الله » قد يكون للشيخ انتقاد لو اقتصر المعنى على الخلق، ذلك أن الله فضلاً عن كونه خالقاً هو أيضاً رازقاً وفاعلاً ومتكلماً ورحيماً وقادراً.. إلى آخر صفاته. إلا أن أحداً لم يقل بهذا وبالتأكيد لم يقل ذلك المحاضر وجانب الشيخ الدقة في سماع المحاضر.

٤ ـ ويعترض الأخ الشيخ الدريعي أن المحاضر ساوى بين العبادة والطاعة بينما الحقيقة هي العكس أي أن العبادة شيء والطاعة شيء آخر، وأن لا عبادة إلا بالبراءة من الشرك.

يتبين من نص المحاضرة أن العبادة عرفت بالطاعة، لا العكس مما يدل على أن المحاضر يعتبر الطاعة أعم وأشمل وأوسع معنى من العبادة. وليست هنالك عبادة لم يأمر بها الله تعالى. إذ كل عبادة طاعة وتنفيذ لأمر من أوامر الله تعالى. ومع أن العرف الإسلامي يقضي بأن ليست كل طاعة عبادة، إلا أن الروح الإسلامية تميل إلى اعتبار جميع العبادات كأعمال ذات أبعاد غيرية، اجتماعية واقتصادية وسياسية وتربوية.. الخ أما توحيد الله، والصلاة والزكاة والصوم والحج ـ وهي المعاني المألوفة المكونة لكلمة « عبادة » فهي أيضاً طاعات أمرنا الله تعالى بالقيام بها (راجع بهذا

الخصوص مقال المحاضر في مجلة المسلم المعاصر عدد (١٠) سنة ١٣٩٧، ص ٢٥ ـ ٣٨).

٥ ـ ويعترض الأخ الشيخ الدريعي على قول المحاضر بأن التوحيد ينطوي على الإيجابية والإقبال على الحياة لا التنكر لها والاعتزال عنها، ذلك أن الزهد في الدنيا طيب، يحترم كرامة الإنسان، وأن من يقوم عليه فقد أنعم الله عليه نعمة كبرى.

ليس الزهد عكس الإيجابية ولا هو يساوي التنكر للوجود والحياة والاعتزال عنها، إنما هو الابتعاد عن حطام الدنيا وملذاتها، وعدم الانغماس في طلبها على حساب القوانين الأخلاقية وان قل تعدي هذا الانغماس على تلك القوانين، ولسنا بصدد بحث هذا الموضوع فقد جانب الشيخ الصواب في فهم المطلوب أو لعله فاته ذلك. التنكر المعني هنا هو الحكم المسبق بأن الوجود كله شر وأن خير الإنسان في رفضه أو المرور به بأقصى السرعة دون المحاولة لإعادة بنائه وتركيبه على أي شكل كان. وهذا هو مبدأ البوذية الأول، وتقول به بعض المذاهب الهندوكية كما تقول به أحياناً المسيحية. فشتان ما بين التنكر وما يمليه علينا التوحيد من حمل مسؤولية خلافة الله في الأرض.

* * *

الدكتور عبد الله العجلان :

١ ـ اعترض الأخ الدكتور العجلان بأن المحاضر لم يميز بين إرادة الله تعالى ومشيئته في حديثه عن قوانين الطبيعة.

لا شك أن التمييز مستحسن. فالأفضل أن نسمي « مشيئة الله » كل السنن الدائمة التي لا تتغير والتي فطر الله مخلوقاته عليها، ونسمي إرادة الله كل ما أمر به سبحانه وتعالى وأراد لعباده أن يقوموا به من أفعال.

٢ ـ ويعترض الأخ الدكتور العجلان على قول المحاضر بأن الأمة ينتظم فيها المؤمنون وغيرهم من نصارى أو مشركين.

لم يقل المحاضر هذا قط. فالمشركون ليسوا من الأمة الإسلامية في

شيء، وإذا اعتبرنا الأمة كوجود سياسي عالمي كان لا بد من انتظام المسيحيين واليهود والصابئة وغيرهم من أصحاب الديانات المنزلة إذا عاهدوا المسلمين على التعايش معهم بسلام ودفعوا الجزية لهم. وقد أقر لهم سلامتهم وطمأنينتهم سيدنا محمد ﷺ في ميثاق المدينة وهو دستور الدولة الإسلامية الأولى، كما أقرها لهم الخلفاء الراشدون في عصر الفتوحات. والجانب السياسي للأمة جانب مكون لا غنى لها عنه.

٣ ـ واعترض الأخ الدكتور العجلان على إدخال نظرية الجمال ضمن المعاني التي يشملها التوحيد، محتجاً بأن الجمال ليس ضرورياً وأن لا أهمية له في البحث عن الحضارة وجوهرها وأنه، أي الجمال، يدعو إلى تشبيه الله تعالى بخلقه.

خلافاً للدكتور العجلان نؤكد أن الجانب الجمالي يكون عنصراً مهما جداً من أية حضارة. لا سيما الحضارة الإسلامية. ومن منا يستطيع أن ينكر ما للقرآن الكريم من إعجاز لا يمكن فهمه ولا تقديره إلا بفهم معنى الجمال الأدبي ؟ أو أن ينكر ما للخط العربي والعمارة الإسلامية من أهمية في الحضارة، واتصال مباشر بمعنى الجمال. فإما أن تكون الفنون الإسلامية غريبة، مقتبسة عن الغير أو أن تكون إبداعات المسلمين بوحي من عقيدتهم وإيمانهم وثقافتهم التي كونها لهم الدين الحنيف. إن احتقار المسلمين للفن سبب من أسباب تدهور الفنون عندهم اليوم وعامل من عوامل انحطاطها. ومما يؤسف له أن علاقة الإسلام كدين وعقيدة كتوحيد وإيمان، بنظرية الفن والجمال، موضوع ظريف للغاية لم يطرقه أحد من مفكري الإسلام. وقد طرقه أعداؤنا وفظعوا فيه أبشع تفظيع وأخذ محدثونا يتداولون آراء العدو ويعملون بها مما يجعل الخوض في هذا العلم واجباً جهادياً مقدساً في هذا العصر.

الدكتور جعفر شيخ إدريس :

١ ـ اعترض الأخ الدكتور جعفر على قول المحاضر بأن الاتصال بالخالق لا يقوم إلا بالتعقل والتفكر، وذلك بدليل ما أثبته القرآن الكريم من رؤيا الله في الآخرة. والرؤيا معرفة مباشرة اختبارية لا فكرية ولا تعقلية.

لا شك أن المؤمنين الصالحين سيرون الله تعالى في الآخرة رؤية مباشرة اختبارية وذلك بدليل الآية ٧٥ : ٢٢ التي كانت مدار بحث طويل بين المعتزلة، وغيرهم من المؤمنين. لكن حديث المحاضر منوط بالدنيا وحياة الإنسان فيها. والبحث هو في الحضارة الإسلامية، أي في التاريخ، في الزمان والمكان، ولم يتطرق إلى الآخرة. ففي الدنيا وفي التاريخ، لا اتصال بالله تعالى عن طريق الحس، ولا عن طريق تأليه الإنسان، ولا تجسيم الله ولا حلول الله في جسم أو عقل أو شخصية أحد من المخلوقات بالأخلاق. وهذا معنى أصيل للتوحيد.

٢ ـ واعترض الأخ الدكتور جعفر على قول المحاضر بأن البون شاسع بين الله والخلق بان تفارق الحقيقتين (حقيقة الله وحقيقة الخلق) مطلق. فإن صح ذلك استحال أن يكون الله قريباً رؤوفاً رحيماً.

إن البون الشاسع الذي يفصل بين الله وخلقه بون وجودي، كياني، لا بد من كونه مطلقاً إذا أردنا المحافظة على التنزيه أو التوحيد. إذا امتزج الله بأي طرف منه بأي مخلوق انتهى التنزيه وقضى على التوحيد، لكن هذا التفارق الوجودي لا يحول دون الاتصال الفكري من جهة المخلوق، كما لا يحول دون رحمة الله أو كلام الله أو عفو الله. فالله سبحانه قدير، فعّال لما يريد.

٣ ـ دعم الأخ الدكتور جعفر اعتراضه السابق بدليل أن هناك اتصال وجداني يقوم بين العبد وربه إذا بلغت تقواه درجة عالية. ومن المؤكد أن مثل هذا الاتصال لا يقوم بالعقل أو الفكر.

لا ينكر قط أن الاتصال بالله ممكن عن طريق ما سماه الدكتور جعفر بالوجدان، ولعل مثل هذا الاتصال هو نفسه الاختبار الديني الأولي، لكن الوجدان، وطريقته الخاصة به، ليست إلا فرعاً من فروع المعرفة، طبعاً هي تختلف عن المعرفة الحسية. وتختلف أيضاً عن المعرفة المنطقية أو النظرية وهي أقرب ما تكون إلى المعرفة الحدسية. إلا أنها بالرغم من ذلك معرفة، لا وجود. والذي أكدته المحاضرة هو أن التوحيد ينكر الاتصال الوجودي بالله، أي أن الاتصال به تعالى، مهما كان نوعه ومهما بلغت

درجته، لا يمكن أن يؤدي إلى أي نوع من التواجد الكياني، أي أن به، لا يصبح العارف المعروف ولا المعروف العارف. وكل ما عدا ذلك يوقع صاحبه في الشرك إما بتجسيم الله أو بتأليه الإنسان سواء سمى حلولاً أو إشراقاً أو بالأوضح اتحاداً أو تجسيماً أو تأليهاً تعالى سبحانه عما يصفون علواً كبير.

٤ ـ واعترض الأخ الدكتور جعفر على قول المحاضر بأن حقيقة الخلق حقيقة تامة توازي حقيقة الله كحقيقة تامة أخرى. ودعم اعتراضه هذا بحجة أن الله وحده موجود حقيقي، بل إنه هو الوجود الحقيقي كله. وأنشد : « ألا كل ما عدا الله باطل ».

الحق هو أن المحاضر لم يقل بأن عالمي الله والخلق حقيقتان تامتان متوازيتان أو متساويتان. الفرق بينهما هائل، بل ان تغايرهما مطلق. الله خالق والخلق مخلوق. الله منزه والخلق مختبر. الله أبدي لا بمكان، والخلق مؤقت وخاضع في مكان. الله أزلي، صمد لا يتغير، والخلق سنته التغير والتقلب. إذاً العالمان متفارقان متغايران إطلاقاً. ولكن كون الخلق خلقاً لا يجعله معدوم الوجود أو عـدماً أو خيـالاً. فهو ليس الخيال الذي يدعيه الهندوكيون والبوذيون، وهو أيضاً ليس جسم الإله أو موضع تجلية أو ظاهرة من ظواهره كما ادعى المصريون القدماء والإغريـق والمسيحيـون بخصوص يسوع المسيح وخلفائه أساقفة روما والكنيسة المسيحية التي يطلقون عليها اسم « جسم المسيح الإله الطاهر في التاريخ » ان التقليل من حقيقة الخلق يؤدي حتماً إلى الاستهتار به. فالتقليل من حقيقته هو تقليل من قيمته بالضرورة. ولا يمكن أن نعطي خلافة الله في الأرض واستعماره للإنسان فيها وتحميله أمانة السموات، إذا أنقصنا قيمة الخلق بانقاص حقيقته كذلك إذا غلونا في قيمة الخلق وقعنا في شرك.

وعلى كل حال، كل ما يعنينا في هذا البحث هو تأكيد مغايرة الخلق لله وبالتالي ثنوية الحقيقتين. صحيح أن كل الخلق فان في يوم من الأيام لا يعلمه إلا الله، وأن في ذلك اليوم لن يبقى سوى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. ولكن هذا لا يعني وحدة الوجود التي ابتدعها ابن العربي. الله حق، والخلق حق، وتكليف الإنسان بحمل الأمانة وتحقيقها في الخلق، أي في الزمان والمكان، حق.

تعليقات على محاضرة

جوهر الحضارة الإسلامية

للدكتور إسماعيل راجي الفاروقي

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأخ الدكتور / أحمد عبد القادر باحفظ الله
الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي
حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :

بناء على خطابكم ذي الرقم ٧٤٥ وتاريخ ١٤٠٠/٢/١٠ هـ الخاص بتكوين مرئيات عن محاضرة الأستاذ الدكتور / إسماعيل راجي الفاروقي ـ التي ألقاها أثناء انعقاد اللقاء العالمي الرابع للندوة.

أولاً : أشكر لكم حسن ثقتكم بأخيكم وحسن ظنكم به، وأسأل الله أن أكون عند هذا الظنّ.

ثانياً : قرأت هذه المحاضرة، وعلقت على ما فيها مما رأيته يحتاج إلى تعليق في هوامش الصفحات ـ وأرجو إن كنتم تعتزمون طبعها أن تعدل على النحو الذي يبرئ كاتبها مما يحتمل أن يوصف به لو بقيت على حالها.

ثالثاً : أود أن أثبت هنا بعض المآخذ على المحاضرة من وجهة النظر الإسلامية كما بدا لي وفوق كل ذي علم عليم. وهذه المآخذ مرتبة حسب ورودها في صفحات المحاضرة.

١ ــ يعرف التوحيد بأنه جوهر الإسلام، والإسلام بأن جوهره التوحيد ص ١ س ٢.

وهذا التعريف للتوحيد أو للإسلام تعريف مجازي من شأنه أن يدخل على القارئ شبهة وبخاصة إذا لم يكن من أهل الاختصاص.

فتعريف الإسلام معروف وكذلك تعريف التوحيد.

٢ ــ عاد فعرف التوحيد مرة ثانية ص ٢ س ٣. تعريفاً مخالفاً لما هو معروف في كتب التوحيد وكتب علم الكلام، إذ جعله تصوراً عاماً للحقيقة. وليس ذلك بصحيح، وإنما التوحيد هو :

الإيمان بالله وحده لا شريك له، ويتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ــ على ما بين النوعين من فروق دقيقة معروفة.

٣ ــ قال : إن الحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها من الحضارات ص ٤ س ٣ ــ ٤.

وفي هذا الكلام ما فيه من الخطورة إذ الحضارة الإسلامية هي الدين الإسلامي كله، نظمه ومنهجه وآدابه وسلوكه وكل ما أمر به وكل ما نهى عنه ــ وذلك كله من عند الله ليس لأحد من البشر فيه شيء ــ فكيف تنبثق الحضارة الإسلامية، التي أكملها الله وأتمها ورضيها للبشرية ديناً، عن غيرها من الحضارات، حتى القول بأن الإسلام منبثق عن غيره من الأديان مرفوض، لأن تلك الأديان لم يكملها الله، فكيف ينبثق الكامل من غير الكامل ؟

٤ ــ يقول الباحث : « فالسعة هي الإيمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى.. ص ٦ س ١٦ ــ ١٨.

وهذا كلام غاية في الخطورة وفي غاية الباطل، لأن اختلاف الأديان مرجعه إرادة الله سبحانه، إذ الأديان كلها من عند الله سبحانه، أما قول الباحث فمعناه أن الأديان من صنع الإنسان، وتلك فكرة الحادية معروفة، معروف من يرددونها، ومعروف هدفهم وغايتهم، وما أظن الباحث الا يردد ما هو شائع ومعروف في كتابة الأجانب عن الإسلام دون تدقيق في مراجعه، ولو دقق ما قال ما قال.

٥ ـ يقول الباحث : « ... حتى في الدين وهو أهم الحقول، تحل السعة مكان النقض المتقابل وتحول المجابهة إلى بحث علمي في تاريخ الدين المذكور » ص ٦ س ٢٠ ـ ٢١.

وقد يرد هذا في أي دين من الأديان إلّا الدين الإسلامي ـ مع أن الباحث عمم ـ ذلك أن الله سبحانه قد تكفل بحفظ الدين الإسلامي، فكيف يستقيم ذلك في الدين الإسلامي، وليس هناك من غموض أي غموض في تاريخ الإسلام وهو حياة الرسول ـ ﷺ وسيرته ـ إذاً القدوة فيه وحده ـ وسيرة الرسول ﷺ ـ معروفة بتفصيل لم تعرف به سيرة أي رسول من رسل الله سبحانه.

٦ ـ يقول الباحث : « تنحدر السعة واليسر من التوحيد كمبدأ أخلاقي » ص ٧ س ٥.

في هذا الكلام نظر، والأخذ به يؤدي إلى الشرك والعياذ بالله. لأن معنى انحدار اليسر من التوحيد هو تقبل المرغوب فيه إلى أن يثبت فساده ـ على حد قول الباحث ـ ويترتب على ذلك أن يكون التوحيد محتملاً لأن يثبت فساده في المستقبل وذلك أبطل الباطل وأضل الضلال.

٧ ـ قال الباحث : « وتجديد الطبيعة عن كل قوة غير الله هو علمنتها » ... ص ٨ س ٣.

وهذا مفهوم جديد للعلمانية خطير يترتب عليه جعل التوحيد نفسه علمانية ـ ولا قائل بذلك.

٨ ـ قال الباحث : « التوحيد هو عكس الخرافة... » ص ٨ س ١٦.

وهذا الكلام غير مقبول لأنه غير صحيح : إذ هو تعريف سالب للتوحيد وعلينا معشر المسلمين، ونحن نعرف ـ والحمد لله ـ علومنا الأصلية في الإسلام أن نتقيد بمصطلحاتنا الإسلامية في تعريف علومنا، لا أن نلجأ في ذلك لمصطلحات غير المسلمين.

٩ ـ قال الباحث : « .. ولا محقق لها سوى الإنسان في عمله الحر الإختياري » ص ٩ س ١١.

هذا باطل من القول. لأن الإرادة الإلهية تحقق بالإنسان وبغير الإنسان، بل لا يتوقف تحقيق الإرادة الإلهية على شيء بعينه، وتلك شنشنة نعرفها من أخذم ـ رددها من قبل بعض الفلاسفة في شطحاتهم الخارجية عن طريق أهل السنة والسلف الصالحين.

١٠ ـ قال الباحث : « أمتهم ثالوث من مراتب الإجماع » ص ١٢ س ٤.

وهذا التعبير « ثالوث » تعبير كنسي معروف بغيض الينا ـ معشر أهل التوحيد ـ إذ يرمز إلى فكرة إشراكية الحادية تزعم أن الله ثلاثة.

فالأولى طرح هذه التعبيرات من الحصيلة اللغوية إطلاقاً وبخاصة إذا كان الباحث مسلماً موحداً.

١١ ـ قال الباحث : « وضع الرسول لها دستورها.... وأدخل فيها اليهود..... » ص ١٢ س ١٥ ـ ١٧.

والحق أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يضع دستور الأمة وإنما تلقاه عن ربه وحياً يوحى ما زاد فيه ولا نقص منه، لأن هذا الدستور هو القرآن الكريم.

وكلام الباحث في غاية الخطر والخطأ والخطل لأنه ترديد غير مباشر لقول أعداء الإسلام بأن محمداً ـ ﷺ ـ هو الذي وضع القرآن. تردد هذا في كثير من دراسات أعداء الإسلام ولا يحتاج إلى تنبيه.

١٢ ـ ينقل الباحث عن جروبناوم قوله : « إن الإسلام يفتقر إلى الفنون التشكيلية من نحت وتصوير ودراما لأنه خال من الآلهة المجسدة.. ». ص ١٣ س ٢١.

دون أن يعلق على خطأ هذا القول، فكأنه بذلك يقر عدو الإسلام جروبناوم على خطئه، فمن المعروف أن الإسلام لا يفتقر إلى شيء وقد أكمله الله وأتمه، والافتقار نقص وقصور.

١٣ ـ يقول الباحث : « فن الزخرفة الإسلامية ». ص ١٤ س ١٥.

ومن الواضح لدى علماء الإسلام أنه لا يوجد شيء اسمه زخرفة

إسلامية، وإنما يقال : فن الزخرفة عند المسلمين. والفرق بين التعبيرين واضح جداً.

١٤ ـ في البحث أخطاء أخرى في استعمال بعض الكلمات مكان بعض، وفيه أخطاء نحوية ولغوية كثيرة، نبهت إليها جميعاً في صلب البحث.

اقتـــــراح :

أقترح ـ والرأي لكم أولاً وأخيراً ـ عدم نشر هذه المحاضرة لعدة أسباب :

أولاً : ما تضمنته من أخطاء كثيرة.

ثانياً : ما تضمنته من آراء خاطئة لأعداء الإسلام في الإسلام دون تعليق من الباحث.

ثالثاً : ما يحتمل أن تثيره من تساؤلات، بل مشكلات في أوساط العلماء إذ أن كتب الندوة توزع على نطاق واسع.

رابعاً : ليس في المحاضرة جديد قيّم يستحق كل هذه المخاطر في تحمل مسئولية نشرها.

والله من وراء القصد..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. ››

أخـوكـم

د. علي عبد الحليم محمود

كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى سعادة الدكتور أحمد عبد القادر باحفظ الله
الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي رعاه المولى ونفع به
من عبد الفتاح أبو غده ..
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وبعد .. تلقيت كتابكم ذا الرقم ٧٤٥ والتاريخ ١٤٠٠/٢/١٠ هـ وفيه تطلبون مني إبداء ما أراه مناسباً ومفيداً بالاستدراك أو التوضيح أو الإضافة في محاضرة الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي (جوهر الحضارة الإسلامية).

وتلبية لرغبتكم الأخوية الطيبة نظرت فيها وبدت لي الملاحظات التي ترونها في الصفحات التالية أبعث بها إليكم لتروا ما ترون فيها أنتم أو الدكتور الفاروقي.

والمحاضرة فيها جهد ظاهر ملموس وهذه الملاحظة التي أبديتها تتوخى رفع الاشتباه أو دفع الخطأ الذي لا يسلم منه الناقد والمنقود فأرجو أن تحمل عباراتي على هذا الوجه والله ولي التوفيق.

وقد تأخرت عن الشهر المؤقت للنظر فيها لأنني كنت في غمرة أعمال جامعية جاثمة أمامي وعنَّ لي الاعتذار عن النظر فيها لكثرة الأعمال

وضيق الوقت فمعذرة عن تأخري هذا ودمتم بالخير والتوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٤٠٠/٣/١٨ هـ

أخـوكـم
عبد الفتاح أبو غـده

* * *

ملاحظات

١ ـ الصفحة (٢) يقول : (الحقيقة عالمان : عالم الله وعالم الخلق...) لا يسوغ أن يقال : (عالم الله) لأن العالم يحتوي عدداً من نوع متجانس مثل (عالم الخلق) والله سبحانه فرد واحد لا شريك له، فلا يصح أن يقال (عالم الله). وقال أيضاً : (ينفرد بعالم الله موجود واحد لا شريك له)، وأبدى في (التعقيبات والأجوبة) ص ٢٢ ـ ٢٣ بيان المراد بلفظ (عالم الله) ثم قال : (فإذا كان الاعتراض فحوياً كان مردوداً أصلاً، وإن كان لغوياً فهو في غير موضعه لأن لا مندوحة من استعمال...) إلى أن قال : (ولعل عدم إلمام الشيخ بالأسلوب المنطقي هو ما حال دون تفهمه لما قيل).

أقول : مراعاة اللغة بالنظر إلى التعبير عن الله تعالى واجبه، ومع الإلمام بالمنطق لا يقبل هذا التعبير في جانب الله تعالى لأن العلماء قرروا تبعاً للنصوص القاطعة أنه لا يجوز أن يوصف الله إلّا بما وصف به نفسه ومثل هذا التعبير (عالم الله) يوهم خلاف معتقد المسلم، وإن كان الكاتب حاول تسويغ هذا التعبير فمحاولته لا تنفي عدم سواغيته.

ثم قوله بعد ذلك : (ثنائية الحقيقة نهائية قاطعة ينفصل العالمان عن بعضهما...) مبني على ذاك التصور أو التعبير الذي استساغه الكاتب وهو منتقد كما تقدم بيانه. وكذلك قوله في (الذيول) ص ١٦ في التعليقة ذات الرقم ٢ (... ركز على حقيقة العالمين أو الطبقتين : الله الخالق والعالم

المخلوق) يرد عليه ما سبق فلا يقال أيضاً : (الله طبقة) كما لا يقال : (الله عالم).

٢ ـ الصفحة (١٧) من (الذيول) يقول : (لا يجزى الإنسان على معروف أو منكر أكره عليه إكراهاً). هذا غير سليم فإن الإنسان يؤجر على المعروف يكره عليه لأنه يبقى معروفاً فالصدقة التي تقع من صاحبها المكره يحرز بها أجراً ولا ريب لأنها معروف في الواقع وفي نظر الشرع وإن كان مشوباً في طريق صدوره من صاحبه وفاعله فإن ذلك ينقص من أجره ومثوبته. وكذلك المنكر الذي أكره عليه فاعله، منه ما تصحبه المؤاخذة ومنه ما لا تصحبه.

٣ ـ الصفحة (٤) قوله : (فجمع الأفندي المسلم للإسلام... وجمع ذلك الأفندي... وكذلك جمع الأفندي الجامعي...) لم أفهم وجه اختيار لفظ (الأفندي) هنا ؟ فإن كان كما فهمته فالأولى أن يستبدل به لفظ (الفرد) فيقال : فجمع الفرد المسلم... وهكذا فيما بعده.

٤ ـ الصفحة (٥ ـ ٦) قوله : فوحدته إذاً هي وحدة الحقيقة) جملة موهمة لا داعي لبقائها هنا فيما أرى.

٥ ـ الصفحة (٦) قوله : (والله جل وعلا منزه عن البداء أي تغيير فكره. لفظ (فكر) لا يسوغ أن يضاف إلى الله تعالى فيمكن أن يقال : (عن تغيير علمه).

٦ ـ الصفحة (٦) قوله : (وهو منزه عن التناقض عن إساءة الإعلام) هذه الجملة غير واضحة وقد جعل قوله : (عن إساءة الإعلام) تفسيراً للتناقض وهو تفسير غير صحيح لغة وإفهاماً.

٧ ـ الصفحة (٩) : قوله (والأمانة هي تحقيق إرادة الله الأخلاقية). وقد تكرر هذا التعبير وكأنه تعبير كهنوتي فمدلوله غير واضح والأولى التعبير بلفظ واضح مفهم.

٨ ـ الصفحة (١٠) قوله : (وله أن يفرقع القمر والشمس إن لزم). ما معنى الفرقعة هنا ؟ والذي في « القاموس المحيط » : « فرقع : عدا عدواً شديداً ـ مولياً ـ وفرقع فلاناً : لوى عنقه وفرقع الأصابع : نقضها ـ أي

عركها حتى يظهر صوتها ـ فتفرقعت وافرنقعت والفرقاع بالكسر : الضرط والفرقعة كقنفدة : الإست والإفرنقاع : الفرقعة عن الشيء : الإنكشاف عنه والتنحي » انتهى.

٩ ـ الصفحة (١١) قوله : (كما حصل في جبل الآلهة ـ أوليمبوس وفالها لا) يحسن تفسير المقصود من هذا ليفهم المراد عند من لم يقف على هذه الأساطير.

١٠ ـ الصفحة (١٢) قوله : (أمتهم ثالوث من مراتب الإجماع) تعبير بعضه كهنوتي وبعضه فلسفي فاشتد فيه الإغلاق والغموض ولا يفهم المراد منه، وتفسيره في (الذيول) ص ٢٠ برقم ٤٢ (للإجماع المثلث) لا يفهم ولا يهضم إذا بقي كما هو.

١١ ـ الصفحة (١٣) قوله : يقول الفن : إن في كل شيء في الخلق لا سيما في الإنسان وبدرجة أقل في الحيوان والنبات، جوهراً ما ورائياً قائماً بذاته...). المعنى في هذا الكلام مقبول بعد فهمه ولكنه غير مأنوس في الأسلوب والعبارة.

ثم قوله : (جاء النحت الإغريقي تصويراً للآلهة قبل كل شيء. ولم يتدهور تصوير البشر إلّا في روما...). يريد بهذا معنى يتمم ما سبق في كلامه المقبول في الجملة ولكن العبارة لا يفهم المراد الحسن منها بسهولة ويسر...

١٢ ـ الصفحة (١٤) قوله : (لذلك أسلب كل ما صوره أي أبعده عن طبيعته إلى درجة الإنكار). الضمير في (طبيعته) يعود إلى الله جل جلاله وإضافة (الطبيعة) إلى الله غير سائغة هنا.

هذه الملاحظات التي بدت لي والمحاضرة في ذاتها حسنة الغاية والمقصد بلا ريب، ولكن اسلوبها فلسفي غامض غير مألوف، وكثير من عباراتها ليست عربية ولا تنزل على الوجه القياسي في العربية، فهذا في ذاته يضعف الاستفادة من المحاضرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :

فقد اطلعت على المحاضرة القيّمة التي ألقاها الأستاذ الدكتور / اسماعيل الفاروقي، والتي حاول فيها وضع نظرية شاملة عن جوهر الحضارة الإسلامية، وقد تدبرت موضوع المحاضرة وشكرت للأستاذ المحاضر رغبته في عرض الإسلام عرضاً جديداً يتفق مع عالميته وحاجة البشر إليه، ولا ريب أن الحقائق التي اهتدى إليها كثيرة وثمينة، ولكن أسلوب الأداء، وأحياناً طريقة التصور تخالف المألوف في ثقافتنا الإسلامية، وربما كان هناك خطأ علمي لم يقصد إليه الأستاذ، ولكنه يفهم من منهج البحث.

وأرى لو أنه صيغت بعض العبارات على نحو آخر لكان ذلك أضبط وأبعد عن الشبهات في موضوع دقيق. وقد وضعت خطوطاً تحت ـ جمل تثير التساؤل ـ

ففي الصفحة الأولى مثلاً وضعت كلمة التوحيد بأنها سلبية مظهرها ؟ وهذا مستبعد.

وفي الصفحة الثانية ـ القول بأن (الله عالم) (والخلق عالم آخر)، والأستاذ المحاضر يقصد إلى نفي وحدة الوجود. ولكن هذا التعبير مرفوض

من الناحية الإسلامية رفضاً تاماً فكلمة « عالم الله » لم تجيء على لسان كاتب مسلم خلال القرون كلها. والأفضل التعبير بأن المخلوقات عالم مغاير للذات الإلٓهية، له قوانينه وخصائصه، أما الذات الأقدس فوجوده وكماله شأن آخـــر.

وفي البند ٢ من الصفحة : يجب إعادة صياغة الجملة الأولى لتفيد أن الإنسان يتصل بالله عن طريق العقل، والقلب. ولا مجال لاتحاد أو حلول، فان العبارة التي ذكرها قلقة.

في الصفحة السادسة ـ يريد الأستاذ أن يقول : ان الدين عند الله واحد في أصوله، وقد تختلف الشرائع الفرعية لاختلاف العصور، ولكن الأستاذ صاغ هذا المعنى صياغة مرفوضة لما قد تثيرة من أوهام. وقبل ذلك في الصفحة نفسها يقول الأستاذ : ان الله منزه عن تغيير فكره ؟ ووصف الله بأن له فكراً أو عقلاً وصف مرفوض.

في الصفحة الثامنة ـ عبارة غامضة تقول : تجريد الطبيعة من كل قوة غير الله هو علمنتها، والمعنى غامض، ولعله يريد أن ما في الكون من قوى مودعة هي من الله وحده، وأن هذه القوى محكومة بقوانين دقيقة هي ما شاء الله لها، وعلينا تعلم هذه القوانين.

في الصفحة التاسعة ـ تعبير مستغرب « طوبى للإنسان أن يكون الجسر الكونيّ الذي تعبره ارادة الله الأخلاقية لتدخل التاريخ، ولتتحقق في الزمان والمكان ».

ان الحديث عن الله لا يجمع فيه القلم كيف يشاء، بل هو محكوم بأداء معين.

وفي الصفحة العاشرة ـ يقول : إن للإنسان « أن يفرقع الشمس والقمر إن لزم ».

ولا أدري لماذا من حق الإنسان أن يفعل ذلك ؟ وهل الإسلام يعطي المسلم الحق في تدمير الكون ؟ وما علاقة هذه الفرقعة بالنفاذ من أقطار السموات والأرض: إن للنفاذ معنى آخر لا صلة له البتة بما يريد الأستاذ.

وفي الصفحة الثانية عشرة ـ كلام يبدأ بهذه الجملة « لا توحيد إذن إلا بالأمة..... الخ ».

وأعتقد أن العبارات كلها تفتقر إلى الضبط والإيضاح.

إن الأستاذ / الفاروقي رسم في محاضرته أهدافاً عالية صحيحة، وإنه لممّا يخدم الإسلام خدمة جليلة، في عصرنا هذا، أن يوائم الأستاذ بين اجتهاده المشكور وبين مواريثنا في الإلهيات والنبوات حتى يسلم كلامه من الاعتراضات.

وندعو الله له بالتوفيق...

محمد الغزالي

كلية الشريعة

جامعة الملك عبد العزيز

مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الكريم الدكتور / أحمد عبد القادر باحفظ الله
الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي حفظه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

جواباً على خطابكم ذي الرقم ٧٤٥ والتاريخ ١٤٠٠/٢/١٠ هـ بشأن إبداء الرأي في محاضرة الأستاذ الدكتور / اسماعيل راجي الفاروقي ـ التي ألقاها أثناء انعقاد اللقاء العالمي الرابع للندوة. فاني أرسل لكم الملاحظ المرفقة.

وفقنا الله جميعاً لما يحبه ويرضاه..

أخوكم

مناع القطان

ملاحظ على المحاضرة : جوهر الحضارة الإسلامية

أولاً : النظرة العامة :

أخذت المحاضرة طابعاً فلسفياً في تقسيم عناصرها، وترتيب أفكارها، والتعبير عن هذه الأفكار، ويجد القارىء في بعض العبارات من الغموض ما يجعل ادراك المعنى المقصود متعذراً، للترخص في استعمال الألفاظ واطلاقها على المعاني البعيدة، أو ارادة ما هو أعم من هذه المعاني، ولا بد

في المجاز من قرائن تدل على المعنى البعيد، وقلما نجد هذه القرائن في المحاضرة، ويتبين هذا فيما سنذكره بعد.

ثانياً : الملاحظ التفصيلية :

١ ـ جاء في ص ١ بالأسطر الأربعة الأخيرة : « التوحيد هو الشهادة عن إيمان بأن « لا إله إلا الله »، هذه الشهادة السلبية في مظهرها ». ومأخذنا في ذلك، أن الشهادة ليست سلباً، ولكنها سلب وايجاب، وجاء السلب فيها لتأكيد الايجاب بطريق الحصر، فقولنا : « لا إله إلا الله » يشتمل على نفي واثبات. إذ أن خبر « لا » النافية للجنس محذوف، والتقدير : لا إله موجود إلا الله. فالشطر الأول نفي، وما بعد « إلا » اثبات بطريق الحصر، وهذا أبلغ في إثبات التوحيد من الاثبات المجرد، حيث دل على نفي الالهية عما سوى الله، واثباتها لله وحده، ودلالة ذلك على اثبات الهيته تعالى أقوى من دلالة قولنا : « الله إله » بطريق الاثبات فقط، لأن هذا قد يتطرق اليه احتمال أن يكون غيره إلهاً كذلك، ولذا لما قال تعالى : (والهكم إله واحد) بطريق الاثبات المجرد قال بعده : (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ١٦٣ ـ البقرة.

واعرابها عند النحاة : « لا » : نافية للجنس، و « إله » اسمها مبني على الفتح، وخبرها محذوف والتقدير : لا إله موجود، و « إلا » : أداة استثناء، و « الله » مرفوع بالضمة : بدل من الضمير المستكن في الخبر المحذوف ـ عند جمهور النحاة ـ : وبدل من لا مع اسمها عند سيبويه، لأن لا مع اسمها عنده في موضع رفع على الابتداء.

٢ ـ يقول المحاضر ص ٢ س ٢ : « التوحيد كتصور عام ـ التوحيد تصور عام للحقيقة.... »، ثم فسر هذا التصور في المبادىء الخمسة التي ذكرها.

وليس التوحيد هو التصور العام للحقيقة. ولكنه يعطي تصوراً عاماً للحقيقة. وشتان بين العبارتين : التوحيد هو التصور العام للحقيقة. والتوحيد يعطي تصوراً عاماً للحقيقة. فالعبارة تدل صيغتها على أنها تعريف للتوحيد.

وهي لا تصلح أن تكون تعريفاً له. لا بالحد، ولا بالرسم، ولا بالمرادف، ولا بالتقسيم.

ومن ناحية أخرى فان التصور يقابل التصديق. والتوحيد هو التصديق بوحدانية الالهية، فكيف نعبر عنه بالمقابل فنقول التوحيد تصور. أما إذا قلنا : انه يعطي تصوراً عاماً للحقيقة، فاننا بهذا نجعل التصديق اليقيني بوحدانية الالهية سبيلا تهتدي به إلى الصورة المتكاملة عن الوجود كله.

ولذا فان الأستاذ المحاضر ذكر التوحيد بتعاريف أخرى في مواضع، فتراه مثلاً ص ٤ آخر الصفحة بالسطرين الأخيرين يقول : « التوحيد وحدة الله ».

ويقول في السطر الأخير ص ٥ : ان التوحيد هو الاقرار بوحدة الله، والله هو الحق، فوحدته إذاً هي وحدة الحقيقة »..

٣ ـ تكلم المحاضر عن الجانب الأسلوبي في الحضارة وأنه يتألف من مبادىء ثلاثة : الوحدة، والتعقل، والسعة : وعندما تحدث عن السعة ص ٦ فسرها تفسيراً يوهم التساوي بين الأديان كلها، وهذا هو محور المحاولات المشبوهة في التقارب بين الأديان بعالمنا المعاصر : التقارب بين المسيحية والإسلام. التقارب بين الأديان، الحوار المسيحي الإسلامي.

ولهذا كله مراكزه العاملة. فنحن بمفهوم السعة كما ذكر المحاضر نساعد على نجاح تلك المحاولات التي تسعى لإذابة الإسلام في المفهوم الديني العام.

اقرأ ـ مثلاً ـ عبارات المحاضر في مبدأ السعة : هي حسن الظن بالظاهر إلى أن يثبت خطأه.. هي الايمان بأن الله لم يترك قوماً إلا أرسل اليهم نذيراً بعلمهم بأن يعبدوا الله ويجتنبوا الطاغوت.

وهذه القضايا حق، ولكنه يصل منها إلى قوله بعد : « فالسعة هي الايمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى.. تحل السعة مكان النقض المتقابل وتحول المجابهة إلى بحث علمي في تاريخ الدين المذكور.

ونحن نؤمن بأن دين الأنبياء واحد، وقد أمرنا الله أن نؤمن بالأديان كلها، ولكننا نؤمن كذلك بأن أهل الأديان السابقة حرّفوا وبدّلوا. وأن أديانهم أمرتهم بالايمان برسولنا محمد ﷺ، فلما بعث جحدوا واستكبروا وأن رسالة محمد ﷺ نسخت الرسالات السابقة، فلا يسع أحداً من أهل الأديان الأخرى سوى الدخول في الإسلام، أو الخضوع لحكم الإسلام فيه.

والسعة التي في ديننا دين التوحيد، تكون في البلاغ والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

٤ ـ عبر المحاضر ص ٩ س ٣ و س ١٣ عن الأمانة في الآية ٧٢ من سورة الأحزاب بأنها تحقيق ارادة الله الأخلاقية. والمراد بالأمانة في الآية ـ كما ذكر جمهور المفسرين ـ جميع وظائف الدين وتكاليفه التي ائتمن الله عليها العباد، وهذا يسمى بارادة الله الشرعية، ويقابلها ارادة الله الكونية، فتسمية الارادة الشرعية بالارادة الأخلاقية اصطلاح جديد.

واستعمال هذا الاصطلاح يوهم اعتبار التكاليف الشرعية من باب الأخلاق. والأخلاق بتصرف مفهومها العام إلى التجمل بالفضيلة، ولكنها في المفهوم الإسلامي تكون غاية للالتزام بتكاليف الشريعة أمراً ونهياً.

٥ ـ ذكر المحاضر في نهاية ص ٩ أن الإنسان أكمل من الملائكة وأرفع منهم درجة لأنه يقدر على العمل الأخلاقي طوعاً.

وهذا الحكم ليس على اطلاقه، والتحقيق أن جنس الملائكة أفضل من جنس الإنسان، لأن الملائكة جميعاً جلبوا على الطاعة فقط، أما جنس الإنسان فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم المنافق، والمؤمنون منهم العصاة، أما اذا قورن الإنسان المؤمن العابد المطيع بواحد من الملائكة فانه يكون أفضل.

هذا وأسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع..

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.... وبعد :

أشير إلى كتابكم رقم ٧٤٥ وتاريخ ١٤٠٠/٢/١٠ هـ المرفق به نسخة من محاضرة الأستاذ الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي التي القاها أثناء انعقاد اللقاء العالمي الرابع للندوة للاطلاع عليها للاستدراك أو التوضيح أو الاضافة.... إلخ.

أفيدكم أنه بإحالتها إلى أحد المختصين أبدى عليها الملاحظات التي تجدونها برفقه.

شاكراً لكم جهودكم في سبيل الدعوة إلى الله تعالى سائلاً المولى تبارك وتعالى التوفيق والسداد للجميع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الملاحظات على محاضرة الأستاذ الدكتور / إسماعيل راجي الفاروقي « جوهر الحضارة الإسلامية »

١ ـ جاء في آخر الصفحة الأولى السطر الرابع من أسفل على قوله : « لا إله إلّا الله، هذه الشهادة السلبية في مظهرها ».

الأولى حذف هذه الجملة : السلبية .. إلخ.

وذلك لأن كلمة : لا إله إلّا الله ليست سلبية وإنما هي مشتملة على النفي والإثبات، فهي إيجابية. وبحذفها يبقى الكلام مستقيم المعنى.

٢ ـ جاء في الصفحة الثانية السطر الثاني، والرابع قوله : كتصور عام، الكاف يحسن حذفها.

ـ وفي السطر الخامس قال : الحقيقة عالمان. عالم الله وعالم الخلق.

ولا يصح أن يوصف الله ـ بعالم الله.

والأولى أن يقال : الحقيقة وجودان. وجود الله، وعالم الخلق.

٣ ـ في الصفحة الثالثة يحسن أن تضاف جملة في آخر السطرالثاني عشر وهي : في الدنيا والآخرة. وفي السطر الثالث عشر والرابع عشر قوله : التوحيد كجوهر... إلخ تحذف الكاف من : كجوهر.

٤ ـ في الصفحة الرابعة من السطر الرابع ذكر أن الحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها وأخذت منها... إلخ.

ذكر هنا كلاماً طيباً من حيث أن الحضارة الإسلامية هضمت الحضارات السابقة.. الخ، ولو ذكر هنا توضيحاً وهو أن أهم شيء أضافته الحضارة الإسلامية وامتازت به هو المنهج التجريبي الذي لم تعرفه الحضارات السابقة، وإنما كانت مقتصرة على النظريات.

٥ ـ في الصفحة السادسة السطر الثاني يحسن حذف كلمة : المحرك.

وفي السطر الثالث تحذف كلمة : فكرة، ويستبدل مكانها إرادته، فتكون الجملة : أي عن تغيير إرادته.

وفي السطر الخامس عشر والسادس عشر قوله : بل في فطر البشر أجمع ما يؤهلهم لمعرفة الدين الحنيف القيم وإدراك أوامر الله وإرادته.

يحتاج لتوضيح : وهو أن الفطرة تدل على معرفة الله وأنه هو الخالق

سبحانه وذلك قبل انحرافها كما قال ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه الحديث، أما أوامر الله وما يريده الله من عباده من التفاصيل فلا يدرك إلّا عن طريق الوحي وهو ما أنزله الله على رسله.

وإلّا فالعقول وإن ارتقت وأبدعت في حضارتها المادية فهي في حاجة إلى هداية الوحي ـ يحدثنا بذلك آثار الأقدمين الذين بلغوا ما لم يصل إليه غيرهم ومع ذلك فقد نحتوا حجارة بأيديهم ثم عفروا جباههم لها.

٦ ـ في الصفحة الثانية عشر السطر الرابع قوله : ثالوث من مراتب الإجماع ـ لو حذفت هذه الجملة لكان أولى.

٧ ـ في الصفحة الثالثة عشر السطر الثالث قوله :

التوحيد مبدأ جمالي :

تسمية التوحيد مبدأ جمالي لا يستحسن، ولكن لو قال : إن الإسلام لا ينكر الإبداع الفني، ولا يتنكر للجمال فقد جاء في الحديث : أن الله جميل يحب الجمال ـ لكان أولى من جعل الجمال قسماً من مبادئ التوحيد الخمسة على تقسيمه الذي جرى عليه في محاضرته.

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة المكرم الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي
الأستاذ أحمد باحفظ الله المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

اشارة إلى خطاب سعادتكم رقم ٧٥٨ في ١٤٠٠/٢/١٢ هـ والمرفق به محاضرة : اسماعيل راجي الفاروقي استاذ الإسلاميات وتاريخ الأديان بجامعة تاسيل بالولايات المتحدة في اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي المقام في ربيع الثاني عام ١٣٩٩ هـ في قاعة الملك فيصل يرحمه الله بالرياض.

وحيث رغبتم في ايضاح وجهة نظري في هذه المحاضرة لا سيما وهي تتحدث عن أهم موضوع هو موضوع التوحيد فانني أوجز لسعادتكم ملاحظاتي بالآتي :

أولاً : ملاحظات عامة :

١ ـ المحاضر كتب هذا الموضوع على طريقة الفلاسفة المحدثين مما لا عهد لكثير من المسلمين به مما يجعل قطاعاً كبيراً من المثقفين لا يستفيدون من هذه المحاضرة أو لا يعيشون مع المحاضر فيما يهدف اليه.

٢ ـ ان المحاضر استعمل في بحثه اصطلاحات غير معروفة لنا

ولكثير من الناس مثل : اصطلاح الجانب الاسلوبي والجانب الفحوي وما يتألف منه كل من الجانب الأسلوبي والفحوي من مبادىء ص ٣ وما بعدها. ومثل : التوحيد مبدأ أخلاقي ومبدأ قيمي ومبدأ جمالي... الخ.

٣ ـ ان كثيراً من العبارات تأتي غير محددة المعنى أو غير واضحة أو محتملة للحق والباطل مثل كلمة الحقيقة فمرة يستعملها بمعنى الوجود ومرة بمعنى الواقع. وتارة بمعنى الكل وتأتي محتملة مثل : قوله فالسعة هي الايمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير ص ٦.

٤ ـ ان ما يقررن المحاضر في مكان يتابعه أحياناً في مكان آخر وهذا سيتضح من الملاحظات الخاصة.

ثانياً : الملاحظات الخاصة :

١ ـ التعبير بجوهر الحضارة الإسلامية وأنه هو التوحيد تعبير غير دقيق ولا محدد لان الجوهر يطلق ويراد به معنى اصطلاحي عند الفلاسفة، وهو كل ما استقل عن غيره وقام بنفسه، ويقابله العرض وهو ما لا يقوم بنفسه ولا يظهر إلا في غيره كالألوان، وهذا غير صحيح لأن التوحيد لا يستقل عن بقية شرائع الإسلام ومجرد التوحيد بلا عمل بشرائع الإسلام لا ينفع.

ويطلق الجوهر : ويراد به المعنى اللغوي العام الذي هو الشيء الغالي الثمين والنفيس، سواء كان في الماديات أو المعنويات، ولما كان معنى النفيس الثمين الغالي كلمات واسعة ليست محددة بل انه في المعدن الواحد كالذهب مثلاً وهو يقع تحت مسمى الذهب ويعرف عند أهل الخبرة به أنه على درجات متفاوتة من النفاسة ولهذا فان سلف هذه الأمة وعلماءها في مختلف العصور لم يعبروا بالجوهر عن التوحيد.

٢ ـ قال المؤلف : قديماً وحديثاً كتب مفكرونا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد وذلك لانهم رأوا فيه المبدأ الأكبر الذي يشمل جميع المبادىء الأخرى، ورأوا فيه القوة الكبرى التي تفجرت عنها جميع

المظاهر المكونة للحضارة الإسلامية ثم قال : ان التوحيد هو الشهادة عن ايمان بأن (لا إله إلا الله).

فكلمة التوحيد التي ذكرها ليس لها هذا الشمول الذي ذكره المؤلف بل انها تشمل أنواع التوحيد :

١ ـ توحيد الربوبية.
٢ ـ توحيد الالوهية.
٣ ـ توحيد الأسماء والصفات.

ولكنها لا تشتمل على بقية شرائع الإسلام ومبادئه الأخرى في العبادات والمعاملات والدماء والقضاء وغيره مما ينظمه مسمى الشريعة، وليس صحيحاً أن مفكرينا في القديم كتبوا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد بل هي دعوى تفتقر إلى دليل.

٣ ـ قال المحاضر : إن حكمة لا إله إلا الله هذه الشهادة سلبية في مظهرها، والحقيقة ان هذه الكلمة تضمنت السلب والايجاب معاً، فان صدرها ينفي وجود إله حق غير الله، وعجزها (إلا الله) إيجاب وهو اثبات الالوهية الحقة لله وحده دون سواه.

٤ ـ قال المحاضر ص ٢ إن التوحيد تصور عام للحقيقة بما فيها الدنيا كلها والحياة كلها والتاريخ كله، وهذا الشمول غير صحيح كما سلف.

٥ ـ تحت عنوان المبادىء الخمسة للتوحيد على حد تقسيمه : (الحقيقة عالمان : عالم الله وعالم الخلق ص ٢) وهذا التقسيم ليس صحيحاً فلا يقال عن الله انه عالم. وإنما يذكر بأسمائه وصفاته سبحانه فقط، ولا يصح حتى من ناحية الوجود لأن قرن وجود الله بوجود الخلق فيه تشبيه إلى جانب مخالفته لما جاء في الكتاب والسنة وأقوال وأعمال السلف والخلف حتى يومنا هذا.

٦ ـ ثم قال : ثنائية الحقيقة نهائية قاطعة. ينفصل العالمان عن بعضهما انفصالاً تاماً كونياً ووجودياً... الخ : فالتعبير بالثنائية، تعبير غير

سليم. اما الانفصال فلا يقال به اذ لم يحصل اتصال من قبل حتى يكون الانفصال.

٧ ـ وقال : لا صلة بين الخالق والإنسان الا بقوة العقل... الخ ونقول إن الصلة بين الخالق والمخلوق صلة ايجاد وخلق وهي خارج العقل وان كانت تدرك بالعقل فهي عقلية من هذه الجهة، وصلة الخلق بالخالق بالطاعة والعبادة صلة قائمة.

٨ ـ وقال ان سنن الله : هي ارادة الله. والواقع أن سنن الله أعم من ارادته فلا تفسر السنة بالارادة.

٩ ـ وقال : لعالم الخلق غاية من وجوده : هي تحقيق ارادة الخالق. وهذا ليس صحيحاً، فان ارادة الله الكونية نافذة في الخلق شاؤوا أم أبوا، وارادته الشرعية يتم تنفيذها في اطار اختيار البشر ومشيئته الخاضعة لمشيئة الله.

فغاية الله من خلق الخلق ليس تحقيق ارادته وانما هي توحيد الله وطاعته وعبادته وفق ما شرع وهذا بنص القرآن. قال تعالى : « وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون »... الآية وهذا نص قرآني على تحديد الغاية من الخلق.

١٠ ـ عند كلام المحاضر على تحقيق ارادة الله في الخلق ذكر انها تتحقق في خلقه ما عدا الإنسان بالضرورة اما في الإنسان فتتحقق باختياره وهذا صحيح، ثم قال : (وهذا هو التفاضل القائم بين القيم الاخلاقية والقيم النفعية)، وهذه الجملة ليست صحيحة لأن ما يتحقق بفعل الإنسان الاختياري منه ما يصح ان يسمى كما عبر عنها بالقيم الاخلاقية والقيم النفسية. فان الإنسان يفعل الطاعة باختياره فتسمو نفسه وتعلو درجته عند الله ويرتفع عن مستوى الحيوان وبقية المخلوقات ـ وهذه ما عبّر عنها بالقيم الأخلاقية ثم إنه يحقق له بذلك مصالح دنيوية في نظام حياته وصلاح عيشه وحصول المنافع العاجلة التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان مثل الطعام والشراب واشباع كل الغرائز الحيوانية.

ثم ان الإنسان منه من لم يكن مطيعاً لله، ومع أنه انسان وله اختيار فاذا عصى الله وكفر به كانت منزلته أحط من الحيوانات عند الله وكان ما

يحصل عليه منافع يصح أن يطلق عليها قيم نفعية : لأنها ليس فيها طاعة ولا سمو ولا تحقيق مراد الله فتساوى مع الحيوان في تناول هذه القيم الحيوان بالالهام والضرورة والانسان بالسعي والاختيار وكانت ميزة الاختيار عنده تهبط به درجات في التقييم لأنه استعملها في التدني لا في الارتفاع.

١١ ـ قال المحاضر : ان للتوحيد كجوهر حضاري جانبان : جانب اسلوبي وجانب فحوي، ثم فسر مراده بكل منهما، بما يفهم منه أن مراده بالجانب الأسلوبي هو الاجتهاد وعمل المجتهدين في التطبيق، وأن مراده بالفحوى نصوص الشريعة التي هي مجال عمل المجتهد ومادته. وقال في أول عنصر من عناصر الجانب الأسلوبي ما نصه : انما الحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها من الحضارات وأخذت منها، لكنها ليست مجرد جمع واضافة بل هضماً وتسوية وتخريجاً جديداً، فما من حضارة إلا خرجت من سابقاتها وتقدمت بمواد جديدة غريبة عنها، لكنها هضمتها وسوتها فحولتها من جوهر غريب عن الحضارة إلى مادة فحوية تنتسب إلى الحضارة الإسلامية انتساباً عضوياً... الخ.

فإذا كانت في كثير من العبارات التي ذكرتها في الملاحظات السابقة ذات مصراعين طيعة تأتي مع الدفع والجذب فان هذه العبارة صريحة لا تحتمل غير المعنى المراد للمحاضرة وهو كلام خطير بل هو غاية في الخطورة وهو رأي كثير من المستشرقين، وهذا الكلام في لفظه ومعناه يعني أحد الأمور التالية :

أ ـ ان الحضارة الإسلامية والتوحيد ليسا من عند الله وانما هما من صنع عبقرية مبدعة كان لها قدرة فائقة في أخذ خامات هذه الحضارة من الحضارات السابقة لها ـ وهي التي عبّر عنها بالجانب الفحوي وصهرها في بوتقة إسلامية ونظمتها في إطار واحد هو الصهر الإسلامي الذي ألف بين أجزاء هذه المواد التي أخذت من الحضارات القديمة ـ وهذه العبقرية هي التي عبر عنها بالجانب الأسلوبي وحددها في المبادىء الثلاثة : ١ ـ الوحدة ٢ ـ التعقل ٣ ـ السعة.

ب ـ أن تكون الحضارة الإسلامية وعقيدة التوحيد من عند الله ولكن

الله سبحانه أخذ موادها من الحضارات القديمة وصهرها بعلمه وحكمته وسواها وخرجها تخريجاً جديداً حتى صارت بهذا الشكل الإسلامي أو كما قال فأسلمها.

وعلى الاحتمالين فالخامات المكونة لنصوص الشريعة ليست من عند الله ابتداء، ولكنها من الحضارات القديمة انتقتها يد مبدعة خلاقة، ولم تكتف بمجرد جمعها وتصنيفها بل هضمتها وسوتها وخرجتها تخريجاً جديداً.

ولكن من هي هذه اليد المبدعة أو الفنان كما سماها فيما يأتي، هل هو محمد ﷺ وأصحابه أو هو الله.. الله أعلم بمراده.. وعلى كلا المعنيين فهو خطأ جسيم في حق الله وحق رسوله.

غير أن ما ذكره المؤلف بعد هذا مباشرة بقوله : (ولعل أسوأ ما نزل بنا من كوارث في العصر الحديث هو انتزاع وحدة الأسلوب من حضارتنا، وذلك بادخال عناصر غريبة على حياتنا دون أن نصهرها ونسويها ونخرجها التخريج الذي يجعلها نسقاً متوحداً الخ). يبين انه أراد المعنى الأول وهي انها من صنع عبقرية انسانية مبدعة وجدت مع فجر الإسلام ولم تتكرر، وهو يدعو اليوم إلى عبقرية جديدة تعيد للإسلام وجوهره ما فقدناه وهو الجانب الأسلوبي المتمثل في الوحدة والتعقل والسعة وهذه كلها أعمال بشرية إذ أن مواد الحضارات الجديدة متوفرة ويمكن اضافتها إلى جوهر الإسلام وهو التوحيد اذا وجد من يقوم بالجانب الأسلوبي وتتولى عملية الصهر والهضم والاخراج والتسوية.. الخ.

ولست في حاجة أمام هذا الكلام الذي ينبيء عن تصور معين للمحاضر عن الإسلام في مصدره ومورده وصلته بالحضارات القديمة وفي جانبه الأسلوبي الفحوى والذي يختلف تمام الاختلاف عن تصور علماء المسلمين قديماً وحديثاً بل حتى عامتهم أن أسرد الآيات القرآنية التي جاءت في الرد على مثل هذه الدعاوى التي وجهت للإسلام منذ فجر تاريخه مثل قوله تعالى عن المنكرين للرسالة : (انما يعلمه بشر)، فرد الله عليهم بقوله تعالى : (لسان الذين يلحدون إليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين).

وقوله تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو الا ذكر وقرآن مبين). ومثل قوله تعالى : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)، والآيات الدالة على أنه تنزيل من رب العالمين كثيرة جداً لا تدع مجالاً للشك في ذلك بل قال تعالى : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لاخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين).

فالحضارة الإسلامية وعقيدة التوحيد التي عبّر عنها بالجوهر لا يمكن أن تكون منزلة من غير الله على رسوله وحياً وفي نفس الوقت تكون موادها من الحضارات القديمة. ولو لم يكن في هذه المحاضرة غير هذا الكلام لكان كافياً لاستبعادها وما ذكره الفاروقي هنا من أن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات القديمة أورده أبو الأعلى المودودي رحمه الله في مقدمة كتابه « حضارة الإسلام أسسها ومبادؤها ». كشبهة من شبه المستشرقين وردها وحمل على القائلين بها بكلام جزل لا يحضرني الآن ويمكن رجوعكم اليه.

١٢ ــ تكلم عن السعة كمبدأ أسلوبي وأطلقها، والسعة في نظر الشريعة لا بد وأن تكون في اطار التشريع الإسلامي لأنه من عند الله الرؤوف الرحيم وهي لا تكون في تتبع الرخص والأخذ بالأسهل.

ثم قال (فالسعة هي الايمان بأن اختلاف الأديان وتعددها مرجعه للتاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى... الخ).

وهذا الكلام مجمل يحتمل الحق والباطل. فان اراد بأن هذه الأديان يرجع اختلافها إلى اختلاف حاجات الإنسان واستعداده في فترات التاريخ، وأن رسالة كل رسول قبل محمد ﷺ كانت تأتي شفاء لا دواء منه وصالحة لتلك الفترة الزمنية فقط في شريعتها وفروعها، ورسالة الإسلام جاءت رسالة خاتمة صالحة للفترة التاريخية من البعثة النبوية الشريفة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فهذا حق.

وان أراد أن الديانات في أصلها وتفاصيلها واحدة وأن تعددها يعد طرائق ابتدعها الناس فجعلوا منها يهودية وأخرى نصرانية وثالثة اسلامية

اختلفت اسماؤها وطرائقها بسبب الهوى فهذا خطأ محض والكلام محتمل للمعنيين.

١٣ – في الجانب الفحوي ذكر المحاضر أن شهادة أن لا إله إلا الله وحده تعني أن الله وحده هو الخالق الموجد لكل شيء وانها تعني أنه الفاعل لكل حادث وأنه الغاية من كل شيء فاذا شهد الإنسان بهذه الشهادة عن وعي وايمان بمدلولها أيقن أن كل ما يحيط به من حوادث طبيعية كانت أو اجتماعية ام نفسانية كلها من فعل الله وتحقيقاً لغاية من غاياته.. الخ).

فهذا الكلام فيه اجمال وخلط فان قصد أن الله هو المالك لكل ما في السموات والأرض وأن ما يحدث هو بقضائه وقدره الأزلي فهذا حق. وأما اذا قصد أن كل فعل يتم في الوجود فالله فاعله بهذا الاطلاق وبهذا التعبير فهو خطأ فانه يتم على وجه الأرض في حياتنا المشاهدة قتل النفس البريئة ونهب الأموال المحترمة وفتك الأعراض المحصنة ويتم القيام بالإفساد في الأرض بكل أبعاد هذه الكلمة فهل يمكن نسبة هذه الأفعال والحوادث إلى الله استناداً إلى صدق كلمة (لا إله إلا الله) تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

الحقيقة أن ما يتم في الوجود من خير وشر هو بقضاء الله وقدره والإنسان مكلف مختار وفاعل لأفعاله حقيقة والله مقدر الأفعال وافعال الإنسان وتصرفاته واختياراته تكون سبباً لما يصيبه من خير أو شر (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك). كما ان الأفعال ليست كلها تتم لتحقيق غاية من غايات الله، فان الشرك والكفر وأنواع المعاصي أفعال واقعة على المرء بقضاء الله وقدره ولكنها لا تتم لتحقيق غاية فان الغاية من الخلق التوحيد والعبادة والطاعة، والشرك والكفر والمعاصي على النقيض.

المحاضرة لا يخلو موضوع من موضوعاتها من ملاحظات وأخطاء تختلف درجاتها، والحديث عنها يطول، ولكنني أحب أن انتقل من ص ٧ متجاوزاً الملاحظات كلها في الصفحات ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢ إلى صفحة ١٣ وهي الأخيرة مع أن كلّ صفحة من ٨ ــ ١٢ فيها اخطاء كثيرة ليس من الضروري الاتيان عليها لأن المقصود بيان مدى صلاحية هذه

المحاضرة للنشر أو لا وما سلف وحده كاف لاستبعادها. ولكن هذه اللقطة الأخيرة لها أهمية كبرى في الحكم على البحث.

ذكر في ص ١٣ تحت بند ٥ ـ التوحيد مبدأ جمالي : (يقول التوحيد بأن لا إله إلا الله يعني بذلك أن لا إله في الطبيعة يخلق، فكل ما في الخلق مخلوق). ثم يقول الفن ان في كل شيء في الخلق لا سيما في الإنسان وتصرفاته واختياراته تكون سبباً لما يصيبه من خير أو شر (ما ما يجب على الشيء أن يكونه وان لم يكنه.

فالفن هو اكتشاف هذا الجوهر واعطاؤه الجسد المرئي المطابق له، فهو ليس مجرد نقل عن الطبيعة بل هو استقراء لها عن جوهرها الماورائي وتصويره أو تمثيل ذلك الجوهر بما يلائمه من ملامح مرئية. هذا الجوهر الماورائي الذي يهدف الفنان إليه الهي في طبيعته الماورائية فهو جدير بالمحبة والاعجاب الشديد كلما اقترب من الالوهية).

يظهر لي من هذا البحث ان المحاضر يرى قدم المادة واستمراريتها وعدم فنائها وأن ما نراه من فناء الأجسام ليس فناء حقيقاً وانما هو تحول في الشكل والصورة مع بقاء المادة. وأن وظيفة الاله وهو ما سماه بالفن أو الفنان هو اكتشاف هذه المادة في جوهرها وإعطائها الجسد المرئي المطابق له.

فإذا افترضنا أن الجوهر هو الروح في الإنسان مثلاً فان هذا الجوهر دائم لا يفنى وانما يتشكل ويتحول من صورة إلى غيرها. وأن وظيفة الاله هي اكتشاف هذا الجوهر وهي الروح وغطاؤها الجسد المرئي ـ الذي هو الجسم المحسوس المشاهد المطابق الملائم للجوهر. فقد يخرج هذا الجوهر مرة في انسان ثم يموت الجسم وتبقى الروح فتخرج في صورة أخرى باكتشاف الفن لهذا الجوهر واعطائه جسداً آخر حيوان او نبات او غيره حسب ما يلائم هذا الجوهر في ظهوره المتجدد.

وهذا لا يتفق مع عقيدة المسلمين التي تؤمن بأن كل من عليها فان، وأن المادة ليست قديمة بل هي حادثة وفانية أيضاً، وأن الله سبحانه يخلق خلقه بكل مقوماته وجوهره وجسده وغايته ومشاهده، وأن أي روح يموت صاحبها لا تخرج في أي صورة من صور المخلوقات أو النباتات أو غيرها،

وانما تخرج في نفس النفس والجسم الذي وجدت فيه لأول مرة في الحياة الآخرة وهي تبقى تنعم أو تعذب في الحياة البرزخية والحياة الأخرى.

وما ذكره المؤلف في هذا يتفق مع ما ذكره في صدر هذا البحث مما سماه جانبي التوحيد ـ الأسلوبي والفحوي : ومصدر مادة التشريع وطريقة صهرها وإخراجها في صورة جديدة مع أنها في الأصل مجموعة موادها من عدة حضارات عملية المشرع عملية الصهر فقط.

وهي لا تتفق إلا مع مبدأ القول بتناسخ الأرواح وهو مبدأ معروف البطلان عند كل العقلاء.

هذه بعض الملاحظات التي تمكنت من ذكرها في هذه العجالة وقد تجاوزت عدة صفحات تحمل جملة من الأخطاء.

ولعلي أكون مخطئاً في فهمي فيما أسلفت وأن يكون الحق في المحاضرة ظاهراً لغيري إذ أنه يسرني أن يسدد كل مسلم في قوله وعمله، والأخ إسماعيل ممن نكن له كل المحبة والأخوة، ونحفظ له كل عمل مخلص موافق للحق، وكلنا خطاؤون وخير الخطائين التوابون، وما كان في هذه الملاحظات من حق وصواب فمن الله، وما كان فيها من خطأ وباطل فمني ومن الشيطان، أستغفر الله وأتوب إليه، والله الموفق والهادي إلى الصواب...

تعليقات على التعليقات اللاحقة

بقلم المحاضر

د. علي عبد الحليم محمود :

١ ـ ينكر الأخ المعلق قول المحاضر بأن للإسلام جوهر وأن هذا الجوهر هو التوحيد، على أساس أن هذا القول تعريف للإسلام وللتوحيد مغاير لما جاء في كتب الكلام.

لسنا بصدد تعريف الإسلام بل بوصفه بالدلالة على ما يقوم فيه مقاماً جوهرياً، وبوصف الحضارة الإسلامية بما يقوم فيها مقاماً جوهرياً، ولم يقل أحد بأن جوهر الشيء هو كل ما فيه، رغم أنه أهم ما فيه.

٢ ـ يدعي الأخ المعلق أن المحاضر عرف التوحيد مرتين : مرة بتعريف مخالف « لما هو معروف في كتب التوحيد وكتب علم الكلام »، ومرة بتعريف جديد غير صحيح، تفضل المعلق بتعريف التوحيد بأنه « الإيمان بالله وحده لا شريك له ».

لقد عرف المحاضر التوحيد بأنه « الشهادة عن إيمان بأن لا إله إلّا الله » (ص ١)، فهل هذا مغاير لتعريف المعلق ؟ أما ما أسماه تعريفاً ثانياً، أي « تصور عام للحقيقة » فذلك وصف للتوحيد، وهل ينكر أن من يتصف بالتوحيد لا بد وأن ينفرد عن غيره بتصوره العام للحقيقة ؟.

٣ ـ ينكر الأخ المعلق قول المحاضر بأن الحضارة الإسلامية انبثقت عن غيرها من الحضارات مدعياً أن الحضارة الإسلامية هي الدين كله، ثم يسترسل في الظن بأن كلام المحاضر يؤدي إلى أن الإسلام نفسه منبثق عن غيره من الأديان.

لم يقل أحد بأن الحضارة هي الدين إلّا المعلق. فالدين نظام ثابت من المبادىء والقيم. أما الحضارة فهي مجموعة عضوية تشمل كل ما يتصل بحياة البشر الذين ينتمون إليها، بما في ذلك ألوان الطعام وطرق تحضيره، وأنواع المساكن والملابس، والآلات وطرق الإنتاج. ليست هذه الدين، إنما الدين هو ما يربطها بعضاً ببعض فيجعل منها وحدة عضوية بعد أن كانت شتاتاً ويصهرها ويهذبها كي تلتئم أجزاؤها معه ومع بعضها البعض. فالدين أشبه بالخريطة والحضارة أشبه بالحجارة والطين والأخشاب التي تؤلف العمارة. فالحضارة الإسلامية، كالعمارة، لم تأت من عدم بل نشأت نشأة من الحضارة العربية التي شملت الحضارات السامية القديمة وحضارات الإغريق والرومان وفارس والهند. ولا شك أن الإسلام صهرها وطبعها بطابعه الخاص.

٤ ـ يدين الأخ المعلق القول بأن « اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى » فكرة الحادية معروفة. ويؤكد أن « الأديان كلها من عند الله سبحانه ».

هل التثليث والعنصرية والوثنية « من عند الله » ؟ أو ليست الأديان التاريخية ـ أي التي عرفها التاريخ وكما عرفها التاريخ ـ مغايرة لبعضها البعض ولنفسها من زمن إلى زمن و أو ليس فيها الكثير من الكذب على الله والبهتان ؟ فكيف تكون كلها من عند الله كما قال المعلق ؟ لا بد إذاً من التفريق في كل منها بين ما هو صحيح وحق، إلهي المصدر، وبين ما هو إنساني المصدر، مرجعه الهوى والاجتهاد وغيره.

٥ ـ يريد الأخ المعلق أن يحمي الدين الإسلامي من الظن بأنه مغاير لما أنزل الله، ولهذا يعارض مبدأ السعة.

لكن لا خوف على الإسلام، فليطمئن المعلق. ذلك أن الله تعالى وعد بحفظ الذكر من كل سوء. ومن جهة أخرى، الإسلام هو مصدر التوجيه، وهو مصدر مبدأ السعة. فكيف يكون هدفاً للمبدأ ؟ بل حتى وان اتخذ هدفاً، ألا يأمرنا ديننا بأن نثق بأن من يشهد بأن لا إله إلّا الله مسلم مؤمن إلى أن يثبت لنا أنه مشرك أو مشعوذ ؟ بأن لا نبادر باتهام الناس ؟ أو نظن بهم السوء ؟.

٦ ـ يدّعي الأخ المعلق بأن القول بانحدار مبدأي السعة واليسر من التوحيد كمبدأ أخلاقي « يؤدي إلى الشرك » إذ يترتب عليه « أن يكون التوحيد محتملاً لأن يثبت فساده .

الانحدار المذكور تسلسل منطقي لمبدأ معين ثان من مبدأ معين أول، تماماً كما لو قلت بأن مبدأ هندسياً أو رياضياً ينحدر من معطيات هندسية أو رياضية. ولا يعني هذا ان المبدأ الأول المنحدر منه، خاضع للمبدأ الثاني المنحدر. وأنه لمنطق أعوج أن نستنتج من المبدأ « أمرنا الله بالترفع عن الظن لأن بعض الظن أثم » مبدأ أول.

* وعليه فإنا لن نسيء الظن بزيد وعمرو » ـ مبدأ ثانٍ.

ان علينا أن نضع المبدأ الأول موضع الظن فنقول إننا نترفع عن الظن به عملاً بالمبدأ نفسه. فالتوحيد هو المصدر اليقيني المنحدر عنه. وإذا ألزمنا التوحيد بعدم اتهام الناس أو تكذيبهم أو إنكار المبادىء والتعميمات إلى أن يتبين لنا الفساد، فمن السخف أن نستنتج أن التوحيد نفسه « محتملاً » إلى أن يثبت فساده.

٧ ـ يدعي الأخ المعلق بأن تجريد الطبيعة من كل قوة غير الله هو علمنتها « يجعل التوحيد نفسه علمانية ».

في هذا التعليق خطئان. الأول خطأ منطقي من نفس النوع الذي وقع في تعليقه رقم ٦. فالمنطق الصحيح يأبى إخضاع المبدأ المستنتج منه إلى ما يطلبه المبدأ المستنتج. والخطأ الثاني ناتج عن عدم فهم ما قاله

المحاضر. فتجريد الطبيعة من كل قوة غير قوة الله معناه الإيمان بأن الطبيعة لا تعمل عملها بقوى أخرى، كالآلهة، وأرواح الأولياء والسحرة وغيرهم. وهذا هو مفهوم التوحيد فيما يخص الطبيعة. بل تعمل بقوة الله فقط. ولذلك يمكن درسها وتبين سنن الله فيها، السنن الدائمة التي لا تتبدل. فبدون هذا التجريد الذي يقدمه التوحيد، يختلط الأمر على الباحث في الطبيعة إذ لا سبيل له للتمييز بين الآلهة أو القوى المتعددة ذات المقاصد المختلفة، وبالتالي تبين السنن الدائمة. لذلك قلنا إن التوحيد يعلمن الطبيعة بمعنى أنه يجردها عن الآلهة كما تفعل العلمانية تمهيداً للدخول في البحث العلمي. ولا يخفى على أحد أن العلمانية تنكر الله تعالى، بينما التوحيد يؤكده. إلا أن أثرهما العلمي واحد بمعنى أنهما يحققان الشرط الأول الذي لا بد منه إذا أريد الدخول في البحث العلمي.

إن تساوي المسبّبات أو النتائج لا يلزم تساوي الأسباب.

٨ ــ ينتقد الأخ المعلق القول « التوحيد هو عكس الخرافة » بأنه غير صحيح بل طالب بالتقيد بالمصطلحات المعروفة. ولم يأت بدليل يبين صحة ادعائه. وعليه يفيد : ما المانع من القول بأن التوحيد ينفي أن النجوم تضر وتنفع، بأنه يناقض السحر والخرافة، بأنه يدفعنا إلى تركها ؟ ألم يجعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذا مفتاحاً وعنواناً لدعوته السلفية ؟.

٩ ــ يعترض الأخ المعلق على القول بأن لا محقق لارادة الله سوى الإنسان في عمله الحر الاختياري.

ليس هذا ما قاله المحاضر لكن ما قاله هو : لا محقق للقسم الأخلاقي من ارادة الله سوى الإنسان. فاما أن يكون نسي ما قيل أو تناسى، أو أنه يؤمن بأن غير الإنسان من المخلوقات قادر على العمل الاخلاقي كما عرفناه.

١٠ ــ يعترض الأخ المعلق على استعمال المحاضر لكلمة « ثالوث ».

وهل للمسيحية المشركة أو لأي دين الحادي أن يتملك لغتنا العربية تملكاً فينفرد باستعمال كلماتها ويمنعنا من ذلك ؟.

١١ ــ يعترض الأخ المعلق على القول بأن سيدنا محمداً ﷺ

وضع دستوراً « للدولة الإسلامية وأنه أدخل اليهود في حظيرة تلك الدولة. وحجته أن دستور الدولة هو القرآن وهو غير موضوع.

لا خلاف في أن دستور الدولة الإسلامية هو القرآن الكريم وأنه تنزيل من رب السماوات والأرض بلسان عربي مبين. لكننا لسنا بصدد الحديث عن هذا الدستور، بل عن ميثاق المدينة الذي أملاه الرسول عليه الصلاة والسلام فجمع فيه الأوس والخزرج والمهاجرين واليهود، وأولئك جميعاً ضمن نظام سياسي واحد كان هو رئيسه. وقد حصل ذلك مباشرة بعد الهجرة. ولا ينكر أن ميثاق المدينة كان دستوراً معمولاً به للدولة الإسلامية الفتية.

١٢ ـ يتهم الأخ المعلق المحاضرَ بأنه لم ينقض كلام المستشرق جرونباوم وأنه بذلك أقر عدو الإسلام على خطئه.

فسبحان الله ! وهل ينكر أن ليس في الإسلام آلهة تتصارع مع بعضها البعض فتشكل مادة للدراما والفنون التشكيلية ؟ لا ينقض جروبناوم على هذا، انما ينقض على اعتباره الدراما والفنون التشكيلية ـ المجالات الوحيدة للتعبير الجمالي. وهذا ما فعله المحاضر بالذات.

١٣ ـ يعترض الأخ المعلق على التعبير « في الزخرفة الإسلامية » وينصح باستبداله بفن الزخرفة عند المسلمين ».

وهذا هو عينه ما يقوله أعداء الحضارة الإسلامية والإسلام. إذ هم يريدون الفصل ما بين الحضارة ومظاهرها من جهة وبين الإسلام من جهة أخرى. فإذا انقطعت الصلة بينهما سهل عليهم عندئذ تدمير الاثنين بحجة أن الإسلام دين لم ينتج حضارة وأن الحضارة الإسلامية ما هي إلا مخلفات الحضارات السابقة واقتراضات من الحضارات المعاصرة لها.

١٤ ـ اذا وقعت أخطاء لغوية أو نحوية في البحث فالاعتذار عنها وتصحيحها ضروريان.

الأستاذ / عبد الفتاح أبو غدة :

١ ـ يعترض الأخ المعلق على تعبير « عالم الله » و « طبقة الله » على أساس ان الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه.

أ ـ حقاً، لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه. لكن المحاضر بيّن أنه لا يعني بهذه الكلمات وصفاً لله، بل انه استعملها استعمالاً منطقياً فحسب، لا وصفياً. فهل لا يجوز التفريق بين الاستعمالين ؟ وهل كان استعمال لفظي استعمال وصفي ؟.

ب ـ كيف نعبّر عن فكرة فصل الله عن خلقه، فكرة انهما يشكلان حقيقتين منفصلتين ؟ وذلك لندفع قول معظم الأديان الأخرى القائلة بغير ذلك بالوان متعددة ؟ لنميز الإسلام عنها ؟ ان الاعتراض الذي يعترضه المعلقان على كلمة « عالم » يمكن أن يعترض به على أية كلمة أخرى. حتى الكلمات التي وصف الله بها نفسه يمكن أن يعترض عليها بنفس الاعتراض، وأن تحمل معنى تشبيهياً يتنزه الله تعالى عنه. وذلك بالذات ما فعله المشبهة. فاذا افترضنا وقوع التشبيه. في كلمة « عالم » رغم توضيح المستعمل وتنبيهه لمستمعيه بأن استعماله منطقي لا وصفي، أنّى لبشر أن يتجنب التشبيه في أية كلمة أخرى تطلق على الله تعالى، وان كانت مما وصف به نفسه ؟.

٢ ـ يعترض الأخ المعلق على القول بأنه لا يجزي الإنسان على معروف أو منكر أكره عليه اكراهاً. ويقول بالعكس محتجاً بأن المعروف المكره، كالصدقة مثلاً، يحرز بها أجراً لانها معروف في نظر الشرع وفي الواقع، وان كان مشوباً في صدوره وناقصاً في أجره ومثوبته.

لا ينكر أن للمعروف حسنة أو قيمة قائمة فيه، وكذلك للسيئة. لكن اذا كان المعروف مكرهاً، كانت قيمته نفعية فقط. فلا ينكر أن المال المتصدق به ينفع المتصدق عليه. وشتان ما بين القيمة النفعية هذه والقيمة الاخلاقية. الأولى مادية والثانية روحية. ولو كان للقيمة المحققة عن طريق الاكراه صبغة أخلاقية لاستحسن اكراه الناس على فعل الخير، وعلى ادخالهم في الإسلام لأنه أكبر الخير وأعظمه. ولو كان ذلك صحيحاً لحثنا الله ــ بدل أن يمنعنا ــ على حمل الناس على الدخول في دينه. ولكن صدق الله حيث قال : « لا إكراه في الدين ». وذلك لأن الاكراه يفسد الجانب لأخلاقي مع ابقائه على الجانب النفعي.

٣ ــ يراد بكلمة الافندي. الفرد المتفرنج.

٤ ، ٥ ــ بدون تعليــق.

٦ ــ يقول الأخ المعلق : إن المحاضر جعل « اساءة الاعلام تفسيراً للتناقض، وهو تفسير غير صحيح ».

لم يجعل المحاضر اساءة الاعلام تفسيراً للتناقض. ذلك تحميل المعلق. انما نفى عن الله أموراً عديدة منها التناقش، ومنها أيضاً اساءة الاعلام، أي اعلام الانسان بغير ما هو واقع.

٧ ــ يدعي الأخ المعلق بأن « الأمانة هي تحقيق ارادة الله الأخلاقية » عبارة كهنوتية.

حاشاها أن تكون كهنوتية ولم يقلها أي كاهن. فالأمانة تعبير قرآني، والارادة والأخلاق مشتقة من كلمات قرآنية. وللجملة معنى لطيف فات المعلق يتميز فيه الجانب الأخلاقي في ارادة الله ــ كالتقوى والإحسان والقسط والدعوة والصدقة والنية الحسنة ــ عن الجانب الكوني كسنن الطبيعة وقوانين المادة. وتعبر الجملة عن حقيقة قرآنية هي أن الأمانة التي حملها الإنسان لم تقو الجبال والسماوات والأرض على أن يحملنها لأنها لا حرية لها كما للإنسان. وبالتالي فالأمانة هي الجانب الأخلاقي المتطلب حرية الإنسان لتحقيقه.

٨ ــ الفرقعة بمعنى التفجير، أو ضرب الشيء بشيء آخر حتى يظهر صوته. والقول بأن للإنسان أن يفرقع الشمس والقمر مبالغة يقصد بها تأكيد تسخير الله للشمس والقمر وكل ما في الأرض للإنسان.

٩ ــ جبل أوليمبوس هو مسكن آلهة الإغريق، كما أن فالهـالا مسكن آلهة الالمان وأهل شمال أوروبا. وفي كلا الحالتين، دمرت مساكن الآلهة بالنار وعلى رؤوس الآلهة أصحابها، وذلك لكيدهم وتآمرهم ضد بعضهم البعض.

الاشارة في رأيي يجب أن تحفز القارئ على المطالعة، لا على المطالبة بالتفسير.

١٠ ، ١١ ــ مشكلة الأخ المعلق ليست استهجان الكلمـات والتعبيرات بل استهجان المعاني. فهو لم يألفها.

١٢ ــ يقول الأخ المعلق : إن الضمير في كلمة « طبيعته » في الجملة التالية : « لذلك أسلب كل ما صوره أي أبعده عن طبيعته »، يعود إلى الله. ويعترض أن اضافة « طبيعة » إلى الله غير سائغة.

كلام الأخ المعلق في رأيي يدل على عدم ادراك ما قرأ. يعود الضمير في « أبعده » و « طبيعته » إلى « ما صوره » أي المخلوق أو الشيء المصور، لا إلى الله تعالى. ان فاعل « أسلب » هو الفنان. والجملة تقول أن الفنان الإسلامي يؤسلب كل شيء يصوره، فيبعد منظره عن الدلالة على طبيعته.

الأستـاذ محمد الغزالي :

١ ـ يعترض الأخ المعلق على وصف كلمة التوحيد بسلبية المظهر.

لا ينكر أن في الكلمة نفي وأن هذا النفي ظاهر. فالمراد من ذكر « سلبية المظهر » الاشارة إلى هذا الظاهر. أما التأكيد الايجابي فيها فهو ليس فقط غير منكر، انما هو موضوع الفقرة كلها.

٢ ـ يعترض الأخ المعلق على كلمة « عالم الله » ظناً منه بأنها تتسم بالتشبيه رغم كل ما قيل احتياطاً لدفع وتحاشي هذا الظن.

الاصرار على هذا يزيل موانع الظن المماثل عند الكلام عن الله تعالى مهما كان. وكأنه يقول مغالياً : ما من احتياط يمكنه أن يتحاشى الظن بالتشبيه. فالكلام عن الله، وان كان من عند الله، لا بد أن يكون معناه مرتبطاً بفهم الإنسان. وهذا الارتباط يفتح باب التشبيه على مصراعيه. ولا يغلق هذا الباب الا بحيطة وتحذير المتكلم.

٣ ـ حكم الأخ المعلق على الجملة التالية بالقلق : « لا صلة بين الخالق والمخلوق الا بقوة العقل ».

قد تكون قلقة لو كانت لوحدها. لكنها وقعت في فقرة مفسرة لها.

٤ إلى ـ ٨ يقول الأخ المعلق إن في حديث المحاضر غموض، وان هذا الغموض قد يثير في ذهن المستمع أو القارىء أوهاماً، وان بعض العبارات في الحديث عن الله مرفوضة لما تثيره من ظن بالتشبيه.

والجواب هو أن في كل كلام محكم ومتشابه، وأن الكلام يرمى بالغموض عندما تكون الفكرة مستهجنة فيحمل مسؤوليتها، فالمخرج في تصريحات الكاتب عما كتب أو المحاضر عما قال. فاذا جاءت « الأوهام » مخالفة لصريح ما قيل أو كتب، كانت مردودة. واذا جاءت في غياب التصريح كانت استهجاناً إلى بقية ما قيل أو كتب ليكشف غمته.

الشيـخ منـاع القطـان :

١ ـ يعترض الأخ المعلق على القول بأن الشهادة « لا إله إلا الله » سلبية في مظهرها ويؤكد ان فيها سلب وايجاب.

لم يقل المحاضر أن الشهادة كلها سلب، أو أن ليس فيها ايجاب، بل على العكس، قال ان الشهادة التي تبدو وكأنها سلبية تحمل أعظم وأغنى المعاني الايجابية، ولا ينكر ان فيها سلب. ولا يجوز فصلها عما تبعها من كلام عن المعاني الايجابية الكامنة فيها.

٢ ـ يدعي الأخ المعلق أن التوحيد ليس تصوراً عاماً للحقيقة بل انه يعطي تصوراً عاماً للحقيقة، مؤكداً أن الفرق بين التعبيرين عظيم.

لا بأس من القول بأن التوحيد يعطي تصوراً. لكن الفرق بين هذا وكلام المحاضر ليس عظيماً، بل هو غير موجود. ولو تأمل المعلق محتوى « تصور عام للحقيقة » لأدرك أن ما من شيء يجده في التوحيد إلا وجاز إدخاله في « التصور العام للحقيقة ». ذلك أن الحق أو الحقيقة يمسّان كل ما في التوحيد ولا يخرج عنهما شيء. ذلك أنه ان خرج عن مسهما شيء كان غير حق أو غير حقيقة، وهذا ما لا يوجد في التوحيد.

٣ ـ يعترض الأخ المعلق على القول بأن « اختلاف الأديان وتعددها مرجعه التاريخ وما يؤثر فيه من تغيير وهوى.. » يوهم بالتساوي بين الأديان كلها « ويساعد على « إذابة الإسلام في المفهوم الديني العام ».

أ ـ وهل ينكر أن الأديان في أصلها كلها واحدة ؟ وأن ما تبدّل منها فأصبح مغايراً لدين الله هو ما جاء به التاريخ بمؤثراته المتنوعة ؟ هذا هو

المبدأ الذي يفرق به المسلم بين الدين القيم، دين الله الحق، والأديان بأشكالها المختلفة.

ب ــ أما مبدأ حسن الظن بالظاهر إلى أن يثبت خطؤه، فهو ما حدا بالنبي ﷺ بتقبل مسيحيي نجران ضمن نظامه السياسي وجعل خلفاءه الراشدين رضي الله عنهم يعتبرون مسيحيي الشام ومصر أهل ذمة. ولو أثبت المسيحيون شركهم بالجهر بالتثليث وتجسيد الله في المسيح لحاربهم الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون.

جـ ــ هذا المذهب لا يذوب الإسلام في المفهوم الديني العام. بل على العكس هو ينقل المعركة إلى ديارهم فيحاسبهم على تطور دينهم وذلك بأنه يدعو إلى فرز ما أضيف على دينهم وحرف فيه عن الدين الأصلي المنزل. لكن هذا يوجب الاعتراف بأن في دينهم أصلاً صحيحاً أضيف اليه وحرّف.

٤ ــ لا غرابة في وصف « الإرادة الشرعية » أي « وظائف الدين وتكاليفه التي ائتمن عليها العباد » بالأخلاقية. فهي كلها أخلاقية ولا يجوز نفي الأخلاقية عن أي جزء منها. أما تعريف الأخلاق بالتجمل فقط مما يخرجها عن الالتزام بالأوامر والنواهي الالهية. فهذا لا ينطبق على الكلمة « أخلاقية » بحد ذاتها، وان صح عن بعض النظريات الأخلاقية.

٥ ــ في كلام الأخ المعلق فيما أرى تناقض. فهو يعترف أن الإنسان أكمل من الملائكة وأرفع منهم درجة إذا أطاع الله، ويعود فيقول أن الملائكة أعلى لأن جنسهم أفضل من جنس البشر.

ان قدرة الإنسان على العمل الاخلاقي ــ أي طاعة الله اختياراً ــ تميزه عن الملائكة تمييزاً جوهرياً. الجنس أعلى من العمل وأعم. فاذا كان الجنس أفضل بطل مفعول العمل أو علا الجنس عليه. وهذا ما تقوله العنصرية وهي التي تعتمد الجنس مبدأ أولياً.

د. عبد الله الزايد :

١ ــ ظاهرة السلبية في الشهادة.

علق عليها بما فيه الكفاية. إلا أن الأخ المعلق هذا ينكر الظاهرة ثم يقول بأن الشهادة مشتملة على النفي والاثبات.

٢ ، ٣ ، ٤ ــ التعليقات هذه مقبولة، ولكنها ذوقية. وقد قيل ما فيه الكفاية عن مصطلح « عالم الله ».

٥ ــ يعترض الأخ المعلق على وصف الله بالمحرّك. ولكن، هل من غضاضة في وصف الله تعالى بكونه مصدر الحركة في الكون ؟ هل من وجود دون حركة ؟ أو ليس الله تعالى هو المحرّك لكل شيء ؟.

ويقول الأخ المعلق بأن البشر فطروا على معرفة الله وأنه هو الخالق، لكن معرفتهم لأوامر الله وارادته لا تكون إلا بالوحي. أليس لله سنن في الخلق، وفي أنفس البشر، وفي الآفاق، يعرفها الانسان بالنظر والتأمل والعقل ؟ أليست هذه السنن من أوامر الله وارادته ؟.

أما باقي التعليقات في هذا البند فهي مقبولة، وان كانت ذوقية.

٦ ــ ملاحظة ذوقيـــة.

٧ ــ يستحسن الأخ المعلق عدم وصف التوحيد بأنه مبدأ جمالي، ويوصي بالاكتفاء بأن الإسلام لا ينكر الابداع الفني.

المهم هو أن يتحكم التوحيد بالفن فيضبطه ويوجهه إلى الخير والحق، ويمنعه من التردي في الالحاد والرذيلة والمنكر، ويقطع عليه سبيل تأليه الإنسان، وهي مصيبة الانسانية الكبرى في هذا الميدان.

د. عبد الله محمد العجلان :

الملاحظات العامة :

الجواب عليها هو أن الأسلوب والمصطلحات المستعملة غريبة فقط فيما يبدو لمن لم يألف أعمال الفكر الحديث، وفي رأيي، فان من واجب المسلم أنّى كان أن يعرّف نفسه بما يجري في عالم الفكر في هذا العصر.

الملاحظات الخاصة :

١ ــ يعترض الأخ المعلق على قول المحاضر أن جوهر الحضارة الإسلامية هو التوحيد فيقول إن التوحيد لا يستقل عن الشريعة وان فعل فلا يصلح.

ليس الموضوع صلاح التوحيد ان استقل عن الشريعة، بل أولويته عليها. وهذه الأولوية لا تنكر. وقد اعترف الأخ المعلق بأنه يمكن أن يقوم التوحيد دون الشريعة. فهذا يكفي لاعتبار التوحيد أكثر أولية من الشريعة. وهذه الحقيقة سهلة الادراك عند السؤال : هل يمكن لشريعة الإسلام أن تقوم، بل حتى وأن تنفع، اذا لم يقم التوحيد قبلها ؟ يقابل هذه الحقيقة ويسندها قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ».

لم يستعمل المحاضر كلمة الجوهر بمعنى الحجر الكريم أو الشيء الثمين. فالكلام فيه لا محل له.

٢ ــ ينكر الأخ المعلق أن أشمل مبدأ في الإسلام هو التوحيد. فهو يستثني من شمول التوحيد العبادات والمعاملات والقضاء. ولعله جانب

الصواب في الشمول المنطقي. وهذا بيّن في كلامه عن التوحيد كجوهر. يقوم الشمول على علاقة ضرورية بين الشامل والمشمول لا يقوم المشمول إلا إذا قام الشامل، وعليه نسأل الأخ المعلق وهو الذي أتى بميزان الكفاية والنفع والصلاح، ما فائدة المعاملات والقضاء مع الكفر ؟ وهل تقوم في الإسلام إلا بقيام التوحيد ؟ وهل نحن مكلفون بالعبادات، من صلاة وصوم وزكاة وحج إذا كان هنالك أكثر من إله ؟ أو إذا كان الاله أحداً من الناس ؟.

وينكر الأخ المعلق أن مفكرينا في القديم كتبوا آراءهم في جميع الميادين تحت عنوان التوحيد. والحقيقة هي أنهم ساووا بين التوحيد والكلام، وأنهم أطلقوا اسم « الكلام » على علم يلم بالمبادىء الأولى لجميع الأشياء بما فيها أصول الدين والعقيدة والمنطق والماهية والمعاني والاخلاق والسياسة. (انظر مقدمة كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي، ففيها الكفاية. وان شئت المزيد فانظر تحت مادة التوحيد في موسوعة بروكلمان عن تاريخ الآداب العربية).

٣ ـ نعم تضمنت كلمة الشهادة السلب والايجاب. وقد قيل في هذا الكفاية.

٤ ـ يعترض الأخ المعلق على القول بأن التوحيد تصور عام للحقيقة كلها ولم يأت بدليل.

أنّى له أن يأتي بشيء واحد لا يمت اليه التوحيد بصلة ما. فالتوحيد هو التأكيد بأن الله خالق ومقدر وعالم لكل شيء سبحانه.

٥ ـ اعترض الأخ المعلق على اصطلاح « عالم الله » لكنه لم يأت بجديد. وقد قيل في هذا الموضوع الكفاية.

٦ ـ يعترض الأخ المعلق أنه « لا يقال بالانفصال اذا لم يحصل اتصال من قبل حتى يكون الانفصال ».

اذا وصف النار والماء بأنهما منفصلتان، لا صلة تربط بينهما قط، فهل هذا يفترض أنهما كانتا في يوم سابق متصلتين، أو شيئاً واحداً ؟ وبالطبع فأنا لا أتفق والأخ المعلق في منطلقه هذا.

٧ ـ اعتراضاً على القول بأن لا صلة بين الخالق والإنسان إلا بقوة العقل، يقول الأخ المعلق بأن هنالك صلة قائمة بينهما هي صلة الخلق.

ليس الخلق موضوعاً للحديث هنا. انما الموضوع هو تأكيد استحالة الصلة المكونة أو الوجودية، أي الصلة التي تلزم أن يصبح المتصل به في وجه من الوجوه، فتكون النتيجة تأليه الإنسان أو أنسنة الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٨ ـ اعترض الأخ المعلق على تسمية سنن الله بإرادة الله محتجاً بأن السنن أعم من الارادة.

والعكس في رأيي هو الصحيح. فما من سنة في الكون إلا أرادها الخالق. وقال ان الارادة الإلهية نافذة، أراد الخلق أم أبوا.

فات الأخ المعلق أن المقصود هو السؤال : لماذا وجد الخلق ؟ طالما أن الخلق ليس أزلياً فلا بد أنه خلق لغاية أو استمر لغاية خارجة عنه. والخارج عن الخلق هو الله وحده.فكل ما عداه مخلوق. فغاية الخلق هي تحقيق هذه الغاية. ولا غاية إلا بإرادة الله.

١٠ ـ كلام الأخ المعلق هنا مرادف لما قاله المحاضر. أما قوله بعدم صحة القول بالتفاضل بين القيم الاخلاقية والنفعية فهو لم يدعمه بدليل.

١١ ـ يقول الأخ المعلق : إن المحاضر قال : إن التوحيد ليس من عند الله، وهذا ليس صحيحاً، بل هو عكس ما قاله المحاضر وهو أن التوحيد من عند الله، وأن الحضارة الإسلامية ليست من عند الله. ذلك أن الحضارة تطبيق للجوهر الذي هو التوحيد. ومن جهة أخرى، تشمل الحضارة أشياء كثيرة ووسائل وآلات وطرق عمل (تكنولوجيا) لا يجوز نسبتها إلى الله تعالى وما أبعد كل هذا عن قول المستشرقين. فالمعلق لا يعرفهم وان قرأ فهو ما ترجم وهو جد قليل.

ولم يقل المحاضر إن الله سبحانه « أخذ موادها من الحضارات القديمة وصهرها ». انما هو المسلم الموحد الذي أخرج الحضارة في ظل ما أنزل الله، وتحقيقاً لأمره وتوجيهه، واتباعاً لاسوة رسوله الكريم ﷺ. فكان التوحيد المبدأ الأول والمعيار الأخير الذي أقيمت الحضارة الإسلامية عليه.

ولم يقل المحاضر بأن الشريعة ليست من عند الله. فهذا استنتاج غير دقيق من الأخ المعلق. اذ ليست الشريعة هي الحضارة، انما الشريعة موجهة المسلم في بناء حضارته.

إن ما تعنيه كلمة الحضارة شيء ينمو ويقوى ويضعف ويتقدم ويتأخر. وهو مرتبط بالتاريخ وعجلته. تقوى الحضارة على هضم أشياء غريبة عنها، كما هضمت الحضارة الإسلامية المروءة والثقافة العربية، والعلوم الاغريقية، والفارسيية والهندية، وطبعتها جميعاً بطابعها الإسلامي.

الجوهر لا يضاف اليه شيء. هو المبدأ الذي بموجبه تجري الاضافة ويجري الصهر والتخريج الجديد. ولو تغير الجوهر لتغيرت الحضارة بالضرورة.

ان الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرها المعلق كلها تتحدث عن الوحي المنزل، لا عن الحضارة، موضوع البحث.

لم يقل المحاضر « إن الحضارة الإسلامية مقتبسة من الحضارات القديمة »، إنما قال إن موادها مقتبسة من الحضارة العربية والحضارات القديمة الأخرى.

١٢ ـ ليس في تعليق الأخ المعلق ما يحتاج إلى جواب. اذ لا تكون ممارسة السعة على حساب الشريعة الإسلامية. وان خالفت الشريعة فهي غير مقبولة.

١٣ ـ اتهم الأخ المعلق المحاضر بأنه قال ان الديانات كلها واحدة أصلاً وتفصيلاً.

هذه التهمة غير صحيحة. وهي تتنافى مع ما قاله المحاضر. اذ قال إن أصل الديانات واحد، ومظاهرها في التاريخ شتى. فالأصل من عند الله، والمظاهر من عند البشر. وليس من المسؤولية قط أن يحمل المعلق كلام المحاضر محمل « وثالثة إسلامية ».

كذلك ، لم يقل المحاضر بأن أفعال العباد من حيث أدائها من صنع الله تعالى، ولا أن مسؤوليتها تقع على الله بدل أن تقع على فاعليها، انما المراد هو أن كل ما يحدث في الدنيا يحدث بعلم الله وقضائه وقدره وترتيبه،

فلا يفوته منها شيء. وهذا تفريق لناحيتين أو ظاهرتين في فعل الإنسان، ناحية الاداء وكسب الثواب والعقاب. وهي من فعل الإنسان. ثم ناحية الوجود والكيان والحدوث المادي، أي الخلق والتقدير، فهي من صنع الله تعالى.

١٥ ـ واعترض الأخ المعلق على قول المحاضر بأن التوحيد مبدأ جمالي.

إلا أنه، في اعتراضه هذا فيما يبدو قد خلط بين ما ذكره المحاضر عن الفن الإسلامي لينفيه، وما ذكره ليؤكده ويثبته. فالفن الذي يرى في الأشياء جوهراً ما ورائياً يحاول تصويره وابرازه هو الفن الغربي لا الفن الإسلامي. ولهذا السبب بالذات، قال المحاضر إن الفن الغربي يجر إلى الالحاد أو ينطوي عليه. ولهذا أيضاً ابتعد الفن الإسلامي عن التشكيل والتصوير والدراما. إلا أن المعلق فيما يبدو لم يتبين ما قيل عن الفن أنه له أو عليه.

وأخيـــراً :

إذا استثنينا تعليقات الدكتور جعفر شيخ ادريس التي جاءت في مادة الموضوع، فان فحوى التعليقات الأخرى تتعلق في جوهرها باللغويات. حتى ما كان منها مناف لما قاله المحاضر أو بعيداً عن ذلك نصاً أو مقصداً، وذلك فيما أرى مرده إلى عدم اتضاح ما قاله المحاضر في الغالب عند الأخوة المعلقين.

فما القول في هذه المصاعب اللغوية.

انها تبدو لغوية، ولكن ذلك في مظهرها فقط. فما معنى ان يقرأ عالم أو مثقف من علمائنا ومثقفينا بحثاً باللغة العربية فتأتي جميع الملاحظات على البحث، اما اعتراضات على اللغة، أو اعتراضات سببتها لغة البحث ؟.

الجواب هو أن هذه المصاعب، ان دلت على شيء فهي تدل على عدم ممارستنا في العصور المتأخرة للتفكر بالعمق ـ الواجب ـ أمور ديننا وحضارتنا في ضوء تحديات العصر ومشكلاته ومعطياته ـ فيما أرى ـ حديث في مخاطبة بعضنا البعض في مواضيع الفكر الإسلامي. فكم مجلة في العالم الإسلامي كله تعالج الفكر الإسلامي على مستوى علمي مناسب ؟ وكم قراؤها ؟ لعل هذا هو النقص المعيب.

لا أكن للاخوة الذين تفضلوا بالتعليق على هذه المحاضرة إلا الاحترام والتقدير والاخوة والمحبة. فهم اكرموني بانتقاداتهم، وزادوا في علمي وحكمتي باقتراحاتهم وتوصياتهم.. جزاهم الله عني خير الجزاء.. ووفقهم واياي إلى طاعته ورفع كلمته، انه سميع مجيب..

أعز الله الإسلام ديناً، وهيأ لأمته من أمرها رشداً، وأيدها بنصره وفتحه..

د. اسماعيل راجي الفاروقي
أستاذ الإسلاميات وتاريخ الأديان

القرآن والعلم الحديث

للدكتور موريس بوكاي

بسم الله الرحمن الرحيم

في التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٦م قدمت بـ « أكاديمية الطب » عرضاً غير اعتيادي تحت عنوان : « معطيات الفسيولوجية والامبريولوجية (علم الأجنة) في القرآن »، والسبب في تقديمي لهذا العرض وهذه الدراسة هو احتواء القرآن على مفاهيم تتعلق بالفسيولوجيا وبالتناسل. والسبب في ذلك أيضاً أن المعارف الحالية تجعل من المستحيل شرح الكيفية التي استطاع نص القرآن في عصر نزوله أن يحتوي على مفاهيم لم يحظ البشر باكتشافها سوى في العصور الحديثة.

ولأول مرة حدثت أعضاء جمعية علمية طبية عن مواضيع مألوفة لديهم، وكان في إمكاني أن ألفت انتباه أهل الاختصاص في فروع علمية أخرى إلى بيانات لها طابع علمي من نسق آخر موجودة في القرآن. إن علماء تاريخ الأرض وعلماء طبقاتها (الجيولوجيين) والمختصين في علم الحيوان والنبات هم ـ فعلاً ـ مندهشون جداً مثل اندهاش الأطباء لوجود أفكار في القرآن تتعلق بظواهر طبيعية تثير الدهشة. والسبب في ذلك أن المعرفة العميقة بتاريخ العلم تجعلنا نحكم على أنها تجد للتفسير البشري.

هل يوجد كتاب قبل العصر الحديث يحتوي على أحكام مجانسة لأحكام القرآن ومتقدمة على مستوى العلم مثل كتاب القرآن حتى يقارن به ؟

هذه المفاهيم هي معارف حديثة. ولم أجد في شروح تراجم القرآن باللغات الافرنجية سوى إشارات غامضة هنا وهنا بالنسبة إلى هذه الأحداث. ومن جهة أخرى، ان تفاسير القرآن المؤلفة باللغة العربية لم تقدم دراسة أكثر كما لجميع وجهات القرآن التي تلفت أنظار رجال العلم الحديث والاختصاصيين منهم. وبناء على ما تقدم يبدو لي أن فكرة الدراسة الشاملة للمسألة ضرورية.

وأكثر من ذلك فقد بدت بي الرغبة في القيام بفحص مقارن بين معطيات القرآن وبين معطيات من هذا النوع نفسه مأخوذة في التوراة والانجيل. وهكذا فقد تكوَّن لديَّ مشروع المقابلة والمقارنة بين المعارف الحديثة وبين بعض الفقرات من الكتب المقدسة للأديان الثلاثة الموحدة.

وقد نتج عن هذه المقابلة والمقارنة تأليف كتاب بعنوان : « القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم »، وقد تم نشر الطبعة الأولى لهذا الكتاب في شهر مايو سنة ١٩٧٦م.

هناك طبعات عديدة لترجمة هذا الكتاب باللغات الانجليزية واليوغسلافية والاندونيسية، وهناك ترجمات تحت الطبع باللغات التركية والأوروبية والفارسية وعدة لغات أخرى. وبالنسبة للترجمة العربية فإني أود أن أشير هنا أن دار المعارف بمصر هي الناشر الوحيد الذي سمحت له بإصدار ترجمة للكتاب، وهذه الترجمة هي في سبيل الاعداد، أما الترجمة التي صدرت في لبنان مؤخراً فليس لدي علم عنها، ولا أوافق مطلقاً عليها لأن فيهافقرات لا تؤدي نفس المعنى، وترجمة سيئة للغاية.

ولعل أحسن شيء يصور هذه العلاقات الوطيدة بين الإسلام وبين العلم هو حديث الرسول ﷺ : « اطلب العلم ولو في الصين »، فهذا الحديث عبارة عن دعوة ملحة للإنسان من أجل تنمية معارفه وإثرائها.

إذن فكيف نستغرب اعتبار الدين الإسلامي والعلم دوماً شقيقين توأمين ؟ وفي أيامنا هذه قد حاز العلم تقدماً كبيراً قد جعل الناس يعتبرون العلم شريكاً للإسلام في المدلول، وليس هذا فحسب بل أصبحوا يستعملون بعض معطيات العلم لفهم النص القرآني. وبالإضافة إلى ذلك ففي القرن

العشرين، حيث يرى البعض أن العلم الحديث قد أعطى الضربة القاضية للمعتقدات الدينية، تبرز الاكتشافات العلمية الحديثة الطابع الغيبي لبعض مظاهر الوحي الإسلامي بعد فحصه فحصاً موضوعياً. وإذا نحن فهمنا بالحقيقة على المستوى العام تبدو لنا المعرفة العلمية، مهما قيل فيها مساعدة جداً لتوجيه الفكر في بحثه عن وجود الله. وإذا نحن تساءلنا بدون تعصب وبدون أفكار مسبقة عن العلوم الميتافيزيقية الناجمة عن بعض المعارف العصرية، مثل علم المتناهي في الصغر ومشكلة الحياة، فما هو الصواب الذي نجده في توجيه التفكير في هذا المنحى عن ذلك ؟ وحينما نأخذ بعين الاعتبار التنظيم العجيب الذي يدير نشأة الحياة وصونها.. أليس اذن أن المصادفة تبدو أنها تلعب دوراً أقل احتمالاً كلما تقدمت معارفنا ؟ أليست بعض الأفكار المؤيدة للمصادفة تبدو أقل قبولاً : مثل أفكار العالم الفرنسي الحائز على « جائزة نوبل » في الطب، والذي حاول أن يجعل إمكان خلق المادة الحيوية نفسها بوساطة مصادفة موافقة انطلاقاً من عناصر كيماوية بسيطة، وتحت مؤثرات خارجية، وبمثل هذا تنشأ كائنات حية لتتطور فيما بعد وتصل إلى المركب العجيب الذي هو الإنسان. ويبدو لي أن التقدم العلمي المختص بالتركيب المعقد العجيب للمخلوقات السامية هو حجة على فرضية مضادة تقول : إن هناك نظاماً محكماً خارقاً للعادة يدير ظاهرة الحياة ويرعاها.

وفي آيات كثيرة يحثنا القرآن بعبارات سهلة على الفهم وشاملة لهذا الموضوع، ويحتوي القرآن أيضاً على معطيات دقيقة جداً لها علاقة وثيقة بالنتائج التي توصل إليها العلم الحديث، وهذه المعطيات هي التي تسترعي انتباه العلماء في عصرنا هذا بشدة.

وفي حقيقة الأمر.. ان الناس قد وجدوا أنفسهم عاجزين عن دراستها أثناء عدة قرون بسبب وجود نقص في التطور العلمي وهذا الذي جعل كثيراً من الآيات القرآنية المتطرقة إلى مواضيع تتعلق بالظواهر الطبيعية غير مفهومة المدلول سوى في عصرنا هذا فقط. وإذا قرأنا كتب التفسير ــ على الرغم من تبحر مؤلفيها في العلم ــ نجد شروح أصحابها تبرهن على فهم وإدراك لمعاني هذه الآيات. بل أقول : إن تفرع العلم في القرن العشرين إلى ميادين

مختلفة، بعضها مفصول عن بعض، وبعضها منعزل عن بعض، ثم نموه السريع لا يسمحان لكل عالم، غير اختصاصي، أن يفهم كل ما يقرؤه في القرآن بالنسبة إلى مفاهيم هذه المواضيع دون أن يقوم بأبحاث خاصة. ويعني هذا أنه من أجل فهم جميع هذه الآيات القرآنية يجب أن نملك في عصرنا معارف موسوعية بحق.. أعني بذلك معارف تشمل عدة فنون وفروع علمية.

والتزم هنا بتحديد معنى لفظة « علم » التي أقصد بها المعارف التي قد تم البرهان عليها والتي لا يمكن الرجوع فيها أو في جوهرها على الأقل، وليس العلم هو النظريات التي قد تصلح في عصر لشرح ظاهرة أو مجموعة من الظواهر، ثم لا تلبث أن تهمل لظهور شروح أخرى أكثر احتمالاً بسبب التقدم العلمي.

وبناء على هذا فإنني لا أقوم سوى بإجراء مقارنات ومقابلات بين البيانات القرآنية وبين المكتسبات العلمية التي لا يمكن الرجوع فيها في المستقبل. ثم إنني لا أنسى أن أشير إلى الشأن إذا وجدت هناك اكتشافات ووقائع علمية لم يتم البت فيها أو اقرارها بعد.

ويوجد في القرآن ـ أيضاً ـ النادر من البيانات التي لا يزال العلم الحديث جاهلاً إياها ولم يقدم على إقرارها أو البت فيها. ومهما كان من أمر فإني لا أنسى أن أشير إلى أن كل شيء يدفع بعلماء الاختصاص في هذا العصر إلى غاية الاحتمال، ان القرآن يؤكد مثلاً أن الماء هو الأصل في الحياة، كما يؤكد وجود أراض مماثلة لأرضنا في الكون.

فهذه الاعتبارات العلمية لا يجوز لها أن تنسينا كون القرآن باقياً كتاباً دينياً في غاية السمو، ونحن مهما دققنا النظر فلا نلغي له أي هدف علمي مادي، والدعوات الموجهة فيه للإنسان والتي تحثه على التأمل في صنيع الله وفي الظواهر الطبيعية التي في متناول عقله.. كلها تهدف إلى التأكيد بالأمثلة على القدرة الالهية. فاذا وجدنا في هذه التبصرات والتأملات اشارات لوقائع علمية فذلك هبة من الله، تلك الهبة التي تبرز قيمتها في عصر تحاول فيه المادية الزنديقية ذات قاعدة علمية أن تفرض نفسها على حساب الايمان

بالله. بيد أن القرآن في غنى عن خصوصيات من هذا النوع ليفرض نفسه. وذلك أن البيانات القرآنية تعبير عن ميزة خاصة بالقرآن فقط. اذ هي موجودة في الوحي الإسلامي ومفقودة في التوراة والانجيل.

وقد كان اهتمامي الثابت على مدى أبحاثي هو الموضوعية، وفي اعتقادي انني تناولت دراسة القرآن والعلم كما يتناول الطبيب ملف المريض مقابلاً كل الدلائل التي يمكن جمعها من أجل تشخيص الداء. وأولاً وقبل كل شيء أعترف بأن الايمان بالدين الإسلامي ليس هو الذي سدد خطاي في البداية وإنما البحث عن الحقيقة التي اعبر عنها اليوم كما تبدو لي ظاهرة ان الوقائع هي الأساس والجوهر الذي جعلني انظر إلى القرآن ككتاب منزل من عند الله. وقبل أن أقدم ما هو أساسي فيه فمن الضروري أنِ أذكر نقطة هامة وهي صحة النص القرآني من التحريف.

ان القـرآن قد كان فعلاً يحفظ عن ظهر قلب تبعاً لنزول الوحي على الرسول ﷺ، والمؤمنون آنذاك حوله بما فيهم كتّاب من خاصة الرسول يثبتون القرآن كتابة خلال عشرين سنة بالتقريب. وقد نسخت عدة نسخ في عهد خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وتولى عثمان الخلافة بين السنة الثانية عشر وبين السنة الرابعة والعشرين بعد وفاة الرسول، اختيرت نسخة واحدة ووزعت في البلدان والأمصار التي انتشر فيها الإسلام. والنقطة الأساسية التي تسترعي الانتباه هنا توجد في انجاز التحقيق الذي يتعلق بصحة النص القرآني. وأعظم فائدة في إنجاز هذا التحقيق هي وجود هذه التلاوة، فيا لها من تلاوة.. كم كانت ثمينة في عصر لا يكتب كل الناس فيه.. وإنما يحفظون عن ظهر قلب.

إن الاهتمام بالحفظ بوساطة الكتابة مذكور في القرآن، مذكور في الآيات الخمس الأولى من سورة « العلق » التي تبين بدقة بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ بتعبير واضح.. « اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. اقرأ وربكِ الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ».. أليس هذا ــ هنا ــ ثناء على القلم الذي هو وسيلة يحصل بها الإنسان على العلم، على حد تعبير الأستاذ حميد الله في ترجمته بالفرنسية للقرآن.

وقد ذكرت في كتابي آيات من القرآن وعلى الخصوص من السور المكية التي تشير إلى بداية كتابة القرآن قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

وفضلاً عن ذلك فإن الدلائل والشهادات على الكتابة المباشرة للقرآن كثيرة.

وقد بدا لي أن موضوع الخلق يستحق المرتبة الأولى بسبب مقابلة الآيات الواردة في ذلك مع الأفكار العامة التي لدينا عن تكوين الكون في أيامنا هذه، ثم بعد ذلك رتبت الآيات في المواضيع العامة التالية : علم الفلك، الأرض، عالم الحيوان والنباتات، الإنسان ولا سيما الموضوع المتعلق بالتناسل الإنساني الذي أعطى له القرآن الدرجة الأولى من حيث الاهتمام، ويمكن أن تتفرع عن هذه المواضيع العامة فروع ثانوية، كالتربية الجنسية في موضوع التناسل الانساني على سبيل المثال.

ثم من جهة أخرى فقد بدا لي أن من الفائدة بمكان اقامة مقارنات على ضوء المعارف الحديثة بين قصص القرآن وبين قصص التوراة والانجيل فيما يخص مواضيع مثل الخلق والطوفان وخروج موسى (عليه السلام) من مصر. وفي كل هذه المواضيع أستطيع أن أستعين على تفسير النصوص بالمعلومات المكتسبة في عصرنا.

واذا تأملنا أولاً وقبل كل شيء في موضوع الخلق كما يحدثنا عنه القرآن، فسنتأكد من أن فكرة عامة ذات أهمية قصوى تستخلص منه. تلك الفكرة هي التباين بين الرواية القرآنية وبين الرواية التوراتية. وهذا يناقض العرض المقارن الذي قد قام به بعض الكتّاب الأوربيين الذين حاولوا ابراز التشابه بين النصين، مؤكدين على التشابه، مغفلين التباين البديهي، هذا الذي لا يعكس نور الحقيقة. ولعل الموقف المقصود يحتاج إلى تفسير وبيان.

وفي الغالب يدعي الغربيون في موضوع الخلق، وفي موضوعات أخرى أيضاً، أن محمداً ﷺ لم يقم سوى بنقل الخطوط العريضة للتوراة والانجيل في القرآن. نعم لا شك في أن الأيام الستة التوراتية التي خلق الله

فيها الكون، والتي أضيف اليها يوم سابع هو يوم الراحة السبتية للاله، هي في استطاعتنا أن نقربها من آية سورة « الأعراف » :

« ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ».

لكن يجب في الحال أن نلاحظ أن المفسرين في العصر الحديث يؤكدون على تفسير اليوم بحقب أو مدة طويلة من الزمان، وليس هو بمعنى الفترة الزمانية المساوية لأربع وعشرين ساعة.

ان الذي يبدو لي أساساً أن القرآن لم يحدد الترتيب الزمني في خلق السموات والأرض خلافاً للرواية التوراتية. فالقرآن يذكر خلق السموات قبل الأرض، كما يذكر خلق الأرض قبل السموات، دون أن يجعل الأول سابقاً على الثاني أو العكس، فهو يؤكد فقط على الخلق العام في بعض الآيات مثل الآية التالية في سورة « طـه » : « تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى ».

والواقع أنه يفهم من القرآن أن خلق السموات والأرض كان متوافقاً ولا سيما فيما يتعلق بالمعطيات الأساسية، وهي وجود كتلة غازية أولى (دخان)، وحيدة ملتحمة عناصرها (رتقاً)، ثم تفرقت (فتقاً) بعد ذلك، كما هو معبّر عنه في سورة « فصلت » (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) وكذلك في سورة « الأنبياء » : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما). وهذا التطور من حيث انفصال العناصر الأولى أدى إلى تكوين عوالم عديدة. وقد جاءت لفظة العالمين (العوالم) مكررة عشرات المرات في القرآن بعد أن ذكرت في سورة « الفاتحة » (الحمد لله رب العالمين).

فكل هذا يطابق تماماً المفاهيم الحديثة القائلة بوجود السديم الأولي، ثم بوجود انفصال للعناصر المكونة لهذه الكتلة بحيث أدى هذا الانفصال إلى تكوين مجرات، وبانقسام هذه الأخيرة تكونت نجوم، ومن النجوم تكونت كواكب.

وقد ذكر القرآن أيضاً خلق مادة متوسطة بين السماء والأرض، جاء في سورة « الفرقان » : (الذي خلق السموات والأرض وما بينهما).

فهذه المادة المتوسطة تطابق على ما يبدو تلك الجسور المادية المكتشفة حديثاً خارج الأجرام الفلكية المنظمة.

إن الاتفاقات والمطابقات لتجعلنا نلمح الارتباط بين البيانات القرآنية وبين المعطيات العلمية الحديثة. وهنا نجد أنفسنا بعيدين جداً عن نص التوراة بمراحلها وأطوارها المتتالية التي هي غير مقبولة منطقياً، ولا سيما تلك المرحلة التي تجعل خلق الأرض (في اليوم الثالث)، فكيف اذن يمكننا أن نفهم من خلال هذه الأحوال والأدلة أن رجلاً مثل محمد ﷺ استطاع أن يستوحي من التوراة والانجيل تأليف القرآن، وأن يصحح بنفسه نصّي التوراة والانجيل ليتوصل بهذا التصحيح إلى نظرية عامة عن تكوين الكون الذي لم يتمكن العلم من وصفه إلا بعد قرون عديدة من بعده ؟.

ولننظر الآن فيما يتعلق بعلم الفلك..

فعندما أذكر أمام الغربيين بالدقة المدهشة التي يختص بها القرآن في بعض المسائل العلمية، ولا سيما علم الفلك، أجد من النادر جداً أن يسلموا بذلك وان لا يرد عليّ أحدهم بأن ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة، لأن العرب قد قاموا تأكيداً باكتشافات هامة قبل الأوربيين.

فيا له من خطأ فادح ناتج عن الجهل بالتاريخ، ان تطور العلم عند العرب قد كان بعد نزول القرآن، وان المعارف العلمية ابان تلك الحقبة الكبيرة للحضارة الإسلامية الزاهرة لم تسمح لأي انسان أن يكتب عن السماء بيانات مماثلة لتلك التي في القرآن.

ربما أن الموضوع طويل هنا فلا يسعني أن أعطي عنه سوى لمحة.

فعندما تتحدث التوراة عن الشمس والقمر كمصباحين، وتفرق بينهما بكبر الحجم، فان القرآن يميز بينهما بالنعوت : فالنور للقمر، والسراج للشمس، والأول جرم خامد يعكس نور الشمس، والثاني جرم سماوي في احتراق مستمر منتج للحرارة والنور.

فالنجم متبوع بصفة تحدد بدقة أنه يشتعل ويحترق، وهو مخترق لظلمات الليل، وقد عبّر القرآن عن ذلك بالنجم الثاقب.

والكواكب في القرآن اسم يطلق على الاجرام السماوية السيّارة التي تعكس النور ولا تنتجه مثلما تنتجه الشمس. وان النظام السماوي، كما نعلم في أيامنا هذه، هو في حالة توازنية بفضل وضع الكواكب في مدارات محددة بفضل القوى المركزية الطاردة المتناسبة مع الكتل وسرعة التنقل، فكل كوكب له حركة خاصة، وفي هذا الصدد.. ذكر القرآن سند هذا التوازن في كلمات قد أصبحت واضحة الدلالة في أيامنا هذه، جاء في سورة الأنبياء - مثلاً - (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر، كل في فلك يسبحون).

فالكلمة العربية المشيرة إلى التنقل هذا هي فعل « سبح »، فلفظة « يسبحون » في النص القرآني تعبّر عن حركة ذاتية لكل جسم متحرك سواء كان ذلك تنقلاً على الأرض بوساطة حركات الأقدام مثلاً، أو تنقلاً في الماء بواسطة حركات السباحة بالنسبة إلى الاجرام السماوية فلا بد لنا من تفسير لفظة « سبح » بمعناها الحقيقي الاصلي.. وهو التنقل بحركة ذاتية.

لقد قدمت في كتابي الموافقات الدقيقة مع المعطيات الحديثة المعروفة جيداً بالنسبة إلى القمر.. وهي أقل انتشاراً بالنسبة إلى الشمس، بيد أنها حقيقة بالنسبة إلى الشمس أيضاً.

ان شأن تعاقب الليل والنهار هو في حد ذاته حدث عادي لو لم يعبّر عنه القرآن بلفظة لها دلالة في غاية الأهمية في عصرنا هذا. وقد وردت هذه اللفظة في سورة « الزمر »، وهي فعل « كوّر » الدال على التفاف الليل حول النهار والتفاف النهار حول الليل، كالتفاف العمامة حول الرأس. ان الناس لم يكونوا زمان نزول القرآن يملكون عمليات فلكية تسمح لهم أن يأتوا بمثل هذا التشبيه والمقارنة عن طريق العدل المطلق.

ان تطور العالم السماوي وفكرة استقرار الشمس قد ذكرهما القرآن أيضاً، ومدلول هذا الذكر مطابق لمفهوم العلوم الحديثة بالتدقيق، ويبدو أن القرآن أخبر كذلك عن توسع الكون.

وأخبر عن غزو الفضاء المنجز في أيامنا هذه.. بارسال رجال قد نزلوا على سطح القمر، قد تم هذا بفضل تكنولوجيا عجيبة. وكيف لا نفكر في

ذلك عندما نقرأ هذه الآية من سورة « الرحمن » : (يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان)، أي بقدرة من عند الله، وموضوع السورة كلها دعوة إلى الاعتراف بنعم الله.

ومن الفضاء ننتقل إلى الأرض في شأن ما يخص كوكبنا من البيانات الكثيرة المتعلقة بالظواهر الطبيعية المنتشرة فيها، وفي بعض الجزئيات الخاصة بالأحياء التي تعمرها.

ومن خلال كل ما قمنا بعرضه تيقّنا.. ان القرآن لم يجئنا بمفاهيم متقدمة على تلك التي كانت سائدة في زمان نزول الوحي فحسب، بل كذلك لم تكن هذه المفاهيم مختلطة بعبارات الأفكار المخطئة التي كانت منتشرة في ذلك العصر المملوءة بالخرافات والأساطير، ونتيجة لذلك فنحن ملزمون أن نضع في طريقنا هذا السؤال : كيف استطاع رجل مثل محمد ﷺ أن يطرق مواضيع كثيرة ومتنوعة في عصر مملوء بالغموض العلمي، وكيف استطاع بارادته الصارمة أن يوحد جميع الاعتقادات الفاسدة في عصره، تلك الاعتقادات قد دلت على خطئها القرون المتأخرة ؟.

ان الآيات المتعلقة بالأرض لتعرض علينا مواضيع للتأمل والتدبر. وقد سردت الكثير منها في كتابي، واقتطفت منها هنا الآيات التي تعرضت لدورة الماء في الطبيعة، وهذه الدورة معروفة جيداً في عصرنا، والآيات القرآنية التي تعالج هذا الموضوع تبدو لنا أنها تعبّر عن أفكار بديهية تماماً، ولكن اذا أخذنا بعين الاعتبار النظريات القديمة أدركنا أنها مطبوعة بطابع الاساطير والتخمين الفلسفي أكثر من طابع معطيات الملاحظة.. رغم كون ذلك العصر يحتوي على معارف تطبيقية مفيدة لري الأراضي.

ولنأخذ على سبيل المثال هذه الآية من سورة « الزمر ».. (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه)، فمثل هذه النظريات تبدو لنا اليوم طبيعية، ولكنها في القديم لم تكن جارية اذ كان الناس ملزمين أن ينتظروا « بيرنار باليسي » في القرن السادس عشر ليخرج لهم أول شرح صحيح عن دورة الماء في الطبيعة. وقد كان

الناس قديماً يتحدثون عن اندفاع المياه الاقيانوسية تحت تأثير الرياح إلى جوف القارات ورجوعها إلى الاقينوس عن طريق لجة كانت تسمى منذ عهد افلاطون بـ « التاتار »، وفي القرن السابع عشر كان يؤمن بذلك منكر كبير مثل « ديكارت »، وحتى في القرن التاسع عشر لم ينفك الناس مولعين بنظرية « ارسطو » التي تفيد أن الماء يتكثف في فجوات باردة بالجبال ويكوّنُ بحيرات تحت الأرض تغذي الينابيع. ونحن نعلم اليوم أن تسرب مياه الأمطار هو الذي يغذي الينابيع. وعلينا أن نقارن بين معطيات علم « الهيدرولوجيا » الحديث وبين الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، فنتحقق من التطابق الملحوظ بين الاثنين.

وفي علم الجيولوجيا ان ظاهرة الثني والانحناء في أصل تكوين الجبال هي معروفة مكتسبة في العصر الحديث، وكذلك معرفة القشرة الأرضية التي هي عبارة عن طبقة صلبة يمكن للإنسان أن يعيش فوقها، وتحتها طبقات حارة سائلة غير صالحة لكل أنواع الحياة. ومن جهة أخرى، اننا الآن نعرف أن استقرار الجبال له علاقة بظاهرة الثني التي تساعد على غرز التضاريس في الأرض.

ولنقابل هذه المفاهيم الحديثة بآية من الآيات القرآنية التي تتعرض للموضوع نفسه، جاء في سورة « النبأ » : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً).. فالأوتاد المغروزة في الأرض مثل التي تثبت الخيمة وهي المداميك العميقة للثنيات الجيولوجية.

وهنا كما في مواضيع أخرى أكيداً نكتشف عدم التنافر بين ما نعرفه في العلم الحديث وبين هذه الآية، وهذا من شأنه أن يلفت انتباه كل ذي فكر موضوعي.

ولعل البيانات القرآنية المتعلقة بعالم الحيوان والنبات هي التي جذبت انتباهي عند دراستي للقرآن أول وهلة ولا سيما تلك الدراسة المتعلقة بالتناسل. ان هذه المواضيع تستحق وتستوجب عروضاً طويلة.. ولكن ليس في وسعي هنا سوى تقديم بعض الأمثلة.

وألح مرة أخرى أن معاني بعض هذه الآيات القرآنية لم تصبح واضحة

سوى في العصر الحديث، والفضل في ذلك يعود إلى التقدم العلمي. إن كثيراً من التفاسير والترجمات القرآنية قد رفضها المحققون من العلماء. والسبب في ذلك أن هذا العمل قد قام به أدباء لا يملكون معارف علمية كافية. إن هذه التفاسير قد فسرت تفسيراً ناقصاً، وإن هذه الترجمات قد ترجمت ترجمة معيبة. فكل منها قد قدم للقراء في ثوب معناه الظاهري، ليكون سهل الإدراك في الغالب لكن المعنى الحقيقي مغلوط فيه، وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

وتوجد آيات أخرى أقل صعوبة من حيث ادراك معناها، وانما تحتوي على معان رفيعة جداً فيما يتعلق بعلم الاحياء (البيولوجيا)، كما ورد ذلك في سورة « الأنبياء » التي سبق أن سردناها جزئياً : (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) ؟ فهذه الآية تؤكد نظرية حديثة عن الأصل المائي للحياة.

ان التطور في علم النبات لم يكن متقدماً زمان محمد ﷺ في جميع الأقطار، ولم تكن معارف الناس بالنباتات هناك تمكنهم من تقرير قاعدة تسمح لهم بالاطلاع على وجود عناصر ذكرية وأنثوية في أنواع النباتات. ورغم هذا ففي امكاننا أن نقرأ في سورة « طه » ما يشير إلى ذلك : (وأنزل من السماء ماء، فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى).

ومن المعروف في أيامنا هذه أن كل ثمرة أصلها من نباتات مختلفة الأجناس بما في ذلك ثمرات الازهار غير الخصبة (الملقحة)، إلى هذا تشير آية سورة « الرعد » : (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين). ان البيانات في التناسل داخل عالم الحيوان هي بذاتها البيانات الخاصة بالإنسان وسنتعرض لها عن قريب.

وفي ميدان الفيزيولوجيا تبدو لي هناك آية في غاية الدلالة على المعنى المراد، ذلك أنه بألف سنة قبل اكتشاف الدورة الدموية بثلاثة عشر قرناً بالتقريب قبل أن نعرف ما يجري في الأمعاء لتغذية الجسم عامة عن طريق الامتصاص الهضمي، قبل ذلك كله تحدثنا آية قرآنية عن أصول مكونات لبن الحيوان ابتداء من هذه المفاهيم.

ومن أجل فهم هذه الآية يجب أن نعرف أن الأمعاء هي محل التفاعلات الكيماوية، ومن هنا تنفذ المواد الغذائية الناتجة عن هضم الغذاء من خلال الجدار المعوي إلى السيل الدموي الذي يسوقها في مجار معقدة بعد مروره بالكبد أو عدم مروره، وذلك حسب التركيب الكيمياوي للمواد الغذائية التي تنقل بواسطة الدم إلى مختلف الأعضاء ومنها الغدد الثديية المنتجة للبن.

ولكي نكون ذوي تخطيط جيد يجدر بنا أن لا نتفوه إلا بما هو واضح. إن المواد المغذية المتكونة في الأمعاء تنفذ إلى الأوعية الدموية في جدار الأمعاء ثم تنقل تلك المواد في هذه الأوعية عن طريق الدم إلى الأعضاء المختلفة.

ولا بد لنا من امتلاك هذه المعلومات حتى نتمكن من فهم آية قرآنية قد أعطى الناس خلال عدة قرون بشروح مبهمة صعبة الفهم، نتصور ذلك بدون صعوبة في أيامنا هذه، والآية موجودة في سورة « النحل » هذا نصها :

(وإن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين).

إن موضوع التناسل الإنساني في القرآن قد فتح بعدة بيانات تتحدى كل امبريولوجي أن يجد تفسيراً إنسانياً لها. والسبب في ذلك أنه ليس في الإمكان أن توجد معطيات من هذا القبيل لم يتمكن البشر من معرفتها إلا بعد ظهور العلوم الأساسية التي جاءت بمعطيات جديدة لعلم البيولوجيا، ولا سيما اكتشاف الميكروسكوب (المجهر)، ولا شيء يجعلنا نعتقد أن البشر الذين وجدوا في القرون الوسطى وفي الجزيرة العربية بالذات كانوا أغزر علماً من الذين وجدوا بأوروبا أو بالأقطار الأخرى فيما يخص هذا الموضوع. لقد عرف اليوم كثير من المسلمين، الذين لهم معرفة راسخة بالقرآن والذين قد تشبعوا بدراسة العلوم الطبيعية، كيف يقربون هذه الآيات المتعلقة بالتناسل من العلوم الحديثة.

وإذا توسعت في جزئيات النصوص القرآنية المتعلقة بالتناسل بقدر ما يستحق الموضوع ذلك فإنني سأتعدى الوقت المحدد لي والمخصص

لمحاضراتي، وأرجو أن أكون قد قدمت في كتابي شروحاً لغوية وعلمية كافية حتى يمكن فهم معاني هذه الآيات على ضوء العلوم دون معرفة بالامبريولوجيا واللغة العربية.

وإذا قارنا هنا على وجه الخصوص بين ما كانت عليه الاعتقادات في القرون الوسطى المملوءة بالأساطير والخرافات وبين المحتوى والمعطيات الحديثة لا يسعنا سوى التعجب من التطابق مع ما نعرفه اليوم، والتعجب أيضاً من انعدام التلميح أو الاشارة إلى الأفكار المخطئة التي ظلت شائعة في العصور الغابرة.

ومن آيات كثيرة جداً نستخرج مفاهيم دقيقة مثل تعقد السائل الملقح، وإن كمية ضئيلة منه تضمن التلقيح.

أما تعشش البويضة في جهاز الأنثى التناسلي ذكرت بدقة في عدة آيات بلفظة (علق) وذلك في السورة المسماة بهذه اللفظة نفسها (خلق الإنسان من علق)، وإنني أعتقد أنه ليس في الوجود ترجمة أخرى منطقية للفظة (علق) سوى هذا المعنى الأصلي. والتفوه هذا بالالتصاق خطأ فادح كما تفوه بذلك « بلاشير »، أو بجلطة دموية كما جاء ذلك في ترجمة حميد الله، فهذه المعاني المجازية المتسقة غير مناسبة هنا تماماً.

وتطور الجنين في رحم الأم موصوف في القرآن وصفاً مختصراً بيد أنه في كامل الدقة بحيث أن الكلمات البسيطة السهلة التي تبينه في القرآن تطابق تماماً المراحل الأساسية لهذا التطور. جاء في سورة « المؤمنون » : (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً). فالمضغة كأنها لحم ممضوغ وهي تصدق حقيقة على الجنين في بعض مراحل تطوره. ونحن نعرف أن العظام تنمو وتتطور في أحشاء هذه الكتلة (المضغة) ثم تكسى بالعضل، وهذا هو المعبر عنه باللحم الطري.

ثم هذا الجنين يمر بمراحل حيث تكون أجزاؤه بعضها متناسب معه وبعضها غير متناسب إلى أجل ما. أليس ذلك هو مقصود إحدى آيات سورة

« الحج » التي سأقتطف منها هذه الكلمات : (فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقةٍ وغير مخلَّقةٍ).

ثم يذكر القرآن بعد ذلك ظهور الحواس والأحشاء، جاء في سورة « السجدة » : (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون). لا شيء هنا في هذه الآية تتناقض مع المعطيات العلمية الحالية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن القرآن لم يذكر أية فكرة مخطئة كانت تسود عصره.

وهناك مقارنة أخرى لا بد لي من الإتيان بها، تلك هي مقارنة بين فصول من القرآن وفصول من التوراة مع وصفية الأحداث والوقائع المشتمل عليها كل منهما، ثم إجراء فحص على المعارف الحديثة المطابقة لتلك الفصول.

والبحث عن أسباب هذه الفروق في نتائج المقارنة بين الكتب المقدسة وبين المعارف الحديثة هو من أكثر الأشياء المفيدة.

إن العهد القديم ليمثل مجموعة من المؤلفات الأدبية التي استمر تحريرها طوال تسعة قرون بالتقريب، وقد ألحقت بها تحريفات شتى، وحظ البشر في تأليف نصوص التوراة نفسها كبير جداً.

أما الوحي القرآني فله تاريخ مخالف لذلك في الجوهر والأساس، فنصه كما قلنا سابقاً، قد استظهر عن ظهر قلب فور نزوله وتبليغه للناس، وضبط تدوينه في حياة محمد (ﷺ) نفسه، بحيث أن القرآن لا يدع أي مشكلة تعرض.

وفحص القرآن بكل موضوعية على ضوء المعارف الحديثة يؤدي إلى التأكيد من التوافق بينهما، والحكم باستحالة وجود رجل في عصر محمد (ﷺ) استطاع أن يكون هو المؤلف لهذه البيانات بسبب حالة قلة المعارف في زمانه. فهذه الاعتبارات قد أعطت للوحي القرآني مكاناً خاصاً وأجبرت العالم المنصف أن يعترف بعجزه عن تزويدنا بشرح معتمدة فيه الاعتبارات المادية فحسب. فهذه الأحداث والوقائع التي استمتعت بعرضها أمامكم تبدو لي فعلاً كحقيقة تتحدى التفسير البشري.

وبما أنني قد أعطيت عن ذلك أمثلة عديدة في كتابي (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) فإن هذه المقارنة الثلاثية بين التوراة والقرآن والعلم ستقودنا إلى الاستنتاج الدال على أن التوراة توجد فيها قصص غير مقبولة علمياً، بينما القصص القرآنية المتعلقة بعين المواضيع التي في التوراة هي متطابقة مع المعارف الحديثة على الإطلاق. والسلام عليكم.

إنسانية اليوم وحضارة المستقبل

للدكتور مهدي بن عبود

بســم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم،

خلق الإنسان عالق الذهن بما يسمى بالزمان الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا التعلق الذهني بالزمان يزداد كلما خرج عن طريق الصواب، فاليوم، من أشهر التيارات الفكرية التي يتناولها الإنسان بالبحث ما يسمى بفلسفة التاريخ، لكن فلسفة التاريخ، بدلاً من أن تكون علماً نافعاً فحسب، هي من ناحية الاضطرابات النفسية علامة من علامات المرض، فالرجل القوي السليم البنية، المستقيم السلوك، المطمئن النفس، لا يتساءل عن مجرى التاريخ بمدلهماته وشقائيته وخصوماته وحروبه إلى حد أنه يستعمل ما استعمله « ديجل » من فكرة الضمير المأسوي ومعروف أن أقل الناس تساؤلاً عن فحوى الزمان هو الطفل ــ الطفل يعيش في الوقت بمعناه العميق العتيد، وهو أنه ما مضى فات والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، اصدع بما تؤمر. وكلما كان الطفل قريباً من أمه كلما كان قريباً من براءته الأولى التي خلقت في أحسن تقويم، فيجمع الزمن ــ الدقيقة التي يعيشها وهو كامل الصدق مع نفسه ــ على وجنته اليمنى دمعة، وعلى وجنته اليسرى ابتسامة في نفس الوقت ــ الإنسانية تبحث عن نفسها اليوم فيما يتعلق بالإطار العام الذي تتجلى فيه المعطيات الفكرية الباطنية، أو ما يسمى بالحضارة، بكيفية

مختصرة وسريعة، ما يسمي بالثقافة اليوم هو أسلوب تفكير، أما ما يسمى بالحضارة فهو تجلي هذا الأسلوب في التفكير تطبيقاً في المعاش اليومي، أي أسلوب معاش وأسلوب حياة، إذا ما دخل النوع في المعاش لأن هناك فرقاً بين كلمة حياة وكلمة معاش، المعاش يشترك فيه البشر والبقر على حد سواء، في حين أن الحياة هي الاستجابة لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم لا لما يعيشكم فقط، فالإنسانية إذن اليوم في ضميرها المتمزق تتساءل عن الحال والمستقبل في نفس الوقت وخصوصاً عن المستقبل أكثر من الحال فراراً من آلام هذا الحال لماذا ؟ لأن للإنسانية مقومات فطرية أيضاً خلقت في أحسن تقويم لأنها متكاملة. عندما يخلق الإنسان بشفتين غير ملتحمتين، أو يخلق بيد أقصر من اليد الأخرى، يدعى هذا بالتشوه الجسماني، ولكن عندما يخلق متكاملاً يسمى جسمانياً، خلق في أحسن تقويم. نفس الشيء يطبق على النفس ونفس الشيء يطبق على العقل، طبعاً الروح من أمر ربي، وهي النفخة النورانية التي تكون نقطة الوصل بين الخالق والمخلوق، كلما قرب منها الإنسان كان قريباً من ربه، وكلما ابتعد عنها كان قريباً من الحيوانية أكثر منه إلى الربانية في الوجود الأرضي. المعوقات هي وحدة النفوس، هذا هو الحجر الأول للإنسانية جمعاء، ولولا هذا المفهوم لاستحال التخاطب بين الناس فيما يتعلق بالكلام، ولاستحال التقارب بين الناس، ولاستحالت الحياة الاجتماعية قاطبة فيما يتعلق بالعمران، ولذلك كانت حكمة الله في أن خلق الناس من نفس واحدة، ثم جعلهم شعوباً وقبائل نظراً لضرورة الاختلاف للتعارف، فعندما تكون ساعة أمامك وهي تدق الدقائق كما يقول شوقي :

دقات قلب المرء قائلـه له   إن الحيـاة دقائـــق وثـــوان

يقع عليها تغيير في حركتها، أي أنها تسقط، تتنبه إليها ويكون الاختلاف من شأنه أن يكون الدافع لتنبيه وجود الناس مع بعضهم بعضاً، الاختلاف في الأشكال وفي الألوان مع أنهم من نفس واحدة، فجاء هذا المفهوم الأول في الدرجة الأولى من مقومات الإنسانية. الدرجة الثانية من المفاهيم هي وحدة الآمال. كل الناس اليوم يبحثون عن شيء يوحد أعمالهم حتى تتوحد آمالهم،

في العصر الحديث مثلاً، حتى لا نطيل الكلام، نرى أن الناس كانوا دائماً وأبداً يسعون إلى الفرار من الحروب ضمن منظمات معينة توحد جهودهم، فكان المشروع الأول هو محكمة العدل الدولية. والمشروع الثاني هو عصبة الأمم. والمشروع الثالث هو الأمم غير المتحدة في نيويورك اليوم لا المتحدة. والمشروع الرابع يفكر فيه الناس ابتداء من الآن لأنهم اعترفوا بفشلهم نظراً لفشل نقطة الانطلاق. كل شيء معياره نقطة انطلاقه لذلك كانت. (إنما الأعمال بالنيات)، كل شيء سواء أنجز أو لم ينجز فهو مركز على نقطة انطلاقه في بداية الأمر، ولذلك كانت نقطة الانطلاق في العالم بأسره من الناحية المعنوية هي نقطة الانطلاق من الناحية الوجودية. فلولا الله ما كان لنا وجود من الناحية المعنوية، لولا الله سبحانه وتعالى ما استقرت لنا حياة، فنقطة الانطلاق هي هنا، كان الفشل في نقطة الانطلاق لأن الناس خرجوا من الوثنية بنيات متغيرة، أما براقرس وأما المال تايمز موني وأما الجنس المرأة والرجل والرجل والمرأة، إذا كان احتفظوا على ذكر الرجل كرجل والمرأة كامرأة لأن الإنسانية المحترقة تسمي الرجل رجلاً والمرأة امرأة لا الأنثى والذكر، لأن ذلك يدخل فيه الجحش والحصان، ثم الراية ثم المرتاب والحدود، ثم الزعيم ماو الرئيس ماو وكتابه الأحمر الذي تعلمون الآن مصيره، ثم هتلر، ثم موسوليني ثم سلزا ثم فرانكو ثم ستالين ثم لينين، ثم إلى غير ذلك فأصبحت وثنيات مختلفة لا حصر لها. هذا هو عصر الوثنيات التي لا حصر لها أبداً، وكانت هي نقطة الانطلاق فكان فيها الغرور، وهو الجامع بين الناس، لا الحق، الغرور هو الجامع بين الناس، فكانت الآمال مبعثرة غير محدودة، لا يعرف الإنسان إلى أي وجهة يولي وجهه أبداً، طبعاً لأن الأشياء بسوابقها والأمور بخواتيمها، في نفس الوقت الخواتيم دليل على صحة السوابق، والسوابق معيار وشرط لنجاح الخواتم، فكانت وحدة الأمل. مهما يكن من أمر فالفطرة غلابة، ويد الله فوق أيدي الجميع، هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وأحسن طبعاً. والمفهوم الثالث لهذه المعوقات هو أن طلب الوحدة هو غاية، وهي النجاة في الدنيا بسعادة هذه الدار، والنجاة في الآخرة إذا ما كان الإنسان مؤمناً ولو كان في دائرة العصيان، لا نتكلم على الملحد لكن نتكلم على المؤمن ولو في دائرة

العصيان، وجهة نظره توليها فطرته التي خرجت من يد الله القادرة والحكيمة نحو مفهوم السعادة في العاجل والآجل معاً، في نفس الوقت، ثم إن هذه الحركات في البشرية كلها، من أين نبعت ؟ من قدرة يعني استطاعة، ومن رغبة يعني آمال وهي المعيشة. خلق الإنسان قادراً على أن يعمل وعلى أن يعرف بأمر من الله، إقرأ. والرسول قدوة حسنة، فالأوامر للرسول هي أوامر لأتباعه مع الفارق في الاستطاعة طبعاً. كانت المعرفة، والمعرفة تحوم حول أشياء معينة أولها إثبات الذات، وهنا تكون نزهة للقارئ إذا ما رجع إلى إقبال لأن محور في الفطر إقبال حول هذه اللفظة، إثبات الذات والعامل الثاني الذي يدخل في هذه المفهومية، الثالثة هو رشد العقل لا العقل وحده ولكن ينبغي أن يكون العقل راشداً حتى يكون مكلفاً، العقل موجود عند الطفل، هو بتجربته الأولى يحرق يده في النار، بعد ذلك ستتكرر التجربة فينعزل عن النار، ويبعد عن النار، فالعقل موجود ولكن ليس براشد، العقل واجب لا مناص منه على شرط أن يكون راشداً بالغاً قدرته التي تجمع بينه وبين مفهوم المسئولية حتى يكون حراً، وبين مفهوم الحرية حتى يكون مسئولاً، لأنه بدون حرية لا مسئولية ـ رشد العقل شيء مؤلم ـ مؤلم جداً لأن هذا العقل هو الذي سيساعدك على المراقبة ـ مراقبة النفس قبل كل شيء، وهذا أصعب من مراقبة الغير. يمكن أن تكون حارساً على الغير ولكن تكون حارساً على نفسك هذا صعب، قل الحق ولو على نفسك. والغريب أن أشياء مثل هذه موجودة في صميم المادة نفسها، عندنا دماغ يمكن أن نراه ونلمسه، ونرى فيه نصف الكرة ونصف الكرة الأيسر وأنه مغطى بما يسمى بالمادة السنجابية (بكلمته بالانجليزية) وهي سنجابية لأنها مركب من رأس الخلايا التي لونها سنجابي في حين أن استطالة الخلايا لونها أبيض، وتكون مادة الدماغ من المادة السنجابية ومادة بيضاء وبيضاء من الاستطالة ـ هذه المادة السنجابية التي تغطي الدماغ تسمى بقشرة الدماغ وفيها الإدراك الحسي والإدراك المعنوي والفرق بين الإحساس والحركة، ثم في الناحية الجبهية العزم على أخذ الأفكار واستعمال الأفكار في نفس الوقت، في حين أن الناحية العاطفية من هذا يروقني وهذا لا يروقني، هذه عين جميلة وهذه عين ماكرة وهذه خائنة الأعين، وهذا شيء حار وهذا شيء بارد، وهذا شيء

رطب وهذا شيء قبيح، وهذا شيء جميل، كله في قاعدة الدماغ، وهذا اكتشاف جديد من سنة ١٩٦٠ مع مساهمة الفص الأيمن التي أصبحت ضرورية، الشطر الأيمن من الدماغ نرى بأن حتى في المادة في الناحية من قشرة الدماغ تدخل أولاً مشكلة الدرجات، ودرجات الإدراك والعلم فوق درجة الإحساس واللذة والمتاع إلى غير ذلك وهي في قاعدة الدماغ، بأسفل الدماغ وهذه من حكمة الله، خلق كل شيء درجات بعضها فوق بعض، حتى في داخل تركيب الإنسان؛ هذا الرشد إذن جاء لرقابة النفس، وعندما يكتمل يسهل الحكم على النفس والحكم على الغير، الحكم على النفس يكون فيه إنصاف والحكم على الغير يكون في درجة الحكمة، وما هي ؟ رأسها مخافة الله، مثلما رأيناه في صدر الإسلام عند أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخامس الخلفاء كما يقولون بحق عمر بن عبد العزيز هذا، أهمية هذا العامل في المفهوم الثالث إذا كانت رقابة العقل مع رشده سهلة يأتي عامل رابع في المفهوم الثالث وهو سلامة الإرادة، تصبح الإرادة لا كما تمناها فريدريك فيتش إرادة قوة، ولكن تنقلب الكفة، يعني أنها بدلاً من أن تكون منكبة على وجهها تمشي سوية على صراط مستقيم، ستكون قوة الإرادة لا إرادة قوة كما يريد فريدريكنتسه إرادة قوة عند ثور، إرادة قوة عند الغاشم، إرادة قوة عند المستفيد في حين أن قوة الإرادة مالكة لنفسها في مراقبة النفس ومراقبة الغير، يدخل عامل خامس وهو احترام حرية النفس وحرية الغير. وحرية النفس في الاستغناء عن كل ما زاد عن الحاجة، حرية الغير في احترام الوحي المنزل من السماء على رأس الحكمة وهي مخافة الله، لما كرم الله الإنسان ينبغي على الإنسان أن يكرم الإنسان طاعة لله، وهذا الاحترام يجرك إلى حماية الحرية في مبدأ الشورى، في مبدأ الإنصاف، في مبدأ ارحم من في الأرض يرحمكم من في السماء، وهذه المبادئ التي لا حصر لها بكيفية مختصرة هي مقومات الإنسانية الفطرية التي خلقت في أحسن تقويم، ثم بعد اقرأ باسم ربك الذي خلق جاء شيء آخر، من أغرب ما يكون هذا المفهوم الثاني في السورة الثانية من التنزيل الحكيم، أولاً : العلم. ثانياً : يا عالم بعد أن تتعلم اخش الطغيان وسيدخلك الطغيان عن طريق وثنيات متعددة، منها الجاه ومنها المال، كلا إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.

فستكون حرب بين العلم وبين حب المال والجاه، يعني إرادة قوة، إرادة قوة التي هي ليست من شأن البشر هي من شأن البقر لا القوة الحقيقية وهي القوة الحامية للحق، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل. هذه إعداد فقط لأن الله لا يحب المعتدي فهذا إعداد اعدوا فإن قاتلوكم فاقتلوهم، لكن هنا نرى بأن الإنسان خرج عن الطريق وهي إنسانية اليوم خرجت عن الطريق، ما هو الجسر الذي قطعته هذه الإنسانية حتى تخرج من النور إلى الظلمات. هذا الجسر يسمى بالغرور، لأن الإنسان في أغلب الأحيان إما صادق مع نفسه وإما يوهم نفسه بأنه صادق مع نفسه لأنه لا يرضى أن ينحط إلى أسفل السافلين، مع أنه ردَّ إلى أسفل السافلين بما كسبت يداه، هذا الجسر يسمى بالغرور، وطبعاً هذا المفهوم مدروس في كثير من كتبنا القديمة في تراثنا القديم، يتجلى في القرن العشرين فيما يسمى بالوثنيات هيومانتيز، وطبعاً وصلت عبادة الإنسان هكذا إلى التجرؤ في عبادة تقشعر لها الجلود مثلما صاح بها غير واضحة ينقشع عندما يقول (   ) أعوذ بالله من هذا لا استطيع أن أقولها بالعربي، يقول لقد مات الله والواقع أن الإنسان قد مات، رشد العقل قد مات، حرية الإنسان قد ماتت، مقومات الإنسان الأولى قد ماتت، ويعترف بها أصحاب الجحيم اليوم لأنهم وقعوا في الجهل، هذا الغرور إذن كان على أن الإنسان أعجبته نفسه، الشيء الثاني أعجبه صنعه، يتكلم عن التقدم، رأس التقدم هو رفع الإنسان من مستواه الجاهل إلى مستواه العالم العاقل، من مستواه الغاشم، إلى مستواه المنصف، من مستواه الحيواني النائم الغافل إلى مستواه الإنساني العاقل الراشد الملهم من الله سبحانه وتعالى، وبعبارة أخرى التقدم هو ارتفاع الإنسان بارتقائه الأسباب بسبب اللفظة القرآنية الكريمة، أما ما يسمى اليوم بالتقدم هذا نوع من أنواع قلب الحقائق. اليوم ثلاثة أفكار تطغى على الإنسان، الملاحظة الأولى هي قلب الحقائق. بعد ذلك هي قلب الأوضاع، بعد ذلك هو قلب الاستقرار ـ قلب الحقائق يجعل الإنسان يرى الأعلى أسفل والأسفل أعلى. المادة هي الأولى ثم يأتي ينتج عنها العقل، والعقل ما هو إلا إفراز للدماغ المادي، كأفكار كما أن الكلى تفرز وكما أن الغدة الدرقية تفرز كذلك الدماغ يفرز الأفكار وهذا قلب لأوضاع الحقائق رأساً على عقب لأن نظام

الكون وقرائن نظام الكون كلها تدل على أسبقية العلم عند الواحد القهار في اللوح، كلها تدل وتطمئن إليها النفس ثم يرى بأن تدبير الأمور الإنسانية تحت ظل التدبير الإلهي لهذه الإنسانية، فعندما تنقلب الأفكار تنقلب الأوضاع معها وتدخل الحروب والاختطافات والحروب الأهلية وفي المعسكرات نفسها الشيوعي مع الشيوعي والرأسمالي مع الرأسمالي الراديكالي مع الراديكالي إلى غير ذلك، هذا فيما يتعلق بقلب الأوضاع العامة، أما فيما يتعلق بقلب الأوضاع الخاصة هو أن الإنسان يحب نفسه نظراً للألم الذي يدخل في قلبه بعد ما يمسح من قلبه الإيمان بالله فتكون الفرصة الوجودية الملحدة، الإنسان ملقى به على الأرض، العبارة بالانجليزية بعد ذلك يتحرك، بعد ذلك يرى أنه غريب عن نفسه وغريب عن المجتمع، ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخْطَفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، والغريب عن نفسه وعن غيره تهوي به النفس، لذلك يرى أنه كلما عبد نفسه ابتعد عنها وكلما عبد الله اقترب من نفسه، من عرف نفسه عرف ربه ومن عرف ربه عرف نفسه في نفس الوقت، كما أن الآية تقول : « من كان في هذه الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى » والعكس من سيكون في الآخرة مبصراً فهو الأعمى في هذه الدنيا. مبصر لماذا ؟ لأنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور، وهذا يدخل في رشد العقل بمعناه الواسع، بالمعنى الغربي العقل كاد يكون جافاً أو أشد قسوة من الحجر في العمليات المنطقية سواء كانت المنطقية الصورية أو المنطقية الجدلية، لكن فيما يتعلق بالعقل هو ربط الحقائق العليا والدنيا في نفس الوقت في العقل جميعها، فهذا العقل هو الذي سيكون مبصراً بإذن الله سبحانه وتعالى وبوحي منه ورحمة منه عن طريق الرسل. وفي هذه الوثنيات يرى الإنسان البركات، مثلاً يتكلم عن أسطورة « سيزيف » وهو ذلك البطل الذي يحمل صخرة إلى أعلى الجبل نهاراً ثم ينزل ليلاً ثم يرجع نهاراً ثم ينزل ليلاً ثم يرجع نهاراً ثم ينزل ليلاً ثم يرجع نهاراً، وبعبارة أخرى يقول فطور الصباح والغداء والعشاء والعمل والنوم فطور الصباح والغداء والعشاء والنوم فطور الصباح والغداء والعشاء والنوم إلى ما لا نهاية له، إذاً بالعربية الفصحى يسمى حمار طاحون، ونرى في معسكرين الإنسان إمّا مكسوب وإما مرهون،

في الولايات المتحدة العرض أكثر من الطلب لأن المال أقل من العرض فهو يعيش بالدين، في آخر كل شهر يدفع الماهية بأكملها ثم يأخذ ديناً جديداً، فهو مرهون دائما،حمار طاحون، وفي المعسكرات الشرقية والشيوعية هو مكسوب لا حرية له ـحتى في التنقل، أين هو هذا الإنسان إلى اللحد، نفسه ويتشدق بالتقدم وهو في قفص الاتهام باستمرار من المهد إلى اللحد، اما اتهام المحاكمات لأنه لم يؤد دينه، واما الاتهام والاعتراض في معسكر الديمقراطية الشعبية والجماهيرية إلى غير ذلك فيما يتعلق بالتقدم الاسطبلي. الإنسان يمشي على ركبتيه ويظن أنه يمشي سوياً على صراط مستقيم وهذا منتهى الضلال، إلى حد أن أحد المفكرين، ولا زال على قيد الحياة، وهو أستاذ فلسفة في بلجيكا يسمى « ليكووفلام » يقول بالنص : إن الإنسان المعاصر لا يفكر أو لم يفكر بعد ولكنه يعلم كثيراً. الشهادات كثيرة هذا ما يسمى عندما في بعض الأحيان الجهل المدبلم، إننا أصحاب دبلومات، لا يعلم كثيراً ولكن وصل علمه إلى ضيق الفكر بالاختصاصات نظراً لكونه ربَّى دعوة المنطق والاتجار بالعلم ولم يربّ دعوة القلب الذي وسع معنى ربه ولم تستطع الأكوان أن تسع معنى ربها، وفي اليمين واليسار نرى الناس يتذمرون ويتألمون لماذا ؟ لأنه من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا، في الشرق والغرب رغم وجود الأموال ووجود الصناعات ويكون أرقى الناس أشقاهم نظراً لانسلاخهم من أنفسهم بعد انسلاخهم من ربهم وانسلاخهم من ربهم بعد جهلهم بأنفسهم فسيكون المستقبل يتخوف منه الناس، وفعلاً جاء استبنجلر وجاء بعده سُوركيل في الولايات المتحدة وهو من أصلاب سلاف وجاء توينبي ثم جاء ايرمن كوزرلي وهو من أعمق المفكرين الألمانيين المجهولين أيضاً، وجاء ديجول ومالروب، وكان القاسم المشترك بين هذه الأسماء أن الحضارة تنهار ومن سيستلم حضارة المستقبل. في حفلة عشاء بين ديجول وبين وزيرة وكاتبه العظيم أو الكبير مالروب خرجا في ليلة مقمرة وتساءلا : إن الحضارة في طريق الانهيار البطيء ولكن هي في طريق الانهيار ومن سيستلم مشعل الحضارة ؟ فكان أول من تجرأ كعسكري على الجواب هو ديجول قال في نقطتين استفهاميتين : الصين الإسلام وسكت. وجود كلمة إسلام على لسان عسكري رئيس دولة مشهور في التاريخ مواطن غيور حاطب

مثقال، وعى لفلسفة التاريخ وكانت بلاده تستعمر نصف الدول الإسلامية المستعمرة، وجود كلمة إسلام على لسان هذا الرجل ينبغي أن ترى تحت مجهر. ما هو هذا المجهر ؟ هو الحق، إنما الحيلة في ترك الحيلة. جاء الإسلام وخاطب حامل الرسالة. الله يعلم حيث يجعل رسالته. خاطب حامل الرسالة. يقول مراراً وتكراراً بما جاءك من العلم اقرأ باسم ربك الذي خلق، إلى غير ذلك. المسألة هي كلها مسألة علم، هي التي ستعطينا الجواب على مشعل الرسالة، ولكن الله سبحانه وتعالى ما كان رحيماً حتى كان رحيماً بالأجسام والنفوس والعقول والأرواح في نفس الوقت، فيما يتعلق بالنفوس والعقول والأرواح كان رحيماً بإنارتها بالعلم، فهل العلم يقول لنا بأن أبسط قواعد المنطق المتحجر بنفسه هي الأسباب المسببات اذن هذا الكون خالق، الشيء الثاني كل ما يخطر ببالك فالله ليس كذلك، هنا المغايرة. الشيء الثالث إذا كانت هنا المغايرة فستكون مطلقة وستكون مطلقة في العلم والتدبير والتصرف، والتصرف لا يكون علة إلا على يد النور الرباني. أي الروحاني، جبريل الروح الأمين. القرآن نور. الله نور إلى غير ذلك، فلا يكون دائماً على علم وعلى نور عن طريق الجسم الروحاني فقط لأن هنا ليست المسألة مسألة جزئية. حيوان نبات بيت قبيلة، حكومة صغيرة، حكومة كبيرة، لا هذا تدبير الخليقة. منها الظاهر ومنها الباطن، منها المعلوم ومنها الغائب في نفس الوقت، هنا لا بد من الإطلاق، والإطلاق ليس بالصعب إذا كان ملحقاً بالخالق سبحانه وتعالى، بالطبع سيكون صعباً إذا كان ملحقاً بالمخلوق. الكمال لله ـ هذا الإطلاق يستدعي أن يكون برحمة الله مساعدة ربانية وهذه المساعدة هو هذا العلم. يقول إنه إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها أو أمّرْنا حسب القراءات فخرجوا عن الطريق ففسقوا فيها، خرجوا عن الطريق ومن يخرج عن الطريق فينزلق، ثم عندما ينزلق يذهب إلى بيت الانعاش وجراحة العظام وإلى غير ذلك فيدمم فدمرناها تدميراً، إذن هذا هو الحل، الدواء الرجوع، إذا كان الرجوع روحاني يسمى توبة وإنابة، وإذا كان الرجوع عقلاني يسمى تصحيح المفاهيم، وإذا كان الرجوع نفساني يسمى صفاء القلوب، وإذا كان الرجوع جسماني يسمى اتجاه آخر، وإذا كنت في الطريق المعوج بعد أن تشدقت بأنك بأعلى

عليين تشهد كتاباً مرقوم التعاليم كلها طبعاً موجودة على شرط. إذا كان عندك المال ولا تصرفه ما فائدة هذا المال وإذا كان عندك علم ولا تطبقه ما فائدة هذا العلم ؟ باب التطبيق هو طاعة الله، أنت تنتظر العلم من الله والرحمة من الله والتدبير من الله والمساعدة من الله، وبتدبيرنا فإننا لا نحسن التدبير، ثقولها دبر كل صلاة طبعاً على شرط أن تطع والطاعة بمعناها أنك تسلم وجهك للمقولات الجسمانية من تجارب، والمقولات النفسانية من استفتاء القلب والمقولات العقلانية من العلم القويم سواء كان بشري مثل الصناعات والتكنولوجيا إلى غير ذلك، المقولات الروحانية التي تفضل الله سبحانه وتعالى بالإشارة إليها بكيفية ترضي النفوس وهي الأسماء والصفات، الأسماء والصفات هذه هي المقولات الروحانية العظيمة واضحة جلية، جاء الرسول عليه الصلاة والسلام وساعدنا فيها هذا الوحي الذي نرى لا مفر منه وإلا كأنما خر من السماء فتخطفه الطير، هذا الوحي ينبغي أن يبقى متواتراً على مر الأجيال ومحفوظاً في نفس الوقت، إنا له لحافظون حسن في الأوراق. إنا له لحافظون في قلوب الرجال ونفوسهم ودمائهم، دمائهم أيام الجهاد. وقلوبهم عندما يطبقون الحديث الشريف : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، هذا الحفظ والحفظ عند سائر العلماء، اما علماء شبان أو علماء العقلاء من الذين سبقونا بالإيمان، والعلم والإحسان والتجارب إلى غير ذلك، هنا يدخل مفهومان، المفهوم الأول من رحمة الله أيضاً أن الوحي محفوظ في كتاب معين، الكتاب الوحيد محفوظ بلغتين، الناس يتكلمون عن اللغة العربية كما لو كانوا يتكلمون عن اللغة الإيرلندية أو اللغة الأكرونية لا هي لغة الله سبحانه وتعالى لتكون وسَيلة التخاطب بين شعوب معينة، هذا معقول تراها في السوق تراها في المسجد تراها في السجن تراها في الجزاء تراها في العقاب هذا شيء دنيوي معقول، لكن من أغرب الأشياء التي يكتشفها الإنسان بعد البحث والتذكير هي أن هذه اللغة العربية تجمع بين السماء والأرض، فهي لغة ما يسمى باللغة المقدسة، وهي في نفس الوقت لغة أرضية، لما كانت لغة مقدسة أصبحت جزئية الأرضية مكسوة بغلاف التقديس أيضاً. أجرة الأجير مقدسة والدين الإسلامي صريح فيها، سلوك الرسول عليه الصلاة والسلام صريح في هذا، لقمة العيش مقدسة والدين

الإسلامي صريح فيها، والرسول عليه الصلاة والسلام لا غبار على كلامه فيها. التوالد والاتصال بين المرأة والرجل مقدس صريح، القرآن شيء والحاكم شيء والسيرة النبوية والسلف الصالح كلّ شيء. عندما يقرأ الإنسان نظام الحسبة في الإسلام يرى نور التقديس على معاملة البشر، المال أيضاً مقدس لأنه من الأشياء التي استخلف الإنسان فيها في الأرض، ولكن في جزئيات الأرض، في المال من ناحية، ومن ناحية أخرى هو رمز عرق الجبين، ومن ناحية ثالثة هو قنطرة الإنصاف والعدل والإحسان بينك وبين غيرك. في الصدقات إحسان، في أجرة الأجير إنصاف، فهذه اللغة جاءت لأنها ممتزجة بالتعاليم السماوية، ومن أغرب الأشياء هي اللغة الواحدة المقدسة التي لازالت إلى اليوم ولم تزل واقفة على ساقيها. اللغة العبرانية. رأيت نصاً ملخصه ما يأتي : مفكر فرنساوي اسمه سابرولزي من أعمق المفكرين الذين وقعت كتبهم بين يدي، له كتاب « فلسفة تاريخ البشرية »، له كتاب عن اللغة العبرانية، له كتاب عن شرح أرجوزة لفيثاغورس التي تسمى اللغة الأجنبية الأبيات الذهبية فيثاغورس ليغيردوري، وكلامه دائماً مشرق ولكن عداوته للإسلام في كلمة واحدة رأيتها، يقول بأنه كاثوليكي وأنه متدين وأنه يتحرق على التعمق والتغلغل في العهد القديم والعهد الجديد وأنه كانت آماله كلها متشوقة تواقة إلى إتقان اللغة العبرانية، ثم يستطرد قائلاً : مع غاية الأسف لقد ماتت نهائياً هذه اللغة ولا وجود لها، لغة موسى لا وجود لها اليوم، وزاد قائلاً : إن ما يسمى بالعبرانية اليوم كان يسمى وينبغي أن يسمى باللغة الآرامية واللغة الآرامية هي المزيج بين اللغة الفينيقية القديمة واللغة الآشورية القديمة التي خرجت منها لهجة جديدة تسمى بالآرامية ويسميها اليوم أصحابها بالعبرانية، ولا وجود للعبرانية، فإذن حفظ هذا الكتاب في دماء الرجال وفي نفوسهم بتأويله الحقيقي مع الإنسان يكون دائماً بين رغبة ورهبة حتى لا يتطاول على كلام ربه لأنه سيرفعه الله إذا لم يتطاول، سيرفعه الله إلى مستويات، ويجعله من المقربين، ومن تواضع لله رفعه وسيكون من أصحاب أعلى عليين، وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون، سيظل من المقربين، هذه التعاليم ضرورية، التي هي على هذا الشكل والمحفوظة كما رأيناها في الظاهر والباطن في نفس الوقت، والتعاليم القرآنية هي مفتاح حضارة المستقبل،

الناس يقولون بأن رغبة اليسار في العدالة، ورغبة اليمين في الحرية، وخير الأمور أوسطها، فالجمع بين العدالة والحرية هو ما ينبغي أن يكون منشوداً فيما يتعلق بالمستقبل، طيب لماذا ؟ مرة جاءني زبون وهو محام وهو الوحيد الذي رأيته على هذا الشكل من الوقاحة قال لي : عندي من العلامات الفلانية والفلانية هذا سر مهنة، قلت له مرحباً سأكتب لك وصفة بعد الفحص، بعد ذلك قلت له لم يخلق الإنسان حماراً، خلق بشراً والبشر ما هو بشر إلا لوعيه، إنه يعي نفسه (العبارة بالفرنسية)، وعي الوعي معرفة نفسك أنك تعرف وهذا أوعى الوعي يجعلك تكون سبباً من أسباب الاضطرابات النفسانية عندما تخاف، يأخذك الوجع وتقشعر الجلود ويقف الشعر إلى غير ذلك قلت لا، عكس هذا استعمال الإرادة بعقل راشد متى تتحكم في عملية الفود الصم التي لها علاقة بالجهاز العصبي والذي له علاقة بمرضك، فكانت وقاحته أنه قال : أنا جئتك للحصول على وصفة طبية لا على خطبة الجمعة فكان جوابي فوراً، قلت له إجلس عندي جواب، أنا فهمت من أي فصيلة هو، قلت له عندي جواب، إذن الحياة بالنسبة إليك تتلخص في حركة مستمرة، واسمحوا لي أيها الإخوة في حركة مستمرة بين المطعم والمرحاض في دائرة العدالة الاجتماعية، ففعلاً فقد تزلزل شوية ــ هذا هو المفهوم العام اليوم بما يسمى بإنسانية اليوم وحضارة اليوم هي هذه الحركة العمياء بين إفراغ الحبيب وإملاء البطن وإفراغ البطن وإملاء الجيب ــ إلى متى، لكن هناك رحمة عظيمة، رحمة عظيمة لا يعلمها الإنسان، الأولى هي الغيب لو علم الإنسان متى سيموت لدخل مستشفى المجانين، فالغيب هذا رحمة من الله، والثانية هي الموت إن الإنسان يعلم بأنه سيموت ويطغى فما بالك لو كان خالداً على وجه الأرض، طبعاً إن ربك لبالمرصاد، ستكون هناك هزيمة نكراء في الصحراء، ستكون هناك هزيمة فيما يتعلق بسلامة العقل إلى غير ذلك، إن ربك لبالمرصاد، المدنية التي نبحث عنها هي مدنية تجمع شتات الإنسان، ترضي فيه المقومات الأربع شوق نفسه إلى العلم المطلق، الطريق الوحيد لأن العقل محدود ويعترف بحدوده، هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا رجعنا إلى مفهوم التاريخ بمعناه الحقيقي لا بمعناه الجامعي، اسمحوا لي أصحاب التاريخ، اليوم التاريخ الجامعي يقسم إلى

العصور القديمة والعصور الوسطى والعصر الحديث والعصر المعاصر، هو أربعة لكن لا يتفطن طالب التاريخ بأن الأرض في عمرها أربعة بلايين وسبعمائة مليون سنة فهذا ما كان في التاريخ أبداً، هناك مدنيات ذهبت كما يقول القرآن الكريم، قرون ذهبت فكيف يمكن أن يتجمد التاريخ إلى هذا المعنى، لذلك وجدت مدرسة ثانية تقول بأن التاريخ أقدم مما يظن الإنسان، وبدلاً من أن نتكلم عن آدم بالمفرد ينبغي أن نتكلم بقولنا آدمون لأن إنسانيات تلت بعضها بعضاً، لذلك في بعض الأحيان تأتي بعض التأديبات الإلهية بأنه سيذهب بنا ويأتي بقوم آخرين، إما بالبشرية جمعاء لأن الساعة تنقسم إلى خمسة إذا مات المرء قامت قيامته ساعة الفردية، ثم ساعة دولة من الدول وحكم من الأحكام، ثم ساعة حضارة، ثم ساعة إنسانية بأكملها، تتم الساعة الكبرى العظمى وهي ساعة الوجود بأكمله ـ فهنا ينبغي أن نرجع إلى التقسيم الذي يقسمه أصحابه إلى العصر الذهبي، وهو أن الإنسان عندما يكون قريباً من ولادته، قريباً بأمه، يكون قريباً من ربه لأنه قريباً ببراءته إلى ربه، نفس الشيء يقع على الإنسانية كلما كانت قريبة العهد بزيادتها وترعرعها وقربها من ربها كلما قربت من طريق براءتها كلما كانت ناجحة وتبقى في جناح أحسن تقويم لا أسفل سافلين، بعد ذلك ترد شيئاً فشيئاً فيأتي بعد العصر الذهبي ـ انتم تعلمون بأن كلمة « ذَهَبٌ » ترمز إلى علو القيمة وصفاء الذات، الذهب الإبريز، يقولون فلان قطعة من ذهب إذن بعد العصر الذهبي يأتي ـ العصر الفضي ثم العصر النحاسي ثم العصر الحديدي الذي نعيش فيه اليوم، فيما يتعلق بهذه الدورة الإنسانية بكيفية عامة لا بد للحضارة من دافع، المعروف أن الرسالات ربانية، أو حتى مهمات بشرية تقوم على كاهل من هم في منتصف الطريق بين المهد واللحد. في منتصف الطريق وهم الشبان، يقال إن الشبان مقابل الشيوخ، وشباب مقابل شيخوخة، ولذلك قلت شبان، هؤلاء الشبان طبعاً لهم مزايا كبيرة، وكلنا يعلم ذلك، فالحركات الاستقلالية والوطنية والعلمية وما إلى ذلك قامت باندفاع الشباب لأنه يندفع وهذا من باب شجاعتهم، ثم إنه حتى الآن لم يتوظف فهو لا يخاف على الماهية الشهرية، إنه يطرد أول شيء والوالدة والعائلة فهو إذن حر. الشيء الثالث أنه شديد الرغبة للحصول على الحق

بالنفس والنفيس ولذلك تكون فيه روح التضحية كبيرة، هذا من جملة مزايا الشبان، لكن هناك مساوىء، الكمال لله، الشيء الأول من المساوىء هي قلة التجربة، في بعض الأحيان شهر من الأسفار يعادل سنة من الدراسة الجامعية وربما أحسن، لأنه يجعلك تلمس العقبة الكؤود في الدنيا. الشيء الثاني هي قلة المطالعة. الشيء الثالث هو العقاد، إنه لا يرضخ لمن سبقه بفكرة وهذا لا يجوز من طلاب علم وطلاب حق طبعاً لا يتملقون، يقول افلاطون في الفصل الخامس من الجمهورية ما معناه تقريباً : عندما ترى الشيوخ يتملقون إلى الشباب وترى الشبان يثورون على الشيوخ فانتظر انهيار الديمقراطية، يعني انتظر انهيار الأمة بنفسها وهذا لا يجوز، وينبغي أن يصارح به الكهول ويصارح به الشبان، يد الله مع الجماعة، وتجربة الأقدمين كما رأيتم فيما يتعلق بأفلاطون في الفصل الخامس وهذا الفصل أثير بحثه ١٩٦٨م لما وقعت الهزة العنيفة في فرنسا هزة الشبان في السربون كيف يصل الشبان إلى النجاح ؟ أولاً باستقلال العقل لا بالانجراف والتقليد الأعمى، نقصان الخبرة والعناد وعدم التجربة والمطالعة طبعاً يجعلهم ينجرفون، والكلمة التي هي نقطة الوصل بين الانجراف وبين عقل الشباب الذي لم يكتمل رشده هي الإغواء، وهذا هو الوصف العالي الكبير للشيطان ـ الشيطان هو صاحب الرفض وصاحب الاستكبار وصاحب بطر الحق ـ بطر بمعنى كفر، وكفر بمعنى بطر ـ بطر الحق أبى واستكبر وكان من الكافرين، لا بد لهم إذن من استقلال، هذا ما يطلب في أول درجة من الشبان، هو تربيتهم على التفكير، الشيء الثاني ينبغي أن يعتمد على عزم العلماء، طبعاً العلماء فيهم أنواع وينبغي ان يستعينوا عليهم، الشيء الثالث هو أن يكون عندهم اعتزاز بالمبدأ عندما يعتنقون المبدأ القويم، وأخيراً إنما العاجز من لا يستبد، من لم يأخذ المبادرة يبقى في مؤخر الركب، مثال فيما يتعلق بالمبادرة الشيطانية، قرر مصطفى كمال بجرةقلمأن يلغيالحروف العربيةفقلب ماضيابأكمله ـ قرر ماركس وانجلز وستالين ولينين قهر المتملكين لأموالهم وأراضيهم بجرة قلم وبرمشة بمن قهروهم وقلبوا وجه الاقتصاد رأساً على عقب، فكيف لا يأخذ المبادرة صاحب الحق والله معه ينصر من ينصره، فكيف لا يمكن أن يأخذ المبادرة من هم طلاب حق، كم سيعيش الإنسان ؟ مائة أو ثمانين سنة

تعلموها مائة وثلاثين أو مائة وعشرة، متفقين ما فيه اعتراض، كم سيعيش ؟ ولكن هل سيلقى الإنسان ربه بقلب سليم، ابداً، أعطاك العلم، أعطاك الوحي، أعطاك الثروة، أعطاك الوسائل، فلماذا لا تأخذ المبادرة. أرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الذين يتبعون الحق وينصرون الله، والله سبحانه وتعالى يجزي المحسنين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الأسباب التاريخية لانحراف المجتمعات الإسلامية والمنطلقات الإسلامية لتصحيح البنية الحضارية المعاصرة

للدكتور عبد الحميد أبو سليمان

الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي

والأستاذ المساعد بكلية العلوم الإدارية - جامعة الرياض



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة :

لا بد للباحث في هذا الموضوع من مقدمة تسهل مهمة القارئ في فهم الإطار الذي يدور فيه البحث.

إن الباحث الواعي لأحوال الأمة الإسلامية وما بلغته من العجز والضعف والتدهور بميزان العصر ومواقع أمم العصر ـ خاصة إن لم يؤمن وعي القارئ على جوانب الموضوع ـ لا بد له من الاعتذار والتوضيح قبل أن يبدأ العرض.

لأن المسلمين على ما هم عليه إنما يدَّعون الانتماء إلى الإسلام.

وما كان لمنهج حياةٍ هذه حال من ينتمون إليه أن يؤخذ مأخذ الجد في ساحة التقدم الأفضل للإنسانية نحو المستقبل.

وهذا حق لو وقف عند هذا الحد.

ولكن القضية بالفعل أبعد آفاقاً مما يدل عليه ظاهرها.

ولا بد للمفكر والباحث أن لا يقف عند حد الظواهر، وأن يتمعن تلك الظواهر إذا كان جاداً في البحث إذا دعت دواعي الجد.

والأسباب التي تستوقف الباحث الجاد في الأمر عديدة منها :

١ ـ أن الإسلام دين وينتسب إليه ما لا يقل عن خمس البشرية.

٢ ـ أن الإسلام ظل يسيطر على خيال وثقافة وفكر الأمة الإسلامية عدداً كبيراً من القرون.

٣ ـ أن المسلمين رغم كل الظروف والأحوال والهجوم المر الذي يتعرضون له ولانتسابهم لهذا الدين وهذا المفهوم للحياة، فإنهم يتمسكون بالانتماء إليه، رغم ما في واقعهم من انحراف عن مثله.

٤ ـ أن المسلمين حاولوا كل السبل في تقليد غيرهم، واستيراد أساليبه ومناهجه لإصلاح شأنهم، وفشلوا لعدة قرون، وتحت ظل مختلف الظروف والمؤثرات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب دون جدوى.

٥ ـ أن المتأمل في أحوال الإنسانية والحضارة المادية المعاصرة رغم كل ما حققته من إنجازات علمية وتقنية مادية لا يخفى عليه وجوه العجز ومواطن الخطر في مسار هذه الحضارة، بل وبسبب ما أنجزته هذه الحضارة من قدرات مادية وهائلة مدمرة دون أن تحقق له النمو والاستقرار النفسي والعاطفي والروحي المتكافىء وهذه القدرات.. ولا أن توفر له المنطلقات الفلسفية اللازمة للسيطرة على هذه القوى الهائلة، فلا تكون وبالاً عليه وعلى أسس وجوده.

من هنا لا يمكن للباحث أن يتجاهل كل هذه القضايا والظواهر، فلا يبحث في أسس بلاء هذا الجزء الهام من البشرية الذي هو الشعوب المسلمة، كما لا يمكنه أن يمر بهذه الشعوب الكبرى من البشرية دون أن يتفحص مفاهيمها ومنطلقاتها في مواجهة أزمة البشرية القائمة في أبعاد حالكة نحو المستقبل، إذا قسنا مستقبل البشرية بماضيها المعاصر في حروب عالمية بربرية مدمرة تفتقد دواعي حكمة المنطق الإنساني السليم.

إن من المهم في هذه المقدمة تحديد عدة قضايا.

أولاً : إن تدهور المسلمين قديم، تمتد جذوره إلى قرون طويلة حتى قبل أن تسقط بغداد وقرطبة وسمرقند.

ثانياً : رغم كل الكوارث فإن المسلمين مصرون على الانتماء راغبون عن التحول.

ثالثاً : إن كل محاولات الحلول المستمرة من المنطلقات الحضارية الأجنبية ولعدة قرون قد فشلت في تغيير حال الأمة وتحريك طاقاتها وحل مشاكلها.

رابعاً : أن منطلقات الحضارة الغربية المادية على مختلف أشكالها تضع الإنسانية في مآزق خطيرة ومستقبل مظلم، لا يغير من تلك الحقيقة كل المنجزات الإيجابية لهذه الحضارة بل إن تلك المنجزات تجعل وجوه القصور مطاعن قاتلة للوجود الإنساني ككل.

أزمة فكر لا أزمة عقيدة :

ولكي تعي الإنسانية موضع الإسلام الذي غطى قدراً كبيراً من تاريخها وكيان شعوبها ووجه اليابسة من تحتها ومن مستقبلها.

ولكي يعي المسلمون حقيقة الأزمة المزمنة التي يعانون منها لا بد لهم من تفحص القواعد الأساسية التي يرتكز إليها كيانهم لتحديد سبب الأزمة والغوص إلى أعماق تلك الأزمة ومعالجتها معالجة جذرية، فلم يعد في واقع حالهم من الخارطة الإنسانية الحضارية ما يحرصون عليه ويخشون ضياعه في بحثهم عن أسباب الأزمة الساحقة المزمنة التي يعانون منها.

وفاعليات الإنسان ترتكز إلى عاملين أساسيين هما :

١ ـ إمكاناته وفاعلياته المادية.
٢ ـ إمكاناته وفاعلياته المعنوية.

ولذلك فالسؤال المنطقي الأساسي : هل سر الأزمة التي يعاني منها المسلمون تكمن في قصور إمكاناتهم المادية ؟

والجواب بالتأكيد بالنفي.

فالمسلمون يتحكمون في رقعة واسعة من الأرض تضم في جنباتها مختلف الإمكانات المادية التي لا تقصر عن حاجتهم الحضارية، كما أن

كيانهم يضم أعداداً بشرية هائلة تنتمي إلى كل أجناس الأرض وشعوبها، ولها من الثقة النفسية قدر كبير فيما سبق لها أن حققته من إنجازات ومواقع تاريخية حضارية.

ومع ذلك فإن سمة العجز والقصور سمة تلاحق كياناتهم على اختلاف مكوناتها ومواقعها المادية.

وإذا لم يكن القصور يكمن في إمكاناتهم وفاعلياتهم المادية، فليس من بد في أن القصور يكمن في إمكاناتهم وفاعلياتهم المعنوية.

ولكن السؤال يكون حينئذ : في أي مكونات الفاعليات المعنوية يكمن الضعف ؟

وقد تبرع الدارسون من أصحاب الغايات والأغراض من الأمم المناجزة للمسلمين حضارياً والطامعين في مقدراتهم، الساعين إلى السيطرة عليهم بالتبرع بالإجابة على هذا السؤال بالقول : إن العلة تكمن في الإسلام، دين الأمة ومنهجها.

وكانت تلك الإجابة هي منطلق محاولات طويلة مرة لأكثر من قرنين للخلاص من سيطرة الإسلام على الأمة ونظامها الاجتماعي، وما تزال الأمة في ضعف وهوان وعجز تزداد هوته وتتعاظم آلامه.

ولكن الحيرة والتخبط يزدادان ولا ينقصان.

ولا يبدو أمام الأمة الآن مخرج ولا منقذ.

والسبب في تصورنا أن قضايا البحث اختلطت بقصد ودون قصد.

فالقضية ليست إن كانت تكمن في منهج الأمة وإسلامها أو لا تكمن، ولكن القضية في وضعها الصحيح هي : في أي مكونات هذا المنهج يكمن الضعف وسبب الأزمة ؟!

هل تكمن الأزمة في عقائد الأمة الأساسية، وقيمها المثالية، وغاياتها الاجتماعية ؟

لا يستطيع عاقل أن يقول إن الأزمة لها أي علاقة بهذا الجانب من مكونات الأمة المعنوية.

ولا يخفى على عاقل سمو تلك القيم والعقائد والمبادىء والغايات الاجتماعية.

وليس يخفى على الناظر أن من مظاهر الأزمة هذا القصور البين بين هذه القيم والتطلعات وبين واقع السلوك والممارسة الإسلامية للأمة.

من منا يشك في غايات الإخاء والعدل والكرامة والقصد والتطهر في عقائد المسلمين وقيمهم.

ومن منا لا يفتقد تلك القيم والغايات في البنية الاجتماعية في واقع الشعوب الإسلامية وممارساتها.

هل يشك أحد في وجوب الصدق والأمانة والرحمة والبذل والتكافل والعدل وحسن الأداء والاتقان في قيم الإسلام.

وهل يشك أحد في تفريط المسلمين في هذه القيم وغيبتها وغيابها في سلوكهم وعلاقاتهم.

نعم من المهم أن نعلم أن عقائد الإسلام التي تقوم على التوحيد والإخاء وقيم الحق والعدل والبذل هي من ضمن أهم مقومات الأمة وفاعلياتها الإيجابية في مواجهة أسباب الأزمة التي تغوص بها في دوامة الضعف والعجز والانهزام.

ولولا قوة دفع هذا الدين، رغم كل التشويه والضباب والقصور في فهمه، لكان حال الأمة من الهمجية والبربرية أشد هولاً، ولكان مصيرها الموت والفناء منذ آماد طويلة.

إذن ما هو سبب الأزمة ـ إن حقيقة الأزمة التي تعاني منها الأمة هي في أساليب دربتها الفكرية وعلاقاتها التنظيمية الاجتماعية. أي أن الأزمة ليست في جوهرها أزمة عقائد وغايات ومُثُل بل هي أزمة فكر وأسلوب وتمثل وتنظيم.

ماهية الأزمة الفكرية وكيف نشأت :

من الواضح والمسلَّم به أن فترة صدر الإسلام تمثل قاعدة البناء الإسلامي التي أرست أسس تكوين الأمة وبنائها، ومن المعروف والمسلَّم به

أيضاً ما تميزت به تلك الفترة من علاقات اجتماعية وقدرات وإنجازات هائلة تركت آثارها التي لا تنمحي في قسمات وكيان الأمة.

ولا تخطىء عين الدارس أنه، بزوال دولة المدنية وانقضاء عصر الصدر الأول، حدث تغير وتحول في كيان الأمة ومسيرتها وعلاقاتها، ولكن الباحثين لا يقفون طويلاً عند هذا التحول الحاسم في محاولة فهم التدهور اللاحق.

وكثيراً ما ينصرفون إلى محاولة تفهم الأسباب في الأحداث المباشرة، لصعوبة الربط بين تلك الأحداث والتدنيات والتحولات التي حدثت في عصور من التاريخ الإسلامي يتميز كيان الأمة فيه بكل مقومات المهابة والقدرة والإنجاز الحضاري في الدولة الأموية والعصر العباسي الأول.

أو بسبب الإرهاب السياسي في عصور الضعف والانحطاط الذي يقاوم النظر السليم والمنطق المستقيم.

أو بسبب الخشية من مزيد من العناء ينكأ جراح الأمة وذكريات محنها وحروبها وصراعاتها الكبرى.

أو بسبب الرهبة والإجلال لتلك العصور والشخصيات التاريخية التي لم يبق للأمة سوى ذكراها.

وبذلك يبقى البحث عاجزاً ناقصاً، يرد الظواهر إلى ظواهر والنتائج إلى نتائج دون قدرة على معرفة حقيقة الأسباب، ولكن تبقى الحقيقة ماثلة في أن الأزمات الكبرى في حياة الأمم والشعوب لا تفسرها الأحداث المباشرة، ولا بد من الغوص في أعماق كيان الأمة وتاريخها وتتبع مجرياته لمعرفة البدايات البعيدة والأسباب الأولية والأساسية وتحديد مساراتها لمواجهتها وتصحيحها والتصدي لمضاعفاتها.

وتبقى الحقيقة أن تحولاً أساسياً، وفي ميدان فاعليات الأمة وإمكاناتها المعنوية، قد حل بها بزوال عهد الصدر الأول والخلافة الراشدة وعلاقاتها الاجتماعية رغم امتداد الدفع المادي وطرح ثماره خلال العهود الأولى اللاحقة لعهد الصدر الأول.

ولكن كيف حدث ذلك التحول.

في تصورنا أن ذلك التحول بدأ بانضمام أفراد القبائل العربية من غير المهاجرين (من قريش) والأنصار (من الأوس والخزرج) إلى صفوف الجيش الإسلامي في مسيرته نحو الشمال لمواجهة الخطر الداهم من قبل الامبراطوريتين العظيمتين في ذلك الوقت، الرومانية والفارسية.

وجنود الأعراب لم يكن لهم من الرؤية العقائدية والتربية الإسلامية ما كان لجيش بناء دولة المدينة بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام، يشهد عليهم القرآن الكريم بقوله : (الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) (٩ : ٩٧) ـ (قالت الأعراب آمناً، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم....) (٤٩ : ١٣) وتشهد عليهم قسوة البيئة التي لم تكن تسمح لهم بما وراء حياة الكواسر كثيراً ولقرب عهد التحول إلى مجتمع الإنسان المسلم.

ولذلك، وقد أصبحوا قوام جيش الأمة ولتعاظم ضعف رجال القيادة في المدينة بالسن وفي العدد، كان لا بد أن يملي جيش القبائل وجوده السياسي وقيمه وتصوراته وعلاقاته الاجتماعية التي لم تكن في جملتها جاهلية بحتة ولا إسلاماً ناصعاً نقياً، ولكن كان مزيجاً من الأمرين، وما تجلّت به ممارساتهم بعد ذلك من المحافظة على الهياكل والرسوم هو في جملته على حساب المحتوى وحقيقة الغايات والأهداف وطبيعة العلاقات الاجتماعية الإسلامية.

وفي ظل هذه المعطيات كان لا بد من الصراع ولا بد من زوال دولة المدينة، وكان لا بد من قيام دولة جديدة كانت هي دولة بني أمية التي لم يقف التغير فيها فقط عند تحول الخلافة إلى ملك عضوض كما يعترف الكتاب الإسلاميون ويقفون في دراستهم عند هذا الحد، فالتغيير السياسي لا يمكنه أن يقف عند ذلك الحد، فلا مكان لمثل هذا التغيير السياسي ولا موضع له دون أن تكون آثاره الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية.

وكان أبعد آثار ذلك التحول هو حال الانفصام والمواجهة بين فكر المدينة ومنطلقاتها وبين السلطات السياسية في الدولة الجديدة، ومثالاً على ذلك، تحديداً للمسئولية وحفظاً للحقوق ومنعاً للتبرير وسوء الاستخدام ـ كان لا بد أن يقف أبو ذر ليرد على معاوية رضي الله عنهما وهو على المنبر

قوله : بأن « المال مال الله »، وهي يبني عصبية ويتألف أعواناً يتحكم بهم في الرقاب في قوم يريدون أن يصطنعوا وأن يميزوا وأن يستخدموا أعواناً على رقاب الناس، وليقول له : بل « مال المسلمين ».

وبقي إقليم النشأة، المدينة، ثائراً رافضاً هذا التحول ـ رغم أن رجال الحكم في دمشق كانوا من قريش ـ فكانت ثورة الحسين وابن الزبير ومحمد النفس الزكية وزيد بن علي وكانت حروباً أهلية طاحنة.

وبقي رجال الفكر الإسلامي وأمناء الفكر الإسلامي في مركز المناجزة والمعارضة، فيموت الإمام أبو حنيفة سجيناً، ويضرب الإمام مالك، ويهرب الإمام الشافعي، ويعذب الإمام أحمد.

وكانت تلك المواجهة والانفصال بين القيادتين الفكرية والسياسية في الأمة هي أخطر آثار ذلك التحول وأس البلاء، حيث انعزل الفكر واضمحل، وجفت مصادر نمائه وتجدده في ميدان التطبيق والممارسة والقيادية، وهزلت السياسة والقيادة السياسية لجفاف منابعها من القيم والتصورات والفكر، وارتكزت إلى الجهل والقهر.

الجمـــود والتـدني :

وكان ذلك التحول، وما يتبعه من تحولات من دولة المدينة إلى دولة دمشق ثم بغداد وما وراء دمشق وبغداد، بكل ما أضافت تلك التحولات من ضباب الرؤية وعماوات جاهلية قبلية عربية وفارسية وهندوكية ورومية وغربية، بداية الانحراف الذي أرسى وعمق عزلة القيادة الفكرية الإسلامية عن القيادة السياسية الاجتماعية للأمة.

وتركت تلك العزلة والفرقة آثارها الرهيبة على الفكر الإسلامي جموداً، وعلى السياسة الإسلامية قهراً وجهلاً، وعلى كافة الأمة خرافة وضياعـاً واستضعافاً.

ويهمنا هنا أن نناقش قضية هذا الجمود، جمود الفكر الإسلامي وما ترتب عليه من ضباب رؤية الأمة، فنحن إذا استطعنا في تصوري توضيح هذين الجانبين أمكن لنا أن نشخص الداء وأن ندرك طبيعة الدواء ـ إن شاء الله.

إن عزلة الفكر والمفكرين المسلمين عن الدولة نتيجة ما حدث من تحول أدى بهم إلى الانزواء والتحفز والمعارضة.

وقد انصرفوا في البداية إلى توثيق التصور والتطبيقات الإسلامية، فنشأ علم الحديث وعلم الفقه (بروحه الوصفية)، ونشأ علم العقائد بعيداً عن النظر في النظام الاجتماعي وتنظير تطبيقاته وبقي في حدود قضايا غيبية كمباحث الأسماء والصفات والقضاء والقدر.

ومع تطور الأحوال الاجتماعية فإن عزلة المفكرين الإسلاميين جعلتهم أقل قدرة على إدراكها ومواكبتها، والمبادرة إلى قيادة اتجاهاتها وجعلتهم في نفس الوقت أشد خوفاً على التراث الذي في أيديهم من غايات القيادات السياسية وأساليبها المغايرة مما انتهى بالفكر الإسلامي إلى الغرق في بحر الأسلوب الوصفي والتعلق بالقناعات الذاتية الناجمة عن النظر الجزئي في القضايا التاريخية والعجز عن إدراك التطورات المحيطة أو احتوائها وتوجيهها، والإغراق في العزلة والانغلاق وتأكيد الذات.

وهكذا انتهى الفكر الإسلامي إلى الجمود والركود والوقوف بعيداً عن مجرى الأحداث، وعرف ذلك في تاريخ التشريع بإغلاق باب الاجتهاد.

ولهذا لم تأت الومضات الاجتهادية التطبيقية إلّا من رجال أضافوا إلى حصيلة علمهم الممارسة الاجتماعية والنظرة الكلية والنزول إلى دائرة العمل السياسي، أمثال إمام المدرسة الاصلاحية السلفية الإمام ابن تيمية.

وما أحرانا في هذا المجال أن نعي معنى اجتهادات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الهائلة رغم قرب عهده بالرسول عليه السلام.

وعلى سبيل المثال اجتهاده في نظام الخراج، واجتهاده في وقوع الطلقة الواحدة بلفظ الثلاث طلاقاً بائناً رغم معارضة ذلك لظاهر النص القرآني في الأمر (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) (٢ : ٢٩)، أخذاً منه بحق ولي الأمر المشروع في تقويم أمر الرعية.

من هذا ننتهي في هذا المجال إلى أن المنهج الدراسي الفكري للمدرسة الإسلامية التقليدية يحتاج إلى إصلاح جذري ينقله إلى أسلوب

النظرة الكلية وإلى اعتبارات الممارسة والنظم والتطبيق، والخروج على الأسلوب الوصفي المحدود وإعادة الوحدة إلى الفكر الإسلامي بين النظرية والتطبيق، بين علم العقائد وعلم الفقه، وحتى ترتكز التطبيقات والممارسة الاجتماعية في كل صورها إلى العقائد والتصورات الأساسية التي تحكمها.

الخروج من دائرة الفهم والنظر الجزئي لأحداث الصدر الأول ونصوصه وممارساته إلى الفهم والنظر الكلي الذي يعي عنصر الزمان والمكان في تلك التصرفات والأحداث ويربط بين أجزائها وغاياتها ومساراتها التاريخية الكلية، ويوظف الأسلوب التحليلي في فهم الأمور ووعي دلالاتها. وبذلك تعود للمشاهد حياتها، وللأحداث معانيها، وللقرارات والأوامر دلالاتها، وتزول ذاتية الأحكام ومحدوديتها وغيبيتها.

وعندئذ فقط يتخلص الفكر الإسلامي من الأسباب الموضوعية لجموده ويعود إلى مكان الصدارة في توجيه قرارات القيادة السياسية والاجتماعية وإمدادها بالحلول والبدائل والخطط الرائدة لحسن سير الحياة الاجتماعية وفاعليتها.

الحلقة المفرغة :

وستبقى الأزمة قائمة والداء مستفحلاً والاستقرار مفقوداً والعجز متفاقماً، تتردى به الأمة من هاوية إلى قعر هاوية على بحر هائج من التضحيات والآلام ما لم يكسر الطوق ويوضع حد للدوران في حلقات مفرغة من الحلول الفاشلة البائسة من التقليد الأجنبي أو التاريخي.

إن الحل يكمن بتهيئة الظروف لقرار سياسي بكل تبعاته من قبل الأمة، وأخذ نفسها به ثمناً لآلامها ومعاناتها وآمالها.

هذا القرار هو إعادة صياغة « التعليم » و « الإعلام » لبناء ثقافة موحدة تكون قيادات إسلامية تؤمن بهذه الثقافة وتتفاعل معها.. فكراً وممارسة بشكل إيجابي وفعال وتوفر قاعدة اجتماعية واسعة تراقب وتدعم هذا اللون من القيادات.

تعليم يقدم المهارة الفنية والبحث الفني على أعلى المستويات، على أسس ولغايات إسلامية.

وإعلام يقدم الترويج والثقافة والتصورات للمشاهدين والقراء والناشئة على أساليب ونصائح تمثل القيم والغايات الإسلامية ولا تتعارض معها.

إن المهمة في هذه المرحلة التاريخية تقع على عاتق المفكرين والقيادات الإسلامية في توضيح طبيعة القرار السياسي المطلوب من الأمة حتى إذا ما اتضحت الغاية واتضح الطريق والحل.

أخذت الأمة بكل الأسباب لتحقيق تلك الغاية ومارست الحل بكل الطرق والأساليب وعلى كل المستويات الرسمية وغير الرسمية والمباشرة وغير المباشرة.

وأقامت محاضن الوحدة الفكرية بكل الأساليب والوسائل في التعليم الرسمي والتعليم الخاص، وفي سياسة النشر وفي سبل نشر الثقافة والترويج لها، وفي سياسة العمل والتوظيف وفي كل المواقع وبكل الأساليب في جهاد لا يني وعزم لا ينثني.

عندئذ يتحقق المسار الصحيح لمسيرة الأمة.. وتحل الأزمة الفكرية في أسسها ومنابعها.

تصحيح المفاهيم الإسلامية :

وخلال هذه المسيرة في سبيل اتخاذ القرار السياسي من قبل الأمة في إصلاح مسار « التعليم » و « الإعلام » وتنشئة القيادة الإسلامية الفكرية والسياسية والاجتماعية الموحدة التي ترتكز إلى قاعدة متينة تسندها وتستجيب لها، خلال هذه المسيرة على المفكرين الإسلاميين تصحيح المفاهيم الإسلامية لدى الأمة وإزالة الغبش التاريخي الذي لحق بها من المؤثرات الوافدة والرواسب العالقة والمصالح السياسية الفاسدة التي تحرص على إبقاء الأزمة والترويج لها.

وهذا يكون بتوظيف الطاقات الإسلامية الفنية في كل ميدان لمراجعة المفاهيم السائدة التي لا تعكس روح الإسلام الخلاقة من خلال الفهم

السليم والاستنباط الدقيق للأحوال التي تعنيهم في الواقع والتاريخ، والرصد من خلال اللقطات المحدودة للنصوص وربطها بأحداث الحياة على عهد الرسول ﷺ وسياساته وخلفائه الراشدين، وبحياة الرسول عليه السلام وأصحابه في صدر الإسلام حتى تعود للأمة مفاهيمها الحية الفاعلة الصحيحة التي أعطت للأمة جيل الأصحاب أكثر ما يكونون فاعلية وأكثر ما يكونون عطاء وبذلاً دون إشراف نفس أو طمع أو شره، قوماً رأوا في الحياة والمادة وسيلتهم إلى الوجود والتعبير الخير بها عن إرادتهم وذواتهم، فكانوا بذلك حركة دائمة وفعلاً خيراً مستديماً، حيَاتُهُم فاعلية وعطاء وبذلاً، وليست جمعاً وحرصاً وتكديساً لاهثاً فاسداً رخيصاً لا يتوقف ولا ينقطع.

وكان الإسلام بالنسبة لهم ليس لحظة ذكر أو بذلاً وتضحية مرة، لكنه مسيرة دائمة على سبيل الحق والخير واتخاذ القرارات الفاعلة السليمة، أسلوب حياة ومسيرة وجود حتى تلقى وجه ربها خيراً وسعادة أبدية.

ولذلك لا يحقر المرء منهم من المعروف شيئاً ولو أن يلقى أخاه بوجه طلق، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وفي بضع أحدهم صدقة، والراحمون يرحمهم الله، والمسلم من سلم الناس من يده ولسانه، والمسلم من أمِنَ جاره بوائقه، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، وكان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، والمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ولا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، والبر حسن الخلق، وما آمن من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم به، والنظافة من الإيمان، وأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

وهكذا أمكن لبضع آلاف من الناس، آمنوا بهذه الحقائق والفضائل وعاشوها، أن يجتاحوا جل العالم المتمدن في عصرهم وأن يتحول الناس إلى عقائدهم وسمتهم بل وحتى لغتهم، وهو ما لم يحقق مثله فاتح في مثل هذه الحقبة من التاريخ.

ولأضرب مثلاً كيف ينحرف الفهم وكيف يجب أن يستقيم، فالعمل

الصالح عند أولئك الأصحاب لا يقف عند الحد السلبي المساعد وهو حد الذكر أو ما يطلق عليه العبادات، بل هو إلى جانب ذلك عمل إيجابي موضوعي فاعل خير يبدل تعبيراً عن الذات والإرادة.

كما أنّ مفهوم العبودية لم يكن يرادف لديهم الاستعباد بل التعبد وهو أخذ النفس بالحق والصواب وتعبيدها وتذليلها، فالله هو الحق، وللمؤمنين القوة والقدرة والفاعلية والعزة.

ومثل آخر كيف أن الدارسين من غير المختصين في علم الحكم أو السياسة لم يمكنهم أن يعوا درساً مثل درس تصرف أبي بكر رضي الله عنه في حرب الردة.

لقد رأوا في ذلك حين لم يعوا طبيعة مجتمع الأصحاب المحدود ومعرفتهم الكاملة ببعضهم البعض، وانشغالاتهم الهائلة بأعمال الفتح والإدارة، وانعدام الهياكل الرسمية، والتنظيمات الاجتماعية المسبقة مما يجعل فهم تصرفاتهم وأعمالهم ودلالاتها من خلال الاهتمام بالهياكل والتصرفات الرسمية ناقصاً مبتوراً ولا يمكن فهمها إلا بفهم البناء غير الرسمي في تلك العلاقات والتصرفات.

فـ « أبو بكر » كان من خيرة الأصحاب والقائد الذي اختاروه لجماعتهم، وكان معروفاً عندهم بالرحمة ولين القلب وكثرة البكاء رقة وشفقة، ولكنه كان ذا بصر ثاقب ورؤية واضحة وجنان ثابت، ولـذلك سمي بـ (الصديق).

فلما واجه ثورة العرب على السلطة المركزية لله ثم له، وأعلنوا العصيان وامتنعوا عن دفع الزكاة، كان الأمر بالنسبة لأبي بكر واضحاً وهو أن الأمر ليس أمر عقيدة فقد خاطبهم القرآن الكريم، « ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم »، فالقضية في جوهرها قضية النظام الاجتماعي وإظهار الولاء له في الحياة والعلاقات الاجتماعية العامة وليست قضية إيمان وتعلق ويقين.

فلما ارتفعت أصوات بعض الأصحاب لهول فكرة القتال بين من يدعون الإسلام واختلط الأمر عليهم، كان من الطبيعي أن لا ينكص القائد

الخليفة على عقبيه عند أول صيحة بل يصمد ويوضح رؤيته في هذا الأمر المصيري، فإما أن يرى ما يرون أو يرون ما يرى أو لا يتحمل مسئولية العمل دون قناعته في قرارات مصيرية.

وأخذ النظر والنقاش مجراه بين الأطراف، وهنا يتضح لهم الأمر ويرون ما يرى أبو بكر، ويعلن عمر الثقة المطروحة في أبي بكر ويقول: « فوالله ما إن رأيت إصرار أبي بكر على الأمر حتى شرح الله صدري ».

وهكذا مارس أبو بكر دوره القيادي واتخذ القرار المصيري الصائب في قتال أهل الردة بقناعة، وتقبل الصحابة رضوان الله عليهم دون قسر أو رهبة لم يكن لأبي بكر وسائل غيرها على أي حال.

وهكذا لا يرى في مثل حادثة حرب الردة مثالاً على عدم التزام الشورى إلا من ليس له دراية بعلم الحكم ولا ممارسة إجراءات اتخاذ قراراته.

وهذا شبيه بمن يرى الديمقراطية والشورى أمراً واحداً دون أن يدرك الفوارق الأساسية النابعة من الفلسفات، والمرتكزات التي ترتكز كل واحد من هذه المفاهيم والمصطلحات اليه.

فالديمقراطية هي التعبير عن مفهوم الفلسفة المادية الفردية في اتخاذ القرار السياسي ولذلك فهي تستند إلى حق الفرد المطلق في تحقيق ذاته وأن كل شيء هو وسيلة لتحقيق تلك الذات ومقياس الحق والخير والصواب.

وبذلك فإن الأغلبية حين تتحقق يكون لها الحق المطلق لأن لها القوة للحصول على اراداتها، ولا يكون للأقلية حق، والدساتير الحديثة وحقوق الإنسان الأساسية هي ترقيع لذلك النقص الخطير في التعبير الديمقراطي السياسي وواقع الممارسة في تلك المجتمعات، بينما الشورى تعبير عن مجتمع الإخاء الذي يسعى في حدود الحقوق المترتبة مسبقاً وشرعاً لكل فرد وفقاً لأحكام الإسلام بغض النظر عن موقعه من اتخاذ القرارات أقلية أو أغلبية، وذلك باتخاذ القرارات بروح الإخاء وتوخي المصلحة العامة والسعي نحو الحق لذاته بما تمليه روح الإسلام، ولذلك فالتعبير يحمل معنى التناصح والتشاور دون أن يمس بعد ذلك الزامية المشورة الصحيحة من قبل

المؤهلين لها : (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين.... فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا..) ٤ : ١٣٥.

هذا اللون من الجهد المكثف المتخصص القادر على تصحيح المفاهيم والتأثير في التربية والسلوك والمؤسسات الاجتماعية سيكون خير عون على توضيح الرؤية والمفاهيم في سبيل الحسم لمصلحة القرار السياسي المطلوب لإصلاح « التعليم » و « الإعلام » وحل « الأزمة الفكرية » وتوحيد القيادات الفكرية والاجتماعية وارتكازها إلى القاعدة السياسية المطلوبة في وحدة ثقافية إسلامية شاملة، وتكون الأمة عند ذلك قادرة على السير في الطريق مهما سبب ذلك من معاناة وجهد مقابل الواقع المر من العجز والضعف والألم التي ظلت تتجرعه على مر قرون من الانحراف والسحق والهزيمة والهوان.

الإسلام ومستقبل الإنسانية :

ولكن ما الذي يعني الإنسانية من هذا الإسلام ومشاكل أمته التي حاولنا القاء الضوء عليها فيما مضى في الصفحات السابقة.

الذي يعني الإنسانية من هذا الدين هو ما يعني المسلمين، بل إن الإنسانية والشعوب القادرة علمياً ومادياً هي فيما أرى أشد حاجة إليه لأنه يحوي المفاهيم التي تجيب على جوانب الضعف في كيانها القائم، والمتفاقمة على مدى المستقبل.

ويتلخص ذلك في أمرين :

الأمر الأول :

أن الإسلام يقيم مجتمعاً يبنى على أساس الوحدة ويقوم على مفهوم الإخاء، ويركز النظر على الاستجابة لحاجة الفرد الأساسية، والاهتمامات المشتركة بينه وبين الآخرين على كل المستويات، انطلاقاً من الأسرة إلى الجار إلى القوم إلى الإنسانية.

وهذه الشعوب وهي تفجر الطاقات المادية التدميرية الهائلة لا يسعها أن تعيش في ظل فلسفات المواجهة و « الصراع » بين الأفراد أو القوميات أو

الطبقات أو ما أسميه فلسفة « الحراب المتقابلة »، فلا شك أنه مع توفر آلات الدمار الكونية، وفي ظل نفسية الصراع والمواجهة والتركيز على وجوه الاختلاف والتعارض، ليس هناك ما يدعو إلى الظن إلا أن يفلت الزمام في لحظة جنون إنساني انتحاري شهدت الأزمان ما يماثلها مع فارق الآثار المدمرة في عالم الغد.

ومن هنا فإن عالم الإسلام أو عالم « الحلقات المتداخلة » و « الأمن الجماعي » هو فلسفة الغد التي لا سبيل سواها لتحقيق النمو والأمن النفسي والروحي والعاطفي الإنساني الذي يحقق الأمن والسلام الصحيح لعالم الغد.

يقول الله.. « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء.. » ٤ : ١.

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير » ٤٩ : ١٣.

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » ٣٠ : ٢٢.

« وما كان الناس إلا أمة واحدة، فاختلفوا... » ١٠ : ١٩.

« وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار وذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل... » ٤ : ٣٦.

« من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.. » ٥ : ٣٢.

« ولا تنسوا الفضل بينكم.... » ٢ : ٨٣.

« وقولوا للناس حسنا .... » ٢ : ٨٣.

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين » ٦٠ : ٨.

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ١٦ : ١٢٦.

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » ٢ : ١٩٠.

« فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »٢ : ١٩٣.

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله » ٦٠ : ٨.

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ٦ : ١٥٢.

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ٤ : ٥٨.

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ٥ : ٢.

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون. يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب... » ٤٩ : ٩ ــ ١١.

الأمر الثاني :

يتعلق بمعنى المعرفة وطرق البحث العلمي، فالحضارات والفكر المادي يقوم جوهرياً على الأسلوب العقلي التجريبي الاستقرائي وهو ينطلق من العالم المحسوس والتجارب والمعلومات المتوفرة للتعرف على القوانين التي تحكم الحياة والكون. وهو فكر منبث عن أي معرفة مسبقة أو وحي منزل لأنه لأسباب خاصة بالأديان الكبرى الأخرى عدا الإسلام، خاصة المسيحية ليس بإمكان اتباعها علمياً الثقة بأي معلومة بعينها مما جاءت في كتبهم المقدسة ولأن كثيراً مما بها لا يقبله العقل والعلم.

وإذا أدركنا التعقيد الهائل للطبيعة الاجتماعية للإنسان، وتعدد العوامل التي تؤثر على السلوك الإنساني في وقت واحد، واستحالة تثبيت بعضها أو إخضاع البشر للتجربة المعملية، أدركنا التخبط الهائل للعلوم الاجتماعية وتوالي النظريات المتناقضة في ميدان العلوم السلوكية والاجتماعية والتربوية.

ولما كانت آثار الأخطاء في هذه المجالات لا تتضح في أمد قصير ولا يسهل تلافي آثارها المدمرة بعد أن تصل إلى مداها في تكوين الجماعات الإنسانية والتأثير على بنيتها.

إذا أدركنا ذلك أدركنا الميزة الموروثة في مجال المعرفة الإسلامية، فالمعرفة الإسلامية تنطبق على المعرفة المادية ولكنها لا تقف عند حدها بل تهذبها وتمنع أضرارها.

ففي الوقت الذي يجب فيه على المسلم النظر والفهم في الخلق والمخلوقات والتعامل معها والإفادة منها ودعايتها إلا أن المسلم لديه كمية من المعلومات والمسلمات المسبقة بلغت إليه وحياً من عند الله تختص بالقضايا الاجتماعية السلوكية الأساسية، فإذا شط الفهم والنظر بالمسلم في قوانين الكون والوجود والعلاقات فإن له من الوحي عاصماً يمنعه من الندم بعد فوات الأوان، فليس صواباً ولا حقاً ما عارض حلالاً أو حراماً بفهم صحيح لنص صريح. وهكذا فإن المعرفة الإسلامية توظف وفي وقت واحد مصادر المعرفة العقلية التجريبية الاستقرائية إلى جانب مصادر المعرفة الكونية الكلية الاستنباطية، فللمسلم أن يتعامل ما شاء له التعامل وأن يتاجر وأن ينتج ما شاء الله له المتاجرة والانتاج إلا أن يكون عملاً يسبب أذى للخلق أو ربا أو ظلماً لهم لا بذل جهد وتبادل نفع.

وللمسلم أن يتخذ له ما شاء من أساليب العيش وتقاليد الحياة الأسرية الكريمة وأن يكيفها وفق ظروفه الخاصة، إلا أن يبيح لنفسه نيل الجنس على غير الغاية منه ودون عقد مشروع يرتب للمرأة وللطفل كرامتهما وحقوقهما النفسية والمادية المترتبة على نيله لوطره وحاجته، فإذا فعل ذلك فقد ظلم وأفحش واعتدى، والله لا يحب المعتدين.

وهكذا حال الوحي وتعاليم الإسلام ليست قيوداً ولا قوالب، وإنما هي مشاعل وعلامات على دروب الحياة لدرء الضلال والغواية والفحش وتحقيق الوجود والعلاقات الاجتماعية الأمثل.

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون » ٦٠ : ٩٠.

لا يغير من هذه الحقيقة عن المعرفة الإسلامية ووسائلها جهل أتباع الإسلام لموضع العقل من النقل، ولا استهانتهم بشأنه، فذلك أمر كان وراء طاقتهم بسبب العزلة والانفصام الذي فرضته ظروف الأحداث على قياداتهم الفكرية وقيادتهم الاجتماعية ولعدة قرون.

هذان الأمران اللذان هما « مجتمع الوحدة » في مقابل « مجتمع الصراع » واستكمال « ضوابط » العلاقة في مصادر المعرفة الإنسانية سيكون لهما في تصوري في عالم الغد أهمية خاصة حين لا يستطيع المجتمع البشري دفع ثمن الأخطاء كما تعود في الماضي حين كانت المعارك التاريخية الفاصلة يموت فيها عشرات أو مئات الرجال. وكانت الأمم في مأمن مما يجري على ساحات سواها إلى وقت تصبح الأرض قاطبة كالحجرة الواحدة، كل صرخة منها تخدش أسماع كل من في الغرفة، وكل مأساة منها تصدم أبصار كل من في الغرفة، وكل أذى يقع فيها ينال كل من حضر الغرفة.

وحين تتيقن الإنسانية ما بلغته من وسائل التدمير والخراب ومن تهديد وجود الأرض في عالم الفضاء.

حينئذ فقط تدرك الإنسانية حاجتها إلى الضوابط الدقيقة الحاسمة ـ المعلومة في كتاب الله وصحيح السنة والتي فرضت احترامها والثقة بها لكل منصف متأمل ـ لتقيها من الانزلاق إلى هاوية الفناء.

وحينئذ فقط لا يكون المخرج بالتطلع إلى المواجهة والغلبة ولكن إلى الوحدة والتقارب وإلى البحث عن عوامل الوجود المشترك والمصلحة المشتركة.

إن على المسلمين حقاً فهم رسالتهم، أداء للحق وإنفاذاً للغاية منها في هذا الوجود على مقتضى حكمة الخالق.

وصدق الله.. « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس... » ٢ : ١٤٣.

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ٩٩ : ٦.

خاتمـــة :

هذه تأملات فيما آل إليه أمر الأمة، ونظرة حاولت أن أستبطن بها التاريخ لأرى كيف بدأ التغير المأساوي في حياة المسلميـن وأسبابـه، والانطلاق من ذلك إلى أسس التغيير والعلاج في إطار موضع الأمة الإسلامية من الإنسانية في أزمتها الأكبر وقلقها الأبلغ.

وإنني أرجو بهذه التأملات أن أشحذ همم المفكرين بالنظر على امتداد آفاق الوجود الإسلامي والإنساني وعلى أبعد الأعماق علَّ ذلك يوفر الجهد المطلوب على مستوى المعاناة التي تلقاها الأمة الإسلامية والقلق الذي يساور الإنسانية.

إن على قيادات هذه الأمة ومفكريها في اعتقادي أن يعلموا أن مناجزيهم يدركون أن قيم الإسلام وعقائد الإسلام وحضارة الإسلام هي تحدي المستقبل ووارث المستقبل، ولذلك فهم يحرصون على أن يصرفوا المسلمين عن فهم هذه الحقيقة وجرهم إلى متاهات فيها المزيد من الجهد والمزيد من العمل والمزيد من المعارك، ولكن دون تغيير في فهمهم لأنفسهم وإعادة لبناء علاقاتهم ونسيجهم الاجتماعي وفقاً لقيم الإسلام ومنطلقاته الصحيحة.

إن في تصحيح المفاهيم والمنطلقـات، وإعـادة بنـاء العلاقـات الاجتماعية على أسس الإخاء والبذل والعطاء والفاعلية الإسلامية هو تغيير كامل لكل معادلات الوجود والقدرة والفاعلية للأمة الإسلامية، و هو توحيد اتجاه وتفجير طاقة وهو ما يخشاه المناجز، أما الجهد والكد من واقع الأمة السقيم ومفاهيمها الفجة وأساليبها العاجزة وعلاقاتها الفاسدة ونسيجهـا الاجتماعي الواهي المنتن هو مزيد من الضياع والوهن والعجز وهو ما يحرص على إبقائه المناجز، إن عامل الحسم في الأمر ليس في كمِّ الجهد والعمل بقدر ما هو في نوع العمل ووجهة العمل..

هل هو في تنمية قدرة الأمة على الفعل أو في مزيد من إنهاك قدرته على الفاعلية والإنجاز.

إن حقيقة ميدان المعركة هو فكري أيديولوجي وليس اقتصادياً، وهو أمر على أي حال لا يعني التعارض ولكن يوضح علاقة ووجهة وأولوية العمل والبناء، فالبنية الاجتماعية الفكرية النفسية القادرة السليمة، ميدان إنجازها وتعبيرها في شكل مادي اقتصادي عملي تكنولوجي لغايات سليمة، ولا بد أن يكون كذلك بشكل أو بآخر والعكس ليس صحيحاً، فليس للمريض العاجز أن يفعل مهما تبجح أو تمنى.

إن ما يدعو إلى التأمل هنا هو أن الإنجاز الإسلامي هو أيضاً إنجاز إنساني، وأن في تحقيق الذات الإسلامية انقاذاً لمستقبل الذات الإنسانية.

إن هذه حقيقة أرجو أن يعيها عقلاؤنا وعقلاء المناجزين لنا وأن ينصرفوا إلى ما فيه الخير لكافة الفرقاء وعلى امتداد الأبد..

والله أسأل أن يهدي إلى الحق والصواب..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

منطلقات إسلامية لحضارة عالمية جديدة

للشيخ سعيد حوى

من التوسع أن هذا المجتمع متقدم مدنياً، ولكنه ليس متقدماً حضارياً. فإذن التقدم الحضاري إنما يكون عندما توجد ثقافة متقدمة ومدنية متقدمة، والتخلف الحضاري يكون عندما تكون ثقافة متخلفة ومدنية كذلك متخلفة، ثم بعد ذلك هناك درجات أخرى، فإذا اتضحت مبدئياً فكرة التخلف الحضاري والتقدم الحضاري فقد يكون بإمكاننا أن نخطو خطوة ثانية في محاضرتنا هذه، هناك صورة من الصور ينبغي أن نفطن لها، وهي أن الأمة المتخلفة ثقافياً أو الأمة ذات الثقافة غير المتقدمة، بأن كانت ثقافتها غير صحيحة أو ليست حقاً أو فيها أخطاء، الأمة ذات الثقافة المنحرفة وإن تقدمت مدنياً فإن تقدمها المدني مطبوع بتخلفها الثقافي لأن هناك ارتباط بين الناتج المدني وبين الفكر وبين الثقافة التي هي وراء الناتج المدني، ليس هناك انفصال كبير في الحقيقة ما بين الجانب الثقافي والجانب المدني، لأن الجانب المدني عادة يكون مطبوعاً بالجانب الثقافي، فأنت تلاحظ أن كل أمة من الأمم تحاول أن تجعل نواتجها المدنية منسجمة مع فكرها مع ثقافتها، وكثيراً ما تصنع رموز ثقافتها وتفكيرها على نواتجها المدنية. كم من ناتج مدني يظهر في منطقة كذا تجد عليه صورة كذا، فهناك ولو من الناحية الرمزية نوع ارتباط ما بين الناتج المدني وما بين الثقافة التي توجه الناتج المدني، تصوروا هذا العالم تحكمه العقيدة الإسلامية، وتصوروا أن هذا العالِم قد سار تاريخياً تجريبياً من خلال العقيدة الإسلامية فاكتشف هذا العالم كل ما اكتشفه عالمنا المعاصر من كشوف، ولو كان المسلمون هم الذين يسيطرون على العالم مثلاً فماذا سيكون تأثير الثقافة الإسلامية على تسخير الاكتشافات العلمية في طريق خدمة الإنسان، حتماً ستكون النتيجة غير هذه النتيجة التي نراها الآن، الآن كما ترون لو نظرنا إلى الجانب المدمر في الاكتشافات، إنكم ترون أن هذا العالم من أوله إلى آخره يحاول أن يدرس كيف يمكن ان يستفاد من كل اكتشاف علمي لصالح التدمير والتخريب، لصالح التأثير على الشعوب الأخرى، حتى القضايا التجريبية الإدارية والنظريات الإدارية نفسها توجه من ناحية لخدمة شعب من الشعوب ومن ناحية أخرى لصالح هذا الشعب، حتى الدراسات النفسية توجه من ناحية من أجل خدمة الذين يشتغلون فيها ومن ناحية أخرى يفكر في كيفية

الاستفادة منها من أجل ان تجعل شعوب أخرى مسخرة لشعوب. وإذن فأنتم تلاحظون كيف ان ثقافة الأمم المعاصرة قد سخرت الاكتشافات العلمية في الطريق الذي يمكن ان يكون مدمراً للحياة البشرية كلها، بينما لو كان الإسلام هو الحاكم لهذا العالم فإن شيئاً آخر حتماً سيكون، وستسخر هذه الاكتشافات في طريق آخر، فالمنهج الحضاري إذن أيها الإخوة مرتبط ارتباطاً كاملاً بقضية الناتج المدني. مرتبط ارتباطاً كاملاً بالثقافة التي وراءه. واذن فعندما تكون ثقافة أمة ما متخلفة حتى، ولو كانت متقدمة مدنياً، لا بد أن يظهر آثار التخلف الثقافي على مدنية هذه الأمة. لا بد أن نعطي هذا المعنى اعتباراً كبيراً، ونحن ننظر إلى قضية الحضارة وإلى قضية المدنية ـ أيها الإخوة : إن قضية الحضارة الآن في عصرنا أصبحت صنماً من الأصنام ينبغي أن نتنبه إلى خطورته، في الأصل الأمة المتفوقة مدنياً يصيبها الغرور في العادة، والأمة المتخلفة مدنياً يصيبها عقدة نقص بشكل عادي، الأمة المتخلفة مدنياً تصبح تقلد الأمة المتقدمة مدنياً، هذا شيء نراه من استقراء التاريخ عندما كان المسلمون في يوم من الأيام هم المتقدمين مدنياً، كان باباوات روما يلبسون اللباس العربي، عندما أصبحنا في الوضع المقابل أصبحنا نلبس لباسهم، عندما كنا متقدمين مدنياً دخلت كلماتنا في لغاتهم. عندما أصبحوا متقدمين مدنياً دخلت كلماتهم في لغاتنا. الأمة المتخلفة مدنياً تشعر بعقدة النقص وبالتالي تقلد، الأمة المتقدمة مدنياً تشعر بعقدة الغرور فتحب أن تسيطر. في قصة سليمان عليه الصلاة والسلام نجد أن ملكة سبأ عندما جاءت إلى سليمان وأراها عرشها قالت « كأنه هو »، هي معجزة ومع ذلك فإن هذه المعجزة لم تجعلها تدخل في الإسلام، متى دخلت في الإسلام ؟ « قيل لها ادخلي الصرح، فلما رأته حسبته لجَّةً وكشفت عن ساقيها »، كان مصنعاً تصنيعاً عجيباً حسبته لجة، صرح ممرد من قوارير كأنه موج لا يكاد الناظر يدرك أنه زجاج، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قالت انه صرح ممرد من قوارير، عندئذ أسلمت « قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »، هنا تفوق مدني أثر عليها فأدخلها الإسلام. عندما تكون الأمة متخلفة مدنياً يكون عندها عقدة نقص، عندما تكون

متقدمة مدنياً يكون عندها غرور ورغبة في السيطرة. نحن أيها الإخوة وفي عصرنا ونحن متخلفون مدنياً في هذا العالمْ عاشت شعوبنا عقدة النقص، وأراد لنا غيرنا أن يسيطر علينا وأن يحكمنا وأن يتعامل معنا بلغة الغرور، ومن جملة هذه اللغة التي أثرت فينا بسبب عقدة النقص عندنا ان كل جهة في هذا العالم المدمر الممزق تقول لنا نحن متقدمون مدنياً، هم يقولون حضارياً، نحن لا نعترف بذلك، يقولون نحن متقدمون حضارياً بسبب نظامنا وأنتم أيها المسلمون متخلفون بسبب نظامكم، الطريق أمامكم للتقدم هو أن تأخذوا طريقنا، أن تقبلوا نظامنا، تقول هذا الرأسمالية لشعوبنا وتقول هذا الشيوعية لشعوبنا، ويقول هذا غيرهم وغيرهم كذلك لشعوبنا. وشبابنا الممزق غير الواعي يستجيب لهؤلاء وهؤلاء لأنه تعبدته فكرة الحضارة، لأن عقدة النقص عنده موجودة، لأن وعيه ناقص، تكون النتائج أن ترى هذا الوضع الممزق في شعوبنا وهي أن قسماً من شعوبنا خطفته مدنية أمة ما وأفكارها، وقسماً آخر خطفته مدنية أمة ما وثقافتها وتفكيرها، لذلك أيها الإخوة لا بد أن نضع هذه الأمور في مواضعها، لا بد أن نعرف أن للنظام دوره في إيجاد تقدم مدني، ولكن التقدم المدني يمكن أن يوجد مع أكثر من نظام متى وجدت قوانين التقدم، وعلينا في الوقت نفسه كذلك أن ندرك أننا ونحن نتحدى من خلال التقدم المدني ليس أمامنا خيار إلا أن ندخل معركة التحدي استجابة لتكليف الله عز وجل إيانا لننقل هذا العالم من طور إلى طور ولننقل شعوبنا من طور إلى طور، فإما أن تسحقنا الحضارة المدمرة وإما نسيطر عليها ونوجهها، بعد ذلك قضيتان إذن، القضية المهمة أيها الإخوة التي ينبغي أن تكون في أذهاننا أولاً أن الدعوة إلى نظام من خلال التقدم المدني هذه القضية يغالط بها كثير فإذا لم ندرك نحن قوانين التقدم المدني فإننا سنبقى في مثل هذه الدائرة التي يريد أعداؤنا ان نبقى فيها ولا نعرف أن نتخلص منها، إننا نلاحظ أن في هذا العالم تقدماً مدنياً في النظام الشيوعي، ونلاحظ أن هناك تقدماً مدنياً في النظام الرأسمالي، ونلاحظ أن هناك تقدماً مدنياً في النظام المحافظ كالنظام الياباني في ابتداء نهضته. إذن قد وجد تقدم مدني مع نظام شيوعي ووجد تقدم مدني مع نظام رأسمالي ووجد تقدم مدني مع نظام محافظ مما يدل على أن قضية التقدم المدني تخضع

لقوانين، فأي أمة من الأمم استطاعت أن تكشف هذه القوانين فإنها تستطيع أن تتقدم مدنياً حتى ولو كانت،ثقافتها متدنية حتى ولو كانت ثقافتها غير مناسبة، فما هي قوانين التقدم المدني ؟ ولا أقول التقدم الحضاري. لا يمكن أن نتصور تقدماً مدنياً إذا لم يوجد استغلال كامل للأرض في ظاهرها وباطنها. استغلال الأرض شرط أساسي في التقدم المدني، فعندما ترى شعباً يستغل أرضه ظاهراً في الزراعة وباطناً يستغل موادها الخام استغلالاً كاملاً، عندما نجد شعباً يفعل ذلك يستغل ظاهر أرضه وباطنها يكون قد أخذ بأول قانون من قوانين التقدم المدني، عندما يستطيع شعب أن يستغل وقته وأن يبرمج وقته فلا يبقى عنده وقت ضائع ولا يذهب وقت في غير هدف عندئذ يوجد تقدم مدني، أو تكون هذه الأمة قد عثرت على القانون الثاني من قوانين التقدم المدني. عندما يوجد في أمة اختصاصيون يغطون الحياة كلها ويستطيعون أن يغطوا احتياجات أمتهم في كل شيء، عندما توجد الأمة التي اختصاصيوها يغطون احتياجاتهاتكون هذهالأمة قد عثرتعلى القانون الثالث من قوانين التقدم المدني، ولكن لا يمكن أن تستغل الأرض ولا أن يبرمج الوقت ولا أن يوجد الاختصاص ويؤدي دوره إذا لم يوجد النظام المناسب لذلك، إذا لم يوجد النظام الذي يستطيع أن يعبأ ذلك، إذا لم يوجد الاستقرار المناسب، واذن عندما تستطيع أمة أن توجد نظامها المستقر فإنها تكون قد عثرت على القانون الرابع من قوانين التقدم المدني، عندما يوجد مع هذا كله الثقافة المناسبة للتقدم المدني عندئذ تكون الأمة قد عثرت على القانون الخامس في التقدم المدني، وهي لا بد متقدمة مدنياً سواء كانت شيوعية أو كانت رأسمالية أو كانت محافظة أو كانت غير ذلك، لكن لا بد من توفر هذه القضايا الخمس، لا بد من توفر القوانين الخمسة ـ الثقافة ان لم تكن مناسبة أو مناسبة للتقدم المدني فإن التقدم المدني لا يكون، خذوا مثالاً على ذلك الثقافة الهندوسية ـ ليست قابلة إطلاقاً لأن ينشأ معها تقدم مدني، لماذا ؟ الثقافة التي تحرم قتل الفأر مثلاً ـ قتل الفأر محرم ومن المعلوم علمياً أنه خلال كذا سنة يمكن إذا توالدت الفئران توالداً متوالياً، الفئران فقط يمكن ان تأخذ خيرات الإنسان كلها، يعني هذه النقطة في الثقافة الهندية فقد وهي أن الهندي الهندوسي يحرم قتل الفأر، هذه النقطة

وحدها يمكن أن تدمر حضارة الهند، فثقافة فيها مثل هذه النقطة البسيطة، وبمناسبة ذلك سأعرج على النص الإسلامي الذي يأمر فيه رسول الله ﷺ بأن تقتل الخمس الفواسد التي من جملتها الفأر ندرك في الجزئيات والكليات كيف أن هذا الإسلام له وضعه الخاص، الثقافة النصرانية فيما استقرت عليه الثقافة النصرانية ليست قابلة لان يكون معها تقدم مدني، فالثقافة التي تعتبر أن الأصل الزواج ليس هو الأفضل، الأفضل أن تكون هي العزوبة. الثقافة التي تعتبر الزواج رجساً، هذه الثقافة لو طبقها كل فرد تفنى البشرية كلها من أولها إلى آخرها خلال جيل واحد، فإذن ليست هذه الثقافة مرشحة لأن توجد تقدماً مدنياً، ولا ينبغي أن نخلط إطلاقاً بين التقدم المدني الذي وجد في الغرب وما بين الثقافة النصرانية، لأن الثقافة النصرانية لو أخذت مداها لقتل كل العلماء الذين كان لهم دور في تقدم المدنية المعاصرة، فلا بـد من الثقافة المناسبة للتقدم المدني، ولا بد من النظام. النظام غير المستقر لا يمكن أن يوجد معه شيء فلا بد من استقرار نظام. من خلال الاستقرار يأخذ الاختصاص مداه، تستغل الأرض استغلالاً كاملاً، الوقت يستغل استغلالاً كاملاً ويبرمج بما يحقق الوقت فيه هدفاً، فإذن لا بد من النظام ولا بد من الاختصاص ولا بد من استغلال الأرض ظاهراً وباطناً، ولا بد من برمجة الوقت والاستفادة منه. متى وجدت هذه القضايا الخمس وجد تقدم مدني، انظروا إلى هذا العالم حيثما وجدت هذه القضايا الخمس تجد تقدماً مدنياً، النظام النازي على قسوته لأنه توفرت فيه هذه القضايا الخمس أوجد تقدماً. وجد نظام مستقر، وجدت ثقافة تسمح بتقدم مدني، كل شبر من الأرض مستغل، الوقت كله مبرمج، الاختصاص موجود، كانت النتيجة ان هتلر استطاع خلال ٦ سنوات ان يقفز في بلاده من البلد المقيد بمعاهدة فرساي إلى أن استطاع ان يجعل بلاده تخوض حرباً عالمية تكاد ان تكتسح العالم فيها ـ اليابان كذلك عند ابتداء نهضتها عندما توفرت لها هذه القضايا الخمس، نظام راغب في التطوير وهو مستقر كذلك، ثقافة اعتمدت لصالح التقدم المدني، أرض استغلت، ووقت أحسن الاستفـادة منـه، اختصاص دفع إليه وعقوبة المتخلف فيه القتل، كانت النتائج أن اليابان استطاعت خلال فترة قصيرة جداً أن تقفز قفزتها في عالم التقدم المدني،

المحاضرة مسيرة أخرى، ولما استطعنا أن نتحدث عن مضامينها. كل شيء في هذا العالم يعطل العقل ولذلك لا تقدم ثقافي، وكل شيء في هذا العالم يعطل العلم فلا تقدم ثقافي، ولا اقصد بذلك الوصول إلى القانون وانما اقصد الحياة التي من المفروض أن تنبثق على أساس من القانون. النظرية الشيوعية التي تعطل قانون السببية لا يمكن أن نعتبرها عقلانية، النظرية الشيوعية التي ترفض الأخذ بالعلم إذا تعارض مع مادتها، لقد بقي الاتحاد السوفيتي يحارب نظريات انشتاين ويسجن من يقول بها حتى كادت القنبلة الذرية أن تظهر لأن نظريات انشتاين تتعارض مع فكرة « ديالكتيك » التي يقول بها الشيوعيون فمن قال بأن ها هنا علماً أو عقلاً فإنه يكذب على العلم والعقل. من يقول بأن الحضارة الغربية تبنى على العقل وتبنى على العلم، هل العلم يقول إن الخمرة مباحة، هل العلم يقول بأن الخمرة لصالح الإنسان، ويقول بأن التدخين لصالح الإنسان، ويقول بأن المخدرات لصالح الإنسان، ومع ذلك أليس التدخين مباحاً في كل قوانينهم، أليست الخمرة مباحة في كل قوانينهم، هذا لا يتفق مع علم، أن نعرف القانون العلمي ثم لا نبني عليه، وكذلك القانون العقلي، وانظروا فقط إلى الجانب العلمي في الحضارة الغربية، إلى الجانب العلمي الذي يعبد كل شيء ولو كان غير صحيح وغير حقيقي في مقابل الخدمة الجزئية أو الكلية التي يمكن أن يخدم بها نظام ما، أين الحقيقة في مثل هذه الحالة، الأسئلة في هذه القضايا كثيرة، المهم أن نعرف أنه لا يوجد في هذا العالم على الإطلاق تقدم ثقافي إلا حيث وجد الإسلام، ولا يوجد تقدم حضاري يجتمع فيه التقدم المدني مع التقدم الثقافي إلا حيث وجد الإسلام، لأن الإسلام كما قلنا يفرض التقدم الثقافي ويفرض التقدم المدني، قوانين التقدم المدني كلها مفروضة على هذه الأمة، وقوانين التقدم الثقافي مفروضة على هذه الأمة. فإذا وجدت قوانين التقدم المدني والثقافي على أساس الإسلام الذي هو الوحيد كما قلنا الذي يعطي أنواعاً من التقدم، عندئذ توجد حضارة متقدمة، شرارتها الإسلام، ضابطها الإسلام، موجهها الإسلام وليس الإسلام حيادياً مع أي جانب من جوانبها، وعلينا أن ندرك هذا أيها الاخوان، إن الإسلام قد أعطى الجواب على كل شيء يحتاجه الإنسان، والله عز وجل قال عن كتابه : « ونزلنا عليك الكتاب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله، اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلّا بالله ـ اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم.

أيها الإخوة : لا أكتمكم أنني متهيب هذا اللقاء متهيب الكلام فيه. لأنني أخشى أن أجهدكم بلا طائل مكرراً لما قاله الآخرون، كما أنني أخشى ألا أغطي عنوان المحاضرة، أسأل الله عز وجل أن يجعل هذه الجلسة مباركة وأن يغفر لنا، وأرجو معذرتكم ابتداء.

ماذا تعني كلمة الحضارة ؟ كثيراً ما يحدث لبس بين ثلاث كلمات ـ الحضارة والمدنية والثقافة، ونتيجة لهذا اللبس فقد أراد بعضهم أن يعطي تحديداً لكل كلمة من هذه الكلمات، فقالوا بأن مدنية أمة ما تعني الجانب المادي في هذه الأمة أو لهذه الأمة، وثقافة أمة ما تعني الجانب الآخر في حياة الأمة ولا يقصدون بكلمة الثقافة هنا العلم فقط بل يريدون التصورات والأفكار والسلوك والآداب وكل المعاني التي لا تدخل في الجانب المادي،

فهذه يسمونها ثقافة. ويعتبرون أن حضارة أمة ما تعني مجموع ثقافتها ومدنيتها، إذا توفرت شروط معينة، فالحضارة إذن على رأي هؤلاء هي اجتماع الثقافة مع المدنية ضمن شروط معينة وظروف معينة. إذا أردنا أن نعتمد هذا التعريف المبدئي لكلمة الحضارة، يكون أو تكون حضارة أمة في هذه الحالة هي مجموع ثقافتها ومدنيتها أي الجانب المادي فيها والجانب الآخر بآن واحد. وعلى هذا الأساس فكل أمة من الأمم يمكن أن تكون لها حضارة، إذ ان لكل أمة في هذه الحالة مدنية ما، أي جانب مادي، ولكل أمة كذلك ثقافة بصرف النظر عن مضمون هذه الثقافة، ما إذا كان حقاً أو باطلاً، ما إذا كان مقبولاً أو غير مقبول، بصرف النظر عن هذا فكل أمة لها حضارة. هذه الحضارة هي مجموع مدنيتها وثقافتها على رأي هؤلاء، من الابتداء نقول الأمة ذات الحضارة المتقدمة هي التي اجتمع لها تقدم مدني وتقدم ثقافي، والأمة المتخلفة حضارياً هي الأمة التي اجتمع لها تخلف مدني وتخلف ثقافي، وليست هذه الصورة الوحيدة، فقد نجد أمة متقدمة مدنياً وهي متخلفة ثقافياً، وقد نجد أمة متقدمة ثقافياً ومتخلفة مدنياً، هذا بعض الصورة كذلك، ولأضرب مثلاً يتبين منه بوضوح كيف أن التقدم المدني لا يعني بالضرورة تقدماً ثقافياً، ولا يعني بالضرورة إذن تقدماً حضارياً، لنفرض فرضاً أن مجموعة من اللصوص استطاعت من خلال السرقة ومن خلال الغش أن توجد مجتمعاً وأن تقيم بلداً، هذا المجتمع وهذا البلد لو توفرت لديه كل أسباب الرفاه واستطاع أن يستعمل كل منجزات المدنية فمجتمع هذا شأنه متقدم مدنياً، لأنه استطاع في الجانب المدني، أي في الجانب المادي البحت استطاع أن يستعمل كل منجزات المدنية، ولكن هل نستطيع أن نعتبر مجتمع اللصوص هذا مجتمعاً متقدماً. لو تصورنا مجتمع اللصوص هذا قد اعتمد الاباحية الجنسية، واعتمد المخدرات كشيء رئيسي في حياته، واعتمد كثيراً من الأشياء التي تعتبرها الفطرة البشرية أنها خاطئة، لو أن مجتمعاً هذا شأنه استخدم أعظم منجزات العلم من الناحية المدنية وفي الوقت نفسه هو قائم على اللصوصية والإباحية وغيرها مما تأباه فطرة الإنسان ولا يرضى عنه منطق العقل ولا منطق العلم، فهل نقول عن مثل هذا المجتمع بأنه متقدم ثقافياً ؟ وهل نقول وعلى شيء

فالتقدم المدني أيها الأخوة مرتبط بهذه القضايا، هذه القضايا لا تحتاج إلى شرارة، ولكن تحتاج إلى وجود، فإذا وجدت كانت، ولكن هذه المدنية التي هي أثر على وجود هذه القضايا الخمس يمكن أن توجد مع تقدم ثقافي، ويمكن أن توجد كذلك مع تخلف ثقافي، من يستطيع أن يقول بأن المعاني الموجودة في الغرب حالياً تعني التقدم الثقافي، والمعاني الموجودة في الشرق الشيوعي تعني التقدم الثقافي، هل نظام الاقنان الذي يربط الإنسان بالأرض ربطاً، ويكلف الإنسان به تكليفاً، ليس أمامه خيار أن يرث عمل أبيه، هذا النظام متقدم، كل الناس يقولون هذا نظام متخلف قد طوره التقدم، النظام القائم الآن في روسيا، أليس هو نظام الاقنان قد بلور وتطور بشكل ما، الإنسان ليس أمام خيارات لا في نوع الزراعات التي يزرعها ولا في نوع الصناعة التي يصنعها، هو مكلف أن يكون آلة والويل له اذا شكا أو اشتكى، من يقول ان هذا تقدم في الثقافة. هذا الغرب الاباحي الذي لا يرغب ان تبقى إباحته عند حدود، هذا الغرب الذي يفلسف الاباحة، من يقول إنه متقدم ثقافياً، من يقول إن هذا الغرب الذي اعتمد حتى اللواطة على انها مباحة، من يقول بأنه متقدم ثقافياً، هذا الغرب الذي يعتمد نوادي العري، من يقول بأنه متقدم ثقافياً، هم يقولون بأن الإنسان عندما كان حيواناً كان كذلك، فهو تخلف ورجعية إلى الوراء، الشهوة الجنسية عند كل الحيوانات إنما تستعمل لتؤدي غرضاً، هو بقاء النوع، وذلك يكون بلقاء الذكر مع الأنثى، فعندما يلتقي الذكر مع الذكر أو الأنثى بالأنثى أي تقدم مدني. أي تقدم ثقافي هذا. إذن فيمكن أن تكون أمة متقدمة مدنياً ولكنها متخلفة ثقافياً، لا يمكن أن تكون أمة متقدمة مدنياً وثقافياً في آن واحد إلا بالإسلام، لأن الإسلام يفرض قوانين التقدم المدني فرضاً، وفي الوقت نفسه يفرض قوانين التقدم الثقافي كذلك فرضاً، وفي الوقت نفسه يوجد الشرارة التي تتفاعل بها هذه المعاني كلها، ويوجد الأساس الذي تنبثق عنه هذه الأمور كلها، وهو في نفس الوقت ضابط لهذه القضايا بمجموعها، ثقافة ومدنية، وهو كذلك موجه لها، وهو في كل هذا حق خالص لا يستطيع علم أن ينقضه ولا عقل أن ينقضه. ولو أنني أردت أن أتحدث عن هذا الموضوع بالذات كيف انه لا شيء في نصوص الإسلام ينقضه عقل أو علم لسارت

المحاضرة مسيرة أخرى، ولما استطعنا أن نتحدث عن مضامينها. كل شيء في هذا العالم يعطل العقل ولذلك لا تقدم ثقافي، وكل شيء في هذا العالم يعطل العلم فلا تقدم ثقافي، ولا أقصد بذلك الوصول إلى القانون وإنما أقصد الحياة التي من المفروض أن تنبثق على أساس من القانون. النظرية الشيوعية التي تعطل قانون السببية لا يمكن أن نعتبرها عقلانية، النظرية الشيوعية التي ترفض الأخذ بالعلم إذا تعارض مع مادتها، لقد بقي الاتحاد السوفيتي يحارب نظريات انشتاين ويسجن من يقول بها حتى كادت القنبلة الذرية أن تظهر لأن نظريات انشتاين تتعارض مع فكرة «ديالكتيك» التي يقول بها الشيوعيون فمن قال بأن ها هنا علماً أو عقلاً فإنه يكذب على العلم والعقل. من يقول بأن الحضارة الغربية تبنى على العقل وتبنى على العلم، هل العلم يقول إن الخمرة مباحة، هل العلم يقول بأن الخمرة لصالح الإنسان، ويقول بأن التدخين لصالح الإنسان، ويقول بأن المخدرات لصالح الإنسان، ومع ذلك أليس التدخين مباحاً في كل قوانينهم، ألست الخمرة مباحة في كل قوانينهم، هذا لا يتفق مع علم، أن نعرف القانون العلمي ثم لا نبني عليه، وكذلك القانون العقلي. وانظروا فقط إلى الجانب العلمي في الحضارة الغربية، إلى الجانب العلمي الذي يعبد كل شيء ولو كان غير صحيح وغير حقيقي في مقابل الخدمة الجزئية أو الكلية التي يمكن أن يخدم بها نظام ما، أين الحقيقة في مثل هذه الحالة، الأسئلة في هذه القضايا كثيرة، المهم أن نعرف أنه لا يوجد في هذا العالم على الاطلاق تقدم ثقافي إلا حيث وجد الإسلام، ولا يوجد تقدم حضاري يجتمع فيه التقدم المدني مع التقدم الثقافي إلا حيث وجد الإسلام، لأن الإسلام كما قلنا يفرض التقدم الثقافي ويفرض التقدم المدني، قوانين التقدم المدني كلها مفروضة على هذه الأمة، وقوانين التقدم الثقافي مفروضة على هذه الأمة. فإذا وجدت قوانين التقدم المدني والثقافي على أساس الإسلام الذي هو الوحيد كما قلنا الذي يعطي أنواعاً من التقدم، عندئذ توجد حضارة متقدمة، شرارتها الإسلام، ضابطها الإسلام، موجهها الإسلام وليس الإسلام حيادياً مع أي جانب من جوانبها، وعلينا أن ندرك هذا أيها الاخوان، إن الإسلام قد أعطى الجواب على كل شيء يحتاجه الإنسان، والله عز وجل قال في كتابه: «ونزلنا عليك الكتاب

تبياناً لكل شيء »، فلا يقف الإسلام محايداً أمام شيء يقول عن قضية إنها مباحة فقط، الإسلام هو التغطية الشاملة للحياة كلها ولا يقبل شركة، اذا كانت الشيوعية لا تقبل شركة وهي باطلة، وجوابها باطل، فالإسلام لا يقبل شركة وجوابه صحيح، ومن ثم نقول بأن الإسلام هو الضابط لقضايا التقدم الحضاري جميعاً وهو الموجه، وهو بنفس الوقت كذلك شرارة التفاعل، وهو الأساس الذي ينبثق عنه التقدم الحضاري كله، وإنما نحن في مرحلتنا الحاضرة، السر في وضعنا، السر في تخلفنا، السر في تأثرنا، كل ذلك كامن في أننا لم ندرك حقائق الإسلام هذه لم نعرف الطريق إليها ـ الأرض أيها الإخوة ـ الله يقول : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »، واستعمركم عندما تستعمل الهمزة السين والتاء في هذه الحالة فالمسألة تفيد طلباً، هو أنشأك من الأرض واستعمرك فيها، عليك أن تعمر، عليك أن تعمر هذه الأرض، هو الذي « خلق لكم ما في الأرض جميعاً »، ما في الأرض كلها لك أيها الإنسان، خلق من أجلك. عليك أن تستفيد منه ليس هذا فقط. « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض »، ليست الأرض مسخرة لك وحدها أيها الإنسان، ما في السموات وما في الأرض مسخر لك أيها الإنسان، استفد منه. الأمر مباح لك، إذا استطعت أن تصل إلى القمر وأن تستفيد منه فهو مباح لك، وإذا استطعت أن تصل إلى الزهرة وتستفيد منها فهو مباح لك، السموات والأرض مسخرة لك، دين يقول هذا، من يقول بأنه لا يفرض قوانين التقدم المدني فضلاً عن الثقافي. فإذا ما أردنا أيها الإخوة أن نستأنف حضارتنا من جديد، ليكون ذلك مقدمة للحضارة العالمية المتقدمة، فلا بد أن نضع في حسابنا أولاً الاستفادة من الكون، والاستفادة من الأرض ظاهرها وباطنها، المواد الخام في الأرض الإسلامية من يستفيد منها استفادة كاملة ؟ الأرض القابلة للزراعة في الأرض الإسلامية هل تستغل استغلالاً كاملاً ؟ عدم الاستغلال الكامل للظاهر والباطن من الأرض، عدم الاستفادة مما في القمر إن أمكن الوصول اليه يعود إلى الإسلام ؟ أو يعود لنا ؟ الوقت. عندما نقرأ شمائل رسولنا عليه الصلاة والسلام، فمن جملة ما نقرأه، انه كان يقسم وقته : فقسم للعامة، وقسم للخاصة، وقسم لعبادة ربه، وقسم لأسرته، وقت مبرمج يخدم شيئاً بعينه. لا يوجد عند المسلم وقت

مهدر، ولا يوجد عند المسلم زمن ضائع، ولا يوجد عند المسلم زمن لا يحقق هدفاً. لذلك قال الخليفة الراشد : إني لأكره أن أرى الرجل لا في أمر دنياه ولا في أمر أخراه. الاختصاص. نبذة من الفقه الإسلامي، ارجعوا إلى كتاب أُلِّفَ منذ زمن، مثلاً حاشية ابن عابدين في فقه الحنفية في الصفحات الأولى منه يقول لك بأن هناك علوماً مكروهة، ويقول إن هناك علوماً مفروضة فرض عين، ويقول إن هناك علوماً مفروضة فرض كفاية وإن هناك علوماً مسنونة، وعندما يضرب أمثلة على العلوم المفروضة فرض كفاية على الأمة يذكر ما يسمى الآن بعلم الاقتصاد وما يسمى الآن بعلم التجارة، وهكذا الإسلام يعتبر أن كل علم يحتاجه المسلمون فهو فرض كفاية، حتى قالوا : لو احتاج المسلمون لصناعة إبرة ولم يوجد بين المسلمين من يحسن صناعتها فكل المسلمين آثمون، في عقلية إسلامية متفتحة، لو أردنا أن نطبق هذا المبدأ فماذا نفعل ؟ المفروض ان نحصي كل العلوم التي يحتاجها المسلمون، احصوا كم من العلوم تحتاجها الزراعة، كم من العلوم تحتاجها الصناعة العسكرية، كم من العلوم تحتاجها الصناعة المدنية، كم من العلوم تحتاجها صناعة البترول، كم من العلوم تحتاجها صناعة البناء، إننا نجد ملايين أو آلاف العلوم على الأقل كلها تعتبر فريضة كفاية على الأمة الإسلامية، وليس فرض الكفاية أن يوجد الرجل الذي يعرفها، بل أن توجد المجموعة التي تغطي احتياجات الأمة، وأن يوضح لهؤلاء الطريق الذي يحققون فيه علمهم. يعني لا يكفي أن يوجد المختص في الذرة ثم لا تقوم صناعة ذرة حتى يسقط الإثم، لا بد أن يوجد المختصون ولا بد أن تقوم الصناعة، عندئذ يسقط الإثم عن بقية المسلمين، فنحن عندما نفتش عن حضارة إسلامية، أو عندما نرغب أن يكون هناك تقدم في الأمة الإسلامية، ثم ننظر إلى واقعنا فنرى أن الاختصاص، وإذا وجد الاختصاص فإن المختص يكلف بغير مهمته، أولاً توضع تحت تصرفه جميع الأشياء التي يحتاجها أو أننا نبرمج أو نخطط لنوع من الاختصاص أما النوع الآخر فكأننا لسنا مكلفين به، بالله عليكم أيها الإخوة، لقد كانت الدولة العثمانية على ما فيها قبيل سقوطها تصنع كثيراً من سلاحها بل تصنع سلاحها، قولوا لي الآن أي أمة، أي شعب في هذا العالم الإسلامي يصنع سلاحه، لماذا لا نصنع

سلاحنا ؟ الاختصاص يفرضه الإسلام، فالتخلف المدني الحالي مرجعه إلى أنه : إما أنه لا يرغب في تطبيق، وإما أنه لا يجرؤ على تطبيق النظام. أيها الإخوة، النظام المستقر يفرضه الإسلام ولذلك الحديث الشريف، « إذا بويع خليفتين فاقتلوا الآخر منهما » عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما كلف ستة بالشورى أمر الأكثرية أن تقتل الأقلية إذا خالفت من أجل وحدة المسلمين، من أجل أن يكون نظامهم مستقراً، ولكن أي نظام ؟ النظام الإسلامي ما هو النظام الإسلامي يا أخي ؟ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصر أن يأخذ جواباً على قضية (خليفة أنا أم ملك) ؟ سأل هذا السؤال لأكثر من صحابي وأصر على أن يأخذ جواباً فقالوا له : إذا كنت تأخذ المال من حله وتضعه في محله فأنت خليفة غير ملك، نظام المال لا يؤخذ إلا من حله ولا يوضع إلا في محله، فاذا لم يكن النظام المالي موجوداً فلا نظام إسلامي كامل. عندما نقول إذن النظام الذي يوجد استقراراً. الذي يوجد تقدماً مدنياً مع تقدم حضاري هو النظام الإسلامي القائم على الشورى، والمسلمون جميعاً شركاء في دولتهم، المسلمون جميعاً شركاء في قراراتهم، ليس هناك مسلم إلا وهو شريك، إنما المؤمنون إخوة. ليس هناك في النظام الإسلامي ناس لا يشاركون في القرار، ولا يشاركون في بناء مستقبل أمتهم. فالشورى نظام مالي يؤخذ المال به من حله ويوضع في محله، عدل بعد ذلك. « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »، فإذا لم يكن عدل ولا شورى ولا نظام مالي يؤخذ فيه المال من حله ويوضع في محله لا يكون هذا هو النظام الإسلامي الكامل، فالنظام المستقر المستمر، كل نظام في العالم يمكن أن يتقدم تقدماً مدنياً ولكن لمرحلة، ثم هو يحمل في طياته عوامل تدميره، النظام النازي حوى في طياته عوامل تدميره، النظام الياباني حوى في طياته عوامل تدميره، النظام الرأسمالي والشيوعي يحويان في طياتهما عوامل تدميرهما، وكل الذين يدرسون ويفكرون يقولون هذا، ولكن وبالتالي فالتقدم المدني الذي نراه لابد أن يعقبه في يوم من الأيام دمار وتخريب لماذا ؟ لأنه يوجد نظام مستقر مؤقت وليس دائماً، أما عندما يكون النظام الإسلامي الكامل، القائم على الشورى، القائم على العدل القائم على أخذ المال من حله ووضعه في محله، ليس هذا نظاماً مستقراً فقط بل نظام

مستمر ومستقر، وبالتالي فعندما يكون هذا النظام يفترض معه كل مقومات التقدم الحضاري فهذه حضارة متقدمة متطورة لا تحوي في طياتها إمكانيات دمارها، بل تحوي في طياتها إمكانية استمرارها وإمكانيات تطورها. أما الثقافة الإسلامية أيها الإخوة، الثقافة التي تقوم على التوحيد، هذه ثقافة لا يمكن أن تكون إطلاقاً لغير صالح التقدم البشري، التقدم الحضاري، والتقدم المدني، أيها الإخوة ماذا يعني عندما يسخر الفراعنة ملايين من البشر لصناعة قبر لهم لأنهم يعتبرون أنفسهم آلهة، وتعتبرهم شعوبهم آلهة، هل هذا لصالح التقدم البشري أن يسخر شعب بأكمله من أجل أن يصنع قبراً لفرعون هذا أثر من آثار الشرك، هناك طائفة في العالم كل سنة تزن من تعتبره إلهها، من تعتبره قد تجسدت فيه ألوان الإلهية، تزنه بالذهب وتقدمه له هدية، شعب كامل يشتغل ليلاً ونهاراً من أجل أن يقدم لإنسان هدية يمكن أن يقدمها لراقصة وقد قدمها لراقصة، هذا مظهر من مظاهر الشرك، ماذا يعني تقديس البقر، يعني شعباً كاملاً مسخراً لخدمة البقر، فبدلاً أن يكون كل شيء مسخر للإنسان وتلك عقيدة التوحيد، الشرك يجعل الإنسان أحقر الأشياء، المشرك الذي يعبد صنماً يعتبر الصنم أرقى منه، فهو أدنى من الحجر، الذي يعبد الشمس كذلك. الملحدون من نظن أنهم غير مشركين، الملحدون مشركون ولكن من نوع خاص، بدلاً من أن المشرك في يوم من الأيام كان يعبد جزءاً من الكون، الملحد أعطى الكون خصائص الإله، أعطى الكون صفات الإله ثم عبده، قد لا يتوجه إلى الشمس والقمر بالعبادة، ولكنه يتوجه لذاته التي هي جزء من الكون بالعبادة « أرأيت من اتخذ إلهه هواه »، الثقافة الإنسانية التي تقوم على التوحيد هي ثقافة تجعل كل شيء مسخراً للإنسان، كلنا قرأنا، كلنا سمعنا عن ناس قتلوا أبناءهم، عن ناس قتلوا آباءهم لماذا ؟ أليست هناك رحمة ؟ أليست هناك رأفة ؟ أليست هناك عواطف إنسانية؟ كيف تنمو عواطف الإنسان؟ كيف تطلق صفاته إن هذا يحدث من خلال العبادة، الله عز وجل أعطى الإنسان كثيراً من صفاته كثيراً من أسمائه، من أسمائه الرحيم، طالبنا أن نكون رحماء، من أسمائه الرؤوف، طالبنا أن نكون رؤوفين، من أسمائه الكريم، طالبنا أن نكون كرماء، من صفاته الإرادة، أعطانا إرادة، وطالبنا أن نوجهها في طريق معين،

عندما يعرف الإنسان الله ويتقدم له بالعبادة، هذا وحده ينمي خصائصه الإنسانية تنمية لا مثيل لها، عندما تسجد لله عز وجل تتساقط الكبرياء عن نفسك، تتساقط معاني العظمة في نفسك، الإنسان الذي يأبى السجود لله لا يمكن إلا أن يكون متكبراً، تنمو خصائص العبودية عند الإنسان وفي الوقت نفسه تنمو خصائص الإنسانية عند الإنسان بأن يرتقي في كثير من أسمـاء الله عـز وجـل مع العبودية الكاملة لله، الثقافة الإسلامية منطلقها التوحيد وكل ما فيها لصالح انسانية الإنسان، والصلاة التي تعتبر رمزاً على الإسلام كله سواء في معانيها أو في الأشياء التي ترافقها، أنت تلاحظ أن من جملة معانيها أنها تحررك من كثير من أخلاق لا ترضي، تجدون في النصوص أن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى عن نقر الديك، عن افتراش الثعلب، عن إقعاء الكلب. الإسلام كله أيها الإخوان تنمية لخصائص الإنسان، وبلا إسلام فلا إنسانية، ولذلك تجدون أن القرآن الكريم عبّر عن غير المسلمين بأنه حيوان أو خشب أو حجر « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة »، « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، كأنهم خشب مسندة »، « إن هم إلا كالأنعام بل أضل »، « إن شر الدواب عند الله الصم البكم »، لا تنمو إنسانية الإنسان إلا بالإسلام، فالثقافة التي تنمي إنسانية الإنسان وتضعه في محله وبنفس الوقت توجهه في جوانب التقدم البشري جميعها في جوانب الحضارة كلها هذه ثقافة وحيدة يمكن أن تكون متقدمة، وما سوى ذلك فلا يوجد في العالم ثقافة متقدمة، ولذلك فلا يوجد في العالم حضارة، الثقافة التي تقول للإنسان يفترض على عقلك أن يفكر حتى يعرف الله، يفترض على عقلك أن يعرف الله من خلال التأمل والتفكر، وإذا لم تعرف الله عن طريق العقل والفكر فأنت، إما آثم علي رأي بعضهم، وإما لم تدخل في الإسلام أصلاً، بينما الديانة المسيحية مثلاً يقولون إن قضية التثليث هذه قضية لا نستطيع أن نقدم لها دليلاً عقلياً، ولكن ربما جاءت أيام استطاع الإنسان أن يكتشف أدلتها العقلية، فارق كبير جداً بين ثقافة هذا شأنها، وبين ثقافة الجمال، جمال القلب والبياض بياض القلب، والله عز وجل ينظر إلى القلوب لا إلى الصدور والأجسام، والمؤمنون إخوة، وبين ثقافة لم تستطع حتى الآن أن تهضم فكرة إخاء الأسود مع

الأبيض، وبين ثقافة لم تستطع حتى الآن أن تتحرر من فكرة أن الناس بعضهم خلق من وجه الاله وبعضهم حلق من قدميه، هؤلاء منبوذون وهؤلاء مقدسون، الأولون لا يجوز أن يلمسوا الآخرين، ليس فقط أن لا يلمسوا الآخرين، بل ألّا يمر خيالهم على الآخرين، فلو مر خيالهم على الآخرين يكونون قد ارتكبوا ذنباً، ولذلك فعلى المنبوذ أن يظهر صوتاً من فمه يشبه صوت الخنزير، لإشعار الهندوس، لإشعاره بأنه مار فليتنحى عنه، ثقافة هذا شأنها لا يمكن أن تقارن بثقافة هذا شأنها، هذه ثقافة متقدمة وهذه ثقافة متخلفة، إن هذه الثقافة يوجد على أساسها تقدم حضاري، وتلك ثقافة لا يمكن أن يوجد معها حضارة متقدمة، الإسلام إذن أيها الإخوة يفرض كل عوامل التقدم ولكن إذا أردنا أن نذكر ركناً آخر من أركان التقدم الحضاري في الأمة الإسلامية، وللأمة الإسلامية، فلا بد أن نعطي قضية الخصائص محلها، فالتقدم الحضاري في الأمة الإسلامية أركانه : أرض مستقلة، وقت مستقل ومبرمج، اختصاص يعطي احتياجات الحياة جميعاً، ثقافة إسلامية شاملة كاملة، حق، وربانية، نظام مستقر ومستمر.

أيها الإخوة، المجتمع الإسلامي الآن يفقد خصائصه إلّا قليلاً، أين خصائص حزب الله كما ذكر في القرآن، أين هي - « يحبهم ويحبونه »، « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله »، « إنما وليكم الله ورسوله ». أين هذه إلّا عند القليل، أين خصائص جماعة المسلمين « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضبوا هم يغفرون، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون، والذين إذا اصابهم البغي هم ينتصرون ». أين هذه الخصائص إلّا قليلاً، أين خصائص وراث الأنبياء، كان رسول الله ﷺ إذا وقف للصلاة يسمع من جوفه كأزيز المرجل من خشية الله عز وجل، أين هذا، أين خصائص وراث الأنبياء، أين خصائص جماعة المسلمين التي ينبغي أن تتوفر في كل فرد منهم، أين خصائص المجاهدين الذين مهمتهم أن يجعلوا هذا العالم كله خاضعاً لكلمة الله. هذه الخصائص لا بد أن نعتبرها ركناً من أركان الحضارة الإسلامية المتقدمة. أيها الإخوة أريد أن أنتقل

من هذا الموضوع، مع أن هذا هو صلب المحاضرة، أريد أن أنتقل إلى قضايا أخرى.

نحن أيها الإخوة كسالى واقصد نفسي، أقصد نفسي لأنه من جملة ان كل منا يطالب أخاه وينسى نفسه، فأنا أقول عن نفسي أيها الإخوة نحن حتى الآن نتصور اننا بمجرد أن نتكلم غيَّرنا نظام العالم، حتى الآن نحن نتصور أننا مكلفون ضمن عالم الخوارق ولسنا مكلفين ضمن عالم الأسباب، نحن مكلفون ضمن عالم الأسباب ولسنا مكلفين على أن هناك خوارق، الخارقة نؤمن بها وقد وقعت للرسل عليهم الصلاة والسلام وتقع للأولياء ونحن نؤمن بها، ولكن لسنا مكلفين على أن هناك خوارق، نحن مكلفون بعالم الأسباب، ولكن أين نحن من عالم الأسباب في تطلعاتنا وفي ما نريده لأنفسنا ولأمتنا، أين نحن من هذا، أرى كثيرين منا يقولون : الإسلام إذا طبق حلت جميع المشاكل، الإسلام هو حل كل المشاكل، والله هذا صحيح يا أخي، والله هذا صحيح تماماً، ولكن الصحابة رضوان الله عليهم هل بمجرد أن قالوا بالإسلام انحلت كل المشاكل، أو أن كل قضية من القضايا عرفوها وساروا في الطريق الموصل لتحقيق ما ينبغي فيها ؟ لن تنحل مشكلة في هذا العالم إلّا إذا عرفنا الأسباب التي توصل إليها، لن نصل إلى هدف إلّا إذا عرفنا الأسباب التي توصل إلى هذا الهدف، الله عز وجل في القرآن يقول : « ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض » ـ ليبلوا بعضكم ببعض ـ « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » ـ نحن لم نكلف بالخوارق، نحن كلفنا ضمن عالم الأسباب، أنت مكلف بكذا فما هي الأسباب الموصلة إليه، مكلفون بالصلاة ما هي الأسباب التي توصلني إلى إقامة الصلاة، مكلفون بأن تكون كلمة الله هي العليا، فما هي الأسباب الموصلة لذلك، كثيرون منا يحملون المسئولية لله في ذلك، كأن ربنا عز وجل لم يقل « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »، ما هي الأسباب التي توصل إلى هذا الأمر ؟ قد يكون يفترض علينا أن نحقق خمسين ألف قضية من أجل أن نصل إلى تحقيق هذا الأمر، كلها نحن مكلفون بها، نحن لا نكلف أنفسنا حتى عناء التفكير ببعض الأسباب، أي منطق هذا أي تفكير هذا ـ أيها الإخوة، ابرئكم من ذلك، كل الكلام موجه

إلى نفسي، أي تفكير هذا أيها الإخوة، الله عز وجل وصف ذي القرنين، قال « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً »، آتاه الأسباب الموصلة إلى الغايات. إسرائيل وجدت؛ ما هو الطريق لإنهائها، ما هي نقطة البداية، وما هي النقطة الثانية، وما هي النقطة الثالثة، من يفكر في ذلك، كل ما كلفنا الله عز وجل به إلّا قليلاً نحن نطلب من الله أن يفعله لنا، هذا لسان الحال، « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ، لو كنا مسلمين حقاً ولو كنا مؤمنين حقاً لفكرنا ما تكليف الله لنا في هذه اللحظة. ما هي نقطة البداية ؟ ما هي الخطوة اللاحقة ؟ ما هي الخطوة التي بعدها ؟ عندما يوجد المسلم الذي يفكر، ويوجد المسلم الذي يلتزم، ويوجد المسلم الذي يبدأ من الصفر ولكنه يخطو في كل يوم خطوة عندئذ يكون المسلمون قد بدأوا سيرهم، قد يطول زمن، قد يقصر زمن، قد تحقق زمناً، خلال خمس سنين قد لا تحقق، لكن نكون قد حققنا ما أمرنا الله عز وجل من سننه، إن من أراد شيئاً أعطاه الله عز وجل إياه، « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن »، من أراد الآخرة وسعى لها سعيها، بالوقت نفسه الذين يريدون الدنيا، الله عز وجل كذلك يعطيهم الدنيا إن شاء، من سننه جل جلاله أن الإنسان الذي يريد شيئاً ويسير في طريقه أن يعطيه إياه، نحن لسنا مكلفين بالنتائج لكنا مكلفون أن نسير في الطريق المناسب لذلك، علينا أن نعرف نقطة البداية.

أيها الإخوة، علينا أن نسير في الطريق الذي يحقق الهدف الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، ونحن أمة موعودة من ربها بالنصر، ونحن على أبواب مرحلة جديدة، هذه المرحلة الجديدة وجدت فيها مبررات جديدة وانتهت مبررات قديمة، نحن على أبواب مرحلة جديدة هذه المرحلة الجديدة أروي فيها حديثاً وأنقل فيه النص الذي نقله أستاذنا المودودي رحمه الله في كلامه عن التجديد الديني في الإسلام هو نص حديث الموافقات. « إن أول دينكم نبوة ورحمة تكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله ــ هذه المرحلة الأولى في الأمة الإسلامية ــ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تكون فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله ــ النصوص الصحيحة تثبت على أن هذه المرحلة انتهت برأس الثلاثين سنة لأن

الحديث الآخر يقول : « الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوداً ».
لكن « ملك عضود » يعني أنه لا يوجد فيه شيء من الإسلام ولا يعني أن لا توجد فيه أحياناً رجالات توفرت فيها معاني الخلافة الراشدة لا ـ ثم يكون ملكاً عاضداً يكون فيكم ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله، ثم يكون ملكاً جبرياً يكون فيكم ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة يرضى عنها ساكن الأرض وساكن السماء ».

أيها الإخوان، نحن في مرحلة مخاض جديدة ونحن فيها بإذن الله منطلقون، ومع أننا قادرون على أن نفلسف الأشياء ولكننا منطلقون بروح الإيمان وبعقلية المؤمنين بإذن الله عز وجل، نحن أيها الإخوة، لا أقصد ذاتي أقصد أنتم جميعاً، أقصد كل من آمن بالإسلام والتزم به، أقصد كل من وعى تكليف الله عز وجل إياه، إن هذه الأمة التي وعت أو التي بدأت تعي، إن هذه الأمة منطلقة، والذي لا يعرف ما يحدث الآن من تفاعلات، ستندم القوة الكبرى في هذا العالم، ستندم وكثير من الناس الذين يحاربون الإسلام سيندمون، وكثيرون من الناس الذين لا يجرؤون أن يقيموا الإسلام كله سيندمون، إن هناك تفاعلات جديدة تحدث في هذا العالم قد يسقط فيها ناس كثيرون، ما بين مشرد ومعتقل وقتيل وشهيد، قد يحدث هذا كله، ولكنها مرحلة لا بد أن تصل في النهاية بإذن الله إلى أن نقطف ثمارها، ولأن يكون المسلمون بيدهم مفاتيح هذا العالم، الذي يتصور بأننا لن نملك مفاتيح هذا العالم بسبب القوى المادية التي نراها الآن، هذا الإنسان، والله واهم، ووالله لنمكنن من مفاتيح هذا العالم نحن المسلمين وفي ذلك أحاديث رسولنا عليه الصلاة والسلام مبشـرة، وإذا قالهـا عليه الصلاة والسلام فإنها واقعة لا محالة، وقد قالها وهي واقعة لا محالة، وسيرى المتريسون، وسيرى كذلك كما قلنا كل هؤلاء الناس، إنهم سيندمون، إن القوى الكبرى في هذا العالم إذا لم تعرف ماذا يجري وتعرف كيف تتعامل معه، وإن القوى على الأرض الإسلامية التي لا تعرف ما يجري من تفاعلات والتي لا تعرف ما هي القوى النفسية الهائلة التي يعطيها الإسلام لأبنائه إذا حملوه، إن على هؤلاء أن يعرفوا وإن موعدنا معهم قريب بإذن الله عز وجل، أقول هذا القول واستغفر الله لي ولكم.

النّـدوَات وَالمنَاقشَـات العَامَّة

موضوع النـــدوة :

الدور الحضاري المعاصر للفقه والفكر الإسلامي

كلمة الأستاذ يوسف العظم

كلمة الأستاذ أحمد محمد جمال

كلمة الأستاذ يوسف العظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخليله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ..

فإنه ليسرني في هذه الساعة المباركة واليوم السعيد أن أرحب بهؤلاء الإخوة، وأن نلتقي بهذه الصفوة الممتازة من أبناء أمتنا الإسلامية الماجدة التي اختارت الإسلام لها طريقاً والدعوة إلى الله منهجاً، والعمل على إعلاء كلمة الله في الأرض هدفاً، ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، ويسرني أن يتم هذا اللقاء في ظروف دقيقة من تاريخ أمتنا الماجدة، في فترة دقيقة من تاريخ أمتنا الماجدة التي مرت بها موجة عاصفة من الدعوات المضللة والمبادئ الهدامة التي أخذت بها ذات اليمين وذات الشمال تحت ظل مبادئ تنطلق، إما من منطلقات قومية عرقية وإما من منطلقات تعتمد على دغدغة المشاعر حول العدة وما يتصل بها وزعم أخذ العدالة الاجتماعية من غير الإسلام، وأحياناً في ظل علمانية ضالة غربية، كل هذه المبادئ جاءتنا من وراء البحار ومن خلف السهوب، غريبة على هذا الوطن ـ على الوطن المسلم، باتساع رقعته وتباعد دياره، وقد

عاشت الأمة الإسلامية في فترة التيه التي تزيد عن ربع قرن من الزمان، وقد جربت خلال هذه الفترة من تاريخ حياتها هذه الأفكار كلها، وقد باءت كلها بالفشل الذريع بحمد الله، ولم يعد في مقدور أصحابها أن يدللوا على أي نجاح حققته، على أي قدر من النجاح حققته في هذه الفترة الطويلة، بل إنها زادت من تخلف الأمة الإسلامية، وجعلتها تعيش في فترة من التمزق، الاختلاف والتباعد والتنافر على الأساسيات، ولهذا فإن لقاءنا في هذه الفترة بحمد الله يتم على بوادر صحوة جديدة لهذه الأمة الماجدة، التي حصلت القناعات عند الكثيرين من أبنائها على مختلف المستويات أن حل مشكلاتنا لن تتم إلا بالعودة إلى هذا الدين، في أصوله وفروعه، في عقيدته ومبادئه، ويسرنا أيضاً أن نلتقي هذا اللقاء لنتدارس أحوال أمتنا المسلمة وما آلت إليه، ونتلمس مواطن الضعف، ونبحث عن الوسائل التي يمكن بها النهوض بهذه الأمة من كبوتها، وخير من يناقش مثل هذه الأمور هذه الصفوة الممتازة من رجال العلم والفكر والأدب والدعوة إلى الله ــ الذين تمرسوا بها فترة طويلة من حياتهم، فنرجو أن يكون في لقائنا هذا خيراً للجميع. ومما يزيد أيضاً في سروري بهذه الندوة أن موضوعها من الموضوعات الهامة التي تتصل بالمنهاج العملي التطبيقي للأمة الإسلامية في حضارتها الطويلة، وموضوع الندوة كما يعرفه الجميع : **الدور الحضاري المعاصر للفقه والفكر الإسلامي**، والفقه في مفهوم علماء المسلمين الأوائل حتى أواخر القرن الثاني يعني الشريعة كلها، لأنه يشمل العقائد، كما يشمل المبادىء الهامة في الأخلاق والسلوك في أمور الدنيا والآخرة جميعاً، إلى جانب الأمور الفرعية والمعروفة بالفقه في عهدنا الحاضر، وإن كان الفقهاء المتأخرين قد حصروا الفقه أو مفهوم الفقه في الأحكام الفرعية العملية التي تؤخذ من الأدلة الشرعية، فإن الفقه في الأصل يعني الشريعة كلها، ولهذا فإن الإمام أبا حنيفة رحمه الله عرف الفقه بأنه معرفة النفس ما لها وما عليها، فهذا الموضوع الذي سنتناوله في هذه الندوة موضوع واسع مهم وسع حضارتنا في تاريخها الطويل، نظم حياتها في مختلف جوانبها، قاد الأمة قيادة رشيدة في كل مراحل النشاط البشري، وهو بحمد الله اليوم قادر على أن يقود هذه الأمة إلى الخير والبر والرشاد، لأنه يستند في أصوله ومبادئه إلى كتاب الله

وسنة رسوله ﷺ، وما يتفرع عنهما من أصول تابعة لهذين الأصلين، ومما يزيد في سروري أيضاً كذلك بهذه الندوة أن يشترك في الحوار فيها قطبين يعرفهما الجميع، هما الأستاذ : **يوسف العظم**، صاحب مدارس الأقصى والداعية الإسلامي المعروف، وهو غني بمكانته وجهاده ومواقفه عن التعريف. والأستاذ الفاضل الكبير الأستاذ **أحمد محمد جمال**، أستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز، وهو بنشاطه ومواقفه وتاريخه غني أيضاً عن التعريف، بمواقفهم وحياتهم وتاريخهم وجهادهم لأنهم يعملون بحمد الله وفي سبيل الله وجزاؤهم على الله.

وبعد هذه المقدمة، أود أن نعرف الطريقة التي تسير عليها الندوة، وهو أن يطرح الموضوع برمته على كل من المشاركين في الحوار، وإلى جانب هذا فإنه سيكون هناك فرصة لا تزيد عن ربع ساعة للأسئلة التي يمكن أن ترد على المحاضرات أو على الحوار، ونرجو أن تكون هذه الأسئلة محددة فيما يتكلم فيه المحاضرون أو المشاركون، ليست محاضرات وإنما هي حوار، يعني كلمات، فأرجو من له سؤال يتصل بالحوار نفسه أو الموضوع نفسه أن يكتبه حتى نستطيع أن نعرضه على المحاضرين أو على المشاركين في الندوة، والوقت قصير ونرجو أيضاً من الإخوان المشاركين في الحوار ألا يزيد كل واحد في الحديث عن ثلث ساعة لأن البرنامج فيه أيضاً لقاءات أخرى ومحاضرات، فأرجو من الأستاذ يوسف العظم أن يحدثنا عن الدور الحضاري للفقه الإسلامي، فليتفضل مشكوراً.

الأستاذ يوسف العظم ..

بسم الله الرحمن الرحيم ـ والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين. أيها الإخوة..

أحييكم بتحية الإسلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

لست بالفقيه ولا بالعالم ولكني تلميذ على موائد العلم عند هؤلاء، وظمآن أتوق لرشف الزلال من فيض علمهم، فأستميحهم عذراً إذا أخطأت، غير أن الموضوع المطروق لا يتناول أحكاماً فقهية مما يجرئني على أن أقف متحدثاً في هذا المجال. ولقد استمعنا عبر هذا اللقاء الرابع من لقاءات

الندوة العالمية للشباب الإسلامي لمحاضرات عدة وأحاديث كثيرة تناولت الفقه الحضاري وتناولت الحضارة الإسلامية وتناولت القيم الإسلامية في المجتمع المسلم، واليوم يطلب إلينا أن نتحدث عن الدور الحضاري المعاصر في موضوع الفقه والفكر الإسلامي، والفقه لغة يعني الفهم، والفكر والتفكر والتفكير ألفاظ لمدلولات تتناول أعمال العقل بقصد الوصول إلى الحق والخير وتجنب الباطل والشر، وعليه فالفقه فهم شرع الله فهماً سليماً، والعمل على تطبيقه في ميادين الحياة، ولقد عرف العلماء هذا المعنى فلم يحصروه قديماً كما حصر اليوم، ولم يحبسوه بين دفات الكتب ولا على أرفف المنازل والمكتبات، عرفوا الفقه بأنه معرفة شئون الحياة جميعاً في ظلال القرآن، بل معرفة أحكام الدارين الدنيا والآخرة، ومن التعاريف الرائعة في الفقه ما دلت عليه الآية، « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »، وبعض المفسرين يعلق إذ يعرف معنى أهل الذكر بأنهم العارفون بسنن الله في خلقه، من هنا لا أرى أن معنى الفقه هو الاطلاع الواسع العميق على أحكام العبادة من صلاة وصوم وزكاة وحج وتلاوة قرآن، فذلك الجزء العبادي في الأفق الخاص للعبادة، إنما الفقه أن يعرف الفقيه كل شئون الحياة ـ فكيف يبدع الفقهاء اليوم ؟ وكيف يعملون حتى يكون لهم الدور الحضاري الكبير في عصرنا الحاضر، هذا المعنى لا بد من أن يكون الفقهاء من أساتذتنا وعلمائنا الأجلاء على مستوى المسئولية الفكرية في أرقى مستوياتها وأدق تفصيلاتها دون الاكتفاء بالعيش مع الكتب أو إصدار الأحكام على كثير من ممارسات الناس الحياتية، وهم لا يعيشون مع الناس أو لا يطلعون على معطيات العقل البشري الذي أبدع الله صنعه، ولا بد للفقيه المسلم المعاصر أن يكون على قدر وافر من سعة الأفق والاطلاع الغزير والشموخ أمام الباطل ليصنع الأحداث لا أن يعطي فيها الفتاوى المميتة الجامدة التي لا تتجاوز سطور الكتب أو كلمات الألسن، لا يقبل من الفقيه المعاصر أن يطلق فتوى في تحريم أمر أو تحليله وفق أحكام الكتاب والسنة، ثم يبقى في بيته لا يدري أحد به ـ الفقيه يصنع الأحداث فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، الأحداث كلها سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية، ومن هذه الأحداث الشئون التي تتعلق بالعبادة في محراب الصلاة أو تلاوة القرآن. من هنا أرى أن يكون هناك

تبادل معرفة بين الناس في مختلف تخصصاتهم، يلتقي علماء العلوم الكونية بعلماء العلوم الشرعية فيعلم علماءُ العلوم الشرعية علماءَ العلوم الكونية الأمور التعبدية التي تجعل صلاتهم وعباداتهم وصومهم وزكاتهم على مستوى مرضي ومقبول من الله تبارك وتعالى، ويلتقي علماءُ العلوم الكونية مع علماء العلوم الشرعية فيخرجوهم إلى أن يعرفوا كثيراً من شؤون الحياة، وليس بشرط أن يكون الفقيه المعاصر ملماً بكل العلوم الكونية، من كيمياء وفيزياء وما إلى ذلك، ولكن لا بد له أن يكون ملماً بجانب من المعرفة التي تمكنه أن يصدر حكماً شرعياً على قضايا تطرح اليوم كالصعود إلى القمر، والوصول إلى المريخ وما إلى ذلك، لا بد إذن للفقيه المعاصر أن يطلع في علم غزير على كل ما يحيط به، لا يجوز ولا يقبل من فقيه ألا يعرف اتفاقية سياسية تقودنا إلى ذل واستخذاء مع اليهود بزعم أن هذه سياسة، بل لا بد للفقيه أن يدرك أحكامها وأن يعرف مراميها، حتى إذا ما وفق وأصدر حكماً قاطعاً جازماً مستمداً من الكتاب والسنة قال حرمت الصلح مع اليهود للأسباب التالية، ثم يعددها، وحكمت على من يصالح اليهود بالحكم الفلاني، ثم يعدد الأسباب التي اعتمدها. الفقيه المعاصر، لا بد أن يعيش حياة المسلمين لكي يصنع الأحداث فيها وكي يضع الإطار الإسلامي لها، فلا يخرج المسلمون عنه ولا يتعدوا حدود شرع الله تبارك وتعالى كما حدده الفقيه، مستمداً هذا الإطار من الكتاب والسنة ومن القضايا المطلوبة من الفقيه المعاصر، كذلك لا بد له أن يمارس الحياة في كافة جوانبها في إطار نظيف وعفة خالصة ثم يصدر بعد ذلك الأحكام على قضايا نسمع الحديث عنها ـ التأمين فكرة ـ والتأمين تطبيقاً ـ الأعمال المصرفية ما يحرم وما يحل ـ الصلح مع اليهود كما أشرت، أكل اللحوم المجمدة حتى بدأ الأمر مضحكاً يهزأ بنا الأعداء أو الغرب والشرق فيصدر لنا أسماكاً يكتب عليها مذبوحة على الطريقة الإسلامية، وأنتم تعلمون أن السمك مما أحل للمسلمين فلا يذبح ـ كثير من قضايانا الحياتية لا يصدر فيها حكم قاطع وتظل بين شرق وغرب، وتردد ذات اليمين وذات الشمال، والشباب لا يعرفون بما يأخذون وبأي رأي من الفقهاء يتبعون، وانقطاع العلماء عن الإطلاع والعطاء والتزود بالمعرفة، أدى إلى أن يتحول مجتمعنا إلى مجتمع استهلاك لا

مجتمع إنتاج. ولقد أعجبني معنى رائع للبروفسور الدكتور نجم الدين أربيكان عندما قابلته في أنقره، قال : يا أخي أنا أتمنى أن يأتي اليوم الذي أحارب فيه اليهود، ولكني لا أحب أن أحاربهم بقنبلة من صنع أمريكا ولكن بقنبلة تصنعها يد مؤمنة متوضئة، هذا الأمر الذي لا بد منه وهو اليوم الذي تواجهه إيران إذ تبحث عن قطع للغيار فلا تجد. من هنا على الفقهاء أن ينبروا ويقولوا للمسؤولين الذين يتصدرون مراكز السياسة والقيادة والسيادة ومراكز المال، لا بد أن تقام المصانع الحربية في ديار الإسلام لا أن نستورد كل شيء، حتى الفكر نستورده معلباً مع الثياب والأحذية، لا بد إذن أن يقف الفقهاء يأمرون الناس بالمعروف، ومن الأمر بالمعروف أن يقولوا لأولى الأمر عليكم أن تقيموا المصانع للسلاح لكي يحمل الجند بندقية تصنعها يد مؤمنة، وقذيفة تنطلق ومعها قول الله تبارك وتعالى، « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ». ومن القضايا التي لا بد من طرحها في مجتمعنا أن نغير البرامج التي نعيشها الآن في كليات الشريعة، أو أن ندخل عليها تعديلاً، ففي كليات الشريعة في بعض ديار الإسلام ينحصر مفهوم الفقه كما أشرت إلى موضوع العبادات ويقف الشاب ليكفر الماركسية والماركسيين دون أن يعرف شيئاً عن الماركسية والماركسيين أو الوجودية والوجوديين، لا بد إذن أن يطلع الشباب المؤمن الذي يرشح نفسه أن يكون فقيهاً من فقهاء هذه الأمة على كل ما يقدم في مجتمعه من ضلالات، ورحم الله الإمام ابن تيمية الذي كتب عن الفرق الضالة لأنه كان يعيش عصره، وفقهاؤنا اليوم أرشح لهم كتب كارل ماركس، وأنا لا أخشى عليهم من الضلال فلقد اجتازوا مرحلة من مراحل الخوف عليهم في هذا المجال. أرشح لهم كتب هيجل، كتب فرويد، كتباً كثيرة من التي تطرح في سوقنا للشاب الذي لا يعرف من حقيقة فقهه شيئاً، لكي يصدر الفقهاء عليها أحكاماً تبين أين يكمن الضلال في مثل ذلك الفكر، لذلك أطالب فقهاءنا، وأنا من تلاميذهم، أن يكتبوا لنا كيف يعتبروا الماركسية ضلالاً، وكيف نعتبر الوجودية انحرافاً، وكيف نعرف هذه الأفكار المطروحة في مجتمعنا بعيدة عن الخير والبر والرحمة، هذه صورة أطالب أساتذتنا الفضلاء بها لكي يعيشوا عصرهم ولكي يكونوا من الطلائع التي تقدم الارتباط الحضاري بين فقهنا وبين عصرنا، ومن هنا فإنني لا أعد كلية

الشريعة وأصول الدين وكلية اللغة العربية هي كلها كليات الدعوة، إنما أحب أن أرى في مجتمعنا الإسلامي كلية التربية وكلية التاريخ وكليات العلوم الإنسانية، كليات للدعوة الإسلامية، إننا نرى الآن المجتمع العربي بأبنائه المسلمين قد انقسموا إلى قسمين : فريق يدرس طباً فيتناول الجسد البشري، وفريق يدرس هندسة فيتناول الآلة، وقد تركنا النفس البشريّة والوجدان البشري يعبث بها الفكر اليهودي عبر آراء فرويد، وعبر آراء دارون، وعبر الآراء التي نعرفها جميعاً ضالة منحرفة، لا بد إذن من الفقهاء الذين يوجهون أبناءهم عبر فكر مستنير للكتب والكليات والجامعات التي تدرس العلوم الإنسانية، عبر برامج ومناهج مدروسة ومخطط لها حتى تعطي ثمارها وتخرج الفقيه الواعي والداعية القادر على العطاء. كذلك أدعو إخواننا، وهم أساتذتنا وسادتنا العلماء عبر مفهوم أهل الذكر، أن يستعينوا بالعسكري في فنون الحرب، وبالطبيب في فنون الطب، وبالمهندس في فنون الهندسة، وبالمربي ورجل الاقتصاد والمخترع، حتى أنني أرى، وهم أدرى مني بذلك، أن يعد الواحد من هؤلاء مجتهد، مسألة إن كان مطلعاً على علمه الغزير عبر شروط الاجتهاد التي يعرفها العلماء، ولا بأس أن يعلم أبناؤنا الذين يدرسون في العلوم الكونية بل يجب أن يعلموا أمور دينهم ليفهموها حق الفهم، كيف يتلون قرآنهم، كيف يفهمون أمور العبادات في دينهم، ولكن عليهم أيضاً أن يستنيروا بل أن يبصروا العلماء من فقهاء الشريعة والعلوم الشرعية بما في علومهم الكونية من قضاياهم أحرص الناس عليها والمسلمون في أشد الحاجة إلى تفهمها. ومن هنا فإنني أشبه العلماء بالمعالم والمؤشرات على الطريق عندما يصنعون الأحداث ولا ينتظرونها حتى تقع فيصدروا فتوى تحريم أو تحليل، إنني أرجو علماءنا وفقهاءنا المعاصرين أن يجعلوا للفقه والفكر الإسلامي في دوره الجديد مجالاً كبيراً لحل مشكلاتنا حلاً متكاملاً لا جزئياً، أن يكون لديهم، ومن هنا أرشح فكرة واقترحها على كل عالم مسلم شغله اطلاعه على الكتب من الأمهات، أن يكون لديه شاب أو قريب أو ابن من أبنائه يقدم له خلاصة الصحافة العربية كل يوم، وخلاصة الصحافة الأجنبية كل أسبوع مما له علاقة بالاهتمامات الإسلامية حتى يظل الفقيه مع عصره، يعيش ويواكب موكب الحياة، فيقدم للناس وفق أحدث ما اطلع

عليه في جنبات الحياة المترامية الأطراف، وكذلك أرى أن تدخل مناهج الإسلام وآراء الفقهاء في كل ما أشرت إليه من علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد، كما أرى أن يقارن للشباب بين الماركسية والوجودية والرأسمالية من جهة والقرامطة أو القرمطية والنصيرية والباطنية وما إلى ذلك لكي يعرف الشباب حقيقة ما يطلعون عليه في ظل الإسلام بتوجيه من العلماء، وأكتفي بهذا القدر، فلقد انتهى الوقت وأقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

- كلمة الأستاذ أحمد محمد جمال

بسم الله الرحمن الرحيم

رئيس الجلسة :

باسمكم جميعاً نشكر الأستاذ على هذه الكلمة المخلصة، والتي رسم فيها الإطار الذي ينبغي أن يلم به الفقيه المسلم، إلى جانب تخصصه الرئيسي، وهو الفقه بمفهومه الدقيق، الذي هو فهم الأحكام الشرعية ودقة الفهم فيها، ونترك الفرصة أيضاً للأستاذ أحمد محمد جمال ليحدثنا عن جانب آخر من جوانب موضوعنا مما لم يتعرض له زميله.

فليتفضل مشكوراً جزاه الله خيراً.

الأستاذ أحمد محمد جمال ..

بسم الله الرحمن الرحيم ـ نحمد الله تبارك وتعالى ونصلي ونسلم على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان وبعد.

فأريد أن ألخص بعض الأمور التي تتعلق بهذا الموضوع أو هذه القضية، فأقول في البداية، إن عنوان الحوار يدل، وهي دلالة صحيحة وواقعية، على أن الإسلام في العصر الحاضر يعاني إيهاماً من أعدائه واتهاماً من أبنائه بأنه عاجز أو قاصر عن أن يؤدي دوره مع الحضارة الحديثة في

تنظيم الحياة الإنسانية، ليس عجيباً ان يتهم الإسلام الأعداء، ولكن العجيب أن يتهم الإسلام أبناءه بهذا العجز أو هذا القصور، لأنه حسبنا نحن المسلمين شيوخاً وشباباً أن نقرأ في كتاب الله تبارك وتعالى - « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ». وحسبنا أيضاً أن نقرأ في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وسنتي ». ثم مع ذلك نعلم الثروة الضخمة التي خلفها فقهاؤنا السابقون من دراسة وتأمل واستنباط وتخريج للأحكام، فلا يمكن بعدئذ أن نتهم الإسلام بالعجز والقصور لأنه يستند أولاً إلى كتاب الله عز وجل، ثانياً إلى سنة رسوله، ثم إلى اجتهادات الفقهاء من إجماع وقياس، حتى رأينا، في فقهنا أو في هذه الثروة الففهية العظيمة، بعض علمائنا أو فقهائنا من افترض مشكلات في العهود السابقة لم تحدث ووضع لها حلولاً وأحكاماً، وقيل فيما مضى أن هذا افتراض عجيب وسابق لأوانه، ولكن العصور المتتابعة أثبتت عبقرية تلك الأذهان المسلمة المفكرة التي افترضت أحداثاً ووضعت لها أحكاماً. إذن هذا الاتهام مردود من أعداء الإسلام ومن أبنائه على سواء، وهو يعود إلى حقد الأعداء ويعود إلى جهل الأبناء. نحن المسلمين كيف نحل هذه المشكلة، أو نعالج هذه الظاهرة لانها أدت واقعياً إلى أن يأتي حكام المسلمين ملوكاً ورؤساء وأحراراً أن يطبقوا الشريعة الإسلامية في مجتمعاتهم، هم متأثرون لا شك بما يقال عن عجز الإسلام وقصوره، وكم كنا نتهم الاستعمار الأجنبي زوراً وبهتاناً لأنه عندما استقلت الدول الإسلامية أو العربية عن الحكم الاستعماري لا زالت تحكم بعقليته وبفقهه وبقانونه إلى اليوم، إذن هنا مشكلة أو هنا ظاهرة وهي اتهام النظام الإسلامي بالعجز والقصور، إذن لا بد أن يصحوا فقهاؤنا وعلماؤنا ولكن أرى ألا يكون أو لا تكون صحوتهم فردية أو على نطاق فردي، فنحن ما زلنا نقرأ وندرس هذه الآراء أو الاجتهادات الفردية من فقهاء وعلماء. نحن لا ننكر أن في المجتمعات الإسلامية أو العالم الإسلامي فقهاء ومفكرين وعلماء وباحثين ودارسين ومستنبطين ومستدلين بأدلة صحيحة، لكن ما أريد أن نركز عليه، غير أنه ضروري، أن يعالج في هذه الندوة هو : لماذا لم يقتنع المسلمون شيوخاً وشباباً وحكاماً بأن الإسلام

قادر على أن يحكمهم بخير ما يحكم الناس ؟، قلنا إن الاجتهادات الفقهية موجودة وأن العلماء المجتهدين موجودون، ولكن العيب أو سبب القصور هو أن هذه الآراء تلقى كآراء فردية فلا يقتنع بها ـ إذن كيف نعالج الأحداث الجديدة التي حدثت في العصر الحديث وما قبل ذلك وما يحدث بعد ذلك، أنا أعتقد أنها لن تعالج ولا يقتنع بعلاجها إذا ظل كل مفتي في مصر مثلاً، في سوريا، في السعودية، في الكويت، في العراق، في أي بلد إسلامي، في باكستان، في أندونيسيا، لا يقتنع برأي هذا الفقيه المجتهد، أو أراد أن يحل مشكلة أو يعالج قضية من القضايا العصرية الحديثة. إذن لا بد من أن تقرر الدعوة إلى إقامة مجمع فقهي يشترك فيه هؤلاء العلماء من كل قطر إسلامي لتكون الفتوى إسلامية دولية وليس إسلامية سعودية، أو إسلامية عراقية، أو إسلامية باكستانية، فلا بد من إقامة مجمع فقه إسلامي دولي، أي عالمي تشترك فيه الدول الإسلامية كلها لتقتنع هذه الدول بما يصدر عن هذا المجتمع، أو هذه الدار دار الإفتاء الإسلامية، من حل لمشكلة أو فصل لقضية أو علاج لظاهرة في المجتمع الإسلامي لم نجد لها حلاً في الفقه العصور الإسلامية الماضية إغلاق باب الاجتهاد، ولعل لهم عذر أيضاً، نحن نلومهم ولكن نعتذر عنهم، فنقول إنما أغلق باب الاجتهاد لأنهم خافوا على هذه الثروة الإسلامية شريعة وعقيدة من أن يعبث بها العابثون وأن تستبد بها الأهواء، وأن تصدر في معالجة قضايا المسلمين أحكاماً ليست سليمة ولا قويمة، فنحن نلومهم ولكنا نعتذر لهم أيضاً، ونقول إن باب الاجتهاد مفتوح، وينبغي أن يبقى مفتوحاً، لأن الإسلام دين خالد تالد، أنزله الله تبارك وتعالى ليكون ختماً للأديان، وبعث رسوله عليه الصلاة والسلام ليكون خاتماً للأنبياء، وأسلفنا القول بأننا نقرأ في كتابنا : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ». والاجتهاد لم يكن دعوة من تابعي أو صحابي، إنما الاجتهاد كان من النبي ﷺ فيما أرسل به معاذ بن جبل إلى اليمن، فقال له : بمَ تحكم ؟ قال بكتاب الله، قال : فإن لم تجد ؟ قال فبسنة رسوله، قال : فإن لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيي. فضرب على صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله، أو كما قال عليه الصلاة والسلام. إذن فالاجتهاد أساس من أسس

الفقه الإسلامي، لأنه يعود إلى الاعتماد على القرآن، فإن لم نجد فإلى السنة، فإن لم نجد نقيس ونجمع، فباب الاجتهاد مفتوح وينبغي أن يكون مفتوحاً، ولكن ينبغي أن لا يترك لأهواء فردية، ولا لاجتهادات فردية، لأننا نريد اقتناعاً جماعياً من المجتمعات الإسلامية، من الدول الإسلامية، من الحكّام المسلمين، هذا الاقتناع لا يتأتى ولا نجده إلا باجتهاد جماعي. نحن الآن في عصرنا الحاضر نحتاج إلى اجتهاد جماعي، إذا كان موضوع الندوة كما طرح هو دور الفقه الإسلامي أو الفكر الإسلامي في القضايا المعاصرة، الدور موجود بين أيدينا ولكننا نعرض عنه ونلتمس أفكاراً وآراء من فقه غيرنا وفكر غيرنا، مثلاً نريد أن نضرب المثل ببعض ما نعاني من مشكلات لم يبت فيها حتى الآن، ولا تزال مبعث حيرة، ليس للشباب وحده إنما لكل المجتمعات الإسلامية، نساء ورجالاً وشباباً وشيوخاً وحكاماً ومحكومين، من هذه القضايا التي اعتقد أن الندوة طرحت هذا الحوار من أجل أن تذكرها وتطالب بحلها عن طريق اجتهاد جماعي إسلامي، كيفية أو الطريق السليم الصحيح في التعامل مع المصارف، ما تزال هناك آراء متعددة من فقهاء مسلمين ومثقفين مسلمين، ما هو السبيل أو ما هي السبل الصحيحة لكي يتعامل المسلمون مع المصارف، وما هي وجوه الربا ؟ ووجوه الشركات، كيف تحول التعامل من تعامل ربوي إلى تعامل بأسلوب الشركات الحلال، هذا مثل واحد لا بد أن يفتى فيه فتوى جماعية من مجمع فقه إسلامي، لتقتنع به الدول والجماعات والشباب وسائر فئات المجتمعات الإسلامية.
عقود التأمين، مازالت تتفاوت وتختلف وتتضاد فتاوى العلماء المسلمين في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وأقيمت من أجل ذلك المؤتمرات واستمعنا إلى الآراء المختلفة حول عقود التأمين ـ من هؤلاء العلماء من أباحها بإطلاق ومنهم من حرمها بإطلاق ـ فنريد حلاً وسطاً لما يحل منها وما يحرم ـ حلاً جماعياً يرضى عنه فقهاء المسلمين في كافة العالم الإسلامي، من القضايا الإسلامية التي هي محل حيرة للشباب بصفة خاصة تحديد مسئولية الدولة تجاه الأمة، من هنا كان اختلاف أنظمة الحكم في العالم الإسلامي ـ تحديد مسئولية الدولة تجاه الأمة ـ المثل الرابع : تحديد مسئولية المؤسسات التعليمية تجاه الشباب، نريد أن نوحد أنظمة التعليم، أنظمة

التربية في المجتمعات الإسلامية لتسير في طريق إسلامي أو طريق إسلامية صحيحة، فهذه المشكلات وأمثالها، أو هذه الظواهر التي تمس العقيدة لا تمس الشريعة وحدها وإنما تمس العقيدة لأنه فيها تحليل وتحريم لا بد لها من مجمع فقه إسلامي أو دار إفتاء إسلامية تحل هذه المشكلات وتدرسها وتصدر فيها فتاوى جماعية، ويخضع لها الحكام المسلمون والمحكومون، ويقتنع بها الشيوخ والشباب وسائر المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية والسياسية، وأرجو أن أكون بهذه الكلمة القصيرة ألقيت الضوء على أساس المشكلة وما ينبغي لها من علاج، والعلاج كما قلت موجود، ولكننا منصرفون عنه، ونظراً لانتهاء الوقت المحدد لحديثي أقول في ختام الكلمة، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه ..

مَوضُوع النّدوَة:

عوامل انحطاط الحضارة الإسلاميّة وسبيل النّهوض بها

كلمة الدكتور جعفر شيخ إدريس

كلمة الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي

التعليقات

- كلمة الدكتور جعفر شيخ إدريس

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور عبد الحميد ابو سليمـان ..

أيها الإخوة ـ والآن جاء دور ندوة اليوم موضوعها هو : « **عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية وسبل النهوض بها** ». وبودّي، قبل أن يبدأ الإخوة أعضاء هذه الندوة الحديث في لب الموضوع، أن أشير إلى بعض قضايا يخيل إليّ التذكير بها أمر هام، لأنه في بعض الأحيان تكون هناك أمور مسلم بها ولكن تبقى في أذهان البعض وفي ظل التفاصيل المطروحة غير واضحة، مما يقلل الفائدة من البحث في أي أمر. البحث والتفكير فيما أصاب المسلمين وما يجب أن يفعلوا لا يعني أن العمل يتوقف أو أن العمل غير موجود. فكلتا القضيتين يجب أن تتم وفي وقت واحد، بينما نحن نعمل نحن أيضاً نفكر، فإذا جلسنا للتفكير فنحن نصب أذهاننا على النظر والتمعن والدراسة، فإذا انفض الجمع ذهبنا لكي نعمل، فلا يأتي وقت التفكير ونقول فلنعمل ـ إذا ذهبنا نعمل نقول ليس لدينا خطة للتفكير، فلا نحن فعلنا ولا نحن فكرنا. الشيء الآخر إن البحث والدراسة والنظر في أي أمر ليست قضية تتم مرة واحدة وتنتهي، هي عملية دائمة مستمرة موازية

للعمل الذي يتغير فيها حسب طبيعة اهتماماتها وتركيزها وأولوياتها وفقاً للظروف ورد فعل لناتج العمل، الشيء الآخر ـ قضية الموضوعية والهدوء في التفكير لا تتنافى مع الحماس والالتزام ـ الالتزام موقف يحدد لماذا أنت تبحث في أمر أو تهتم بأمر بعينه، الحماس يتم أثناء التنفيذ « فإذا عزمت فتوكل على الله »، ابذل غاية جهدك، لا تنصرف، أما حين تجلس للتفكير فيجب أن تكون موضوعياً شأن من يريد أن يرى الحقائق كما هي مهما كانت مرة، ويتبين النتائج مهما كانت قاسية، ليبذل جهده لكي يجعل هذه الحقائق وتلك النتائج تعمل لصالحه على الأمد القصير والمتوسط والطويل فلا تعارض بينها ـ فإذا جلسنا للتفكير يجب أن نهدأ وأن نكون شجعاناً وأن نسمع وأن نبذل الجهد لتبين الحقيقة ـ الانفعال يمنع القدرة على التفكير، أهم ما يجب أن نتذكره، أننا حين نواجه بقضية للتفكير أو موقف متأزم أن نأخذ أنفسنا بضبط النفس والهدوء والبعد عن الانفعال وإلا ضاعت الحقيقة وساء التصرف ـ أمر آخر قبل أن نبدأ ـ عادة المتحدث يتحدث للسبب الأساسي الذي يراه سبباً أو قضية، هذا لا يعني أن المتحدث يقول لا يوجد إلا هذا السبب فقط، أو إلا هذه القضية، إرجاع القضايا إلى السبب الواحد أمر أصبح غير مقبول عادة، الحياة متشابكة ومعقدة والعوامل المتشابهة كثيرة ولكن منها ما هو أساسي ومنها ما هو ثانوي، فإذا ركز المتحدث على سبب أساسي هذا لا نفترض فيه أنه لا يرى هناك سبباً آخر مساعداً أو مؤثراً. إذا أعطى هذا الانطباع يمكن التفكير، أعضاء هذه الندوة هم : **الأستاذ الدكتور جعفر شيخ ادريس،** أستاذ الفلسفة والمدرس بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الرياض، وهو من القيادات الإسلامية المعروفة التي لا تحتاج إلى تعريف. والعضو الآخر هو **الأستاذ الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي** أستاذ الفلسفة ودراسة الأديان المقارنة بجامعة كمبل بالولايات المتحدة، وقليل منا من لم يستمتع قبل الآن بسماع الأستاذ الدكتور الفاروقي، وكلاهما كما ترون أساتذة فلسفة، وللفلسفة مزايا وأشياء أخرى، منها أننا نجيد الفهم وندرك الأعماق، وإن كان في إجادة الفهم وإدراك الأعماق صعوبة تجعلنا نقول إن هذه فلسفة، على كل حال نحن على ثقة بقدرة الأساتذة ـ وهذا موضوع يحتاج منا أشد العمق ـ إلى أن نتوصل إلى

الإحساس بأن المأساة في الحضارة التي يعيشها العالـم الإسلامـي قد أصبحت في حكم الزوال، وأننا بسبيل الارتفاع منها إلى القمم وليس الانحدار من هاوية إلى هاوية، حتى يحدث ذلك الإحساس، فإن البحث في هذه القضية يأخذ أولوية خاصة وأولوية هامة، الاستاذ جعفر شيخ ادريس سيكون أول المتحدثين فليتفضل.

الأستاذ الدكتور جعفر شيخ ادريس ..

بسم الله الرحمن الرحيم ـ إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم اجعل كل كلامنا طيباً واجعل كل كلامنا صالحاً واجعله كله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً، أيها الإخوة : إن الانحطاط بعد الارتفاع عقوبة، إنه زوال نعمة، وقد بيّن القرآن الكريم السبب الأساسي لزوال النعمة : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ـ فالسبب الأساسي لانحطاط المسلمين بعد ارتفاعهم وتقدمهم لا بد أن يكون كامناً في أنفسهم، وأنا أشكر الأخ الدكتور عبد الحميد أن نبهكم إلى مسألة الأسباب الأساسية والأسباب الثانوية، نحن نتحدث عن الاستعمار، عن الصهيونية العالمية، وعن كذا وعن كذا وعن كذا ـ لكن كل هذه ليست هي الأسباب الأساسية بحسب النص والتوجيه القرآني، والآية تقول : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وإذن فالسبب الأساسي سبب إرادي، إنه ليس شيئاً مفروضاً على الأمة من خارجها، والسبب الإرادي لا يفسر بأسباب خارجية. إذا كفر الإنسان فلا يفسر هذا بأن هنالك ظروفاً خارجية أجبرته على الكفر، إنه حينئذ يكون مختاراً، ولهذا فنحن لا نسير مع أصحاب ما يسمى بفسيولوجيا الدين أو المعرفة إذا كان المقصود بها أن هناك ظروفاً معينة تفرض على

الإنسان أن يكون متديّناً أو أن يكون كافراً ـ ما هو هذا الفعل الإرادي الذي يجلب زوال النعم، في القرآن الكريم، أمثلة على هذا : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية، جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا ـ هذا هو فعل الإرادة ـ فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتا أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ». بل إن هذا هو التفسير القرآني لمثل هذه العقوبة الشديدة التي تثير الحضارة مرة واحدة، بل هو التفسير القرآني حتى لما نسميه النكسات المؤقتة التي وقعت لأصحاب رسول الله ﷺ، فالتفسير القرآني لكل ما أصاب المسلمين من هزائم مؤقتة في زمن الرسول ﷺ كان لإرجاعه إلى شيء في أنفسهم، « أوَلمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ». وفسر هذا الذي هو من عند أنفسهم في الآية الأخرى : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ». فالذين أرادوا الدنيا حتى من الصحابة كانوا هم السبب في الهزيمة، فإذن هنالك سبب أساسي ؛ هذا السبب الأساسي ينتج عنه أسباب تنتج عنه آثار تكون هي بدورها آثار لأسباب أخرى وهكذا وهكذا ـ لنضرب مثالاً، لنفرض أن عدد الذين يحبون الحياة الدنيا قد ازداد في مجتمع ما، أو أن الذين يحبونها ازداد حبهم لها، لا بد أنه ما دامت هذه قد صارت ظاهرة في المجتمع، لا بد أن يجدد بعض هؤلاء طريقهم إلى القيادة، إما القيادة العلمية، أو القيادة السياسية. إذا وصلوا إلى القيادة السياسية وكانوا يحبون الدنيا فإن هذا سيؤثر في معاملتهم للناس، سينتج عنه ظلم، سينتج عنه استكبار، سينتج عنه كذا وكذا، هذه بدورها تقود إلى آثار أخرى ضارة ـ إذا وجدوا مكانهم إلى القيادة العلمية كان لا بد أن يؤثر هذا في تفكيرهم، في فتاواهم، في مواقفهم، وكان لا بد أن يؤدي هذا إلى شرور أخرى ـ مثلاً لقد عاقبنا الله سبحانه وتعالى بسبب هذا التغيير بأن سلط الأعداء علينا، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً »، فجعل لهم سبيلاً علينا لأن الشرط لم يكن أساسياً عندنا، أصل الإيمان موجود ولكنه ليس الإيمان الذي ينتج عنه هذا الوعي، فسلط الله سبحانه وتعالى الأعداء علينا ـ تسليط الأعداء كان لا بد أن يؤدي إلى شرور أخرى

ـ أثر في التعليم ـ التأثير في التعليم أدى إلى آثار أخرى وهكذا، قبل أن أنتقل إلى النقطة الأخرى أريد أن أقول، إذا كانت هذه هي العلة فإذن سبب النهضة أيضاً لا بد أن يكون كما عبّر عنه الأخ عبد الحميد في ندوته، لا بد أن يكون بقرار، لا بد أن يكون في الأمة طلائع تعلو على هذه الأوضاع الشريرة وتتغلب عليها وتعزم على أن تعود إلى الحق، ولا نقول أن تغير لأن العودة لا تسمى تغييراً، سنتحدث بعد قليل عن هذا، ولكن إذا كان هذا هو سبب الانحطاط فلا بد أن يكون السبب في الارتفاع هو أيضاً بقرار تتخذه الأمة أو تتخذه طلائع الأمة ـ أنا أريد أن يكون حديثي تكملة لأحاديث كثيرة دارت حول هذا الموضوع، فلذلك لا أحب أن أعالج الموضوع من كل جوانبه بل أكتفي ببعض النقاط ـ من المشاكل التي سألني عِنها الشباب كثيراً، يقولون : إذا كان السبب في انحطاطنا هو أننا تركنا ديننا، فنحن على الأقل خير من هؤلاء الذين سلطهم الله علينا، نحن مسلمون وهم ليسوا بمسلمين، نحن مسلمون وهم يهود، والله يقول : « إن تنصروا الله ينصركم »، نحن لم ننصره كما يجب ولكن هؤلاء تمردوا عليه، فلماذا إذن ينصرهم علينا، والجواب يقول لكني أشير إلى بعض النقاط، أولاً : إن الله سبحانه وتعالى بحسب هذه القاعدة التي وضعها. « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ». إن العقاب حين يغير ما بالناس هذا التغيير يكون بحسب تغييرهم، هم إذا أعرضوا كقوم سبأ كفروا وجحدوا فإن الله سبحانه وتعالى يستأصلهم مرة واحدة، ليس بقتلهم جميعاً ولكن يستأصلهم كأمة كما قيل لقوم سبأ ـ فقد تشتتوا في البلاد وزالت حضارتهم، لكن هذا العقاب قد يكون أقل من هذا، يكون مؤقتاً وهذا الذي أرجو أن يكون قد حدث لنا ـ فالله سبحانه وتعالى يعاقبنا عقاباً مؤقتاً ينصرنا بعده، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية، إن هذا العقاب، هذه ليست الفاظه ـ إن العقاب هذا المؤقت يكون رحمة بالمؤمنين. لماذا لأننا إذا استمررنا في التفوق المادي ونحن مستمرون في البعد عن الله فإن هذا يغرينا بزيادة الكفر وبمزيد من الابتعاد عن الله سبحانه وتعالى، فإذا ما عاقبنا الله سبحانه وتعالى فعسى أن ننتبه ونصلح من أمرنا ـ أضرب لهذا مثلاً، في غزوة حنين فسر الله سبحانه وتعالى هزيمة المسلمين بأن قال لهم : « ويوم حنين إذا أعجبتكم

كثرتكم »، لنفرض أن الله سبحانه وتعالى نصرهم رغم أنهم كانوا معجبين بكثرتهم، إن هـذا سيؤكد لهم أن سبب النصر هو الكثـرة، ولكن الله سبحانه وتعالى هزمهم هزيمة مؤقتة وجعل النصر على أيدي قلة قليلة جداً، فنبههم إلى أن سبب النصر ليس هو الكثرة، وأظنكم وأظننا نعتقد أنه قد مرت بنا ظروف لو انتصرنا فيها لعبد بعض الناس من دون الله سبحانه وتعالى، ولكن الله تعالى رحمة بالمؤمنين يسبب لهم هذه الهزيمة المؤقتة حتى يكون النصر على أيدي الرجال الذين يستحقون أن ينصروا، وحتى يكون في النصر رحمة بالمؤمنين لا مزيداً من القهر والتعذيب والبعد عن الله سبحانه وتعالى ـ وإذن فكما أن هزيمتنا قد تكون رحمة بنا، هي رحمـة بنا نعم إذا أحسنا الاستفادة منها، فإن غلبـة الكفار وبال عليهم، هي وبـال عليهم ووبال على البشرية « ظهر الفسـاد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » حسب بعض التفـاسير، الظهور هنا معنـاه العلو والطغيان، فإذا كانت اليد العليا للمفسدين وكانوا هم الظاهرين فمعنى هذا أن هذا عقوبة للمقهورين وعقوبة للغالبين ـ ولعل في حديث الرسول ﷺ ـ عجب الله لقوم أو لأناس يدخلون الجنة في السلاسل، هؤلاء يحاربون المسلمين فينتصر عليهم المسلمون ويؤخذ منهم أسرى ثم يسلمون فكأنهم قيدوا إلى الإيمان قهراً، هؤلاء طبعاً سيقولون يوم القيامة الحمد لله، وأظن أنهم سيقولون قبل يوم القيامة حتى في هذه الدنيا الحمد لله الذي هزمنا وجعل هذا سبباً لنا في الدخول في الإسلام ـ إذن وهذا في اعتقادي وأرجو ألا يكون هذا مجرد حماس، في اعتقادي أننا برغم هزيمتنا لا زلنا نملك عوامل البقاء كأمة ـ إن فينا من عوامل البقاء ما ليس في الحضارة الغربية. الحضارة الغربية فيها حيوية ولكنها مؤقتة، يمكن أن نشبهها بذبابة تعيش مدة قصيرة، فهي حية ولكنها بعد قليل تموت. ويمكن أن نشبه المسلمين بأنهم في حالة نوم أو إغماء ثم يعودون بعدها إلى الحياة إذا توفرت هذه الشروط ـ كيف ننهض ـ أولاً أنا أرجو حين نفكر في النهضة الا يكون كتفكير كثير من غير الإسلاميين وهو أننا نريد أن نكون مثل الغربيين، نحن لا نريد هذا، نحن نريد أن ننهض، ولكن غايتنا من النهضة أن نكون من الذين أنعم الله عليهم فجعل تمكين الدين على أيديهم وجعلهم رحمة للبشرية، لا نريد فقط أن تكون لنا مصانع

كما لهم مصانع ومدارس كما لهم مدارس وكذا كما لهم كذا ـ لأن هذه يمكن أن تستعمل ضدنا وضد البشرية، لكن إذا أردنا هذا فإنا والطريقة الأساسية والوحيدة إليه هو القرار بأن نعود إلى الدين عودة صادقة ـ أصل الدين موجود فينا ولكن هذا الأصل لا يكفي لبناء الحضارة وللتغلب على الأمم الأخرى لا بد من تقوية هذا الإيمان وتنقيته والالتزام بلوازمه في حياتنا الخلقية أولاً، ثم في حياتنا الخارجية، لا بد أن تؤول القيادة الفكرية والسياسية إلى هذا النوع من الناس، إن الذي نحتاج إليه ليس شطارة سياسية، وإن كانت الشطارة السياسية أحياناً تفيد على قاعدة ـ إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر، ولكنه لا ينصره بسبب فجوره ولكن ينصر المسلمين به كما ينصرهم بالنعاس وبأي شيء آخر، أريد هنا أيضاً أن أشير إلى بعض النقاط، السبب الذي ينبغي أن نركز عليه هو إنشاء أو تكوين هذه الطليعة المؤقتة التي سيؤول إليها بإذن الله أمر القيادة السياسية والفكرية في العالم، كيف نفعل هذا ؟ أشير إلى بعض النقاط، لا بد من تعديل المؤسسات التربوية والإعلامية بحيث تساعد على هذا، وقد تكلم كثير من الإخوان في هذا، لا بد من إنشاء مراكز لإعداد المفكر المسلم ـ شعرت من حديث الأخ يوسف العظم بالأمس رغم إعجابي به، ولكن قلت إن هذا ترقيع إنه يفترض أن الفقيه سيكون كما هو الآن ويريد أن يصلح من حاله، ولكن الذي نحتاج إليه هو مؤسسات تخرج لنا الفقيه الذي يريده الأخ يوسف العظم، لا بد أن نفعل هذا. إن الحركة الإسلامية قد وصلت إلى طور لا تكفي معه هذه المنظمات رغم استمرار حاجتنا إليها، بل نحن محتاجون إلى مؤسسات جديدة، وهذا لم تفعله لنا المؤسسات التقليدية القائمة الآن. الجامعات وكذا، فلا بد إذن من إنشاء مثل هذه المؤسسات ـ النقطة الثالثة هي ينبغي أن نكون واقعيين في تفكيرنا، والواقعية أعني بها الصرامة الشديدة في الالتزام بالمبادىء وبالغايات النهائية، والمرونة في تقبل الحلول الجزئية. هذا كلام أنا أعرف أن بعض الشباب لا يحبونه، ولكن إذا لم نفعل هذا فسنظل دائماً نتكلم ولا نستطيع أن نفعل شيئاً، الذي يساوم على الأهداف مخطىء، والذي يقول إنه يريد أن يحقق أهدافه كلها في يوم واحد أو في سنة واحدة، أيضاً مخطىء، فلا بد إذن من قبول الحلول الجزئية ما دام كل حل بإذن الله

سيؤدي إلى حل آخر وكل حل سيؤدي إلى حل آخر ـ من المشاكل التي تعانيها الأمة الإسلامية والتي ينبغي أن يسعى كل إنسان لحلها، هي إقناع حكومات العالم الإسلامي بأن محاربة الإسلاميين هي محاربة للأمة، فينبغي ألا يجاملوا أصدقاءهم من الغربيين في هذا الأمر، وليعلموا أن هذا في النهاية ضار بهم أنفسهم، هؤلاء الحكام، أقولها باختصار ينبغي ألا نظن أن الطريقة لإعادة الحضارة الإسلامية ـ هي أن نحطم الحضارة الغربية أو أن يكون لنا من القوة المادية ما لهم حتى نستطيع أن نتغلب عليهم، إن الأسباب الفعلية كثيرة جداً فينبغي ألا نحصر أنفسنا في واحدة منها ـ مثلاً من الممكن جداً أن يقبل كثير من هؤلاء الإسلام فيرثنا الله سبحانه وتعالى أرضهم وديارهم، يعني لا ينبغي أن نفكر في الإسلام تفكيراً قومياً فنظن أن المسلمين هم الذين يسكنون ما يسمى الآن بالعالم الإسلامي، يمكن أن ينشأ مسلمون في ديار الغرب نفسه يؤول إليهم أمر هذه الحضارة بإذن الله سبحانه وتعالى ـ أقول قولي واستغفر الله العظيم لي ولكم ـ ..

- كلمة الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخواني في الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الانحطاط في نظري مجرى ذو اندفاع وليس حالة جامدة، وعلى هذا، إذا كان هنالك سبب لانحطاط، فإن هذا السبب هو نتيجة أسباب أخرى جاءت قبله، فالله يزيد المهتدين هدى من جهة، ويزيد الضالين ضلالة من جهة أخرى، لذلك إذا تكلمنا عن أسباب الانحطاط لا بد أن نتعرض لأسباب قد يراها البعض منا نتائج، وقد يراه البعض الآخر كأسباب.

العامل الأول في نظري الذي أدى إلى انحطاط هذه الأمة ـ هو التصوف ـ وأنا لا أنكر فضل التصوف في الدعوة وفي نشر الإسلام، وفي تزكية نفوس المسلمين، وفي تنوير الإسلام فيهم، وفي المحافظة على التزام المسلمين بإسلامهم، إلا أن هنالك جوانب أخرى للتصوف قد تسمى بالتصوف الغالي، إلا أنها عملت عملها في عقل ونفس وذهن الأمة الإسلامية

ـ فأدت بها إلى الانحطاط، إذا كان وجه التصوف قد تغير أو قد زال بعض الزوال عن هذه الأمة فإن العوامل المكونة له لا زالت قائمة بيننا، فإن لم تكن في المعهد العلمي أو في الجامعة فإنها حتماً قائمة في الأكثرية الساحقة منها. ما هي هذه المبادىء الصوفية التي أدت إلى انحطاطنا :

أولاً ـ في حقل المعرفة ـ المعرفة كما يقول التصوف نور يقذف به الله في القلب، فهو غير مكتسب، وهو غير نقدي، وإذا كان تسبب أو إذا كان نتج هذا النوع عن شيء من التهذيب كطاعة الشيخ فهذا التهذيب لا علاقة له بعملية المعرفة. ويقول التصوف أيضاً إن هذه المعرفة سرية أو باطنية، الأسس التي يعرف المعروف بها ليست علنية، بل هي عرفية ينقلها الشيخ إلى تلميذه ـ ورابعاً : المعرفة عند المتصوفة تعتمد على حالة العارف لا على حالة المعروف، فهي لا تسمح لوصف المعروف ولا لفحصه ولا لإقامة التجارب فيه، ومعرفة من هذا النوع لا يمكن أن تؤدي إلى معرفة الحقيقة، فمعرفة الحقيقة تتطلب تعقل، والتعقل هو تحكيم العقل بشكل علني عام، هو الدأب والاجتهاد في الوصف والتمحيص، هو النقد، هو الانفتاح على الدليل أنّى وجد، هو المنهج التجريبي.

ثانياً ـ في حقل الأخلاق الشخصية، فالتصوف يقول : إن الخير حالة نفسية (جنوفس) ـ حالة الاتحاد أو الإشراق أو الاتصال، وهذا التعريف للخير يناقض معنى الخير كما يعرفه التوحيد : كأنه تحقيق لإرادة الله في الزمان والمكان ـ أيضاً في الأخلاق الشخصية يقول التصوف : إن السبيل للخير هو التهذيب النفسي، والتهذيب النفسي يأتي بالطاقة والرعاية الروحية، فهو يناقض الرياضة العلمية والعمل بالأركان ـ الأركان هنا بمعنى أركان الجسم.

ثالثاً ـ يقول التصوف كما تقول المسيحية إن الأخلاق كلها قائمة على النية، على الحالة النفسانية، وهذا يتعارض تماماً مع ما علمتنا الشريعة من أن الأخلاق ليست فقط النية ـ النية مشترطة فيها، ولكنها هي الدخول في معمعة الحياة، الدخول في الزمان والمكان والخضوع للشريعة فيه، في العمل فيه، فهنالك شريعة، وهنالك محاكم، وهناك حسبة واحتساب لا بد من العمل وتغيير الزمان والمكان حتى تتم الأخلاق.

رابعاً ـ أدت هذه المبادىء الأخلاقية إلى انسحاب المسلم من المسجد إلى الزاوية أو الخالطة، ومن المعمل والعمل إلى الانعزال والتأمل، ومن الجماعية إلى الانفرادية ـ هذا في حقل الأخلاق الشخصية، أما في حقل الأخلاق العامة، فالانفرادية أدت إلى الانسحاب من السياسة، هذه السياسة التي كانت تقول الشريعة لتأمينها : إن على المسلم أن يساهم فيها، بأن يبايع خليفته وأن ينصحه ويرشده وينتقده، وأن يجاهد ويعمل ويكسب الرزق ويعيل عائلة وهلم جرا ـ أدت إلى الانسحاب من السياسة، أدت إلى عدم الاهتمام بالعائلة، بالحارة بالمدينة، وأدت إلى الانسحاب من الجيش وترك الجهاد، وأولت كل آيات الكتاب الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام في موضوع الجهاد والخيل وغبار الحرب إلى نفسانيات وأشواق وتأملات، كذلك في الأخلاق العامة، على أثر هذه الانفرادية لم تستطع الدولة أن تقوم وتؤدي واجبها، فالدولة تعيش على مساهمة المواطن، فإذا لم يساهم ولم يبايع ولم ينصح ولم ينتقد ولم يؤثر، تناول الدولةَ الطغاةُ لقمةً سائغةً. وثالثاً : يقول التصوف في الأخلاق العامة بالتقليل من أهمية الدنيا والتنكر لها والزهو بها، وأنا أرجعكم إلى حوالي ٢٠ صفحة في كتاب الإحياء « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي رحمه الله عن ذم الدنيا، كلها مليئة بالحقد والكراهية الموجهة للدنيا ـ شبه الدنيا فيها بالمرأة الخادعة، وشبه الساعي فيها بصاحب الجمل الذي يسعى ليقدم له الماء البارد للشرب، وعمم هذا التعميم بأن الدنيا كلها ضد كل خير، فجاءت نظرته إلى الدنيا كأنها نظرة مسيحية بوذية، وإن كان لم يتعد هذا الأمر إلى التوصية بالرهبنة. والتصوف في الميتافيزيقا حول القول الإسلامي من أن الله هو الفاعل، هو الخالق، هو المحرك لكل شيء وهو غاية كل شيء إلى أن الله هو كل شيء، إذ لا وجود إلا وجوده، ولا حقيقة إلا حقيقته، مع أن الإسلام علمنا أن الحقيقة عالمان : عالم الله وعالم الخلق، وأن كلاهما، الله والخلق حقيقة، ولذلك قال التصوف بوحدة الوجود، وهذه الوحدة طمست الفوارق بين الأشياء ـ وطمس الفوارق بين الأشياء حال بين المسلم وبين العلوم الطبيعية، لأنه حال بينه وبين اكتشافه للأسباب المسببة لها، وكذلك وحدة الوجود طمست الفوارق بين الخالق والمخلوق، وهذا الفارق

ضروري للأخلاق، وطمست أيضاً الفوارق بين الخير والشر وهو أيضاً مبدأ ضروري للأخلاق، وقد حالت دون نمو الذوق الشرعي الذي كان يتمتع به السلف الصالح، وحالت بين المسلم وبين النقد الأخلاقي وذلك بتمييعها للمفاهيم الخلقية حسب هذا المبدأ، والتصوف أيضاً في حقل آخر هو حقل خلافة الإنسان، حوَّل قول الإسلام من أن الخلافة هي حمل الأمانة وتغيير الزمان والمكان إلى ما يحقق أوامر الله، إلى الولاية، وهي شطحة أو حالة يغيب فيها الوعي، ويرى الإنسان فيها نفسه بين يدي الله، أو كأنه الله، وفي هذا المضمار ايضاً حولت الإسلام عن التاريخ، عن الاهتمام بالتاريخ، فالتاريخ في نظر الإسلام هو المسرح اللازم لأنه لا مسرح سواه ـ المسرح اللازم للقيام بتحقيق أوامر الله ـ حولت هذا النظر في التاريخ والاهتمام بالتاريخ إلى عدم الاهتمام بالتاريخ، لأنها حكمت عليه بأنه كله معطيات وجذب واجتذاب إلى الشر، فنظرة التصوف إلى التاريخ نظرة لا تغاير المسيحية بشيء، وحولت أيضاً مفهومنا عن القدر، كفاعلية الله في الكون وهذا الفاعلية التي نسميها القدر هي قاعدة مفتوحة على فعل الإنسان ـ بمعنى أنها لا تنكر قيام الإنسان بالعمل ولكنها تؤمن أن جميع ما يحدث في الكون من فعل الله، حولت هذا التفهم إلى اعتبارات القدر كأمر محتوم مغلق ولا فاعلية ولا أثر للإنسان فيه ـ وفي العلوم الإسلامية تحول التفسير إلى تأويل، وتحول الاجتهاد إلى تقليد، وليس من الغرابة أن تحولت علوم المسلمين جميعها من علم فلك وكيمياء وطب وصيدلة وهندسة وغيرها إلى شعوذة، فمن الامتثال بالنبي عليه الصلاة والسلام وصحابته في فعاليتهم وديناميكيتهم وحركيتهم إلى الدعوة، إلى الركود، إلى الاعتزال والتأمل والرياضة النفسية، وذلك فقط ليس بتأويل القرآن والحديث، بل أيضاً بوضع الأحاديث الداعية إلى التصوف، فالتصوف، باختصار، نقض التعقل، ونقض الفعالية، ونقض الإيجابية، ونقض الأمة. هنالك عوامل أخرى غير التصوف، وأنا اختصر على العوامل الداخلية أرى في مطلعها **عامل القبلية أو الشعوبية**، وهو التقليل من العصبية الإسلامية والعودة إلى العصبيات الجاهلية، فهذه القبلية مزقت الأمة، أفسدت الثقة المتبادلة بين أعضائها، خربت العروة الوثقى بين المسلمين، وفي هذا المضمار نال العرب النصيب الأول، ونال الفرس

النصيب الثاني، ونال النصيب الثالث شعوب وقبائل أواسط آسيا ـ **العامل الثالث في انحطاط الحضارة الإسلامية هو الغُلوُّ في قيمة الكلمة إذا قورنت** بالمعنى. حتماً إن الكلمة مهمة جداً في نظرنا، بل نحن نفتخر أننا نعطي الكلمة أهمية لا يعطيها أحد، ولكننا في انحطاطنا غلونا في هذه القيمة ففصلناها عن قيمة المعنى أي فصل، مع أن إعجاز الكلمة هو في الاثنين معاً، فغلو المسلمين في الكلمة ككلمة حوَّلَ انتباه الناس عن المضمون، ولا شك أن أدب المدح والذم ساعد في اتخاذهم هذا المجرى ـ **العنصر الرابع** لانحطاط الحضارة الإسلامية هو ازدواجية التشريع، وازدواجية التشريع لم تأت علينا إلا بعد أن جاءنا الاستعمار، ولكنها كما قلت سابقاً أصبحت الآن كامنة فينا بعد أن زال الاستعمار، وكذلك ازدواجية التربية والتعليم، وازدواجية التربية والتعليم قائمة بيننا بالرغم من انتهاء الاستعمار الذي أدخلها علينا لأول مرة. وهنالك **العنصر السادس** ولعله الأهم فيما يتعلق بنظرتنا إلى المستقبل وهو الكسل، فما من مسلم، إلا ما ندر، يعمل جهد طاقته سواء كان طالباً أم موظفاً أو عاملاً أم مزارعاً، ولهذا لا ينتج المسلمون ما يستهلكون من طعام وأثاث ومواد. أما **العنصر السابع** ولعله الطامة الكبرى فهو الأخلاق ـ والأخلاق أو النقص الأخلاقي الذي نتمتع به الآن هو أننا نفضل ذاتنا على غيرنا فنحن أنانيون ـ هو أننا نفضل كرسينا على المصلحة العامة، هو أننا نفضل المنفعة المادية على المنفعة البعيدة العامة. وهو أننا لا نبادر بالحسنة بل نبادر بالسيئة، أما سبل النهوض بالحضارة الإسلامية فهي عكس ما قلت، ولا شك أن عكس التصوف هو التوحيد، ولا شك أن عكس القبلية هي العالمية، ولا شك أن عكس ازدواج التشريع والتربية والتعليم هو توحيدها، ولا شك أن عكس الأنانية هو حب الغير، وعكس الكرسي هو المصلحة العامة، وعكس المنفعة المادية هو الأخلاق الحسنة، ولعل السبيل الأكبر الذي ينقصنا الآن هو القدوة الحسنة ـ القدوة الحسنة. ذلك المسلم الذي يبادر إلى القيام بالواجب، سواء في حقل التربية أو السياسة أو العائلة أو الشارع، فقط بعكس هذه العناصر المؤدية إلى الانحطاط فقط، بهذا السبيل للنهضة نستطيع أن نعيد للرؤيا المحمدية نارها المتأججة المبدعة.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

تعليقات

« ندوة عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية وسبيل النهوض بها »

في اللقاء الرابع للندوة

الدكتور عبد الحميد أبو سليمان..

شكراً للدكتور اسماعيل الفاروقي، وقبل أن نفتح باب النقاش في هذه القضية الهامة، وصلتني ورقتان ببعض الملاحظات، الأولى منهما حول الاقتراح بمشاركة الأخوات في هذه المناسبات والأسلوب المناسب، ربما في أماكن منفصلة وربما استخدام دوائر التليفزيون المغلقة. الواقع أنه اقتراح جيد ، ونرجو في المناسبات الإسلامية والأعمال الإسلامية أن نتمكن دائماً من العمل المشترك وفقاً لآداب الإسلام وقواعد الإسلام وغايات الإسلام، وأن تتوفر لنا الوسائل المناسبة ـ الورقة الأخرى، أحد الأخوة بمناسبة عرض موضوع أفغانستان اقترح التعرض لموضوع آخر، وأعلم اخوة آخرين كان يهمهم التعرض لبعض هذه المواضيع. الواقع أن إعطاءنا الفرصة للأخوة في افغانستان ليتحدثوا إليكم ـ الواقع إن أفغانستان اليوم تواجه عمل جهاد يجب أن يكون لديكم وعي على أوضاعه العملية، فرص العمل لا تنتظر فإذا لم تفعل في اللحظة المناسبة تخطىء، الشيء الآخر، أن قيادة العمل في أفغانستان هي في يد إسلامية والحمد لله، ومن هنا فهو أمر يخصنا وبشكل عاجل فيما يختص بأعمال الندوة، أنتم ترون أنها منظمة تختص بأعمال الشباب وبترقية برامج الشباب واستكمال أدواته ـ

المؤسسات الإسلامية السياسية هي الأولى بالنظر في القضايا السياسية وإصدار القرارات والتصريحات المناسبة المدروسة، وطبيعة القرارات السياسية والأعمال السياسية أنها كما يقولون سهلة وتطغى بطبيعتها على أي عمل آخر حين يتم تناولها، ولأننا هنا أمام مهمة سياسية هي في ذاتها تعبئة وتهيئة للعمل السياسي والمؤسسات السياسية، فمن هنا الندوة لا تتعرض لهذه الأمور، لا لأنها غير مهمة، ولا لأنها لا يجب أن يعطيها المسلمون الاهتمام اللازم، ولكن لأن المفروض أن هناك منظمات ومؤسسات سياسية هي الأرضية المناسبة للأداء في ذلك الأمر وحتى لا ننصرف عن أداء مهمتنا الأساسية.

والآن يفتح باب النقاش للأُخوة الكرام للبحث واستكمال الأمر هذا..

أحمد البورقادي من المغرب ..

قضية انحطاط المسلمين والحضارة الإسلامية قضية واقعة ـ الكثير من الشباب يتساءل كما سألوا الشيخ ادريس : لماذا يبقى الكفر بمنجى عن الهلاك والمسلمون تتعاور عليهم المصائب والمهالك ؟ ـ آية واحدة من القرآن تفصل في هذا ـ يقول الله سبحانه وتعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ». فسبب الحضارة وسبب التقدم ليس هو الإيمان ولكن هو الاصلاح، فما دام هناك إصلاح فإن الله لا يظلم القرية المصلحة بل يبقي عليها وهي متقدمة، اما الإيمان فليس شرطاً في الإبقاء على الحضارة، لكن الإيمان شرط أساسي ينفي التمكن في الأرض بدليل قول الله سبحانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً ».

إذن قضية الاستخلاف في الأرض وقضية التمكن، الإيمان شرط أساسي ينقيها، أما قضية الحضارة وقضية التقدم كما عند الكفر الآن فهي ليست قضية إيمان وإنما هي قضية إصلاح ـ أما الشيخ الدكتور فاروقي فلا أدري ما هي الأسباب التي دعته إلى التحامل على قضية التصوف، مع أن التصوف في مظهره الروحي، وفي مظهره السامي، وفي مظهره العملي، وفي

مظهره الذي يسمو ويصفو، هو شيء جاء به الإسلام، في حديث جبريل عن حديث رسول الله ﷺ أنه سأل الرسول ما الإحسان : أخبرني عن الإحسان، قال : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

الأستاذ يوسف العظم ..

إنّنا بمجرد أن نصف الحضارة الإسلامية ارتفع عنها الانحطاط، فأما حضارة المسلمين منحطة لأنهم تخلوا عن إسلامهم واما عوامل انحطاط المسلمين أنفسهم ـ واحدة ـ الثانية ـ الموضوعية التي أشار إليها الرئيس، في مجتمعنا العربي موضوعيتان : موضوعية علمية هادفة وهي التي أعجب بها كثيراً وتبناها أمثال الدكتور الفاروقي، وهو أستاذ من أساتذة الجيل، والموضوعية المشبوهة التي تدعو شبابنا إلى التخلي عن الدين والأخذ بالقومية أو الماركسية، ويتبناها الصليبيون في الديار العربية أو يترك المسلم دينه، وأن يترك المسيحي دينه فإذا ما ترك المسلم الشاب دينه وجد الذي دعاه، أصبح قسيساً هذا الذي أعنيه بالموضوعية المشبوهة والتي نرفضها. أما ضبط النفس والهدوء الذي أشار إليه الأخ الرئيس والتفكير والعمل فهو أمر سليم وصحيح، لكن لا نملك إلا أن نشير إلى أن الله قد وهب قوماً طبقة صوتية ونبرات خاصة، ولذلك نجد المحاضر غير الخطيب، والخطيب غير المتحدث، والمتحدث غير المناظر وهذه كلها قد تجتمع في رجل واحد ولكنها لا تجتمع في موضوع واحد ووقت واحد معاً، فالتفكير له وقته والعطاء العملي له وقته، ولكن في موضوعية علمية لا موضوعية مشبوهة، وهي التي تبرأ ندوتنا ولقاؤنا منها بإذن الله، وشكراً.

صلاح الدين جورجي من تونس..

إني أعتبر أهم ما قيل في هذه المناسبة هو محاولة تحليل أو البحث عن عناصر الانحطاط في الحضارة الإسلامية، وأهم هذه العناصر التي لم تدرس دراسة علمية من طرف المفكرين المسلمين هو التصوف، فنحن لا نعرف حقيقة هذا التصوف وماذا فعل في حياة المسلمين، لذلك أرجو من السيد المحاضر أو من غيره من المفكرين المسلمين التأكيد، أو تلبية

بمعطيات أكثر علمية وأكثر موضوعية، لدور التصوف في انهيار الخط البياني في الحضارة الإسلامية، لأن هذه حقيقة في رأيي، أعتبرها هامة جداً، فإذا عرفنا كيف نبينها ونكشفها نكون بذلك قد أعدنا النظر في تقييم تاريخنا الذي لا يزال لم يراع ولم يدرس دراسة موضوعية.

الدكتــور صبحــي ..

ثمة ملاحظتان أود الإشارة إليهما حول فكرتين، الأولى للدكتور جعفر شيخ ادريس والأخرى للدكتور فاروقي ـ الأولى حول تفسير الدكتور شيخ ادريس للقوم الذين يقادون بسلاسل إلى الجنة، ففيه شيء من التبرير لمعنى الضعف الذي انتهت إليه حال أولئك القوم، وما أظن ذلك كان مراداً في هذا الحديث، بل هي صورة مجازية عما يمكن أن يصل إليه المؤمن السعيد من دخول الجنة ربما رغم أنفه. وقد وردت في مثل هذا المعنى أحاديث أخرى ونصوص لا مجال لذكرها، والمهم من هذا ألا يكون في أي كلمة نقولها من مركز قيادي ما يبرر ضعفاً أو وهناً نفسياً يرتضيه أحد للمسلمين ـ أما بالنسبة للدكتور الفاروقي فلا شك أن ما أدلى به عن الحقائق المتعلقة بالتصوف مقبول منه قدر كبير إلى حد لا بأس به، ولا سيما إذا كنا نريد أن نتحدث عما آل إليه التصوف لا عن بدايته ومجرد وجوده، فمثلاً كل الذي قاله عن العوامل التي أدت إلى إفساد التصور الإسلامي في حقل المعرفة، وفي حقل الانتقال من الجماعة إلى الفردية، وحتى في حقل الأخلاق العامة، وفي ميدان التقليل من أهمية الدنيا، وفي فكرة وحدة الوجود، وفي نقض الإيجابية والواقعية والتعقل وحتى نقض الأمة باستيلاء روح فردية عليها بدلاً من الروح الجماعية، في هذا كله بدون شك توضيح لحقائق، من الصعب أن ينكرها أحد منا إذا كنا لا نريد أن نتأثر ببعض العوامل التي ساقتنا مساقاً عاطفياً ووجدانياً لإظهار حسنات في شيء كان له أصل أصيل وقد أصبح هو له البديل وهو الزهد في الإسلام وهو التصوف الذي هو إلى حد كبير تأثر بأشياء ليست من أصالة الإسلام الحقيقية في شيء، لكن في اعتقادي أن الدكتور الفاروقي في حديثه عن الخير وارتباطاته بحال نفسانية من طريق التصوف لم يستشف الروح الحقيقية لهذا الموضوع لأن في هذا الجانب

عند أهل التصوف وأرباب القلوب خيراً كثيراً، ربما لا نقع على مثله عند أي قيادي واقعي أو إيجابي أو حتى ثائر في عصرنا الحاضر، فمثلاً أنكر ارتباط الحالة النفسية الخيرية بالبيئة، أو أنكر أن يتعلق أكثر ما تعلق بالبيئة مع أنه يعلم، كما يعلم كل عالم مسلم، أن حديث رسول الله ﷺ في النية المشهور المستفيض الذي بلغ حد التواتر : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ». ومثله حديث رسول الله وهو أيضاً صحيح : « نية المؤمن خير من عمله ». هذا وذاك وأحاديث أخرى من هذا القبيل تنقض أن يكون أي معنى متعلق بالنية مسبباً بعداً خيرياً عن حقيقة معنى الخير الأصيل، لأن تصورنا للنية لا يكون إلا إرادياً والإرادة عمل عقلي والعمل العقلي ينافي أن يكون التصور للخير تصوراً قائماً على أساس فردي أو فردائي، فأرجو من الدكتور اسماعيل الفاروقي أن يوضح هذا الأمر لأني معتقد اعتقاداً جازماً أنه يقصد إلى ما أقصد إليه، ولكن ربما كان التعبير هو الذي أسأت أنا شخصياً فهمه.

وشكراً على كل حال..

الدكتور جعفر شيخ ادريس ..

أريد أن أصرف جزءاً من وقتي في مناقشة الدكتور الفاروقي ـ لقد كان التصوف في رأيي رد فعل ضد الاتجاه الذي حصر الدين في المظاهر الخارجية ـ الدراسة قدمت على التقوى، العمل الخارجي قدم على الأحوال النفسية ـ إرادة الإنسان نسيت معها إرادة الله ـ علوم الدين صارت كفنون الحدادة والتجارة لا روح فيها، لهذا اسمى الغزالي كتابه « إحياء علوم الدين ». والانطباع الذي خرجت به من كلام الأخ الدكتور الفاروقي أنه يريد أن ينتقل من طرف إلى طرف آخر، وأنا أدعو وأعتقد أن التوحيد ليس مع التصوف، وليس مع الطرق الأخرى، إنما وسط بينهما ـ إنه يجمع بينهما ولا تناقض بينهما، وكثير من الأشياء التي أخذها على المتصوفة فيها جزء من الحقيقة، المتصوفة أخطأوا فيما أنكروه وأصابوا في كثير ما أثبتوه ـ المعرفة نور يغدقه الله في القلب نعم ـ ولكن هذا لا يعني أنه ليست له أسباب خارجية ـ المعرفة تعتمد على حال العارف نعم ـ ولكن هذا لا يعني أنها

لا تعتمد أيضاً على حال الذي يراد معرفته، الخير أساساً في النفس نعم، ولكن هذا لا يعني أنه يبقى في النفس فقط ولا يترجم إلى الخارج، التهذيب النفسي هو الأساس، الأخلاق قائمة على البيئة، كل هذا صحيح، والأحاديث كما ذكر الأخ المناقش توضح هذا، ولكن الخطأ هو أن نقول إن هذا ليس ذاك الصحيح. إن الدين أساس في القلب ولكن العمل هو ترجمة ضرورية لهذا القائم في النفس وإلّا لم يكن هناك فرق بين المنافق والمؤمن، لأن المنافق يمكن أن يأتي بأعمال خارجية تشابه أعمال المؤمن، وأيضاً إذا قلنا هذا فإن الرجل الذي يعزم على الخير عزماً قوياً ولكنه لا يستطيع أن يترجم عمله هذاإلى أشياء لن يعتبر خيراً،ونحن نعلم أن هذا خير.انفق ما تبقى من الوقت على ما جاء من الاسئلة: الإيمان ليس شرطاً في بقاء الحضارة،هذا يا أخي ليس صحيحا، الإيمان ليس شرطاً في وجود الحضارة المادية لأن هذه نعمة، والله سبحانه وتعالى لا يشترط للنعم أن يكون المنعم عليه بها مؤمناً، فهو يعطيها فضلاً منه، فالإيمان ليس شرطاً في وجودها ولكنه شرط في استمرارها، لأن الذي يعطي هذه النعمة ثم يستمر في كفره بالله وظلمه للناس وكذا وكذا لا بد أن تنهار حضارته وهذا هو أملنا في انهيار الحضارة الغربية من هذه الناحية ـ قوم يقادون إلى الجنة في سلاسل... الحديث، كما أفهمه، كما عرفت من تفسيره يا أخي ليس فيه تبرير لذل المسلم، وإنما الحديث معناه أن بعض الناس يكونون كفاراً ـ فيحاربون المسلمين فيأسرهم المسلمون فيكون هذا سبباً في إيمانهم فهم عندما أذلوا كانوا كفاراً ولم يكونوا مسلمين. إن كنت قلت ينبغي ألا تكشف عيوب الحضارة الغربية فأنا مخطىء بل ينبغي أن نفعل هذا ولكن أظن أن الذي قلته هو أننا لا ينبغي أن نتصور أن الطريق الوحيد لقيام حضارتنا هو أن تنهار الحضارة الغربية بمعنى الجانب المادي فيها. ليس من شرط قيام الحضارة الإسلامية أن ينهار هذا الصرح المادي للحضارة الغربية، بل يمكن أن يبقى هو وأن تزول الأسس الثقافية الفلسفية له، ويكون هذا ميراثاً للمؤمنين، فيتحول إلى حضارة إسلامية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الدكتور اسماعيل الفاروقي ..

أولاً في قضية التحامل على التصوف، أنا لن أنبس ببنت شفة في موضوع التصوف، اعترفت بفضل التصوف على تاريخ المسلمين ـ فيما يتعلق بالتحامل قلت إنني اعترفت بفضل المتصوفة قبل أن أبدأ بانتقادهم، وذكرت مما اعترفت فيه فضلهم في تغوير الإسلام في النفوس وتزكية النفوس، والدعوة وإدخال غير المسلمين في الإسلام وهلم جرا، ولربما لم أذكر الجهاد، ولا شك أن عدداً كبيراً من المتصوفة جاهدوا وساهموا في الجهاد وكان الجهاد هو عنوان تصوفهم وعليهم لا تقع لومة لائم. المشكلة الثانية هي المشكلة التي أثارها الشيخ جعفر شيخ إدريس وهي أن التوحيد وسط بين الطرفين : الطرف الأول هو طرف الاعتماد على الحقيقة الصوفية، بمعنى أن ما جاء به المتصوفة من حقيقة والابتعاد عما نسب إليهم من خطأ ولو كان هذا هو التصوف، لو التصوف هو هذا الشيء الطيب الذي ذكره الأخ الدكتور جعفر لما لزم أن يكون هناك تصوف ولا صوفية، لكان الإسلام كافياً ولكانت كنية المسلم أنه مسلمٌ كافية. ليس التصوف مجرد ردة فعل، ولو تصورنا أن التصوف كان ردة فعل لوجب علينا أن نقول إن الإسلام تدهور وجاء المتصوفة يردون على هذا التدهور فالتزموا بتدهور مقابل، وهذا التدهور لا يزيد الحالة إيضاحاً، ومن جهة أخرى عندما نقرأ كتب المتصوفة نرى أن المسألة عندهم ليست مسألة توسط، والمسألة بالفعل في الأخلاق وفي السياسة وفي الأخلاق الشخصية أو العامة، ليست المسألة مجرد توسط إنما هي وضع الأولوية على جانب دون الآخر، وأنا ألح على هذا وأعطي لكم مثلاً ـ المثل الذي تفضل به الدكتور صبحي ـ قضية ارتباط الخير بالنية ـ لا شك أن هذه الأحاديث التي ذكرها الدكتور صبحي صحيحة، وأنا لا أشك فيها ـ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » صحيح، ولكن في الإسلام في تصوري فيما يقوله الإسلام أن النية شرط لازم لا بد منه كي يأتي الفعل محققاً للقيم الأخلاقية، شرط لا بد منه، فكل فعل لا تتوفر فيه النية الطيبة نفاق كما قال الدكتور جعفر، ولكن إذا كان المتصوف يقول هذا ولا يقول أكثر من هذا فما الداعي لتمييزه عما يقوله بقية المسلمين ؟ الداعي

لتمييزه عن بقية المسلمين هو أنه يقول شيئاً آخر، هو أنه يعطي الأهمية على النية دون الدخول في الزمان والمكان وتحريك الزمان والمكان وتحقيق الأمر أو الغاية بالزمان والمكان، ولو لم يكن هذا لما كان هنالك تصوف ـ فما هو الإسلام ـ ماذا يقول لنا الإسلام ـ قالت لنا المسيحية إن النية هي الكل في الكل، وطبعاً في الأناجيل ما الذي يحكم النية أو يتحكم في النية ـ صاحب النية يتحكم فيها حتماً ـ ولكن ما هي الأداة أو السلطان الذي يمكنه أن يحكم على النية، الله من جهة، والإنسان صاحب النية من جهة أخرى، لذلك لا ضرورة لوجود قانون عام ولا قانون لوجود حدود وعقوبات، ولا ضرورة لوجود محاكم ولا سجون، لماذا ؟ لأن النية عنصر شخصي، ولأن تحويل النية مادية وعظية شيء يأخذ به الوعاظ، ويعمل القديسون والأولياء على تصنيفها طيلة حياتهم، وكذلك يحاولون أن تصفى هذه النية في الناس ـ الإسلام يقول : لا بد من محاكم، ولا بد من شريعة، ولا بد من حدود وسجون، لأن المسلم مكلف بالدخول في الزمان والمكان، وتحرير الزمان والمكان، وتحريك الزمان والمكان، وتغيير الزمان والمكان معناه التعرض إلى شيء عام خارج النفس الإنسانية، وهذا الذي هو خارج النفس الإنسانية لا يمكن أن يترك لحكم الضمير فقط، يجب أن تدخل فيه الشريعة ويدخل فيه الغير ويحكمه ويقومه ويسويه، وعند اللزوم يقاصصه ويضعه في السجن، أو يقتله وهلم جرا، لذلك أكرر أن المتصوفة لم تتبع الطريق الوسط الذي هو طريق التوحيد كما قال الدكتور جعفر، إنما مال التصوف إلى الجانب الآخر وهو جانب الشخصية النفسانية والانفرادية، إلى آخر القائمة التي ذكرت، ولهذا حقت عليها الكلمة، وحق عليها اللوم.

الأستاذ سعيد حوى ..

في الحقيقة الذي دفعني إلى الكلام أن هناك موضوعاً طرح وهو يمس قطاعاً كبيراً في العالم الإسلامي بل في العالم كله، ولهذا وجدت أنه ليس من المناسب إلا أن أقول كلمة توضع فيها بعض الأمور في مواضعها بالنسبة لقضية التصوف. قبل أن أقول هذه الكلمة أحب أن أقول ما فهمت من الدكتور جعفر، هو قال إن قضية الصراع والظفر والتغلب على الحضارة

الغربية، أو على الغرب بشكل عام ليس له طريق وحيد، هكذا فهمت منه وإنما هناك طرق متعددة ـ نسلكها في قضية سيطرة الحضارة الإسلامية على هذا العالم، قد يكون منها مثلاً التركيز على الدعوة، وأن تصبح هذه المجتمعات نفسها إسلامية في يوم من الأيام، قد يكون هذا ـ هذا الاحتمال كبير، لكن هذا فهمي لكلمته والله أعلم، ليس هذا رداً على الأستاذ، ولكن يظهر أنه أخذ جزءاً من كلمته ورد عليها والله أعلم. أقول بالنسبة للتصوف أيها الأخوة إنه نشأ كأثر من آثار الاختصاص، انبثق عن الكتاب والسنة علوم كثيرة ـ انبثق عن الكتاب والسنة علم التوحيد الذي أسمي في مرحلة من المراحل باسم علم الكلام، انبثق عن الكتاب والسنة علم الفقه، وانبثقت علوم كثيرة جداً. لو أخذنا هذين العلمين : علم الكلام وعلم الفقه فماذا نرى في علم الكلام ؟ نقرأ أن الله عز وجل متصف بالسمع والبصر والإرادة، له أسماؤه الحسنى. وهكذا في علم الفقه نعرف كيف نركع وكيف نسجد ومتى تصبح صلاتنا صحيحة ـ بقيت ثغرة ـ هذه الثغرة هي : إذا عرفت أن الله سميع، فكيف أعرف الطريق لاستشعر أن الله يسمعني ـ إذا عرفت أن الله بصير، فكيف استشعر أن الله عز وجل يراني، إذا عرفت كيف أركع وأسجد، فكيف يستشعر قلبي الخشوع أمام الله عز وجل، فوجد علم ثالث مكمل للعلمين الأولين علم الفقه وعلم العقائد، ووجد العلم المكمل وهو علم التصوف ـ الخطأ الذي حدث أيها الإخوة هو ما يلي ـ علم التصوف هو علم التحقق المقيد بعلم العقائد وبعلم الفقه، ولذلك قال الفقهاء خلال العصور ـ الصوفي يحكمه الفقيه ولا يحكم الفقيهَ الصوفيُّ فالصوفي ليست مهمته أن يقول في العقائد، وليست مهمته أن يقول في الفقه، بل عليه أن يلتزم بعلم العقائد، وأن يلتزم بعلم الفقه، مهمته أن يتحقق ـ مهمته أن يسير في الطريق الذي يكمل به علم العقائد على ضوء علم العقائد، أن يكمل به الفقه على ضوء الفقه. الذي حدث في التاريخ أن هناك مرحلتين ـ المرحلة التي كان يعتبر الصوفي فيها نفسه مقيداً بكلمة الفقيه، والمرحلة التي أصبح فيها الصوفي هو الذي يضع العقائد وهو الذي يصنع الفقه. نحن إذا أردنا أن نأخذ التصوف وعلى رجاله فإنما نأخذ على من صار في طريق يعتبر نفسه منظِّراً، يعتبر نفسه فقيهاً، فيطرح القضية مع أنه ليس مجتهداً، الذي يعتبر

نفسه أن عنه تنبثق قضية العقائد والتحقيق العلمي فيها ـ أمثال هؤلاء نأخذ عليهم ولكن ـ ابن تيمية رحمه الله مثلاً له مجلدات في قضايا الصوفية. ابن تيمية رحمه الله يقول عن الشيخ عبد القادر الجيلاني بأن كراماته منقولة تواتراً، فإذن عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر مجدداً للمذهب الحنبلي في القرن الخامس، هذا الإنسان الذي انطلق من خلال فقه صحيح ومن خلال عقائد صحيحة وكان لكلمته في عصره دورها الكبير، عندما كان يقول الكلمة كان يهز الخلفاء ـ كان يهز الخلفاء، ومعلوم لديكم كلمته عندما جلس إليه الخليفة فقال له : كيف تولي أظلم الظالمين شئون المسلمين، ماذا تقول لله رب العالمين ؟، فبكى الخليفة وتراجع عن بعض تصرفاته ـ ابن تيمية رحمه الله يقول عن الشيخ عبد القادر الجيلاني بأن كراماته منقولة تواتراً ـ أيها الإخوة ! لا يصح أن نتصرف في كل قضية من القضايا بردود فعل، ينبغي أن تكون دراساتنا مستوعبة ـ أن نعتبر التصوف بإطلاق هو سبب انهيار الحضارة ـ بعضهم يقول بأن الفقهاء هم سبب، وجنودهم هم سبب انهيار الحضارة الإسلامية، كل شيء ينبغي أن نعطيه حجمه في التحليل، وينبغي أن نمتلك الدقة الفقهية والعلمية بحيث لا نطلق إطلاقات ـ هذه الإطلاقات تجعلنا أمام إحراجات كبيرة، سواء إحراجات علمية أو إحراجات في الحركة اليومية للأمة الإسلامية ـ التصوف ذو طابعين ـ الصوفية الملتزمون بعلم العقائد الصحيحة وبالفقه، يعني بتعبير آخر الصوفية السلفيون، هؤلاء لا يستطيع أحد أن يقول بأنهم كانوا عوامل انحطاط حضارة، بل هؤلاء كانوا الامتداد العادي للحضارة الإسلامية في تيارها المتدفق الذي يجتمع فيه الروح والمادة والجهاد، ولكن هناك نوع آخر من التصوف ومن الصوفية، هم الذين اعتبروا أنفسهم أن من حقهم أن يطرحوا عقائد جديدة مثل وحدة الوجود، هم الذين اعتبروا من حقهم أن الفقيه ينبغي أن يتابعهم لا أن يكونوا وراء فتوى الفقيه، الفتوى البصيرة المبصرة، أمثال هؤلاء الذين ابتدعوا والذين ضلوا بل والذين كفروا، أمثال هؤلاء ينبغي أن نقول فيهم ما نقول ومهما قلنا فإن لكلامنا محله، لكن لا بد أن نستثني كما قلنا الصوفي الذي أكمل دور الفقيه والذي أكمل دور المتكلم، لا بد أن نستثني هؤلاء ونحن نتكلم عن هؤلاء، فالتصوف علم متمم لعلم الفقه ولعلم التوحيد. واستغفر الله من الإطالة..

موضوع الندوة :

تأهيل الشباب للقيادة الحضارية

برئاسة الأستاذ إبراهيم جدوان

يشارك فيها : د. خورشيد أحمد
د. معروف الدواليبي
الأستاذ أنور إبراهيم

كلمة الدكتور معروف الدواليبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وبعـد ..

أيها السادة الحاضرون ـ إني أشكر أخواننا في ندوة الشباب العالمي الذين اختاروا عنواناً لهذه الندوة : تأهيل الشباب للقيادة الحضارية، وإن كنت خائفاً على نفسي من أن أخوض في موضوع لم أتهيأ له من قبل، ولكن أخواننا حفظهم الله وضعوا يدهم على الجرح، فنحن المسلمين مازالت شريعة الله من كتاب وسنة قائمة بيننا، فهي التي صلحت بها أحوال الأمة، وانتقل بها العرب من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم. فالكتاب والسنة موجودان، والشعب المسلم أيضاً موجود ولكن النقص بكل صراحة في القيادة ومؤهلاتها الذين يتعطشون للعمل الإسلامي وخاصة من الشباب المتحمس، إنهم والحمد لله كثر، ولكن علينا أن نتبادل الرأي لتحديد تلك المؤهلات. فموضوعنا إذن جدير بالعناية بالدرجة الأولى، لأن مشكلة النهوض بالأمة الإسلامية هي مشكلة قيادة قبل أي شيء آخر، فإذا استطعنا بعون الله تجهيز الشباب بمؤهلات القيادة رجونا عندئذ من الله خيراً كثيراً لهذه الأمة.

واسمحوا لي بإيجاز أن نحصر موضوعنا من خلال مفهوم كلماته الثلاثة : التأهيل. القيادة. الحضارة. ولا حاجة فيما أرى لشرح مفهوم كلمتي التأهيل والقيادة لوضوح المراد منهما. أما كلمة الحضارة هنا فلا أريد أن أقول فيها أكثر من أننا نريد منها الحضارة الإسلامية، ولسنا في موقف لأن ننازع غيرنا في تسمية حضارته بالحضارة المسيحية أو الحضارة المادية أو الحضارة الماركسية لأننا إنما نبحث في صدد تأهيل القيادة الإسلامية من أجل الدعوة للحضارة الإسلامية. فكل دين ظهر فيه دعاة إلى حضارته، بل منهم من حصر الحضارة فيه، ولسنا هنا في مقام تصويبهم أو تخطئتهم وإنما المراد أن نحدد المراد من الحضارة الإسلامية، ومتى تكون حضارة إسلامية أو غير إسلامية، وهنا أيضاً أوجز الكلام فيها فأقول : إنها تكون حضارة إسلامية عندما تقوم على القيم الإسلامية، فما هي هذه القيم التي يجب أن يدعوا إليها شبابنا وأن يتأهلوا بمعرفتها ؟ هنا أيضاً ينبغي أن نعمد إلى الإيجاز بالنسبة لضيق الوقت ورغبة في التجريد والتوضيح وذلك بطريق التجريد والتحديد لعناصر القيم الإسلامية. وأفضل ما نعتمد عليه في ذلك هو القرآن الكريم، فهو دليلنا وهو مرشدنا، فاذا عرفنا تلك العناصر للقيم الإسلامية ثم أقمنا عليها بعد ذلك حضارتنا، كانت حضارتنا عندئذ حضارة إسلامية بجميع مقوماتها، من مادية وروحية، وكان مجتمعنا إسلامياً، ودولتنا إسلامية، وثقافتنا إسلامية، فمن أين ننطلق في ذلك لتجهيز شبابنا. أرى أن ننطلق من المعرفة والعلم، خاصة ونحن نعيش في عصر هو بحق عصر الفتوح العلمية التي لم يسبق لعصر من عصور الحياة البشرية أن وصل إليها، والإسلام في رأيي هو وحده الذي يستطيع الاستفادة من هذه الفتوح العلمية لأن الإسلام بصريح القرآن قال : « ونفصل الآيات لقوم يعلمون ». وفي آية « لقوم يعقلون »، وفي آية « لقوم يتفكرون »، في حين أن الكنيسة أقامت الدين على مفهوم صريح واضح عندهم كما جاء في كتبهم الرسمية، ولست أنا الذي ألخص وإنما هذا قولهم. عرفوا الدين من أصل مائة تعريف طرحوها وقالوا إنها ليست بتعاريف علمية، وإنما التعريف العلمي، الذي اختاروه من أصل مائة تعريف، إن الدين هو كل مفهوم لا يتفق والعلم، لذلك انفصل الدين عن العلم منذ القرن الثامن عشر واصبحت الثقافة علمانية لا دخل

للدين فيها، ولم يعد في الإمكان أن نقول إن هناك حضارة مسيحية أو يهودية كما زعم بعض الكتّاب من الغرب. وأحاول مرة بعد مرة أن أعود إلى الإيجاز لأن الموضوع واسع، وأرجع في ذلك إلى ما جاء في كتاب « الذريعة إلى أحكام الشريعة » للإمام الراغب الأصفهاني رحمه الله، حيث حدد مراد الله من خلق الإنسان بثلاثة أفعال فقال : فالفعل المختص بالإنسان ثلاثة :

أولاً ــ عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى « واستعمركم فيها ».

ثانياً ــ عبادته تعالى المذكورة في قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »، بالامتثال للباري في عبادته، في أوامره ونواهيه.

ثالثاً ــ خلافته المذكورة في قوله تعالى « ويستخلفكم في الأرض فينظرَ كيف تعملون ».

وهكذا فان الشباب المسلم يجب أن يتزود أولاً بالمعرفة الكلية الإسلامية التالية، وذلك أن الإنسان في عقيدة الإسلام مكلف :

أولاً ــ بعمارة الأرض، فلا تتحدانا عندئذ الحضارة الحديثة المادية لأننا مكلفون بعمارتها.

ثانياً ــ أن الإنسان مكلف بعبادته تعالى في الأرض من خلال عمارتها وفقاً لشريعته.

ثالثاً ــ أنه بعد ذلك خليفة في الأرض مسئول، أي أنه موظف بكل معنى الموظف في دائرة دولة. إنه موظف فيها بعمارتها ولعبادة الله فيها، أي أن يمشي في العمارة وفقاً لشريعة الله، فإذا عمرها وفقاً لشريعة الله كانت أعماله كلها عبادة وكان مؤتمراً بأمر الله ولم يعزل عن الحياة ما بين الجدران، فالعلم كما ترون لا يتحدى الشاب الداعية القائد عندما يتجهز بهذه المعرفة الثلاثية من أن المعرفة الكلية للإسلام أو مراد الله من الإنسان في الخلق عمارة الأرض خلافته، أنه موظَّف له في الأرض يعمرها، وإنه عليه أن يعبده فيها ومسئول مثل أي موظف في الدولة عما قد وكِّل إليه، فإذا استطعنا أن نجهز شبابنا المسلم بهذه المعرفة الكلية لم يقف أمامه بعد ذلك شيء من تحديات العلم والحضارة المادية، لأن الإسلام يدعو إليها من غير تحديد

وذلك بمختلف وسائل النظر والتكنولوجيا وبمختلف حاجات الفم والجنس، ولكن وفقاً لشريعة الله عملاً بقوله تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ففتح بذلك جميع أبواب التكنولوجيا من غير تحديد، كما أنه لم يحرم حاجات الفم والجنس ما كانت وفقاً لشريعة الله، فقد قال الله تعالى « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا » يعني كأن الله يتجاهل الكافر وأن طيبات الأرض إنما خلقت من أجل المؤمن فيستفيد منها الكافر تبعاً له.

فلسنا نحن نتخلى عنها، ولذلك أكّد بالنسبة للآخرة أن في الآخرة ستكون خالصة له، وأخيراً فقد حدد الإسلام معنى العبادة أيضاً فلم يجعل من العبادة عبئاً وتكليفاً كما يظنه الظانون، فهو مفهوم إنساني عملي دنيوي أيضاً نحن في حاجة إليه، فقد جعل من العبادة ما يجب على كل موظف فيما وظف فيه من العمل وذلك بأن يكون دائماً وفي كل حركة من حركاته وسكناته ذاكراً شريعة الله فلا يتعداها، مثل أي موظف في الدولة حين يدخل مكتبه حيث لا ينظر في قضية إلا وهو ذاكر أحكام القانون فيرجو ألا يخطىء ولا يسيء بالخروج على قوانين الدولة فلماذا يكون الإنسان غير ذلك، وماذا فيه من المشقة، هل فيه مشقة على الموظف أن يراعي قوانين الدولة كلما تحرك في مكتبه أو استلم عملاً، فليس في عبادة الله أي مشقة، بل هي واجب حيوي وعملي فيرجو ألا يخطىء الموظف في الدولة ولا يسيء بالخروج على قوانين الدولة، فاذا فعل الإنسان ذلك فطار في السماء وغاص في البحر وأكل وشرب ونال حاجات جنسه وفقاً لشريعته تعالى كان محققاً لمراد الله منه على الأرض.

وهكذا أعود فألخص أن مؤهلات الشباب فيما أراها للقيادة الحضارية هي تلك المعرفة التي أشار إليها القرآن الكريم، وهي لا تقف أمامها تحديات الحضارة المادية، وبالاضافة إلى تلك المعرفة طبعاً لا بد من العمل. « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلّا الذين آمنوا » فالإيمان شيء ضروري ولكن بدون عمل نكون أفسدنا نظام الدولة كما لو آمن موظف الدولة، وعندما يوقع أنه واجب عليه أن القانون يجب أن يكون دائماً بارزاً أمامه ومؤمنا بأنه لا يجوز له الخلاف، ولكن إذا عمل عكسه أفسد إيمانه،

لذلك عليه أن يتجهز بتلك المعرفة الثلاثية لعمارة الأرض وأنه موظف في الأرض لعمارتها ومسئول، وأنه مكلف بالعبادة، بالعمل بشريعته، فإذن عليه أن يتجهز بتلك المعرفة الثلاثية، والعمل على أساسها، والدعوة إليها، وبذلك أنهي هذه الملاحظات الخاطفة، وأترك الأمر إلى تبادل الرأي عساني أن أكون تمكنت من لملمة الموضوع، لأنه موضوع واسع جداً، والمؤهلات إذا دخلنا في تفصيلاتها وخرجنا عن الكلية فلا يتسع لها المقام، وعسى أن يكون في أسئلتكم ومناقشاتكم ما يتمم ما نقص إليه فكري المتواضع.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

كلمة الدكتور خورشيد أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والجهل ضدان لا يجتمعان. ولكي يتولى الإسلام قيادة العالم لا بد من التركيز على العلم والجسم، بيد أن العلم هو نقطة البداية. وإذا كان يلزمني هنا أن أقرر بأن العلم لا يعني كسب المعلومات عن الإسلام، رغم أهمية ذلك، ولكنه يستهدف المعرفة التامة بكل التيارات الفكرية في عصرنا والحضارة المادية التي يتحتم علينا أن نعلن الحرب عليها. ولكي نتمكن من ذلك لا بد أن نتسلح بسلاح المعرفة التامة بظروف العصر، ونوضح الأسس المنهارة التي تقوم عليها هذه الحضارة، ونحاول إعادة بناء الفكر الإنساني على أساس جديد من قيم ومبادئ الإسلام. ولا يكفي المعرفة السطحية والتعرف على غلاف الحضارة المادي، وإنما يلزم التسلح بعمق الفهم والمعرفة الخلّاقة وبذل الجهود المضنية المستمرة والتي لا تعرف الكلل، لإعادة بناء الفكر الإنساني على أساس إسلامي.

الأمر الثاني هو إيجاد العاطفة الثورية لدى الشباب لكي يستمدوا شخصيتهم وكيانهم من الإسلام وليس من خدود أقطارهم السياسية أو أرضهم أو منظماتهم أو مصالحهم أو تاريخهم المحلي، وإنما ينتمون بحق

إلى الإسلام بحيث يمكن أن نقول يوماً ما إننا أبناء الإسلام. وعندئذ فقط يستطيع الشباب أن يسهم في إيجاد القيادة لحضارة الإسلام. ومن ثم يوجد التهيؤ الأخلاقي والإعداد التنظيمي، لأن العمل الذي ينبغي علينا القيام به لا يمكن أداؤه وفق نمط معين أو في أعقاب أحاديث الصالونات أو بتجاهل بناء الخلق الفردي.

إن الحساب بين يدي الله مسئولية كل فرد، ولذلك فإن أي تنظيم يتجاهل مشكلة بناء أخلاق الأفراد لا يمكن أن يحدث التغيير المنشود الذي يريده الإسلام.

ولذلك فإن الأمر الثالث الهام ينحصر في تطوير واكتساب الأخلاق الإسلامية لكل فرد، ويتبع ذلك الاستعداد والاشتراك في الكفاح والنضال، لأنني أعتقد أنه من خلال الاشتراك في الكفاح تبرز العناصر الشبابية الممتازة وتعبّر عن نفسها.

وإذا اعتمدنا على الخطط النظرية، ولم نشترك عملياً في الجهاد، فلن نتمكن من تنمية القدرات والملكات التي يحتاجها الإسلام. أما الاشتراك العملي في الكفاح والنضال لنصرة الإسلام فيبعث الهمم ويبرز الامكانيات ويحولها إلى حقيقة واقعة ويركز الجهود في إيجاد النموذج الحقيقي.

إنه عن طريق القدوة وإقامة النظام الإسلامي في وقت معين ومكان محدد يمكن تحويل مجتمعنا وشعبنا وتغيير مجريات الحوادث في العالم الإسلامي، وبالتالي التأثير على بقية أنحاء العالم.

هذه بالنسبة لي هي الخطوط العريضة التي ينبغي التمسك بها إذا أردنا حقيقة تحقيق القيادة الحضارية.

تعليقات

ندوة تأهيل الشباب للقيادة الحضارية

الأخ ابراهيم جدوات :

أشكر الأخ خورشيد أحمد على حديثه الحافل بالأفكار، ولدينا الآن عشرون دقيقة، وأرجو من لديهم أسئلة أن يكتبوها ويرسلوا بها إلى المنصة نظراً لضيق الوقت، كما نرجو من الأخوة الذين يوجهون الأسئلة أن يلتزموا بالاختصار ولا يخرجوا عن الموضوع.

الأخ حافظ محمد إدريس :

أشكر الأخ جدوات وأعتقد أن الوقت قد حان ليتفضل الأخوة بكتابة أسئلتهم وإرسالها، وأنتهز هذه الفرصة لأطلب من الأخ خورشيد أن يلقي ضوءاً على التجارب التي تمت في باكستان بالنسبة لإعداد الأمة الإسلامية والشباب المسلم بالذات كي يقوم بدور في المستقبل.

الأخ خورشيد أحمد :

إن هذا الأمر يتطلب توضيحاً تفصيلياً لا يسهل إعطاؤه الآن في هذه العجالة، ولكن الشيء الوحيد الذي يمكن قوله هو أن باكستان، في الوقت الحاضر، تمر بمرحلة انتقالية، والحركة الإسلامية وكافة الناس المرتبطين بالإسلام في تلهف شديد لانتهاز هذه الفرصة التي أتاحها الله من أجل إحداث تغييرات إسلامية جوهرية، وإن الاستراتيجية التي نتبعها هي نفسها نص عليها القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر.... ».

ولذلك فإن البرنامج يتجه إلى الصلاة التي تدعم قوة ارتباط الإنسان بالله، وإلى فرض الزكاة التي تستهدف تغيير النظام الاقتصادي الاجتماعي،

أفراده لذواتهم إلى نظام جديد له طبيعة مختلفة ويعتمد المشاركة حيث أن ما يكتسبه الإنسان ليس نتيجة جهده الخاص وحده ولكنه نتاج العديد من العناصر المتداخلة فينبغي أن يشاركنا فيه الغير وألا يتجه الجهد الاقتصادي لصالح قلة معينة وإنما لمصلحة الجميع.

ويتبع ذلك اتباع سياسة تبنى على إحقاق الحق وإزهاق الباطل على كافة المستويات : مستوى البواعث، ومستوى التعليم، ومستوى السياسات الاقتصادية والاجتماعية، ومستوى القانون بحيث عندما تتجه الجهود لإقرار الشريعة تكون جميع القوانين المخالفة للشريعة قد استؤصلت وانتفت من الدستور وتم تنفيذ الحدود وفرض قوانين الزكاة والعشور وطبقت التشريعات الأخرى في المجالات الأخرى، ولكننا نعتقد أن الإسلام لا يفرض بالقانون.

إن التغيير لا بد أن يحدث على مستوى البواعث، ومستوى المعلومات، ومعرفة الناس، وتثقيف الجيل الجديد، واتباع السياسات الاقتصادية الاجتماعية للدولة.

وفي هذه المجالات تبذل الجهود الآن لتكييف الأوضاع وتغيير الأحوال، وما أتممناه مجرد نقطة البداية، وأرجو أن تكون بداية طيبة، بمعنى أن يكون مستوى رؤية المجتمع الذي نريده على درجة كبيرة من الوضوح. ولكن الطريق حافل بالمشاكل والصعاب، ونحن نمر بفترة لا تعمل فيها الأجهزة السياسية بكفاءة تامة، وهناك الكثير من المخاطر، ونأمل مع استمرار الجهود أن تتمكن القيادة الحالية للبلد من أن تمهد الطريق لإدخال النظام الإسلامي ككل في المستقبل القريب إن شاء الله وأشكركم.

الأخ ابراهيم جدوات :

السؤال الآن : كيف ننظم أنفسنا في مواجهة القوانين والنظم المحلية لأقطارنا ؟. هل نعمل مع أحزاب غير المسلمين ومنظماتهم سواء كانت اشتراكية أو وطنية ! أم ماذا نفعل ؟

والسؤال موجه باللغة الانجليزية ونتقدم به للاستاذ خورشيد أحمد ليتفضل بالاجابة :

الأخ خورشيد أحمد :

تعلمون أن الداعية عليه أن يتحسس طريقه رغم الحواجز والمشاكل التي تعترض وضعه المحلي. ومثله في ذلك كمثل الماء المتدفق على التلال، تعترضه الاحجار والعقبات والعوائق ولكنه يشق طريقه رغم ذلك. وفي معظم الأقطار بالتحديد هناك أوضاع محلية وقوانين تحول دون العمل الإسلامي، ولكنني لا أشك في أن العامل للإسلام يكيف نفسه مع الظروف ويشق لدعوته الطريق. ولكن عندما يستحيل المخرج، في هذه الحالة نفكر في اللجوء لنوع من الضغوط العالمية، لأن الحقوق الإنسانية الأساسية مكفولة للمسلمين كي يعيشوا وفقاً لإسلامهم. وهذه الوسيلة قد استخدمت من قبل قوم آخرين ولا سيما في العالم الحديث. وليس هناك ما يحول بيننا وبين استخدامها، بمعنى أن نشكل ضغوطاً مشابهة، وأن نشق لنفسنا طريقاً وسطاً، بحيث تزول الحواجز والموانع، فاذا تعذر اللجوء إلى أي أسلوب آخر فالمسلم مكلف إلى الحد الذي يستطيعه وفق طاقته.

وما أريد أن أؤكده هو أن العامل للإسلام لا يقبل بحال إذا واجه الصعاب أن يتخلى عن عمله أو يشجبه فهذا مستحيل. عليك أن تُخْضِعَ الظروف وأن تكافح وتتلمس السبل، إما بتغيير القوانين بالضغوط الدولية أو من خلال الضغوط المحلية والخارجية، أو بتطوير الوسائل لإزالة العقبات وأعتقد أن هذا هو الإطار المتواجد في الأقطار التي يشكل المسلمون فيها أقلية.

ولن يصعب علينا أن نشق طريقنا.

وأضرب لكم مثلاً من الأقطار الشيوعية التي يجد المسلمون فيها أنفسهم غير قادرين على العمل، ولكن حتى في هذه الأقطار نجد بحمد الله في السنين الأخيرة، رغم أن الشيوعية هي القوة المسيطرة، ولكننا نجد أن جيلين ونصف من المسلمين قد عبروا محنة هذا النظام الدكتاتوري واستطاعوا أن يجدوا الطرق والوسائل للاستمرار في العمل رغم كل المشاكل. وأنتم تعلمون أنه في العشر أو الاثني عشر سنة الأخيرة قد فرضت قوانين جديدة في روسيا، وبالذات في مناطق المسلمين للحد من الأنشطة الدينية. لماذا هذه القوانين الجديدة بعد ٥٠ أو ٦٠ سنة من الحكم الشيوعي وفي مناطق

المسلمين بالذات ؟. لأنه رغم كل الحواجز استطاع المسلمون أن يشقوا طريقهم حتى في مجال التعليم ـ تعليم الأطفال.

لنترك روسيا جانباً. ولنرجع إلى التاريخ : ماذا حدث في إسبانيا ؟ إن التاريخ يشهد أنه في إسبانيا ظل المسلمون لمدة ٤٠٠ سنة على الأقل قادرين على المعيشة تحت وطأة الحكم المسيحي رغم ما كان يسوقه لهم النظام الكنسي المسيحي من استئصال أو طرد أو تحويل عن الملة.

ولم يكن أمامهم خيار آخر، وظلوا ٤٠٠ سنة يعيشون وفقاً لأوامر دينهم، وطوروا لأنفسهم لغة مختلطة جديدة تجمع بين مزيج من العربية والإسبانية، وأصبحت معروفة ومميزة عند المسلمين الذين كانوا يعيشون في هذه المناطق تحت أسماء مسيحية. وأنا ألمح إلى هذه الأمثلة ولا أحب أن أضرب في أعماق التاريخ لأدلل على أن الأوضاع التي تواجهها الأقليات المسلمة اليوم لا يمكن مقارنتها بالأوضاع التي اضطر هؤلاء الناس لمواجهتها ومعاناتها، ولكنهم ظلوا قادرين عى خدمة الأهداف التي أرادوا خدمتها لخدمة ذواتهم ووجودهم، وأعتقد أنه في عالم اليوم سوف يفشل المسلمون إذا لم يستغلوا قوتهم السياسية والاقتصادية ويستخدموها بمهارة لتأكيد حقوق الأقليات المسلمة.

ولست في حاجة إلى القول بأن هناك أقليات في العالم لا يتحقق لها هذا الوضع الذي يتحقق للأقليات المسلمة، ولكنهم استطاعوا أن يستغلوا نفوذهم بدرجة أنه إذا اعتقل أحدهم في موسكو فإن الصحافة ووسائل الإعلام تهتز وتتحرك لصالحهم في جميع أنحاء العالم.

هذه بعض الأمثلة التي نراها ولا معنى لليأس على الإطلاق.

الأخ ابراهيم جدوات :

السؤال التالي موجه إلى الدكتور الدواليبي وأرجو أن يتفضل بالإجابة.

الأخ د. الدواليبي :

(أجابه باللغة العربية)

....

الأخ ابراهيم جدوات :

السؤال الآن موجه إلى الأخ أنور إبراهيم

س : كيف نحدد مدلول الحضارة الإسلامية ـ كما هي ماثلة في أذهاننا ؟ ما هي الأهداف الموضوعة لهذه الحضارة ؟ وهذا أمر لازم لكي نميز الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية التي أفسدتها المصائب العديدة ؟

الأخ أنور ابراهيم :

جـ ـ في الحقيقة نجد أنه من الصعوبة بمكان أن نحاول أن نشرح ماهية الحضارة الإسلامية في الوقت المحدود المتاح لنا الآن. وأظن أن بعض المتحدثين قد حاول أن يلم بهذا الأمر باختصار، وقد عبرنا عما يعنينا بصفة عامة عندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية.

فنحن نتحدث عن نظام إسلامي متكامل وجديد ومغاير تماماً للحضارة الغربية. وسواء استطعنا تحقيق هذا الأمر الذي نفكر فيه ونعمل من أجله ونجعله هدفاً مرجواً لهذه الحضارة، فإن تحقيق النظام الإسلامي هو المعني من وراء تطبيق نظام الحياة الإسلامية.

ان النظام الإسلامي مبني على أساس فكرة التوحيد، وهذا يمكن تحقيقه بادىء ذي بدء بتفهم طبيعة العمل الذي يقوم عليه النظام الإسلامي، إن البناء السياسي والبناء الاقتصادي والبناء التعليمي وتطوير الشخصية المسلمة بحق، والجوانب المناسبة في الإسلام، كلها أهداف لا بد من العمل على تحقيقها لأن الكثير من المسلمين يفشلون جزئياً، وكثير من قادة الأقطار الإسلامية في الماضي وفي الحاضر يتحدثون عن الإسلام مُجَزَّأً وليس ككل متكامل. إنهم لا يتحدثون عن الحضارة الإسلامية كتطبيق لنظام الحياة في الإسلام، ورغم أن الحضارة الإسلامية لها مدلول تاريخي خاص ولكنني أعتقد أن نصائح علمائنا القليلين تتجه دائماً إلى أن نفهم النظام الإسلامي ونحاول تطبيقه بطريقة منظمة وبحكمة، بحيث نعطي جوانب الحياة جميعاً من مجالات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية، لأن من مجموع هذا التطبيق نصل إلى مدلول الحضارة الإسلامية، وأشكركم.

الأخ إبراهيم جدوات :

هناك عشرة أسئلة موجهة إلى خورشيد أحمد، ولا أدري هل لدينا الوقت للإجابة على كل هذه الأسئلة، أو نقترح عقد دورة خاصة مع الأستاذ خورشيد أحمد، لأن كل سؤال في حد ذاته يصلح موضوعاً لمحاضرة مستقلة.

وقد انتهى الوقت المخصص الآن، وأحب أن أسأل الأخوة عن رغبتهم، هل يريدون الاستمرار أو إنهاء الدورة الآن، وربما استطعنا تدبير وقت آخر لتوجيه هذه الأسئلة للأستاذ خورشيد، وأرى أن قراركم الإجماعي أن نختم الدورة الآن.

وندعو الله سبحانه وتعالى أن يهدينا سواء السبيل، وأن يمكننا من تنفيذ جميع التوصيات، إن شاء الله تعالى.

توصيات اللقاء الرابع

توصيات اللقاء الرابع
للندوة العالمية للشباب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الرياض : ٢٠ ـ ٢٧ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ ـ الموافق ١٨ ـ ٢٥ مارس ١٩٧٩ م

«**وجاهدوا** في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير». (سورة ٢٢ ـ ٧٨).

بعون الله تعالى .. واستجابة لدعوة معالي رئيس الندوة الشيخ حسن ابن عبد الله آل الشيخ ـ عقد اللقاء العام الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي في مدينة الرياض في الفترة من ٢٠ ـ ٢٧ ربيع الثاني عام ١٣٩٩هـ، الموافق ١٨ ـ ٢٥ مارس (آذار) ١٩٧٩م.

والندوة تنتهز فرصة هذا اللقاء المبارك لتعرب عن كريم شكرها وجميل تقديرها لخادم الحرمين الشريفين صاحب الجلالة الملك خالد بن عبد العزيز وولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز وحكومته الرشيدة لما حظيت به الندوة من دعم المملكة وعونها تعبيراً عن التزام هذا البلد بمبدأ التضامن الإسلامي، ونصرة الدعوة الإسلامية.

والندوة في ختام لقائها الرابع هذا وما حفل به ـ بفضل الله ـ من فرص التعارف والتعاون والتنسيق، وتبادل الرأي والخبرة بين المفكرين الإسلاميين، ومن تيسير وتوفيق في اختيار ممثلي المناطق لمجلس الأمانة العامة للدورة المقبلة، فإنها تتقدم بعظيم التقدير والعرفان إلى معالي رئيس الندوة الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، وإلى الأمين العام الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، وإلى كافة الأخوة أعضاء الأمانة العامة والجهاز التنفيذي لمكتب الأمانة، مؤكدة شكرها لما بذلوه من جهد مخلص في إرساء دعائم هذه الندوة وما وصلت إليه في مسيرتها، من تحقيق لغايات العمل الشبابي الإسلامي، ودعم لمنظماته، وفي تجميع الصف الشبابي الإسلامي وإثبات وجوده، وتفجير طاقاته في خدمة الأمة بروح الاتحاد والثقة والعزيمة والطموح، ولتصبح الندوة واسطة عقد وحلقة وصل ومصدر قوة للأمة والدعوة والشباب.

كما تزجي الندوة عميق شكرها إلى العديد من الهيئات والشخصيات والعاملين الذين واصلوا دعم هذه الندوة وأخذوا مواضعهم في مسيرة جهادها، جنداً في سبيل الله لتحقيق أهدافها النبيلة، لهؤلاء جميعاً خالص الدعاء بأن يجزيهم الله سبحانه وتعالى أعظم الأجر والجزاء.

إن الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إيماناً منها بأهمية الدور التاريخي للإسلام وشبابه نحو إصلاح حاضر الأمة المؤلم، واستنقاداً لمستقبل الإنسانية الانتحاري، رغم إنجازاتها العلمية والمادية الباهرة، بل بسبب تلك الإنجازات لما تنطوي عليه من قوى مهلكة مدمرة.

إن الندوة ـ إيماناً منها بكل ذلك ـ قد خصصت الموضوع الفكري في أعمال لقائها الرابع لبحث قضية :

« الإسلام والحضارة و دور الشباب المسلم »

وقد دعت قيادات الشباب المسلم في العالم، ونخبة طيبة من الكتاب والمفكرين الإسلاميين لتجلية هذه القضية الخطيرة من جوانبها التالية :

أولاً : **القيم والمبادىء الأساسية** التي يقوم عليها الإسلام، والنموذج الإسلامي في الحياة الإنسانية ووجوه عطائه وتميزه بشكل واضح شامل يعين على الفهم والرؤية ويكون معالم بارزة على طريق البعث الإسلامي المعاصر، وذلك بالدراسة العميقة الشاملة للأصول القرآنية التي تحدد القيم والمبادىء والغايات الإسلامية في ضوء إدراك تاريخي سليم للتجربة الرائدة في الصدر الأول من الإسلام، مما يجلو الفكرة الإسلامية ويعيد إليها صفاءها وبساطتها وفعاليتها في الحياة الإنسانية بعيداً عن ضباب الرؤية الذي خلفه الغزو الفكري والحضاري، من داخل كيان الأمة وخارجها، بما حملته من جاهلياتها القبلية والشعوبية والفلسفات الدخيلة من الشرق والغرب، حيث أن وضوح الرؤية والتحديد القاطع للملامح الإسلامية شرط أساسي سابق لأية مساهمة إسلامية فعالة في مسيرة الحضارة الإنسانية.

ثانياً : **الآفاق المستقبلية** للعطاء الإسلامي من خلال فهم الواقع الحضاري المعاصر، والمنحدرات السحيقة التي تهوي فيها، وتحديد الدور الإسلامي بتوضيح احتياجات وسبل العمل الإسلامي ليستطيع حمل أمانة الخلافة، وتعديل المسار المادي للحضارة وتوفير البديل المؤهل لوراثتها.

ثالثاً : **الوعي الصحيح للإنجاز التاريخي للحضارة الإسلامية** من حيث دلالاتها ورؤيتها بمنظار إسلامي، والتعرف على جوانب القوة الحقيقية فيها بشكل مفاهيم مقارنة، لتستعيد قطاعات هامة من شباب الأمة ثقتها بنفسها في مواجهة خطط التجهيل العلمي التي نجمت عن تبعية المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي للغرب، ولتصحيح هذا الفهم ودلالاته من واقع المنطلق الإسلامي لا المنطلقات المعادية.

رابعاً : الفهم العلمي الصحيح **للأسس الفكرية والفلسفية والعقائدية التي تقوم عليها الحضارات الكبرى** في التاريخ وخاصة الحضارة

المادية المعاصرة بما يوضح جوانب هذه الحضارات، ويفسر للشباب المسلم معنى الأمراض التي يعاني منها المجتمع المعاصر، وصرخات الذعر التي تصدر عن عدد متزايد من قادة الفكر الغربي.

خامساً : دراسة **للواقع الحضاري المعاصر للعالم الإسلامي** والأسباب التي وضعته في موضعه، ومخاطر هذا الوضع، والمنطلقات إلى تصحيح مسار الأمة من التبعية والضعف والهوان والفساد، إلى الأصالة والقوة والعطاء والريادة.

سادساً : الموقع الخاص للشباب في الفهم والتعلم السليم للمنطلقات الصحيحة والتأهيل الخاص لحمل رسالات التطور والتغيير، والقدرة على تنفيذ مخططات العمل، وبناء المؤسسات، وإقامة الحضارات، وتصحيح مساراتها.

إن اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي، استصحابا لروح اللقاء ومؤشراته الفكرية، وتفهماً لمداولاته، وتطبيقاً لشورى ندواته ومحاضراته ولجان عمله حول « **الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم** ».

والتزاماً بمنهج الإسلام في الجمع الوثيق بين الفكر والعمل، وتقديراً لجهاد الندوة ودأب رجالها في العمل لدعم الشباب الإسلامي – انتهى إلى التوصيات والمقررات التالية :

أولاً : في مجال التوصيات العامة :

١ – يحيي اللقاء المملكة العربية السعودية ومؤسساتها وكافة الهيئات الحكومية والأهلية، ومنظمات العمل الإسلامي، وكل العاملين والمخلصين، لما حققوا من توصيات اللقاءات السابقة للندوة، وما قدموا من دعم لجهودها في خدمة الشباب والأمة والدعوة.

ويهيب اللقاء بالجهات المذكورة لتنفيذ الكثير مما ورد في تلك التوصيات والقرارات وبذل جهد أكبر وسرعة أعظم، وفاء بحق الإنسانية والأمة والشباب.

٢ – يحيي اللقاء وزارة التعليم العالي، ووزارة المعارف، والجامعات في المملكة العربية السعودية لدعمها جهود الندوة وعونها على تحقيق أهدافها وذلك بتوفير المحاضر الإسلامي، والكتاب الإسلامي، والمنح الدراسية للشباب المسلم.

٣ – يحيي اللقاء الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية لجهودها في سبيل نشر الدعوة الصحيحة، وتوفير حاجاتها الأساسية، وتعاونها المخلص مع الندوة لخدمة شباب الأمة.

٤ – يحيي اللقاء منظمة المؤتمر الإسلامي وصندوق التضامن الإسلامي لدعمهما برامج الندوة، وإسهامهما الفعال في عون الندوة على تحقيق أهدافها، ومن ذلك إسهامها الفعال في مجال إقامة المخيمات الشبابية الإسلامية في مختلف مناطق العالم.

٥ – يحيي اللقاء البنك الإسلامي للتنمية لما يقدمه من عون للأقليات الإسلامية في جهادها للحفاظ على شخصيتها، ويأمل أن تتسع رقعة نشاطه ليشمل عدداً أكبر من هذه الأقليات بما يوفر لها حاجاتها الأساسية.

٦ – يحيي اللقاء حكومة قبرص التركية، لما قدمته من عون قيم في إنشاء مخيم قبرص الإسلامي الدائم وفي استقبال أفواج الشباب المسلم من شتى بقاع الأرض على مدار العام.

ثانياً : قضايا حاضر العالم الإسلامي :

٧ – يحيي اللقاء شعب إيران المسلم وتصميمه على تحكيم الشريعة الإسلامية على طريق هداية الإسلام والتمسك بكتاب الله وسنة نبيه، كما يحيي اللقاء الشعب الباكستاني المسلم على العزم بالتزام الشريعة الإسلامية منهاجاً لحياته.

ويتوجه اللقاء بالدعاء إلى الله أن يوفق جميع الشعوب الإسلامية نحو العودة إلى دين الله وتحكيمها شريعة الإسلام. وأن

يوثق الله بين هذه الشعوب عرى الإخاء والتضامن.

٨ - يهيب اللقاء بالأمة الإسلامية أن تعمل جاهدة على بذل التضحيات اللازمة، لإنقاذ المقدسات الإسلامية الغالية، والذود عن حقوق الشعوب الإسلامية السليبة، والتأكيد على وحدة الأمة وحرمة كرامتها وأعراضها ودمائها ومواردها وأراضيها في بقاع الأرض كلها، والنهوض بواجب الدفاع عن الأرض والمقدسات، والتصدي لقوى البغي والطغيان.. « ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز ».. (سورة ٢٢ - ٤٠).

٩ - يؤكد اللقاء أن الإسلام قوام الأمة ومبرر وجودها، وأن الأمة ستقف في وجه كل باغ يطغى على رجال الدعوة، أو يتصدى لمنظمات العمل الإسلامي، أو ينال من الحركة الإسلامية لما في ذلك من إضعاف لكيان الأمة، وتدمير لقواها، وتمكين لأعدائها والطامعين فيها.. « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يومَ لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار ». (سورة ٤٠ - ٥١).

١٠ - يناشد اللقاء الأمة ضرورة مواجهة هجمات الأعداء على السنة، بالتمسك بالإسلام عقيدة وشرعاً، والرجوع إلى كتاب الله الكريم وسنة نبيه الأمين، ولزوم جماعة المسلمين.

١١ - يحذر اللقاء شباب الأمة من الانخداع بقوى الشر والمكر والفساد، والمؤسسات والهيئات والمذاهب الهدامة المدسوسة على الأمة لتدمير قواها وشبابها وصرفهم عن دينهم وولائهم الخالص لأمتهم، مهما تنكرت هذه المذاهب والمؤسسات أو حملت من أسماء شيوعية أو صهيونية عالمية أو وجودية أو قومية أو تبشيرية أو ماسونية أو فوضوية أو نوادي الروتاري أو أندية العراة وسواها من مستنقعات الفساد وبؤر الهدم.

ثالثاً : في مجال الأنشطة الشبابية :

أ ـ الشبـــاب :

١٢ ـ يوصي اللقاء الندوة بأن تعين المنظمات التي تمتلك أو تدير بيوتاً للشباب المسلم، بأن تلتقي في « اتحاد عالمي لبيوت الشباب المسلم »، لرفع مستوياتها وتبادل الخبرات فيما بينها والعمل على انتشارها، كما يوصي اللقاء بإصدار دليل بيوت الشباب المسلم في العالم، يعرف الشباب المسلم بمواقع هذه البيوت والخدمات التي تقدمها.

١٣ ـ يوصي اللقاء بالتعاون بين الندوة والرئاسة العامة لرعاية الشبـاب ومنظمات الشباب الإسلامي ونواديه بتنفيذ خطة واسعة متكاملة في مجال النشاط الرياضي بما يحقق غايات التربية الإسلامية للشباب، ويغرس القيم الإسلامية في نفوسهم، في إطار عالمي ينمي قدراتهم البدنية وانتماءاتهم الإسلامية.

١٤ ـ وفي سبيل توثيق الإخاء بين الشباب المسلم وتنمية وعيه وحمايته من إغـراءات المـؤسسات المنـدسة والأنشطـة السياحيـة الفـــاسدة المسمومة.

يوصي اللقاء المخلصين من الهيئات الرسمية، ورجال المال والأعمال المسلمين المهتمين بالأنشطة السياحية، بالعمل على وضع أيديهم في المجالات والخدمات السياحية، وإنشاء وكالات سياحية إسلامية في مختلف البلدان لإدارة المشروعات السياحية بمعايير ولغايات إسلامية، وتقديم برامج ترويحية، وتبادل الزيارات بين الشباب المسلم، وإصدار نشرات للتعريف بالأماكن السياحية المرموقة، وأن تعمل الندوة على تسهيل هذه المهمة والاستفادة من مخيماتها الدائمة وخبراتها الهادفة في هذه المجالات.

١٥ ـ يوصي اللقاء ـ ضمن أعمال رعاية الشباب المسلم ـ أن يتولى الأساتذة والمختصون، الذين هم على اتصال بتجمعات الشباب

المسلم وتماس به في البرامج والنشاطات والمخيمات، وعلى علم بالقضايا والمشاكل التي يتعرض لها هذا الشباب ـ خاصة في الغربة والأقليات ـ أن يشرعوا بإصدار الكتب والنشرات التي تتضمن الفتاوى والحلول والبدائل المناسبة لمشاكل هؤلاء الشباب، وترجمة هذه الأعمال إلى اللغات المختلفة، والتوسع في توزيعها تيسيراً لحصول الشباب عليها.

١٦ ـ يوصي اللقاء الندوة والمنظمات الإسلامية بالعناية الخاصة بالجانب الفكري، كما يوصي بأن تنشئ الندوة لجنة متخصصة من خيرة المفكرين والمختصين في الفكر لدراسة القضايا الفكرية الهامة التي تمس الشباب من وجهة نظر إسلامية، بما يخدم جموع الشباب ويعمق ولاءها للإسلام، ويحميها من هجمات المناجزين والفكر الهدام، ويجعلها قوة مبدعة فاعلة رائدة لما فيه خير الشباب وخير الأمة والدعوة.

١٧ ـ يحيي اللقاء مؤسسة (المغفور له) الملك فيصل الخيرية في بواكير جهودها في خدمة الأمة، ويوصي برصد جائزة شبابية طلابية عالمية تغطي فروع الإنجازات الفكرية والعلمية والفنية والتطبيقية بما ينمي قدرات الشباب ويعمق قيم الإسلام ويخدم رسالته.

ويدعو اللقاء رجال المال والأعمال إلى المبادرة بإنشاء المؤسسات الخيرية المماثلة، خدمة للأمة ودفعاً لذاتية النمو الحضاري الإسلامي.

١٨ ـ يوصي اللقاء ببناء مقر دائم للندوة يتناسب وحجم أنشطتها والمرافق اللازمة لأعمالها.

كما يوصي اللقاء بإنشاء مقرات دائمة للندوة في الحرمين، ومخيم دائم في « منى » لخدمة ضيوف الندوة، من قيادات الشباب المسلم العالمي في موسم الحج ولتكون مقرات دائمة على مدار العام تمكن الندوة من أداء مهمتها في تشجيع النابهين والقيادات الشبابية الإسلامية وتنمية عطائهم الروحي.

كما يوصي اللقاء الهيئات الرسمية والجهات الخيرية والمخلصين القادرين بمساعدة الندوة على إقامة مكاتب دائمة في الحواضر والمراكز الهامة لخدمة شباب الأمة بتوفير الخدمات اللازمة للتنسيق والاتصال في المناطق المختلفة من العالم.

ويؤكد اللقاء أهمية مخيمات الحج الشبابية للجامعات في المملكة العربية السعودية، ويوصي الندوة، بالتعاون مع الجامعات في هذه المخيمات في المساهمة في برامجها الإسلامية الشبابية والثقافية والتربوية وبرامج المسابقات وتبادل الزيارات.

ب ـ التدريب القيادي الإسلامي والمخيمات :

١٩ ـ يؤكد اللقاء أهمية برامج التدريب القيادي الإسلامي وترقيتها.. ويحيي اللقاء الجهود الرائدة بالأمانة العامة للندوة في هذا المجال بهدف تنمية القدرات القيادية الإسلامية وتوفير المهارات والخبرات اللازمة للنشاطات الشبابية الإسلامية في مختلف المجالات لخدمة العقيدة والدعوة.

ويوصي اللقاء بالإسراع في نشر وإخراج وترجمة البرامج المطورة باللغات العالمية ولغات الشعوب الإسلامية الكبرى، وتعميمها على منظمات العمل الشبابي الإسلامي، مع مراعاة الفوارق والاحتياجات الخاصة بذلك.

كما يوصي اللقاء بأن تستعين الندوة في ذلك بالاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.

٢٠ ـ يوصي اللقاء منظمات العمل الإسلامي عامة والشبابي خاصة بالتعاون مع الندوة للإفادة من برامج التدريب القيادي، وتوفير المعلومات اللازمة عنها والمرافق المتوفرة لديها في هذه المجالات للإستفادة منها والتعريف بها.

كما يوصي اللقاء هذه المنظمات بالمساهمة في تطوير هذه البرامج، بالفحص والتقويم المستمر لها، ووضع ذلك أمام أنظار المختصين في الندوة لتحقيق الغاية المرجوة منها.

٢١ ـ يوصي اللقاء الندوة بالعناية بإقامة دورات تدريبية متخصصة للعناصر القيادية الشبابية المتفوقة، وانتداب بعض هذه العناصر، بغرض التخصص الفني الذي تحتاجه العناصر القيادية لخدمة العمل الإسلامي، إلى الدورات التدريبية التي تقدمها المعاهد المتخصصة في تلك المجالات.

٢٢ ـ يوصي اللقاء أن تضم مخيمات التدريب القيادي الإسلامية مكتبات تدريبية تستجيب للاحتياجات المختلفة لمستويات الأعمار والثقافة التي تؤم هذه المخيمات، وكذلك إمدادها بالمجلات والدوريات المناسبة.

٢٣ ـ يوصي اللقاء بالتعاون بين الندوة والرئاسة العامة لرعاية الشباب والجامعات في المملكة العربية السعودية وكافة الجهات المعنية في مجال التدريب القيادي الإسلامي للشباب وتنمية قدراته والبلوغ بهذه البرامج والمؤسسات والوسائل إلى المستوى المأمول من شباب الأمة وتأهيله لحمل مسئولياته التاريخية.

٢٤ ـ يوصي اللقاء بإنشاء مركز عالمي متخصص للتدريب القيادي يعنى بإعداد البرامج اللازمة لشؤون التدريب القيادي الإسلامي، وتنمية القدرات والخبرات اللازمة لأدائه مع العناية بتطوير المواد والوسائل السمعية والبصرية في أداء البرامج.

٢٥ ـ كما يوصي اللقاء الندوة والهيئات الإسلامية والرسمية المخلصة بالتعاون في إنجاز الخطة الكاملة لإقامة المخيمات الإسلامية الدائمة على قدر حاجة الشباب المسلم، تكون مدارس للتدريب والخبرة والتلقي الإسلامي السليم في مناطق العالم الإسلامي المختلفة.

كما يؤكد اللقاء الحاجة الماسة للإسراع في إتمام مخيم « أبها » الإسلامي الدائم لخدمة الشباب المسلم من المملكة وفي كل بلد مسلم، وليكون مرفقاً للتربية والتدريب، وتعريفهم بمهد الرسالة ومهبط الوحي وأرض المقدسات.

٢٦ - يوصي اللقاء بأهمية العناية بالمرأة المسلمة في برامج عمل المنظمات الشبابية الإسلامية وبرامج التدريب القيادي للقيام بواجب الدعوة في صفوف النساء وإعدادهن لأداء الواجبات المتعلقة بأدوارهن الاجتماعية في حدود الآداب والقيم والغايات الإسلامية.

٢٧ - يوصي اللقاء الندوة والمنظمات الإسلامية بعقد المزيد من المخيمات التدريبية الدائمة والمؤقتة. وتوفير النفقات والمدربين والمختصين والمواد الثقافية، مستفيدين من كافة العناصر الإسلامية الفنية والقيادية القادرة في مختلف البلاد والمتعاونة مع المنظمات الإسلامية المخلصة واستكتابها في مجالات خبراتها وما يتعلق بشعوبها وبلادها ومناطقها.

رابعاً : في مجال مستقبل العطاء الحضاري الإسلامي :

إيماناً من هذا اللقاء بالأولوية الكبرى لإنقاذ الأمة وتصحيح مسار مجتمعاتها المعاصرة، وتمكينها من أداء رسالتها الحضارية الإسلامية المقدسة في قيادة الإنسانية نحو آفاق الحق والأمن والسلام، فإن اللقاء يؤكد الأهمية القصوى لدور الشباب المسلم، رؤية وتربية وإعداداً وبذلاً وقدرة..

ويؤكد مسئولية مفكري الأمة وقياداتها الإسلامية والمخلصين من أبنائها في تحقيق الشروط الموضوعية، وإرساء قواعد العمل اللازم لبلوغ الغايات في مستقبل الأمة الحضاري، وتحقيق دورها الرائد الخير وعطائها الإسلامي النبيل.

ويؤكد اللقاء على وجوب وضوح رؤية الشباب والأمة المسلمة، وتنقية معتقداتها على أساس من الفهم الكلي السليم لمصادر الشريعة الإسلامية الأساسية، من وحي الله في كتابه الكريم وسنة نبيه المطهرة، بحيث يكون مبدأ التوحيد الخالص ـ المنزه عن ضلالات الشرك والخرافة والجهل وألوان الإلحاد والمادية وكل وجوه الزيغ والانحراف ـ هو المحور الأساسي لفكر الأمة لإقامة نظمها وعلاقاتها الاجتماعية على مبادئ الإسلام في الخلافة والإخاء، منزهة

عن ألوان الفساد والظلم والبغي والإسراف والكبر وسائر ما نهى عنه دين الله من المنكرات.

ويؤكد اللقاء وجوب العزيمة على وحدة ثقافة الأمة من منطلق إسلامي، بكل ما يعنيه من جهد، يعم طبقات الأمة وينمي ويطور مناهج التربية والتأهيل والتعليم والإعلام ووسائلها ومؤسساتها.

فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ووعد الله حق للذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم.

ويؤكد اللقاء توصيات الندوة في لقاءاتها الثلاثة السابقة في مجالات إرساء الفكر الإسلامي الصحيح وإصلاح مؤسسات التعليم والإعلام.

ويوصي اللقاء بما يلي :

في مجال التربية والتعليم :

٢٨ ـ يوصي اللقاء بتوفير الموارد والوسائل اللازمة لخدمة الفكر والثقافة والتربية الإسلامية، لدعم المؤسسات والمنظمات والجهود القائمة، من مراكز وجمعيات واتحادات تخدم الأهداف التربوية والتعليمية بغاية إسلامية.

وهي في هذا تحيي الاتحاد العالمي للمدارس العربية الإسلامية الدولية، لجهوده في خدمة التعليم العربي الإسلامي ومؤسساته ومناهجه.

كما تحيي جامعة الملك عبد العزيز، وجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية وجامعات المملكة العربية السعودية لخطواتها الرائدة في أسلمة العلوم الاجتماعية، وإنشاء المراكز والأقسام والكليات الجامعية لهذا الغرض، وتأمل أن تتحقق لها الوسائل والمستويات المأمولة.

ويؤكد ضرورة إقامة مراكز البحث في كافة العلوم الاجتماعية والإنسانية لتطوير مناهجها وإعداد الخطط والأبحاث والمواد العلمية اللازمة لتدريسها، وإصدار المؤلفات الخاصة بها.

٢٩ ـ إنشاء المدارس والمعاهد والجامعات النموذجية الإسلامية الأهلية، وإقامة المؤسسات الخيرية والأوقاف التي تخدمها وتوفر الأموال اللازمة من الهبات وموارد الزكاة لتسييرها خدمة لشباب الأمة والثقافة الإسلامية.

٣٠ ـ ضرورة العمل بأكبر جهد ممكن لإقامة أكاديمية عالمية إسلامية مستقلة لخدمة الفكر والثقافة الإسلاميين.

٣١ ـ كما توصي الندوة بالعناية البالغة بدراسات حاضر العالم الإسلامي، ودراسات الحضارة الإسلامية، وإنشاء مراكز البحوث الجامعية لخدمتها وبلورة مفاهيمها وحسن عرضها والترويج لها، وتنشئة الشباب على إدراك غاياتها ووجوه عطائها.

٣٢ ـ كما تؤكد الندوة على أهمية دراسة الثقافة الإسلامية، وتحيي الجامعات السعودية وتشيد بقرار اتحاد الجامعات العربية باعتماد الثقافة الإسلامية في جميع الجامعات العربية، وتوصي بتعميق مناهجها وتطويرها لتستجيب للغاية منها في بناء الشخصية الإسلامية للشباب المسلم.

كما يؤكد اللقاء أن دراسات الثقافة الإسلامية ليست بديلاً عن جعل العلوم الاجتماعية والإنسانية علوماً إسلامية، وهو أمر مطلوب في مراحل التعليم ومناهج الكليات الجامعية كافة، وأن مادة الثقافة الإسلامية وعاء للمجهود العلمي في مختلف وجوه المعرفة والعقيدة والقيم الاجتماعية للأمة الإسلامية، يستكمل به غير المختص حاجته العلمية والثقافية.

٣٣ ـ يناشد اللقاء المثقفين والإسلاميين والهيئات المختصة إقامة المؤسسات، والأخذ بكافة الوسائل لأسلمة العلوم الاجتماعية والإنسانية.

واللقاء، إذ يحيي جمعية علماء الاجتماع المسلمين في الولايات المتحدة وكندا تجربته الرائدة في استقطاب علماء الاجتماع المسلمين الملتزمين وتشجيعهم لبذل جهودهم في سبيل استثمار قدرتهم وتخصصهم لخدمة أهداف الأمة وإسلامية العلوم، فإنه يدعو كل المثقفين الإسلاميين في كل بلد أو تجمع مسلم لإقامة جمعيات مماثلة، والتعاون في إطار اتحاد عالمي لهذه الجمعيات يخدم هذه الغايات الاستراتيجية المشتركة.

كما يدعو اللقاء جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في الولايات المتحدة وكندا إلى إصدار مجلة علمية تخدم جهود الجمعية ومؤتمراتها وحلقات دراساتها الدورية.

٣٤ ـ يدعو اللقاء الجامعات والجمعيات والمؤسسات العلمية للعمل على إقامة البرامج ووضع الخطط لتكثيف الجهود العلمية الإسلامية، وإنجاحها بتوفير المنح اللازمة للدراسات والأبحاث لدرجات الماجستير والدكتوراه في مجال أسلمة العلوم الاجتماعية، وتوفير المنح الدراسية لما بعد الدكتوراه للدارسين والباحثين.

٣٥ ـ يوصي اللقاء بالعناية بالدراسات الإحصائية وتوفير المعلومات عن العلماء المسلمين وتخصصاتهم وخبراتهم، وكذلك المعلومات التقويمية عن الجامعات ومعاهد التعليم في العالم الإسلامي وفي البلاد الغربية تسهيلاً للتعامل معها.

٣٦ ـ يوصي اللقاء بالعناية بالدراسات الإحصائية وتوفير المعلومات عن العلماء المسلمين وتخصصاتهم وخبراتهم، وكذلك المعلومات التقويمية عن الجامعات ومعاهد التعليم في العالم الإسلامي وفي البلاد الغربية تسهيلاً للتعامل معها.

٣٧ ـ يوصي اللقاء بالاهتمام بالكتاب الإسلامي أداة أساسية للمعرفة والتوجيه الاجتماعي وبناء الشخصية المسلمة، وللتصدي للفلسفات المادية والدعوات الهدامة، وتحفيز المؤسسات الإسلامية للتأليف والنشر، واستكتاب القادرين والمختصين والعاملين لسد النقص في

المراجع الأساسية الإسلامية بمختلف اللغات الكبرى ولغات الشعوب الإسلامية في العالم.

٣٨ ـ يحيي اللقاء وزارة الأوقاف في الكويت لموالاة مجهوداتها المباركة في إصدار موسوعة الفقه الإسلامي.

ويوصي اللقاء بالإسراع في العمل على إنشاء دور النشر لإصدار الموسوعات العلمية الإسلامية تلبية لاحتياجات فئات الأعمار والاختصاص المختلفة.

ويؤكد اللقاء الحاجة الماسة إلى دار نشر رئيسية لإصدار موسوعة إسلامية عامة وأخرى للشباب، لسد النقص الذريع في أدوات الثقافة والمعرفة بمفهوم إسلامي صحيح.

٣٩ ـ يوصي اللقاء بوجوب العناية بلغة القرآن، لغة حضارة الإسلام، والاهتمام بتدريسها، واعتماد ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات الفكر الإسلامي مادة لتعليمها، والتعليم بها، والعناية بآدابها وجوانبها العلمية في مراحل التعليم كافة.

٤٠ ـ يؤكد اللقاء وجوب رسم خطط شاملة متكاملة لإصلاح مناهج التعليم ومؤسساته في البلاد الإسلامية ولغايات إسلامية تأخذ ما سبق من توصيات في حسبانها.

وينبه اللقاء إلى الفشل المستمر في إقامة قاعدة علمية في البلاد الإسلامية رغم الجهود المستمرة المتواصلة طيلة عقود القرن الأخير في إعمار مؤسسات التعليم، وفي ابتعاث أبناء الأمة الإسلامية وطلائعها العلمية والقيادية إلى البلاد والمؤسسات الأجنبية.

ويؤكد أن السبيل إلى تحقيق النجاح وبناء القاعدة العلمية والتكنولوجية المطلوبة للأمة لا تكون إلّا ببناء المعرفة على قواعد إسلامية سليمة تتجاوب مع بناء العقلية والنفسية الإسلامية ودوافعها ومكامن الطاقة فيها، واتخاذ الوسائل الصحيحة للعناية بدراسة اللغات الأجنبية داخل البلاد الإسلامية، والعناية بدراسة أصول البحث

العلمي في ضوء الالتزام الكامل بمصادر المعرفة الإسلامية، إطاراً وقاعدة للنظر العقلي الصحيح.

وكذلك إقامة معاهد الترجمة ودور النشر والتأليف لإثراء اللغة العربية ولغات الشعوب الإسلامية بالمعارف والعلوم المعاصرة، ونشرها وتدريسها بتلك اللغات في عرضٍ وانتقاءٍ موضوعي لإثراء ثقافة الشعوب الإسلامية، وإطلاعها على المعرفة على أوسع الصور من منابعها من خلال نظرة إسلامية فاحصة.

٤١ ـ العمل على توفير الأجواء اللازمة لاستقطاب العقول الإسلامية المتخصصة القادرة، ومنع هجرتها، والاستفادة من العناصر المهاجرة منها في مواقعها في خدمة الأمة والمعارف والثقافة الإسلامية.

خامساً : في مجال التوصيات العامة لخطة النمو الحضاري الإسلامي :

٤٢ ـ يؤكد اللقاء وجوب الفهم الشامل لمشكلة العناء الحضاري ـ عند المسلمين ـ في العالم المعاصر، ويؤكد أهمية الفهم الدقيق لأصولها، وتوفير الحلول اللازمة للتغلب على التحديات والعقبات التي تواجه الأمة، وضرورة إعادة بناء المجتمع الإسلامي ومؤسساته على أساس من قيم الإسلام وغاياته، والقضاء على كافة وجوه الفساد الاجتماعي على مستوى الفرد والجماعة.

سادساً : في مجال الإعلام والترويج :

انطلاقاً من تكامل الأنظمة الاجتماعية الإنسانية، ومن تكامل التعليم والإعلام والأنشطة المنهجية والأنشطة الحرة، فإن اللقاء يوصي بما يلي :

٤٣ ـ تأكيد الحاجة إلى بناء الإعلام الإسلامي الصحيح الذي يعكس ثقافة الأمة ومفاهيمها وغاياتها ويقدم القدوة والمثل والخبرات السليمة لأبناء الأمة، فإن اللقاء يوصي بضرورة إنشاء اتحاد عالمي للصحافة الإسلامية، ومكاتب فنية لخدمة الصحافة والدوريات الإسلامية وتمثيل مصالحها وإقامة وسائل الاتصال بين مؤسساتها.

٤٤ ـ يؤكد اللقاء ضرورة بذل الجهود العلمية وعقد الندوات الإسلامية لدراسة النشاطات الحرة والترويحية الموجهة لتنمية المهارات والقدرات عند الشباب بواسطة وسائل الإعلام والنوادي الشبابية الثقافية والرياضية التي لها أهمية كبرى في دعم الجهود التربوية والتعليمية.

ويؤكد اللقاء أهمية النشاطات الرياضية التي تتعدى المجالات الاستعراضية إلى تنمية المهارات، وبناء الأجسام الصحيحة، وملء الفراغ الشبابي في خدمة الأمة وجهادها في إعلاء كلمة الله وصلاح المجتمع.

٤٥ ـ يؤكد اللقاء أهمية التزام الإعلام في كافة برامجه اللغة العربية الفصحى، وباستخدام مستويات الأداء المناسب لتقويم ألسنة أبناء الأمة وتحسين قدرتهم على التعبير والحفاظ على دينهم ووحدة كيانهم.

٤٦ ـ يؤكد اللقاء أهمية العمل لتصحيح مسار الواقع المسلم بروح أصيلة، والعناية بأن يواكب أبناء الأمة حركة البناء والتغيير الاجتماعي لتسير بشكل لا يهز كيان الأمة ولا يعرضها لضغوط أسرع من قدرتها للاستجابة والتحرك السليم الممكن في بنية تركيبها الاجتماعي.

٤٧ ـ يدعو اللقاء ـ والأمة المسلمة تودع القرن الرابع عشر الهجري مع إهلالة قرن هجري جديد ـ إلى القيام بإجراء دراسات علمية موضوعية لتقييم الجوانب المختلفة لهذا القرن في المسيرة الإسلامية وموقعها الحضاري، والتعرف على الجهود الإيجابية للحركات والجماعات الإسلامية العاملة نحو إعادة بناء المجتمع الإسلامي وتحريك الطاقات الكامنة في كيان الأمة.

٤٨ ـ تقديراً للجهود التي تبذلها الندوة والمنظمات الشبابية الإسلامية بتأهيل الشباب وتجديد قوى الأمة.

وحرصاً على أن يشارك في هذه المسيرة كل المخلصين، فإن اللقاء، وهو يتقدم بخالص الامتنان لما قدمته وتقدمه حكومة المملكة

العربية السعودية للندوة وجهودها في مرحلتها التأسيسية ـ ليرجو أن تضاعف المملكة عطاءها المبرور لتحقيق آمال الأمة، كما يدعو الحكومات والهيئات الإسلامية والقادرين المخلصين من أبنائها في كل بلد وموقع إلى توفير المزيد من الموارد الضرورية لجهود ومشاريع الندوة في خدمة الدعوة والشباب والمنظمات الإسلامية في كافة أنحاء العالم.

وبعـد :

فإن الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ باعتبارها هيئة إسلامية شبابية متخصصة مستقلة مقرها في هذا البلد الكريم مهبط الوحي، ومهد الدعوة، وهي تعمل في خدمة الأمة والدعوة الإسلامية بكل طاقاتها وآمالها ومشاريعها وبما بلغته من رصيد الخبرة والثقة لتجعل شباب الأمة ومنظمات العمل الإسلامي تنظر بعين الأمل إلى مزيد من الإنجاز على سبيل العزة والكرامة ـ لتكرر الشكر لكافة الهيئات والعاملين المخلصين على ما قدموه من عون ودعم، وتدعوهم إلى مزيد من العمل والبذل والعطاء في سبيل الله.

والله نسأل أن يمد الندوة والمخلصين بعون من عنده، وأن يجعل أعمالنا جميعاً خالصة لوجهه الكريم، وأن يهدينا سبلنا، وأن يأخذ بأيدينا جميعاً إلى الحق والخير والرشاد ـ إنه سميع مجيب..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه ..

* * *

خَاتِـمَة

القضية الفكرية الإسلامية أساس وأولوية هامة لنجاح جهود نهضة الأمة الإسلامية

للدكتور عبد الحميد أبو سليمان (١)

في نهاية هذا السفر الجليل عن « الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم » الذي كان لي شرف اقتراح فكرته وتخطيط موضوعه، والإشراف على تحريره وانتاجه كأمين عام للندوة، وذلك كما في أعمال اللقاءين العالميين الثاني والثالث للندوة، « قضايا الفكر الإسلامي » و « الإعلام الإسلامي والعلاقات الإنسانية : النظرية والتطبيق ».

وبعد انتهاء الدورتين الأولى والثانية للأمانة العامة للندوة التي قمت فيهما بمهمة الأمين العام للندوة والتي آثرت في نهايتهما الانصراف إلى مرحلة جديدة من العمل في خدمة الأمة والإسلام بإذن الله في مجال خدمة الفكر الإسلامي.

يهمني هنا أن أقف مع الأخوة الشباب والمفكرين والعاملين الإسلاميين وقفة أوضح فيها قضايا أساسية في عمل الندوة وفي عمل لقاءاتها العالمية ومنها اللقاء الرابع كجزء من مسيرة العمل الإسلامي المعاصر.

---

(١) أستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية المساعد بكلية العلوم الادارية بجامعة الرياض، والأمين العام السابق للندوة العالمية للشباب الإسلامي وعضو مجلس الأمانة العامة للندوة.

وبالطبع فليس المقصود من هذه الوقفة التعريف بالندوة ونشاطاتها بقدر ما هو الوقوف عند قضية الفكر الإسلامي[1] وتوضيح أهميته كما أراها.

فالمنظار والرؤية التي عملت من خلالها هذه الفترة منذ أيام الدراسة والطلب، وفيما كتبت وساهمت فيه من عمل مع منظمات العمل الطلابي والشبابي خاصة اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، وجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في الولايات المتحدة وكندا، والتي كان لي شرف اقتراح فكرتها للتخصص في العمل على إسلامية العلوم الاجتماعية، وإعادة التجديد إلى الفكر الإسلامي على أسس علمية موضوعية، واستقطاب علماء الاجتماعات أصحاب الالتزام الإسلامي وخدمتهم في سبيل خدمة الإسلام والأمة، وقمت، لعظم اهتمامي بالأمر، على إعداد مؤتمر إنشائها لإيماني بأهمية القضية التي تخدمها، وكذلك من خلال عملي بالندوة العالمية للشباب الإسلامي والمنظمات المتعاونة معها.

هذا المنظار وتلك الرؤية تمثلت في قناعتي أن مشكلة الأمة الإسلامية، التي تتضح في الفجوة الهائلة بين ماضي الأمة وحاضرها، وبين واقعها وتطلعاتها، وبين إمكاناتها وإنجازاتها، هذه الفجوة من الواضح أنه لا يمكن فهمها ولا حلها بمزيد من الدوائر المفرغة من محاولات الإصلاح المبنية على الإصرار على العودة إلى قوالب تاريخية لا تدرك ما أصاب المسيرة الإسلامية عبر التاريخ من تغيرات بعد العهد الراشد، وما أصاب كيان الأمة من انحراف، أدى إلى الانفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية والاجتماعية، وسبب عجز الفكر وجموده، وجهل السياسة وجهالتها، وهكذا فقد الفكر الإسلامي عوامل الحيوية والحركية فيه، وفقد القدرة على إدراك البعد الزماني والمكاني في أعمال التراث الإسلامي.

وكذلك لا يمكن فهم تلك الفجوة ولا حلها بمحاولات الإصلاح المبنية على التقليد الأجنبي الذي يسود في العصور المتأخرة أجواء الأمة، ويفتقد بالطبع أيضاً عنصر البعد الزماني والمكاني في كيان الأمة، فكان من

---

(١) المقصود بالفكر الإسلامي الفهم الإنساني المخلص للوحي والدين والشريعة.

الطبيعي أن تفتقد تلك الإصلاحات أيضاً الأبعاد الخاصة المميزة للأمة عقائدياً ونفسياً وتاريخياً وحضارياً، لتشكل مسلسلات من الصور الفاشلة من الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والعلمية والحضارية والعقائدية عجزت جميعها، على مدى قرون منذ عهود الخلافة العثمانية، وعلى امتداد العالم الإسلامي في تركيا ومصر والبلاد العربية وشبه القارة الهندية وجنوب شرقي آسيا، عن بلوغ الغايات المرجوة منها.

ولقد كانت المساهمة في حل تلك المشكلة بالطبع محور جهودي واهتمامي، وذلك عن طريق العمل على إعادة صياغة فكر الأمة الإسلامية بشكل علمي موضوعي سليم، يقي بُعْدَ الزمان والمكان ويعيد وحدة كيان الأمة على أساس سليم من عقائدها، ويعيد بناء كيان نظمها على أساس من تلك القيم، ويقرر على أساس من كل ذلك أصول التربية الإسلامية ومفاهيمها، إذ من الواضح أن الأمة الإسلامية لا تنقصها الموارد البشرية ولا الموارد المادية ولا التاريخ ولا العقائد والقيم، بل إن المشكلة الحقيقية التي تعاني منها الأمة هي إعادة صياغة فكرها بشكل ومنهج سليمين على أساس من قيمها وعقائدها وغاياتها، وعلى أساس التعامل مع واقعها وواقع العالم من حولها.

إن الخروج من دوامة المحاولات اليائسة المتكررة للاصلاح لا بد له من التعامل مع المشكلة الفكرية، حيث أن حلها يعد شرطاً مسبقاً للعمل الناجح، لأن كل عمل ناجح لا بد له من تصور ورؤية وخطة سليمة مسبقة، وإن كان هذا لا يعني بالطبع الانفصام بين الفكر والعمل، وبين النضج والتجربة، ولكن يبقى الأمرُ أمرَ أولويات وتنسيق جهود، في مجال الفكر ومجال الممارسة، حتى تثمر الجهود وتتقدم الخطا.

ومن جانب آخر، وإلى جانب قضية البعد الزماني والمكاني في الفكر الإسلامي، فإن هناك قضية أخرى لها أهمية مماثلة، كثيراً ما يسيء الكتاب معالجتها ويخلطون بين جوانبها المختلفة، والسبب في تصوري أن جل هؤلاء الكتاب ليسوا مُعَدِّين فنياً للنظر القادر في هذه القضية لأسباب تتعلق بمنطلقاتهم أو إعدادهم، أو عدم انصرافهم إلى الدراسة والتركيز اللازم للنظر والتأمل في أحوال الأمة وواقعها وما بلغته من الحال في مسيرتها.

وهذه القضية هي مكونات النظام الاجتماعي ومهمة أجزائه المختلفة والأداء في كل مستوى من مستوياته على حده، ويكون الخلط من جانب الكُتَّاب هنا بعدم إدراك الجوانب المختلفة للكيان الاجتماعي ومعالجة كل جانب على حده وفق دوره وطبيعته ومتطلباته دون إهمال لعلاقاته وتفاعله مع الجوانب الأخرى.

والجوانب والمستويات التي يهمني الإشارة إليها وإدراك طبيعتها هي جوانب ثلاثة كما يلي : .

١ ـ جانب أو مستوى العقائد والقيم والمبادىء والمنطلقات.
٢ ـ جانب أو مستوى التنظيمات أو النظم والإجراءات التي بواسطتها يتم وضع القيم والمبادىء موضع التنفيذ في واقع المجتمعات.
٣ ـ جانب التربية والتدريب لأفراد المجتمع الذي يعكس ويقوم على أساس جانب القيم والمبادىء في بناء الشخصية وتوفير القدرات اللازمة لها باتجاه تحقيق غاياتها، وإعداد الأفراد للعمل والإنجاز، وذلك من خلال أجهزة التنظيمات والإجراءات وبالاستجابة لمتطلباتها، في سبيل تحقيق الغايات والقيم والمبادىء، ووضعها في حياة الأمة موضع التنفيذ.

وفي يقيني أن التفرقة بين هذه الجوانب أو الأبعاد الثلاثة (القيم والتنظيمات والتربية) في بناء المجتمعات الإسلامية، أمر أساسي للانطلاق إلى التعامل مع مشكلات كل جانب على حده، وإلى إقامة العلاقة التكاملية والتفاعلية بين هذه الجوانب، بما يحقق في النهاية بشكل حقيقي وعملي، وضع الأطر اللازمة للإصلاح والتطور والنمو في حياة المجتمعات الإسلامية، والخروج بها من مأزق الحيرة والعجز الذي لا تبدو له نهاية، ولا يستجيب لفهم أو نظر أو عمل.

ومن المفيد البدء بتعريف سريع بكل جانب من هذه الجوانب قبل النظر في بعض المصاعب التي تواجه الأمة في كل جانب منها.

ـ الجانب الأول : العقائد والقيم :

وجوهر هذا الجانب لدى الأمة الإسلامية هو الرسالة السماوية التي تمثل الجانب المشرق والإيجابي في حياة الأمة منذ ولادتها، والتي كانت

حجر الزاوية في تحويل القبائل البدائية الجاهلية العربية إلى أمة ذات كيان حضاري، كما أصلحت على ذلك الزمان كيان أمم الأرض التي فسدت واهترأت، وصهرتهم جميعاً في كيان حضاري فتيٍّ، في وثبة جديدة على المسيرة الإنسانية للحضارة.

هذا الدين هو القوة الحقيقية التي تقف خلف كل التسامي، الذي يشد هذه الأمة ضد قوى الفساد التي تتجاذبها إلى أبعاد سحيقة لا تنتهي من الانحطاط والعجز والتفكك والتناحر والتخلف، ولم يعد للأمة اليوم ـ ضد عوامل الانحطاط في كيانها ـ ما يخفف من مأساتها سوى هذا الدين، بما يمثل من عقائد وقيم ومبادىء قويمة.

ـ والجانب الثاني : جانب النظم أو التنظيمات والإجراءات :

وهذا الجانب هو مجموع الخطوات والإجراءات والمؤسسات والنظم التي يقصد بها وضع القيم والمبادىء موضع التنفيذ في حياة المجتمع، وتسيير دفة الحياة عملياً بواسطتها.

فمثلاً إذا كان الجانب الأول يقرر العدالة، فإن الجانب الثاني هو الذي يضع التنظيمات المختلفة، قضائية وقانونية وتنفيذية، لوضع العدالة موضع التنفيذ في حياة الناس، وأي خلل أو انحراف أو نقص أو تعقيد في المستوى أو الجانب الثاني قد يجعل ما يقرره النظام العقائدي والقيمي لا معنى له، ولاغياً في واقع حياة الناس.

ولذلك فإنه يجب عدم الخلط بين الجانبين وبين مهمتيهما، لأن سلامة القيم والمبادىء لا تغني عن سلامة التنظيمات والإجراءات، ولا يقوم أيٌّ منهما مقام الآخر مهما اشتد تأكيد جانب أو آخر، واشتد التغني به، وعلت شعاراته.

ـ والجانب الثالث : التربية والتدريب :

وهذا الجانب هو جانب طرق تربية أفراد المجتمع وأساليب نشأتهم، وهو يُعنى ببناء الشخصية كما يُعنى بتوفير القدرات والخبرات اللازمة لهؤلاء الأفراد في خدمة الأمة والنظام الاجتماعي ككل.

ويعتمد هذا الجانب بالطبع على مجموعة العقائد والقيم والمبادئ والغايات التي ينبني عليها الدين أو الإيديولوجية، ويهدف إلى غرسها وتأصيلها في شخصية الفرد إلى جانب الخبرات والقدرات اللازمة له، بما يُهيِّئُهُ للعيش والعمل من خلال التنظيمات أو الأنظمة في المجتمع، وبما يوافق طبيعتها ليحقق الفرد بذلك ذاته ويضع قدراته وخبراته بواسطتها في خدمة الأمة.

وهكذا فإن سلامة وسائل التربية وأساليبها وتوفر محاضنها أمر ضروري لتمثل القيم واستيعابها وحسن أداء التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية، كما أن فشل وسائل التربية والتدريب في بناء الأفراد المتمثلين لقيم الأمة ومبادئها والقادرين على خدمة التنظيمات والمؤسسات الاجتماعية والتعامل معها يؤدي إلى شلل تلك المنظمات والمؤسسات، وإلى ظهور الفجوة بين غايات المجتمع ونظمه، وبين سلوك الأفراد وغاياتهم، وإلى ظهور الفساد الاجتماعي وازدواجية الشخصية الاجتماعية، كما سيؤدي إلى الصدام بين الأفراد والجماعات وبين التنظيم الاجتماعي، وتكون النتيجة هي الصراع الاجتماعي والتدهور وعدم الاستقرار.

بعد هذا التعريف والتوضيح الموجز لهذه الجوانب الثلاثة، فإنه يمكننا النظر إلى واقع الجوانب والأبعاد الثلاثة في كيان الأمة الإسلامية المعاصر، وتحديد بعض المشاكل التي تعاني منها الأمة في كل جانب منها، والتي لا بد من علاجها، منفصلة ومتصلة بالجوانب الأخرى، إذا شئنا تخطي الأزمة الراهنة التي توارثناها في كيان الأمة.

أولاً : البعد الإيديولوجي : العقائد والقيم :

والبعد الإسلامي لهذا الجانب يحويه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

والقرآن الكريم كما هو معلوم، محفوظ بالرواية والاستظهار التعبدي والكتابة، ممايجعله متواتراً بعيداً عن أي شك أو تَقَوّل. وكذلك السنة النبوية المطهرة، فان رواة الحديث قد بذلوا جهداً جباراً متميزاً في نقل هذه السنة بشكل صحيح، لكن على درجات من الصحة فيما يختص بكل نص على

حده، من ناحية المتن أو السند، ويبقى بذلك لنا جوهر السنة صحيحاً موثوقاً بعيداً عن كل شك.

وأهم القضايا التي يجب على المفكرين المسلمين النظر فيها والعناية بها في رأيي في هذا المجال، هي مواجهة الانحراف في فهم هذه العقائد والمبادئ والقيم، وعدم تمثلها بمثل ما كان للجيل الأول، ولذلك لم تعد في حياة المتأخرين محرك قوة وقدرة وفاعلية وبذل وتقوى بمثل ما كانت عليه في حياة ذلك الجيل، نظراً لما داخل فهم هذه العقائد من مفاهيم منحرفة، وتخليط صوفي أعجمي مغرق، ووثنيات وعصبيات وتشنجات جاهلية زائفة، ساعدت في موت جزء من الأمة وتطرف جزء آخر، وإلى انصراف جزء ثالث عن الإسلام لما تعرض له من مؤثرات ثقافية أجنبية، ولما يراه من حال الفئات السابقة التي غلبت صورتها المشوهة على الإسلام في كثير من البــلاد.

إنه من المهم أن نعلم أن حصيلة فهم الجيل الأول لغاية إسلامهم في هذه الحياة هو العمل الخيّر، وأن الحياة الآخرة ليست إلا حصيلة الفعل والتفاعل البناء مع المادة والحياة تعبيراً عن الإرادة الإنسانية.

ولذلك كانوا فاعلين عاملين مجاهدين قادرين باذلين في إيثار وعطاء وعفة نفس، لا طمع فيها ولا تشوف إلى الاكتناز أو الإسراف، ففتحوا في أمد قصير، لم يعرف له مثيل في التاريخ، جل العالم المتمدن القديم أرضاً وقلوباً، حتى غيرت الأمم بتأثير دينهم وشخصيتهم الإسلامية، ليس فقط دينها وعقائدها وأزياءها، بل ولغاتها، وهو قدر من التأثر والتأثير فذ في التاريخ لم يعرف حتى اليوم له مثيل.

وهذه الصورة المتألقة والمفاهيم القادرة المشعة تفتقدها الإنسانية في المتأخرين كما هو مشاهد، حيث أنهم بانحراف مفاهيمهم واهتزاز رؤيتهم أمسوا بين منصرف عن الحياة والتأثير فيها، لا يرجو إلا الموت والخلاص، وبين منصرف عن الدين والقيم والالتزام في غيبوبة، لا يرجو إلا الجمع والاكتناز وسرف الاستهلاك، ومن ثم بدت شعارات الدين والقيم والالتزام باهتة جوفاء في واقع مجتمعات أمة الإسلام.

لهذا يجب على المفكرين الإسلاميين تصحيح الصور القاصرة والجزئية والمنحرفة للعقائد والقيم والمبادئ الإسلامية، والتي تشوه الشخصية الإسلامية وتعوقها عن أداء دورها الرائد، كما أراده لها الإسلام.

أما فيما يخص السنة النبوية فإنه يجب الاستفادة من الإمكانات العلمية الحديثة لجمعها وتصنيفها، والإفادة من كل الجهود العلمية السابقة في سبيلها، وتسهيل مهمة الاستفادة منها لكل العلماء والمثقفين، ومن الناحية الأخرى فإن على المفكرين الإسلاميين التيقظ للأبعاد الزمانية والمكانية في توجيهات الرسول عليه السلام في المعاملات والحياة الاجتماعية على عهده، بحيث يحسن فهم تلك السنن وإعادة تطبيقها في واقع الحياة المعاصرة وصورها المادية المتغيرة المستحدثة، ومن ذلك على سبيل المثال توجيهات الرسول عليه السلام في الحرب، في منع قتل المرأة والصبي والشيخ ومن إليهم، وفهم دلالة هذه التوجيهات في واقع الحروب الحديثة التي يصعب في كثير من الأحيان والمواقع تلافي مثل تلك الأعمال، ولكن تبقى الغاية من توجيهات الرسول عليه السلام أبدية الدلالة، وهي أن هؤلاء ليسوا مقاتلين، وليسوا عنصراً في تقرير مصير المعركة ضد المعتدين، وإن قتل أمثالهم فساد في الأرض وإسراف في القتل، وإن على السياسي والقائد ألا يقتل، وألا يدمر ما لا تدعو ضرورة المعركة إليه بحال من الأحوال، وهذه توجيهات ومفاهيم ستظل تمثل إطاراً وتوجيهات للفكر والسياسة الإسلامية في شئون الحرب والقتال، يفهمها ويفيد منها القادة السياسيون والقواد العسكريون في حمل مسؤوليتهم وأداء مهامهم على مدى الزمان.

وللتعامل مع عنصر الزمان والمكان في السنة النبوية فإنه لا بد للمفكرين من أخذ أنفسهم بالنظر في السنة بكلياتها، وفهم مقاصدها وسياساتها للوصول إلى التوجيه السليم الكامن في السنة، في سبيل تحقيق قيم الإسلام مجدداً في واقع الحياة الإسلامية المعاصرة. إن تحقيق ذلك لن يتم إلا بالمعالجة المنهجية والتجديد الضروري العلمي المناسب في مسائل الأصول حتى تؤدي مهمتها بالأسلوب العلمي السليم المناسب لفهم الرسالة والسنة في واقع العصر وصوره المتغيرة حتى يمكن توجيه الحياة الإسلامية المعاصرة إلى غاياتها الصحيحة البناءة.

إنه من المهم العناية الصحيحة بالسنة لأهميتها الكبرى لاستمرار رسالة الإسلام، حيث أنه دون شك لن يسهل فهم بعض الرسالة فهماً صحيحاً دون السنة، وفي جوانب أخرى لن يمكن الوصول أصلا إلى فهم سليم لها دون السنة.

وأن السنة من جانب آخر هي الدليل الحقيقي على أن القرآن وقيمه وغاياته ومفاهيمه، وإن كانت مثالية سامية، فهي أيضاً واقعية وممكنة، وليست مجرد أطروحة خيالية فهي ـ والسنة هي الدليل ـ قد تحققت فعلاً في الزمان والمكان على يد الرسول الإنسان عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

إنه من المهم معرفة أن القضية التي يجب أن تشغل بال المفكرين في ميدان السنة في هذا الوقت ليست قضية صحتها أو الثقة برواياتها، فعلم الحديث الإسلامي قد غطى هذا الأمر بشكل عبقري لا ينكره إلا من جهل أسراره، وجهد المعاصرين في هذا الميدان في رأيي يجب أن ينصرف إلى التوضيح والتيسير، أما القضية الحقيقية فهي في كيفية فهم السنة والاستفادة منها، خاصة من قبل المثقفين والمفكرين الذين ليست لهم دراية بالتراث وعلوم الفقه الإسلامي، وإن كان لهم باع في القضايا والعلوم الفنية، وعلى أساس من الفلسفة والمناهج المعاصرة غير الإسلامية، حتى يمكن بشكل عملي فتح باب الاجتهاد مجدداً في حياة الأمة وأساليب عيشها وحركتها الحضارية وفق عقائد الإسلام وقيمه ومبادئه وغاياته.

فالعناية بجانب العقائد والقيم، وتصفية رؤيتها، وفهمها في أعماق الأمة، أمر أساسي وضروري، ولكنه أمر ممكن، وليس عزيز المنال، لأن أصوله ومادته قائمة وموثوقة، رغم كل ضباب وجاهليات الأمم التي دخلت في الإسلام.

ثانياً : البعد التنظيمي والإجرائي :

وهذاالجانب كثيراً ما يتناوله غير الفنيين والممارسين بالكتابة النظرية، ويخلطون قضاياه بقضايا العقيدة والدين، وينتهون إلى نظرة سطحية جامدة تسعى إلى صياغة النظم أو التنظيمات والإجراءات في حياة الأمة في عالم

اليوم على غرار من الفترات التاريخية الماضية وصورة طبق الأصل منها وخاصة عهد الخلافة الراشدة، وذلك لانعدام الفهم والوعي بطبيعة التنظيمات والإجراءات الخاصة بتلك الفترة وذلك العهد، وعدم القدرة على إدراك معنى البعد الزماني والمكاني لذلك العهد، يساعد على ذلك ما لتلك الفترة من قدسية وتألق في النفوس.

إن عهد الخلافة الراشدة كان ولا شك عهداً متميزاً وله خواص يصعب تكرارها وتوفر ظروفها وشروطها في العهود اللاحقة، وبالتالي لا بد من الحذر عند تقليد أي صورة من صوره دون فهم معناها ودلالتها حتى يمكن الإفادة منها في وضع صياغة التنظيمات والإجراءات في المجتمعات الإسلامية المناسبة لظروف العصر الراهن، وبذلك فقط يمكن الإفادة من درس الخلافة الراشدة والسعي لتحقيق شيء من إنجازاتها.

لقد تميز عهد الخلافة الراشدة بخصوصيات يعود بعضها إلى ذلك الجيل وموقعه من التاريخ، ومن ذلك أن القيادة السياسية والاجتماعية قد حصرت كأمر واقع في جماعة الأصحاب دون منازع، لأنهم هم الذين قامت الدولة والمجتمع الإسلامي على أكتافهم، وبالتالي فلم تكن هناك حاجة إلى أي تنظيمات وإجراءات لاختيار القيادة السياسية والاجتماعية على فهم القيادة وهم أولياء الأمر.

كما أن صحبتهم حول رسول الله ـ ﷺ ـ في العمل والبناء والسلاح، وموضعهم من الرسول عليه السلام، حدد أدوارهم بشكل أساسي حول الخلفاء من بعده، مما جعل لما يسمى بالمؤسسات غير الرسمية في فهم تنظيم عهد الخلافة الراشدة أهمية تفوق الجانب الظاهر الرسمي لتلك المؤسسات الذي يكاد ينحصر في شخص الخليفة.

ولما كان عهد الخلافة الراشدة قد تميز بالتحديات الهائلة التي جابهها الأصحاب بعد وفاة الرسول عليه السلام، في مواجهة القبائل والامبراطوريات، كما تميز بعدم وجود سابق خبرة تنظيمات سياسية امبراطورية في الحجاز أرض الخلافة والعهد الأول.

لذلك كان لا بد أن يتسم عهد الخلافة الراشدة بالبساطة والتلقائية وندرة الأشكال الرسمية للمؤسسات والتنظيمات وقلة الإقبال على الصياغات الإجرائية الموسعة، دون أن يعني ذلك الوضع الفوضى أو العشوائية أو الاستبداد في بناء ذلك العهد أو تصرفات قياداته، فقد كان معروفاً لكل موضعه وقدره وقدرته ومهمته.

ومن المؤسف أيضاً أن نظام الخلافة الراشدة قد سقط على أيدي القبائل وقياداتها التي لم تلق نفس النصيب من التربية والتجربة الإسلامية، وبالتالي حرم المسلمون فرصة الحصول على الصيغة الراشدة للتنظيمات والإجراءات اللازمة لنقل السلطة والمشروعية إلى الجيل الثاني الذي لم يكن - إلى حد كبير - يتمتع بنفس مكانة الأصحاب في حق القيادة والاستئثار بها، ولذلك فإن جل ما حصلت عليه الأجيال اللاحقة في هذا المجال هو شكلية البيعة.

لهذا يجب لفت النظر إلى أهمية الدراسة المجددة والصياغة الواعية للتنظيمات والإجراءات في مختلف جوانب الحياة السياسية والتشريعية والقضائية والتنفيذية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وما دونها في بناء النظم الاجتماعية لمجتمعات الأمة الإسلامية في الوقت الراهن، على أساس من واقعها وإمكاناتها والظروف التي تمر بها في سبيل تحقيق الغاية الإسلامية السامية وتمكين الشريعة الإسلامية السمحة.

إنه لا بد لنهضة الأمة من كبوتها واستعادة قدرتها من دقة وسلامة وانتظام وكمال التنظيمات والإجراءات في كيانها بما يتفق وروح الدين والشريعة والقيم والمبادئ الإسلامية وغاياتها، وإن ضعف وقصور وانحراف وتعقيد هذه الأنظمة والإجراءات لا بد أن ينتهي بالنظام الاجتماعي إلى غير الغاية التي هدفت إليها عقائده وقيمه ومبادؤه، وإلى ازدواجية بين قيمه ومبادئه وبين واقع دوران عجلة تنظيماته وإجراءاته بحيث تصبح الحياة فارغة المعنى، كلها جعجعة وعجز وفساد.

إنه من المهم لكي نفهم معنى ما سبق وأهميته أن نذكر أن فكرة أو مبدأ العدل شيء، وأن التنظيمات والإجراءات المؤدية لتحقيق العدل شيء

آخر، كما أن مبدأ المساواة شيء، والتنظيمات والإجراءات المؤدية إلى تحقيق المساواة وتكافؤ الفرص شيء آخر، ولا يغني واحد عن الآخر لتحقيق المطلوب.

ثالثاً : بعد التربية والتدريب :

وكما سبق أن ذكرنا، فإن سلامة القيم وسلامة الصياغة النظرية للتنظيمات والإجراءات لا جدوى منهما إذا لم تكن أساليب التربية والتدريب ومحتواهما مما يناسب تلك القيم والتنظيمات وينسجم معها ويتوجه للحرص على حسن أدائها، فما لم تؤهل محاضن التربية للنشء وتبنى شخصياتهم ويزودون بالقدرات التي تخدم التنظيمات أو النظم وتنسجم معها، فإن التناقض بين النظام الاجتماعي ومكونات شخصية الفرد في المجتمع لا بد وأن يشل النظام الاجتماعي، ويزلزل السلام النفسي لأفراد المجتمع، وينتهي بالمجتمع إلى الاضطراب وعدم الاستقرار.

كما أن العكس صحيح، حيث أن عدم تمثل القيم الصحيحة وانحراف مفاهيمها، وكذلك قصور وانحراف التنظيمات والإجراءات في النظام الاجتماعي يشل التربية ويمنع عطاءها، مهما كانت العناية بها والنجاح في تربية بعض الأفراد في بعض محاضنها.

إن التباين بين أساليب التربية وفحواها عن واقع القيم أو التنظيمات القائمة والسائدة في المجتمع لا بد أن يؤدي إلى مزيد من عدم الإستقرار الاجتماعي، وإلى مزيد من التجسيم لمأساة اختلال مكونات النظام الاجتماعي، وبالتالي تتفشى ظاهرة الانحراف والنفاق والانتهازية، وكذلك ظاهرة الرفض والتطرف والتشنج والثورة، وينتهي الأمر إلى حرمان المجتمع من إيجابية طاقاته البشرية، وإلى انحطاط المجتمع وتفككه وترديه وزلزلة قواعده وزوال استقراره.

إنه من المهم أيضاً التنبيه في هذا المقام إلى أن روافد مفهوم المعرفة الإسلامية تتأتى من الوحي والعقل، مما يجعل لها تميزاً على كافة ألوان المعرفة الإنسانية وروافدها عند الأمم الأخرى.

فالوحي يحدد الكليات العقائدية والقيمية للتشريع والمعرفة وبالتالي يضع العلامات على الطريق ضد انحراف العقل وقصوره وزيفه كما نلحظ عند علماء المعرفة والمشرعين بمفهوم عقلي بحت، ومن خلال أخطائهم وتضارب نظرياتهم وتغيرها المستمر من النقيض إلى النقيض.

ولكن المعرفة الإسلامية عقلية أيضاً، ففي حدود التوجيه السماوي ومناراته على الطريق يترك للعقل والاستقراء المجال ليتعلم المسلم ويستكشف ويعي ويبني، ومن المهم إدراك أن تقصير التربية الإسلامية في غرس حب المعرفة والتعلم والاستكشاف والتحليل في بناء عقلية المسلم وتكوين قدراته ليس فقط يحرمه من ثمار المعرفة العقلية بل إنه يحرمه من ثمار المعرفة السماوية، لأن قصور عقل المسلم وقلة إدراكه ستعوقه عن الفهم السليم والوعي الصحيح لمعاني المعرفة السماوية ودلالاتها، وقد ينتهي به الأمر أن يكون أقل حظاً في المعرفة من أي انسان آخر على قدر قصور عقله وعجز أداته في فهم الوحي وإدراك معانيه وأسراره.

إنه من المهم لأساليب التربية والتدريب الإسلامي أن تعنى بالمعرفة، بوجهيها الرباني والعقلي، وأن تعني بغرس أساليب الاستنباط والاستقراء السليم لدى الناشئة، فالمعرفة الصحيحة ليست كمّاً محدوداً يستظهر، ولا سجناً ضيقاً تخبو فيه العقول وتذبل، وهي ليست بحراً مهلكاً تنعدم فيه منارات الأمن وسبل النجاة.

إن المعرفة بمفهومها الإسلامي طريق ممتد مهتد، يقود إلى القدرة والسعة والطمأنينة والإيمان، لا إلى القلق والإلحاد والدمار.

ان من المهم أن ندرك علاقة التربية والتدريب وتأثرها وتأثيرها بقيم المجتمع وتنظيماته، كما أن علينا أن نصحح مفهومنا وممارساتنا في ميدان المعرفة الإسلامية في الاتجاه الصحيح، إذا شئنا لأبنائنا في عالم اليوم بلوغ القدرة وتحقيق السبق والريادة وحمل الأمانة وأداء الرسالة.

وفوق كل ذلك وبعد كل ذلك، على المفكرين والعاملين الإسلاميين إدراك الجوانب الثلاثة (القيم والتنظيمات والتربية) كل على حده، والتعامل مع ما يخص كل واحد منها وفق طبيعته ومقتضياته، والتذكر أن سلامة أداء

كل واحد منها لا يغني عن سلامة أداء الآخر، وأن البداية الصحيحة هي الإصلاح الفكري على العمق وبالمنهج المطلوب الصحيح.

ـ غايات النـدوة :

هذه القضايا التي أشرت إليها وحرصت في هذه العجالة الختامية على توضيح أهميتها كانت نبراساً حدد لي أولويات مجهوداتي في العمل في بناء كيان الندوة وخطة عملها، ومن خلال تعاونها مع مختلف المنظمات والبرامج حَرِصْتُ قدر الطاقة أن تؤدي الندوة واجبها في خدمة الأمة في هذا الاتجاه.

ولذلك كانت القضية الفكرية وترقية البرامج الفكرية من أهم ما قصدْتُ إليه وقصدَتْ إليه أعمالُ الندوة، وأصبح هذا ملموساً من خلال الكتاب والمحاضرين والبرامج التي تولتها الندوة أو ساهمت فيها أو دعمتها، ومن ذلك أعمال اللقاءات العالمية، ومنها أعمال هذا اللقاء التي بين يديك الآن أيها الأخ الكريم.

ومن المجهودات التي أحب أن أنوه بها في هذا المجال، برنامج الندوة في إقامة المكتبة المنزلية للأسرة الإسلامية التي يرجى أن تقدم قريباً مجموعة الكتب اللازمة لكل فرد من أفراد الأسرة المسلمة ليتحصل على المعرفة الضرورية لبناء شخصيته وتوجيه سلوكه وبمنظور إسلامي صحيح.

ومن الجهود التي تستحق التنويه في هذا السبيل جهود الندوة في تكوين مكتبة مرئية توفر الثقافة والترويح ضمن الغاية الإسلامية رعاية لأبناء المسلمين أمام الغزو الجائح للمادة الترويحية الفاسدة التي تشوه تصورات الطفل والشباب المسلم بما لا ينفع معه نصح ولا توجيه، وقد انتهت المرحلة الأولى من هذا المشروع، ونرجو أن تتكاتف الجهود لخروجه إلى حيز الوجود على المستوى العام، وللمنظمات وشبابها، وعلى المستوى الخاص، وفي الأسواق قريباً ــ إن شاء الله تعالى.

إن الندوة حاولت وتحاول من خلال العمل مع منظمات الشباب المسلم وترقية برامجه ولقاءاته ومخيماته إلى دفع قضية التربية وترقيتها

وتناسقها مع الجهود في مستوى تصفية الرؤية العقائدية على أساس من التوحيد الخالص بعيداً عن ضلالات الوثنية والتصوف الأعجمي، المنحرف، وبعيداً عن سموم المادية والإلحاد والعصبيات الجاهلية.

إنني أحب أن ألفت نظرك أيها الأخ الكريم إلى أن المقصود من أعمال اللقاء الرابع « الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم »، هو التوجيه إلى الأمة الإسلامية وشبابها على وجه الخصوص ليرى ويعي ويفهم دوره الحضاري الرائد، ليس في ماضي الانسانية فحسب ـ ومن خلال مادة قليلة الغناء عن منجزات علمية حضارية لا يدرك الشاب معناها إذا قاس كمها بما يتحقق أمام عينيه من منجزات الحضارة غير الإسلامية المعاصرة، بل ليدرك معنى ما تم من إنجاز حضاري لأمته ودلالته ومنطلقاته، وأن يتعرف إلى تأثيره اللاحق في حضارة اليوم، وليدرك دور الإسلام المستقبلي، عقيدة وفكراً ومنطلقات، في خدمة الإنسانية وأن يعي مؤهلاته وأمته ودينه وحضارته لإرث حضارة العصر الملحدة ومنع آثارها المدمرة بإذن الله، حيث قد بدت مؤشرات انهيارها مما يعيه قادة ومفكرو تلك الحضارة قبل سواهم.

إنه من المهم أن ندرك أن أعمال اللقاءات العالمية للندوة وتوصياتها هي جانب من جوانب جهد الشباب المسلم نحو رؤية أفضل ونحو مستقبل أفضل، وهي صوت للشباب المسلم يعبر به عن بعضٍ من قناعاته وتوجيهات مسيرته نحو الغد.

إن الأمل كبير في أن تواصل الأمة ومنظمات العمل الإسلامي ورجاله وشبابه السير نحو إعادة نظرة شاملة وجذرية لواقع الأمة، وإعادة صياغة هذا الواقع بما يحقق بأسلوب علمي موضوعي عملي وعلى المستويات الثلاثة بشكل سليم متسق، الالتزام والقوة والعزة والتقدم بعد أن ظلت هذه المعاني بعيدة المنال تراود الأمة أجيالاً في أعقاب أجيال.

إن مسئولية المفكرين والقيادات الإسلامية تكمن في وعي القضية في أبعادها الحقيقية، وإعطاء القضية الفكرية حقها من الاهتمام والإعداد والرعاية، لتحقيق الرؤية المطلوبة والشروط اللازمة المسبقة للنهضة الحقيقية للأمة ومواجهة التحدي الحضاري في كافة أبعاده، دون الانغماس في القضية

السياسية والعسكرية الآنية وحدها، مما يستنزف طاقات الأمة ويعوق نموها وما يزال يتسم به حالها لعدة قرون خلت. وإن ذلك أمر ضروري للمرحلة القادمة والتي تأخرت في عمر الأمة طويلاً، ولا مجال إلى بلوغ ما وراءها من إنجاز دونها.

إنني آمل أن يكون هذا العمل الذي بين يديك أيها الأخ الكريم عملاً جاداً، وخطوة جديدة، ومؤشراً نحو الغاية التي أرجو أن تواصل الندوة والمنظمات والمؤسسات الإسلامية ورجال الفكر الإسلامي سيرهم لتحقيقها في عزم، وبالاهتمام والجهد الحقيقي اللازم لها مهما كانت المعوقات والصعاب التي تقف في وجهها وفي وجه المؤسسات والتنظيمات التي يجب أن تقوم على كافة الصور وبكل الأساليب وببذل كل الجهود لادائها.

إنني بالطبع آمل في مرحلة خطة عملي المستقبلي أن أتعرض بجهد علمي فني لهذه القضايا وسواها مما يتصل بتصحيح مسار الفكر الإسلامي وأساليبه ومناهجه ومسيرة الأمة بشيء من التفصيل والدراسة رجاء المساهمة في توفير الشروط المسبقة لنجاح مسيرة الأمة وجهودها المخلصة، للخروج من دائرة التدهور المفرغة التي لا يبدو لانحداراتها قرار إلا هلاك الأمة وخضوع أشلائها لأعدائها المتكالبين على مواردها ومقدراتها ورقاب أبنائها.

إن الأمل في الشباب ومفكريه وقياداته أن يواصلوا المسيرة، وأن يحملوا المسئولية، وأن يؤدوا الرسالة، وأن ينجزوا المهمة، والله في العون ما خلصت النية وصدق العزم وجد الجهد وصفت الرؤية، وما تم إدراك الأولويات بشكل سليم.

ولايفوتني في هذه الوقفة أن أعبر عن عميق تقديري لما لقيته من العون والتعاون من جميع من سعدت بالعمل معهم في الندوة ومنظمات العمل الإسلامي ومن الأخوة الشباب والعاملين والمخلصين.

كما أنني أتوجه بالشكر إلى معالي رئيس الندوة الشيخ / حسن بن عبد الله آل الشيخ، لما لقيته من سماحته وتشجيعه وكريم خلقه، وكذلك إلى الأخ الدكتور / أحمد توتونجي ـ الأمين العام المساعد لما لقيته من تعاونه وتضحيته ودأبه، وكذلك إلى كافة الأخوة أعضاء مجلس الأمانة لما لقيته من

تفهمهم وتأييدهم وتعاونهم، فلم يكن بالإمكان إنجاز ما تم إنجازه دون جهودهم وما أحاطوني به من محبتهم وتأييدهم.

والله أسأل أن يجزيهم جميعاً خير الجزاء، وأن يحقق الآمال في خدمة الدين والأمة، وأن يأخذ بيد الندوة في مرحلتها الجديدة إلى مزيد من التوفيق والنجاح، وهو الهادي إلى سواء السبيل.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

ان واجب الوفاء يفرض علينا أن نسجل باسم « الندوة العالمية للشباب الإسلامي » تحية خالصة من الأعماق :

أولاً : لذكرى رائد التضامن الإسلامي الطيب الذكر، جلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز، فقد نبتت فكرة الندوة في عهده، واستمدت وجودها من رؤيته ودعمه ورعايته.

ثانياً : للعاهل السعودي ـ حامي الحرمين ـ جلالة الملك فهد بن عبد العزيز وولي عهده سمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز فقد أوليا ـ ولا يزالان ـ يوليان الندوة رعايتهما الكريمة لتؤدي رسالتها على أكمل وجه.

ثالثاً : لصاحب المعالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، رئيس الندوة، فقد منح الندوة وشباب الأمة ـ ولا يزال ـ خالص عنايته وتوجيهه وعظيم اهتمامه.

رابعاً : إلى سعادة الدكتور عبد الحميد أحمد أبو سليمان ـ وسعادة الدكتور أحمد باحفظ الله اللذين شغل كل منهما منصب الأمين العام للندوة في الفترة السابقة، وإلى الاخوة أعضاء مجلس الأمانة والقيادات الإسلامية، لما تحقق ويتحقق على أيديهم وبجهودهم من خير للندوة إن شاء الله تعالى.

والله ندعو أن يثيبهم ويثيب كل من أعان هذا العمل الإسلامي الخير وكل عمل إسلامي.. وافر المثوبة والجزاء.. إنه سميع مجيب الدعاء.

المحتويات

المجلّد الثاني